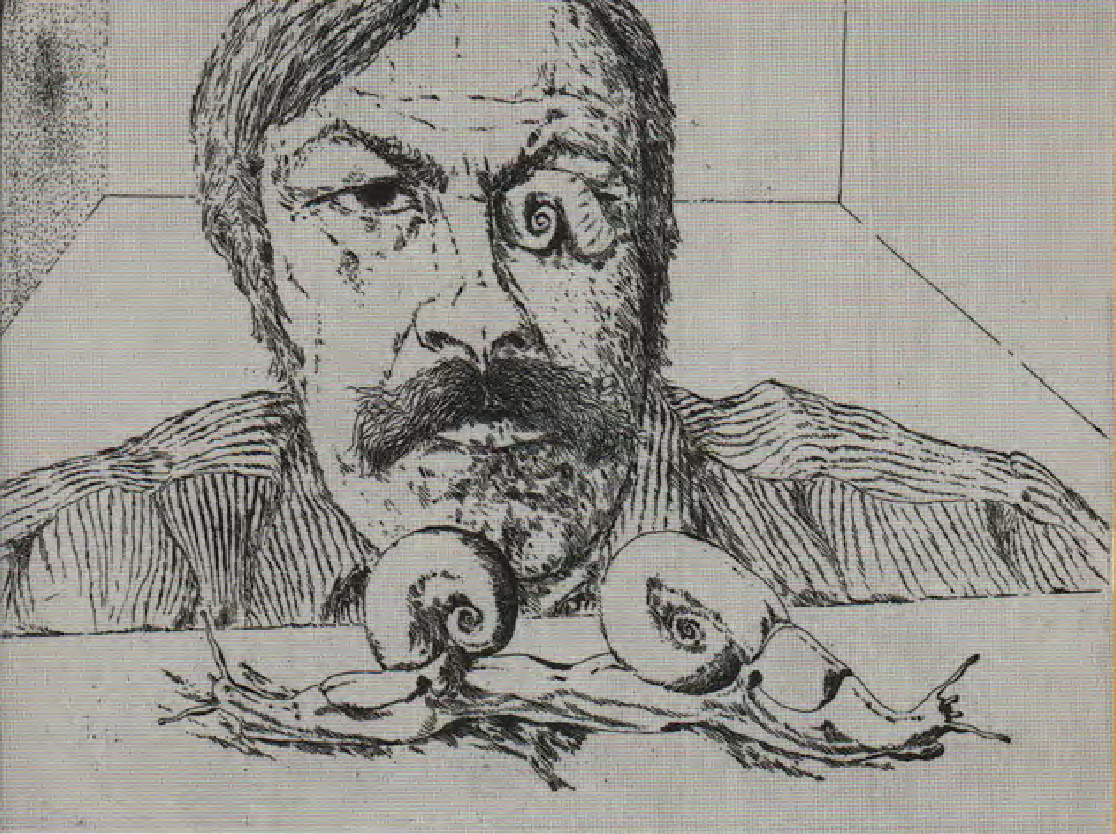


آداب

غونتر غراس

# ظلم الأقوى

## مقالات وخطب

اختيار وإعداد

د. عدنان عباس



ترجمة

محمد خلوق، د. عدنان عباس، عماد غانم، محمد مسعاد

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

EAST WEST PUBLISHING
شرق غرب للنشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:

**Selected Essays and Speeches by Günter Grass,**
**taken from the German original:**

**Günter Grass:**
**Essays und Reden.**

Band I (1955-1966), Werkausgabe Band 14
Band II (1970-1979), Werkausgabe Band 15
Band III (1980-1997), Werkausgabe Band 16

Band IV (1997-2007), als Einzelband auch unter «Steine wälzen»


غونتر غراس (مقالات وخطب سياسية)

ظلم الأقوى، مختارات من المقالات والخطب والرسائل المتبادلة
الناشر: دار شتايدل

غونتر غراس

# ظلم الأقوى

## مختارات من المقالات والخطب والرسائل المتبادلة

إعداد

الدكتور عدنان عباس

ترجمة

محمد خلوق - الدكتور عدنان عباس

عماد غانم - محمد مسعاد

تحرير

عبد الرحمن طهمازي والدكتور مالك المطلبي

تدقيق

مركز ديوان للترجمة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

EAST WEST PUBLISHING
شرق غرب للنشر

**الطبعة الأولى، 2009م**

ISBN: 978-9948-15-207-1

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae



EAST WEST PUBLISHING
شرق غرب للنشر

**International Media City**
**East West - Diwan Al Masar**
**Publishing House**
Building No. 02,
Second Floor,
Open Office No. 63
Dubai - United Arab Emirates

**مؤسسة شرق غرب ـ ديوان المسار للنشر**
مدينة الإعلام العالمية ـ البناية رقم ٢
الطابق الثاني ـ مكتب رقم ٦٣
دولة الإمارات العربية المتحدة ـ دبي

**التوزيع في العالم العربي:**
مكتبة ديوان
شارع الحمرا الرئيسي
بناية رسامني ـ ط ٥
لبنان - بيروت
eastwest@diwanalmasar.com
www.diwanalmasar.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت: نيل وفرات.كوم:
www.neelwafurat.com

لوحة الغلاف: **تنفيذ الكاتب غونتر غراس**

# رسالة مؤسسة محمد بن راشدآل مكتوم

عزيزي القارئ،

إن كان الحلم في حد ذاته أمراً مشروعاً، فإن الأكثر إلحاحاً في ظل التحديات التي تواجه واقعنا العربي، هو العمل على تحويل الحلم إلى مشروع حقيقي على الأرض. وإذا كان العصر الذي نعيش فيه يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ترى إلى الترجمة باعتبارها جسراً لاستيعاب المعارف العالمية واللحاق بالعصر.

لقد عبّر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي عن مدى الحاجة للتعامل العاجل مع مقتضيات العصر عندما قال: «إن أهم ما في الاقتصاد الجديد هو الفكرة التي تنفّذ في وقتها». وعليه فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم تعتقد بحزم أن إحياء حركة الترجمة العربية، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، هي فكرة حان وقتها، ولا يجوز تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية

مجتمعة لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص في العام الواحد، بينما تنتج دول منفردة في العالم من حولنا أضعاف هذا الرقم.

في ظل هذه المعطيات أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر ترجمة تلك الأعمال إلى العربية. ومن أهداف البرنامج أيضاً العمل على إبراز الوجه الحضاري للأمة عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية في خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد. وما الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، إلا دفقة في نهر معرفي نأمل أن يجري غزيراً ليروي الظمأ، ويسقي بساتين النهضة العلمية، وصولاً إلى التنمية الشاملة في الوطن العربي.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم على ثقة بأن هذا الكتاب سيكون بمثابة خطوة إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالتها الكلية، المتمثلة في تمكين الأجيال المقبلة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار النيّرة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، بالإضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني:
www.mbrfoundation.ae

**مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم**

**عن المؤسسة:**

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة شخصية من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي خصص للمبادرة وقفاً قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار). وجاء الإعلان عن تأسيسها في كلمة سموّه أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، الأردن في أيار/ مايو 2007.

تهدف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة نابعة من الواقع المحلي، للتعامل مع المشكلات التي تواجه مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا الهدف، حدد سموّه ثلاثة قطاعات استراتيجية لعمل المؤسسة، وهذه القطاعات هي: المعرفة والتعليم، والثقافة، وريادة الأعمال وفرص العمل.

# فهرس

# الباب الخلفي

يتضمّن هذا الكتاب أكثر من ستين مقالاً وخطاباً للروائي الشاعر الفنّان التشكيلي غونتر غراس، حامل جائزة نوبل للآداب عام 1999، وسنتجوّل معه، أو على نحو أدّق، سنجول معه في عالم قصيّ؛ يتوطنه الخيال، وعالم مفترض؛ يتوطّنه الفن، وعالم قريب؛ يتوطّنه الواقع. ثمّة مفتاحان رئيسان، قد يساعدان القارئ على الوصول إلى تلك الثروة البشرية، التي تسمّى عقل غونتر غراس وحلمه. إذ يبدو غونتر غراس، بعد عبور ملفّاته هذه، كما لو كان موكلاً بجميع قضايا البشرية؛ مآسيها وملاهيها. المفتاح الأول أن هذه المقالات والخطابات تمثّل حيوات مدفونة في مؤلفاته، أتى عليها مخاض الخلق الأدبي والفني، ومقتضيات بنائه داخل طرق ملتوية للاوعي، والكلّيات العميقة للرؤى التي تشحنه بالرموز الأولى التي خلّفها له الأسلاف الأول: «دونتُ رؤاي ودفنتها في مؤلفات».

الآن يعود غونتر غراس إلى يقظته، أمام الحشد، ليصوِّب كلماته على الأهداف المباشرة، لسد النقص البشري: يقاتل الجبهات المتناقضة؛ يضيف إلى قائمة أعدائه المتربّصين بلسانه وقلمه، الأصدقاء الذين يجمعهم به الحلم الأمميّ! وأصدقاء الحرية الذين لايجدون إلا المأساة المسمّاة بـ(الحرب)، طريقاً إلى رد

جرائم الاستعباد، والتطهير العرقي. غونتر غراس يُحسّ كما لو أنه يُقصي الجميع عن الحفلة البشرية، بدعوى أنه يدعو الجميع إلى تلك الحفلة، هذا ما يدعوه هو بـ عش الدبابير: «هل وضعتُ يدي في عش الدبابير؟» يتساءل غونتر غراس. يا لمأساة اليقظة! غونتر غراس يقتنع بضرورة استخدام القوّة العسكرية في كوسوفو، لوقف التطهير العرقي الصربي، لكن «تأييدي للحرب دام وقتاً قصيراً»، إنه يقف بين كلفة التطهير العرقي، وكلفة رد التطهير العرقي! إنه لايريد لكلتا الحركتين أن تبدآ لعبة الدم، غير أن الواقع يظهر لسانه للمفكّر، ويدفعه، أو كما لو أنه يدفعه، إلى مدفنه الأدبيّ، مرّة أخرى! ومرة أخرى يعبر المحيط ليبلغ جزيرة الأحلام (كوبا) حيث يتم السعي الحثيث لبناء نموذج العدل الإنساني، لكن ذلك لايمكن تحقيقه إلا بسلب الحرية، أو عدّها أمراً ثانويّاً في سلّم هذا النموذج. سلب الحرية يعني سلب العقل، وهو مركز التمويل في الخطاب الغراسيّ. وهكذا يُقبّل غونتر غراس كوبا من جبينها على عدلها المنشود (توزيع الثروة، وضمان حق العمل، والكفالة الصحيّة... إلخ) ويصفعها على خدّها لوجود خطوط الاستبداد على محيّا الثائر العادل! وبرغم أن الاستبداد في الرسالة الاشتراكية غير حاد، لكنه مخيف لغونتر غراس، القادم من الأرض التي نبتت عليها أعتى نظرية استبداد؛ انتهت بمحرقة كونيّة. على هذا النحو يطرح غونتر غراس من سجل اليسار دكتاتوريته، التي يغطيها اسم برّاق هو (البروليتاريا)، ويطرح من اليمين ظلمه؛ وسائله التي يعتذر عنها بغاياته، ليؤاخي، من ثَمَّ، بين الفريقين. أهذا ممّا يمكن وقوعه؟

ولأنه غير ممكن الوقوع أبداً، سيظل خطاب الروائيّ الشهير متمسّكاً بالوجه الآخر من هذا الجدل؛ نقد الفريقين: «اليساريون واليمينيون يضيقون ذرعًا بأي نقد يوجَّه إليهم». هذا هو الرابط الوحيد

الذي يجمع الشتات الإيديولوجي والحر؛ أنْ يُطاح بكلا الفريقين! لإيجاد فريق واحد؛ يمثّل وجهَي العملة الواحدة: الحرية والعدل، بحيث، كما يؤكد عالم اللغويات فردينان دي سوسير، أنّ تمزيق وجه الورقة سيمزق ظهرها، والعكس صحيح! هذا هو مأزق غونتر غراس، وعمق جرحه الإنسانيّ في آن: «لا توجد حقيقة واحدة، بل عدد من الحقائق»، وهذا صحيح كفكرة، ولكنها تظل فكرة غير قابلة للاختبار.

المفتاح الثاني: الماضي. في هذا الكتاب نجد غونتر غراس يتلفّت أكثر ممّا يتطلع، وإن تضمّن تلفّته كثيراً من التطلّع. كأنّ الماضي لا يعني ما يقول: «شيء مضى وانتهى». بل هو هويتنا التي تمنحنا المرور في الحاضر، والتطلّع إلى المستقبل، وفي هذه الهويّة ستدوّن جميع أعمالنا وأصواتنا وحروفنا. هل الماضي هو نحن في حال محاكمة أبدية؟ يبدو أن غونتر غراس يؤكّد هذا المعنى، بقوله: «نُقرّ أنَّ الماضي لا نهاية له، بل هو يريد أنْ يظل يلاحقنا». فهل فعل (نُقرّ) اعتراف بالذنوب، التي ربما تكون كبيرة تُدِين، أو صغيرة تقضّ المضاجع؟ لقد كان غونتر غراس يشاهد ويعيش الماضي المرير، اللاعقلاني، المهووس بالموت الجماعي، حيث تميد الأرض تحت قدميه جرّاء طرقات أحذية القطيع النازي، وهي تمارس لعبة الفناء الكوني فيه (كان غونتر غراس يُعَدُّ، شأن كل الفتيان، ليكون جزءاً يعمل تحت ظل أجنحة الفوهرر التي تغطّي كل من واتاه الحظ بأن يتظلل هناك!، ويعيش ويشاهد قدوم المحتلين المنقذين، من الشرق؛ حيث الوعد بجنة الطبقة العاملة، ومن الغرب، حيث الوعد بجنة الفرد المتفوّق! كيف فعل ذلك الماضي المركّب فعلته فيه؟ نجد الإجابة في الحاضر؛ المسمّى خطاب غونتر غراس، هل يتخلّى عن وطنه لصالح المحتلّين المحرِّرين، أم يتخلّى عن المحتلّين المحرِّرين،

لصالح وطنه، لكن وطنه ليس وطناً لانتمائه الروحيّ، بل وطن موسوم بجرائم إبادة الجنس، إن هذا الوسم سيدمغ، بالنازية، كل من يدافع عن الوطن بوجه المنقذين، الذين، هم، في النهاية، ليسوا سوى غرباء محتلّين، فإنْ استقبل هؤلاء الغرباء بكفين مصفقتين، فإنه سيُدمغ بخيانة الوطن لصالح محتلّيه! هذا هو المأزق الذي وجد حاضر غونتر غراس نفسه فيه. لتنشأ، من ثمّ، إجابته التوفيقية (المراوغة كما يسمّيها)، كلّما واجه الماضي: إننا محتَلون ومحرَّرون في آن، لكنه في الوقت ذاته، يحاول مواجهة الواقع، الذي ليس هو، في أعقاب انتهاء الحرب الكونية الثانية، سوى أنقاض تشير إلى بداية معجزة البناء، لكن الأنقاض ليست أنقاض شواخص المدنيّة فحسب، بل هي أنقاض الأفكار والأسئلة المنكفئة، ولهذا يأتي الماضي الدائم ليصوغ رأس الحاضر الذي يتكلم عليه. في رسالته إلى زميله الروائي الياباني كينز إبرو- أوي، الحاصل على جائزة نوبل للآداب[1] يكشف غونتر غراس عن أزمة الماضي الذي يمكن دفنه مع الأنقاض ولا يمكن دفنه مع الأنقاض! «في ألمانيا، الآن، نقاش مسكين وساذج: هل ينبغي الاحتفال في الثامن من أيار بصفته تأريخ انتهاء الحرب، أو بصفته يوم التحرير؟ أذكر أننا كنا في السنوات الأول، ما بعد الحرب، نتكلم بمراوغة على «الاندحار»، وكنا نريد تحويل نهاية الرعب ـ التي لم نحصل عليها إلا بقوة السلاح - إلى «ساعة الصفر»، كما لو أنه لم يكن علينا سوى إزالة الأنقاض، كما لو أننا ماكان بإمكاننا الخروج من كل هذا بلا عقاب أو عاقبة...

ألمانيا عملاق اقتصادي، فهل يمكن أن تكون ألمانيا قد ربحت

---

(1) ينظر كتاب (حفريات في اللاوعي المهمل) للدكتور مالك المطلبي، الصادر عام 2006 عن ديوان شرق غرب - بغداد.

الحرب في نهاية المطاف رغم كل شيء؟ من المؤكد أن السؤال غير معقول...».

هكذا يجول غونتر غراس في كل بقاع العالم، وقد استخرج مدفوناته من أرضه الأدبية، ليواجه كل من يعنيه الأمر؛ الدول، وقواها البوليسية، حركات العمال والطلاب، محاجر البرلمانيين وألسنتهم، اليساريين، واليمينيين، مخيّطي الأفواه، ومتجرّعي رشفات الحرية بالملعقة، البربريين المتطرّفين، واللبراليين الواثقين من الجمع بين الأضداد، عواصم الحرية، وهراواتها الغليظة، المحرِّر والمحتل، كل ذاك يأتي من أنقاض الماضي الموارب في برلين ما بعد سقوط جدارها، أو في مدافن الأدب: (الطبل الصفيح، وقط وفأر، وأعوام الكلاب، ومن مذكرات حلزون، وبنج موضعي، وسمكة موسى... إلخ).

لقد بذلنا، المفكّر العراقي عبد الرحمن طهمازي، وأنا، كل جهد ممكن لتكريس المواءمة التي أرسى قواعدها المترجم، في مراجعتنا، بين ما هو توصيليٌّ؛ يتعلّق بالقارئ، وما هو تعبيريٌّ؛ يتعلّق بالمؤلف. ولا ندّعي فضلاً بهذه المراجعة، لأن الفضل يعود، في المقام الأول، إلى ذلك الأديب الخلاّق، الذي جعل (سمكة موسى) تنام تحت مخداتنا، وإلى مترجميه الذين سبروا تلك الأغوار البعيدة.

**د. مالك المطلبي**

بغداد 2009

## قدرة الأدب على التوقع لا تعني بالضرورة قدرته على التأثير في ما سيحدث

ليس من السهل وضع مقدمة لكتاب من هذا الحجم، ولكاتب من طينة صاحب نوبل للآداب، غونتر غراس. فهذا الكتاب، الذي تضعه اليوم دار النشر (المسار) بين يدي القارئ العربي، هو عبارة عن مجموعة من الخطب والمقالات والشهادات، كتبها غراس على امتداد فترة زمنية في غاية الأهمية من القرن الماضي، تمتد من أواسط عقد الخمسينيات إلى أواخر الثمانينيات.

ولا تخفى أهمية هذه الحقبة في التاريخ الإنساني الحديث، سيما أنه لم يمض سوى عقد من الزمن على انتهاء الحرب العالمية الثانية، وما خلفته من دمار في بلد الكاتب نفسه، خاصّة، وهي الحرب التي فتحت الأبواب على مصاريعها أمام حرب أخرى اندلعت بأدوات مغايرة؛ أطلق عليها «الحرب الباردة» كانت تدور رحاها في كل دول المعمورة، من دون أن ننسى حركات التحرير التي كانت، حينذاك، تناضل، في كل القارات، من أجل الاستقلال والانعتاق من نير الاستعمار الغربي.

في خضم هذه الظروف، وما فرضته من أجواء على السياسة العالمية، كان حضور المثقفين فاعلاً ومؤثرًا في مجريات الأحداث

وتوجيهها، تارة بفهم دوافع الصراع، وتارة أخرى برفضه، والانحياز إلى القضايا العادلة. كان الأدب، إذن، على وجه التحديد، متفاعلاً بشكل عميق مع ملابسات المرحلة، ومن ثم، يكتسي هذا الكتاب أهميته التأريخية والإبستيمولوجية. ليس فقط لأنه يتواشج مع تلك الفترة الزمنية، بالغة الأهمية، سواء على صعيد ألمانيا ــ التي وجدت نفسها ضحية إيديولوجية نازية عانتها جغرافياً وتاريخياً ونفسياً وثقافياً - أو على الصعيد العالمي، بل لأنه يؤرّخ لها.

يتيح هذا الكتاب، للقارئ العربي، اكتشاف غونتر غراس، مثقفًا وكاتبًا متعدد الأوجه، وواحدًا من كبار مثقّفي ألمانيا الذين تركوا بصماتهم واضحة في الحياة الثقافية لألمانيا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، مثقف جريء، لا يجهر برأيه في قضايا بلده فحسب، بل في كل القضايا التي تلامس هموم الإنسان في كل مكان. تراه، تارة، محللاً سياسياً يستكنه مفردات المشهد السياسي، وتداعياته على الإنسان الألماني، الذي كان يعيش ممزقا بين شطرين؛ فرقت بينهما الإيديولوجيا، وتارة أخرى مناضلاً سياسياً، منخرطاً في الفعل السياسي، يدعو إلى التصويت على مرشحي الحزب الاشتراكي الديموقراطي، إخلاصًا ووفاء لخط الاشتراكية الديموقراطية ولشخصية فلي برانت، الذي ربطته به علاقة صداقة كبيرة منذ كان حاكماً لبرلين إلى أن انتخب مستشاراً لألمانيا.

وهنا، لا بد من الإشارة إلى أن ارتباط صاحب جائزة نوبل للآداب بهذا الخط السياسي وإيمانه القوي بأن الديموقراطية مسار يتطور مع تطور المجتمعات، هو الذي جعله يقف متوجساً من الثورات، مشككاً في نجاعتها، فالثورة، في نظر غراس، لن تجلب إلا الويلات والخراب للمجتمع.

في هذا السياق، سيفهم القارئ مواقفه مما سمي بـ«ثورة 68» في الأدب السياسي في ألمانيا، أو نظيراتها في بعض مجتمعات أوروبا الشرقية، وبقية دول المعمورة، خلال نهاية الستينيات. كان غراس يقول – كما جاء في إحدى شهاداته التي يتضمنها هذا الكتاب ـ «أولاً، وقبل كل شيء، أخبركم بأنني من معارضي الثورة. أنا أخجل من كل الضحايا... أنا أخجل من أسلوب تنفيذ أهدافها اللاإنسانية، من مطالبها المطلقة ومن عدم التسامح اللاإنساني. إنني أخشى ميكانيزمات الثورة التي تخترع كإكسير ضد أعداء الثورة الدائمين».

والكتاب هو أيضاً مناسبة للقارئ العربي للتعرف، عن قرب، على آراء غراس، ليس في شؤون ألمانيا وحدها، ولكن أيضاً في السياسة الدولية، وما نتج عنها، أحياناً كثيرة، من ظلم يسمّيه هو نفسه بـ«ظلم الأقوى».

ولأن الفترة التي يغطيها الكتاب هي فترة شاهدة على فظاعة حرب فيتنام، فإن القارئ سيكتشف في الكاتب إنساناً ملتزماً بقضايا العدالة الاجتماعية والديمقراطية والسلم، وهو يتعرض لما خلّفته هذه الحرب غير العادلة على نفسيّته وعلى العالم الحر الذي يؤمن بالعدالة الاجتماعية. إضافة إلى ذلك هناك مقالات وشهادات تعبِّر عن مواقفه إزاء عدد من الأزمات التي عرفتها إفريقيا وأوروبا الشرقية ودول أخرى من المعمورة.

لقد آمن غراس بأن أوروبا تتحمل جزءًا كبيراً من المسؤولية في ما آلت إليه أوضاع الكرة الأرضية، إذ يقول: «نحن الأوروبيين، نبثّ الرعب أينما حللنا وارتحلنا، سواء تعلّق الأمر بالهند أو البيرو أو جافا أو شواطئ إفريقيا الذهبية. لذلك فأنا أرى أنه لا يمكننا الحديث

عـن أوروبا موحّدة وديمقراطية، إلاّ إذا أصبحت هذه الأخيرة، واعية بتاريخها الفظيع بإعلان مسؤوليتها الكاملة عمّا حدث».

كتـب غراس وقال الكثير ممّـا تحتفظ به الذاكرة، غير أن إحدى المحاورات الشهيرة والتاريخية التي جمعته ببيير بورديو، الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي، قبل وفاته، تشكّل إحدى اللقاءات المهمّة التي سـلّطت الضـوء على مواقفه مـن أوروبا، هذه الكتلـة الجغرافية التي تواجه مصيراً مشتركًا اليوم.

غيـر أن غـراس يبدو غيـر راضٍ عن هـذا التطوّر الذي تسـير فيـه أوروبا. وجـاء تعبيره عن ذلـك في مقالة له، موجـودة في ثنايا هـذا الكتاب، وكأنـه يتنبّأ بالأزمـة الاقتصادية التي تهزّ العالم منذ شـهور، لقـد كتب غـراس: «مؤكد أنكـم لاحظتـم أن أوروبا، بهذا الوضـع، لا تمثـل لي ذلـك الحلم المنشـود، بل حتى جزءًا يسـيراً منـه. إن مخاوفـي تزايـدت بسـبب اتجـاه الوضع نحو السـعي إلى تحقيـق أقصـى درجات الربح. لعـل الاختلال الراهـن في موازين القـوى، الـذي يرجّح كفـة الأجهـزة المركزية في بروكسـيل، على حسـاب البرلمـان الأوروبـي فـي ستراسـبورغ، لخيـر دليـل على حجم الخسـائر الكبرى التي سـتمسّ المكاسـب الديمقراطية، في ظـل الأربـاح الطائلة التـي يجلبهـا النظـام المعمول بـه. الاهتمام بتحسـين الوضـع الاقتصـادي فـي أوروبـا وإخضاعـه لمقتضيات السـوق، يهدد الأمـن الاجتماعـي، ويجعل من أزمـات البورصة، في ما يُعرف بالجمعة السـوداء، أمـرًا قابلا للحدوث. وهي أوروبا نفسـها التي تخلـق في نظره تواصلاً بين شـعوب مختلفة، وإن كان هذا التنوّع والانفتاح الثقافي لا تعكسـه التوجّهات السياسية للقارة الأوروبيـة.

تعكس شخصية غراس إنساناً متعدّد المشارب الفلسفية والثقافية، تتجاذبه اهتمامات مختلفة، فقد كتب المسرح والشعر والقصة والرواية، والمقالة السياسية، من دون أن ننسى الرسم الذي جعله، إلى جانب كونه كاتباً، يرغم الرسام فيه «على إمعان النظر، بل إعادة إمعان النظر في كل ما قد لا يلفت انتباهه من أول وهلة»، كل هذه المناحي جعلت من غونتر غراس، الأديب السياسي، ضميراً للأمة، ناطقاً بآلامها وبآمالها، منخرطاً في عمل استمر ما يزيد عن نصف قرن لإخراج العقلية الألمانية من براثن السلبية إلى مساحات إيجابية أوسع، أي من فكر الدمار، الذي خلّفته الحرب العالمية الثانية، إلى فكر الإعمار والثقة في المستقبل، وهو ما صرح به قائلاً: «هناك كلمة رنّانة واحدة تدفعني دوماً نحو الأمام؛ نضجت بفضل تميّز الفيلسوف إمانويل كانت، إنها المسؤولية التي تجعلني أستمر في عملي هذا، مسؤولية لن يستطيع أحد أن يأخذها، ولا أن ينتزعها مني، مسؤولية قلدني إياها التاريخ الألماني؛ تجاه كل أمر حاولت أن أساهم فيه حتى يومنا الحاضر، بل أيضاً، المسؤولية المستقبلية التي قد ينوء بحملها أبناؤنا وأحفادنا في قادم الأيام».

لم يؤمن غونتر غراس إلا بالأدب الواقعي الذي باستطاعته تغيير الواقع من خلال البناء الرزين والهادئ البعيد عن التهييج والاثارة، لنتأمّل هذه القولة التي تختصر نظرته للأدب «نجرؤ على القول: إنَّ الأدب، إذا ما أخذ على محمل الجد، فإنه لن يخضع في المستقبل لتأثيرات الثورة. وهناك بالفعل إشارات على بداية اهتمام الكتّاب، في الدول الاسكندنافية خاصّة، بإمكانات وحدود السياسة التنموية كطرف من سياسة السلام. حيث بدأ مصطلح «البحث في أمور السلم» يأخذ مكانه وقوّته ضمن الميزانية العامة. إن السلم، الذي

كان، ولا يـزال، حالة الاسـتثناء، يسـتدعي، وبشـكل دائم، وحسـب البحـوث العلميـة، حـلّ النزاعات، التـي نجمت عنها حـالات أزمة، بالوسائل السلمية».

لقـد عبّـر غونتـر غراس عـن إعجـاب كبيـر، كقـارئ، بالثقافة والأدب العربييـن، وينـمّ هـذا الإعجـاب عـن احتـرام عميـق، مـن كاتـب كبير، نحـو هذه الثقافة، وقد أكد غراس ذلك الإعجاب وهذا الاحتـرام بقوله حين سُـئل مرة، على هامش زيارتـه لليمن، عن رأيه فـي الأدب العربي بالقول: «لقد تسنّى لي أن أقـرأ بعض النصوص الأدبية العربية المترجمة إلى الألمانية، فاكتشفت كم نحن في حاجة إلى المزيد: ليس لأنه أدب آخر فحسـب، وإنما أيضاً لأنه أدب على كثير من الخلق والتنوّع والأهمية، ويعالج الموضوعات التي تشغلنا بعين أخرى».

ولـد الكاتب غونتر غراس في 16 أكتوبر- تشـرين الثاني 1927 في مدينة دانتسـيغ التـي اقتطعت من ألمانيا بعـد هزيمتها في الحرب العالميـة الثانيـة وضمّـت إلـى بولنـدا. أبدع في الشـعر وفـي القصة القصيرة والمسرح وفن المقالة، وإن اشتهر، على المستوى العالمي، بأعمالـه الروائية خاصـة «الطبل الصفيـح»، وهي واحدة مـن ثلاثيته المعروفة بـ«ثلاثية دانتسـيغ» التي تضم أيضاً الروايتين «القط والفأر» و«سنوات الكلاب».

وإذ نضـع هـذا العمل، بين يـدي القارئ، فإننا نتطلع إلى شـيء من الإحاطة بشـخصية غونتر غراس، الإنسـان والكاتب والسياسي، الـذي عارض الظلم والحروب، من حـرب الفيتنام إلى الحرب على العـراق، وهو الذي ذاق مرارة الحـرب وأهوالها في الحرب العالمية الثانية حين عمل كمسـاعد في سـلاح الطيران الألماني. وقد شكّلت

أعماله المتعددة في هذا الاتجاه شهادة على فظاعة الحرب، وأثارت سيرته الذاتية «أثناء تقشير البصل» جدلاً واسعاً لما تضمنته من اعترافات بانضمامه للوحدات الخاصة للجيش النازي.

حصل غراس في عام 1999 على جائزة نوبل للآداب عن أعماله التي أثرت الأدب العالمي، لقد آمن غراس بقدرة الأدب على التوقع، وفي الوقت نفسه، بمحدودية تأثيره في ما سيحدث.

**محمد مسعاد**

30 ديسمبر 2008

**(1966 - 1955)**

# المضمون كمقاومة

## 1957

يقول **كاندينسكي**: الشكل الحقيقي المتبلور يُعبر عن شكره بأنه هو المسؤول الوحيد عن المضمون. إنها جملة جميلة؛ جملة مُقنعة. جملة نحن مَدينون لها لوجود ورق جدران عليها نقوش صغيرة وكبيرة وكذلك حروف صغيرة وكبيرة، ، الجميع استوعبها؛ الرسّامون، والشعراء، ومعامل التعليب، ومكتشفو صناديق الموسيقى. وليسمح لنا صاحبها بنفضها بحيث تصبح على الشكل الآتي: «المضمون الحقيقي المتبلور يُعبر عن شكره بأنه هو المسؤول الوحيد عن الشكل. وبما أن قلب الجملة هذه أيضاً ليس صحيحاً بهذا الشكل لأنه لا يمكن الحديث عن الشكل والمضمون، وعن المضمون والشكل، في جملة واحدة. وتتصدّر هذه المبادئ، على كل حال الصفحة الأولى لكتالوغ معرض فني، أو كحكمة في الصفحة الأخيرة لمذكرة تقدمية. يجب هنا محاولة نشر عدم الثقة بين الكثير من علامات الترقيم؛ نعم زرع عدم الثقة بين الشكل والمضمون.

وهذا يعني عدّ الفضائل البشرية، إذا ما تم ذكر الأنشطة كواحدة تلو الأخرى، عبثيّة على رأي المثل: البصق في وجه الريح، والسباحة

ضد التيار، والجري ضد الجدار ووعظ الآذان الصمّاء. إن ذكر فضيلة أخرى يعني التذكير بالذين يعملون بجد ويكتبون ضد المضمون، ويرسمون، أو مثل مايلول، الذي كان عاماً بعد عام يعاين فتاة سمينة لمساعدة اليد التي تقوم بالتشكيل لتصميم صابونة الركبة بشكل واضح، وكذلك تصميم فقرة العنق بشكل لا يمكن أن يكتشفها سوى المختصّين بفقرات الرقبة...

إن المضمون هو المقاومة التي لا محال لها. هو حجة الشكل. الشكل أو الإحساس به عند المرء، يحمله كقنبلة في حقيبة، لا ينقصها سوى الصاعق. ـ فلنسمّيه قصة، حكاية خرافية، موضوعاً، مضموناً ـ من أجل التحضير لعملية طال الإعداد لها لتكون ألعاباً نارية عالية تتجلى، حينما يكون الجو صحواً؛ يرافقه انفجار تراه العين بعد ثوانٍ. إذ ـ وكل منفّذي العمليات، حتى ذوي الأصول الأدبية يوافقوني بذلك. إن الاحتفاظ بالصاعق أو بالمضمون في الحقيبة لمدة طويلة يعرّضه بسرعة وبعد فوات الأوان للتلف. وتتعرض العلاقة ما بين القنبلة والصاعق إلى خلل. بشكل مختصر يعني هذا إطلاق النار بالمدافع على العصافير، أو اصطياد الحيتان برشاش ماء. وهذا ما يُضحك المادة البديلة التي سنعلن عنها لاحقاً التي تخصّ الآلهة المرحة.

وبشكل عابر يجب أن نتكلم عن الذين يحتقرون الشكل، الذين يضعون المضمون على صدورهم، ولا يكتبون سوى عن الأشياء التي تثير حماستهم.

إن المضمون الحقيقي، المضمون الجامح، ذا الشكل الحلزوني، بالغ الحساسية والدقة صعب تتبع أثره وربطه، مع أنه غالباً ما يكون واضحاً ويعمل من دون كُلفة. تستغل المضامين بعضها

بعضاً، تتنكر، تتظاهر بالغباء، تُسمي نفسها بليدة. غير أنها تُحاول من خلال مُعالجة مخزية الإفلات من يد فنان. وإذا بحثت يد الفنان لفترة طويلة، تبقى الورقة فارغة أو تجد أشياء ليست بارعة. يتفوّه فم الفنان بشتم المضامين، ويتذكر رأس الفنان قدرته الشخصية والشكلية والنوعية. «ولا يهم المضمون بقدر ما يحظى الشكل بالأهمية، يزعج المضمون فقط من كونه توافق مع الجمهور، والفن يرغب في الشكل في حد ذاته. الفن لا وقت له. يجب تجاوز الزمن والمكان، لقد تم ذلك، فقط، في الشرق حيث لا يزالون مرتبطين بالواقعية الاشتراكية. أما نحن الفنانون أعداء المضمون نتحدث باسم الجمع ونحن سابقون لزمننا، فطيران أفكارنا يُحطّم يومياً ولأسباب الصنعة كل الأشكال المزعجة».

ما الذي لا يمكن القيام به إذا ما كان المرء يتوفر على تخييل؟ رؤى جديدة، وتشكيلات وبنيات ونواحي ونبرة. والكل لم يكن قائماً بعد. يكتشف الرسّامون مساحات (كأن رفائيل حفر ثقوباً على القماش) والشعراء يشيرون إلى لاوعيهم ويحلمون حتى ولو كان الأدب ذا جدوى، من دون خوف، إلى إلدورادو الاستعارات، التي تظهر تقليد الخلف، والأنكى من ذلك أنها تكون مسلوبة أمام هذا الحلم الذي يتبع التقليد بطريقة لا واعية. ومع ذلك يعبِّر عدد من المضامين عن امتعاضها وظاهرة للعيان وتستحي من هذا المضمون ذاته.

# حول كتابة الشعر

**1958**

أحاول في قصائدي عن طريق واقعية صارمة تحرير المواضيع الملموسة من كل الإيديولوجيات، بتفكيكها وإعادة بنائها وصوغها في أشكال يكون من الصعوبة المحافظة على ماء وجهها، حيث عليّ أن أهزأ ضاحكاً من الاحتفالات، لأن حاملي الجثث عليهم سمات الجد، أكثر من الاعتقاد بأنهم جزء من هذا المشهد.

مراراً تحضرني مهنتي الأخرى وذلك بسبر أغوار موضوع ثابت والإحاطة به من كل الزوايا. عندئذ تبدأ عملية تدوين القصيدة. ويظهر لي أن وظيفة صُنع الأبيات هو الوضوح وليس الغموض، غير أنه ومن وقت إلى آخر يجب إطفاء الضوء هنيهة كي يظهر المصباح متجدداً.

# قصيدة المناسبة، أو كما قال بيكاسو، ما يزال الحديث ممنوعا مع الكابتن

محاضرة ألقيت في ورشة «الشعر اليوم» في برلين، 1960

لو كان مسموحاً التكلم بضع دقائق فقط لسُمح التعميم. لذلك جاء ما يلي في بداية الجملة: كل قصيدة جيدة هي قصيدة مناسبة، وكل قصيدة سيّئة هي قصيدة مناسبة. فقط ما يُسمى بقصائد الاختبار هي التي تكون في الوسط: لا يمكن أن تكون جيدة تماماً ولا سيّئة تماماً، ولكنها تكون موهوبة ومهمة دائماً.

الذي يدّعي أمامكم هذا القول ينتمي هو نفسه إلى شعراء المناسبة، وما يغضبه هم الشعراء الذين يتأخرون عن تجاربهم. أسياد مختبرات الحلم، أسياد الموجزات الغنية من القواميس، أسياد ـ وقد يكنّ سيدات أيضاً ـ يشتغلون من الصباح الباكر إلى وقت متأخر باللغة وأدواتها، كثيرو الكلام ويسكنون كمستأجرين قريبون دائماً من الصمت، لا يكلّون عن البحث ويسمّون قصائدهم نصوصاً ويرفضون لقب الشعراء. غير أنني لا أعرف كيف سيكون مصيرهم ـ فلنقل ـ من دون مناسبة ومن دون ملكة الشعر.

في الوقت الذي يكون فيه باستطاعة شاعر المختبر وصف

مناهجه وغالباً على شكل مقالات، يصعب على شاعر المناسبة أن يعطي توضيحات جادة لمناهجه. وهكذا أقول باعتباري شاعر مناسبة بامتياز، إنه بمجرد أن ينتابني شعور بأن قصيدة ما معلّقة في الهواء، فسأتجنّب جهد المستطاع أكل البُقُول، وسأستعمل سيارة الأجرة حتى لو كلّفني ذلك غالياً من أجل التقاط تلك القصيدة المعلّقة في الهواء. وسيكتفي شاعر المختبر بالتعليق ساخراً من كوني رجعي وذا طريقة تفكير قديمة يؤمن بتأثير البُقُول والتنقّل بسيارة الأجرة وكذلك بالفردية. لأن أي شاعر المختبر باستخدامه الكلمات المكتوبة بأحرف صغيرة بشكل جذري وباستهلاكه لكل الكلمات الأساسية ـ بينما زميله لايستهلك سوى الكلمات الظرفية ـ قد تحرّر منها منذ مدة وقبل هـ. و. ي.

غير أنه بامكاني أن أشي ببعض خدع شاعر المناسبة، لأن الأمر لا يتعلّق بأسرار مختبرية، هذا يعني أنها عملية محاكاة، وهذا ما يجعلني أن أكون مخلصاً. ولأن مناسبتي ليست مناسبات شعراء المناسبة الآخرين.

حين تكون قصيدة معلّقة في الهواء، وينتابني الشعور بأن وحي الفن سينزل عليَّ بخمسة مقاطع شعرية أو ثلاثة أبيات، لن ينفعني لا التخلي على أكل البقول ولا الإفراط في ركوب سيارة الأجرة. فقط شراء سمك الرنجة الأخضر يساعدني، أنظّفها وأقليها وأضعها في الخل، وأرفض دعوات الذين يرغبون في الحديث عن الموسيقى الإلكترونية، بدل ذلك زيارة الحفلات حيث الأساتذة يدبّرون الدسائس ويشاركون فيها، لا سمح الله العودة بسيارة الأجرة لكن بحزم النوم من دون مخدات، من دون شك لا تلعب هذه الطريقة دائماً دوراً مساعداً. لمرة واحدة يجب أن أعترف أن الذي ساعدني هو العودة الصارخة من حيث انطلقنا ـ اشتريت نصف رأس خنزير

وصنعت منه لحماً مُجمداً بالهُلام، وتحدثت مع الناس حول الموسيقى الإلكترونية، وتجنّبت الأساتذة الجامعيين ودسائسهم، وعُدت بجسارة إلى البيت بسيارة الأجرة، ونمت على مخدتين - إلى خمسة مقاطع لثلاثة أبيات شعرية التي شكّلت جزءاً من التاريخ الأدبي.

وبما أني كلّي أمل أنه باستطاعتكم تعقّب شروحي البسيطة هذه، أسرُّ إليكم طريقة كتابتي القصيدة الرباعية. إنها قصيدة المناسابات الأولى المثالية. هناك في البداية دائماً حدث ما، لا ينبغي أن يكون حدثاً كبيراً بالضرورة. هكذا ذهبت إلى الخياط لأخذ المقاسات لخياطة بدلة. يحصل الخياط على المقاس ويسألني: «هل تلبس باليمين أم باليسار؟» فأجيبه منافقاً يساراً. لم أكد مغادرة الخياط حتى كنت سعيداً أنه لم يكتشف كذبي. لقد استشفيت ذلك واعترفت: كانت هناك قصيدة وإذا لم تخنّي الذاكرة قصيدة رباعية معلّقة في الهواء. كانت هناك حاجة إلى أربعة أسابيع تقريباً حتى تتجمّع الغيوم، لتحين ولادة الرباعية. أحصل على البدلة وأجدها جيدة على الرغم من عدم صحة المعطيات التي قدمتها، ويمكن القول إن الكذب أصبح من دون أهمية تذكر. يجب عليَّ دائماً القيام بما أقوم به فقط قبل ولادة قصيدة رباعية، مثل مراسلة صديق كان مُديناً لي بعشرين مارك قبل سنوات ثمان. أكتب إنذار الدفع على بطاقة بريدية رباعية الشكل:

الكذب
كتفه الأيمن مُعلّق
يقول خياطي.
لأنني أحمل محفظتي المدرسية على اليمين
أقول ويحمرّ وجهي.

يجب أن أعترف أنه لا يمكن نعت هذه الرباعية بالقصيدة الحديثة. حتى لو كنت راضياً بأنني تقليدي وأنني مُزوّد فقط بأبعاد عادية، وعليَّ انتظار المناسبة، ورغم ذلك أحسُد على الخصوص إذا كانت قصيدة ما بطريقة غير مباشرة بالقرب منّي معلّقة في الهواء وألتقطها عن غير قصد، كما يفعل شاعر المختبر الذي لا يستطيع الانتظار من مناسبة إلى أخرى، والذي ليس باستطاعته كما هو الشأن بالنسبة لي المشي نزولاً بحذاء فيه حبة بازلاء غير مُقشرة، ثلاث مرات في الأسبوع، من شارع هوهن تسولرن دام حتى النهاية المرّة. لأن المشي بحبة بازلاء غير مُقشرة يبعث السرور بآلهة الفن والتي تُنعش مناسباتي.

يجلس شاعر المختبر بحذائه الصغير من دون حبّة بازلاء في مختبره أبداً. يتناول ماكس بينزه الجذاذات، ويعرف كيف يتصرّف دائماً مع أدوات اللغة. ويهزأ بكل المناسبات، يقوم بهذا بكل جدية بنوع من النقد الذاتي، ويعرف حقاً ما قام به بعد يوم كامل من العمل المتواصل. لقد قام بتجاربه، وفي اليوم التالي يواصل تجاربه.

بشيء من الغيرة لا بد من الاعتراف بالشكر لشاعر المختبر، فهو يجنّبني العمل، وعن طريق محاولاته التي أتأملها في فترات الاستراحة بين مناسبة وأخرى. إنه بكل تأكيد شاعر المختبر الذي استعمل ثمرة مجهوده دائماً، إذا ما أسأت فهمها.

بعد هذا القول يمكن التأكيد على أن شاعر المناسبة غير بعيد من طرق العمل كلها. وأستطيع أيضاً الحديث عن مناسبات لم تقع بخلد شاعر المناسبة إلى الصمت شهوراً طويلة إذا لم تكن قصائد ما معلقة في الهواء، يظل صامتاً، فهو يسكن قريباً مما يجلّ عن الوصف، قريباً من الصمت.

## من يصل إلى مستوانا؟

**أُلقيت لمناسبة انعقاد مؤتمر الكتّاب في برلين الشرقية، 1961**

بادئ بدء شيء مُسرّ ومُلزم. لقد تكوّنت لديَّ قناعة من استماعي لعدد من المداخلات أن هذه البلاد ألمانيا، قد تكون مقسّمة سياسياً، غير أن اللغة فيها ظلّت كالمشترَك. تعابير من قبيل «الفن الواقعي» و«الفن الحقيقي» و«الثقافة الحقيقية» و«الاعتقاد بهذا» و«نحن فخورون بـ» و«الإنسانية» يمكن تداولها أيضاً في ألمانيا الغربية سواء في لقاء مُعلمي الثانوي أو في نقاشات الشباب الكاثوليكي.

أودّ أن أجيب عن التساؤل الذي طرحه السيد بينتسين وزير الثقافة. لقد سأل السيد بينتسين بعد أن مدح إنجازات هذه الدولة في المجال الثقافي: «من الذي يستطيع أن يمدّنا بالماء؟». بإمكاني الإجابة عن هذا التساؤل بطريقة ملموسة خلال ذكر بعض الأسماء. اسمحوا للقرّاء في هذا البلد بالانفتاح على موزيل وكافكا وكتّاب ألمانيا الغربية والكتّاب الفرنسيين، لا يهم إلى أي مدرسة أدبية ينتمون ولا بأي شكل فني يكتبون، وستلاحظون أنه بمقدور الكتّاب في ألمانيا الغربية وفي فرنسا وفي إنكلترا مدّكم بالماء.

والآن أودّ أن أجيب السيد كانط بشكل مباشر، وسأبدأ بعبارة قال فيها: «إن أوفه جونسون يريد أن يمسح ألمانيا الشرقية». إنني

أعرفـه فهـو يقطن فـي برلين الغربيـة وألتقيه كثيـراً، وأنـا على اطلاع كبيـر بكتابه وكيفية وصوله إلى برلين الغربية. كان مجبراً على مغادرة الجمهوريـة، لأنه حرم مـن إمكانية العمل. لقد عـرض كتاباً على دار النشـر أوف باو فلم يلقَ الترحاب. وحُرِم من كل مورد رزق وممّا هو متـاح في ألمانيا الشـرقية. لـم يعد بإمكانه أن يكتـب كتابة نقدية حول أي كتـاب أو الترجمـة، كان عليـه أن يغادر البلد. لـم يغادر من طريق اللجـوء بل إنه وكمـا يقول: «نقل مقر سـكناه إلى برليـن الغربية». ما الذي قام به حتى يُجبر على مغادرة البلد؟

كتـب مـن حيث كونه ماركسـياً ومـا زال كتاباً على شـكل أدبي مشـروع ـ يمكن للمرء مناقشته، وطبيعي أن تكون هناك مقاطع جيدة وأخـرى سـيّئة ـ كتاباً صدامياً عـن أوضاع العمّال والنـاس في ألمانيا الشرقية وعلاقة الدولة بهم.

لقد تناول أشـياء تُعتبر في الواقع شـرطاً للسـرد. لقد كتب كتابه بأسـلوب اسـتعارة في غايـة الأهمية متأثـراً بفولكنر. لمـاذا لا يمكن لـه أن يتأثـر، نحن جميعاً لنا آباؤنا. أظهرت التطـورات المتواصلة أن أوفه جونسـون ترجم في أثناء إقامته في ألمانيا الشـرقية كتاب ميلفيل «إسـرائيل بوتر» ونُشـر في مختارات ديتريش من دون اسم المترجم، ليس لدي كلمات لأقولها في هذا الصدد، إنها القذارة.

الآن فـي مـا يخـص كلمة السـيد كانـط ـ وهي كلمـة مبالغة في الديماغوجيـة ـ والتـي حـاول فيهـا أن يحـوّر كلام أنسينسـبيرغر ـ تحـدث كانـط في التهيّؤ للحـرب الأهلية، وهو يحـذّر من ذلك. غير أن أنسينسـبيرغر في نظر كانط يرى هذا الاسـتعداد في ألمانيا الغربية فقط. أنا أعتقد أنه لو كان أنسينسبيرغر موجوداً هنا لتحدث عن وجود هذه الإمكانية أو انعدامها في البلدين معاً. والشيء نفسه أستطيع قوله

مـع فالسـر. عندما يرى فالسـر أن الكاتب قد جُرّد مـن مكانته ليصبح شـخصاً هامشـياً، مثـل أصيـص النبات هنـا علـى المنصّة، فـإن هذا الكاتب قد جُرّد في ألمانيا الغربية وكذلك هنا.

أما خاتمة قول السيد كانط التي أشار فيها إلى ضرورة فتح طريق جديدة، وضرورة الحوار بيننا، فأنا أشيد بهذه الدعوة. وعلينا الآن أن نقتـرح طرائـق ما لفتح هذا الحوار. كيف يمكـن لنا الوصول إلى هذا الحـوار على الرغـم من المواقف المتناقضة؟ بالنسـبة لـي، لا توجد دولـة يجب عليَّ الوقوف وراءها أو أمامها. إن الديموقراطية بالنسـبة لـي هـي عالم أعيش به وأحبّـذه، لكنني أعتبره أيضـاً موضوع خلاف وخطير. هـذه هي طبيعـة الديموقراطية كما أراها. هـذه الديمقراطية هـي التي تسـمح لي بتأليف الكتب ونشـرها. لا يوجـد كتاب من بين مؤلفاتي يمكن لي نشره في هذه الدولة، وهو الأمر نفسه لزملائي.

ما الذي ينقص هذه الدولة في نظري؟ شـاعر مثل أنسينسـبيرغر غير مسـموح له بفتح فمه هنا، لو كان مواطناً في ألمانيا الشـرقية. من الطبيعـي أن زيـارة قصيرة إلى لايبزغ أو يينا مسـموح بهـا مع إمكانية الاسـتقبال بالـورود وإلقاء كلمة، ولعب مسـرحية العيش المشـترك، ويمكن تبادل الزيارات، لكن كل شيء يبقى من دون التزام.

أفسحوا للأعمال، إمنحوا الكتّاب حرية الكلمةّ! أعطوا الشخص مثل أنسينسـبيرغر في بلدكم الحرية التـي تتوافر له في ألمانيا الغربية، رغم أن هذه الحرية مُهدّدة. وهي هنا ليسـت موجودة. بهذه الكلمات أختم كلمتي هذه.

## وقائع سبقت وتلت المأساة التي أحاطت بشخصية كوريولانوس
## بحسب ما رواه عنه ليفيوس وبلوتارك وشكسبير وبريشت وكاتب هذه السطور

**كلمة ألقيت بمناسبة مرور 400 عام على ولادة شكسبير في أكاديمية الفنون في برلين، 1964**

لنفترض: أنه كان موجوداً هكذا، بلحية مدببة وبالأقراط، كما هو الحال على صورة شاندو الشخصية. ولنفترض، أيضاً، أن النزاع داخل بيت الزوجي، أو المشاجرة أثناء الصيد، كان سبب طرده من ستراتفورد، وذهب إلى لندن حيث كتب هناك أعماله الكاملة، كما تقرّ أغلفة الكتب أكثر من ثلاثين قطعة مسرحية؛ شُخصت كلها على خشبة المسرح. من يرغب بإمكان أن يتخيّله في دور امرأة تتقمّص دور غونيريل أو دور كورديليا؟ غير أننا نعلم، بالضبط، أن مسرح غلوب تعرّض فعلاً لحريق في 29 يونيو 1613 بعد رجوعه إلى ستراتفورد. اعتباره هو الذي أشعل الحريق، وكونه حرص على محو آثار ذلك، أفضل عندي من تشريف الملكة إليزابيت ككاتبة حقيقية لمسرحياته، لا سيّما أن الكونت فرانسيس باكون، أو غراف

ساوثامبتون، قد يكونان قاما بصياغتها. من لا يجد متعة في انتشار وتصوّر نوادر على نحو معقول ولكونه صديقه ومنافسه بنجونسون الذي أغرقه في حانة حرية البحر بالمشورة، على سبيل المثال، لا يجوز له أن يتبع كل معركة بسلاسة التفكير في الفن. إن بنجونسون الذي يدعوه في إحدى القصائد الحائزة على جائزة باسم « شكسبير الوديع»، ومع ذلك، لا يريد تصديقه في كون أن بومن تقع على البحر. وقد اغتاله سنة 1616 بعد إفراط في الشرب؟ وعلى العكس نعلم تماماً أنه أوصى لزوجته بسريره الثاني المفضل لديه. أقل من هذا على وجه التحديد هو أنه وُلد كما البشر العاديين في 23 نيسان/ أبريل 1564 وكتب سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين، ولربما، فقط، واحداً وعشرين قطعة مسرحية. وتعلّم من مارلو، ناشه، وغرين. مؤرخه الخاص هو هولينشيد، والإغريقي بلوتارخ.

الزملاء الأحياء والميّتون أعاروه مسودات القطع المسرحية، ومشاهد بأكملها. لقد استلهم من كيد المادة ومن مونتين الأفكار. في حين أن فالستاف والمتشدّد مالفيو؛ أطفال فكره الذين يتوفرون، تربوياً، على آباء آخرين. ولأنه من دون مسرحية مارلو «يهود مالطا» لن يكن اليوم لـ«تاجر البندقية» وجود. الأخذ والعطاء كان السائد. هذه الممارسة يجب أن تؤسّس لمدارس نظرية، فجميع المواد حرّة؛ والمنازل العادية ترغب في الالتصاق بأصحابها، ولكن الملكية الفكرية هي خارج الحماية القانونية. بهذا المعنى فإن لبرتولت بريشت أشياء مشتركة مع وليام شكسبير، فهناك مؤهلات إلى جانب الوجود الكلاسيكي كالتراخي في المسائل الأساسية للملكية الفكرية. قال بريشت للناقد كير الذي يؤكد على الملكية الفكرية: «بالطبع، كل ذروة الأدب تقوم نسبياً على قوّة وبراءة الانتحال».

ولكـن ليـس من السـهل السـرقة، وإعـادة تحريـره، فهـي أكثر صعوبة، غير أن بريشت أثبت ذلك بإشارة خفيفة لمارلو ولينز، حينما عبَّـر عن ذلك، بطريقة مناسـبة، عـن «مأسـاة كوريولانوس» كغرض تعليمي، إذ وقفت حماية الله ضد السرقات الملكية الفكرية.

في كتابي حول شكسـبير تضمّنـت المقدمة ما يأتي: «إن القطعة سـتقدم ميزاتـه النـادرة المناهضـة للديمقراطيـة». حول هـذا وحول هـذا الاتجـاه يجـب أن تـدور كلمتـي اليـوم: مـا قبـل ـ وبعد مأسـاة كوريولانوس، من ليفيوس وبلوتارش مروراً بشيكسـبير، وصولاً إلى بريشت وأنا ـ فالتجاسر سيدلي بدلوه.

لما بلغ شكسـبير التسـعة عشـر عاماً ظهرت في لنـدن الترجمة الإنكليزيـة لبلوتـارخ. ولقـد أخـذت منـه حيـاة الأبطـال الرومانيين أسـطورة مأسـاة كوريولانـوس. ولأن أخطـاء الترجمة اسـتقرت في مسـرحيته، بـان أنه لـم يقـرأ النص اليونانـي. انتقل، بعدها، بسـنوات قليلة، إلى لندن وانتقل معه أبطال الحياة الرومانية.

هذه هي الأسـطورة القاسـية: في روما تريـد العامة أن تثور ضد النبـلاء. لقد كان سـعر الحبوب وكايوس ماركيـوس الذي أصبح في مـا بعد كوريولانوس جور عليهم ـ لأن الحرب نشـبت مع الشـعوب المجاورة، ومن أجل كسـب العامة خدمة للحرب. تم إحياء مجالس شـعبية لتقديـم مطالـب الشـعب أمام مجلس الشـيوخ. وهكـذا ظهر العامـة، في أثناء الحـرب، جبنـاء وطمّاعين وأعداء للشـعب، وظهر عـدوّ الشـعب كايـو ماركيـوس كبطـل نبيـل يرفـض كل غنيمـة. إن جرأته وشـجاعته سـاعدت الرومان في احتلال مدينة كوريولي، هذه المدينـة التـي منحته الاسـم الشـرفي كوريولانوس. وحيـن عاد إلى رومـا احتفل بـه العامة الذين كانـو أعداءه، بل إنهـم يريدونه كقنصل

يسـخر منهم، ويعاملهم معاملة سـيّئة. غير أن دسيسة وكيلـيَ الشعب وعـزة كوريولانوس حالت دون انتخابـه: إذ إن العامة والنبلاء يقفون موقف العداء بعضهم لبعض، فشـتائم كوريولانـوس أدّت إلى تبادل اللكمات ولا يسـتطيع النبلاء الآن حمايته، لذلك غادر روما مطروداً مـن الشـعب ليلتجئ إلى الأعـداء الذين احتضنـوه كمنتصر نكاية في رومـا. مهـدّداً مدينـة الآباء بمسـاعدة جيـش فولسـكر. ولأن لا أحد مـن أصدقائه النبـلاء بإمكانه إقناعه بالعدول عـن فكرته، غادرت أمه المدينة متّجهة إلى معسكر جيش فولسكر، لتتحدث إليه، الأمر الذي دفعه إلى التراجع، فهو، بسـبب أمه، غير قادر على خيانة الوطن، غير أنـه أصبح خائناً لرفقائه الجدد، وهكذا تـم اغتياله. لكن الذين قتلوه، قادة فولسكر، كانوا يكنّون له كل احترام ويحتفلون بذكراه.

في حكاية كوريولانوس اختصرت أحداث آخر أيام الملك إلى زمن حرب النصر. ويحدث كل شيء في عصرنا كما حدث قبل 500 سـنة تقريباً. وكأن اسـتخدام المجالس الشـعبية عنـد ليفيوس كتطور بطيء وتلقائي، ووفقاً لمومزن تنبثق الأسطورة من رغبة شخصين من العامة للفت الأنظار إلى أجدادهم القدماء. هذان الشخصان فولومنيا وفيتوريـا ينحدران ـ حسـب ليفيوس ـ من زوجـة وأم كوريولانوس. إن شكسـبير لا يترك مجالاً لمعرفة هذا كله، بالنسـبة له يواجه النبلاء القدماء العامة عديمي الملامح بدون أي علاقة قرابة في ما بينهما.

هذه المأساة تكاد تشلّ أي محاولة في اتجاه الجفاء، ولقد صرح هاينـرش هاينه بخصـوص «كوريولانوس» قائـلاً: «ينبغي للمرء، في بعض الأحيان، الاعتقاد بأن شكسـبير شـاعر معاصـر يعيش في لندن اليوم تحت أقنعة رومانية، وأنه يريد تصوير المحافظين والراديكاليين الحاليين».

الانعكاسات المماثلة للأوضاع الحالية ستجعل، دائماً، هذه القطعة المسرحية محبوبة. لأنه حين كتابتها وقفت جميع الأطراف، ضد بعضها البعض؛ العامة والنبلاء، المحافظون والراديكاليون في شوارع لندن. لقد استطاع الانقساميون الجدد والمتمرّدون التعريف بالجزيرة في العالم، لأنه، مع انهيار الأرمادا كانت بداية القرن السابع عشر في إنجلترا: تأسّست شركة الهند الشرقية، وكانت قدرة السلطة البريطانية تُقاس بالحملات الاستكشافية التي بدأت من بعد. في الوقت الذي كان فيه سرفانتس معاصر شكسبير يطوّر ويخلق من هزائمه ومن هزائم إسبانيا «الفارس ذو القامة الحزينة»، كان المسرح الإيليزابيثي يعرض مشاهد المحتلين بطريقة أكثر مبالغة، من مسرحية مارلو «تمارلان» إلى مسرحية شكسبير «كوريولانوس».

في الفترة بين 1605 و1608 أي خلال أربع سنوات، التي صمّم فيها شكسبير مأساته وكتبها جرت أحداث سياسية، وفّرت له المعارف لما نسمّيه اليوم صراع الطبقات: انتفض المزارعون سنة 1607 لأن النبلاء نزعوا منهم الأراضي المشتركة. وفي 1605 تمّ كشف مؤامرة البارود حيث حاول أنصار البابا تفجير البرلمان المُسيطر عليه من قِبَل البروتستانتيون المتزمتون؛ ومنذ 1606 انتشر الطاعون مرة أخرى في لندن. ويجب أن نصدّق أن جميع قاعات المسرح كانت مغلقة في أثناء كتابة شكسبير لـ«كوريولانوس». فالقطع المسرحية، الكتب، وحتى القصائد نفسها التي يطلق عليها أصحاب المزاج المتخوف «خارج الوقت» حتى لو كانت روما بالنسبة لهم كمكان للحدث، سوى كواليس. لقد كُتبت في عصرهم مع النظرة من النافذة والأذن باتجاه الشارع. فبلوتارش ينعت «كوريولانوس» بعديم الأدب لأنه لا أب له، غير أن الخشونة هي بذاءة الفم الذي يطلق العنان للشتائم الملونة، التي تمنح النبيل مينينيوس والأم البطلة فولومنيا

الصوت الثاني والثالث، ولقد أسّس شكسبير للندن، بالوسائل المفضّلة، بتصوير كوريولانوس الفرد والذي ينتفض بشجاعة بالغة من مشهد إلى آخر. وريثما يتمّ الشك في أن شكسبير اشتغل حسب النماذج، تظهر الفرضية المنيرة؛ حين وجب على الكونت فالتر راليغ، هذا الطاغي الذي كان قرصاناً وضُمّ إلى طبقة النبلاء لاستحقاقاته الوطنية، الحفاظ على الصمت، لأن راليغ صديق بنجونسون (ولِمَ لا أيضاً صديق شكسبير) عانى مصيراً لا يختلف عن مصير كوريولانوس). بعد أن سلب الإسبان الأسطول الفضّي قبالة قاديس وشواطئ الأزور، وقاتل من أجل الملكة البريطانية، والسيطرة على أراض شاسعة في أمريكا، ـ كما فعل كوريولانوس في مدينة كوريولي ـ وكان عليه أن يشهد في لندن كيف حاول الرعاة قتله أثناء القبض عليه من قبل الملك يعقوب في عام 1603. فغالينغ الذي كان يحظى بشعبية، استثار في ما بعد عداوة الناس، كذلك كوريولانوس الذي حصل في البداية على ثقة العامة ومن بعد تخلّوا عنه. في المأساة وكما في لندن يتحدث البطلان بازدراء عن الفقراء، كان راليغ يحتكر تجارة النبيذ، وكوريولانوس كان يُسيطر على سفن الحبوب التي تأتي من صقلية. وحينما منع في روما عدو الشعب من اغتنام فرصة توزيع غنائم الحبوب المُخزنة على الجياع، خاض بطل البحر في لندن مقاومة شرسة ضد مشروع قانون في البرلمان؛ مفاده بيع النبيذ بسعر رخيص. إذ خسر البطلان معاً حظوة الشعب، كأنهما لم يكتفيا بالحرب وأدوات القرصنة البحرية، فاستخدما أسلوب البلطجة والقرصنة في سبيل عين على سوق الحبوب، والأخرى على مصانع النبيذ لتحديد الأسعار. الأمر الذي يعني الرغبة في التحكم.

لا يجب القول هنا أنه مع «مأساة كوريولانوس» يتوفر المرء على مسرحية مهمّة وقوية القطعة المفتاح، لكن يلعب وقت المتشددين الدينيين المناسب والناشئة، إلى وقت قريب، فرسان

الحظ آلة الظل في هذه المسرحية: إذا حاول المتزمتون اعتبار مسرح جلوب بؤرة للخطيئة والطاعون، وسيكون ترتيب الشتائم المتعصبة للبورجوازية الصغيرة، التي فكّر فيها المدير بورباغه، كما اعتبر شكسبير روما مثلما طالب العامة من كوريولانوس. وقد ينظر لها، تأريخياً، أنها مسرحية تمثل الاتجاه الرجعي، وأنها سطحية وظاهرياً كان لها في السابق تأثير؛ نجم عنه منع عرض مسرحي؛ وليس أقلها وفقاً لمسرحه حيث حذّر الكاتب الملك والأرستقراطيين قبل وصول الحرفيين وصغار الناس أي المتشددين والحرفيين إلى البرلمان الذي يشغل المتشددون ثلاثة أرباعه. لقد تكلم التاريخ مرتين ضد مسرحية شكسبير، قال ليفيوس: ستة وثلاثون عاماً بعد اختيار منابر الشعب تم رفع عددهم إلى عشرة: مجلس الشعب في روما كان الأكبر. ولحدّ الآن ما زال يُعتبر عمل عظيم استطاع أن يَثبُت. وفي إنجلترا، وبعد أربعين عاماً على كتابة «كوريولانوس»، ما زال حامي اللورد كرومويل هو الذي يتحكم بالأمور. وقبل هذا كان مسرح شكسبير، بالفعل، مغلقاً. وظلّ من بين كثير من الأشياء هذا الجزء المثير للاستياء لدى عامة روما كما لدى حرفيّي لندن، فئران جبناء وكلاب غبية، ونبلاء روما كما الأرستوقراطيين الإنجليز والسادة الخالين من العيوب؛ الأبطال النبلاء.

هذه القوانين المتضاربة والضوء البارد الذي تمّ عبره نقلها، مُنع إلى اليوم وصول مأساة كوريولانوس إلى الخشبة. حيث لا تفتقد المسرحية للشعر ـ «الغضب هو عشائي» يقول فولوميا ـ ولكن هذا الشعر تجاوز الدخان البارد. الغطرسة، الافتراض، الإهانة، الدسيسة، سببها الكراهية، ودائماً مرة أخرى الغضب المضاعف يتناولها كالعشاء. صوت خفيف لا يترك شيئاً، لأن شكسبير ليس من عشّاق الحدث الحتمي، ولا حتى الجنون اللطيف لدى النساء

أو لدى المهرّجين يمكن أن يعترض الطريق. لا ظهور الأشباح ولا اجتماع لمشعوذات أو عرض خرافي ـ كما في مسرحية «لير» ـ يسمح للغة الارتقاء من الطريق الدنيوي. على الأرض لا مجال سوى للوقوف للاعتراف أو الانتزاع. فالسماء منيعة. والآلهة بعيدة وليست حاضرة، وغير مسموح لكوريولانوس، هذه الشخصية الهائلة بلعب دور ثانوي، وهي الشخصية التي من المفروض أنها تتوفر على أدوات الحرب الإلهية، وهو دائماً يجد نفسه محرجاً من طرف العامة أو مفوّضيها من الأنصار والأعداء وحتى في لحظات السكينة من طرف عائلته، لأن كبرياءه يتحفّز في التجديف، الذي لا يمنع من إمكان التحوّل إلى مونولوغ. ولا تحضره، في الوقت نفسه، يقاطعه مندوب الشعب بالكلام أو يحاول الصديق مينينيوس تهدئته: «تعالوا!، تعالوا! لقد كنتم أفظاظاً، بعض الشيء أفظاظاً».

ليس شخصية البطل المبهمة هي التي كانت عائقاً منذ البداية في طريق هذه المسرحية. الأكثر من هذا، هو الوضوح القاسي لديه في التفريق بين طبقة العامة والنبلاء، الذي لم يساعده على ربح العطف أو الاستحسان اللطيف، من الجمهور خاصّة، بصنفيه البروليتاري أو المحافظ. كما هذا المخلوق المشوّه ريشارد الثالث الذي استطاع أن يقنعنا أنه مُسيّر من الشيطان لتقشعر له أبداننا بلذة، وهذا ما لم يستطع القيام به الدنيوي كوريولانوس غير المثقف في أي مشهد. وحتى فضائله القليلة نفسها، مثل الحياء والعجز لإظهار ندوبه وجراحه أمام العامة، أو الكشف عن حقيقته المقترنة بالشجاعة المثيرة التي تأتي دائماً تبعاً لهَوَس رغباته كلما واجه العامة. السخرية، والازدراء والكراهية، ريتشارد يستطيع أن يكون، إذا أراد، داهية يتقلّب بين الأدوار المتضاربة، كوريولانوس بطل، ولا يمكن أن يكونٍ إلا هكذا، وليس خلافاً لذلك. وحينما يقنعانه، وبشكل ماكر، كلٌّ من

الأرستقراطي مينينيوس ووالدته فولوميا، على الضدّ من وجهة نظره، عن طريق المفاوضات التكتيكية، فإن هذه المحاولات التي تندلع، وجهاً لوجه، بين العامة المُجيّشة تكون عكس ذلك وراء استفزاز جديد من خلال تبادل الكلمات مع ممثلي الشعب. مرة واحدة، فقط، كانت كل السلطة بين يديه، وكان مع جيش الفولسكر على أبواب روما لكنه يتراجع ويُصاب بنكسة: فالنساء الثلاث، بما فيهن فولومنيا، يقفن متحدات أمام هذا العملاق الذي لا يرحم. فولومنيا تتكلم، تُحرك مشاعره أكثر من أن تستطيع إقناعه: وهو على وشك أن يتحوّل من إله حرب إلى ابن مُطيع الذي يرحم وطنه والذي يترك الكراهية والانتقام يتبخران، مرة أخرى تتصرف طبيعته وتخسر الرهان، لأن كوريولانوس، هو أيضاً، آيل للسقوط، ولا يمكن إنقاذه، وفي الوقت الذي يستجيب للأم فإنه يذهب حتى النهاية من دون أن يُردع. ولا يمكن لأي طرف أن يضمّه إلى صفوفه، لأنه ليس واضحاً، وأكثر من ذلك لأنه جمع حوله شخوص هذه المسرحية، من أرستقراطيين وعامة، وفولسكر يعكسون وجهة نظره، ويشكّلون تنوعاً لوضوحه. لهذا ينبغي هنا عن طريق إعادة كتابة كوريولان، تبيان لماذا يجب أن تفشل محاولة بريشت إنقاذ هذه المسرحية بعرضها على خشبة مسرح شيف باور دام، وأيضاً محاولة يان كوط الحداثي مع هذه القطعة، لأنه، وبفضل أعماله غير المستساغة وحداثته، يُعنى، بشكل قدري، بالصراع الطبقي، وهو يوجد عندما نركز على ليفيوس أكثر من بلوتارخ، فهو على حق من وجهة نظر تاريخية، ولكن شكسبير الإيليزابيتي حيث يأخذ منه مصدره بلوتارش الرائحة الأخيرة للصراع الطبقي الذي يسبب له سوء فهم: فكوريولانوس يقف ـ وكما يعتقد الأرستقراطيون ـ بين الطبقتين، ويمكن أن يتوحّد مفوضو الشعب والقناصلة أكثر من الاستثناء الهائل مع مجلس الشيوخ. لم تتح لي

قطّ الفرصة لمشاهدة مأساة كوريولانوس على خشبة المسرح، وأنا على استعداد تام للرهان مع مجموع مديري المسارح المشهورين على أن المسارح المدعومة وعلى امتداد سنة شكسبير، لا وقت ولا شهية لهم لجلب هذه الشجرة دائمة الخضرة، هذه التفاحة الحامضة على خشبة المسرح. وحده قطاع الدولة لمجتمعنا الشكسبيري الثاني، في مسرح شيف باوم دام حيث بدأت التدريبات، ويتابني الفضول في معرفة إنْ كان مسرح برلين انسامبل سيختار صياغة بريشت غير المكتملة، وترجمة الغليان والفوران للينس، وترجمة دوروتي تيك لشكسبير التي وصلتنا، أو كخليط غير متلائم من هذه الكتب الثلاثة كأساس للاختيار. ولكن من دون اكتراث على أي منزلق يمكن الظهور الشخصي بشكل شجاع: إظهار، وبشكل حاسم يظل السؤال: كيف ستتصرفون مع ممثلي منبر الشعب؟ وكيف هو شكل المشهد الأول، انتفاضة العامة؟ وهل، أولاً، تم استفسار المسارات، هل تنتهي المسرحية كمأساة بمناسبة اغتيال المارد الذي كان اسمه كوريولانوس، وهل أن الوكلاء، حسب رغبة بريشت في إحدى المسرحيات التعليمية، لهم الكلمة الأخيرة؟

لأن كل واحد منهم يظهر عند شكسبير من أول مشهد مُضطرب الإرادة وغاضب، يُعاد تدريبهم عند بريشت قبل أن يظهروا على الخشبة، أي في البدء وليس في أثناء العرض، ليكونوا ثوريين والذين يؤكدون، من خلال مشهده الأخير، الوعي الطبقي لدى العامة ـ كما وضح ليفيوس ـ والذين سينتصرون عنده بكل تأكيد. وانطلاقاً من مخطط هذا الاتجاه يتصرّف ممثّلو الشعب التابعون له: أظهر شكسبير صفرين متشابهين في الدسيسة والجبن، وأعطى بريشت موظفين مرموقين وحداثيين أكثر وأكثر السلطة. وإذا كان شكسبير

يسـمح لبطله كوريولانـوس الرفيع الـذي تجعل منه عيوبـه الصغيرة وكرامته إنسـاناً متغطرسـاً، وبدرجة من الوعي تقوده إلى التكبّر الذي يقضي عليه في الأخير بشكل تراجيدي، فإنَّ بريشت يحصر كوريولان كشـخص كفء وفي حالة الحرب كمتخصص يعوّل عليه، وفي حين يتجاوز في حالة السلم حـدوده، ممّا يدفع الشـعب وممثليه للتخلي عنـه. إن بطـل شكسـبير سيفشـل أولاً في طبيعتـه الخاصـة، وبعدها من خلال الإحسـاس البسيط للعامة، وسينسـحب كوريولان بصيغة بريشـت لأنه يتصرف بطريقة رجعية، ولأنه لم يفهم علامات الوقت، تحديـداً ربيع الدولـة الفتية روما. في الوقت الذي قام شكسـبير بكل شـيء؛ إلغاء المأساة الكبيرة للبطل، وتصوير العامة مجرد بورجوازية صغيرة، وممثلي الشـعب مجرد مدبّري المكائد من درجة متوسـطة، وحتى الأرسـتوقراطي نفسه مينينيوس الغريب المقتنع بتأثير الحكمة لدى ليفيوس وبلوارش، نجح بريشـت في إعلان الوعي الطبقي لدى العامـة، وقـوة الإقناع لدى الوكلاء. ولكن من أيـن النهل، إلى جانب المصـادر الأصلية والتاريخية، والحقيقة على الأبواب تنتظر متلهفة؟ هل كان وكيل الشعب الضعيف في كوريولانوس هو الخصم ـ ويعطي بلوتارش الدليل على أن الأمر يتعلّق بواحد من وكلاء الشـعب الذي هو سيسـينيوس ـ إذن كان بالإمكان تسـمية هذه القطعة بسيسـينيوس وكوريـولان، غير أنه في زمن شكسـبير ذاع القول بالميل إلى التمثيل الثنائي، والتعبير عن الأماني بشـكل ثنائي. ولقد منح مجلس الشيوخ للعامة خمسـة مفوضين، إذ يتحدث شكسبير كذلك عن خمسة؛ غير أن كوريولانوس يذكر فقط اثنين:

«من الاختيار ذاته. واحد يونيوس بروتوس،
سينيوس ـ أو شيء من هذا ـ الموت والطاعون!»

عند بريشت لا وجود لخمسة وكلاء منتخبين، يتعلق الأمر فقط بالتعدد.

«اثنان من المفوضين. لتمثيل الرعاع.

واحد يونيوس بروتوس، ثم سينيوس ومن يعرف لحدّ الآن...».

لهذا يُحذر كوريولانوس: «سيصبحون الآن أكثر وقاحة، وبعدها سيهدّد الرعاع بالتمرد على كل رطل من الزيتون».

في الوقت الذي يروي شكسبير:

«... غداً ستنتصرون وتطالبون بالمزيد عن طريق التهديد».

لنبق، إذن، في حدود الزيتون عند بريشت، أي الرخيص الذي تطالب به العامة، والذي يزن نصف كيلو ويكون كافياً، ليهيّج الرعاع. في حين يتعقب شكسبير بلوتارخ الذي يُقدّم كتسويغ للاضطرابات ومطالب ارتفاع أسعار الحبوب والربا، ويزن الحبوب كما يزن أسعار الفائدة، يقلّل بريشت من كوريولانوس، الذي هو في الأصل لا يزال يتبنى بعض المطالب، والذي يجعل من مطلب العامة بالزيتون الرخيص موضع استهزاء. كوريولانوس يتخوف من أن انتصار الرعاع، في القريب العاجل، سيوسع من لائحة مطالبهم، ويشعر كوريولان بالغضب من وجهة النظر التي تدّعي أن المستقبل سيعرف المزيد من الاضطرابات بسبب أمور تافهة. إنه لا يفهم سلطة مفوّضي الشعب، ويرى ممثليهم كعناصر إزعاج، ويطلق عليهم كعنوان في أول ظهور لهم:

«... وجوه كأنها مفصولة بوساطة حبل المشنقة».

عند شكسبير لا تعبِّر الغطرسة الباردة للبطل موقتاً عن نفسها. إنه يلغي مفوّضي الشعب، وفي الوقت نفسه يرحب، فقط، بأعضاء

مجلس الشيوخ بعبارات المجاملة «الآباء المعتزون بأنفسهم»، بينما يدع بريشت مينينيوس يتكلم بنفسه من أجل أن يتباها كوريولان بنفسه:

«والمراقب المُعيّن حديثاً موجود أيضاً».

بعدما تم الاتفاق على الحرب مع الفولسكر في المشاهد القادمة، يطالب كوريولانوس العامة في الصيغتين؛ عند شيكسبير، «كمتمردين أرستقراطيين»، وعند بريشت «كأصدقاء حميمين ومثيري الشغب» الذين عليهم اتباع أوامره في الحرب ضد الفولسكر، هكذا يسخر منهم، لو كان كمية كافية من الحبوب لاستطاع هؤلاء الجرذان ملء البطون.

بينما في الأصل يغادر كوريولانوس وأعضاء مجلس الشيوخ والمواطنون، ويتملّصون من التعاليم، عند بريشت يغادر «الجميع باستثناء المفوضين والمواطنين» لأن الذي صاغ المادة الأصلية من جديد منع أتباعه اتباع كلمات كوريولانوس لفضح مفوّضي الشعب المنتخبون حديثاً. إلا بعد أنْ دعاهم المفوض بروتوس وضع أسمائهم على لائحة الحرب للقتال من أجل روما الطيبة ـ هنا يرى بريشت تأكيد نظرية الحرب العادلة ـ وبعد وعد بروتوس العامة، في أثناء غيابهم بالمبارزة على البذور، الزيتون. الآن تتساوى المشاهد في الاتجاهين معاً: تراجع المفوّضين على الرغم من خطابهم اللامتكافئ. لدى شكسبير يقف اثنان مشدوهان لقياس الشجاعة والاعتزاز بالنفس عند كوريولانوس، ولإحصاء أفعاله وفظائعه. وهم، في نظر الكاتب، خُدّام الشعر.

يقول سيسينيوس:

«القمر عفيف، وهو كفر».

عند بريشت يُحافظ مسؤولان رسميان ذوا وعي على مركزهم. تقريباً ومن دون استعمال استعارات القمر، يقرّ سيسينيوس باقتضاب أن هـذا الرجل أكثر خطـورة على روما من الفولسـكر. وعلى عكس بروتوس المتخصّص في الحرب الذي يعترف ويناقض الشيء ذاته:

«لا أعتقد ذلك. أن سيف هكذا رجل

أكثر خطراً من فداحة ضرره».

إلى أين يغادر الاثنان: عند بريشت كلهم ثقة بالنفس، ومن دون تحديـد هـدف ما. لدى شكسـبير مـن دون وظيفة وفي اتجـاه الندوة علـى أمل الحصول على معلومات أكثر، لأنه قد يكون أرضية خصبة للدسيسة.

وفي النص الأصلي، كما هو الحال في الصياغة الجديدة، يأخذ في الاعتبار لدى كرويولانوس القوي الموهبة، والمجاهرة بالكلمات النابية الحادة ذات الطبيعة الشعرية. إنه لغاية في الإثارة تحرير كتالوغ لصياغة شكسـبير ومقارنتها مع النص الجديد لبريشـت، وإلى جانبها لائحة من الكلمات النابية السياسية المعاصرة من الحرب الباردة إلى التصالحي والمتزمّت مروراً بالموضوعي.

هنـاك قـول مأثـور لكوريولانـوس ،كلما واجـه العامـة ينادي: »علقوهم!»، وفي مكان آخر، وفي إحدى الأوقات أو في أثناء خطاب مذهل، لا يخلص إلى النداء إياه ولكن يسـتبدله بـ«علقوا أنفسـكم». بريشـت لم يتبنَّ هذه القضية لأن العامة اسـتدرجته لإفشاء العديد من الأسـرار. وفي المقابل اسـتعمل «فقط الشـنق يسـاعد هنـا» من دون علامة تعجب. وبكل إلزامية تعليق القوة العسكرية التي تقدم مساعدة جذرية لتخليق النظام، غير أنه لا يجوز الذهاب في هذا الاتجاه.

وداخل مشـهد معركة الفولسـكر هذه يكفينـا مثال واحد كدليل

على كيفية عمل شكسبير عندما يعتمد على مصدر واحد. لقد حقق بالفعل كريولي انتصاراً بيّناً. وينبغي توزيع الغنائم. ويروي بلوتارخ كيف عرض عليه ماركيوس الذي استولى على المدينة، عُشر الغنائم وحصاناً مُسرجاً. غير أن بطلنا غير مقتنع بالربح المادي. وعلى الرغم من أنه اكتفى شرفاً بالحصان، يتخلى عن غنائم الحرب ويكتفي بأمنية بعد ما يصفق له الرومان على سماحته: «حول هذا اللطف الخاص» يقول: «أتمنى ذلك من كل قلبي الخاص. كنت أتوفر على صديق ضيف من بين ممثلي الشعب وكان مفكراً محترماً، وهادئاً. الآن يوجد رهن الاعتقال، وتحوّلت الثروة والسعادة إلى عبودية. إذا ما حلت به فعلاً كارثة ما، فإن الأمر الواحد الذي سيتجنّبه هو أنه لن يتعرّض للبيع».

إذن لن يتم ذكر اسم الصديق الضيف لدى بلوتارخ، ولكن يجب أن نتوقّع إنقاذه. ما نوع الإثارة الدراماتيكية لهذه الصورة السمحة المريحة التي يرغب شكسبير ربحها؟

كايوس ماركيوس يتفكر في هذه الصورة الطازجة مع الاسم الفخري كوريولانوس وهو يحمل طلباً على عاتقه:

«أقمت مرة في كوريولي
عند رجل فقير، وكان لطيفاً معي؛
يناديني، ورأيته كأسير؛
غير أن أوفيديوس كان أمام وجهي،
وغاضباً هزم الشفقة.
أعطيته بكل حرية طعامي القليل».

يتحدث قائد الحرب:
«كم جميل شكراً!

لو كان هذا السفاح ابني، ينبغي أن يكون
حراً كالرياح. يطلق عنانه، تيتوس».

تيتوس يريد الآن سماع ما لم يذكره بلوتارخ أيضاً:
«اسمه ماركيوس؟».

وأعتقد أن كوريولانوس ضرب على رأسه:
«بحق جوبيتر! انسوا ـ لقد أضناني التعب ـ ضعفت ذاكرتي.
ألا يوجد هنا خمر؟».

وهكذا يحصل عليه بسرعة بناءً على طلب كومينيوس، وضمدت جروحه هي الأخرى؛ والطعام الذي كان من دون اسم، والذي أعطي بكل حرية، لم يعد محط كلام.

لم يُعيد بريشت صياغة مشاهد المعركة؛ من أربعة إلى عشرة حوّلها إلى واحدة، ورغب في لمِّها في الثالثة، وإلا فإنه سيكون من المفيد أن نعرف ما إذا حذف الفولسكريين المساكين أو من ساعده على بلوتارش أو مضاعفة البؤس لشكسبير.

إذن، لنتوقف عند هذا النص الذي هو أمامنا. يؤكد المشهد الأول من الفصل الثاني مقارنة بين الروايتين، أن مشروع بريشت يعيد تشكيل الأصل، حيث يتخصص كوريولانوس أكثر فأكثر في الحرب، والخدّاع الحكيم مينينيوس إلى مهرج رجعي ووكيلاً الشعب، على حد سواء، إلى صراع طبقيتين مقاتلتين إن لم تكن الأولى فالثانية من دون مذاق.

وإذا كان مينينيوس الأصيل يصف ممثلَي الشعب كائنين من الحمقى الكهول اللذين «... تبعاً للغشاشين والمتملقين الطموحين» يتوقّع مينينيوس الصياغة الجديدة فيهما ثنائيّاً خطيراً، من دون حدود، يرى فيهما «مجرد تلميذين مغرورين، عنيفين ومن دون انتماء» وهذا

الوصـف الأخيـر الـذي اختيـر بعنايـة، أدى إلـى التنقيـص مـن قيمة المشـهد الأول من الفصل الأول بشكل واضح، حيث شكسبير يظهر هنا، مـرة أخرى، بعرض متألق ويخبئ خبر نصـر كوريولي الإيجابي لروما والسلبي لممثلي الشعب، في حوار عاصف لثلاثة رجال كهول حيث يعترف واحد من بينهم، مينينيوس بكونه «نبيلاً مضحكاً»، وآخر «يحب أقداح الخمر السـاخن»، في حين يُقال عن ممثلي الشـعب أنه ليـس بإمكانهـم تثبيت السـلام فـي أي مفاوضات ووصـف الطرفين بالحثالـة، إذ يصـف سـلوك تصرفاتهم فـي أثناء المحاكمة، وبشـكل متوازٍ، للتحقيق. يظهر إلى أي حد شكسبير الإنجليزي يسمح لقاضي السـلّام البسـيط كممثلـي الشـعب الرومانـي وكشـخص مـن لندن، أرستقراطي حديث النعمة المهرّج، وعربيد كنبيل.

لا يبقى من هذا عند بريشـت الشـيء الكثير، وحتى الإحسـاس بالراحة نفسه قليل أيضاً. ولا حتى بالاحترام تجاه النص الذي يعرف فقراً كبيراً، وأساسـاً إلى صقل للعرض ويسـمح لموفوّضي الشـعب بمناقشـة مزايا ومساوئ الفوز لدى كوريولي بكل هدوء وموضوعية. إن ظهور مينينيوس سـتصبح حركة صغيرة إذا ما تمت السـيطرة على عضة الكلب. وليس هو الذي يوجه المشهد ولكن ممثلي الشعب.

وكمثـال علـى كيفية الرغبـة في هـذا الاتجاه، حيـث التفاصيل والصبر على الشـعر كفـن الترويج الصناعي لوسـائل التنظيف جرى الحوار الآتي:

في النص الأصلي يسأل مينينيوس:

«قل لي: من يحب الذئب؟»

ويجيب ممثل الشعب سيسينيوس:

«الحَمَل».

ويضيف مينينيوس:

«هـذا قابل للابتلاع كيف أن العامة الجياع يشتهون ماركيوس النبيل».

وهنا يقول ممثل الشعب بروتوس:

«حسناً، الحقيقـة هي أن حَمَـلاً يمأمئ مثل دب». وبريشـت لا يسمح لبروتوس بهذا التلاعب بالكلمات:

«حسنا ، هذا الحَمَل يخور مثل دب».

والمضحـك أن مأمـأة الـدب تم تعويضهـا بأدلة جـادة، كم هو خطير ماركيوس كوريولانوس:

لقـد أكـد لنـا بريشـت بعمـل «حيـاة إدوارد الثانـي لبريطانيـا» بعـد مارلفـوه كيفية بـث الحيوية في مسـرحية قديمة، نعم كاسـتعادة لمسـرحية أصليـة. ففـي كوريولانـوس لا يتمكـن مـن تثبيـت هـذه الخدمـة. لقد اسـتعارت روايته للمأسـاة صـورة للسـذاجة والفجوة وعوضتها بآلية جدية. وبرغم أن هدفه المنشـود يتماشـى مع الاتجاه الجمالـي، يتعلق الأمر، هنا، بـ«السـرقة الفكريـة» بالمعنى المقصود من المسرح الإليزابيثي، وأيضاً بضرورة إضفاء الشرعية على بريشت السابق قانونياً.

فـي المشـهد التالـي - يلتقـي فولومنيـا وفيرغيليـا وفاليريـا بـ مينينيوس ـ يسـمح بريشت لممثلي الشـعب بالذهاب قبل أن تملأ المجموعة المشـهد، من دون سـبب واضح واحد من الحوارات غير المعقولـة؛ ذلك الحوار حول جراح كوريولانـوس بحيث تم إخراج دخـول الأبطـال بطريقة مسـرحية. عند شكسـبير ـ وفي أثنـاء وجود ممثلي الشعب الخجولين ـ يسأل مينينيوس:

«أين هي جراحه؟» فولومنيا الأم ترد:

«على كتفه وعلى ذراعه الأيسر، هناك ندوب كبيرة تظهر للشعب حين يترشح لمنصبه. وحينما تعرض تاركين للضرب مرة أخرى تلقى سبعة جراح على جسده».

يعرف مينينيوس بالضبط أين:

«واحدة في الخلف واثنتان في الذراع، والمجموع هو تسعة حسب علمي».

فولومنيا تُزايد على العجوز:

«قبل الغزوة الأخيرة كان به خمسة وعشرون جرحاً».

حسب مينينيوس:

«الآن إنها سبعة وعشرون، وكل صدع هو قبر للعدو».

الآن تعلن أبواق وصراخ قدوم ماركيوس كوريولانوس. لا يمكن أن تهيئ سبع وعشرون طلقة ظهوره، كما يمكن أن توحي به ضربات الأصابع المجتمعة. وقد تنازل بريشت عن هذه الثروة من الندوب. وبعد الحوار يكتفي بتسع. وإذا كان شكسبير يخجل من الندوب المتغيرة، فإننا نحن نشعر معه بنوع من تقاسم المسؤولية التي لا يسمح بها بريشت.

ولكن لنسمح مرة أخرى لممثلي الشعب بالتقدم، حيث كوريولانوس يدخل القلعة مرفوقاً. ففي الوقت الذي بدأ فيه الرجل المتقدم في العمر حياكة الدسائس، ظهر ممثلو الشعب كمخلصين للوطن. فبالنسبة لهم أن الدسائس كوسيلة للصراع هي مجرد شبهة. فـبروتوس عند شكسبير لن يتعب، حيث رعاع لندن بألوان مختلفة سيقدمون الشكوى في شوارع روما، ولن يبقى منها لدى بريشت سوى كلمات متناثرة لسيسينيوس.

«أي ضجيج هذا
كما لو أن إله نزل إلى العالم ليستطلع،
صدقوني سيكون قنصلاً».

وحتى نظارات الرومان ـ هدية عفا عليها الزمن من شكسبير للعامة ـ التي يهديها العامل، ينبغي أن تأخذ في أثناء هذا الظهور لسينيسيوس مظهراً معيناً.

«ومطيع كما هو الآن حال روما المنتشية بالنصر
حيث يتردّد صدى سمعة الإنسان غير المطيع».

عدم الطاعة يطلقها ممثلو الشعب على كوريولان، لأنهم يعتقدون أنه تجاوز صلاحياته. قال سيسينيوس: «إنّ مَهَمَّته هي قطع الطريق على الفولسكريين، ليس أكثر». فهم يلومونه على الغزو المبالغ فيه، والدمار الذي ألحق بمدينة كوريولي.

يخشى بروتوس أنه ألَّب، لعقود، الفلوسكريين ضد شعب روما. هذا القلق عن الوطن الأم، بالنسبة لممثلي الشعب؛ لدى شيكسبير، يفتقد للإرادة. فبالنسبة لهم أنه على وجه حق، ليس فقط بالنسبة للشعوب المجاورة للحصول على مقعد الرئيس، ولكن على عدة أماكن ثابتة، وفقدان جزء كبير من ضواحيها. وتكفيهم شهوة كوريولانوس الجبارة من أجل ممارسة الضغط على الشعب لحياكة الدسائس للوصول مباشرة إلى لبّ القضية. بريشت لا يقتنع بهذا الدافع، ولكنه يقلل من غطرسة كوريولانوس. وفي هذا السياق يسوق بريشت حجة لا ترد عند شيكسبير، وتتمثل في كون أن ممثلي الشعب يتصرفون بدقة وفق الدستور، إذ يتبنى كوريولان، بمفرده، دور الجيش كعادته دائماً. تستند إعادة الصياغة إلى ليفيوس، ولقد

حـاول بريشـت، وأراد أن يعلمنا التاريـخ الروماني القديم، أنْ يشـير إلـى مـدى قوة ممثلـي الشـعب والنبـلاء المخصصين لهـم. ولذلك يتضـح، على نحو واضـح، أن إعادة صياغة خـرق القانون تؤدي إلى فشل كوريولانوس، على وجه حق أو من دونه، لكن من غير أن يسود المصيـر الأعمى باعتزاز أكثر للبطل بنفسـه، أو بتعثر الدسـائس لنفي المأساة.

روما، ومجلس الشيوخ، وكابيتول، والنبلاء، أسماء لاتينية وبلوتارخ كمصدر. ومع ذلك يجب طرح السؤال الآتي: هل مأساة كوريولانوس قطعة تاريخية، أو أن روما مجرد مكان مثالي، نعرف، من خلالها، المزيد حول سقوط عصر اليزابيث، أكثر من تحول روما من ملكية إلى جمهورية دستورية؟ إن روما شكسبير لا تحمل أية صفة من الاختبار التاريخي، ولا ينبغي أن تقاس على هذه الطريقة. لا يقف ليفيوس في صف الكاتب وحتى بلوتارخ نفسه، الذي ضم كتالوغ الفضائل الرومانية إلى الخبرة التعليمية لليوناني اللاحق، يجبره على المسار نفسه، يسمح له بنصف الاستغلال حتى يبتزه بين الفينة والأخرى، حسب رغبته ومزاجه، ثم يمزج السرقة مع غنائم الغزوات الأخرى، وينفي على اليوناني الدفء التربوي، ويعوضها بالقدر والطبيعة الجامدة. وإذا تراجع بلوتارخ واضمحل أبطاله يكون التبرير غياب اليد الراعية، وي فتقر شكسبير، من خلال المسرحية، إلى عقدة الأم. ستثبت الانتصارات وتجمع الجروح وبالتأكيد للوطن أيضاً، ولكن ربما، أولاً، من أجل الأم التي تقدم لها المدينة المحتلة تحت قدميها. من أجل تخصيب مجاميع الجراح، لأن فولومنيا الأم، تعامل الابن كعشيق في الوقت الذي لا تستطيع فيه الزوجة الحساسة رؤية الدم، ولا اعتبار أن ندوب البطل ثروة. ومن ثَـمَّ عدم الرضى عن

دور أم الصغير ماركيوس ليكون قادراً على اللعب، ولكن تماماً كابن بطل الذي ينتمي لهالة الأم البطلة. تتحدث فولومنيا:

«يفضل رؤية السيوف والاستماع إلى الطبول
على احترام معلمه».

حيث تروي فاليريا صديقة الأسرة بأي قدر وبشكل محبب يُشبه أباه: يجري وراء الفراشة البراقة، ليتركها تطير من جديد، يمسك بها مرات عديدةً يثور إذا وقعت منه ويصرّ على أسنانه شراً ويُمزّق الفراشة.

فتقول فولومنيا أم البطل:
«تماماً كطريقة والده».

وتسخر الصديقة فاليريا:
«أوه، حقاً! إنه طفل نبيل».
وترى اللطيفة فيرجيليا: «عفريت شقي صغير، يا فاليريا».

هنا، كما في غيرها من المسرحيات، يضاعف شكسبير الأبطال. ويؤكد، في الابن سمات الأب، ولكنه يتضمن السخرية من فاليريا، ويترك حكايات الفراشات المقتولة تتحدث عن نفسها. وعلى عكس بريشت، الذي لا يتخلى عن التعليق، ويعزز تعليقات فولومنيا وفيرجيليا لتصل إلى التوبيخ. ومن «تماماً كطريقة والده» تُصبح «واحدة من نوبات غضب أبيه!» وفيرغيليس «عفريت شقي صغير»، يجب أن لايصل إلى أذن الصديقة فاليريا، وإنما تعرض على الحماة بارولي: «بلطجي صغيراً يا سيدة».

يوجد، إذن، صدى حافز تربوي في بلوتارخ بصيغة بريشت: غرض شكسبير، من خلال ازدواجية البطل، الزيادة في حجم الوحشية التي تتحول، عند بريشت، إلى مناهج تعليمية: في الوقت الذي يتم به

برهان الإفراط المضر عند ابن الأب ، يظهر الصراع الكامن بين الكنّة والحماة.

إذا لم يكن شكسبير فإن بريشت، بعد هذه الدراسة الوافية حول المصادر، على طريق المسرحية التاريخية؟ هل هناك، في أسلوب بلوتارخ التربوي، والإحساس الجمهوري للدستور عند ليفيوس، صورة دقيقة لروما بعد طرد الملك تاركينيوس؟ يسلك بريشت هذا الطريق حائراً، ويغادره من دون همّ، كلما تمّ فرض اتجاه ما على صياغته. وعلاوة على تأثر راليه وإسيكس الإيليزابيتي بصورة كوريولانوس في الملحمة، على نطاق واسع، وبشكل كبير، بالكاد لا تنكشف المادة التاريخية الشعرية لليفيوس. بالتأكيد يمكن لبريشت الاعتماد على هؤلاء الشهود، إذا ما اكتفى بمزايا الحرب، عن طريق الصورة الهائلة التي هي نتيجة للقدر، لكون التاريخ الروماني أثبت كيف يسمح، وبسرعة، ومن دون جهد، في تعويض خطأ كايوس ماركيوس الذي يسمى كوريولان، غير أن شكسبير يعطي لأبطاله الكلمات التي لا يمكن لمتخصص في الحرب أن يتهجّاها من ورقة ولو مرة واحدة. ولذلك جعل بريشت بطله كوريولان مثقفاً، وكان عليه أن يعيد صياغة النص الأصلي بكل الخسارات الكبرى. وإذا كان شكسبير، وفي أثناء الخلاف حول مخزونات الحبوب، يذكر فقط، على نحو هامشي، فإن في اليونان يتم توزيع الحبوب، أحياناً، بالمجّان بين الشعب، إذ يستخدم بريشت بلوتارخ اليوناني ويكشف الحوار بين ممثلي الشعب وكوريولان بطريقة سجالية حادة.

كوريولان: «من يوصي إعطاء حبوب المخازن بالمجان

كما هو، ربما، في اليونان».

فإن ممثل الشعب بروطوس يمنع هذا: «فالشعب لا يسأل فقط عن الأوراق».

فيطرح كوريولان بالصيغة البريشتية حلاً بجواب يمكن أن يأتي، أيضاً في الوقت الراهن، من جوزيف شتراوس:

«في اليونان! لماذا لا تذهبون إلى اليونان إذاً؟ فالمدينة اسمها روما».

حائراً ومتردداً بين الاتجاه، يتصرف صانع شخصية مينينيوس تُجاه أغريبا. هذ الذكي نصف الأبله لا يمكن أن ينقذه ليفييوس ولا بلوتارخ، لأنه لا التاريخ الروماني، ولا حصافة اليونان المتأخرة ولكن الطاعون ولندن الموبوءة بالتزمّت الديني تجعل منه مسلياً. عند ليفيوس هو نبيل حكيم تحترمه العامة. وحتى قبل الصراع مع كوريولانوس سوف يلقب بالقنصل. وقد وُعد بنصر على الأورونك وعندما غادر العامة بقيادة سيسينيوس روما واستقروا في الجبل المقدس؛ قرب المدينة، أقنعهم فقط مينينيوس أغريبا بالعودة عن طريق تأريخ الأعضاء الذين يعارضون غضب البطن. ويعني ليفيوس: «بعد المصالحة جرت المفاوضات، حيث حصل المواطنون على حق أن ينتخبوا رؤساءهم». وبعد أن حصل العامة على ممثليهم، أبدوا استعدادهم لخوض الحرب ضد الفولسكريين. وهنا يحظى الشاب ماركيوس على شهرة الحرب. مينينيوس، وعلى العكس، يقف في مسرحية شكسبير إلى جانب كوريولانوس حتى نهاية المأساة، يموت بعد ليفينيوس قبل أن تحلّ المأساة.

والأرستوقراطي المحبوب من قبل الشعب «لم يترك أملاكاً تكفي لدفع تكاليف دفنه. وتكفّل المواطنون بمواراته الثرى، وتحمّل كل واحد جزءاً من المصاريف» هذا ما قاله ليفيوس.

حتى لدى بلوتارخ يتمّ التطرق لمينينيوس أغريبا فقط كرمز البطن وعضو مثير للفتنة. لم يدعه شكسبير أن يموت بالموت ولا حتى المغادرة بعد المشاهد الأولى. بالنسبة له يتوافق الرجل الكهل كمرافق ومرآة بلهاء لبطله؛ وأيضاً بريشت لم يرغب في التخلي عنه. نعم، أكثر من الأصل تبتعد إعادة الصياغة عن الوثيقة التاريخية: وإذا وجد مينينيوس اللندني شيئاً من التعاطف، بفضل ما يتمتع به العامة من نكتة، فلا يوجد أي ارتباط بين مينينيوس الرجعي والعامة.

إن مخطط بريشت هو جعل النظرة التربوية عند بلوتارخ، والإخلاص الدستوري لليفينوس كسند لقدراته التعليمية الجدلية. ولقد نجح بشكل واضح في الدستور الجديد لفولومنيا. فظهرت أم البطل في نصوص المصدرين كامرأة شجاعة من روما، حيث التقاليد والقانون والوطن أهم من الابن الفاسد. شكسبير زاد من حجم هذه القامة النسائية، أكثر ممّا كان عليه حجمها الحقيقي بالطريقة نفسها التي كان بها الابن. الأكثر من هذا: فهي تملأ الفراغات حيث الحيل المفقودة والتكتيكي والكذب المتعمد كلها أشياء مألوفة بالنسبة لها. حتى وهي تجبره على التراجع وأن يرحم الوطن، تحاول بناء جسور ديبلوماسية تجاه الابن. وينبغي عليه عقد السلام بين الرومان والفولسكريين، وليس بوصفه كخائن لهذا أو لأشياء أخرى، وإنما ليدخل التاريخ كداعية كبير للسلام. وعلاوة على ذلك لم يعد عند بلوتارخ ما يقوله في دوره التربوي، حالما أدخل شكسبير فولومنيا إلى المدرسة. شتائمها وتهكمها.

«حل الوباء بجميع طوائف روما والحرفيون ماتوا!».

وصل إلى مكانة عالية لتطغى حتى على إذلال الابن للعامة. ولكن هكذا، على قدم المساواة، تقف فولومنيا إلى جانب

كوريو لانـوس، فبالنسـبة لقانـون هذه المأسـاة، فإنها جـزء من جوقة ممثلـي الشـعب والعامة والنبـلاء والفولسـكريين، أي الجميع الذين هيـأوا لنهايـة كوريو لانـوس، أو أنهم لـم يسـتطيعوا إنقـاذه. المكـر والاضطـرار للكذب، التي نصحت بهما الابـن، هما جزء من نهايته. ففـي الوقت الذي تجبره علـى التصرف، تكتيكياً، فإنها تأخذ الذي لا يمكن إصلاحه من النص الذي يُمجّد الذات:

«كلاعب سيِّئ نسيت الآن دوري وأنا في حَيْرة من أمري».

هو ذاته تخلّص من العامة والفولسكريين. ممثلو الشعب بالنسبة له أمر مضحك؛ غير أن حوارها الذي هو على شكل مونولوغ ـ وفقط فولومنيا مسـموح لها استعمال هذا السـلاح ـ هي التي ستسمح بهذه ـ سـيحطم نوايـاه، سـيحطمه. الآن، فقط، وعند الاقتراب من النسـاء ينتبه:

«أبداً لن تُسـيّرني غرائـزي مثل صغار الطير غيـر القادرين على الطيران؛

أقف كأن الإنسان هو خالق نفسه

ولا يعـرف أي أصـل». ولكـن الآن تتكلـم فولومنيـا ويمسـك بيديها:

«آه يا أمي، يا أمي آه!!

«لروما فزت بنصر مفيد؛

بلى ابنك، صدقيني بالنسبة له خطر جداً، وأجبرتِه؛

مرتاح للقتل الذاتي، فقط لو يحدث».

عند بريشـت تتكلم فولومنيا أخرى. لا تظهر أمام جدار المدينة بمحـض إرادتهـا كمـا ورد فـي الأصـل. وإنمـا بتكليـف مـن النبلاء وأخيـراً من ممثلي الشـعب تقف في معسـكر الفولسـكر. في الوقت

الذي تلمس فولومنيا بصيغة شكسبير ابنها وكاقتراح أخير عن طريق التصرف التاكتيكي تريد إنقاذه، أسمع كلام فايغل النص بصيغته الجديدة والحكم على كوريولانوس:

«دع العاطفة الطفولية، أعرف أنك على خطى الهجوم على روما أخرى غير التي تركتها لم تعد لا بديل لك، كما أنت فقط الخطر القاتل، من أجل الجميع. ولا تنظر دخان القهر.

إذا أردت أن ترى دخاناً فهو يصعد من ورشة الحدادة، حيث الآن سيوف الصراع تـُهيَّأ لك».

لقد أخرجت الابن من حساباتها، وغادرت المشهد، على الفور، بطريقة خشنة مع النساء. هذه الأخلاق الصارمة نفسها لا يمكن تأكيدها عند بلوتارخ. شكسبير يتبعه حينما يسمح لكوريولانوس أن يتصالح مع النساء ويشرب لآخر مرة النبيذ بالقرب من خيمة العساكر.

المشهد القادم يُظهر أن الصياغة الجديدة تقيِّم هؤلاء المندوبين الذين كانوا يستعملون فولومنيا كلسان حال. في حين أن في النسخة الأصلية يتخوف مينينيوس النبيل وممثل الشعب سيسينيوس من خروج البعثة النسائية، ويصل رسول يُخبر سيسينيوس المرتعب أن عليه الهرب، وأن الشعب هجم على ممثله بروتوس، وجرّه عبر الشوارع، وجعله يشعر بالموت، وأن النساء ليست فيهن حاجة إلى العزاء. ويدخل رسول ثانٍ ويعلن انسحاب الفولسكريين تحت قيادة كوريولانوس. وعند بريشت يظل هذان المشهدان المتصارعان اللذان يُظهران، مرة أخرى، عدم أهمية ممثلي الشعب.

دخل الرسول:

«الخبر الجديد

الفلسكريون ينسحبون ومعهم ماركيوس»

بروتوس الذي لا يريد أن يشحذ همّة الشعب عبر الشوارع

والـذي أخذ مـكان النبيـل مينينيوس عديـم الفائدة يقـف إلى جانب سيسينيوس، يقول:

«تملمـل الحجـر. الشـعب يرفـع السـلاح والأرض القديمـة تحركت».

يُظهر المشـهد الأخير من الصيغـة الأصلية، وما قبل الأخير من النسـخة الجديدة، مقتـل كوريولانوس فـي مكان عام فـي أنتيوم من طرف الفولسـكريين. في النسخة الأصلية، لسـنوات عديدة، تقررت الحرب بين نبيليـن: أوفيديوس وكوريولانـوس يتحاربان دائماً على قـدم المسـاواة حتـى وإن تمّ طـرد كوريولانـوس من رومـا، على يد العامة، أدّت هاتان الشـخصيتان، كأعمال خطيـرة لنبيلين، دوراً مهمّاً فـي التـوازن. لذلك ارتفعت أصوات، واسـتمرّتْ إلـى النهاية، وهي تنادي بنبـل كوريولانوس والثناء عليه، بعدما هيأ أوفيدوس مراسـيم الحزن. أوفيدوس كان له شرف قراءة الكلمة الأخيرة من المأساة:

«غضبي زال وقلبي يخترق الخلاف».

حمـل جثمـان كوريولانـوس ومسـيرة الجنازة هي الموسـيقى الوحيدة لهذه المأساة.

عند بريشت تم قتل شخص لا لزوم له بدم بارد وبطريقة ميكانيكية والـذي أدّى دوره حتى النهاية. لا وجود لموسـيقى حزينة. ولا نعي. وعرض أيضاً مشهد كان فيه لممثلي الشعب شرف إلقاء كلمة الختام. روما، ومجلس الشـيوخ، والقنصل، وأعضاء مجلس الشيوخ وممثلو الشعب، اجتمعوا في جلسة واحدة. صدر قانون وقُدِّم التماس ليحمل الرسول خبر مقتل كايوس ماركيوس كوريولان سابقاً. مينينيوس يريد تقديم الطلب بتخليد اسم واحد من أكبر الأبطال غير المحظوظين في كابيتول. هذا الطلب أزاله بروتوس من فوق الطاولة:

«الطلب: أن يواصل مجلس الشيوخ مراقبة العمليات التجارية اليومية».

واستجمع قنصل اسمه غير معروف قواه:

«سؤال: النبلاء يطلبون للورثة طبقاً لأوامر نوما بومبيلويوس من الآباء، والأبناء، والأخوة، غير أن النساء مسموح لهن بفترة للحزن تصل عشرة شهور».

يروي بلوتارخ بأن هذا الطلب تمت الموافقة عليه؛ ليفيوس لا يؤكد خبر وفاة كوريولان، ولا فترة الحزن، ولكنه يعتمد على تقرير فابيوس الذي قال إن كوريولان أصبح متقدماً في السن كثيراً، وبريشت، على العكس يترك شيكسبير، وبلوتارخ وليفيوس. حيث يدع بروتوس المعتمد على نفسه يمارس الرقابة على طلب فترة الحزن الذي قدمه بكلمة أخيرة: «ضُرب عنقه».

ثمة نقاش رباعي غريب تحت عنوان «دراسة أول ظهور له في كوريولان شكسبير». وقد حاول بريشت، هنا، رسم الحوار الأولي مع مساعديه. وبشكل مضحك دائماً يتحدث بريشت أو أن الكلام يكون بلسانه. فعلى سبيل المثال يسأل دال: «هل يمكننا تغيير شكسبير؟» وبشكل نسبي يجيب بريشت: «أعتقد أننا يمكن أن نغيّر شكسبير إذا كنا نستطيع ذلك»«

مع ذلك هكذا تُقرأ المحادثة المدوّنة وكأنها مُركبة، ما كان ينويه بريشت بصياغته الجديدة عمله مع كوريولان. في موضوع العامة يسأل: «هل يكسبون الحرب ضد ماركيوس؟» وهل يترك الجواب يأتيه من الحرف راء «بكل تأكيد بالنسبة لنا».

حصيلة هذا النقاش الرباعي تم تلخيصه في نهاية المطاف.

يسأل ر: «هل تعتقد أن كل هذا وأكثر من المسرحية يمكن استنباطه؟» يُجاوب بريشت المعروف بمكره: «الاستنباط والتأويل»:

يريد أن يعرف: «هل هذا الإدراك بسبب أننا نريد أن نقوم بتمثيل هذه القطعة المسرحية؟».

يعتمد بريشت على نظريته في الجمال: «ليس هذا فقط. نريد المتعة، وإمكانية أن تضيء هذه المسرحية جزءاً من التاريخ لمعايشة الدياليكتيك».

هذا الهدف إذا كنا متواضعين قد تحقق. ويمكن أن نعرض على الجمهور بواسطة الصياغة الجديدة مسرحية تعليمية. ضمن الحدود المُتفق عليها يُسمح للجمهور أن يُفكر معنا. ولن يُسمح لكوريولان أن يقول ما يُسمح لكوريولانوس. إلى روما التي سحرته قال: «أسحرك».

برتولت بريشت أعاد صياغة هذه المأساة شديدة الحمى في سنوات 1951 إلى 1953. وفي أثناء وقت إعادة الصياغة لم يُدوّن التاريخ القدري: السابع عشر من يونيو. في الوقت الذي يفكر فيه بريشت مدعوماً من طرف ليفيوس، كيف أن شكسبير سلح العامة فقط بهراوات مع بداية التمرد، انتفض عمال البناء في ستالين أليه من دون تدريب ومن دون سلاح للاحتجاج على المقاييس الكثيرة، بالشكل الذي تصدى فيه العامة في السابق، لارتفاع سعر الحبوب. إنها مناسبة لقطعة مسرحية يمكن أن تحمل اسم «العامة تجرب التمرد». مكان الحدث هو خشبة مسرح للتدريب في برلين الشرقية، واحد كان المساعدون والممثلون ينادونه بالرئيس، يتدرب على كوريولانوس، على المشهد الأول، على تمرد العامة، وهو يرغب، أن تتحول هذه الانتفاضة إلى شئ مُضحك وكئيب ولا طائل له.

ونحن نعلم أن برتولت بريشت لم يوقف التدريبات في أثناء الانتفاضات التي عمّت برلين الشرقية وكل الضواحي لتشمل كل جمهورية ألمانيا الديموقراطية. غير أنه لم يتدرّب على مسرحية شتريت ماتتارس «قبر القط». تسمح كل من حالة بريشت والسير والتر راليب بتزوير تاريخ المسرح والقصة الرومانية الإنجليزية لصالح مسرحية تاريخية. إذن في تدريبات «كوريولانوس» تتداخل أخبار التمرد في ستالين أليه التي تروى أولاً عن عمال الخشبة، ثم بعد ذلك عن وفد عمال البناء الذين يزعجون الرئيس والتدريبات.

نعلم أن برتولت بريشت وقف متحفظاً تجاه انتفاضة السابع عشر. وإن تجربته الثورية كانت انتفاضة سبارتاكوس. لقد كتب الشاب بريشت «قرع الطبول في الليل» ويسمى العمال الألمان المنتفضون: «الرعاع».

في قطعتي المسرحية يريد عمال البناء أنْ يقاطعوا تدريبات الرئيس وفي الوقت نفسه يلتمسون دعمه.

يعتقدون بأن المسرحي الشهير، من جهة، مقنع عن طريق مسرحياته وثقافته وارتباطه بالشعب، ومن جهة أخرى تمكن رؤيته على أنه شخص تُقدم الحكومة له الدعم وتصبر عليه كملصق للتراث الثقافي أو كمهرّج حرّ.

نعلم أن التصريحات الخطية لبرتولت بريشت، حول انتفاضة العمال، لم تظهر حتى اليوم بطريقة صحيحة. ورثه ودار النشر يصونون هذه النصوص.

في قطعتي المسرحية التمس عمال البناء من رئيس المسرح وثيقة تحمل توقيعه المهم. ودعوتهم عديمة الحيلة للإضراب العام، الذي لم تذعْه القناة الأمريكية رياس ولم ترد صياغته، وجب عليه

صياغته في كلمات لا يجدها عمال البناء. نعلم أن برتولت بريشت خرج من انتفاضة العمال من دون ضرر واضح... فانزوى في بوكوف ليكتب قصائد مثل «تبديل العجلة»، و«حديد» وكذلك «صباح شرير» لا تزال فرقته تمثل، إضافة إلى ذلك كان تراثاً ثقافياً وملصقاً لبلد لا ينتمي له من جانب جواز السفر. في قطعتي المسرحية لا يرفض رئيس المسرح، صراحة، كتابة أي نص ينتظره العمال منه. إنه يريد تقمصه بمجرد أنْ يظهر له كيف يتصرف البناؤون والنجارون في بداية انتفاضة ستالين أليه، بالنسبة له هو كيفية الاستفادة من الحدث الجديد من أجل طريقة «إخراجه لكوريولان وطريقة انتفاضة العامة»

يتحدث عمال البناء عن ألبريشت وغورتفول؛ هو يتحدث عن مفوضي الشعب سيسينيوس وبروطوس. هم يشرحون الزيادة في المعايير؛ وهو يسأل عن الدور الذي لعبته الحبوب الغذائية لصقلية، ولروما. يستشهد به العمال، وهو يستشهد بشكسبير. العمال يعتمدون على ماركس، وهو يعتمد على ليفيوس. العمال يريدون أن يربحوه لصالح التمرد، وهو يستغل العمال في عملية تمثيل انتفاضة العامة. العمال ليسوا مستقرين على قرار، ولا يعرفون كيف يتصرفون، وهو رئيس المسرح يعرف توجهاته. بالنسبة له يفوز العامة ـ بينما على خشبة مسرح الرئيس التي تعكس انتفاضة عمال البناء تنهار انتفاضة العمال. في التاريخ ـ الذي أصبح منذ السابع عشر من يونيو شيئاً تاريخياً ـ وفي مسرحياتي حيث تترك الدبابات السوفياتية الانتفاضة تنهار. ففي الوقت الذي اعتبر فيه عمال المسرح تدخل الدبابات قضاءاً محتوماً، حيث ما من أحد واجهها بالحجارة، قدم رئيس المسرح عرضاً مرتجلاً عن هذا الموضوع، حول كيفية استعمال الدبابات فوق الخشبة. مهما حدث، دائماً، كل شيء يقوده إلى الخشبة، الشعارات، والكورال والخطاب، سواء أكان ذلك في طابور من عشرة أم اثني

عشر: كل شيء بالنسبة له مسألة جمالية: طبيعة مسرحية صافية. المتعة في المأساة. كوريولانوس وكوريولان. اثنان من مفوّضي الشعب واثنان من مساعدي فرقة برلينه أنسانبل أونسومبل. قدر أعمى والاتجاه يتحرك. أسعار الحبوب وزيادة المعايير. عمال البناء وانتفاضة العامة. ميدان عام في روما ومركز الحكومة في زاوية شارع لايبزيغ. ليفيوس، وبلوتارخ ومُخطط الإرسال لقناة رياس الإذاعية. التاريخ وصياغته. الملكية الفكرية وأصحابها. العيد الوطني وسنة شكسبير: هذه المسرحية تطمح لمن يكتبها من جديد.

# أسلوب عقد الستينات

**1966**

أنا لا أعرف أسلوب عقد الستينات. نقدم أنفسنا على أساس أننا نتقن لغات عديدة ومنفتحون، غير أننا مُقيدون جداً بفعل حواجز الحدود، دفعات الأجيال، التراث، وموانع مماثلة لضواحينا الأدبية. كثيراً ما يتم تفضيل الجهل الذي كان دائماً السبب وراء عدد من الولادات الميتة السريعة لأساليب جديدة. الذي يعرف القليل عن دادا وكورت شفيترز يسمح لنفسه، بطريقة ساذجة، الاحتفال بفن البوب والفن العفوي كإبداع أصلي لعقد الستينات. وحدها العلاقة تجاه التراث الأدبي في شطرَي ألمانيا، على سبيل المثال، إقصاء الفنون التعبيرية في الشرق والغرب ـ فأعمال ألفريد دوبلين لا تنشر في الشرق، ولا تكاد تقرَأ في الغرب ـ يثبت مرة أخرى، أن تعابير التقدمية في الأدب تجد اهتماماً ضعيفاً. إن التطور في سوق السيارات ـ ناهيك عن التكتم حول أبحاث علمٍ الذرة ـ لا يوازيه تطور الأدب، وهو غير مجبر على ذلك، فيجب، أولاً، إثبات أن الطريق من الدراجة الهوائية حتى سرعة ما فوق الصوت حقق خطوات متقدمة.

واسمحوا لي أن أوضح لكم بشكل ملموس بعض تحولات الأسلوب لدى مجموعة 47 في تاريخه الممتد إلى عشرين سنة تقريباً. التي هي مُجتمعة الآن في برينستون.

لقد تأسست المجموعة عام 1947، ثلاث سنوات بعد الاستسلام غير المشروط للرايخ الثالث. لقد هُشمت اللغة والأدب أيضاً مع الديكتاتور هتلر. فالكتّاب الناجون والذين هم، في غالبيتهم، جنود سابقون، وكانوا، في بدايتهم، تحركوا، وقلبوا المادة الخالية من الشكل، وظلت مسائل الأسلوب ثانوية. وقد قيل إن الحقبة النازية، الحرب، واللوم والشعور بالذنب بصمت الكتابة النثرية والشعرية.

الحطّابون قطعوا الأشجار عشوائياً ليصنعوا بقعاً ضوئية. يطلق اليوم عليها مرحلة قصيرة مكثفة لا أسلوب لها، غير أنها في غاية الأهمية «زمن أدب الأنقاض». بداية عقد الخمسينات حدَّدَ بعض الشعراء ـ مثل غونتر آيش، باول تسيلان، فولفغانغ فايراوش واينغبورغ باخمان المنحى الذي سيأخذه الأدب الألماني الغربي، بعد الحرب، لعقد من الزمن. وإذا أردنا أن نبقى في الصورة فإن هؤلاء الشعراء عملوا بجهد في نظام الأنقاض، مقتصدين ودقيقين في اختيار الكلمات، واقع الاستعارات الفاقدة لوعيها. وهكذا ببطء، وفي ظل رياح تأريخ ما بعد الحرب، وفي غفلة من الناشرين، نشأت مفردات جديدة. لا يمكن الحديث عن روايات رائجة أو ما شابه ذلك في ذلك الوقت، لا سيّما أن الاتجاه في كتابة النص النثري كان مرتبطاً بتقليد كافكا وهيمينغواي بفضل نضج فاكهة القراءة المتاخرة: لقد كان هناك شغف في التعويض عمّا فات. لقد سمعت عام 1949، وفي سن 22 لأول مرة بوليام فولكنر. ومع ذلك، ما زال في منتصف الخمسينات شيء غير عاديّ في مجموعة 47، التحدث عن الأسلوب ما زال الموضوع هو المسيطر لأنه كان وافراً، فالأسلوب يأتي من نفسه أو لا يأتي، فكانت القصة سيئة من الناحية الشكلية.

في نهاية الخمسينات ظهر في مجموعة 47 جيل جديد، وكانوا شباباً حين وضعت الحرب أوزارها، وإما نازيين أو ضحايا لها. غير

أنهم، من وجهة نظر الشباب، كشهود لهم مسافة مع الأحداث، قادرون على نقل شهاداتهم.

ومع ذلك تبلغ من العمر ما يكفي من منظور بعيد في سن المراهقة. لقد فتح المجال، لأول مرة، كي تطفو على السطح نقاشات الأسلوب داخل مجموعة 47 . وليس كما تم تداول العلاقة بين الشكل والمضمون، على نحو معزول ومدقق ومكتسح. والأكثر من هذا طلب من المضمون أن يكون في الوقت ذاته شكلاً. وكان أمامه إثبات قدرته. وأذكر كلاً من مارتين فالسر، وهانس ماغنوس أنسينسبيرغر، وهيلموت هايسنبيتل، وكلاوس روله ، وبيتر رومكورف، وأنا أنتمي، طبعاً، لهذا الجيل. لم يكن الأسلوب سلوكاً، ولا إضافة جميلة. إن الأسلوب هو الأداة التي تحافظ على برودة المادة.

ووفقاً لملاحظاتي هناك، على الأقل، في ألمانيا الغربية، في النصف الأول من عقد الستينات، عند الكتّاب الشباب، ميل متزايد لفرض الأسلوب بشكل مطلق وعزله عن المادة. سلس، وللوهلة الأولى تستطيع النصوص الجيدة التألق مدة طويلة، وتنسى أن النقص في المضمون أي في المقاومة. إن الأسئلة المتكررة حول الأسلوب، والتي يتم التطرق إليها بشكل سريع في المجلات الأدبية بشكل مناسباتي، يأخذ شكل البيان، ويعلن تغيير الأسلوب، يبدو ذلك في غاية الغرابة. أولاً إن المادة التي تعبر في الشارع هي حرة منذ أكثر من آلاف السنين، ويمكن الامساك بها، إذن تُريد إيجاد أسلوبها الخاص بها.

## حول نقص الثقة بالذات عند الكتبة من مهرّجي البلاط الذين لم تعد لديهم مادة يكتبون عنها

**كلمة ألقيت في برينكتون، 1966**

فهم يقفون غرباء ونادراً بما فيه الكفاية في مواجهة بعضهم البعض: الساسة المجهدون، والأدباء القلقون بمطالبهم المصوغة بعجلة، والتي يجب دائماً أن يُستجاب لها في الغد. أي موعد في اليومية، يا ترى، قد سمح للحاكم، في مدة زمنية محددة، بأن يحتفظ بالبلاط ويأخذ المشورة غير ممكنة التنفيذ، أو يستريح من الحياة اليومية القابلة للمساومة، وهو يسترق السمع إلى الأفكار الخيالية؟ حقاً، كان ثمة في ما مضى عهد كينيدي الأسطوري؛ فيلي براند لا يزال، إلى اليوم، ينصت، بإجهاد وباهتمام مرهق، إلى الكتاب وهم يعددون له أخطاء الماضي، أو ينقلون إليه، في عبوس، أخبار هزائم المستقبل. المثالان معاً هزيلان ويبرهنان على أي حال، بأنه لا وجود للبلاط، وهو ما يعني أنه لا وجود للمستشارين ولا للمهرّجين. لكن، لنفرض من باب الدعابة بأنه موجود: مهرج البلاط الكاتب الذي يرغب في أن يصير مستشاراً شخصياً في البلاط أو في أي وزارة خارجية، ولنفرض بالمقابل أنه لا وجود له: الأرجح إذن أن مهرج

البـلاط الكاتـب ما هو إلا اختـراع كاتب جاد وبطيء العمل، يخشـى أن يُعـرف في المجتمع كمهرج البلاط الكاتب، فقط لأنه قدم لعمدته بعض النصائح التي لم يعمل بها. لنفترض الحالتين: أنه موجود، وغير موجود؛ موجود وجوداً وهميّاً، ومن ثمّة، موجود وجوداً حقيقياً: هل هو إذن أهل للحديث عنه: عن مهرج البلاط الكاتب؟!

لنأخـذ فريق أعمـال شكسـبير وفيلاسـكيس المهـرج نموذجاً، ونراعـي تركيبـات السـلطة القزميـة لفتـرة عهـد البـاروك ـ إذ إن لدى المهرجين صلة بالسلطة، أما الكتاب فنادراً ـ وعودةً إلى الوراء، أتمنى أنـه كان موجوداً، هذا المهرج الكاتب؛ أنا أعرف مجموعة من الكتاب الذين سـتتوفر لهم الأداة، كما يبرهن على ذلك التاريخ، للقيام بخدمة البلاط السياسـية هذه. بيد أنهم سيشـعرون بالخزي، فمثلما لا تناسب صائنـةَ الغـرف كلمـةُ: «عاملـة نظافة»، لا يناسـبهم هم أيضـاً وصف: مهرج. المهرج ليس كافياً. إنهم يريدون أن يتغلغلوا في النظام الضريبي بصورة أبسط ممّا يفعل الكتّاب، وما من واحد منهم يرغب في الخروج والصعود، لكيما يُدعى «شاعراً».

وضعيـة البورجوازيـة التي اختارت نفسـها بوضعها الوسـطي، تسمح لهم بسبب وضعية المهرّجين والشعراء غير البورجوازي وغير الاجتماعـي بالأنفة والترفع عنهم. كلمـا طالب المجتمع بالمهرّجين والشـعراء، والمجتمـع يعرف مـا ينقصه وما يستسـيغه ـ فـي ألمانيا، على سبيل المثال، خوطب شاعر أو قاص في مناقشة عامة من طرف سـيدة أو رجل لايزال شاباً باسم «الشاعر»، سارع الشاعر أو القاص ـ المحاضر منهما، مشيراً، بتواضع، إلى أنه يعير الأمر أهمية، بأن يدعى «كاتباً».

جمـل صغيـرة ومرتبكـة تؤكد هـذا التواضـع: «أمـارس عملي

اليدوي، كما يمارس أي إسكافي عمله». «سبع ساعات أعمل يومياً باللغة، كما يركب الناس المهذبون القراميد سبع ساعات». وحسب المزاج ووفق توزّع الإيديولوجيا الشرقية والغربية: «بانحياز آخذ مكاني في مجتمع اشتراكي؛ أدعم المجتمع التعددي وأدفع الضرائب كأي مواطن من بين المواطنين».

من الأرجح أن هذا الموقف الأخلاقي، هذا التعبير الذي يقصد التصغير، هو من جهة ردة فعل تجاه تقديس العبقرية في القرن التاسع عشر التي جعلت بيوت النبات الزجاجية ذات الرائحة النفّاذة تتكاثر في ألمانيا إلى غاية حقبة الانطباعية. من ذا الذي يرغب في أن يكون شتيفان جيورج، ويسيح مع الشبان ذوي العيون الملتهبة؟ من ذا الذي يضرب بنصائح طبيبه عرض الريح ويعيش مثل رامبو بتركيز ومن دون تأمين على الحياة؟ من لا يهاب صعود كل هذه الأدراج الصباحية إلى الأولمب، هذه الرياضة البدنية التي خضع لها غرهارد هاوبتمان؛ إيقاع القوة هذا، توماس مان نفسه ـ وليكن هذا سخرية منه ـ مارسها إلى سن الكهولة؟

نعيش اليوم معتادين على الحداثة. ما من ريلكه يتمرن أمام المرايا؛ النرجسية اكتشفها علم الاجتماع. ليس عبقرياً، وليس مهرجاً أيضاً، إذ إن المهرج ذو عبقرية غير مقلوبة هو نابغ.

هناك يجلس، إذن، الكاتب المستأنَس؛ يظل خائفاً من آلهات الفن ومن المجد إلى أن يستغرق في النوم. مخاوفه كتائب. لنُكرر: الخوف من أن يُدعى بالشاعر. والخوف من أن يُساء فهمه. والخوف من أن لا يُهتم به. الخوف من المؤانسة يعني الخوف من الاستمتاع: واحد من المخاوف المخترعة بألمانيا والتي ما فتئت تنتشر في البلدان الأخرى، هو الخوف من أن يدعي المرء من تلقاء نفسه بأنه

متـرف!. إذ إن الكاتـب، حينمـا يفكر خائفـاً بأنه جزء مـن المجتمع، فإنـه حينـذاك يعير للأمر أهمية أن يصوغ هـذا المجتمع وفق تصوره، مسـيئاً الظن منذ البداية بهذا التصور كشـيء شاعري فج؛ من «الرواية الجديدة» إلى الواقعية الاشـتراكية مدعوماً بالجوقات الثانوية، يسعى في صدق جاهداً، أن يقدم شـيئاً أكثر من تصور فحسب. إنه، الكاتب الذي لا يريد أن يكون شـاعراً، يسـيء الظن بقطعه الفنية الخاصة. إن المهرّجين الذين يتنكّرون لسيركهم، هم أقل إضحاكاً.

هـل الحصـان الأبيـض يغدو يـا تـرى أكثر بياضـاً، حيـن ننعته بالبيـاض؟ وهـل يُعـدّ الكاتـب الـذي يدعـو نفسـه «ملتزمـاً» حصاناً أبيـض؟ هـذا ما قد عايشـناه: هو، بعيـداً عن الشـاعر والمهرج، ومن خلال وصف المهنة المجرد من الألقاب، غير راض، أنْ يدعو نفسـه ويريد من الناس أن يدعوه «كاتباً ملتزماً»، وهو ما ـ لّيُغفرْ لي ـ يذكرني بخبّاز البلاط أو سـائق الدراجة الكاثوليكي. منـذ البداية، وهذا يعني مـن قبل أن يُثَبّت القوس في الآلة، لا يكتب الكاتب الملتزم روايات، قصائد ومسـرحيات هزلية، وإنما يكتـب أدباً ملتزماً. لا عجب، أن لا يكون هناك، حسب هذا التصنيف الواضح للأدب، إلى جانب الأدب الملتزم، تحته وفوقه، إلا أدب غير ملتزم. أما الجزء الباقي غير المهم، فإنه يُشـهر به علـى أنه «فن للفن». التصفيق الخاطـئ من جهة اليمين يغـري التصفيق الخاطئ من جهة اليسـار، والخـوف من التصفيق من الجهتيـن الخاطئتين معاً يدع أوراق الزيزفون المتسـاقطة فوراً تجعل الآمـال تخضر ثـلاث مرات: بأنه، والسـتارة فوق السـتارة، قد يكون موجوداً: تصفيق الجهة الصحيحة!.

هكذا علاقات الصنعة المضطربة والقلقة، تجعل البيانات تتفتح وتمتص بدل أن تتفتق وتتشرب عرق الخوف، تتشرب الأقاويل. حين

يُقر فجأة، على سبيل المثال، بيتر فايس الذي كتب على كل حال كتاب «ظل جسد سائق الحنطور»، بأنه أديب إنساني، حين لا ينتبه إذن شاعر مغسول بمياه اللغة، إلى أن هذا النعت أُفسد من قبل، على عهد ستالين، حين استعمل ككفارة عن الفراغ، ستصير مهزلة الأديب الإنساني الملتزم، لا شك، مؤثّرة على الخشبة. أما كان أجدى له، إذن، وهو المهرج، لو أنه كان مهرّجاً!.

سوف تلاحظون بأنني لا أفتأ أتعلق بالأوضاع الألمانية في إطار محلي، وهو ما يعني أنني أحاول أن أزحزح رائحة نتنة، لي فيها نصيب. بيد أني على ثقة، بأن ثمة في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً شعراء وأدباء ملتزمين وإنسانيين، وبقية؛ سرعان ما يُشهر بها، بل ربما هناك مهرّجون كتّاب؛ فهذا الموضوع طرُح عليّ هنا في بلدنا على النحو الآتي: مستشار شخصي أو مهرّج البلاط.

حرف «أو» هذا، قد يعني، بأن مهرج البلاط قد لا يكون بمقدوره أبداً أن يكون مستشاراً شخصياً، ويعني بأن المستشار الشخصي لا يلزمه في أية حال أن يحس كمهرج، وإنما كأديب ملتزم. إنه، العلامة الكبير، هذا الذي يعرف أن الإصلاحات المالية ليست قرية في منطقة بومه، هذا المترفع عن مشاحنات الأحزاب والأجنحة البرلمانية، يقول في كل مرة الكلمة الاستشارية الأخيرة. بعد قرون طويلة من العداوة تتصالح الأضداد الوهمية. العقل والسلطة تُبدل الأيادي الصغيرة بأيادٍ صغيرة، بحيث أن: بعد ليالي أرق كثيرة يستدعي المستشار الألماني الكاتب هاينريش بول إلى دار المستشارية. بصمت، يشارك الكاتب الملتزم في البداية المستشار في قلقه، لكي، بمجرد أن يتراجع المستشار ليغوص في أريكته، يعطي المشورة باقتضاب ومن دون انتظار رد. بعد تقديم المشورة، يتحرك المستشار

مـن مقعـده وقد وجد الخـلاص، مسـتعداً لمعانقة الكاتـب الملتزم، بيـد أن هـذا الأخير يعـرض عنه، فهـو لا يريد أن يصيـر مهرج بلاط، وينبـه المستشـار، إلى وضع وصيـة الكاتب موضـع التنفيذ في عمل المستشـار. العالـم المندهش يعرف فـي اليوم التالي، بأن المستشـار إرهـارد قـرّر أن يقـوم بـدورة تفتيش للجيـش الألمانـي، وأن يعترف بجمهورية ألمانيا الديمقراطية وحدود خط أودر- نايسـه، وأن يسـلب كل الرأسماليين ممتلكاتهم.

مشجَّعاً بمثل هذه النجاحات، يُسافر الأديب الإنساني بيتر فايس، قادمـاً من سويسـرا، إلى البلـد المُعترف بهـا الآن، جمهوريـة ألمانيا الديمقراطيـة، ويطلب مقابلة رئيس مجلس الدولة فالتر أولبريشـت. هـذا الأخيـر، وبنفـس حيـرة لودفيغ إرهـارد التي سـببتها المشـورة، اسـتقبل الأديبَ الإنسـاني على المنوال نفسه. المشورة تُقدم، العناق يُرفـض، المشـورة توضـع موضـع التنفيذ؛ وفـي اليوم التالـي يعرف العالـم المندهش بأن رئيس مجلس الدولة ألغى أمر إطلاق الرصاص على حدود دولته، وحوّل الأقسـام السياسـية لكل السـجون وأماكن التأديـب إلى دور حضانة شـعبية. هكذا تقدم المشـورة: يعتذر رئيس مجلس الدولة لدى الشاعر ومغني القصائد فولف بيرمان وطالباً منه، أن يؤلـف أغاني بقواف مضحكة ووقحة عن ماضيه، حين كان رئيس مجلس الدولة في العهد الستاليني.

فـي مثل هـذه الإنجـازات العظيمة لا يسـتطيع مهرّجـو البلاط طبعـاً، هذا إذا وجدوا أصلاً، أن يتنافسـوا. هل بالغتُ يا ترى؟ بالطبع بالغت. حينما أفكر في رغبات الكتّاب الملتزمين والإنسانيين، وغالباً هي عبارة عن غمغمات نصف مسـموعة، أكون غير مبالغ. أيضاً أجد سهولة في أن أرى نفسي في لحظاتي الضعيفة في وضع مريح مشابه،

أي في وضع على الطريقة الملتزمة والإنسانية: بعد هزيمة انتخابات البرلمان الاتحادي الألماني استدعى، حائراً، مرشحُ المعارضة لمنصب المستشار، الكاتبَ الذي يحاضر أمامكم إليه. هذا الأخير استمع، أعطى المشورة، رفض العناق، وفي اليوم التالي عرف العالم المدهوش، بأن الاشتراكيين الديموقراطيين ألغوا نهائياً برنامج غوديسبرغ من، ووضعوا بدله ميثاقاً يشجّع في حدّة وتألّق، ومن جديد في ثورية، الطبقةَ العاملةَ، ولبس قبعات على شكل البالونات. لا، لم تحدث ثورة، إذ بالرغم من كل الحدة فإن الميثاق موضوعي، لا يدع الكنيسة أو الرأسمالية تتعاميان عن حججه. من دون صراع نُقلت الحكومة إلى الاشتراكيين الديموقراطيين. رغبات وإنجازات مشابهة، أعتقد، تُحقق في الولايات المتحدة الأمريكية، حينما يسأل، على سبيل المثال، الرئيس السابق جونسون المحاضر الذي سبقني ألن غينسبرغ المشورة.

هذه الأفكار المثالية قصيرة النفس لا تتحقق، فالحقيقة تقول شيئاً آخر. لا يوجد مستشارون شخصيون، لا يوجد مهرّجو بلاط. أنا أرى فقط، وأحصر هاهنا نفسي، كتّاباً وشعراء حائرين مشكّكين في أعمالهم اليدوية الخاصة بهم، الذين بإمكانهم استغلال أو عدم استغلال أو نصف استغلال الإمكانات الهزيلة، ليس في تقديم المشورة، وإنما في العمل من أجل التأثير في حاضرنا المعهود لنا.

أمام هذه الصورة متعددة التشكلات، المضطربة بالطموحات والأحداث وأزمات الزواج ليس هناك من داع، لتعميم الكلام عن تصرفات الأدباء في المجتمع. مهرّج البلاط أو المستشار الشخصي، كلاهما رجلا خط صغيران، كأنهما رُسما في دفتر ملاحظات، لمُحاور

أصابه الملل. غير أنه، من خلالهم، يُمارس نوعًا من التقديس، يوشك أن يصل، لا سيّما بألمانيا، إلى درجة العبادة.

الطلبة، شباب النقابات، الشباب الإنجيليون، تلاميذ الثانويات وأعضاء الكشافة، الجمعيات الطلابية المحافظة، جميعها لا تكل في دعوتها إلى إجراء مناقشات حول سؤال متعدد النواحي: «إلى أي مدى يسمح للكاتب أن يلتزم؟» ـ «هل الكاتب هو ضمير الشعب؟»

نجد عاشقاً للأدب وناقداً مُحتدماً مثل مارسيل رايش رانيسكي الذي سنسمعه اليوم، لا يكلّ في مُطالبة الأدباء بالدعوة إلى الاحتجاج وكتابة البيانات واتخاذ المواقف. ليس، لأنه يُطلب منهم، أن يكون لهم موقف تجاه الأحزاب، أي أن يكونوا مع أو ضد الديمقراطيين الاشتراكيين، كلا، من وجهة نظر الكتّاب، باعتبارهم نخبة وقورة، لا بد لهم من الاحتجاج ومن لعن الحرب ومدح السلم وإظهار الخلق الكريم. وتُعَلـّمنا بعض معارف المجالات الأخرى بأن الكتّاب مخلوقات متميّزة فردية، حتى وإن وجدناهم يتجمهرون في المؤتمرات. حقاً أعرف الكثير من الذين يُحافظون، بعلاقة مؤثرة، على قطع الإرث الثورية، ومن ثم يستعملونها، أي الشيوعية، هذه القطيفة ذات اللون الأحمر النبيذي بزنابكها الحلزونية التي تتخللها، ليحلموا أحلامهم المسائية المتتابعة، لكنهم أيضاً، المحافظين الصاعدين، قد انقسموا إلى أجنحة مؤلفة من عضو واحد وكل واحد منهم يقرأ ماركسه الخاص به. الآخرون على النقيض من ذلك تحركهم على المدى القصير الإطلالة اليومية في الجرائد والذعر بعدها في أثناء الفطور: «علينا أن نتصرف، علينا أن نتصرف!» حين يفتقد الإغماء الهزل، يكون مؤلماً. في هذه الحالة يوجد الكثير لعمله؛ أكثر من الذي تنطق به المواثيق والاحتجاجات.

كما يوجد أيضاً عـدد من الأدباء، معروفين ومجهولين، بعيدين عـن ادّعـاء: أنهـم يرغبون فـي أن يكونـوا «ضمير الشـعب»، وأحياناً يقلبون مكاتبهم وينشـغلون بتفاهـات الديمقراطية. بيد أن هذا يعني: البحث عن المسـاومات. لنكن على علم إذن بأن: القصيدة لا تعرف المسـاومات؛ لكننـا نحيا بالمسـاومات. إن الذي يتحمـل هذا التوتر يومياً هو مُهرّج ويُغيّر العالم.

## على ورقة فضفاضة

**1966**

كلما تراجعت قيمة الأسـهم، ارتفعت قيمة الشعر. فجأة ، وبعد ما ارتبطنا، خلال سنوات، بورقات محددة الفائدة، فإن الخسارة توجد قبـل الفاصلة على أبـواب غرفة الإنعاش، فجـأة نلاحظ أن أصحاب المتاجر يحملون قصائد قصيرة وطويلة ذات فائدة الفائدة .

واسـمحوا لنـا بتـداول الشـعر فـي البورصـة لترتعـد فرائـص مانسمان. سبعة أشـطر مقفاة. عندها يرتفع رأسمال القصيدة وتصبح كأسهم وطنية.

سـت مرات في السـنة تجب كتابة قصائد شـعرية من مقاس 18 على 50. كل واحدة في حدّ ذاتها تعوض 42 كتاباً.

فالقصائد هي فردية

فالبعـض الـذي يكـون مُدججاً بالسـلاح لا يسـتطيع المشـي. وسـيتم التأكد من هذا على ورقـة فضفاضة، ومن دون تذييل للكتاب وبدون مسـاحيق، ولكن في غاية الواقعية وواضحة القراءة. فمن حق هذه القصيدة الحصول على الريادة.

قصائد معلّقة على الحائط

قصائد للتبادل، للجمع، للإهداء
وليست عينات بالتقسيط
لا مقبلات مسلسلة.
قصائد لا يمكن أن تكون مسؤولة عن نفسها
من دون مساعدة تنموية.

لأن القصائد مرتفعة الثمن ـ وتوافق تكلفة سجع جيد تقريباً تكلفة لغم فردي ـ القصائد تكلف كثيراً.

تكلّف قصيدة واحدة زهاء مارك (ولأن قيمة المارك منخفضة، ستكلف فقط 64 فينيكاً أو أقل من ذلك)

كُلفة سبع قصائد مطوية في ظرف بريدي، إذا كان المارك الألماني يساوي ماركًا واحداً، هي أربعة ماركات وثمانون فينيكاً. وبما أننا نسلم كل شهرين سبع قصائد، وكما سيقول أنسينسبيرغر بشكل صحيح نسبياً بكونه اكتشافاً لاستغلال رأسمالي، فعن طريق الخصم يكلف «الانخراط السنوي» 28 ماركاً وثمانون فينيكاً في صُلب أزمة الوضعية الاقتصادية على المدى الطويل سيكون أحفادكم جد سعداء. كلّما انخفضت الأسهم ارتفع عالياً سهم الشعر.

# تدقيق النظر

## كلمة بمناسبة وفاة النحات كارل هارتونغ، 1967

في خريف عام 1952 رأيت معرضاً للتماثيل الصغيرة في دوسلدورف للنحات كارل هارتونغ: الهدوء على معظم الأشكال، سواء كانت أنثوية أو نباتية، متخلية عن السطحية ومشذبة بعناية يقتضيها المكان، تفرض على المشاهدين القلق. وتعرض من حولها المنظر الجانبي. كنت وقتها تلميذاً ـ لأن النحاتين والرسامين لا يدرسون ـ في أكاديمية الفنون في دوسلدورف ـ غير أني كنت أرى مُدرّسي نادراً. ولهذا كنت في حاجة إلى مُدرّس.

أرسلت الرسوم والصور من التماثيل إلى برلين. ووافق هارتونغ أستاذ كلية الفنون الجميلة على ذلك. واشتغلت من كانون الثاني/ يناير 53 إلى صيف 56 في ورشة النحات كارل هارتونغ. وفي اليوم الأول اشتريت مقلاة وبصلاً ونصف كيلو من سمك الرنجة الخضراء، وكان في الاستوديو موقد كهربائي. قال أحدهم: «هنا زبدة المارغرين» رسمت الرنجة قبل وضعها على الموقد. وحين بدأت رائحة السمك المطهي تعمّ الجبص والخرق والمكان بكامله، دخل كارل هارتونغ إلى الورشة ورحب بي متسائلاً:

«هل تطبخ دائماً؟».

«يومياً».

كنا نتبادل وصفات الطبخ. وتلقى تصويري لسمكة الرنجي النقد «إنها خالية من الشوك. يجب الانتباه تماماً، لقد ابتكرتم زخرفاً. الرنجة هي أكبر من أن تخترعوها. الطبيعة وبكل تأكيد الوعي أيضاً».

هذه الكلمات الأربع ـ لها وقع أكبر من الجملة ـ كانت أسراراً فنية لعامل غني بالأشكال، بالبنيات والمشاريع الخيالية الساكنة مقابل الطبيعة الخلاّقة. للنظر وقلة الكلام الجذّابة كأنه على استعداد للتضحية بكل منتوجه من أجل التعدد المنتج الخلاق لسرطان البحر، من أجل واحد من الماء بمساعدة زمن الحجر المشكل، ومن أجل الغنى الفني للرضفة الإنسانية.

يمكن أن يندهش كارل هارتونغ. دخل مرسمنا وقت الظهيرة للقيام ببعض التصحيحات، اقترب من التمثال كأنه يحيّيه، وبدأ يحدق بصابونة الركبة للساق الثابتة كأنه يرى هذا المسلسل المحدود لأول مرة. ما صنعنا لساعات من هذا النموذج الخشبي، سماه هو فناً سطحياً من دون عظم. وببعض القطع بالشريط وضع البداية لعمل مُجسم الذي حالاً عملنا على إتمامه باجتهاد، تدقيق النظر وليس الدعك عن ظهر قلب.

عند كارل هارتونغ تعلمت استثمار الأحجام. يأخذ مني لذّة النتائج المتسرّعة. قال مايلول ابتعد!

تمثلت أصالتنا في إمكانيات العث لوقت لاحق. بحيث أخذنا طريقة حسابه للزمن من أجل تشكيل عظم العمود الفقري، وتلزمنا سنة من العمل ـ قلدنا مللّه الطويل. فهو لا يزال ناقصاً، برغم أنه يظهر كاملاً. من الأفضل العمل حتى الإرهاق عوض عرض حياة مزيفة على المنصة. هذا ما قام به كارل هارتونغ، من دون هوادة يستبعد كل

نـوادر، كل حركـة سـردية، وكل مجاملة. تماثيله لا تعـرف المجاملة والعواطف الراضية.

المحافظة على برودة المواد.

التفكير مع الحجر

دائماً الأسهل، البحث عن اللاشكل.

فمدرسـته الفرنسية وحذره الشـديد تجاه الزخرف منعاه من أن يصبـح رمزاً. وبمجرد أن تصبح أعماله غريبـة عنه، يقتنع بها. إنه رمز لقيـاس زمنـه العضوي: لقد نشـأت ابتـداءً من منتصف الخمسـينات أوراق من أحجام كبيرة، كانت مكسـوّة بأشـباح مونوطونية، وهياكل عظميـة مرتبطة فـي ما بينها، صـورة السـياج النباتي كنمـوذج ما قبل الشكل للنقوش البارزة التي ظهرت في ما بعد.

ثـم أصبحت الأمور هادئة حول كارل هارتونغ. وجاء المرض. وكالوحي اكتشـف النحّاتون الشـباب جهاز التلحيـم. وأخيراً تنطلق هـذه المهنة بقـوة من اليد. قياس هارتونغ للزمـن أصبح إلى حين في طيّ النسيان.

قـرأت نبـأ مـوت أسـتاذي في صحيفـة قديمـة، وأنا فـي منطقة بروطون. ولذكراه اشتريت صدف وسرطان البحر. أنظر بدقة:

وهـذا يمكـن الوصول إليه مـن جميع الجوانب، عملية بسـيطة ومحدودة: الطبيعة ـ وطبعاً الوعي.

# امنحونا حرية التفكير

**إلى رئيس الدولة والسكرتير الأول للحزب أنتونين نوفوتني**
**تشيكوسلوفاكيا، 1967**

السيد رئيس الدولة المحترم

اطلعت اليوم في «السانداي تايمز» على نداء استغاثة من طرف الفنانين والباحثين التشيك. الموقعون على البيان والذين يتعدون الـ 300 اسم، يطالبون بعدم تعريض حياتهم الشخصية للخطر، ويشيرون إلى حالة الاختناق التي أصابت الحياة العامة. غير أن النداء العاجل الموجَّه لي شخصياً والذي يطلب مساعدتي يبيّن لي بشكل جلي أن الأمر يتعلق بأصدقائي.

ماهي مطالب الفنانين التشيكيين؟ حرية الرأي، حرية التفكير، ورفع الرقابة. إنها مطالب قديمة، قديمة قدم الكلمة. هذه المطالبة بحرية الكلمة نجت من كل الديكتاتوريات التي عملت آلتها السلطوية كما هو الشأن في بلدكم كما في بلدي على تتبع الكلمة الحرّة، ومحوها، ووضعها تحت الإقامة الجبرية. تقنية النجاة هذه في غاية السهولة. واستأذن في البوح بسرها: إن الكتّاب التشيكيين والألمان استطاعوا إيصال الكلمة الحرّة على رغم جبروت ميترنيخ

وهتلر وستالين. لا تتمتع آلة السلطة بالذكاء الكامل في ممارستها للقمع الكلي. بيد أن حاجة الناس إلى الكلمة الحرّة، واللامهادنة، والمتشكّكة والمحرّرة والمقاضية، هي أكبر من طلب الحصول على أمن صوري يكون دائماً على حساب الحرية التي تريد الدولة أو الدول حرمان مواطنيها منها.

السيد رئيس الدولة، لكم السلطة الحالية. سلطتي تقتصر على الكلمة، وهذا لا يعني أن سلطتكم أكبر. على هذا النحو تستطيعون السيطرة بشكل مطلق على الوسائل الحالية والناجعة للعنف. إنه في غاية التهديد أن يكون بين أيديكم كبح الفنون، كم هي قليلة الأجهزة والعقائد الجامدة التي لا يمكن أن تتغلب على الكلمة الحرّة على المدى الطويل. يومياً يكون لزاماً على عالمنا أخذ تسميات جديدة. فهو يعيش من التناقض. من يريد التبشير بحالته الراكدة؟

ما الذي يمنعك من البحث في الكلمة الحرّة عن حلفاء غير مُريحين؟ لقد منح الفنانون التشيكيون في وقت وجيز ومن طريق أعمالهم تشيكوسلوفاكيا سمعة عالمية. ليس ما يصلنا هي الآراء المتوافق عليها بشكل تجهمي داخل مؤتمرات الحزب. لكن الذي وصلنا وأثّر فينا وغيّرنا هو الشعر التشيكي، والفيلم التشيكي، والمسرح التشيكي الشاب. وهل تريدون التخلي عن هذا الغنى؟.

بالخوف فقط من الكلمة الحرّة تريدون إلحاق الضرر ببلدكم، الذي يضرّنا نحن والعالم كله.

أنا أكتب أيضاً في بلد عرف الإرهاب، وهنا أيضاً لم يُصلح الضرر بعد الذي تركه الإرهاب السياسي. الذي ما زال تأثيره قائم من خلال الرقابة التي تزحف ببطء، أو الرقابة الذاتية الاختيارية. سواء

عن طريق الممارسات الملموسة القوية لمجموعة شبيرنغر للصحافة التي ظهر مؤخراً إلى العيان نظامها الإجرامي في التنصّت.

لا يوجد من سبب يدعو إلى الاستكبار بحرية الغرب، هنا لا مجال للغطرسة. لهذا السبب أمتنع عن كتابة هذه الرسالة من على المنبر المفضل للحركة المضادة للشيوعية. إن أزمة الديموقراطية هي ذات أبعاد عالمية. وإذا تحجرت الحكومات الشيوعية التي ترزح تحت ديكتاتوريات الأحزاب البيروقراطية، ركدت الديموقراطية الغربية أيضاً، لأن برلماناتها فاسدة.

ضد شكل هذا الحكم في الشرق والغرب تتحالف خارج الإيدولوجية الجامدة معارضة لا تملك مؤسسات ولا سلطة. هذا الإحساس بالعجز هو الذي جعلني أتردّد في التحدث إليكم في وقت سابق. لأنني أكره الاحتجاج المجاني لتسخين العضلات فقط. إن طلب أصدقائي وزملائي التشيك المباشر والشخصي لدعم نضالهم من أجل حرية الكلمة هو الذي أجاز لي هنا من منطلق الأمان الغربي أو شبه الأمان لنشر احتجاجهم.

قبل زهاء سنة توصلت إلى خبر مفاده أن كتبي ستترجم إلى التشيكية. لقد أفرحني هذا، لأن الكتب لا

تعرف الحدود. اسمحوا لي السيد الرئيس المحترم أن ألتمس منكم رفع الرقابة عن كتبي وعن الأعمال العلمية وكتب وأفلام ومسرحيات زملائي وأصدقائي. لمصلحة حزبكم وبلدكم أوجه نداءً لكم: امنحوا الحرية للأفكار. هذا ما يكتبه لكم كاتب ألماني واشتراكي ديموقراطي.

أودّعكم وكلّي رجاء وأمل في رصانة عقلكم وتسامحكم.

**غونتر غراس**

ملاحظة: لقد سمحت لنفسـي أن أرسل نسخة من هذه الرسالة العلنية إلى ناشـري التشيكي ملادا فرونتا، وكذلك إلى اتحاد الكتاب التشـيك، وكذلك إلى الجريدة الأسـبوعية «دي تسـايت» التي تصدر في ألمانيا الغربية.

## قضية فيتنام، هي قضيتنا أيضاً

**1968**

في ميدان الحرب البعيد يخسر الأميركان رغم وضعهم المناسب عسكرياً ـ من ناحية عدد القتلى ـ ربما لا يخسرون الحرب لكن مكانتهم الأخلاقية الأخيرة. الولايات المتحدة الأميركية فقط؟

يشعر حلفاؤها في أوروبا قوة الامتصاص أيضاً الذي كان حتى الأمس يُدعى صراع محلي، وصار اليوم يهمّ العالم بأسره. وبما أن الولايات المتحدة الأميركية تدّعي أنها تحارب من أجل حرية الغرب، فإن قصف شمال فيتنام بالقنابل لن يُقابله مُعارضة سياسية فعالة الذي يضع مسألة الحرية في الغرب موضع تساؤل.

قبل بضعة أيام كان يبدو أن الحرب في فيتنام أمر ثانوي، خصوصاً بعد الوصفة التي قدمها المستشار الألماني الذي كان على رأس حكومة ائتلاف كبير أسهمت في وضع قضية فيتنام على الرفوف مدة من الزمن. لقد تم فهم الأمر داخل جمهورية ألمانيا الفدرالية على أن حرب فيتنام هي السبب الرئيسي لاحتجاجات الشباب، من الناحية الرسمية لم يُذكر موضوع الحرب لكن الملفت للنظر هو الاحتجاجات ضد حرب فيتنام وأشكالها.

كانت الاحتجاجات في جمهورية ألمانيا الفدرالية ضد الحرب

في فيتنام كثيرة، ورغم ذلك ظلت هذه الاحتجاجات دون نتيجة تذكر، لأنه لا الحكومة الألمانية ولا أحد من الأحزاب السياسية الكبيرة وجدت في احتجاجات الشباب أو انزعاج الغالبية من المواطنين تأثيراً سياسياً.

ولقد عانت الاحتجاجات من هذا التصوّر. ففي غياب مخاطب ضاعت الاحتجاجات وأصبح ينظر إليها كمتنفس فقط لنظرة نقدية إلى سوء الأحوال داخل جمهورية ألمانيا الفدرالية.

لقد اجتهدت الحكومة الألمانية كثيراً وبالغت في الصمت حتى ولد موقفها بممالأة الأميركيين شعوراً بالوطنية أكثر من ذلك الشعور الذي يحمله الأميركيون أنفسهم.

إن هذا الصمت التزلفي وهذا الموقف الخاطئ للتحالف الوفي يحمل في طياته احتجاجاً سياسياً من دون معنى. إنه غير قادر لا على الضغط على البرلمان ولا على الوقوف في وجه تزايد السخط وتمادي الشعور بمضادة كل ما هو أميركي.

منذ الخامس من يناير هناك موقف رسمي لأول مرة ضد الحرب على فيتنام، إذْ أدلى المكتب الفدرالي للحزب الاشتراكي الديموقراطي بتصريحات ضد قصف شمال فيتنام وأعلن مساندته لمواقف الأمين العام للأمم المتحدة السيد يوثانت. إن الموقف العلني الواضح للحزب الاشتراكي الديموقراطي له سبب تاريخي: ففي حديث لوكالة الأخبار الكاثوليكية، ساند عمدة برلين فيلي برانت المساعي السلمية للبابا، وقد صرّح في أثناء انعقاد المجلس الاستشاري للأممية الاشتراكية السنة الماضية بزيوريخ قائلاً: «يجب على أحزاب الاشتراكية الأممية أن تجنّد وتعبّئ طاقاتها ومجهوداتها وتأثيراتها السياسية والأخلاقية كي تضع الحرب أوزارها. وكلما

استمرت الحرب في فيتنام فإن عدداً من المشاريع التنموية ستلغى أو تتأخّر إضافة إلى وقوع ضحايا جُدد».

حينئذ تحفّظ كل من المستشار الألماني كيسينغر والناطق الرسمي باسم الحزب المسيحي الديموقراطي من مبادرة الحزب الاشتراكي الديموقراطي.

تحدث كورت جورج كيسينغر على خطأ فظيع وهو التدخل في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة الأميركية، كما لو أن الحرب في الفيتنام بشكل قاطع هي قضية أميركية. وكأنه من الصعوبة عليه التخيل بحدوث أزمة برلينية جديدة ستنجم عن حرب الفيتنام. وكأنه من الصعب التصور أن الحكومة الألمانية غداً ستتحمل تكاليف هذه الحرب. إنه سوء التقدير الناجم عن قصر النظر والتكتيك السياسي الحزبي.

وهكذا بشكل متأخر ـ وأتمنى ألا يكون الوقت قد فات ـ قرر الحزب الاشتراكي الألماني التدخل لا ضد أميركا، ولكن لنصرة المجهودات والمبادرات التي تدعم السلام في أميركا.

لقد أسهمت تصريحات الحزب الاشتراكي الألماني حول حرب فيتنام في تأجيج الصراع السياسي بين الأطراف السياسية في حكومة بون. وتبين التجربة أن تصريحات المستشار والناطق الرسمي باسم الحزب المسيحي الديموقراطي ستؤدي إلى تشويه سمعة الاشتراكيين الديموقراطيين في السياسة الداخلية الألمانية، لكن الرأي العام الأميركي استقبل المحاولة الالمانية الأولى للنقد المباشر بشكل واقعي. ألم يكن جلياً للمستشار أن تهجّمه على مبادرة الاشتراكيين الديموقراطيين هو في الوقت نفسه تهجّم وإهانة للمبادرة الهولندية والفنلندية الموازية ولأغلب الحكومات

الأوروبية؟ إن كورت جورج كيسينغر بموقفه هذا يحتقر السياسة الخارجية الألمانية ولا يخدم الحليف الأمريكي.

في كتابه «غطرسة السلطة» قال السيناتور الأميركي ج. وليام أولبرايت: «إن خسائر حرب الفيتنام تشكل وعلى نحو طبيعي السبب في أن الأميركيين ليست لهم القدرة على تبوّء الريادة لتحقيق الصلح بين شطري أوروبا». ولهذا السبب فقط وجب على مواطني جمهورية ألمانيا الفدرالية دفع حكومتهم إلى تأييد مبادرة الحزب الاشتراكي الألماني. ليسود السلم في فيتنام وتتطوّر نظرة السياسة الألمانية. (لا يمكن التصديق بشكل أعمى أن الدفاع عن حرية برلين يجري في فيتنام، نعم ربما سيتم التلاعب بها هناك).

كما يجب على الاحتجاجات على الحرب في فيتنام أن تتبنى موقف الحزب الاشتراكي الديموقراطي حتى يكون ذا تأثير كبير. هذه المساندة الرزينة ستفسح للاحتجاجات طريقاً جديدة. ليس ارتفاع وتيرة الحقد على كل ما هو أميركي، أو الخلط غير المبرر للجنس بالتقارير حول حرب الفيتنام كما تفعل مجلة كونكريت بطريقة محطة للكرامة. بل إن الحق السياسي والأخلاقي على الحكومة نفسها هو الذي يعطي الاحتجاجات على الحرب معنى.

إن البرلمان هو المكان الطبيعي للمناقشة الموضوعية وللتصويت ضد استمرار الحرب في فيتنام. إن الأميركيين بحاجة إلى النقد مثل ألمانيا بحاجة إلى نقد حلفائها. لقد خبرت ألمانيا في الحرب العالمية الأخيرة قصف المدن من كوفنتري إلى دريسدن. هذه المعرفة تُعطينا الحق في الكلام.

## نقاش مفتوح

**كلمة ألقيت على هامش تظاهرة «ورشة الدراما» في برلين، 1968**

سيداتي وسادتي

لأنـه لا توجـد حقيقة واحدة، بل هناك عددٌ مـن الحقائق، يظهر وبشـكل حصري أن عدداً من الحقائق تدعي الفرادة. لا توجد حقيقة واحدة دون شـروط: فحقيقة شاشـة التلفاز تناقض ما تدعيه الحقيقة، وبشـكل أقل، الحقيقة فوق خشـبة المسـرح تتناقض مـع الحقيقة في المطبـخ أو حقيقـة قاعات المحاضـرات، وبشـكل تناقضي تتصرف حقيقة الرواية القصصية مع المشهد داخل الحوار المسرحي.

ولأن هذا الملتقى هو ابتهاج عقلاني على شكل ورشة، سأحاول البحـث في الحقيقة داخل الرواية والحقيقة في المسـرح. وإذا كانت هذه الورشـة الفضولية مملة، إذن سـأثير انتباهكم إلى إمكانية وجود حقائق أخرى مسلية خارج هذه القاعة.

من هنا يأتي السـرد القصصي جاهزاً، الذي يخلق عائلات، هي بدورها تخلق عائلات أخرى، تستوطن مناطق الريف، وتغيّر، بحيث يجعلنا على مقربة من كومة ركام البارحة، غير أن السرد القصصي لن يواصل طريقه أبداً إلى نهار اليوم.

وهكـذا مُحاطـة ومُندمجـة بالماضـي، تقـول ضمائـر الماضي

المتعـددة كلٌّ على حِدَة «أريد الآن الجلوس، الذهاب، ارتداء قبعتي، القيام بشـيء مـا». القصصي يوجـد وراءنا. ولهذا يحـاول القصصي إدراك الوقـت فـي الحاضـر، افتعـال الشـك، أو ـ كما هو الشـأن في حالتي ـ تحضير الشيء المقلوب ليصبح مشهداً مسرحياً.

حين يكون الراوي بوضع غير مناسـب على نطاق واسـع سواء كان ذلـك فـي حالـة الماضي، أو في حالـة الحاضر، بتوسـيع الآفاق ومحاولـة إخفائهـا في المركز، فيسـمح لنفسـه ولعناصـره بالنهوض من الشـكل المنقوش المسـطح: يتحجّر الوسط الاجتماعي الشفّاف والمائع ليتحوّل إلى كواليس. الشخوص يقفزون من ما قبل تاريخهم المتفـرّع، لا يرغبـون فـي التموضع في الطبيعـة. لا يرغبـون أبداً في الارتباط بفصول اللحن. يريدون التحدث والفعل مباشـرةً. يخلقون بأنفسـهم مشاهد خاصة بهم، يضعون صيغة الشرط والوصف الدقيق لظلهم في رُكن الملابس. لأن الذي أخذ مكاناً واسـعاً والذي تكيّف بتناقض مع أشـياء من كل الأشـكال والنظريات، يتقلّص الآن، حالما يفتح المشـهد، بتوجيه من تعليمات المخرج. يُجدّد الحوار السـردي شبابه على الحوار المسرحي ويحتل القمّة.

إن الفصل المنزاح يفسح مكانه للمشهد، حيث يحكم الحاضر، وبعدها يمكن مرة أخرى للسرد الذي هو على شكل غمغمات تجريب مشية السرطان في الماضي.

قمـت بهذه التجربه أول مرة أثناء الاشـتغال علـى رواية «الطبل الصفيـح». إن معاينة خط الدفـاع الأطلنطي من قبل مجموعة ممثلين من مسرح الفرونت تحوّل إلى مسرحية من فصل واحد، حيث تحول «أنا» الراوي أوسـكار ماتسـيرات إلى شـخصية ثانوية من دون نصّ.

ظهـرت الحاجـة المماثلة نفسـها في رواية «سـنوات الـكلاب» التي تحوّل فيها الخطاب السردي من تلقاء ذاته إلى حوار مسرحي.

نحـن الآن في الصفحـه 622، إلى هذا الحدّ تنتشـر أحداث «ما قبل التاريخ» المعقّدة والمتشابكة.

تتألـف صداقة ماترن مع إدوارد أمزل من المتناقضات. وبفضل مناقشـة عامـة يجري الكشـف عن ماضيـه، حتى تتّضح بشـكل جلي صورة ماترن، أو يحصل تناقض إضافي.

ولكن واحدة أيضاً من أكثر الوسائل الشعبية محبّبة في مجتمعنا أي النقـاش العـام، تعرض نفسـها وتتعـرّى. يتم الإعلان عـن إجراء مناقشـة، والذي يجري التحقيق، وخلف قناع الديمقراطية يتم كشف الماضي النازي لفالتر ماترن بأساليب تتناسى أصله. ليس هناك فعل، هناك سير نقاش مُخطّط له. ليس هناك ممرّات متحرّكة، ولكن يوجد ثبات قسـري فقـط. فالعفوية مبرمجـة، والهتافات تتمنـى أن تتعالى. يجب أن يناقش ماضي ماترن، هذا ما يعنيه المؤلف، في كل الأحوال تنجلي ميكانزمات النقاش العام واستعدادها المستتر يصب إلى قاعة المحكمة. ونحن جميعاً طرف في المناقشة. من سنهزم اليوم؟

وبعبـاره أخرى ، فإن ما يسـمى بموضوع النقاش والمتناقشـين يستسـلمون ببطء إلـى وحـدة النقيضين، التي تسـمح لـي بالحديث عن دياليكتيك مسـرحي. بالنسـبة لي تنتج عن المشهد المسرحي في الرواية النظرة في أسـلوب العمل، والتـي تكون من نتائجه القادمة أن «العامـة تجرّب الانتفاضـة» وهذا يعني تطوّر نتائجها في المسـتقبل، غير أنها لا تحمل أي اسم.

وأكـرّر: لا يوجـد مسـرح ذاتي يسـتفز هـذه القطعـة، بالأحرى

استنباط الشروط غير المسبقة لمشهد مسرحي عن طريق أدوات السرد المحكية، التي تجري وقائعها على خشبة المسرح: إنها واقعية إضافية.

هذه المسرحية ذات المشهد الواحد عرضت قبل سنوات أول مرة في مدينة ميونخ. وكنت أعتقد في ذلك الوقت، أنه يجب أن أعوّض من صيغة الرواية صيغةً مسرحية معالجة تحت اسم «الفم الذهبي». وأعتقد اليوم ترك صيغة الكتاب تتحدث عن نفسها كما انبثقت من النثر. فـ«المناقشات المائة المفتوحة حول الماتيرنياده ـ نسبة إلى ماتيرنه بطل الرواية ـ» ستعرض للنقاش.

## خمسون حجراً من الصوّان

**1968**

كنت أشتغل قبل 20 حزيران/ يونيه 1948 نقاشاً على الحجر في ورشة للبناء في دوسلدورف، وهذا يعني أنني كنت أرمّم ما دمّرته الحرب على واجهة بنكية في كونيغس آلي. وفي الطابق السفلي ـ كان بمقدورنا نحن الحرفيين ـ أن نرى، عبر ثقوب السقف، أموالاً جديدة تجمع.

لم أعد أذكر، على وجه الدقة، ماذا فعلت بما تبقى من الأربعين ماركاً. أختي تدّعي أن والدَيَّ وأنا جمعنا نصيباً من المال واشترينا لها ساعة يدوية (الساعة لا تزال في البيت، غير أنها معطلة).

ففي الوقت الذي بدأ أناس آخرون بسلع مكنوزة في زمن مسيحي ومادّي جديد، بقيت أنا جالساً على سوق رأسمالي أسود زهاء خمسين حجراً من الصوّان.

# العقلية الفاغنرية

**كلمة ألقيت في مؤتمر أساتذة الأدب الألماني في برلين، 1968**

سيداتي وسادتي

لقد وافقت على قراءة الشعر أمامكم تلبية للدعوة التي وُجِّهت لي لقراءة أعمالي. ويمكن الجهر، من ثـمَّ، بأفكار من قبيل أنْ تكون أفكاراً، يعني منتوجات فنية، مقابل مطالب لطلبة اللغة الألمانية كنوع من تقوية الاحتجاج الذي لا يساير العصر وتصبح خطراً على المؤتمر وينعدم الأمن. نعم في زمن من ميزاته الموضوعات القوية؛ حيث يطلق عليها بكل فرح وبشكل مجاني ما قبل الثوري، يمكن أن تكون القصائد كاستفزاز ضد الثورة. والكارثة أن تنتشر الفوضى.

كونوا على يقين: سأقرأ شعراً. إذ إنَّ صفة «ما قبل الثورة» كان لها قليل من الاستحقاق في الشهور الأخيرة. وهكذا يخوّل لي إطلاق المطلب الثوري الذي هو عبارة عن صفة «معادي للفن».

ليس جديداً في بلد يتمّ فيه البحث في ما إذا كانت القصيدة أو الرواية أو المسرحية ـ أكان من الجانب اليساري أم اليميني ـ لها منفعة.

ليس جديداً في بلد يُميّز من قديم الزمان إلى اليوم في عصر الواقعية الاشتراكية بطريقة نظيفة ودقيقة بين الشكل والمضمون.

ليس جديداً في بلد لم يبقَ فيه من «فاوست» غوته سوى عقلية فاغنر.

إنهم يقفون ويجلسون ويحتجّون ويطالبون ويزيّفون ويعملون من أجل: جيل فاغنري يملك أسود على أبيض ويحمل إلى البيت وكلّه عزاء.

وعندما يُظهر شتوبرد «روزنكرانس وغولدنشتيرن» كشخصيات رئيسية ويُجرّد «هاملت» من رتبته، يجب أن يكون اسم مسرحية فاوست في عصرنا «فاغنر». هل سيقرّ هابرمس وفاوست وإميريش أنهم هم الذين نشروا السماد للعقلية الفاغنرية؟

الذي استنبت هذا الاجتهاد الكبير، غير مسموح له بالتعجّب، كونه أصبح بمثابة جلاّد المستقبل. لسنوات طويلة ساهم الأستاذ إمريش، على سبيل المثال، بطريقته الخاصة في تقطير الأدب من التعبيرية إلى بيكيت ليبقى منه الوعي الذاتي فقط. وفي أثناء استحضار القديس هيغل سيصبح الأدب كبقرة حلوب. لا عجب إذا ما تحوّل الحلابون الشباب وكل أستاذ، وكاتب، وكل قصيدة للخضوع للوعي الحقيقي. وتكون العاصفة؛ الحكمة خطأ.

إذن سأقرأ عليكم قصائد. ولست على يقين، لأن القصائد هي تعبير عن الشك. إذا كانت الأقلية المعروفة منكم ستقرّر التصويت حول صواب القصائد وحالة الوعي السياسية لدى الكاتب فاسمحوا لي، منذ الآن، بالاستهانة بمثل هذه الرقابة.

وإذا ما وددتم الاستناد إلى ماركس برغبة وبصوت عالٍ، لا أسمع دائماً غير حفيف شجر الشربين.

# سياسة السلام في حقول ملغومة بالتوترات

## 1968

لقد وضع احتلال تشيكوسلوفاكيا كتابين ظهرا قبل تلك الأزمة علـى المحك. وهما كتابان ميّزا السياسـة الخارجيـة الألمانية وذلك بتوجيه سياسـة السـلم داخـل أوروبـا. الكتاب الأول هـو «مجالات التوتّـر» لإيرهارد إيبلر، الذي نشـر سـنة 1968 والكتاب الآخر لفيلي برانت، ونشـر هو الآخر في السنة نفسـها تحت عنوان «سياسة السلم في أوروبا». عند نشـر الكتابين كان إيرهارد إيبلر عضواً في البندستاغ وممثـلاً للاشـتراكيين الديموقراطييـن، بـل كان الناطـق الرسـمي باسـم هـذا الفريق البرلماني في السياسـة الخارجيـة. واقتنع بمواهبه وزيـر الخارجيـة فيلي برانـت، الذي عيّنه وزيـراً اتحادياً فـي التعاون الاقتصادي. هذه التشـكيلة الواعدة ـ برانت، إيبلر ـ أقلقت المستشار كيسـينغر من ضم إيبلـر إلى التشـكيلة الحكومية. ففـي غياب حجج مقنعـة اكتفـى بنعتـه باليسـاري. نعم موقـف إيبلر اليسـاري لا يمكن تفسـيره إيديولوجيـاً. إن هذا المسـيحي البروتسـتانتي هو اشـتراكي ديموقراطـي ليبرالـي متأثّر بشـكل ملموس بغوسـتاف هاينمان الذي يقتسم معه ضعـف الموهبة التي تجعل منه رجلاً استعراضياً من جهة، والشجاعة التي تفتقدها سلوكاته الشعبوية من الجهة الأخرى.

فعندمـا يُصدق المرء جـداول الكتب الأكثر مبيعـاً، فإن القارئ

السياسـي يهتم بالدرجة الأولى بالنماذج الثورية للقرن التاسـع عشر، التـي يجب اليوم تجريبها. من الممكن جـداً أن الذي يبحث عن حلّ لمشـكلات أوروبـا في بوليفيا سـينفد صبره أمـام تقاريـر إيبلر الذي استقاها من خبراته كنائب من منطقة شفابن أو أمام تقرير فيلي برانت الذي يؤمن بفنّ الممكن وهو الذي خبر السياسة الخارجية.

وسيسـتوعب من جهة أخـرى كيف أن برانـت وإيرهارت إيبلر همـا جـادّان في عملهمـا، هذا إذا ما اسـتطعنا التعقيـب على احتلال تشيكوسلوفاكيا، كما هو الشأن بالنسبة لكل انتكاسة تستهدف السياسة فـي الأمد الطويل والتي تتوخى انتصاراً في ظل أجواء محافظة، فلقد كان عليهما معاً الأخذ بعين الاعتبار تجاهل اليسـار ومقاومة اليمين. لقد حاولا معاً من خلال السياسة الاقتصادية الناجحة أن يتبنّيا مطالب تبدو صعبة المنال، وكان المستشار السابق عن طريق دعواته المتكررة «نحن من جديد، أناس ذوو قيمة» يرجعهما إلى الواقع. غير أنهما معاً يكـرّران دائماً الدرس الذي لم يُسـتوعب هو أن القـوة الاقتصادية لا يمكـن أن تكـون موازية للقوة السياسـية على أي حـال. فنحن الذين أشـعلنا حرباً عالمية وخسـرناها، ولحدّ الآن ما زلنـا نتحمل أعباءها، فالدول الخارجية في الشرق والغرب حتى حلفاءنا ما زالوا يواجهوننا بنظرة سوادية واحترام؛ وقبل أن يُصدّقوننا، يبدون شكوكهم.

لهذا السـبب يحاول صاحبا الكتابين تقليص الشـكوك التي لها أسبابها المسافة بين ألمانيا وهذا الشك، إن مهرّجاً من دون ذاكرة هو وحده الذي يأمل أنه بالإمكان غضّ الطرف عن هذا.

يكتـب فيلـي برانت في فصل «فـي قلب أوروبـا»: «نحن نعلم، وهذا جيد لنا أن لا ننساه أبداً، أن هذه الحرب استغلت للقيام بأعمال إجراميـة لا مثيـل لها في الزمـن المعاصر. وأن حجـم وقائع الجرائم

غيـر المتخيّل أضرّ بصورة ألمانيا فـي العالم. إن ألمانيا الممزّقة اليوم والتي تبحث عن السـلم وعـن إرادة حقيقية في وجود وطن تطهر من شوائبه، ما زالت في وضع دفاعي من الناحية الأخلاقية. لذلك يجب علينا أن لا نتوهـم».

إن التقرير عن الرحلة السياسية «كم هو بعيد الطريق إلى وارسو» يُقرأ وكأنّ إيبلر أراد بوصفه للحثيثيات، برهان ما اكتشفه برانت بشكل عام: منذ قرن من الزمن والألمان ـ بروسـيين أو نمسـاويين ـ يميلون إلى معاملة بولونيا شـعباً قاصراً سياسـياً. وكان مـن الصعب على أمة تعتـزّ بذاتها مثـل بولونيا صعب تحمّلـه. غير أن النازييـن اعتبروا في تصريحاتهـم الرسـمية البولونيين شـعباً غير متعلّم ومجـرّد عبيد، قد انحفر بقوة في لاوعي الشعب البولوني بحجم مأساة ملايين الضحايا في أوشفيتس ووارسو.

وبكلمـات أخرى: فإن برانـت وإيبلر يذكّران بمـا وقع في ماي 1945، إنهمـا يحـاولان إفشـال مسلسـل من النسـيان، ومعـروف أن النجاح الاقتصادي تتبعه صحوة سياسية.

يستحسـن، بل من المجدي قراءة الكتابين بشكل متبادل، فبينما يمتنع على رجل الدولة برانت الإشارة الدقيقة وتسمية الأشياء باسمها مراعاة لشـريكه فـي الائتلاف الحكومـي وكذلك لحلفائـه، يتحدث إيبلـر بدقة أكبر حـول القضايا، والعكس صحيـح، يعطي برانت قيمة لتفصيلات وجهة نظر إيبلر في السياسة الخارجية.

إن العناويـن لفصـول كتـاب برانـت تعطـي الأولويـة لقضايـا التوتّرات السياسية وأوروبا، وكلمة السرّ لديه هي المعاهدة، الحوار، الرؤية، التحول، التكليف. على حين يرى إيبلر من الواجب التخلّص من الأحكام المسـبقة. وينقسم كتابه إلى فصول: «التاريخ والحاضر» و«الوجود السياسي» و«السياسة الخارجية».

عنوان الكتاب «مجالات التوتّر» هو نموذج للأسلوب الدياليكتيكي للمحلّل إيبلر. ويجعلنا موقنين بالمحنة المتعدّدة التي يمكن أن يستسلم لها اليوم السياسي مرّة في دائرته الانتخابية، ومرة أخرى في البرلمان الاتحادي، البندستاغ. مرّة أمام كاميرا التلفزة، ومرّة أخرى أمام لجنة المالية إذا ما أراد أن ينجح في مهامه.

بالنسبة للمثقف إيبلر فالأمر يتعلق ومنذ البداية وبشكل قطعي بتوسيع دائرة المواقف النقدية، وضرورة تجاوز العتبة التي يعرفها كل مثقف وهي الصعوبات الناجمة عن النطق بكلمة «نعم».

مما له معنى أن فريتس إيرله هو الذي سأله سنة 1955 إذا كان سيكتب على شاهد القبر «كان دائماً على حق»، أو أنه مُصمّم على تحمّل مسؤولية داخل جماعة سياسية. فإيرله حدّد للسياسي ابن التاسعة والعشرين مجال الجهد، وقد استطاع إيبلر بجهوده السياسية وولائه الكامل للحزب تجاوز المواقف المتشدّدة التي كانت موضوعة أمامه.

وقال بعد أكثر من عشر سنوات: «من باستطاعته تجريب الولاء فقط، سيؤخذ على محمل الجدّ، ولا يمكن اعتبار ذلك آخر قياس».

من هذا المنطلق الواضح ينجلي التواضع وأيضاً الوعي الذاتي لمثقف يعرف جيداً كيف أنه ليس من الكثير عليه أن يكون مديناً للغالبية من المثقفين الذين يتنازلون عن مواقف النخبة؟.

ليس مجّاناً السجال القائم «في أي اتجاه يدفع كارل ياسبرز؟» وهذه النقطة الجوهرية لكتاب «مجالات التوتر» ، ليس دون سبب، ذكّر إيلبر بهذا الشكل الجيد والسليم كمحاولة تنويرية فريدة ضد السياسة الياسبرسية الجاهزة على أعلى مستوى. إن حقد ياسبرز على الأحزاب والحياة البرلمانية أعطى قوة دفع إضافية للاحتجاجات اليمينية واليسارية المتطرّفة ضد «الأحزاب المرخّصة» وضد

«مؤسسات بون». يلزم القيام بشيء ما ضد الحماس الفاتر تجاه الحياة البرلمانية ـ سواء من طرق ياسبرز أو سيباستيان هافنر ـ في أثناء عصر أدناور الذي حكم ستة عشر عاماً.

إذا كان المؤلف هافنر يؤكد اليوم تزوير التاريخ في العدد الصادر من مجلة «شتيرن» ـ ومن تحصيل الحاصل، فإن الخيانة لديه تعني الاشتراكيين الديموقراطيين ـ كما هو الشأن بالنسبة لسابقه ياسبرز كواحد من خريجي المدرسة الأدناورية في تقنيات الافتراء.

لو لم تكن الديماغوجية الأنيقة لهافنر خطرة، لأمكن استهلاكها بطريقة مسلية أو درامية: حيث انقلب محافظو الأمس الأصوليون إلى ثوريي اليوم (ربما يجب قراءة مقالة غوتفريد بن من جديد: «الشيخوخة بوصفها مشكلة للفنانين»).

بشكل سجالي وباهتمام وعن طريق تمحيص الادعاءات، حاول إيبلر تمزيق شطحات ياسبرز. لقد حذر فيلسوف بازل من عواقب حقده الهجومي. غير أن موقف المحافظين بالادعاء أن الحق معهم لا يشكّل بالنسبة له أي عزاء، لأنه يجب على الاشتراكيين الديموقراطيين مرة أخرى جمع الشظايا التي تترك أثراً في الشجاعة.

فالاشتراكي الديموقراطي إيبلر هو عضو في اللجنة المسؤولة عن العلاقات العامة غرفة المسؤولية للكنيسة البروتيستانتية في ألمانيا، إنه ينتمي إلى المؤيّدين للمذكرة الشرقية للكنسية البروتستانتية التي كانت في السابق تمارس النقد من جانب أحادي.

ولكن محاولة فيلي برانت، في مؤتمر الحزب في نورنبرغ الاعتراف بحدود أودانايسه أو الوصول إلى معاهدة سلام لم تجد عند الرأي العام الألماني الغربي سوى تأييد طفيف. وهكذا وجد الاشتراكيون الديموقراطيون أنفسهم يؤدّون فاتورة الخسارة بمفردهم

فـي الانتخابات في مقاطعة بـادن فورتنبرغ من جرّاء صيغة جوفاء في غياب تام لأي تأييد من طرف حليفهم في السلطة.

حـول هـذه الصعوبـة وصعوبات مماثلـة من أجل نهج سياسـة سلام في أوروبا يدور كتاب فيلي برانت. وحين يشير في آخر الكتاب إلى التجربة الشـخصية منذ تولّيه المركز الحكومي، وحين يُدوّن بأن خطر عزل ألمانيا الاتحادية، كما كان في عهد حكومة أرهارد قد زال حاليـاً، تصـبّ جردته في حملة واحـدة لا تقبل الشـك: «لقد حصلنا على هامش للمناورة، غير أننا نكتشف كيف أنه محدود».

مـن فصل إلـى آخر يقيـس فيلـي برانـت المقاييـس المحدودة للمجال. ويحاول في الوقت نفسـه الاستعانة بالجوقة القوية للحرب البـاردة، بـاذلاً الجهـد في الحيـاة اليومية لإبعاد مشـكلات سـنوات السبعينيات من الحسابات السياسية.

يظهر هذا سواء في السابق أو لاحقاً أسلوب الكتاب المعروض أمامنا ويوضّح صرامته. وكثيراً ما يتمنى المرء للكاتب مزيداً من عدم التـردّد ومـن القدرة على تجـاوز حـدود مقتضيات الارتبـاط الوثيق بمـا تتطلّبه الديبلوماسـية. ومن جديد يجب على فيلـي برانت حماية مصطلحاتـه مـن سـوء الفهم بقصـد أو بغيـر قصد. خصوصـاً فصل «الشـجاعة لأجل هذا، والضعف ضده» الذي يبيّن بوضوح أي عمل شاق يتحمل وزره فيلي برانت؟. وتظهر الجمل المقتضبة مثل «يجب على سياسـتنا في أوروبا ألاّ تقف ضد شـيء ما، بـل إلى جانبه» مدى المقاومـة التـي تعتـرض إرادات برانـت إذا ما حـاول تحقيقها. ومن الواضح أننا ما زلنا في حاجة إلى كراسة من النظريات.

ففي الفصل نفسـه يتوسّع المؤلف في الرؤية الألمانية الداخلية. وذلـك بوقوفه على العلاقة التي تربط ما بين الدول الصناعية العظمى

والدول النامية، حين يقول: «يزداد سكان المعمورة في الوقت الراهن سبعين مليون شخص سنوياً، ولكن خمسة وعشرين مليون شخص يتضوّرون جوعاً كل عام. والدول النامية في الشرق والغرب تواجه السؤال، هل هي قادرة على مواجهة الفقر والبؤس على الرغم من المجهودات المشتركة المعروفة. على الأرجح يستطيعون تجنّب علاقة التطوّرات المتفجّرة في الشمال والجنوب».

والمقاطع نفسها تضمّنها خطاب جنيف، آب/ أغسطس من هذا العام. في الوقت الذي كان فيه كل واحد يخشى إمكانية نهاية مجهودات تخفيف التوتّر بعدما أنعش احتلالُ تشيكوسلوفاكيا الحربَ الباردة الذي هو نهاية كل محاولات التعايش، وهو التصريح الذي جعل وزير خارجية ألمانيا يجذب اهتمام دول العالم الثالث. وقد اختلفت تصوّراته عن الآخرين، عن طريق تكتيكات المصالح الوطنية المترابطة، لأن نداءه بالتخلّي عن العنف لم يكن بلاغياً، نظراً لتداخله مع القلق الوجودي للدول غير النووية.

ويبقى الأمل في أن يضع فيلي برانت وإيهارد إيبلر، وهما يسيران على خطى جنيف تصوراً ليتمّ تنسيق برنامج مساعدات الدول الصناعية في الشرق والغرب وتحييد السلطة السياسية للمصالح السياسية قدر الإمكان.

إن الكتابين المعروضين أمامنا يظهران بجلاء فرصة التعاون بين وزير الخارجية الاتحادي والوزير الاتحادي في التعاون الاقتصادي والتنمية لتطوير الرؤى في السياسة الخارجية، لإضفاء الحق على متطلبات عقد السبعينات.

وسيكون من المفيد اذا استخلص القرّاء خصوصاً الشباب منهم مخاطر ما قد تتعرّض له سياسة السلام عند وضعها على محك مجالات التوتّر.

## ما بيت القصيد؟

### 1968

فلنكن حذيرين من استخدام قيم وهمية قبل تقييمها. وجدت احتجاجات الشباب، وكان التركيز على الشباب بشكل عام، قابلية في بعض المجموعات (طلبة، تلاميذ الثانويات) وكانت نسبة المشاركين في الاحتجاج بينهم أيضاً قليلة. لم يتناهَ إلى علمنا أن المتدرّبين وتلامذة المدارس المهنية أو العمال والموظفين في سن الطلاب ساهموا بما يستحق الذكر في حركات احتجاجية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن التلاميذ والطلاب، مقارنة بالمتدرّبين أنفسهم، والعمال والمستخدمين، استوعبوا ـ وبشكل مستقل نسبياً ـ أن نظام التعليم في ألمانيا، من الثانوية إلى التعليم العالي والجامعة، هو مجال للنخبة، (فقط زهاء سبعة في المئة ينحدرون من أصول عمالية وفلاحية). يمكن القول إن أقلية كبيرة من الشباب ساهمت وبصورة موقتة ومعظمهم من ذوي الأصول البورجوازية في حركات الاحتجاج وعدد من الصحف والتقارير التلفازية، وردود الفعل المفزعة لبعض المؤسسات، أعطت لهذه الاحتجاجات، عدديّاً وسياسيّاً، وزناً أكبر من ذلك. لم تنطلق احتجاجات الأقليات الشبابية من ألمانيا، لقد كانت الانطلاقة من هولندا؛ من مدرسة بروفوس أواسط عقد

الستينات. وبعد ذلك بوقت قصير، قدمت الجامعة الأميركية بيركلي نموذجًا للاحتجاجات الطلابية الضخمة. ليس من قبيل المصادفة أن تعرف جامعة برلين الحرة، التي أسسها الأميركيون، أولى الحركات الاحتجاجية القوية في ألمانيا. (وحدها موجة الاحتجاجات في بداية فضيحة مجلة شبيغل والاحتجاج ضد بناء جدار برلين يُمكن اعتبارهما الرائدان لحركة الاحتجاج الطلابية). بشكل عام كان الطلبة والتلاميذ في ألمانيا، وإلى منتصف عقد الستينات، لا يهتمون بالسياسة. وحتى في الجامعات الكبرى كان عدد المنخرطين في المنظمات السياسية كـ (س. د. س.، س. هـ. ب.، أو ل. س. د.) لا يتجاوز الثلاثين إلى الأربعين عضواً.

وسيكون مبعثاً للشك، في ظل هذه الوضعية، تقييم احتجاجات الطلبة أو التلاميذ بعد سنتين. من الإيجابي القول إن التلاميذ والطلاب حالفهم النجاح، في أغلب الأوقات، في أمورهم الشخصية. أظهرت المناقشات حول مشاركة التلاميذ نتائج ملموسة في بعض التدخلات. إذ نجم عن الأخير تحرك سياسي في اتجاه إصلاح نظام التعليم العالي. وأصبح احتجاج الطلاب قدوة للآخرين: لقد كان احتفال الكاثوليك بيومهم عرضة للاحتجاج، بل إن الأطباء والموظفين حاولوا استخدام أشكال الاحتجاج الجديدة لصالحهم. وأصبح الاحتجاج شيئاً طبيعياً. لم يُثرَ التساؤل فقط عن جدوى مبادىء التسلط، التي هي من دون معنى، بل تم إلغاؤها. وحتى بعض صحف شبيرنغر نفسها «دي فيلت» أعطت للاحتجاجات الطلابية قيمة كبيرة. وبشكل إجمالي تأثر الشباب، وابتداءً من سن العاشرة، باحتجاجات الأقلية. أصبحت 1967 و1968 مفاتيح أساسية لجيل بكامله. والآن بدأت الأسطورة تتكوّن. (ويمكن أن نتوقع أن ميول الألمان لتأسيس جمعيات، سوف لا يجدون مانعاً لو اجتمع هؤلاء

المحاربـون القدماء أبناء الخمسين سـنة بعد ثلاثين عامـاً من جديد حول طاولة واحدة).

كيف كان رد فعل المؤسسـات على احتجاجات واسـتفزازات الأقليـة الطلابيـة؟ الفـزع أولاً، والعجـز، ولأنـه العجـز الكامل، فإن التعزيـزات الأمنية في برلين مثلاً لم تكن تتناسـب مع الاحتجاجات. وفـي كثير من الأحيان، كانت أوامر «الضرب بالهراوات» برهان على عجز رجال الدولة. ولكن هذا العجز لا يشـمل كل المؤسسات. لأن التصريحـات غيـر المحسـوبة للمستشـار لا تزال، حتى اليـوم، تمثل انعكاسـاً لتحذيـرات وزير العدل غوسـتاف هاينمـان، حيث ظهر أن الأمور تجاوزت قدرات عمدة برلين في الوقت الذي وجد الأسـقف كلمات لمساعي ودّية.

ومـن ناحيـة أخـرى تصرفت مـن بعـد قيـادة الحركـة الطلابية التي لا تنتصح كالمؤسسـات التي هاجمتها. وحين سـقط قتيلان في أعمال الشـغب التي وقعت أيـام عيد الفصح بميونخ بمشـاركة أس. دي. أس.، لـم يتـم تحمّل أي شـكل من المسـؤولية فـي ذلك. على العكـس من البرتس، وبيش ودوينسـيغ، الذين قدموا اسـتقالتهم عند وفاة الطالب بينو أونوزورغ، لأنهـم شعروا بالمسؤولية. إن جبن أس. دي. أس. بميونخ تم التسـتر عليه من طرف التنظيم الاتحادي بأسره. وهنا لم يكن من الغريب أن تطوى صفحة الاحتجاجات الطلابية بعد محاولة قتل رودي دوتشكه. أصبحت العدائية وعدم التسامح وتزوير الرأي مدرسـة للآخرين. ولقد وجدت صحف شبيرنغر المعادية عند معسـكر أعدائها أفضل التلاميـذ. ونتيجة لذلك، تم إيقـاظ العدوانية التي تم إخمادها بعمل شـاق بعد عام 1945، من باستطاعته إخمادها من جديد؟

الذين لا يتوفّرون على شرعية القيادة من أس. دي. أس. والذين لا يستطيعون تنفيذ سياستهم، وفي نهاية المطاف يطلبون تأييداً في غياب كلـي لأي نقـد من طرف التنظيمـات الطلابية، والذين تركـوا الانطباع يسـري أنه في الجمهورية الألمانية بأكملها انتشـار واسـع للثورة التي ستحطم الديموقراطية البرلمانية وتنادي بالجمهورية الشيوعية. وظهر على شاشات التلفاز ما يوحي بأنّ عصر المتاريس، سينطلق عما قريب؛ كما لو أن الثورة على الأبواب.

الأخبار المأسـوية، والبلاغة شـبه الثورية مثـل: «حطموا حلف الأطلسـي» أو «حطمـوا حمايـة الحديقـة، كل السـلطة للمجالس»، كذلـك حـب الهجـوم مـن قبـل صحـف الرصيـف (جريـدة البيلد، كذلـك ديـر شـبيغل وكونكريت) سـاهمت كلها في تقوية المعسـكر المحافـظ، وكان مـن نتائجهـا الكارثية فـي الانتخابـات الجهوية في ألمانيـا والانتخابـات العامـة فـي فرنسـا، أنْ أظهرت كلهـا، وبطريقة سـريعة، ردة الفعـل على المحـاولات الثورية في تعزيـز القدرة على الاسـتجابة. وإلى أي مـدى يمكن تنقيح هذه النتائج السـلبية؟ يعتمد ذلك علـى كون أغلبيـة المحتجيـن والمتعاطفين معهم سيسـتمرون في شـحذ قوتهـم. وكيف سـتتم إعادة النظـر في الأوهام السياسـية، خلال السـنوات المقبلـة، وهذا يبيّن كيف تقوى جبهـة المنادين ضد الإصلاحات.

أوحـى لـي تشـككي، منـذ البدايـة، بعـدم الأخـذ بالمبـادرات العفوية، بل إن المثالية المسـتترة وراء خلـق الاحتجاجات الطلابية، تتـرك الانطبـاع يسـود في أنـه، ولمـرات عديدة فـي تاريـخ ألمانيا، تتوفـر إمكانيـة أن ينقلـب الحماس بسـرعة إلى استسـلام وسـبات سياسـي، لأنه لا أحد يملك من الأسـباب ما يدعوه إلى السـعادة، إذا

ما خبت احتجاجات الشباب قبل أن تتحقق أهدافها السياسية توخيّاً لإصلاحات سياسية. ستبذل المؤسسات المهانة والمخرّبة كل ما في وسعها من أجل إنقاذ احتجاجات الشباب. إن الديموقراطية البرلمانية تحتاج، ولا تزال كما في السابق، إلى هذا التحدي. لقد استطاعت أن تصمد بشكل ما أمام زوبعة ثورة الكتب المصوّرة، لكن يأس جيل بقيت احتجاجاته من دون جواب سيستطيع في السنين العشرة القادمة إنهاء الديمقراطية البرلمانية ليس ثورياً ولكن بالمفهوم الرجعي.-

لا ينقص في الأبحاث المنجزة تصنيف أعراض الاحتجاجات الطلابية. لقد كانت دور النشر جد نشيطة. وهناك الأكوام من كتب الجيب. دوتشكه وكوهن- بنديت وجدا الكثير أو القليل من القرّاء السطحيين. وعلى العموم تلوّنت لغة الرأي العام بمصطلحات الاحتجاج.

يظهر إلى أي مدى أصبح الاحتجاج نموذجاً وموضة. وإلى أي حد تستغل الصناعة، سواء لدى دور النشر أو الأسطوانات وحتى الألبسة الخارجية للرجال والنساء، هذه الموضة. بالتأكيد، وعن جدارة، يرى علماء النفس وعلماء السلوك أسباباً أخرى وعميقة لاحتجاجات الطلاب. (لانغهانس وتويفل هما مُشاركين معروفين ومثال للنرجسية والظهور) من دون أن ننسى محاولات العديد الذين بلغ سنهم الأربعة عقود اليوم بمساعدة احتجاجات الطلاب للاستفادة من عدد من الفرص الضائعة منذ بداية عقد الخمسينات بالسير في الركاب ببعض الخجل. ففي إطار الجهود المبذولة من طرف سيد في عقده السابع، إن لم يكن للإنقاذ فالاحتفال بتشرين الثاني/ نوفمبر 1918، لمساعدة احتجاجات الشباب. ومهم أيضا أن الخطابة العاطفية لجيل الأحفاد تنسجم مع الخطابة العاطفية

للأجداد، أفضل من النسبية الجافة والواضحة والبراغماتية للآباء. إن مجتمعنا، بقدر ما نريد أن نراه في قارورة من زجاج، قد اهتز. حتى إن الرواسب نزلت من جديد.

أردت الآن، شخصياً، الخروج بخلاصات. لذلك سيقتصر كلامي على أي حد غيّرت احتجاجات الطلاب ما بداخلي، وردة فعل الرأي العام عليها. يمكن القول إن بساطة طرح السؤال ـ مَن الذي ينتمي إلى المؤسسة ومن لا ينتمي؟ ـ جعلتني واحداً من المؤسسة. إنه تصنيف أتوافق معه، أو على نحو أدق: إنّ هذه، وما يشبهها من الأحكام العامة، أوضحت لي بشكل جلي، أنّ مدى تقديري لخير ولمخاض الجمهورية الألمانية الاتحادية، أن الديمقراطية ما دامت لم تكتمل تجعلني مرتبطًا بها.

إذا ترك لي، بكل جدّية وبشكل أساس، عقد توقيع حكومة الائتلاف الكبير قبل سنتين، أن أشكّك في الحزب الاشتراكي الديموقراطي، فإن هجوماً من قبل اليسار واليمين المتطرّف على هذا الحزب سيشجّعني كاشتراكي ديموقراطي على مواصلة طريق الإصلاحات البطيء والمليء بالوعورة. وأخيراً وليس آخراً، تعلّمت من طريقة تعامل فيلي برانت المتسامحة والواعدة مع ابنه بيترن أن إلغاء التسامح من طرف اليسار المتطرّف لا يجب أن يواجه باللاتسامح. وأعتقد أن برانت نجح في تجاوز المحنة بين الأب والابن، وأعطى النموذج للملايين من العائلات. إن درسه التربوي على قائمة النقاط الإيجابية لديّ.

# الحرية ـ كلمة كمقبض الملعقة

**كلمة بمناسبة أسبوع الأخوة في كولونيا، 1969**

سيداتي وسادتي

يترك عنوان كلمتي الانطباع بأن الأمر يتعلّق بايقاع لأغاني الأطفال. كان بإمكاني القول، من دون تردّد، إن الحرية هي كلمة كفتّاحة العلب. وبشكل متبادل واختياري الكلمة الثنائية ذات النطق الجميل ستحطّ رحالها في كل مكان، كبديل موقت: تظهر كلمة الحرية جميلة في كل مناسبة الكلام والنداءات، وكتاب الوفيات، والمقالات المدرسية، وأمانيّ السنة الجديدة، والمنشورات البابوية، وإعلانات السجائر، والتمارين الرياضية الصباحية الثورية وأندية النقاشات اليسارية، وحتى موائد اليمين المستديرة كلها تمتطي كلمة الحرية، لكن ليس حتى الموت؛ لأنها لا يمكن إخضاعها. كل يلوّح لها بقبعته. حيث الإكراه يدع الحرية تقفزعلى الألسن، والحرية هي شريط القبعة، حيث يسود الإكراه باسم الحرية. يتحدث التاريخ بشكل جليّ وكرونولوجي عن الحروب الصليبية التي وضعت تحرير القدس كهدف لها. فحتى محاكم التفتيش لم يكن في نيّتها المعاقبة، ولكن تحرير المسيحية من الشيطان. وفي وقت لاحق، واليوم تقريباً، وجّهت الاشتراكية القومية، هي الأخرى، نداءً لتحرير هولندا، وأيضاً

في حرب التحرير في بوير، وقبلها التحرّر من عبودية الفائدة. الحرية هي مقبض الملعقة لتحريك الحساء والرواسب.

إنها صعبة المنال، الحرية، ليضع المرء مسكناً رهن إشارتها. وحين كان نابليون، بطل الحرية في أوروبا وفي أوقات جيدة وطويلة، يحكم قبضته بشكل تصاعدي، وحين كان فلاحو تيرول يخوضون حربهم ضد الكورسيكيين المتلهّفين للحرية، ظنّ المرء أن الحرية تسكن فوق الجبال. حتى البحر كان مكاناً مفضلاً للحرية. وأغنية الفارس لشيلر تشجع الفرسان في الميدان للدخول إلى الحرية. الصراع، كإشارة للتحرير، ينبغي أن يقود إلى التحرر من الضيق البورجوازي ومن مسؤولية العائلة: حرية حياة الجنود هي دائماً عرض ملموس لجذب متطوعين، برغم حجم الخسارة مقابل الإكراه العسكري. يُظهر ما لا يحصى من البطاقات البريدية لعام 1914 الآباء الألمان أو الفرنسيين الذين تركوا زوجاتهم وأبناءهم، تركوا الإكراه الأسري، وإكراه العمل والإجراءات الإدارية، ووضعوا، نصب أعينهم، الموت ككرامة للرجل الحر، حيث تضحية الجنود. فالحروب العادلة وغير العادلة تنبني على هذه الرغبة الكامنة في الهروب إلى الحرية، والتي تقطن في أي مكان سوى مكانها الطبيعي، في غير الموروث الضيّق للرائحة النتنة للوطن حيث الانشغالات اليومية تحصر الحرية في الاستجمام والعمل في الحدائق الخاصة. من المزايا أيضاً استنباط السؤال من تجربة النشيد الوطني الألماني الذي رهن الحرية في قافية وأبيات من الشعر:

«الحرية التي أعني»، أي حرية؟ كان عليّ، أن أتوسّع ضمن الإطار الذي منح لي، في هذه التظاهرة بالحديث عن مفهوم الحرية

لـدى كانط، هيغل، أو ماركس. أو إخضاع الرصيد الفلسـفي لمفهوم الحرية للممارسة العملية.

ففي الغالب، سـواء عند هيغل، وماركس وكانط، تعني الحرية، فـي الاسـتعمال الحكومي، التخلـي الطوعي عن الحريـة؛ نحو مزيد من الحرية الأكبر والتي هي، في نهاية المطاف، مسـيرة طويلة، ثورية تنموية لكفاح من أجل الحرية؛ ليس فقط من أجل شعبهم ولكن أيضاً من أجل الشعوب الأخرى.

إن الأيديولوجييـن اليسـاريين واليمينيين يغنّون نشـيد «الحرية التـي أعني» ويجـدون دائماً جماهير ليس بإمكانها اسـتنتاج أنَّ وعود الحريـة لـكل الإيديولوجيات تكلّفهـا الكثير وتكـون مُعطلة لا طائل مـن البحث: هل تحريـر الطبقة العاملة أدّى إلى نظام تعسـفي للطبقة العاملة؟ مع أن ديكتاتورية البروليتاريا تستبد البروليتاريا، أولاً، باسم البروليتاريـا. فـلا جدوى من التحقّـق إلى أي حدّ أن اقتصاد السـوق الحر للبناء الرأسـمالي، نجم عنه الاسـتهلاك. إن القدرة على اختيار الحرية تقود إلى معبود الحرية على نحو من البهرجة. لا فائدة، لماذا؟ لأن ملكية وسـائل الإنتاج ـ سـواء في القطاع الخاص أو القطاع العام ـ تمنـح الحريـة كوهم لطبقة حكومية رقيقة. لأنه لا الأسـهم الغربية، ولا الموظفون الشـرقيون، يتوفـرون على الحرية؛ اللهم إلا تلك التي يعتقـدون أنهم يملكونها كمحظوظين بقضاء عطلهم مع أترابهم على البحر الأسود، أو ساحل اللازورد.

وكثيـراً ما يبـدو كما لـو أن حقـوق الإنسـان، أي الفطرية وغير القابلـة للتجزئـة، وذات الخطـاب التنويري مقابل تدخـل الدولة في الحقوق والحريات الفردية، أنها غير محددة، كما لو أنها ليست جزءاً

من كل دستور حديث، كما لو أنه لا توجد منظمة الأمم المتحدة التي أقرّت العاشر من ديسمبر 1948 لحماية حقوق الإنسان.

إن شطر الأغنية «الحرية التي أعني» مَنعت، حتى اليوم، الإعلان القانونـي وغيـر الملزم للأمم المتحـدة، من إمكان تحوّلـه إلى اتفاق دولي. فنحن نحتفل باليوم العالمي لحقوق الإنسـان كل سنة، غير أنه داخل رابطة حقوق الإنسـان، نفسـها، تعني حقوق إنسان أخرى. لقد قـرأ كل واحد ماركس آخر وهيغل آخر وكانط آخر. الحرية هي كلمة كمقبض الملعقة.

تـرى التعاليـم المسـيحية الإنسـان، بحكـم الخطيئـة الأصليـة الموغلة في الخطيئة، أنّ الحرية مُنحت له عن طريق النعمة المخلِّصة، عن طريق تلقي سرّ المقدس، عن طريق الموت في الإيمان الحقيقي. إنها تعاليم مُتنازع عليه اليوم ولا تُشـكل أي خطر على الحياة. ولكن تحق المقارنة بين حجم الملاحقين والمُعذبون، والقتلى، وكل الذين لم يقبلوا هذا التصور للحرية، أو الذين شكّكوا فيها، مع حجم ضحايا اللينينية والستالينية.

وإذا أردنـا معرفة حجم ضحايا مانشسـتر لليبرالية ـ تلك ليبرالية الرأسمالية البدائية التي فهمت الحرية كأول شئ وأكثر الأحيان كحرية للاستغلال. الاقتصادي فقط ـ ينبغي لنا أيضاً، مرة أخرى، إضافة مليون حالـة وفاة، وجوع إلـى القائمة. وفي أثناء عهد الفاشـية، حيث الحرية الاقتصادية الضيّقـة وتحرير البروليتاريا، والحرية المسـيحية، اتبدلت بإيديولوجية الإنسـان السـيد، في الآن نفسه كانوا يتكلمون عن الحرية ويعنون بذلك إفناء الإنسان الأسفل، يمكن القول والاعتقاد بأن الحرية تقضـي علـى الظلـم، وتحتل المركـز الرابع في سـجل الخسـارة، في الحركات التأريخية الكبيرة التي أخطأت تدوين تأريخ الحرية.

ولردّ الاعتراضات المتوقعة، فمِن الأكيد أن الأخلاق المسيحية لديها، عندي، قيمة أكبر من المتطلبات الأخلاقية للفاشية. بطبيعة الحال أعترف بقيمة البحث في المذهب الماركسي، حتى في شكله السيِّئ لدى الدوغمائية الستالينية. ولكن ما فائدة وعظة الجبل الفاسدة في المسيحية؟ والعكس صحيح؛ لماذا علينا وصف نيتشه كمناضل سابق لعهد الفاشية، لأن بعض الخطباء الفاشيين يعتبرونه مرجعاً لهم. وينبغي لنا، في المستقبل، تخزين أعمال هيغل في دولاب السم بسبب نظريته في الدولة التي كانت لها عواقب وخيمة على الديكتاتورية اليسارية واليمينية. وإذا كان كانط يفهم الحرية كوازع أخلاقي، وإذا كان في ما بعد نظريته في الأمر القاطع هي التي طبعت خطة الجيش البروسي في اجتياحه لانغه مارك حتى فاردان، فإن هذا لا يثبت الموت المبتذل لسوء الفهم، كرغبة لإيديولوجيا ثابتة آمنة للمدافعين، كل وحسب فهمه للحرية إلى يومنا هذا.

كثيرًا ما يتم الاستشهاد، وفي سياقات خاطئة، بكون روزا لوكسنبورغ كثيراً ما أجهدت نفسها كي تغطي اللينينية الجديدة على الانتقادات اللينينية، من أجل إبعاد انتقادات ستالين ضد لينين.

عبر الأنظمة حتى عالم اختصاصي، أكان في الخلافات القائمة بين علماء الاجتماع أم في معسكر نقّاد الأدب، الذين أعلنوا جميعاً أن الأدب قد مات ـ ولكنهم اختلفوا حول الأصول التي سيُقام بها العزاء ـ أقول إنه، نجتهد في المدرسة اللاهوتية الجديدة.

وبولع كبير يتم اللّت والعجن في كلمة الحرية: مقبض الملعقة أو فتّاحة العلب، هي التي، يعرف الجلاد في المستقبل التحايل بها، كما كانت تقوم في السابق محاكم التفتيش مع كلمة الرحمة. وأنا أعني، الديماغوجيين المتطرّفين الذين يعرفون كيف يُحوّلون

بمساعدة كلمة الحرية، القاعات الجامعية إلى قصور رياضية مليئة بالتصفيق والاستحسان، فمنذ أكثر من عقد من الزمن ساد الرأي القائل إن الطلبة هم الفئة غير السياسية داخل الجمهورية الاتحادية، والآن يتم ترويج شائعة أن الحمّى السياسية انتشرت داخل الجامعات والمدارس العليا الألمانية. لا يمكن العثور على الوعي السياسي إلاّ في الوسط الطلابي فقط، إن النخبة المثقفة المتنوّرة تختلف عن الجماهير الموجهة، لا سيما عن العمال، قرّاء صحيفة «البيلد» الدائمين الذين يجب تحريرهم من الخداع والظلم، لذلك تحرّكت طليعة طلابية.

هذا التقييم لصالح الطلاب هو خطأ، وتتجلّى خطورته مع الزمن بتبنّيه من طرف مغرور. إن مفهوم الاحتجاج الطلابي هو بلا داع، فالإنتخابات الطلابية لمندوبي الطلبة أثبت أن نصف الطلبة غير مبالين سياسياً، وهذا لا يستثني التفسير بكون اللامبالاة السياسية تعني الحرية، والتي تعني، على كل حال، التخلّص من الامتحانات الثانوية. ويُقبل على الاحتجاج، فقط، أقلية من الناشطين السياسيين. وداخل المحتجين، فقط، أقلية هي التي تتبنّى التطرّف الذي يتحكّم في الميكروفون، والتي تستبيح السلطة الخاطئة، وتستعمل الحرية كمقبض الملعقة. من دون رادع من الغالبية الطلابية، يعطي اتحاد الطلاب الألماني الاشتراكي الـ س. د. س. لنفسه حقّ الظهور كطليعة ثورية غير واضحة ومفهومة. إن الطلاب الذين استطاعوا بالأمس الاحتجاج على سوء أحوال هذا البلد هم الذين سمحوا للـ س. د. س. استهلاك الاحتجاجات الطلابية بطريقة عمياء.

فالذين نادوا بالأمس «الحرية لليونان» هم من ساهموا في إطلاق احتجاجات عدوانية في هذا البلد، استمرت كتخدير لسنوات

عديدة. لقد منحت الأغلبية العدمية الضوء الأخضر لأقلية نشيطة. ولكن لا يمكن غض النظر عن مسؤولية تبعات هذا التثبيط للعزيمة غير الحذر، إذ لدينا ما يكفي من حرية لتدمير الديمقراطية في بلدنا. غير أنني أرى هذه الحرية عمياء وشديدة العنف، إنها الحرية التي تقود إلى الانتحار. وهكذا دواليك تتكرّر العملية نفسها. إن الأغلبية التي تقف ضد التحكم والتوجيه من طرف الاحتجاجات الطلابية تترك نفسها عرضة للتوجيه والتحكم من طرف الـ س. د. س. تحت ستار تعبير التحرّر التقدمي ينتج الانفعال السريع من الراديكالية الاشتراكية والفوضوية، كأنه لم يُوجد، قطّ، شخص اسمه موسوليني، ظاهرة الفاشية

إنني لا أحب أن أتكلم بهذه الطريقة. ففي بلد اعتقد الطلاب كرجال الـ س. آ. مرّة، حسب أغنية هورست فيزيل، أنهم باسم الحرية يكافحون ضد الرجعية، وفي النهاية وجب عليهم الاعتراف بأنهم لم يخدموا سوى الإجرام. كم من الواجب، إذن، إطلاق الإنذار قبل فوات الأوان حتى لا نسمع رواية لم نكن نعرف، لم نقصد هذا، أو كان لنا تصوّر آخر للحرية.

حين يقع ما وقع، قبل أسابيع، بدعوة اتحاد الطلبة الليبيراليين عرقلة الطريق السريع في برلين، وحين يوجّه طلاب الجامعة التقنية في برلين نداءً علنياً للسلطات في ألمانيا الشرقية بمنع سفر كل الرأسماليين إلى برلين، وحين يتم تخويف وتحطيم أعصاب الأساتذة بأسلوب إرهابي وبإكراه سلطوي، وحين لم تعد حجارة الرصيف استعارات رخيصة، وإنما أدوات حربية بيّنة، وحين تطغى هذه الكلمات مثل تغيير المسيرة، القلق، الإلغاء ـ وكذلك المتوارث منها ـ الاستئصال، الإزالة، الإجراءات العنيفة، عندئذ سأتحدث

عن أساليب فاشية، وسأكرّر هاتين الكلمتين طالما بقي المرء صامتاً ويريد نزع الزينة عن إعلان الحرية.

لا يمكن لي أن أرمي باللائمة فقط، على اتحاد الطلبة س. د. س.، لأن الأمر يتعلّق هنا بمجموعات منقسمة على بعض، تعمل بشكل جذري هناك عندما يجب أن تكون. فالإصلاحات التي طالبوا بها في الأمس سيعملون غداً على منع تحقيقها.

إن اتحاد الطلبة س. د. س. يريد ضرب الديموقراطية البرلمانية ولا يُريد تقويتها من خلال الإصلاحات.

إن المسؤولية، في هذا التطور الخاطئ، إذا حاولنا مرة أن نعطي الحق للمؤسسات، تقع على الأكثرية من الطلاب غير المسيّسين، والذين أدوا نوعاً من التضامن الخاطئ كردّة فعل على التصرفات البوليسية غير المنضبطة للمؤسسات.

فالمسؤولية تقع أيضاً على الأساتذة، بعد عقود من الزمن، من الاحتفاء الذاتي بالسلطة، وحينما مُسَّت حريتهم غيّروا سلوكهم واستجابوا للمطالب (بعد سنين خوف من زملائهم)، وبدأوا يخافون طلابهم. وكان فاوست السبب في إنشاء فاغنر بطريقة مخلصة، وربما ساذجة. وبخضوع وحماسة كبيرين خدم فاغنر، سنوات طويلة، أستاذه فاوست. فما كان يعنيه بكل وضوح أبيض على أسود يحمله التلميذ بأسًى إلى بيته. ولقد تناول فاغنر الكلمة من جديد مُسَلَّحاً بالأقوال.

إن الذي تربّى على الكثير من الطموح ليس من حقّه التعجّب حين يصبح متحمس الأمس جلاداً في الغد. لا أرغب أن أُحمل هذا الرمز الكثير عبر هذا العرض، ولكن قيل إن الدكتور فاوست صرخ من الألم، حين بدأ فاغنر يغيّر من ملامح حريّة معلّمه فاوست.

إن إلقـاء المسـؤولية على الآخـر دائماً تُريح الإنسـان، وعموماً يكون سـهلاً إلقاء الفشـل على الأطراف الأخـرى، أو على المجتمع بأسـره، أو النظام برمّتـه. مرة أخرى يجب أن يكـون النظام البرلماني كبش الفداء. ومرة أخرى سـتضعف الديمقراطية الوسـطية (وتسمح بإضعافها) لأن اليمين واليسار الجديد قويت شوكتهما.

إن الأرقـام معروفـة، فقـط سـبعة مـن المائـة، مـن الطلبـة فـي جمهوريـة ألمانيا الاتحاديـة، هم الذين ينحدرون مـن الطبقة العاملة والفلاحيـن، والمادة 12، الفقرة 1، من الدسـتور تنص على أن: «كل الألمان لهم الحق في اختيار مقرّ العمل والمهنة والتعليم بحرية». إن اختيار طلاب النخبة لجامعاتنا ومدارسنا العليا فيه استهزاء من المادة المشار إليها آنفاً في الدستور، وفي الوقت نفسه ترمز لسبات الطلاب واحتجاجاتهـم. لقد ظهر غرور المؤسسـة هناك، حيـث كانت الغلبة في المقام الأول داخل احتجاجات الطلاب.

لقـد اسـتباحت النخبـة الحريـة لنفسـها وكشـفت القنـاع عـن العبوديـة، حيث التبعيـة للعمل لا تسـمح بلفتة كبيرة. ونـادراً ما كان العمـال والموظفون محطّ سـخرية وإهانة من طـرف الطلبة، كما هو الشـأن في السـنتين الأخيرتين. ونادراً، ما سـمع العمال والموظفون بـإدراك وبصبـر طويـل هكـذا مصطلحـات نابيـة وشـتائم. إن تاريخ الديموقراطيـة الألمانية كان، منـذ البداية، محط ريب مـن المثقفين، وأخيراً ومن العداء للأنتليجنسـيا. فخلال العقدين الماضيين، وبعناء كبيـر، من خلال الأعمـال الصغيرة تمّ ردم خندق واحـد، لكنه الآن، وبمسـاعدة العديـد مـن الطلبة، يتم حفـره من جديـد. لا توجد كلمة عنيفة ما فيه الكفاية للتحذير من هذا النوع من العواقب.

إنـه من المُستحسـن فـي وقت متأخـر توجيـه نـداء للطلبة غير المسيّسـين أو المسيّسـين حديثـاً لتحمّـل المسـؤولية. فـإن حلـول

اللاعقلانيــة في السياســة الألمانيــة تزيد من ردود الفعــل يومياً. ومرة أخــرى بدأ المجتمع في ألمانيا ينزع نحو الاســتقطاب. ومن الواضح الآن أن حــزب الاتحاد الديمقراطي المســيحي والاتحاد الاجتماعي المســيحي يرغبان في اســتغلال هذا التطور. وذلك باســتعمال اتساع أعمال الشــغب لطلبة اليســار الراديكالي في حملتــه الانتخابية. وفي النهاية ينبغي للعمال والموظفين دفع الحساب الذي أصبح في سنتين احتجاجاً بالملايين.

وبعبــارة أخــرى، ســيتمّ تحميــل مجمــوع الطلاب المســؤولية إذا كانــت ردود الفعل، في هذا البلد، بفضل ســبات الطلبة، ستُمَكِّن مــن بناء معبود اســمه الأمن والنظام. إنه جــواب متطرّف، عن فرضية متطرّفة.

وبالفعل تصلــح الجمل الهزلية المتمرّن عليها للاســتعمال. إن مأســاة جمهوريــة فايمار بوصفها مهزلة تنبغي إعــادة إخراجها. حيث ســيقرّر الطلاب هل بإمكانهم المشاركة في هذا الاضمحلال. وطبعاً لهــم هامش كبير مــن الحرية في اتخــاذ القرار بكل حريــة، ومن ثــمّ، شحن المسؤوليات المتراصّة.

وأعتقد أنه، قبل كل شــيء، يجب علينــا، بعد التجارب الكارثية للعقود الأخيرة، أن نتوقف عن استعمال الحرية استعمالا إيديولوجياً. ففي كل مــكان، حيث وتحت إطار النضال مــن أجل الحرية تتصارع المصالــح السياســية والاقتصاديــة للــدول القويــة، ويتمــزق الســتار الإيديولوجــي، حيــث كل طــرف يفهــم الحريــة بطريقتــه، ويكون من نتائجــه الإرهاب مقابل الإرهاب. من يدّعي اليوم، بشــكل قطعي، أن الشــعب الفيتنامي يريد هذه أو تلك، على أية حال، أصبح واضحاً أن الشــعب الفيتنامــي لا يريد أن يُحكم، لا من طــرف الحكومة الحالية،

ولا مـن الفيتكونـغ، ولا من شـمال الفيتنام، ولا مـن طرف الولايات المتحـدة. وإذا كانت المصالح في الحرب الفيتنامية غير واضحة ولا يظهر الانحياز طبقا للنموذج الشائع أبيض/ أسود، بل تتجاوز بشكل تناقضي كل إطار إيديولوجي، فإن الحرب الأهلية في نيجيريا تعرض نفسـها علينـا برغم أحقيـة حركة الاسـتقلال في بيافرا في حـدّ ذاتها، فالمعنى واضح؛ الكفاح من أجل الحرية.

علـى نحـو مؤكـّد، أنـه بعـد عـام ونصـف مـن الحـرب تقدر الخسـارات بـ 1.5 مليون معظمهم من الجياع. وإذا كان لنا أن نبحث عـن الجناة والمسـؤولين عـن هذه الجريمـة الكبرى، بعد أوشـفيتز، فسنلاحظ أنه لا يوجد نموذج إيديولوجي يمكن الاحتذاء به.

وهكـذا يُعطـى الانطبـاع فـي بيافـرا على أنهـا تصفيـة أخلاقية لجميع الأنظمة الإجتماعية، شيوعية الدمغ أم رأسمالية. ومرة أخرى تكـون مفاهيـم الحرية والإنسـانية مجرّد حبر علـى ورق تبحث لهما الخطابات عن مسؤولية. فبالنظر إلى فيتنام وبيافرا فإن كلمة الإنسانية أصبحـت مرادفاً للوحشـية. يريدون منّا الاعتقاد بـأن الحرب الأهلية فـي نيجيريا هي حـرب خاصة بهذا البلد، هي حـرب قبائل، هي نزاع أفريقي أفريقي محض.

مؤكّـد أنّ حالة النزاع تسـمح بتحديد مكانهـا. لقد كان لإبوس، ولفتـرة طويلـة، موقع متقـدم في الإدارة والسـلطة السياسـية، وأيضاً تأثيـر كبير في الحياة العامـة. والذي يكون في هـذا الموقع يميل إلى استغلال مكانته السياسية. ولكن، في الواقع، فإن التقتيل الذي عرفته إبوس سـنة 1966 هو الذي أدّى إلى حركة نـزوح جماعية إلى بيافرا، وكان مـن نتائجهـا التعبيـر عن مطلب الاسـتقلال الـذي نجمت عنه حرب أهلية؛ سُميَّت أيضاً حرب تحرير في بيافرا. غير أن هذه الحرب

الأهلية ما كان لها أن تكون ولما تصاعدت أعمال الإبادة للشعوب، لولا تزويدها بالأسلحة من طرف بريطانيا، والاتحاد السوفياتي، وفرنسا، والبرتغال والصين، وساعد على ذلك فضيحة تجارة السلاح فوق التراب السويسري.

وفي الأقل بعدها أوقفت الحكومة البلجيكية والتشيكوسلوفاكية، قبل سنة، تزويد نيجيريا بالأسلحة. ويعود الفضل إلى حكومة دوبشيك الإصلاحية التي لم تدم سوى شهر واحد، وعارضت الاتجاه العام لمدّ مناطق الأزمات بالمساعدة العسكرية السوفياتية. ويجب أن نفترض أن هذه الخطوة الشجاعة من بلد صغير لا يريد أن يتواطأ في حرب إبادة جماعية، هي التي حركت الاتحاد السوفياتي لاحتلال تشيكوسلوفاكيا.

لقد ورّط صندوق النقد الأوروبي، ومن خلال المصالح الاقتصادية ـ فمرّة أخرى يتعلق الأمر بالنفط ـ الشركات العملاقة مثل شركة شيل وبريتيش بتروليوم في هذه الصفقات القذرة. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه حول الكيفية التي على الدول الأفريقية المستقلة حديثاً أو التي هي في الطريق إلى الاستقلال، التعامل بها مع ابتزاز المساعدات العسكرية الغربية والشرقية؟ من الذي أجبرها على نشر السلطة السياسية الأوروبية على أرض أفريقيا؟

لقد أوضح مؤتمر الجزائر أن غالبية المتحدثين باسم الحكومات الأفريقية هي على استعداد لقبول الإبادة الجماعية، درءاً لكل خطر على الوحدة السياسية لأفريقيا. فالرئيس الجزائري بومدين صرّح: «لا يمكن لنا أن نكون عاطفيين بسبب بيافرا». إن التطوّرات التاريخية الكبرى، أي توحيد أفريقيا، يتطلب الآن سقوط ضحايا. وهذا يعني، بعبارة أخرى، استعادة اعتبار للستالينية على التراب الأفريقي. فقبل

أكثر من عشـر سنوات، حين ناضل الشعب الجزائري من أجل حريته واسـتقلاله وقـف الشـباب فـي أوروبـا إلى جانبـه. واسـتغرق الأمر سـنوات قليلة، فقط، لتخرج من حركة التحرير الثورية سـلطة الدولة السياسية بطريقتها الخاصة.

ونحـن نعرف العديد مـن الحجج لهذه الدولـة أو تلك، لغالبية الدول والحكومات لمنع الإبادة الجماعية في بيافرا.

وهـذا يعني أنه إذا حصلت بيافرا على اسـتقلالها سـتطالب غداً يوروبا أيضاً بالأمر نفسـه. ويعني إذا أوقف البريطانيون المسـاعدات العسكرية فسـيضاعف السوفييت المساعدات العسكرية. ويعني هذا كله فقط مخاض ولادة قارّة تبحث عن اتفاق سياسي.

التهدئـة التـي لا ينبغـي أن تحجب معـدل الوفيـات اليومي في بيافـرا، والـذي قفز فـي غضون ثلاثة أشـهر من ثلاثـة آلاف إلى أكثر مـن سـتة آلاف. إن الأرقـام غير الدقيقة هـي دليل على السـلوك غير العقلاني لجميع الأحزاب المتناحرة. حدث أوشـفيتز وراء الأسلاك الشـائكة. القليلون فقط كانوا يعلمـون بذلك، وهذا لايقلّل من حجم المسـؤولية. إن الإبـادة الجماعية فـي بيافرا اسـتقطبت اهتمام الرأي العـام؛ صور وأرقام هائلة. ولوقت طويل تنقـل التقارير التلفازية هذا المسلسـل اللاإنساني لكل أسـرة. وبعد العشاء نشـاهد كيف يتضوّر الناس جوعاً ويموتون في بيافرا.

وبالرغم من ذلـك تتواصل عمليات الإبـادة الجماعية، وتـمنع المسـاعدات بفعل الاهتمام السياسي المحتشم. ومع ذلك تفشل كل محاولة لاستتباب السلام، لغياب النظرة المتعمقة للمسؤولين، وإلى المطالـب التعجيزية للأحـزاب المتصارعة. إن ما يسـمى بالمصالح الحيوية للدول القوية أصبحت أسباباً للقتل عند الضعفاء.

إنه الفهم الخاطئ للسيادة، أو لمفهوم الحرية المرتبط بالحدود الوطنيـة الـذي يجعل مهمـة المسـاعدة الفعالة من باب المسـتحيل. يتـراوح معدل الوفيات بين الصعود والنـزول، وهو الآن يتصاعد مرة أخـرى تتجـاوز الأرقـام الكثيرة، بالفعـل، القدرة البشـرية. ويصمت مجلس الأمن مستخدماً مفهوم هدوء المقبرة.

ولا دولـة أوروبية مستعدة للاعتراف ببيافـرا، فعلاقات الدول الأوروبية، مع غالبية الدول الأفريقية، يجعلها لا تشـعر بالقلق. ليجد ذلك الشـعب نفسـه يكافـح معـزولاً معتمداً علـى البرتغال وفرنسـا والصين للحصول على السلاح.

وأتساءل عن الكيفية التي سيتعامل اتحاد الطلاب الألماني س. د. س. مـع هـذا الجنـون الإيديولوجي. وكان من المستحسـن لو لم يُقَم المعرض الدولي للكتاب الأخير، بدل حركات احتجاجية عمياء ضد حامل جائزة السلام سينغور بمناقشة الإبادة الجماعية في بيافرا؟ غير أنني، وكما سمعت في السابق في فرانكفورت، فإن الأمر يتعلّق، في نظر الـس. د. س. بانقلاب عسكري إقطاعي الذي يجب القضاء عليه باسـم الاشـتراكية فـي بيافرا. لا أخجـل حين أقـول إن الحجج العدوانيـة المعبّـر عنها هنا فـي ألمانيا هي العقلية ذاتهـا التي أدت في بيافرا إلى الإبادة الجماعية.

ومـن ناحية أخرى ، نسـتخلص أن المؤسسـات الكنسـية، قبل عدة سنوات، تكرّمت بالصمت حينما قتل في إندونيسيا 300000 من الشيوعيين، وعند مقتل زنجي مسيحي أعلنت الكنيسة لائحة الاتهام. فبشكل أحادي لا تعترف كل إيديولوجية إلا بجرائم الطرف الآخر.

لنتخلص من الأوهام، فالإبادة الجماعية سـتتواصل في بيافرا. وهـي مجرد أسـابيع قليلـة لتكون محـطّ اهتمام عناويـن الصحف،

وستغطي عليها عناوين أخرى. وحينما تحصل سيعود العالم إلى جدول أعماله اليومية: لقد أصبحت الإبادة الجماعية سلوكاً يومياً.

وكما جرت العادة، بعد خطاب طويل ومحزن وإقرار وصفة للعرض، أو في الأقل الاستشهاد بمبدأ الأمل. يقال هنا: ليس لدي أي كم لينزل منه الوصفات. إن مبدأ الأمل هو فقط كلمة مثل قبضة الملعقة.

ولكن لا يتعلق الأمر هنا بالاستسلام بل أكثر بالصحوة والمقاصد، وتعرية الإكراه كجوهر لكلمة الحرية.

اقتراحي، إذن، لنتريّث قليلاً، قبل أن ننطق أو نصرخ بكلمة الحرية. لنتدرّب على الحرية قبل أن ننشدها. لنملك أكثر في مجال العقل التنويري؛ ممّا باستطاعتنا تطبيقه. وقبل أيام قليلة وفي 5 آذار/ مارس كان لدى الجمعية الاتحادية الحرية لانتخاب بديل سياسي. وهكذا استخدمت الكتلة الناخبة المؤلفة من الحزب المسيحي الديموقراطي والمسيحي الاجتماعي والحزب القومي الألماني، الحرية لانتخاب المرشح اليميني المحافظ وزير الدفاع غيرهارد شرودر. وتشكّلت جبهة وطنية ألمانية.

وهكذا توفرت الفرصة الكبيرة للاشتراكيين الديموقراطيين والأحرار الديموقراطيين لأول مرة في هذا البلد، لتحقيق البديل السياسي الاجتماعي الليبرالي. لقد أثبتت ثلاث مراحل من الاقتراع أن الديموقراطية البرلمانية ليست مملّة، وأن كلمة «الاختيار الحر» ليست عنواناً إذا ما توضح بشكل جليّ البديل السياسي. فعن طريق أغلبية ضئيلة تمّ منع إمكانية أن يحمل 22 عضواً من الحزب الوطني الألماني، الجمهورية الاتحادية إلى أزمة جديدة على المستوى

الداخلي والخارجي. إن حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي والاتحاد الاجتماعي المسيحي دفعا الحرية عن طريق اليمين المتطرّف إلى الدخول في تحالف انتخابي عاصفي.

لنكن فخورين، بعض الشيء، لكون الحرية الديموقراطية مكّنتنا من انتصار العقل. وعلى امتداد ثلاث محطات انتخابية لم تكن الحرية كلمة كمقبض الملعقة.

## بابوات وأحبار وتكنوقراط وملحدون
## حائرون في قبة السماء

**كلمة ألقيت في الأكاديمية الكاثوليكية**
**بولاية بافاريا. ميونيخ، 1969**

سيداتي وسادتي،

أسمح لنفسي أن أغيّر في عنوان فيلم زميلي ألكسندر كلوغه؛ إذ إنه، أحياناً، بعد محادثة تستغرق خمس ساعات، قبل أن توشك ليلة مُلئت بالكلام على الانجلاء، ينخفض صوت المتحدثين. ويصبحون فارغين ودقيقين. وفجأة يكونون حائرين صبورين؛ يطوون إيديولوجياتهم... ويوفّرون المطالب الخاصة لما بعد؛ لمناسبة مقبلة. وحينها يشرعون بالغمز؛ بعضهم لبعض. المسيحيّ المؤمن، والملحد المؤمن، والشيوعي المؤمن والتكنوقراطي المؤمن. فجأة، فارغون من الثرثرة ومختصمون، يدركون، كم هم، كلهم جميعاً، مفلسون، ويعرفون أنه، في الأقل، ثمة شيء واحد يوحّدهم: الإفلاس الجماعي... منهكون هم، ولهذا صاروا متسامحين.

في موقف القوة وامتلاك الحقيقة الكاملة والوحيدة، عند السابعة صباحاً تقريباً، حين يكون العالم لا يزال بخير، يصير التسامح ثقيلاً عليهم، والأدهى من ذلك: أنهم يضربون بالتسامح عُرض الحائط، ويدعونه بضعف الإصلاحيين والمتشككين والبرجماتيين

المستعدين للمساومة، ـ وكما يُقال ـ في اجتماعات الطلبة غالباً ـ: الليبراليين الأخساء!

لكن الآن، بعدما فاضت منافض السجائر وتأمل كل واحد مغتماً ثُمالة كأس النبيذ، تبدأ نصف ساعة الأُخوّة؛ ويكاد يكون ثمة إجماع.

يقلع المسيحي عن محاولة اللعب البهلواني بالأسرار المقدسة واستخدام مبدأ الرحمة ضد العقل؛ الشيوعي أجّل الصراع الطبقي إلى العطلة الصيفية؛ الملحد فقد الاستمتاع بفكرة العدم المعدوم؛ أما التكنوقراطي فهو يتشبّث مرة أخرى بأنظمته الأخدودية؛ وينفخ في برجمته قائلاً: والآن، ماذا؟ أسطورة جديدة؟!

أرغب في أن أحرّر الآن هذا الإفلاس؛ إفلاس هيئة تبغ ونبيذ أحمر فارغة من الكلام؛ أحرّرها من ضيق فسحة النادي المريح وأنقلها إلى العلاقات السياسية. منذ البداية يجب ملاحظة اختلاف جوهري: حول الدائرة الصغيرة، حيث لا تكون إلا آلات الكلام حاضرة، يسمح الإنهاك بتسلّل السِّلْم، ولا يكون الفريقان المتنازعان في الميدان السياسي ـ العسكري ـ بعدُ منهكين، بتصميم يُقصي بعضهما البعض، ومع ذلك يعملان جنباً إلى جنب، وهما يجرّبان، معاً، قوّة تحمّل الشعب الغافل والمتجلّد عبر ما يُدعى بوسائل قتال عصرية؛ تجرح بطريقة تقليدية.

أنا أتحدث عن الحرب الأهلية في نيجيريا. وحين تطلب مني الأكاديمية الكاثوليكية في بافاريا أن أتحدث عن موضوع «أسوار ومعسكرات: حول الجدال بين الكتّاب والمسيحيين»، فليُسمح لي، أنا الواقعي الذي لا يَنتصِح، البحث عن المسيحية، في الأمكنة التي هي فيها اليوم أكثر تعرضاً للتساؤل.

لقد بلغ عدد الوفيات، من الذين قضوا نحبهم جوعاً في نيجيريا، حسب إحصاءات الأونيسكو 1.5 مليون نسمة. هذا العدد يصيب بالهلع، إذا ما كان له أن يصيب. لأول مرّة، وبعد هذا الوقت الطويل، تأخذ الكنائس المسيحية الأمر على عاتقها. ترسل المساعدات؛ ترفع شكاوى؛ تجمع وتحتج؛ تنحاز إلى جانب دون آخر، لكن لماذا فجأة؟ ولماذا ليس قبل بضع سنوات، حين تم قتل 300000 شيوعي، أو بالأحرى إندونيسي، الذين اتهموا بالشيوعية؟

الإجابة واضحة، وتطابق وجهة التفكير ذو المصلحة: لأن الزنج المسيحيين، في بيافرا، هم الذين يقضون نحبهم جوعاً. الشيء نفسه يُقال عن جنوبيّ السودان، حيث تبيد القوات العسكرية الحكومية التابعة للشمال الإسلامي السكانَ السودَ المسيحيين وفق منهجية متبعة.

أنا لا أستخف بمساعدات الكنائس المسيحية، لا سيما أن الصليب الأحمر الدولي لا يقدر وحده على استيعاب الأوضاع في نيجيريا. لكن ألا يلاحظ أحد، كم هي المساعدة للطرف الذي ينتمي لمعتقده غير متناسب إذا كان يتم على مبدأ المسيحية بحب الآخر. من يستطيع اليوم أن يشكّك في أن الكنائس المسيحية - باستثناء بعض الأفراد منها، من الذين دفعوا حياتهم ثمناً بما فيه الكفاية - قد فشلت بألمانيا، حين كانت النازية تهيّئ الحل النهائي لقضية اليهود، ويُشرَع، بعد ذلك، في تنفيذه كما كان يُقال. قد يكون تأنيب ضمير الكنيسة منذ (أوشفيتز) قد آن له أن يتخفّف في بيافرا، أو أنه قد تكون في الواقع ثمة، كما تساءلتُ في البداية، المصالح الخاصة التي لا بد لها أن تُراعى، كما يراعي قواد الحروب وموردو السلاح مصالحهم الشخصية. على الأرض الإفريقية تعلن، حالياً، جميع الأنظمة الاجتماعية والإيديولوجيات، ومنها المسيحية، إفلاسها.

نعلم بأن مورّدي السلاح الرئيسيين في مناطق الأزمات هم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي. ويتبع العملاقان فرنسا وبريطانيا العظمى، ثم تأتي، كما كان ولا يزال، تشيكوسلوفاكيا، ليس مهمّاً أن تكون تشيكوسلوفاكيا وبلجيكا قد أقلعتا منذ عام عن تصدير السلاح إلى نيجيريا.

لن نذكر أيّة كلمة عن خيانة الاتحاد السوفياتي لإيديولوجيته الخاصة، أو عن الجمهورية الصينية الشعبية، التي من جانبها، لتضر بالاتحاد السوفياتي، ترسل بالأسلحة إلى بيافرا. لنبقَ في مجالنا الخاص، نعم، لنغضّ الطرف عن الولايات المتحدة الأمريكية، التي لم تخجل سياستها من جرائمها في الفيتنام. لكن سيكون من غير المعقول، كضيف على الأكاديمية الكاثوليكية في بافاريا، البحث مجّاناً عن الجرائم بعيداً وتسميتها. هنا في الغرب، في الغرب الحر، في الغرب الديمقراطي، في الغرب المسيحي تبدأ جريمة تسبّبت في تصعيد نسبة الموت في بيافرا.

أما زلتم يا ترى ترون بدائل؟ هل تصدير الغرب الحرّ للأسلحة أجدى، وربما أكثر ديمقراطيةً ومسيحيةً من تصدير الشرق غير الحرّ المُستبد والملحد للأسلحة؟

من بمقدوره في ظل هذا التعايش السلمي الساخر بين كل أنظمة الأسلحة ـ سويسرا نفسها تساعد على إطلاق القذائف بمدافع (أورليكون) على آلات الشحن التابعة للصليب الأحمر الدولي ـ لن نجد لهذا تفسيراً آخر، اللّهم إلا إذا تم الإعراض عن كل الحجج السياسية والتذرّع بالجمعيات الخيرية.

والآن نستطيع أن نقول بسهولة، بأن الكنيسة لا ينبغي لها أن تكون سياسية، يجب عليها أن تُعرض عن السياسة. بيد أن الكنيسة سياسية؛

كانت كذلك بقوة منذ بداياتها، حتى قبل أن تتحوّل إلى مؤسسة مسيحية. التصريح بمثل هذه الكلمة في بافاريا ليس فيه الجديد.

من لا يتذكر «الرسائل الرعوية» التي تُتلى من على منابر الكنائس الكاثوليكية، في كل مرة، قبل أن يتوجّه الناخب المسيحي إلى صندوق الاقتراع. على كل واحد أن يؤدّي واجبه بجدّ، وأن يتأمّل تقرّب الصحافة الكاثوليكية اليومية من المسيحية من جهة، ومن جهة ثانية يتمعّن في اقترابها من «الجريدة القومية» سياسة ثابتة يمينية رجعية لا تحجم عن التشهير والقذف، هي التي تُدار هناك.

«موعظة الجبل» - وهي لوحدها تعني المسيحية بالنسبة لي - قد تتواجد في أعمدة هذه الصحف المعنيّة على هيئة خدعة ساخرة.

بتعبير آخر: الكنيسة المسيحية، تتدخل بخسة في السياسة اليومية، لن تستطيع أن تُخلي نفسها من المسؤولية السياسية، إذا وُجّه إليها سؤال حول الذنب والمشاركة السياسية. عن نفسي، أنا وثني كاثوليكي جداً، إلى درجة أنصح الكاثوليكية بالتطهير (البوريتاني)، لا سيما وأن البوريتانية نوع من اللعب المسيحي عند آباء كنائس الرأسمالية، «كتاب ذنب» آخر - وأين بقي ما هو إيجابي إذن؟

الكتّاب والمسيحيون هم في حقيقة الأمر العنوان الفرعي للموضوع المطروح عليَّ، ومباشرة يحضرني عدد من الكتاب الذين أرادوا بُعيد استسلام الرايخ الألماني الكبير، في ظل الخراب والآمال المرسومة، استيعاب الكاثوليكية اشتراكياً؛ أنا أعني هاهنا كاثوليكي الساعات الأولى من اليساريين: (هاينريش بول، وكارل أمري، وفالتر ديركس، وأُويغن كوغون)، وأعني مجلة «فيرك هيفته» أي «دفاتر عمل» الكاثوليكية لغيرد هيرشاور. وحين تبدأ اليوم جبهاتُ الكاثوليكية شديدةُ المحافظة، والجامدةُ بالتفتت، حين يكون دائماً هناك، حيث يلتقي الكاثوليكيون الشباب، تأثير السياسة الاجتماعية

والمشـاركة فـي اتخاذ القرار علـى المؤتمـرات واجتماعات العمل، فلـن يكون هذا بفضل هـؤلاء المدعوّين بالكُتّاب الذيـن بدأوا باكراً، وسرعان ما شُهّر بهم، ليستسلم جزء كبير منهم.

أسـتطيع فقط أن أخمّن، كم من المرارة تجمّعت لدى هاينريش بول؛ أستطيع فقط أن أتمنّى أن يذكر الكاثوليكيون الشبابُ اليساريُّون أفضالـه، وأن يكـون لديهم نفس طويل مثل الـذي كان عند هاينريش بـول عبـر مسـافات العطش مـن كولونيـا إلـى كولونيا، ومـرة أخرى رجوعاً إليها.

والكتّاب المحافظون أنفسـهم مثل راينهولد شـنايدر وغيرترود فون من لوفورت لا يسـتطيعون تحريك شـيء. الكنيسـة الكاثوليكية ـ أو بالأحـرى اللجنـة المركزية للكاثوليكييـن الألمان عقدت حلفها مع الحزب المسـيحي الديمقراطي/ والمسيحي الاجتماعي، وما من أحـد بمقـدوره أن يحذف حرف (C) الـذي يدلّ على المسـيحية في بداية لفظتي الحزبين، لأجل التجديف بالله.

نشـر كارل أمري سـنة 1963 كتاب: «الاستسلام أو الكاثوليكية الألمانيـة اليـوم». فـي كلمـة الختـام يقـول هاينريش بـول: «محاولة للكتابـة عن الكاثوليكيـة الألمانية من واحد لا يُعدّ مـوكّلاً من طرف اللجنة المركزية للألمان الكاثوليك، سـتكون منذ البدء عرضة لخطر أن تحشـر فـي رف معين. إن عنوان: الاستسـلام، مضافًـا إليه خاتمة منـي، وهـو ما سـأقتبس منه مـرّات كثيـرة، لتكفي ليسـمع المرء، من فـوره، أغانـي أسـراب العنـادل؛ يترنّـم بهـا الأولاد الأشـرار الذيـن يمسـكون العصـا؛ بعضهـم لبعض؛ الحـق معهم: أنا أمسـك لـ كارل أمري بالعصا».

روح هذا الكتيب الأساسـية هي الاكتئاب، وليس الاستسـلام،

وهـو يـكاد يقف وحده، في مواجهة آلة النشـر العملاقة، التي تملكها الكاثوليكيـة الألمانيـة: «إن كتـاب كارل أمـري صـارم فـي تحاليلـه التاريخيـة؛ لكنـه مُتهـادن ومُنصـف، يقـف في مواجهـة آلـة، لا يُعدّ الإنصاف من ضمن قاموسها».

غير أننا نطرح على أنفسـنا السـؤال: لماذا لم يسـتطع هاينريش بـول وفالتـر ديركس، خلال السـنوات الأولى لفترة مـا بعد الحرب، الحصـول على إصغـاء أكثر داخل الكنيسـة؛ كلاهما، وقـد طبعتهما الحـرب والجرائـم المرتبطـة بهـا، كان ينـوي تبنّي المسـيحية قولاً، وكشـف النقـاب عن محيطهـا المحافظ والسـري والأسـود الغامق. لـم ينويا الإتيان بنظريات حديثة حول مصطلـح الثالوث المقدس أو حول أسرار الرحمة؛ فقديسهما، لو أنهما أصلاً اعتمدا على القدسية، كان يدعى فرانز فون أسيسـي. فيه اكتشـفا، كما أظن، تقاليد الواجب الاجتماعـي المسـيحي. كان لا بد لهمـا أن يفشـلا، لأن الكاثوليكية بألمانيـا لـم تتحمّـل عمليـة التنويـر الأوروبيـة. خـلاف الكاثوليكية الفرنسـية المتنـوّرة التي حاولت فوراً، بُعيد نهايـة الحرب عبر أعمال الإصلاحات من قبل قساوسة العمال، إعطاء أجوبة واقعية للمطالب الاجتماعية.

بقيت الكنيسـة الكاثوليكيـة في عقود فترة ما بعـد الحرب على عفّتهـا من دون تجديـد؛ ومن هو مثلي: كإشـتراكي ديمقراطي أحياناً (وغالباً أيضاً خلال الشهور المقبلة) يذهب إلى دوائر الانتخاب التي فيها نسـبة السـكان الكاثوليك عالية مثل حصيلة الأصوات للحزبين: المسـيحي الديمقراطـي المسـيحي الإجتماعـي، يـدرك كـم لا يزال عنيداً، وشديد المراس، وغالباً، أثريّاً يعود إلى فترة العصور الوسطى، المحيـط الكاثوليكـي إلى يومنا هذا: إنه مشـوّه ومحافظ مُسـيّس من طرف الرابطات الكاثوليكية الدينية. شـبكة من العلاقات والواجبات

المتبادلة؛ سدّ من التقييمات المسبقة يسدّ الطريق على كل شخص؛ يريد في الأقل أن يُستمع إليه بتعقّل، وليس من خلال مطالبته بالتسامح. إن الكاثوليكية تستطيع أن تذهب أبعد من البروتستانية كقوّة تدفع بالإصلاحات الضرورية في هذا البلد، لأن الكاثوليكية، رغم إصرارها على الموقف المحافظ، بخلاف البروتستانتية، لم تجرّ وراءها ثقل القومية. إنها، حتى ولو كان امتلاكها للسلطة العالمية أقل، تستطيع ببساطة أن تتحرّر وتجتاز التقييمات المسبقة، في مواجهة الديمقراطية الاشتراكية على سبيل المثال، التي اجتازت هذه التقييمات المسبقة في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية بالحجم نفسه الذي سعيا به جاهِدَيْن للتحرر من ثقل القرن التاسع عشر الإيديولوجي.

الكُتّاب والمسيحية؟ أنا أستطيع أن أتحدث عن نفسي فقط. المذهب المسيحي يوجد هناك، حيث تـمَثـل كعقيدة بتعصب، بالنسبة إليّ أعدّها إيديولوجيات في مواجهة إيديولوجيات أخرى، تمثل أيضاً بتعصّب. من يريد أن ينكر القيمة والمحتوى الأخلاقي لمذهب المسيحية؟ من يريد أن ينكر المحتوى الأخلاقي في الماركسية العلمية؟ موعظة الجبل والميثاق الإشتراكي هما، معاً: يستحقان القراءة والاتباع؛ يُحرضان على الاعتراض، كأي مذهب أخلاقي كبير. الشيء نفسه يُقال عن الكتابات الملحدة. التطلعات الأخلاقية نفسها يرفعها اليوم المنادون بالأفكار التكنوقراطية.

من «دولة الله» لـ أغسطينو إلى ترسيخ «الوجود» لهيربت ماركوزه ـ لا تنقصنا المخطّطات وتعاليم الخلاص. لكن يجلس، كما قلت في البداية، ممثّلو كل مذاهب الخلاص بعد المحادثة المجهدة حول الطاولة، وقد استولى عليهم البكم ببطء، منهكين، لأنهم

أحصـوا؛ بعضهم لبعـض، الضحايا التي كان لا بد أن تقتل باسـم كل مذهب مـن مذاهب الخلاص الأخرى، ولأنهم، في خاتمة المطاف، لا يسـتطيعون أن يتبيّنـوا أن هذه الضحايا حقـا قد قتلت. أجل، لأنهم قـد أدركوا، بأن تنـوع وجودهم لن يسـتطيع أن يقف فـي الطريق، لو أنهم فقط يستطيعون أن ينقلوا لحظة التسامح هذه إلى اليوم التالي، أو الذي يليه؛ لو أنهم على اسـتعداد أن يحسموا التناقضات في ذواتهم، والتناقضـات بيـن كل المناصـب بالتسـامح، وليـس بالحصول على أغلبية الأصوات المطلقة.

لأن أخلاق كل مذهب، أيضاً المسيحية، ستكون باطلة، بمجرد مـا ترفـض أخلاق المذهب الآخـر أو أن تُلاحق معتنقيهـا. لحم ودم المسـيح: النـزاع حـول ما «هـو» أو ما قد «يعنيـه»، دفع ثمنـه ملايين البشر.

اليوم لا يُلاحق أحد في البلاد؛ ليس ثمة خطر بعد يهدّد الحياة، لـو أن الإنسـان أراد أن يعتنق هـذا المذهب أو ذاك. بيـد أن الأحكام المسـبقة لا تزال قائمة؛ اللاتسـامح ما زال مُنتشراً. ولو أريد أن يكون لهذه الندوة من معنى، فعلينا أن نأخذها كتمرين على التسـامح، حتى ولو كانت النتيجة في النهاية، وهذا بعد نقاش طويل، تعني فقط: أنهم منهكون، هؤلاء المتخاصمين، تناقشـوا حتى خلوا من الكلام، ولهذا فإنهم، أيضاً بسبب تأخّر الوقت، صاروا، شيئاً ما، أكثر تسامحاً.

# إيديولوجية اللّف والدوران

**1969**

مرَّ النقاش (ونحن نحتسي قهوة سوداء) مع بيرند رابيل وبيتر نايتسكه في جوّ سلمي. عرضت أسئلتي مرّات متعدّدة، وجزء منها تمت الإجابة عنه. وتؤكد التجربة أن الحديث مع ممثّلي اتحاد الطلاب س. د. س. في حلقة ضيّقة، أي على مستوى خاص، يمرّ بأدب وأحياناً يكون شيّقاً، مقارنة مع غيرها من النقاشات، مع غيرهم من الطلاب الذين يمثّلون اتجاهات مختلفة.

وحين كان الحديث عن الاشتراكية كثيراً وغامضاً وحماسيّاً، كانت المثالية الألمانية تظهربسهولة مبالغة في الإيمان، حيث الأحلام العريضة تتركك تطير وتجعل الواقع السياسي والمجتمعي في غنى عن الثقل.

وهل من المنطقي أيضاً أن تكون ردّة الفعل غاضبة إذا ما تمنّى شابان جادّان تزيين تبعات الخسارة بالنصر؟ غير أنني أمتنع عن عدم أخذ هذه المطالب في لحظة تنفس قليلة على محمل الجد.

إن اختراق اللاعقلانية في السياسة في أيامنا هذه هي متعددة وواسعة للغاية. وقوّة ردّ الفعل، مهما كانت إيديولوجية التلوين،

بشكل واضح «هم لا يزالون شباباً ولهم أمنيات» يكون بالإمكان وضعها على جدول الأعمال.

كان من المفروض أن يكون هذا الحديث المسجّل بشكل منفرد مع بيرند رابيل. غير أن هذا الأخير لم يرد أن يكون بمفرده. ولكن حضر مع كريستيان زيملر. ولأن زيملر لم يكن رهن الإشارة مَثّله بيتر نايتسكه. في البداية فكرت هل هذه الطريقة من الحماية، هل هذا الظهور المزدوج الغريب في هذه الأثناء من طرف ممثل الاشتراكية بيرند رابيل مقصود أم أنه نتيجة التزام بكل دوغمائية، يدّعي مواجهتها. ربما آثر التوأم الكوميدي بلاوتوس هذا النمط من السلوك على الظهور المزدوج. وحينما لا يكون بيتر نايتسكه راضياً على أجوبة بيرند رابيل، يكملها أو العكس، حيث رابيل يصحّح إجابات نايتسكه وحيث الاثنان معاً يملكان ناصية الخطاب السلس حول «الوعي الصحيح»، ويعتليان مجرى هذا الخطاب في وثوق كما يفعل أتباع فلسفة الكينونة الذين يركبون السيل الهيدغري في اتجاه العدم، يبقى للسائل مكان ضيق للأسئلة الثانوية، وأحياناً يكون من حقّه طرح سؤال «أية اشتراكية تقصد الآن؟» أو «ماذا تفهمون من معقل الثورة المضادة؟».

بشكل متصلّب وبكل تركيز يتبع الاثنان إيديولوجية مفترق الطرق في تبنّي الأمور من دون شك، بحيث أن مفترق الطرق نفسه يضمن حق الأسبقية للاتجاه «إلى الأمام». (بهذه الجدية وبالأسلوب اللاهوتي استطاع تلاميذ الأديرة في القرن الثاني عشر نقاش مسألة ثالوث الله بشكل واسع).

وينحصر واجبي الآن في نقل لغة بيرند رابيل وبيتر نايتسكه حول اتحاد الطلاب س. د. س. أو بالأحرى حول تعبير «المعارضة

خارج البرلمان، APO». لكنني أتلعثم بعض الشيء، هل عليّ أن أُعطي وجهة نظري (كفرد لا يمكن إصلاحه) أو عليّ أن أستشهد بأقوال اليسار الراديكالي؟

كتبت الصحيفة ذات المستوى المدرسي الفوضوية «لينك إك، زاوية اليسار» حول موضوع س. د. س.: «إن خراء السلطة الفردية لا يكاد يجرؤ أحد على تحريكها، لأن الطموح المقزّز للرفاق زيملر زيمله ونايسكه أو هاكلبيرغ تفوح منه رائحة الرشوة السياسية وربما المالية النتنة».

أسلوب هذه الفقرة هو مثال صارخ لأسلوب هذه الجريدة «لينك إك» وللجناح المتطرّف لليسار المتطرّف. ولكنه لا يستبعد الهجوم المباشر لنايتسكه وزيملر: ستصبح هيئة تحرير «برلينه اكسترادينست» في حالة غوغوموس وماريانه ريغنسبورغر كتحريفية ودوغمائية. وبالأسلوب الاستبدادي نفسه ستتعامل مجموعة اللجان مع هذه المجموعات المكوّنة لهذا السبب. ما الذي كان مقصوداً من المناقشة، ظهر في صراع اليسار الراديكالي. (كانت الأوضاع البرلينية تُشكل نموذجاً للصراع بين المجموعات اليسارية داخل الجمهورية الاتحادية).

والسؤال الرئيسي في هذا النزاع أي اشتراكية يُقصد بها حينما يتم الحديث عن هذه الأخيرة؟ والعجيب بذلك أن مجموعات جديدة تتشكل بسرعة تحت حجّة أن تاريخ الأممية الشيوعية باتجاهاته الرئيسية والفرعية يُلزم ذلك. وحتى عندما تؤكّد كل مجموعة أنها تمثّل الماركسية النقية النزيهة، فإن كل عضو داخل مجموعة يؤكّد أنه قرأ ماركس آخر أي ماركس الحقيقي. التروتسكيون واللينينيون يرفضون الستالينيين، ويرفضون بعضهم البعض. الماويون يتحمّلون

الستالينيين والأخيرون لا يتحملونهم، في حين أنهم يرفضون اللينينيين والتروتسكيين وأنصار روزا لوكسومبورغ، بالإشارة إلى كونها أيضاً تنتمي إلى اللينينيين. بالرغم من أن الصراع بين لينين وروزا لوكسمبورغ ينفي هذا الوئام الكاذب. تتفق المجموعات، في ما بينها، وبعضها ضد البعض، في استعمال كلمة التحريفية أي تحريفي. قد ينجم بعض الغموض، مثلاً، إذا تمّ نعت الإصلاحيين الشيوعيين، في تشيكوسلوفاكيا، بالتحريفيين الستالينيين.

في الواقع أكّد بيرند رابيل، مراراً، أن النظام الاقتصادي اللينيني يسبق تحريفية ستالين لسنة 1952 والتحريفية الستالينية عند السلوفاك وعند التشيك هذه الأيام.

وكلما بقيت الصراعات النظرية داخل المجموعات اليسارية، في ما بينها أو بعضها ضد البعض، حبيسة الجدران، أمكن احتواؤها من الداخل. فاحتلال تشيكوسلوفاكيا من قبل خمس قوات من حلف وارسو، ترك المسألة الشائكة مفتوحة. إن عملية الانقسامات، داخل المجموعات المتصارعة في ما بينها ، تتم بوتيرة سريعة ولم تنتهِ إلى اليوم.

لقد قاد الجهل والخوف من الشيوعية الموروثة، إلى غض الطرف عن الوضعية الهزيلة للمجموعات الشيوعية في ألمانيا الغربية. إن الرغبة في ردّة الفعل المتماسكة، في حدّ ذاتها من أجل جعل الجناح اليساري الراديكالي الذي يُهدّد الدولة صنم عبادة، يخبّئ كل محاولة للتميّز، وأثّر ذلك على وضعية اليسار المتطرف. أمام استمرار الصراع وتزايد الانغلاق الدوغمائي، أصبح اليسار الراديكالي غير قادر حتى على تشخيص وضعيته. الأكثر من هذا فهو يرى أنّ مسلسل التدمير الذاتي هو من صلب النظرية الماركسية. إن تزايد النزاع الداخلي هو من علامات القوّة.

إن «اليسار الجديد» في ألمانيا الغربية، وكل الذين يسيرون بركابه، لهم حجج متخلفة، وتحدد مصطلحاتهم مفاهيم من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. بطولات تأريخية (كومونة باريس، ثورة أكتوبر، سبارتاكوس) يتم تشذيبها بحنين مؤثر (حتى من طرف شباب في نصف عقده الثاني). وكثيراً ما سمعت نقاشات ممثلي س. د. س. والمعارضة خارج البرلمان يتحدثون عن روزا لوكسمبورغ كما لو أن هذه المرأة الاشتراكية هي القديسة كلارا التي اكتشفت في كارل ليبكنيشت فرنسيس الأسيزي. إن تقديس الأبطال والقديسين، ونصوص مؤسّسي الكنيسة والمناقشات اللاهوتية المتنازع حولها، هي أدلة على الاتجاه الرجعي لـ«اليسار الجديد» في ألمانيا الغربية.

مع تزايد التباين في المواقف السياسية في الجمهورية الاتحادية، يمكن الحديث اليوم، بالفعل، على تواطؤ اليسار واليمين الرجعي. حتى مفهوم الثورة يحدد حسب مصطلحات القرن التاسع عشر، ويستند إلى خبرات زمن ليبيرالية مانشستر. إن نظرية الافتقار (التي انتهى مفعولها في عهد كارل ماركس) تحتفل، مرة أخرى، بالقيامة، ومن دون كلل يبشرون بالأزمة الوشيكة للرأسمالية (كما كانت تقريباً سياسة كونراد أديناور الذي بشَّر بقوة انهيار الشيوعية وكان يتوقعها). وتبعاً للنموذج المحافظ فإن قوة الرغبة هي أكبر من تجربة الرؤية.

إلى جانب المجموعات ذوات الإيديولوجية المتماسكة، هناك مجموعات على هامش المعسكر الليبرالي والديمقراطي الاشتراكي، والتي هي، عدديّاً، أكبر من المجموعات ذوات الإيديولوجية تعمل تحت مظلة المعارضة غير البرلمانية بين الأحزاب والمجموعات الإيديولوجية، وغالباً ما تكون مواقفها متذبذبة مع محاولة حصول هامشها السياسي جزئياً على النجاح. إنني أميل إلى المعارضة

خارج البرلمان والتي لا يجب النظر إليها بشكل متسرع كمعارضة للبرلمان، وأن تعطي، مع الوقت، وزناً سياسياً أكبر من المجموعات الدوغمائية الثابتة. ويمكن اعتبار نطاقات إضافية للمعارضة، خارج البرلمان، بمثابة استمرار للعمل الإنساني. إن النقد الضروري والحاد والغني بالمعارف للأحزاب، في ظل اتساع الديموقراطية البرلمانية الشكلية، والانتقاص من الحقوق الأساسية، سَيُؤخذ سياسياً، مأخذ الجد، وكما أعتقد سيكون في مصلحة الجمهورية الاتحادية.

ولا يتمنى المرء سوى أن يؤثرّ يوم 5 آذار/ مارس 1969 ، يوم انتخاب الرئيس الاتحادي غوستاف هاينمان، بشكل واقعي، في س. د. س.، أو على بعض المجموعات داخل هذا الاتحاد، وعلى مختلف مجموعات المعارضة غير البرلمانية. والذي هو على استعداد للملاحظة يُمكنه أن يعاين أن الديمقراطية البرلمانية، على امتداد ثلاث جولات انتخابية، لم تعرف أية عمليات توجيهية تحكّمية مملّة. والأنكى من ذلك أصبح واضحاً، وفي أحسن الأحوال وبشكل دقيق، كيفية قياس تفوق العقل، وكيف أن المحافظين، ومن دون تفكير، هم على استعداد للحكم بأصوات الحزب القومي الألماني. وكيف أن النقد مسوّغ وشرعي للحزب الديمقراطي الاشتراكي والحزب الديمقراطي الحرّ، كلاً على حدة. إنهما معاً شكّلا، على نحو واضح، البديل لمواجهة مرشح المحافظين. لا أخشى ابتسامة إيديولوجي الثورة، فبالنسبة لي، يشكّل الخامس من آذار/ مارس 1969 تأريخاً مشرقاً في تاريخ اليمقراطية البرلمانية الألمانية القصير. بالتأكيد لن يكون غوستاف هاينمان رئيساً مُريحاً؛ فهو يتحدث بصراحة غير أورثوذكسية، ما تعلّمه خلال تجربة سياسية تمتد لعقود من الزمان. سيعطي لولاية الرئيس وجهاً، ووزناً سياسياً جديداً. الذي

يطمح أن يرى تنفيذ الإصلاحات المؤجّلة، عليه أن يعترف بأنها قابلة للتطبيق مع انتخاب غوستاف هاينمان؛ نبراس العقود القادمة.

أليس من الأهمية بمكان أن يرى فيه جيل ما بعد الحرب رئيساً لهم؟ ألا ينبغي أن تكون احتجاجات الطلاب، أولاً وقبل كل شيء، دعماً له، طالما أن ردود فعل اليمين واليسار تمثل استجابة لقاتل الديمقراطية البرلمانية المتنكر؟ لم يكد يُنتخب غوستاف هاينمان رئيساً، حتى تخلى فرانز جوزيف شتراوس عن لعب دور وزير المالية المخلص؛ سيترك بكل ثقة للدوغمائيين إمكانية التحدث. أتساءل عن موقف بيرند رابيل وبيتر نايتسكه إذا تطلب الأمر أن تقف الديمقراطية البرلمانية ضد جبهة هارتزبورغ المتجددة. هل سيناديان برافو! ومن بعد فترة قصيرة يتمنون سلطة يمينية رجعية من أجل انتصار اشتراكيتهم غير المُحددة، أو أنهم سيعرفون من هو عدوّهم الحقيقي، وكم هو شاق ومثمر دفع الإصلاحات إلى الأمام في ألمانيا؟

## المثالية هي بلوانا

**1969**

كانـت الانطلاقـة، علـى الأرجح سـنة 1945، حين عـدت إلى رشـدي عـن طريق أحـداث تاريخيـة معروفة. ومـن وقتهـا يرافقني، بشـكل مسـتمر، شـكّ مزمن إلى جانب طبيعـة هزليـة. والنتيجة هي المقاومـة (وغالبـاً ما يكون الهجوم كافياً) ضـد أيّ إيديولوجية؛ تبيح لنفسـها وضع معايير مطلقة. أنا ـ وببسـاطة أقول ـ ضد وضع أهداف تفوق قدرات الإنسان.

حينمـا حللت ضيفاً، لأوّل مرة، عنـد مجموعة 47 لقراءة بعض نصوصي، وكان ذلك سنة 1955، وقتها كان مصطلح «الأدب الملتزم» حديث السـاعة. بكل بساطة تسـبّب لي الطريقة المتعجرفة لتصريف أدب المقاومـة كضميـر للأمة نسـبيّاً، نوعـاً من السـأم والملل. أوجّه انتقادي، بالأساس، إلى الذين حاولوا شيطنة الاشتراكية القومية. وإذا مـا تمكنت مـن التصدي لذلك فالفضـل يعود إلى «الطبـل الصفيح» و«القـط والفأر» و«سـنوات الـكلاب» وتقييم تفاصيـل البورجوازي الصغير. وأنا جِدُّ سعيد.

حيـن عودتي إلـى برلين، بدأت حملـة قذف دفينـة وعلنية ضدّ فيلـي برانـت، من دون أن يُحرّك الرأي العام سـاكناً. إن هذا التشـهير

برجل ليس باستطاعته الدفاع عن نفسه، كان السبب للظهور أول مرة في وسائل الإعلام (هنا بحاجة إلى أسماء معروفة) للتصدي للذمّ بمساعدة الشهرة المتعبة والتي أصبحت من بعد مملّة. ورويداً تحوّل مناصر الديمقراطية الاشتراكية إلى جزء منها، فأنا لم أكن من الولادة عضو فيها. ومن المضحك أن أنصار الأدب الملتزم إلى يومنا هذا هم المعارضون الأقوياء للكاتب غير الملتزم سياسياً، وفي الوقت نفسه لمواطن ملتزم سياسياً؛ اسمه غونتر غراس. في الغالب وجدت تفهُّماً لدى قدماء الاشتراكيين الديموقراطيين، وأيضاً لدى كتاب الهجرة كما هو حال كارل تسوكماير.

وخلافاً للعام 1965، كان لمحاولة إعطاء مضمون للكلمة المفتاح «الالتزام» اليوم صدًى كبير على القاعدة العريضة. وفي حين لا يمكنني الحُؤول، وكما في السابق، دون أنْ يبقى اسمي كعلامة تجارية؛ تُخفي قدرات أخرى، غير أنه شُكلت انطلاقة لاشتغال مجموعة من المبادرات الانتخابية للاشتراكيين الديموقراطيين، في ما لا يقل عن عشر أو خمس عشرة مدينة وفق إمكاناتهم.

ولن أخفي حقيقة بعض الدروس التي تعلّمتها في السياسية الديمقراطية من سويسرا، وأشكر على ذلك زوجتي. إن الوعي العام السويسري البطيء الذي يتفهّم من جهة الحُؤول دون الأداء المتميز، وعن طريقه استبعاد السياسيين الخطِرين غير الطبيعيّين، ومن جهة أخرى يأخذ متسعه من الوقت لرفض إخضاع كل مبادرة مفروضة. هذه الطريقة في العمل على إصلاحات، من دون إراقة دماء، أقنعتني كثيراً.

ويتوافق هذا مع الطريقة الحديثة الموسومة بالجراح، ولذلك، ربما أقل تعجرفاً من كثير من السويسريين في فهمهم للديمقراطية،

حاول الاشتراكيون الديموقراطيون، في هذا البلد، منذ مائة عام، تجسيد البعد السياسي للأنوار الأوروبية. لأن الحاجة ضرورة لكل تحريف. لهذا فإن سُبّة «التحريفي»، بالنسبة لي، هي شرف. وإذا أردت فإنني لا أزال (حتى اليوم)، من مناصري بيرنشتاين.

فالشرّ الأساسي «لوطننا الأم» أو ما يسمّيه غوستاف هاينمان الصعب، ويبدو لي أنها استمرار مُتقطع للمثالية الألمانيه. إنَّ المطالب الكاملة، سواء من اليسار أو اليمين، هي مطبوعة كما في السابق بالمثالية الألمانية، وهي مدينة لها، أي للمثالية الألمانية لقدرتها الفائقة القدرة. سواء أكان الردّ من اليمين بمبادئه النظامية لعالم مثالي (ومن أجل ذلك تحطيم كل شيء أم أن اليسار مشبع بنظرية ماركوزه الجائعة في وجودها التحرري، (نصف درجاتها يجب أن تكون فيتنام) فكلاهما مثالية صعبة تجعل الخلاص مستحيلاً، وهي تتحكّم في تناقضات الواقع مع البقاء على مواجهة قصوره.

الذي يتأمل بدقّة سيلاحظ أن أعمالي الأدبية، ومحاولاتي السياسية الحفاظ على الحقوق المدنية هي على النهج ذاته. في رواية «سنوات الكلاب» أعتقد أنني نجحت في تقديم شخصية فالتر ماتيرن كشخصية تحمل أفكار المثالية الألمانية، ففي غضون فترة زمنية قصيرة جداً (من دون انتهازية) ترى في الشيوعية، والنازية، والكاثوليكية، وفي نهاية المطاف، في الإيديولوجية المضادة للفاشية، رسالة الخلاص. وفي النهاية يمارس بطرق فاشية شيء من معاداة الفاشية.

ومن الصعب إنكار أن مجتمعنا بكامله، حتى جيل ما بعد الحرب، مطبوع بهذه الصدمة التي لم تمنعنا نحن، لدى ملاحقة الشر

المتواصل، من إثقال كاهل كبار موظفي الدولة بالماضي الوطني القومي.

هنا، مرة أخرى، كلمة عن حالة كيسينغر، والتي هي، بالنسبة لي، مجرد حالة كيسينغر. لأنني ما زلت أعتقد، وكما في السابق، أن بلدًا مُقَسَّماً لا يستطيع أن يتحمّل، ومن دون معاهدة سلام، مستشاراً بهذا الماضي المثقل الكاهل.

فرسمياً إن كيسينغر، مُحاط بصديق من العهد البائد؛ من قبيل ديل، وبشكل غير رسمي أصدقاء أيضاً من العهد البائد، من أمثال تودنهوفر، الذي سيظل بشكل أساس مطبوعاً بميزات القديم، حتى ولو أراد التكلّم بصوت الديمقراطي، فأسلوبه ما زال له لون قائد نازي حتى في دعاياته الانتخابية.

من هنا، عن الماضي وتأثيراته يعرف الكُتاب، في كثير من الأحيان، أكثر من السياسيين. عبارة «المصالحة الوطنية للشعب الألماني» ـ الاشتراكيون القوميون القدامى والشيوعيون القدامى والمغتربون في سلة واحدة ـ هي وصفة لها جذور سياسيّة لاهوتية. من وجهة نظري ككاتب أقول لا، وأنا أميل كما تعرف بقوّة نحو التسوية.

لا أريد الكلام طويلاً حول قصتي. ويبقى أخيراً القول من الأفضل لي كتابة الكتب. إنني أحسست بفرح كبير بعد خمسين رحلة من الرحلات الانتخابية السياسية الصغيرة برغم الطريق الشاق. بكل فرح أشم رائحة نتنة فأنا أنتمي إليها.

# مستقبل الكاتب المسرحي

**1969**

1. قد يكون من الجائز، قبل بضع سنوات، أن الموضة السائدة والمبالغ فيها عبر محلات الإشهار، والمسنودة من طرف احتياجات الموضة والتي عرفت ركوداً لفترة من الزمن، مستندة إلى التوقّعات النقدية المتجانسة لها، التي لها الأثر الكبير.

هذا التطور لا هو بالكارثة ولا هو بالطليعي الثوري، الأكثر من ذلك أنه ليس مستقلاً عن الكوميديا، لأن فن البوب والأوبرا (وفي كثير من الأحيان يأتي بنتائج رائعة كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية) حاول الوصول إلى العالمية على مستوى الإشهار بفضل الوسائط الفنية، والآن تقليد الإنجاز الأمريكي وبسرعة وبشكل منطقي، إلى سوق الإعلان العالمية. ويتوافق هذا مع الحاجة إلى التعبير الذاتي؛ سواء أكان ذلك ضمن حركة الاحتجاج، أم ضمن مسارحنا الرسمية المدعومة. إن محاولات بعض المخرجين التحرّر على حساب القطع المسرحية، أثبت مع ذلك أنّ الأوبريت الألمانية، من ليهار إلى يوهان شتراوس، لا ينبغي أن تكون ميتة إذا قرّر المخرجون المتحرّرون الجدد إنعاش هذا التلوّن كعالم ترفيهي غير واقعي. حتى الذين يدعون التوجّهات اليسارية والذين يجهدون

أنفسهم بالبحث عن لغة الثورة، لا يجب عليهم التراجع. ينبغي للسيد نوينفيلس والسيد صادق، بسهولة وبواسطة أوبريت «الوطواط» توسيع القاعدة الثورية.

إن الاقتباسات الواقعية التي تُنقل عبر خشبة المسرح لم تعد كذلك، بل هي طبيعية وغير قادرة على الثبات على واقع خشبة المسرح. معظمها محاولات التعبير عن الذات لمخرج احتمى بعنوان المسرح التحريضي. هذا جمال زائف بشرط أن يكون العارض أو عاشق العرض المسرحي الذاتي بإمكانه أن يكون على دراية بشكل حرّ بالتحولات التاريخية على المسرح التحريضي بعد ثورة أكتوبر.

ولذلك يظل مستقبل الكاتب المسرحي مشكوكاً فيه. إن الكتّاب المسرحيين يعيشون على الشكوك والتناقضات، وقطعهم المسرحية عبارة عن تناقضات مشهدية ومن ثم وحدتها. ويبقى الهدف من مهمة الفنان الباحث.

2. إن أعمالي الدرامية البعيدة موجودة، ويمكن الرجوع إليها، لأنني أتحرّك إلى الوراء إذا ما حاولت أن أعطي معنًى للحاضر. في المستقبل نويت متابعة الكتابة (أنا الآن أشارك في عطلة نهاية الأسبوع في حملات التنوير للحزب الاشتراكي الألماني، وخلال الأسبوع أسافر إلى الدوائر الانتخابية التي يحلم فيها الحزب الاشتراكي الديموقراطي بتجاوز عتبة 30%). فالالتزام يعني، وبحرية، العمل على ترجمة شيءٍ ما.

3. غالباً ما أجد الفرصة للتحدّث إلى الممثلين والمخرجين. وفي أثناء كتابة النص أعزل نفسي عن قصد نكاية في الطلب الواضح للممثلين والمخرجين.

4. من بين القطع المسرحية الخمس أو الست التي كتبتها

يتـم أحياناً إعادة تمثيـل القطعة «العم، العم»، وفـي كثير من الأحيان «العامة تجرب الانتفاضة» وفي هذه الأيام مسـرحية «قبل». أعيش أنا وعائلتي لو أجريت الحسـاب من دخل أعمالي النثرية، وعندما كنت عازباً كان يمكن لي أن أعيش من المسرح.

5. (مـن دون طـرح سـؤال) لا تجـدّد دمـاء مسـرح عـن طريق مـلء الكراسـي ولا أيضاً عن طريق هندسـة معمارية لمسـرح يصلح للعـرض، ولا حتـى من طـرف مخرجين نرجسـيين يبحثـون عن فم ذهبـي، وبالتأكيـد ليس بتحطيـم المسـارح البورجوازيـة، ولكن عن طريـق مسـرح يخالف اتجاهـات الموضة وبكثرة، قبـل أن يجد نقاداً جدداً يثيرون اهتمام جمهور جديد. هوغ لقد تكلمت.

# حول «مخدر موضعياً»

## 1969

بدأت في كانون الثاني/ يناير 1966 في تدوين أول الملاحظات لرواية «مخدّر موضعياُ»، التي كانت ما زالت تحمل عنواناُ غير ثابت «المجزرة المفقودة». وفي أثناء سنوات العمل الثلاث مدّت الاحتجاجات الطلابية المبتدئة، المرتفعة الوتيرة ثم الراكدة، المؤلف بالمقاومة والتناقض. لحظة السيرة الذاتية الوحيدة هي فترة علاج الأسنان من منتصف كانون الثاني/ يناير إلى شباط/ فبراير 67، وهي التي وفّرت الخبرات، كما أن حوادث الراوي ذات الوقت المحدود هي التي سمحت بتجميع وترجمة المواد غير المنتظمة التي توافرت في السابق.

«مخدّر موضعياً» يعني في الوقت نفسه المجتمع وعن طريق طب الأسنان في المناسبات. التجارب التكميلية تزيح التجارب الواقعية أو أنها تغيّر شكل التجارب الواقعية، بحيث أن التجارب التكميلية تغتذي بالتجارب الواقعية.

في رأس الراوي وكذلك على الشاشة في عيادة طبيب الأسنان يمتزج الواقع بالتخييل. يبقى الانتقال من الحوار الخارجي إلى الداخلي بطلاقة. العائق الوحيد هو مكان الرواية: كرسي طبيب

الأسـنان حيث يطلـق عليه المريض الذي لا حول لـه العنان لمتخيله مثلما لتجاربه.

الجزء الثاني وحده من الكتاب، وفي أثناء الاستراحة بين علاج الفـك العلـوي والفك السـفلي، يُظهر الـراوي وهو في حركة، أسـير الحيـاة اليوميـة، بحيث تنقصـه إمكانيات اللجوء لأعمـال بديلة. لقد سبق لي مرة أن وصفت هذه المادة المركبة كمقطع سردي وقبل ذلك مرّة كقطعة مسرحية.

لدى الـرؤى المتغيّرة أواصل في روايـة «مخدّر موضعياً» عمل السرد الذي كنت أوقفته مع خاتمة رواية «سنوات الكلاب».

# أدب وثورة أو سيطرة الهواية الجامحة على لب المطمئن

**كلمة ألقيت في مؤتمر الكتّاب في بلغراد، 1969**

السادة والسيدات،

أولاً، وقبل كل شيء، أخبركم أنني من معارضي الثورة. أتوجس من كل الضحايا التي قُدمت. أتوجس من توجّهها الخارق للإنسانية، من مطالبها المطلقة ومن عدم تسامحها اللاإنساني. إنني أخشى ميكانيزمات الثورة التي تُخترع كإكسير ضد أعداء الثورة الدائمين: من براسوف إلى براغ فشلت ثورة أوكتوبر عسكرياً عندما رمّمت هياكل السلطة الموروثة. تستبدل الثورات التبعية بتبعية أخرى وتقضي على القهر بالقهر.

وبعبارة أخرى، فإنني، في نظر أنصار الثورة، ضيف ثقيل، تحريفي، والأسوأ من هذا اشتراكي ديموقراطي.

وكما في بلدان أوروبا الغربية، في الآونة الأخيرة، فإنهم استهلكوا موضوعات الثورة بالنقاش والتصوّر بطريقة تتراوح بين الإعجاب والخوف. ولم يبق من الثورة العظيمة، إضافة إلى الإشارات الحماسية، سوى تقوية ردود الفعل بوصفها أدب الثورة من الدرجة الثانية ذات التأثير البَعْدِي على الألبسة النسائية والرجالية. مما يثير

السؤال: هل بإمكان هذه الأخيرة، ذات الامتداد القاعدي وفاقدة الأمل، العودة إلى التخمينات الثورية، حيث يبدو، بالنسبة لهم، أن الثورة هي مجال الوعود والتخمينات؟. في ألمانيا حاول الأدب المتوسط، أولاً وقبل كل شيء، رفع قيمة الاحتجاجات الطلابية في هوكبامينة. وهكذا يمكن لحلقة دراسية أن تعلن بصوت عالٍ أن دور أدب الخلف هو نموذج الثورة.

إذا ما تمّ القول في ألمانيا في بداية هذا القرن إن الثورة حصلت في الموسيقى. وهكذا تم الآن ـ وقبل بداية عقد السبعينات ـ انتقاء سلوكات ثورية لطرق العزف المدعوم. ونقلت الصحف المحافظة ذاتها، عبر ملفاتها وبشكل تأكيدي وصارم، الثورة والأدب.

ستلاحظون أنني حاولت سبر موضوع مهمّ بشيء من السخرية. لأنه يمكن تقريباً الاعتقاد بأن اللغة الفصيحة لممثلي ثورة الموضة؛ إمّا أنهم لم يقرأوا أعمال تروتسكي حول هذا الموضوع، أو على العكس يتوفرون، في الأقل وبصورة موقتة، على معلومات جيدة، وأنهم سُحِقوا من طرف الاحتجاجات الطلابية. على الأدب أن يخدم الثورة.

أودّ أن أوفّر عليكم وعليّ كلمة طويلة حول جوهر هذا العبث، أي حول الواقعية الاشتراكية. ونعرف، جميعاً، أن الأدب، في هذا الوقت، كان الأكثر انصياعاً، لأنه كان ضحية بليدة للثورة. وكمثال أذكر لكم نموذج أنصار المستقبلية الروس والإيطاليين الذي يوضح بالملموس وبطريقة سهلة كيف أنه وبسرعة فائقة تتحوّل موجة الأدب الراديكالي إلى حركة توليتارية. كتب تروتسكي سنة 1924: «ألم تصل أخيراً الفاشية الإيطالية للسلطة بطرق ثورية، بحيث إنها حرّكت الجماهير والملايين عن طريق تسليحهم وتقويتهم؟ ليس من قبيل المصادفة أو سوء الفهم، ولكن اندمج بشكل حتمي

المستقبليون الإيطاليون في موجة الفاشية. (وعلى غرار ذلك أيضاً سار المستقبليون الروس بعد ذلك في علاقتهم مع ستالين). مرات عديدة تحوّل أنصار الثورة إلى دعاة غير نقديين لإرهاب الثورة.

منذ آب/ أغسطس من هذا العام تُزيّن نفسها باريس بمعرض، على شرف نابليون والذي تحتفل أوروبا بمرور مئتي سنة على ولادته، بمشاعر مختلطة. وإذا افترضنا، وكما يُظهر معرض باريس، أن نابليون لم يعانِ نقصاً من أدب الثناء، وأن نابليون هو منتوج الثورة الفرنسية، كما أنه يجب اعتبار أنَّ جوزيف ستالين هو الآخر منتوج ثورة أكتوبر ـ لأنه لا نابليون ولا ستالين سقطا من السماء ـ. مسموح لنا، إذن، أن نتخيّل كيف سيتم، بخطاب أدبي مبالغ في الثناء، الاحتفال بذكرى مرور مئتي سنة على ولادة جوزيف ستالين. وتجدر الإشارة، أيضاً، إلى أنّ حتمية ذكرى مرور مئتي سنة القادمة على ولادة كل من الديكتاتور هتلر وموسوليني ستكون مناسبة لمعرض ضخم وشهادات أدبية نادرة من مارينيتي إلى غوتفريد بن.

عرفت كل الأوقات وكل الأنظمة كُتّاباً يفرغون مشاعر اللاوطنية المفرطة عند كل مناسبة ثورية. نحن مدينون لسوء الفهم الخلّاق هذا، الذي ترك لنا قصائد جميلة من كلوبستوك وشيلر إلى جيسين وماياكوفسكي. يحب الكتّاب ترك العنان لاستعارات العاصفة المنظفة على الأوراق، غير أننا حين نحاول إخضاع نصف سطر من رامبو أو صورة للتعبيريين للواقع سنبدأ العمل على إجهاد المواظبة المتزمتة لغويوتين، أو لنطرح المسألة من خلال هذا النقاش اللاهوتي: هل كان لسياسة الإصلاح الزراعي لستالين التي خلّفت ملايين الضحايا ما يسوّغها؟

لا يمكن إغفال ما عرضه الكاتب الألماني جورج بوشنر من

الآليات القاتلة للثورة إن «وفاة دانتون». بإمكان بعض التغييرات ذات الطابع المحلي أن تأخذ شكل العلاقات الصينية الكوبية. فإلى حدود اليوم لم يتم دحض المثال القائل: الثورة تأكل أطفالها. إنني أسمع السؤال الذي يخطر ببالكم: ألم تكن الثورة الفرنسية وثورة أكتوبر لازمة؟

ليس لدينا أيّة فرصة للتحقيق في الكيفية التي كانت ستتطوّر بها الأنوار الأوروبية في فرنسا، من دون ثورة، بالتخلي عن الضحايا المعروفين. لا نعرف، وتصعب علينا معرفة الطريقة والوسائل التي كانت ستنهجها حكومة كيرينسيكي لدمقرطة روسيا القيصرية. من يؤمن بالثورة وأثرها فلن ينهل الدروس، لا من النموذج الإنجليزي ولا السويدي. ومع ذلك هناك نقطة واحدة مهمة وهي أننا لا نزال معجبين بفيلم أيزنشتاين «بانسهكرويتسه بوتيمكين» إن ثمن ستالين وأتباعه جعلت فاتورة الثورة مرتفعة جداً.

وأنا أنتمي إلى بلد؛ كانت نتائج ماضيه الثوري من الكوميديا التراجيدية، مرتفعة جدّاً. من 1848 مروراً بـ 1918 وإلى معارض كتبنا الثورية الأخيرة، إذ إنه في بلدنا كانت هناك نتائج للثورات اليسارية ومعظمها من السخرية عاجلاً أو آجلاً، مكلفة جداً حينما يجوز للمرء القول بنجاح الثورة الألمانية عام 1933 بالاستيلاء على السلطة عن طريق الاشتراكية القومية.

من السهل جداً وصف زحف موسوليني على روما وهتلر في الثلاثين من يناير/ كانون الثاني بالانقلاب الشرعي.

كما لو أن القصد كان إلباس كلمة «الثورة»، نوعاً من الفخر بدل إلباسها استيلاء اليسار على السلطة.

بعيداً عن هذا، فأهداف ودوافع اليسار واليمين الثوري واحدة.

وأرى أنَّ آليات الثورة، بغض النظر إنْ كان أصحابها من اليمين أو من اليسار، تشتغل بنفس درجة العنف. حتى علاقة الأدب اليساري مع شرعية الثورة اليسارية، والشيء نفسه بالنسبة لأدب اليمين مع الثورة اليمينية، فإن هذه العلاقة لا يختلف بعضها عن البعض. لا ترتب أناشيد بريشت وستالين أمام انحناءات هايدغر مقابل الاشتراكية القومية. تجد آنا سيغر وإيليا إرينبورغ يجدون مكانهما إلى جانب غوتفريد بن وعزرا بوند، هناك أخيراً تماثيل من الشمع جسدها حجم العلاقة بين الثورة والأدب.

إن مطالب هيرولت في «دانتون» لبوشنر: «يجب أن تتوقف الثورة، وتنطلق الجمهورية» لا يزال ساري المفعول إلى اليوم.

كيف أنها من الصعب، هذه البداية للجمهورية، لأن الثورة غير قادرة على التوقف، وهذا هو ما أثبته احتلال تشيكوسلوفاكيا. فمن أجل هذا هناك سبب لإهمال موضوع الأدب والثورة حتى يخفت فتيل النار بينهما، لأنه لا يوجد موضوع رائع-كالأدب والجمهورية» للنظر فيه.

في بلدي وجدت حلقة العافية والألم للجمهورية نهايتها قبل أسابيع قليلة. إن النصر المحدود للاشتراكيين الديموقراطيين يترك، في الأقل، الانطباع بأن هناك فرصة لتاريخ الديموقراطية البرلمانية المتغيرة والمريبة. فالوقت قبل 28 سبتمبر/ أيلول، والأكثر من ذلك الوقت غير المباشر قبل الحملة الانتخابية، زُيِّن بكلمة الإثارة «الثورة»، ولكن حين أخذ الاحتجاج شكل الحركة، وتواجهت التجمعات السلطوية - هنا البناء العلوي القومي والمحافظ ، هناك قوى الإصلاح مع الاتجاهات الاشتراكية الثنائية - بشكل جليّ، وجهاً لوجه، وجدت كلمة الثورة، على كل حال، استعمالها داخل الإشهار الاستهلاكي.

ولـم يجد المنطـق الرزين للمواطـن توجيهاته سـواء في التطرف اللفظي أو في الحركة الوقحة المضادة للشـيوعية لعقد الخمسينات. إن الأهـداف الإصلاحية، متوسـطة المدى، التـي انتهت صلاحية خططها التمويلية، تساهم في إمكانية اتساع قاعدة العقل مسافة خطوة.

بشـكل ممتـع ومفيـد يُلاحَـظ كيـف أن مخطّـط الصحـوة، في الشـق السياسـي والاقتصادي للجريدة، كان يدور حوله كقبضة اليد، فـي الوقت الذي يواصل فيه الأدب، بشـكل مضحـك ومجانيّ، لعبة الصندوق الرملي. وهكذا بدأ مدقّقو دور النشر ومن يدور في فلكهم مـن كتاب، ولأسـباب مختلفـة، الانتقام من المجتمـع اللاثوري عن طريق تدمير دور النشـر التي اتُهِمَت باليسـار. فهذا ليس مفاجئاً، لأن فـنّ اللعب الأدبـي للثـورة كانَ، أولاً وقبل كل شـيء، ضـد مخزونه الخـاص. وخلال السـنوات الثـلاث الماضية لم يفكر أنصـار التغيير الثـوري، علـى الإطلاق، في فـضّ معـرض هانوفر الصناعـي بالقوة مثـلاً، فـي حين أنهـم أوضحوا أن معـرض فرانكفـورت للكتاب هو بمثابة سجن الباستيل.

لا أودّ الدخول في التفاصيل من أجل التحقق: هل من المناسب اقتحام بوفيه بـارد، والاهتمام بالجماهير لـدى جماعات الضغط في الرأسمالية المتأخرة؟

فالتأكيد المؤسـف على أن رغبة الطـلاب الألمان ذوي الميول اليمينيـة سـابقاً الذيـن أرادوا إزعـاج الطبقـة المتوسـطة قـد ارتـدوا الملابس اليسـارية، وهذه ظاهـرة مُدّعي الثورة في حركة تسـير على الموضـة. في النهاية تكشـف عن نفسـها: كم هو منقسـم على بعضه اليسـار الراديكالـي وكـم هو مصـاب بالعمى في طرحـه البديل بترك الجمهورية أن تأخذ مبادرتها لبداية جديدة.

لنكـن واضحين فأنا لا أتكلم علـى الاحتجاجات الطلابية التي كانـت تلحّ في أغلبيتها على تحقيق الإصـلاح وبطريقة ديموقراطية ـ راديكاليـة؛ أجْبرت على سـبيل المثال على نقاش طـال انتظاره حول إصلاح نظام التعليم العالي. إنني اتكلم على عدم التبصر في التعامل في النصوص الأدبية مع الكلمة الجذابة «الثورة» وعن جماعة سريعة الكتابـة حولتهـم إلى أناس طموحين؛ لم يتعبوا، كما في السـابق، من تمجيد فوضى ماي لليسـار الفرنسـي كثـورة ذات قيمـة وجمعها في أنطولوجيـات. وكمـا في السـابق يتم إيهـام المرء بالأوهـام من قبيل أن هناك اتحاداً في فرنسـا بين العمال من جهة والطلبة والمثقفين من جهة أخرى.

وكما حدث في أثناء فترة الحملة الانتخابية الأخيرة بسـّن عقود الأجـرة لفتـرة طويلة ومنع الرفع مـن قيمة المارك، أدّى هذا، بشـكل عفـوي، إلـى إضرابات في عدد مـن المعامل. فاعتبـرت مجموعات اليسـار الراديكالـي أنّ العمال علـى عتبة الثورة من أجـل التقرّب من المضربين والإشـادة بهم. لكن العمال ربتوا على أكتافهم وشكروهم وأرسلوهم إلى بيوتهم.

هل سـيكون لهذه «التجارب القاعدية» انعكاسات إيجابية؟ هل أصبحـت تناقضات اليومـي الجمهوري صُلبـة، وصحوتها كافية من أجل وضع حد لأوقات فراغ الثوار وأدبيّاً أيضاً؟

يمكـن لمتهكّم أن يرد: سـتنظم السـوقُ الأدبية مسـألة الطلب. وفـي الوقت الراهن، فالطلب على أدب ثوري ذي ذوق حسـن، أكثر مـن العرض. فحتى آخر بنات الارسـتقراطية الأخيـرة بدأت تفهم أن تدمير دعم اسـتهلاك مـواد الإنتاج بطرق عالية من المقاومة سـيؤدي إلى وقوع الكارثة. لأنه يجب أن ترتفع القوة الإنتاجية للدول الصناعية

بأجمعها، سـواء تلك التي في الغرب أو في الشـرق. وإذا كان هناك، بالفعـل، تأثير للكـوارث المعلومة فـي العالـم الثالـث وكون قرارات كيـف ومتى وعلى أي أسـاس حدثت الثورات في أمريـكا الجنوبية، وأنه لن يتم استيعاب ذلك في الحلقات الدراسية الألمانية.

ونجـرؤ على القـول إنَّ الأدب إذا ما أخذ على محمل الجد فإنه لـن يخضع فـي المسـتقبل لتأثيرات الثـورة. وهناك بالفعل إشـارات على بداية اهتمام الكتاب، في الدول الاسكندنافية خاصّة، بإمكانات وحدود السياسة التنموية كطرف من سياسة السلام. حيث بدأ مصطلح «البحث في أمور السلم» يأخذ مكانه وقوته ضمن الميزانية العامة. إن السلم، الذي كان، ولا يزال، حالة الاستثناء، يستدعي، وبشكل دائم، وحسـب البحوث العلمية، حل النزاعـات، التي نجمت عنها حالات أزمة، بالوسائل السلمية.

هل يبتعد الأدب عن دوره المفضّل في وصف أمكنة المتاريس؟ أو إنه سيشـق طريقه، بشـكل متقوقـع ومضيء ومهم، عبر المسـالك الملتوية إلى الأمام نحو الرومانسية؟

«الأدب والثـورة» ـ هـي طبعة فاخرة وتركة بليغة من مؤلفات ليو تروتسكي، إنه نقاش ساذج بين الماركسية اللاهوتية واليسوعية اليسارية المنحرفة. سيظل الحدث يتقن الاحتفال، غير أن الأدب يتطلب الواقع، وذلـك لأنـه توجد وقائـع متعددة. لـي رغبة فـي التعرف علـى الواقع اليوغسـلافي. وأنا على استعداد لإخباركم بالواقع الألماني. وأفترض أنه لا تعارض بيننا: الثورات حدثت فعلاً.

(1979 - 1970)

# عن موت المسرح ظاهرياً

**خطبة عن حياة المسرح وأهمية التنظير المسرحي**
**أُلقيت في مؤتمر أكاديمية الفنون التشكيلية في مدينة فرانكفورت الألمانية في حزيران | يونيو 1970**

سيّداتي سادتي،

درج جزء كبير من النقد الموجّه إلى المسـرح باعتباره مؤسسـة مدعومة على نعيه بعبارة: «المسـرح ميـت». وتتراوح أنواع ادعاءات موت المسرح بين اعتبار المسرح ضرباً من الترف، الذي يجب إزالته، وبين العبارة الموجزة: لم يعد المسرح مهماً.

ولكـن كل هـذه الأقاويل لا تتعـدّى أن تكون مجـرّد ادعاءات. فمن ينظر إلى أي حدّ أسـهم النقد المشروع خلال السنوات الماضية في أن يطرق مسـرحنا، الذي أُعلن موته، خشـبة تابوته من جديد بعد أن فُرغ من دفنه، سيراجع نفسه ويقول بموت المسرح ظاهرياً.

وبـدا لي مـراراً كمـا لو أن المسـرح يتمـاوت بأفضل أسـلوب مسرحي، من أجل أن يرى في ما إذا سيتأسف عليه الآخرون. ويتغامز الممثلـون فيما بينهم قائلين: يموت المسـرح، حين يُعلن موته، ميتته المُمثلة، كما فعل في فترات التمرين الكثيرة؛ مسرحية تحرك الجمهور وسيستمر نجاحها حتى المواسم التالية.

وأحياناً يظهر ناعو المسـرح بمظهر المتزمّـت الصارم. فبعد أن

تخلّصنا أخيراً من سوء الفهم، الذي صوّر المسرح على أنه مؤسسة أخلاقية، يسود الآن ادعاء يقول إن المسرح وسيلة للوعي السياسي. ومن أجل أن نغلق الباب أمام التصورات المغلوطة نشير إلى الادعاء الأمين المتكرر القائل إن المسرح شجّع الوعي السياسي «القويم». ومن هذا نصل إلى نتيجة مفادها: حتى الممثل الملتزم بشكل كبير عليه أن يتمتع بوعي سياسي «قويم»، بقدر يمكّنه من إثبات ذلك.

بمزاج معتلّ وبتحفّظ يتقدّم كل من كافين وكرومويل للعمل مديرَيْ تمثيل، مستفيدين من دور مالفوليو[1]. فهما يرغبان في نفض الغبار عن المسرح الدعائي. وهذا الاتجاه يقف موقف الحارس. وتفرض هذه الأساليب القديمة، التي تشبه منشورات دينية عفى عليها الزمن، على المتلقي فرضاً كما يفرض زيت السمك المرّ على المريض. ومرة أخرى يجب إصلاح هذه التنظيرات المسرحية المفروضة. وهناك طريقة واحدة للتخلّص منها، تتمثّل في دفنها في أعمق نقطة من مخزن حفظ أمتعة المسرح، والذهاب إلى المسرح، تلك المؤسسة التي تتظاهر بالموت، والدخول وتحية بوّاب المسرح بلطف.

ومن يقصد الخوض في أدغال مسارح المدن بنيّة التغيير فيها، لا بد أن تكون قد سنحت له الفرصة لمعرفة الخشية. ولأني سُنحت لي الفرصة مراراً بما فيه الكفاية، واستغليت كل فرصة تقريباً بنجاح، بدأ عملي في مسارح فرانكفورت ولكن ليس برسالة الخوف المألوفة. في البدء فُوجئت بصورة لطيفة بشيء خبرته طويلاً، أي إدارة دقيقة منظمة، ولكني وجدت على الرغم من ذلك متاهة كبيرة.

أريد أن أخبركم هنا عن بداية هذا العمل. ولأني لم أخطّط

(1) شخصية الخادم في مسرحية «كما تشاء» للشاعر الإنجليزي وليام شكسبير (1564–1616) (المترجم).

لتصميم نظرية جديدة ولا لدخول التاريخ بنموذج مسرحي جديد، بل كان في نيّتي رؤية موضوع المشاركة في القرار في المسرح بالشكل الذي يأتي من مجلس شؤون الأفراد المنتخب وليس من التنظير المسرحي، فقد كانت لي في بدء التعاون محادثات مع ممثلي مجلس شؤون الأفراد وجمعية المسارح.

على كل من يستعمل كلمة «المشاركة في القرار» أن لا يعتقد أنها تعني فرض نفسها على الآخرين. لذلك قد يكون من الجائز توجيه النقد في أن كل محاولة لتجديد المسرح، يمكن أن تتحقّق من الأسفل إلى الأعلى فحسب، وليس من الأعلى إلى الأسفل كما هو الحال في «النموذج الفرانكفورتي». صحيح أنه من الممكن استبدال السلطة الفردية لرئيس المسرح وكذلك مدير الممثلين عبر سلطة فردية مكوّنة رئاسة ثلاثية للجهة التي تقدم المعلومات حول العمل المسرحي. لكن مثل سوء الفهم ليس له علاقة بالمشاركة في القرار في المسرح، بل مع الوهم النخبوي، الذي يستعمل كلمة الاشتراكية كما كان الشاعر الألماني ريلكه يستخدم ـ سابقاً ـ «بشكل ما».

وبعد أن كان مجلس شؤون الأفراد وجمعية المسارح على استعداد للتعاون في التغييرات الضرورية داخل مسارح المدن، بدأت المحادثات عن برنامج العام 1970/ 71 بحضور اثنين من ممثّلي مجلس شؤون وجمعية المسارح. وحين جرت مؤخراً انتخابات مجلس شؤون الأفراد في مسارح المدن، تمّت مراعاة إمكانيات جديدة: تمثيل كل مجموعة فنية في المسرح بعضو منتخب في مجلس شؤون الأفراد. يمكن أن نتوقع انضمام كل من الأوبرا والباليه مستقبلاً إلى التصور الحاصل في المسرح.

في أثناء مجريات محادثات العمل بشأن برنامج عرض جديد اتضح

كم من المشكلات التي على مدير التمثيل الجديد أن يواجهها والتي لا يمكن حلّها بالتعاقد. كتوجب تبنّي العقود مع المخرجين ومصمّمي المشاهد والتزامات الممثلين الزائرين. من جهة أخرى برزت إمكانية دعم الفرقة غير القادرة بالعقود الجديدة، ولكنها كانت محدودة.

وبسبب فراغ منصب رئيس المسرحيين، أتيحت الفرصة لإلغاء هذا المنصب التسلّطي البعيد عن التمثيل والممثلين. وحلّ محلّه فريق من المسرحيين، وأولينا الكثير من الأهمية لمصلحة بناء الفرقة المسرحية، حيث بات بإمكان اثنين من المسرحيين المعيّنين حديثاً تولّي أعمال الإخراج: فالمسافة بين المسرح والتنظير المسرحي أصبحت أقصر في مسرح مدينة فرانكفورت. وهذا ما منح الممثلين متعة أخرى. وبعبارة أخرى: التنظير المسرحي، باعتباره ابتكاراً ألمانياً بحتاً شبيهاً بحياة الدير، يمكن أن يُعلمن من خلال قوة إغراء خشبة المسرح.

أرغب الآن، من دون الخوض في تفاصيل برنامج العرض، أن أوضّح بمثال وفقَ أية تصورات تمّت محاولة إعداد برنامج عرض يناسب زماننا. لأننا انطلقنا من فهم المسرحيات في المسرح الكبير والمسارح الصغيرة على أنها مترابطة، تمّت مقارنة إخراج مسرحية «ناتان الحكيم»[1] وإخراج مسرحية «آكلو لحوم البشر»[2] لجورج

---

(1) إحدى مسرحيات الكاتب الألماني إفرايم غوتهولد ليسنغ (1729–1781)، وتتناول العلاقة بين الأديان الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية، أما أحداثها فتدور في القدس. ولم نجد حتى اليوم ترجمة كاملة لها إلى العربية، لكن المترجم المصري مصطفى ماهر ترجم جزءاً منها في كتابه «صفحات خالدة من الأدب الألماني»، دار صادر، بيروت 1970. (المترجم).

(2) جورج تابوري (1914–2007): كاتب ومخرج إنجليزي هنغاري الأصل، وله العديد من المسرحيات منها: «اليوبيل» عام 1968، و«كفاحي» عام 1983، و«الليلة الأخيرة من أيلول» 1997. (المترجم).

تابوري. ومحتوى هاتين المسـرحيتين وموضوعهما المشـترك، وهو معاداة السـامية وتأثيراتها، يكفيان من فهم ليسـنغ لمصطلح التسامح فـي بواكيـر مرحلـة التنوير إلـى مخالفتـه التامـة على مسـرح معتقل أوشفيتس(1).

وتكملة لهاتين المسـرحيتين سنحاول إيجاد لون من خاصيات المسـرح الوثائقـي: بالمـوازاة مع مسـرحية «ناتان الحكيـم» و«آكلو لحـوم البشـر» توجـب بوسـائل المسـرح المحـدود مكانيـاً تصويـر اليهـودي الفرنسـي خلال العرضيـن الصباحي والمسـائي. ولم يكن لهـذه الخصائص المسـرحية المضافـة من قبلنا الطمـوح الكافي كي تمثـل مسـرحيات، بـل كان بإمكانها أن تحـاول توضيح سـوء الفهم المسـمى «المسرح الوثائقي». وفي الوقت نفسه نأمل أن نكسب بهذا الشكل عدداً كبيراً من الكتّاب الألمان للعمل في المسرح.

لأن الأهمية لا تقتصر على الرغبة في أن يكون المسرح مسرحاً للعـروض الأولى بـأي ثمن، بل نجد أن من النافـع أيضاً في البرنامج إعادة إخراج مسرحية «مشاهد صيد في نيدربايرن»(2) التي تُعدّ أفضل مسرحيات مارتين شبير(3) حتى الآن، وفي الوقت نفسه مسرحية «ليلة إيطاليـة» للكاتـب الألمانـي هوفارت وبمسـاعدة الصيغـة المفتوحة للخصائـص المسـرحية الموضوعة من قبلي يجب تصوير الوشـائج المسرحية بين هوفارت وشبير.

---

(1) أكبـر المعتقـلات النازية، التـي أقامها هتلر على مقربة من مدينة أوشـفيتس البولنديـة عـام 1941. وتـمّ في هـذا المعتقـل احتجـاز أكثر مـن 1.3 مليون شـخص من مختلف بلدان أوروبا، قُتل منهم أكثر من 1.1 مليون في غرف الغاز حال دخولهم المعتقل. (المترجم).

(2) كتبت المسرحية عام 1966، ثم صورت كفيلم عام 1968. (المترجم).

(3) مارتين شبير (1944- 2002): مسرحي ألماني. (المترجم).

وليس ختاماً، نرغب في أن نثير اهتمام جمهور شاب، بقي حتى الآن بعيداً عن المسـرح لعدة أسـباب، بالمسـرحيات في المسرحين الكبيـر والصغير خلال العروض الصباحية والمسـائية. وتمكنت من أن ألحظ في نفسي أنا، كم كان سهلاً ويبقى سهلاً عليَّ أن أذهب إلى السـينما القريبة، وكـم كان ويبقى صعباً عليَّ أن أخطـو خطوة باتجاه المسـرح وتحمل الخجل الأبهة المتحفظة عقم الاسـتراحات خلال العـرض. وعلـى الرغم من أن مـن غير المنصف تعميـم هذا، ولكني أتوصل إلى الملاحظة الضرورية الآتية:

إن مؤسسـة «جمهـور العـروض الأولـى» تشـكّل المعارضـة العقيمة المتاحة الآن للمسرح. من الضروري حلّ التجمّع الذي ينظر إلـى الكادر بأحكام مهنية مسبقة. وحتى في حالة نجـاح تطبيق جزء كبيـر من هـذه النيّة الموصوفة هنـا على أرض الواقع، يبقى المسـرح علـى موته الظاهري. فكل الإصلاحات التـي ذكرتها يمكنها ألاّ تغيّر سـوى جزء مـن هذه الأوضـاع المترديـة. يبقـى الباعث الكبيـر لهذا الانزعـاج حتى الآن مـن دون نقاش، وهو: يجـب الآن الحديث عن البقرة المقدسة، أي المسرح المدعوم في ألمانيا.

أريد التقديم هنـا للموضوع: إن المصاعب والأوضاع المتردّية فـي مسـارح مدينـة فرانكفـورت لا تختلـف عـن تلـك المصاعـب والأوضـاع المتردّيـة نفسـها في العديد مـن المسـارح المدعومة في غرب ألمانيا.

لأنـي أرى في إلغـاء الدّعم من حيث كونه علاجاً شـاملاً لأزمة المسـرح الراهنـة وسـيلة غيـر واقعيـة ومتطرّفة بشـكل كبيـر، يجب التفكيـر بالتغلب علـى أمراض الدعم، التي يعاني منها المسـرح، من

دون علاج الدجّالين كالدكتور آيزنبارت الجوال[1]. سأذكر هنا بعضاً من أعراض هذا المرض:

الأول: الجهاز الإداري المجبر على إثبات نفسه والذي يلتهم جزءاً كبيراً من الدعم.

الثاني: ميل الممثلين والمخرجين ومصمّمي الديكور وغيرهم إلى التصرّف كموظفين فنيّين، من خلال هروبهم ـ من دون رغبة في أغلب الأحيان ـ إلى مأمن الوسطية، طاردين بذلك المخاطر التي يستكنّها المسرح من خشبته.

الثالث: فرص العمل الزائدة عن الحدّ للممثّلين والمخرجين في محطات الإذاعة والتلفزيون المنتجة باستمرار. وقد صار العمل المربح في الإذاعة والتلفزيون للعديد من الممثلين والمخرجين هو الشاغل الرئيس. أما العمل في المسرح فقد أصبح هامشياً، حتى لو كانوا ما زالوا على وفائهم له. ولكن من يؤدّي واجبه في التمثيليات الإذاعية قبل تدريباته في المسرح، ويبحث بعدها عن مورد إضافي بدوره في الدبلجة في التلفزيون، يأتي للعمل في المسرح وهو منهك القوى، حتى لو حاول جاهداً أن يبرهن على قدرته.

الرابع: أذكر هنا أوقات التدريب غير الكافية والمخطّطة بشكل بعيد عن المرونة وبقليل من الانضباط التمثيلي. وكلما ازدادت المسرحية صعوبة، أصبح من الضروري إيجاد الوقت الكافي لما يسبق فترة التدريب كي لا يضيع المخرجون والممثلون غير الجاهزين الأيام الأولى للتدريب بالاطلاع على المسرحية ومصاعبها.

---

(1) يوهان أندرياس آيزنبارت (1663 – 1727): طبيب ألماني كان يجوب القرى ويضرب خيمته وسط الأسواق كي يعالج الناس. ذاع صيته، حتى بات أحد شخصيات الأغاني التراثية الألمانية. (المترجم).

وللشفاء من الأعراض المذكورة لمرض الدّعم قد يكون من المنطقي تقليص الجهاز الإداري المتضخم، الأمر الذي يؤدّي إلى ادخار الوسائل المالية المتاحة للعمل المسرحي. ويكفي هنا في فرانكفورت وجود مدير التمثيل ومدير الأوبرا ومدير الجهاز الإداري. أما منصب رئيس المسرح الفائض على الحاجة يمكن أن يلغى تماماً مع انتهاء العقد عام 1972. وقد يكون خمسة من الممثلين الشباب أكثر فائدة للمسرح. أصبح رئيس المسرح ورئيس الخبراء المسرحيين زائدين على الحاجة. لأنه من غير المجدي وعظ الممثلين والمخرجين مراراً بتقليل العمل في التلفزيون والإذاعة، فيجب حصولهم على أجور أفضل، في حال ضمان قيامهم بالتدريب لوقت أطول والتزامهم بتقليل العمل في التلفزيون والإذاعة، وهي المشكلة التي وصفتها سابقاً.

وحينها فقط يجب أن تحتلّ قضية بناء الفرقة المسرحية مكان الصدارة كي يجد هذا السلوك السلبي المتزايد، والمتمثل في تقييد برنامج العرض بالتزامات الممثلين والمخرجين الزائرين بطريقة مميزة. يجد هذا السلوك السلبي معارضة، وفي الوقت نفسه فرض هذه الالتزامات على برنامج العمل: عقدنا عقداً مع السيدة فلانة والسيد فلان. والآن نبحث عن مسرحية مناسبة لكليهما. من الصحيح أنه بالإمكان تقدُّم إدارة المسرح بهذه الطريقة، ولكننا لسنا مجبرين على ذلك.

كم من الممثلين يرفض بحماس مسرح العروض الأولى المنتشر اليوم ويبدي إعجاباً بمسرح يقوم على فرقة ثابتة من العاملين كإعجابه بالفردوس المفقود، وقدرة النوع الثاني من المسارح على الاجتذاب تقوم على تواجد النجوم. وعقود الممثلين والمخرجين

الزائريـن تدمـر برامـج العـروض، حتـى حين يـودّ هـؤلاء الممثلون الزائرون، من المشـهورين ومن الذين في طريقهم إلى الشـهرة، تذكّر ضرورة استمرارية عمل مسرح الفرقة الواحدة، ولكنهم يدمّرون عمل مسارح الفرق الثابتة كما يأكلون شرائح اللحم المحمّرة والبيرة. وفي الوقت الذي أرفض فيه مسـارح العـروض الأولى، التي تقدم النجوم الزائرين الكبار، فإني أراهن على مسـرح الفرقة الثابتة في أنه سيكون البذرة الأولى لكل تجديد في مجال المسرح.

ومـن الطبيعـي أن يكـون النموذج البريشـتي في عمل مسـارح الفـرق الثابتـة في مسـرح شـيفباوردام قليلاً فـي ذلك. وقد تمّ شـراء إنجازات مسـرح بريشت وعمله المسـرحي الفِرَقي الهادئ نسبياً من قبل الارتباط السياسي الفاضح على كل الصُعُد في الحقبة الستالينية. ولـو بدأ هـذا التطور يعاني الجمـود اليوم، يتوجّـب علينا البحث عن أسـباب هذا الجمود في فترة بداية الخمسـينيات من القرن العشرين. والنظـرة الإيدلوجية تعطي المسـرح دعماً، ولكنها تقيّـده في الوقت نفسه.

إن تناقضـات المجتمـع وأنظمتـه وتصفيـة كل الإيديولوجيات المتناقلـة تتطلّـب مسـرحاً منفتحاً، يطرح التسـاؤلات عـن ذاته وعن المجتمع على الدوام.

ولا يفتقد المسـرح المعاصـر المدعوم، الذي أُفسـد بالضوابط الإداريـة متحـوّلاً إلـى معبد لموظّفـي الفن، إلـى «الوعي السياسـي القويـم»، الـذي ينـادي به الكثيـرون، بل ينقصـه الوعـي الفني الذي يحيـا في مغامرة كل مسـاء. حين يبدأ بممارسـة مسـرح حقيقي بعيد عـن الأغراض الدعائيـة، وحين يبقى فرض الأوامـر في مخزن أمتعة المسـرح، وحيـن لا يسـتبدل واقـع المسـرح واقـع الشـارع وقاعـة

المحاضرات والمؤسسات التعليمية بواقع المسرح، وحين يكون عمل المسرح مبنياً على المغامرة آنذاك فقط، سيتخلّى المسرح عن حالة الموت الظاهري.

«المسرح ميت»، عبارة يقولها المؤلف قبل أن يجلس للبدء في كتابة مسرحية جديدة.

# مذكرات سياسية: ما لا يسقط من السماء

**كانون الثاني / يناير 1971**

قبيل نهاية العام، وقد أغلقت الثلوج المتساقطة الطرقات، جلست أمام الآلة الكاتبة في إحدى القرى، التي لا يمكن تسميتها. وأطلق وضعي هذا العنان للافتراضات: فلنفرض أن تساقط الثلوج سيتوقف، ولنفرض أن الحال سيبقى على ما هو عليه، ولنفرض أننا لا نعرف...

في أغلب الأحايين - وهنا أيضاً - فإن البريد هو الوحيد الذي يجد طريقاً للوصول وينهي الهدنة المقصودة لأسباب متضاربة كوضع نهائي. على الرغم من تأخّرها، فإن الصحف أخبرت بشكل راهن بما فيه الكفاية عن عودة الهدوء إلى بولندا. أقرأ أن غومولكا[1] ارتكب خطأً (فقد رفع الأسعار في الوقت غير المناسب). وغومولكا الجديد يدعى غيريك[2] ويعتبر محنكاً وبراغماتياً. ولأن العام على

(1) فلاديسلاف غومولكا (1905 - 1982): سياسي بولندي تولى عام 1943 زعامة حزب العمال البولندي الموحد واستقال مع العديد من أعضاء الحكومة عام 1970 على أثر الاضطرابات والاحتجاجات التي عمّت بولندا بسبب تفاقم المشكلات الاقتصادية ورفع أسعار بعض السلع. وخلفه في منصبه إدوار غيريك في زعامة الحزب. (المترجم).

(2) إدوار غيريك (1913 - 2001): سياسي بولندي تزعّم حزب العمال البولندي الموحّد بعد الإطاحة بغومولكا عام 1970. اتسمت فتره حكمه لبولندا بمحاولات عدّة لتطوير اقتصاد البلد وتحسين علاقاته بالغرب. (المترجم).

وشك الانقضاء وأنا أجلس محاصراً بالثلوج، ولأن عام لينين سينتهي بانتهاء هذا العام 1970، وكل مظاهر الاحتفال الحمراء بلينين، أريد أن أقدم مراجعة بوصفي اشتراكياً ديمقراطياً، قبل أن تبدأ سنة الاحتفال بمرور خمسة قرون على ميلاد الرسام الألماني ألبريشت دورير[1]. كان البنيوي الفاشل وما زال يدعى لينين، وليس غومولكا، الذي بقي موالياً للينين بصرامة ويقبع الآن في السجون ليس هو من أوجد النظام، الذي سبب له الفشل، بل فلاديمير ايليفيتش لينين الخالد المعصوم من الخطأ هو من أوجد بشيطنته الدكتاتوريةَ الحزبيةَ التي تدار بشكل بيروقراطي ومركزي. وأجد فيه أكبر البناة الفاشلين في التاريخ الحديث. لينين شخص لا يُشك بكلامه، شخص ينحني أمام تفكيره في التعامل مع السلطة حتى الدكتاتوريون أصحاب الممارسات الفاشية والرأسماليون الكبار المصابون بجنون العظمة. هو شخص لا يَشك بمرجعيته حتى أولئك الذين يدّعون أنهم يرفضون هذه المرجعية.

ومن المعروف أن لينين قسَّم الحركة العمالية الروسية عام 1903، من خلال الخداع وبشكل يخالف النظرية الماركسية، إلى جناحين، شكّلا في ما بعد حزبين مستقلين هما البلشفيك والمنشفيك. ومن الواجب معرفة ما أثبته التاريخ: لم تكن ثورة أكتوبر الشهيرة عام 1917 ثورة بالمعنى الصحيح، بل كانت بكل وضوح مجرد انقلاب الأقلية (البلشفيك) على حكومة كيرينسكي[2] الثورية (المنشفيك).

---

(1) ألبريشت دورير (1471 – 1528): رسام ألماني. (المترجم).

(2) الكسندر فيودروفيتش كيرنسكي (1881 – 1970): سياسي روسي انضم إلى الحزب الاشتراكي وانتخب عضواً في مجلس الدوما عام 1912. وأصبح وزيراً للعدل في أول حكومة تألفت في روسيا بعد الإطاحة بالقيصر بعد اضطرابات تموز/ يوليو 1917 التي أعقبت هزيمة روسيا في الحرب العالمية الأولى. هرب إلى الولايات المتحدة بعد ثورة أكتوبر 1917. (المترجم).

ولا يُخفى أن لينين قتل الدستور الديمقراطي والكثير من المدافعين عنه، وأحلّ محلّه دكتاتورية النخبة الحزبية، وهمّش سلطة المجالس العمالية، وقمع بعد سنوات من ذلك انتفاضة العمال والبحارة (بمساعدة تروتسكي[1])، وأدخل المركزية الإيديولوجية والحزبية وحرف الماركسية العلمية إلى عقيدة حزبية. ونقرأ أيضاً كيف دقّ الاشتراكيان روزا لوكسمبورغ[2] وماكس أدلر[3] ناقوس الخطر بعيد إقامة الدكتاتورية البلشفية، وكيف اعتُبر انتقادهما هذه الدكتاتورية هراءً رجعياً. حينها قالت روزا لوكسمبورغ: «الحرية التي لا ينعم بها سوى أنصار الحكومة وأعضاء الأحزاب ـ مهما كان عددهم ـ ليست

---

(1) ليف دافيدوفيتش تروتسكي (1879 – 1940): مفكر ثوري أممي وقائد سياسي شيوعي ورجل دولة سوفيتي. برز كاشتراكي مستقل عام 1904، وحاول التوفيق بين البلشفيك والمنشفيك. احتل موقع القيادة الأول في سوفيت لينينغراد بعد ثورة أكتوبر 1917. عيّن وزيراً للحربية حين وقعت الحرب الأهلية في روسيا عقب الثورة وأنشأ الجيش الأحمر. بدأ الصراع بينه وبين ستالين بعد مرض لينين عام 1921، وبعد موت الأخير عام 1924 انفجر الخلاف بين الاثنين، فطرد رسمياً من الحزب عام 1927 بعد أن جُرّد من جميع مناصبه. هرب إلى أميركا الجنوبية واغتيل في المكسيك عام 1940. (المترجم).

(2) روزا لوكسمبورغ (1871 – 1919): هي امرأة بولندية تبنّت نظرية الإضراب العام. وكانت عدوّة لدودة للحرب العالمية الأولى. تخلّت عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، وساعدت في خلق «عصبة سبارتاكوس»، وفي ما بعد الحزب الشيوعي الألماني. انتقدت الحكومة السوفياتية، واغتالها الجيش الألماني. (المترجم).

(3) ماكس أدلر (1873 – 1937): سياسي وحقوقي نمساوي وضع أسس نظرية الماركسية النمساوية وأصدر العديد من المؤلفات، منها: «الدليل – دراسات في تاريخ الفكر الماركسي 1914»، و«الاشتراكية والمثقفون 1910»، و«الديمقراطية ونظام المجالس 1919». (المترجم).

بحرّية. والحرّية الحقّة هي حرّية التفكير بشكل مختلف»، لكن لم يستمع إليها أحد حتى اليوم.

وكل البراهين المقدمة لا تكفي على ما يبدو لفضح خليط الماركسية-اللينينية كشعوذة لا تجرّ خلفها سوى الويلات. لا تريد السفسطة المدرسية سوى أن تعرف وتدخل الأشخاص في خدعة أن لينين هو جبل بطرس[1]، الذي تُشيّد عليه الكنيسة الشيوعية. لكن لينين ونتاجه ستالين لا يرتبطان بكارل ماركس وطوباويته الاجتماعية أكثر من ارتباط القيصر قسطنطين[2]، الذي كان أول من انتصر تحت لواء الصليب، بيسوع المسيح وطوباويته المتعلّقة بحب الآخر. وكما تصرّفت الكنيسة الكاثوليكية منذ قسطنطين كأداة سياسية للقمع، تقمع الأحزابُ الشيوعيةُ منذ لينين إلى اليوم كلّ الشعوب الخاضعة لسلطتها. وتمارس البطش والإبادة الجماعية بمعيار مزدوج. واعتماداً على المسيح وماركس تزايدت جرائم القتل المليونية. كان أثر هاتين البنيتين المنحطتين بجبروتهما إجرامياً، فقد مارستا جرائمهما تحت علامتهما التجارية «النية الحسنة» والمكتوبة بشكل يبلغ غاية الجمال. وعلى الرغم من كل ذلك فإن الكنيسة الكاثوليكية والنظام الشيوعي متساويان في عدم قدرتهما على الإصلاح، لأن الإصلاحات الجذرية في كلتا الحالتين تعطلان الكثير من العقائد

---

(1) نسبة إلى القديس بطرس، وهو سمعان بن يونا الملقب بسمعان بطرس. ومعنى اللقب بطرس هو الصخرة، ولقبه بذلك السيد المسيح بحسب إنجيل متى: «وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت، 16: 18). (المترجم).

(2) قسطنطين الأكبر (280-337): قيصر روماني اعتلى سدة الحكم عام 306، وسمح للديانة المسيحية ممهداً الطريق أمامها لتكون في ما بعد الدين الرسمي للدولة، لكنه لم يُعمد إلا على فراش الموت. نقل عاصمته من روما إلى القسطنطينية عام 330. (المترجم).

المعصومة من الخطأ والتخلّي عن الأنظمة التسلطية. والمعصومون في النهاية سجناء حقوقهم.

ما الذي تعنيه هذه الكلمات لعام لينين؟ هل هناك أمل في أن يشكّك شخص ما، ممّن يتمسّك بالتأليه اللينيني الماركسي لعبادة الأشخاص؟ لا أظن ذلك، فهذا الاحتمال بعيد كتخيّل أن يتمكّن البابا على حين غرّة من التعامل بشكل مسيحي صادق. إن اللينينيين المؤمنين، بنوعيهما الشرقي والغربي، يشبهون المتزمّتين لحقيقة حقّة في عدم قبولهم النصح وانهزامهم أمام الإيمان. لقد أدوا ما عليهم من واجب وأعلنوا ستالين وحده مذنباً، كما لو كان هذا هو الإرادة المبهمة لتلك القوى الظلامية، التي فرضت هتلر في الوقت نفسه قدراً محتوماً على الشعب الألماني، كما يروّج.

لكن الدكتاتوريين لا يشبهون الثلج، فهم ـ وحتى باباوات الكنيسة ـ لا يتساقطون من السماء. التاريخ، مهما يكن انحطاطه، يصنعه الإنسان. وروح العالم لدى هيغل لا يمرّ اليوم إلا وهماً في حلقات النقاش العلمية. لقد سقط غومولكا لأنه فشل بسبب تعاليم لينين، كما فشل الأخير بسببها. هل سيتعرّف خليفته غيريك على البنية المنحطّة العملاقة، وهل سيرغب في إزالتها حينئذ؟ وما زال لينين يقف سليماً على منصته وبشكل أكبر من حجمه الطبيعي. يشير تمثاله المنحني إلى الأمام بذراعه الطويلة إلى اتجاه، ما زال يُدعى حتى اليوم «إلى الأمام»، حسب أسطورة الخانعين. الثلوج أغلقت الطرقات وأنا أقرأ في الصحيفة الجديدة، التي وصلت متأخرة: أحكام بالإعدام في بورغوس الإسبانية ولينينغراد السوفياتية.

## مذكرات سياسية:
## حي كرويتسبيرغ لا ينقصه سوى منارة مسجد

**كانون الثاني / يناير، ١٩٦١**

برلين لها هي الأخرى جبالها: جبال من الأنقاض التي خلّفتها الحرب أو تلك التي بدأت تظهر بمساعدة الطبيعة، التي تعد دائرة البستنة الأولى، إضافة إلى الجبال الممتدة أفقياً، التي تتّخذ منها أحياء المدينة أسماءً لها، ومثال ذلك جبل الصليب في حي كرويتسبيرغ (بارتفاع أربعة وستين متراً، ولكن لا بأس في ذلك).

كنا نرتقي هذا الجبل صباح يوم الأحد، حين نذهب نحن ـ العائلة والأصدقاء ـ بانتظام صباح كل يوم أحد لمشاهدة شطرنا من المدينة، التي تخفي تفاصيلها. كان مرورنا بحي كورفورستندام نادراً. أما زيارة كرويتسبيرغ فكان مبعثها سماء كانون الثاني/ يناير الزرقاء. وأدرنا ظهورنا للزخارف الحديدية الغوطية الطراز لأحد التماثيل التي بعدد معارك حروب التحرير، التي كانت حديث الناس ذات يوم: كاتسباخ ولايبزج وواترلو. ورأينا حولنا أن برلين بمعمارها المختلف الطرز وميلها للبناء على أسس ما زالت غير ثابتة ولكنه يرتفع ليعانق السماء. وبذلك تبدو المدينة للناظر غير مقسّمة. وللناظرين من الجانب الآخر من برلين يمكن أن يوحي مركز أوروبا، الذي تدور فوقه نجمة المرسيدس، بقرب مماثل. بالتأكيد فإن الفكرة الأساسية

في تقسيم المدينة بواسطة الرجوع إلى طرز البناء القروسطية، تتطلب الكثير من الكلمات الدلالية انطلاقاً من كرويتسبيرغ: «هناك جدار برلين!» و«هناك أيضاً!». لكن يمكن للإيديولوجية الحاكمة خلف هذا الجدار أن تميّز نصف المدينة هذا قليلاً. فقد بقي النتاج المتمثّل في شارع ستالين استثناءً وأصبح معلماً غريباً.

أحب العيش في برلين وبقيت غير متأثّر بالكثير من الأجواء المتقلّبة: كحب مدينة المواجهة والملل المعهود من برلين. وأعرف كل فقرات الشكوى: برلين تذوي ضامرة، برلين جفّت مواردها وتعاني من الكهولة، الهستيريا والتقدّم في السن غير منفصلة عن ذلك، برلين أصبحت غير قادرة على العيش، تنوء بحملها، ولكن على كل حال فإنها ما زالت تستحق زيارة أخرى. أومئ برأسي حال أن يبدأ هذا السيل من تعداد القوافي، فحقيقة أن برلين تعيش بلا ضواح منذ سنوات على وجودها. نصف مدينة كتب عليها أن تعيش الحمية. وتدبّ فظاظة قاسية في الحساسية العدائية. صحيح أن برلين قد تم إعادة تعميرها (بشكل باذخ وواسع) ولكنها من دون خاصيتها تلك ليس لديها ما تقدمه سوى مجتمع متداخل وغير متطوّر على صعيد السياسة الحزبية وسطحي، ويضيق أفقه، حيث تعلو الأصوات، وطفولي ممزق في «المجال الثوري». لماذا تضع جامعاتها نفسها موضع السخرية؟ لماذا تنتج مسارحها أقل من إمكانياتها الحقيقية بكثير؟ لماذا صدر الكثير من صحفها عن دار نشر شبرينغر؟ لماذا البقاء هنا والاستلهام من على كرويتسبيرغ؟

على النقيض من ذلك أرى أن المدينة قوية. ويمكنها الوقوف في وجه هذا السيل من الأوضاع والشكوى الدائمة من موقعها وتقسيمها؟ وأحد مساوئها الكبيرة فعلاً يمكن أن يتحوّل ـ إن أرادت ذلك ـ إلى

واحد من مزاياها خلال سنوات قليلة. وأتحدّث هنا عن سبعين ألف من العمال الذين يقيمون بصورة شرعية، وعن عشرين ألف يقيمون ويعملون بصورة غير شرعية في برلين الغربية، لكنها ما زالت تغلق أبوابها في وجوههم. فهناك الكثير من الأتراك والإسبان والكرواتيين والإيطاليين واليونانيين يعيشون موزعين في مساكن بائسة، عرضة للإيجارات المرتفعة، وغير محميّين من قبل النقابات بصورة كافية، ومتّهمين خفية بالجريمة. كما يُنظر إليهم على أنهم غير متعلّمين، لكنهم يعيشون متقاربين بشكل كبير. القليلون من المواطنين يريدون تصديق أن برلين الغربية ـ حين تريد أن تقوم معتمدة على ذاتها من غير ضواح ـ لن يكون لها مستقبل لا بالاعتماد على مساعدة ألمانيا الغربية فقط، بل من خلال تنوّع قوميّات سكانها، حالها في ذلك حال المدن الكبيرة كنيويورك ولندن وباريس. وأقول بقسوة: لا تغلقوا المنافذ، فغلق القدرة على التصوّر لدى مواطنيها ومؤسساتها يمكن أن ينتهي ببرلين إلى دار العجزة. هل نسينا الومضات التي تدين برلين بها للهوغونوت[1] الذين هاجروا إليها؟ أرجو أن تتصفّحوا دليل الهاتف لتتذكّروا هذا من خلال الكثير من الأسماء الفرنسية.

وأكثر من أيّ مدينة أخرى فإن برلين بحاجة إلى المواطنين الجدد، أي العمال الضيوف وعائلاتهم. والكثير منهم يرغب في البقاء، ويجلبون أطفالهم ونساءهم، لكن هذه الرغبة تصطدم

(1) الهوغونوت: هم البروتستانت الفرنسيون، الذين تركوا فرنسا بسبب الملاحقة، واستقبلهم أمير براندنبورغ فريدرش فيلهلم الأكبر بعد أن أصدر مرسوماً في عام 1685، منح بموجبه حق الإقامة لـ 44.000 شخص من الهوغونوت للخروج من المشكلات الاقتصادية الكبيرة التي كانت إمارته تعاني منها في ذلك الحين، بعد حرب الثلاثين عاماً الطويلة. وكانت هذه أول هجرة أيدي عاملة إلى ألمانيا. (المترجم).

بالعقبات البيروقراطية، التي تتصادم هي نفسها في ما بينها. ومن يمنّي نفسه في أن سياسة الدول الشرقية العملية الجديدة ستصبّ حقيقة في مصلحة الأمن الخارجي لبرلين، عليه أن يدعو كذلك إلى التغلّب على الجمود الداخلي وفتح ذلك المتراس، الذي أسهم في إرساء هذا التشعّب البغيض بشكل كبير والمواطنة البيروقراطية الساذجة.

من أجل الحصول على رؤية أفضل والاستفادة من جبال الأنقاض وغيرها من المرتفعات وإيجاد صورة طوباوية تبدأ من كرويتسبيرغ، أتخيّل أمامي الأحياء ومعالم الشارع اليومية التركية والكرواتية والإسبانية واليونانية والإيطالية. وعلى مقربة من شولتهايس عند سفح كرويتسبيرغ أجعل مسجداً يقوم بمنارته. سيكون الجيل الثاني من الأتراك والكرواتيين والإيطاليين مواطنين برلينيين ولادة وتطبّعاً، وسينالون كل الحقوق الأساسية. سينتخبون ويُنتخبون. أما الأحكام المسبقة تجاههم فستكون شيئاً من الماضي. وكذلك سيشير معمل بوله لتصنيع منتجات الألبان إلى الأصل التركي لكلمة «لبن» من دون خجل وبشكل مؤثّر دعائياً. طوباوية فقط؟

وقف قربنا زوجان تركيان شابان. وعند قاعدة النصب الغوطي الحديدي كان أحد الطلبة من برلين الغربية يوضح لأحد الشبان الإسبان الكتابة المنقوشة على التمثال: كاتسباخ ولايبزج وواترلو. وعند نزولنا من الجبل في ما بعد، رأينا أطفالاً يونانيين يلعبون. أليس هذا مستقبلاً؟

# حول توقف التقدم:
# تنويعات على اللوحة النحاسية لبريشت دورير
# «السوداوية الأولى»

أُلقيت لمناسبة فعاليات عام دورير في مدينة نورنبيرغ
في أيار / مايو 1971

سيداتي سادتي،

حين فصلت مركبة الفضاء أبوبلو 11 في أحد أيام صيف 1969 من مسارها المداري حول القمر كبسولة الفضاء إيغل وبداخلها رجلان ببذلاتهما الضخمة محمّلة بهدايا الضيوف، حدثت بعد ذلك بقليل واقعة لم ترغب أي من الصحف في نقلها. حتى التلفاز تذرّع بـ«انقطاع الصورة»، حين فتح رائدا الفضاء حاجات الآباء القديمة وتثبيت اللوحة والعلم الصغير والمعدات الحساسة. فقد نصب أدوين آلدرين الميزان والساعة الرملية والجرس، وفرش لوحة المربعات السحرية، وغرز الفرجار المفتوح، الذي ألقى بظلال عادية. أما نايل أرمسترونغ فقد رسم بإصبعه المغطاة بالقفاز بين ساقيه المنفرجتين الحرفين الأولين من اسم فنان نورنبيرغ إلى الأبد، وهما حرف الألف وحرف الدال على تربة القمر. حدث كل هذا في

يـوم 21 تموز/ يوليو في بحر الصمــت. ونحن هنا في ألمانيا نتحدث عن معايشــات الأسقف ديفريغر للحرب وعن ضرورة عدم رفع قيمة المارك. أما زحل فكان يشاهد المنظر، جذلاً بأبنائه.

حيـن دعتنـي مدينـة نورنبيـرغ فـي آذار/ مـارس 1969 إلـى المشـاركة بكلمة فـي برنامج فعاليات سـنة الاحتفـاء بدورير 1971، السـنة التي شـاءت المصادفات أن تعقب سنة لينين المنتهية، وجدت نفسـي في حقل سياسي غير واضح المعالم، لانشغالي بالتحضيرات للانتخابـات البرلمانية في ألمانيا. لذلك كنـت في الفترة بين 5 آذار/ مارس و28 أيلول/ سـبتمبر في تجوال دائم من أجل الانتخابات، إلا أنّني كنت أبحث في الوقت نفسه عن مادة لكلمتي هذه عن دورير.

حالـة لغوية متبدّلة، فمـن جانب كنت أفكـر بإيجابية من خلال التصميم على مواصلة الهدف بالتقدم والاسـتمرار في الحركة، ومن جانـب آخر بقيت رهيناً لثقل هذه الكلمة، بسـبب قـراري المبكر في الحديث عن لوحة ألبريشـت دورير النحاسـية «السـوداوية الأولى»، التي تعود إلى عام 1514.

ورسـمت آثـار زحفـي مجتمعـاً، بـدأت علـى أطرافـه مجاميع بالتصرف بيأس مفرط: مستسلمة أو منتشية. وتناسب الوثبات اليومية إلى الطوباوية الوقوع في عزلة الكآبة. حاولت أن أسـتخلص من هذه الآفاق تلك الإثارة، التي تبدو مقدّرة على الإنسان، والتي تُدعى غالباً قدراً ـ على خلاف المعرفة. زحل يسمي إلهيته القديمة.

الكآبـة والطوباوية كانتا أمامه، وأريد التحدث هنا عن سـيطرته المزدوجـة، وكيـف تسـتثني الكآبـةُ الطوباويـةَ، وكيـف يتخاصبـان بالتبـادل، عن المسـافة بين الآفاق، عـن القرف حتـى الطوباوية أمام معرفـة جديـدة، عن فرويد وماركـس، اللذين كان عليهما أن يجلسـا

أمام دورير كي يرسم لهما صورة نصفية، عن الضيق من الترف، عن توقف التقدم، وعني أنا، الذي أرى في الكآبة والطوباوية وجهين لعملة واحدة.

في البدء يأتي النقش، الذي حملته معي كبطاقة بريدية فنية عبر إقليم شفابن وولاية سكسونيا السفلى، إلى بيبرباخ وديلمينهورست، وهو طائر ليلي يشبه الخفاش، مثل الكلب في لوحة دورير، من كائنات زحل، يمسك بعلامته الجارية مثل لافتة. نموذج لا يمكن نقله. فكما تمنح هذه الفتاة الضخمة، بين الأدوات التي استحالت خردة، كل علم إنساني ملامح كئيبة، يسمح الملاك نفسه غير القادر على الطيران بتأويل مبتذل. كما لو أن نادلة الأكلات الباردة تجلس بعد أن طُلبت ونسيت. متخمة وممسكة أصابها اليأس من قدرة المسهل التقليدي. امرأة أصابتها الكآبة تفوق كل محاولات البحث. وماذا بعد ذلك؟

هذا الوضع يدعو إلى السخرية. ومن يرغب في التهرّب من هذا الموقف، يتّخذ النكتة وسيلة لذلك. فالحزن العميق يحثّ على الضحك الكثير. والعين الزجاجية تُعرف لأنها تبرق أكثر من العين البشرية. المهرّج، الذي يبعث على الكآبة، كوميديا الفشل، وضع ما له من متنفسات. واللغة تجود بالكثير لهذا الوضع: المرارة السوداء ـ وفي القرن السادس عشر بمعنى «الحبر» كذلك ـ تؤدي بنا إلى: بمرارة الكآبة يفسد على الآخرين سعادتهم. وتبرز الكلمات الألمانية كذلك، والتي لا يمكن ترجمتها: Schwermut[1] وWeltschmerz[2] وTrübsal[3]

(1) كآبة باللغة الألمانية. (المترجم).

(2) الضيف بالدنيا باللغة الألمانية. (المترجم).

(3) كآبة أو حزن باللغة الألمانية. (المترجم).

و Wehmut[1] و Grübelei[2]. والوصف «حصل على حيوان بائس»، الذي يستعمله سكان ولاية شمال الراين-وستفاليا، يوجد من جديد في سياق «بكآبة»[3] وفي «حيواني». ينظر الواحد منّا ويشعر، ويكون أيضاً: معتلّ المزاج ومتجهّماً وحانقاً على الحياة وضجراً. تلك الأمزجة التي ترافقنا ونحن نجمع بالمجرفة الأوراق اليابسة المتساقطة، ونقرأ الرسائل القديمة وننظّف أسنان المشط، وفي أثناء التبرّز. وتتمخّض كل هذه المشاعر عن سخافة أو شعر: الشعر السخيف والرخيص. تأخذ الكآبة مكانها في محطات القطار، وفي الضباب المنتشر على أرصفة الموانئ، وبين الثكنات البعيدة والذاوية والمهجورة. وتمضغ الحزن وتحترق حزناً متحوّلة إلى ثقل على نفسها. كل شيء تافه وخاو وآلي ويمكن حسابه. كما أنها تنقل بتكرار بائس الإنتاج نفسه دائماً وأبداً.

إذاً، وضعت لوحة دورير «كآبة» في معمل لإنتاج المعلبات، وفي حقل دواجن، وعند عجلة الإنتاج في شركة سيمنس. يدها اليمنى، التي ما زالت هي الأخرى تمسك بفرجار، بدأت تفتل الآن علب القصدير، تعينها اليد اليسرى، التي لا يمكن أن تسند رأساً الآن. وهي تعلّب البيض، وتساعد في إيجاد قطعة غيار بعد أخرى. الكآبة ترتدي غطاء الرأس فوق الشعر المجعّد المكوي. وتشعر بالغربة طوال ثماني ساعات كل يوم، لأنها باتت ضائعة. صحيح أنها تفعل شيئاً، لكنها لا تفعل ما يوجدها. فعجلة الإنتاج هي المتحكّمة. وردة فعلها جزئية. والوقت الذي تمدّ فيه يدها يحسب بالثواني وأجزائها. كان بإمكاني أن أقطع يديها، وهي تعمل بسرعة، وأحنيها وهي في القفازات، التي تغطّي الذراعين، بوقفة دوريرية. كان بإمكاني أن أضع

---

(1) حزن باللغة الألمانية. (المترجم).
(2) كثرة التأمل والتأمل باللغة الألمانية. (المترجم).
(3) بالألمانية im tierischen Ernst. (المترجم).

منتوجاً آخر على عجلة الإنتاج: وعلى سبيل المثال لوحة «السوداوية الأولى» الطبيعية لألبريشت دورير، مسكوبة كشكل رصاصي رائع. منتوج جماعي انتشر في الأسواق لمناسبة مرور خمسمائة سنة على ولادة الفنان ألبريشت دورير. أما كآبة اليوم فينبغي أن تثبت أجنحة لكآبة الأمس معادة الإنتاج على الشريط الناقل، وتدخل الفرجار الصغير في المقبض المثقوب. تقدم المساعدة بين الفينة والفينة. ويصبح الربح أسطورة: يا للفاجعة. لم أوجد عملية الإنتاج هذه، بل حوّلتها فقط.

على عجلة الإنتاج تأخذ الكآبة الناتجة عن العمل اليومي ملامحها اليومية: وهو وضع محمي من جانب الضوابط القانونية للأجور. ولم يعد هناك علم يضع نفسه في موضع الشك. ولم تعد هناك بنية مفسدة تنجيمياً، وقدر غامض مفروض، أو عقوبة للمؤلف. بالتأكيد لا يجلس المخترعون والمصلحون المتقنون عجلة الإنتاج أو المسهمون ومجالس الإدارة عند هذه العجلة، بل تعكف الفتيات والسيدات هناك مكسورات الجناح وطوال ثماني ساعات، كما لو غابت عنهن ملامح الرجال أو النساء.

كبرت الكآبة على استثناءاتها الشخصية، وأصبحت من الامتيازات الطبقية للعاملين: وضع جماعي في كل مكان يهيمن فيه معيار الإنتاج نظاماً قائماً بذاته، ويجد سبباً لذلك. المستهلك الوقتي يجب أن يأخذ حذره. كآبة خرساء، تُصمتها جلبة مكائن الإنتاج. ومن ينصت جيداً فقط، يسمع كيف يتخزّن الغضب الجسيم في موقع العمل في كل مكان يسود فيه العمل بالقطعة ومبدأ التنافس في الإنتاج، ويأخذ مكانه ولا يجد نهاية ما برح يبحث عنها.

أين هي الطوباوية، التي يمكن أن تشكل عالماً مغايراً لحزام

إنتاج الكآبة؟ هل يعتبر المزيد من وقت الفراغ في الطموحات المتزايدة وضعاً طوباوياً دائماً أو حقيقياً؟ ومن سيصوّر وقت الفراغ وفق بعض المبادئ النظامية؟ يجب تنظيم وقت الفراغ. وأي عجلة إنتاج ستدور خلال وقت الفراغ؟

ومثلما صوّر ألبريشت دورير لوحته ولوحات كل الإنسانيين «كآبة» وكذلك «جيومتريا»، يمكن أن تشبه السياحة في صورة يومنا هذا «توريستيكا» الكآبة - إن كانت. فيما إن وُجِدت نيكرمان أو شارنوف يرغبان بالحفر بثمن معقول في مجاميع على الشواطئ المشمسة أو بين الخرائب المعمارية أو في ميداين القديس مارك في البندقية، وفي كل مكان ترغب فيه عجلة الإنتاج «رؤية معالم المدن»، تضغط «توريستيكا» كالكآبة بالتقاط جميع الصور الموجودة في أفلامها حتى النهاية، حتى تصبح مدركة لصوت التقاط الصور وآلية الإضاءة السفيهة وطعم ضحكات الاستغلال. والآن تقبع بين مواضيعها الكثيرة. ومترعة حدّ الثمالة ترفض تصويرها. مبتلّة بالعرق المتفصّد معتادة على رائحتها. وأصبح مفهوم وقت الفراغ المنظّم والمخطط واهياً، وقد شبع من الجماليات في الصور العرضية إلى حدّ التخمة. قزّزه التاريخ المرقم، وأصابته الأعمال الفنية المتسلسلة بالملل. وكما حملت جيومتريا كآبة الفرجار، تمسك توريستيكا بالكاميرا، مثل كآبة، ولا ترغب في تغيير الفيلم.

حين تصبح الكآبة - بصفة كونها سلوكاً اجتماعياً - حقيقةً في عالم العمل وعند عجلة الإنتاج وأمثالهما، وحين تدخل الكآبة عالم وقت الفراغ المصوّر بشكل سياحي وتدّعي أن هذا هو مكانها - على الرغم من عدم ذكر ذلك في المنشورات الدعائية -، وحين يخضع العمل ووقت الفراغ للمبدأ التنظيمي الطوباوي، الشغل المطلق،

فسـيلتقي كل من الطوباوية والكآبة ويقدمان النتيجة الآتية: بدء وقت خالٍ من الصراعات، ممتلئ بالعمل وخالٍ من الوعي.

مجـرد تكهنات؟ تنويع ما فـي موضوع الكآبـة؟ مجروفاً بالوله في الحاضر وبظـروف المنغّصات نصف السياسـية اليومية، وجدت أنـه من الصعب أن أتمكن من الحفاظ على تلك المسـافة، التي تتيح تناول الموضوع من زاوية علمية باهتة وبجفاء. لأني، يا ممثلي العلم الفضلاء، محاصر بشـدة مـن المنادين بالطوباويـات المتقافز بعضها على البعض، وأقع يومياً ـ سواء وفق الظروف الفرانكية أو الأيمسية ـ في شباك الكآبة، فإنني وجدت القليل من الوقت للبحث في مؤلفات أرسـطو وفيتشـينو، وبورتون، وشكسـبير، وكيركيغارد، وشوبنهاور، وبنياميـن وماركوس. ولم يمدّ لي بانوفسـكي ولا ساكسـل يد العون بورقة سرية. لم أتمكن إلا في ما بعد عند رجوعي إلى فولف ليبينيس وأرنولـد غيلـن من مقارنـة كيف تتعامل الكآبة اليسـارية مـع نظيرتها اليمينيـة. إلا فـي مـا بعد تمكنت مـن خلال القـراءة أن اعتمـاد رؤية خاصة وان أختبرها وأوسـعها. وتقول رؤيتـي: إنه حيثما تدبّ الكآبة وتوجـد وتسـتمر، فإنها غيـر مدركة بكآبتهـا الذاتيـة. وحيثما حللت أيضاً، يتهاوى المتحمّسـون غير مدركين استسـلامهم تماماً، ويفشل المكتئبون في محاولاتهم الأخيرة للنجاة من الكآبة، من دون استذكار الفيلسـوف هيغل. غير واثقتين من نفسـيهما ومـن قرابتهما الأصلية، اندفعـت الفتاتـان طوباوية وكآبة إلـى الميكروفون نفسـه وتخاصمتا على أحقّية الكلام. لذلك لن أحتال على الكتب الموجودة لاستخراج الاقتباسـات، بل أرغب في أن أروي كـم صادفني ممثلو الكآبة، على تلـك الهيئة، عراة ومتخفّيـن، وكم وقفوا في طريقي، وأخذوا بطلائي بألوانهـم: الكآبة لا تدعى كذلك فحسـب، بل وتنفذ في المسـامات، من أجل أن تزن نفسها بالطوباوية أو بغيرها.

أقول بصراحة: إن موضوع كلمتي هذه ومادتها، التي استحالت تاريخية فنية، زادت من مصاعبي في كتابة مسودة روايتي «من مذكرات حلزون»، التي بدأت بالنمو تارة وبالتقلص تارة أخرى منذ سنتين؛ فقد بـدأت عازماً لأجل أطفالي وأطفال الآخرين في إعادة رسـم العملية الحلزونيـة البطيئـة بالتقـدم وأخطأت في حسـاباتي، وبقيـت مرتبطاً بموضوع دورير. إذن فقد حاولت أن أفسّر لأطفالي وأطفال الآخرين معنى التوقّف في التقدم. أثر الزحف، الذي سـرعان ما يجف. لعبت بسقط المتاع المتجمّع واستبدلته. ميزان وساعة رملية وجرس ومربع الأرقام السـحري والفرجار، جميع هذه الأشـياء وجدت انعكاسـها. حين تجلس الكآبة عند عجلة الإنتاج وتتحوّل خلال رحلات تصوير الحيوانـات في أفريقيا إلى عمود من الملح أو تمتطي شـرنقة حلزون فارغة، فربما تجد لها مكاناً في مراكز الحسابات الإلكترونية، وتكون بذلك ضمن معادلة أينشتاين الراهنة.

غالبـاً، خـلال التجـوال، فـي الاختناقـات المرورية علـى الطرق السريعة، محاصرةً بدخان العوادم في أمكنة الانتظار المتراجعة، كما لو كانت تسـير في اتجاه واحد فحسب على الدوام، خاضعة لطرق التسلّل الخفيّة لحركة المرور، رأيتها جالسة خلف المقود شاردة الذهن: الكآبة ولها إجازة قيادة السـيارة. حين نقش دورير لوحته «كآبة» على النحاس، كان في الثالثة والأربعين من العمر؛ أي بعمري اليوم. وهذه الخطبة تأتي اليوم في نهاية حصيلة الحلزونية البطيئة.

لوحـة منقوشـة علـى النحـاس لهـا بداياتهـا. متمسـكاً بطريقة التصويـر المجازيـة السـائدة فـي القرون الوسـطى والصـور النمطية لعلوم المتحمّسـين، نحت دورير في عام 1502 غلافاً خشـبياً لكتاب «فيلوسـوفيا»، وصـوّر على الزوايـا الأربع الحماسـة الكئيبة والباردة

والمتفائلة وسريعة الغضب تعبيراً عن الرياح الأربعة. «بورياس»[1]، ريح الشمال الباردة، الرجل العجوز الثقيل بثقل الأرض، ينفخ الريح المليئة مجمّداً ورق الأشجار المتساقط حول «فيلوسوفيا» ويشهد للشتاء. حتى الحواريون الأربعة الموجودون على صورتين خشبيتين وجدوا شخصياتهم خاضعة لعلم المتحمّسين؛ فقد كان هذا العلم، كما تثبت نصوص دورير النظرية، كتاباً مختصراً لرسّامي صور الأشخاص في اللوحات الزيتية، وملزماً لنظريته المتعلّقة بالتشريح والتناسب. إن لوحة «السوداوية الأولى» تُعدّ فريدة من نوعها من حيث خضوعها للتأثيرات المناقضة لطريقة التصوير الرمزية تلك؛ حتى لو ظهر هذا الأمر الجديد ملتزماً العادات القروسطية وغير مؤكد، وهو لهذا السبب يبدو مقنعاً.

في سبعينيات القرن الخامس عشر كتب الفيلسوف الإيطالي مارسيليو فينتشانو إلى أحد أصدقائه يقول: «لا أعلم في هذا الوقت ماذا أريد، وربما أيضاً لا أرغب في ما أعرف، وأريد ما لا أعلم».

وأرجع فينتشانو هذا الوضع المستند على كآبة كبيرة، الذي يمكن قراءة مختصره مثل توقّع شوبنهاور «عن حرية الإرادة» المتوّج بالجوائز، إلى ساتورن[2] المتراجع القهقرى بخبث في صورة أسد. إلا أنه مكتئبٌ من كونه مؤمناً بالتنجيم والكواكب على الرغم من أنه من أنصار النزعة الإنسانية ومن العلماء، ومن تقييم الكآبة كوبال ساتورني. في النهاية تمسّك فينتشانو، اتباعاً لنصيحة صديقه، بأرسطو الذي كان أول من أثبت وجود الكآبة وبرهن على أنها سببٌ للإنجازات العلمية والفنية البارزة.

---

(1) بورياس: إله الشمال أو ريح الشمال في الميثولوجيا الإغريقية. (المترجم).

(2) ساتورن: إله الزراعة عند الرومان. (المترجم).

ولا يختلف هذا الأمر عمّا هو موجود عند دورير، الذي أعلن عن ذلك خلال سفرته إلى إيطاليا أو من خلال صديقه بيركهايمر عن طريق أهم أعمال فيتشانو «De vita triplici»[1]، وهو كتاب عن الإنسان الساتوروني.

صحيح إن ساتورن ما زال حاكماً، ولكن سلطته لم تعد كارثية فحسب، بل تضمن الحيز الكئيب مكانا للتأمل الروحي. في ربيع العام نفسه كان الأب الكبير جالساً في منزله ينحت اللوحة على النحاس، وكان باعثاً للتمرين: غرفة الدراسة الهادئة والاعتكاف والوحدة المغيبة للواقع الصريح، التي اختارها بإرادته، إضافة إلى حقل التجارب الطوباوية.

بهذا أصبحت السوداوية متعدّدة الدلالات. أعطت العارفين هالة المختارين، والشعب ما زال يرزح تحت وبال لا مفرّ منه بسبب جهله. فتميّز الإرث العبقري للقرن الثامن عشر، وكذلك تتم التهيئة لصياغة الأعذار المحافظة في أيامنا هذه: فالسوداوية تبدو واضحة المعالم، حين تسود قابلية الأوضاع على عدم التغيير ويتم الدفاع عن القدرة على التصميم إرثاً سوداوياً. إن السوداوية امتياز لنخبة مستجيبة لفراغها الفكري والغطرسة تعبير واضح عن محافظتها.

منذ الأزل تمّ ـ وما زال الأمر مستمراً حتى يومنا هذا ـ إفراغ الوضع القائم من وزنه ضد التقدّم كقوّة قادرة على التغيير. فحيثما يفشل التقدّم على أعتاب أهدافه أو يهرب من الواقع بشكل طوباوي أو من متطلّباته، ويجعل من نفسه أضحوكة، تنتصر المحافظة الموصومة بعبارة «عرفنا هذا من قبل أن يحدث». لكن إشاراتها السوداوية تريد أن تقول إن الأوضاع لا يمكن أن تتغيّر، إن كل الجهود السوداوية

(1) بالإيطالية في الأصل: De vita triplici، وهو العمل الرئيس لفيتشانو في مجالي الطب والفلك. (المترجم).

تبقى من دون جدوى، إن هناك مصيراً لا يمكن تقديره يتحكم بنا: الوجود الإنساني لا يعدو أن يكون أكثر من طامة كبرى فحسب. كون النظام وحده مؤسسة تحظى باحترام الجميع يقدم ضماناً لتلك الآراء. فهو يرسّخ البناء السلطوي والسلطة الدنيوية. ويمنح الأوضاع القائمة استمرارية طويلة الأمد. إن تنفيذ الواجب بجدية والقنوع باستسلام هما مناسبان. أما السوداوية فتبقى حكراً على العارفين والنخبة الحاكمة وأصحاب السلطة.

فكما هو حال كل نظام مغلق ينكر المحافظون على الشعب المحسوب على الجهل كل حق، في أن يكون سوداوياً. وهذا يعني عدم القبول بالنظام واتفاقاته. إن السلطة موجودة ومن الضروري القناعة بهذا الوضع القائم. تثير السوداوية الريبة حين لا تكون امتيازاً للنخبة فقط بل تتحوّل إلى سلوك اجتماعي. ومنذ الأزل تستند ريبة السوداوية على المساواة بينها وبين المرض كمرحلة أولى لمنعها.

كان دورير مكتئباً بسبب مرضه. توجد في قاعة الفنون في مدينة بريمن الألمانية لوحة تخطيطية مبعثرة الألوان، قدّر الخبراء عمرها بأطول من عمر لوحة «سوداوية». ويعتقد أن دورير أراد أن يشرح لطبيب يقيم في مكان بعيد عنه أوجاعه بواسطة هذا الرسم. في اللوحة، التي رسمها لنفسه، يشير دورير بسبابته اليمنى إلى مكان المرارة والكبد والطحال، ورسم بقعة صفراء على أنها موضع الداء. ويكتب دورير في أسفل لوحته: «أشعر بالألم هناك حيث تكون البقعة الصفراء، التي أشير إليها بإصبعي»[1].

---

(1) أصيب دورير بالملاريا خلال إحدى سفراته إلى هولندا، وأدى ذلك إلى تضخم طحاله، فرسم اللوحة المذكورة وبعث بها إلى أحد الأطباء كي يساعده في التغلب على آلامه. (المترجم).

نعرف أن دورير كان يشتكي قبل سفره إلى هولندا من تضخم طحاله. وتصف تقويمات الفلاحين لتغيّر الطقس حتى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كوكب زحل (ساتورن) واحداً من الكواكب المستوية المضنية، لأنه يتسبّب في أمراض الطحال والكبد والمرارة والكليتين. ومن خلال وقوع هذه الأعضاء الداخلية تحت مسؤولية زحل، فإنها مرتبطة بالسوداوية بعلاقة سببية.

هل قاد الطحال المريض دورير إلى السوداوية؟ أليست النتيجة التي وصلنا إليها والتي تقول: السوداوية تساوي المرض، نتيجة مقنعة؟ إن كان دورير مريضاً وسوداوياً ـ بصفته إنساني النزعة ـ، فإنه حتماً كان مريضاً بسبب كآبته وسوداويته؟

منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ينطق الأطباء بهذه الكلمة ويستعملونها مصطلحاً. ومنذ ذلك الوقت بقي كل من الكلمة والمصطلح بمعانٍ متعددة. ومع أن العلم الحديث يفرّق بين الاكتئاب الباطني والتفاعلي، وبين انفصام الشخصية والعُصاب الحَصَري وجنون العظمة، فإن هذا لم يسلب من المصطلح الشامل سوداوية الشهرة، التي يمكن من خلالها فهم مرض الجنون والأمراض القريبة منه جميعاً.

وحتى القرن الثامن عشر وطبقاً لعلم المتحمّسين فقد اعتبر الخليط المضطرب من أربعة سوائل سبباً «للمرارة السوداء»، التي تعتبر مبعثاً للسوداوية. وهكذا يُقرأ وصف السوداوية القروسطية بطريقة مضحكة، ولا أرغب هنا في أن أمنع عنكم وعن نفسي أيضاً تعداد هذه الخلطات المخالفة للمنطق. في البدء لم يعد باراسيلسوس[1] يعتمد على المسهل، بل بدأ، وهو أحد رواد العلاج

---

(1) فيليبوس تيوفراستوس باراسيلسوس (1493– 1541): طبيب وفيلسوف وعالم ألماني. (المترجم).

بالصدمات ـ يكتب لمرضاه أدوية مغطّاة بالسكّر تثير ضحكاتهم المجلجلة، وما إن تصل تلك الضحكات إلى ذروتها، حتى يقابلها بأدوية أخرى تدفعهم إلى الحزن. ثم يُنصح بالحركة الجسدية. ومنذ ذلك الوقت ينصح بالخروج لاستنشاق الهواء النقي للذين يجلسون في غرفهم طوال الوقت. وقيل عن الموسيقى، وبالأخص موسيقى الآلات الوترية، إنها تخفف من تأثير الكآبة إن لم تشفها. كما يُنصَح المكتئبون بالابتعاد عن أكل الكرنب المسبّب للغازات. وطوال ألفي عام اعتُبر شراب الخربق المسبّب للإسهال علاجاً منزلياً للاكتئاب المرهق والحزن المعتم للنفس. أما اليوم فتنصحنا شركة غايغي لصناعة الأدوية بعقار «توفرانيل»، الذي لا يُصرف إلا بوصفة طبية، لتخفيف الحالات المكتئبة. وتحدّثنا المنشورات الدعائية الصادرة عن هذه الشركة عن «طفرة في معالجة السوداوية».

أنا لست بطبيب، ولا أتجرّأ على تشخيص في ما إذا كان الطحال المؤلم ـ ما عدا الاشمئزاز النابع عن الشخص ذي النزعة الإنسانية ـ تسبَّبَ إلى حزن دورير. ولا أعرف، متى يمكن وصف السوداوية بالباطنية. ولا أستطيع أن أصف بالمرض الظروف، التي تظهر على الفرد والمجتمع، بسبب أن المبدأ الطوباوي المسمّى بالصحة، سواء كان مستنداً على «الشعور الشعبي السليم» أو على «الإنسان الاشتراكي»، يشرع داخل أنظمته منعاً تاماً للسوداوية.

تشابه الأحوال الباعثة على الاكتئاب في صورة مرضية لدى الأشخاص، الذين يعانون من سوداوية باطنية، مراحلَ النشوة؛ وكذلك في الحالة الطبيعية للسوداوية التفاعلية يجد الهروب الفكري بشكل طوباوي أشكالَ عودته بوضع الضيق. إن حالات الكآبة لدى العديد من الطلاب، الذين ألهمتهم بالأمس طوباوية اجتماعية بالحماس،

جعلتهم لا يدلون بآرائهم بشكل إحصائي فحسب، لا بل استولت مفردة أخرى على السوداوية وقذفها المتعجل بصفتها مرضاً: شيء مخيب للآمال، وشخص خائب الأمل. وتشيع خيبة الأمل، وتصيب المجموع، وفي النهاية المجتمع بأكمله.

ربما أمكن تسليط الضوء هنا على «الأرملة الخضراء»[1]، التي تعدّدت معانيها وتناقضت، وصمّمت على طاولات مخطّطي المدن والمعماريين، وهي تنتظر أجلها منذ سنوات. غائبة عن المدينة ومتوطّنة في الحزام الأخضر تتعفّن الزوجة من دون وظيفة في البنغل[2] ذي السطح المستوي. ومنذ أن أصبح ذلك مصطلحاً، شاع ليكون روسماً من الرواسم. ومن السهل إحاطتها بإنتاجات الدقة العقيمة. ومن الطبيعي أن تضع قبيل الظهر بكرات لفّ الشعر. وماذا يمكن أن يحلّ محلّ الفرجار؟ أختار شيئاً من المطاط الصلد، الذي ترسله محلات البيع حتى منازلنا. لأن ممارسة العادة السرية، بغضّ النظر عن معناها الحرفي، أصبحت تعبيراً عن كل ما يدل على الإفراغ الذي يكون حسياً لافتقاره إلى الاتصال. نعاني من مصاعب في الاتصال، ونعاني من الأنانية والتصرّف بنرجسيّة، ومصابون بالإحباط بسبب خسارتنا البيئية والتخمة في المعلومات. كما أننا مصابون بالجمود على الرغم من معدلات النمو المتزايدة.

وبعد أن تم التفكير إلى النهاية ومنذ أن دبّت الكآبة على حين غرّة غاب ملاك غني بالاستعارة في تفكير عميق، وبدا وجهه غائباً

---

(1) اصطلاح عامي ألماني يطلق على الزوجة التي تسكن مع زوجها داراً في ضواحي المدن وتشعر بالوحدة في أثناء بقائها وحيدة عند ذهاب زوجها إلى العمل. (المترجم).

(2) البنغل: بيت من طابق واحد، وخاصة في الريف أو على شاطئ البحر. (المترجم).

في الظلال. صحيح أن فترة العصور الوسطى ما زالت حاضرة، وزحل حاضراً هو الآخر، ومن خلال الحيوانات والحجر، وحتى تمت البرهنة على ذلك في سلسلة المفاتيح، لكن الأفق والأدوات الهندسية مترعة بالحضور، كما فُهم بين منظّري الحركة الإنسانية كمرحلة جديدة. وما من جرأة تصويرية يمكن أن تميز هذه اللوحة الدقيقة. ولوحة «العذابات المنحوتة على لوح نحاسي صغير»، ولوحة «ماريا» النحاسية والكثير من الرسوم التي تقول جميعها عن ألبريشت دورير أكثر من لوحة «كآبة وحدها». ولكن يلاقينا كذلك الوصف التشريحي. اكتملت هذه اللوحة بعد أربعة عشر عاماً على انتظار العالم المسيحي لنهاية العالم وسبع سنوات قبل ظهور لوثر في فورمس، وما زالت بالنسبة لنا شاهدةً على مرحلة انتقالية ما فتئت آثارها ظاهرة.

وقبل إسدال الستار، وبدء وقت التخطيطات الكبرى والحماسة الخالية من التفكير. كوبرنيموس وكولومبوس: وهو وقت الاكتشافات، التي تعدّت الاتفاقات جميعها. عائلة فوغيرت المتاجرة وتوماس مونتسر: توتّر اجتماعي وديني كذلك. ظهرت في البدء بعض التشقّقات الدقيقة في الصغر، ثم سرعان ما كان الانقسام ظاهراً. وحمل كل من الإيمان والمجتمع والوعي هذا الانقسام. سينفصل التصوّف من العصور الوسطى، المنقلب إلى الداخل والذي سيجد مثيله في طوباويات اجتماعية. سيدنو صرع ونشوة من بعضهما ويتداخلان في بعضهما. لعب اجتماعية مع الهيروغليفية. الوسط الإنساني لماكسيليان: خيبة أمل باهرة. مقابل أجر ضئيل: بوّابة الشرف المتنامية للقيصر على وجه الاستعارة. وبعيداً يحوم عقل وحدوده بحرّية ومن دون عوائق. وفي الحقيقة لا يتم التفكير في حركة مرور دائرية وعلى نحو مزخرف كما في علم الكلام بل

في اتجاه إلى الأمام على نحو تقدّمي. لكن في الوقت نفسه سيصبح السكون في التقدّم تجربة جديدة تترك بصمتها على العصر الحديث: لدى دورير ستكون لوحة جديدة.

حقب مُزاحة في ذاتها وفي العلاقة ببعضها. تم إدراك التقدّم، بلا نشاط بين عدة العمل، وكأنّ الهندسة تخطئ في القياس، وكأنّ أحدث معرفة تتعثّر في الشكّ بعد المحاولات الأولى للمشي، وكأنّ المعرفة تُلغى، وكأنّ الجمال باطل، وكأنّ الميثولوجيا وحدها هي التي ستخلّد.

زحل، مبتدئ بخطى بعيدة ومعتاد على السيادة مع كرونوس، يجد طريقه أيضاً في العصر الحديث، ولا يريد عصره الذهبي أن ينتهي. وكآلهة لا للأرض القروية والبذر فقط ينسب إليه إعداد وهندسة وفن التقطير، وفي الجدي الفلسفة وكل السلطة الدنيوية. لذا لن تجد كآبة مبهمة سوداوية مريرة تعبيراً لها في اللوحة النحاسية بل سوداوية مدركة ذاتها وناشئة من المعرفة.

وسط هدوء جامد ستصبح الذراع اليسرى المسندة وقبضة اليد التي يستند إليها الخدّ إشارة إلى التفكير بعد عبثية مثل هذه. وما إن ينفتح فراغ وتفقد كلمات مغزاها في غرف يتردّد الصوت فيها - سيستوجب الرأس أن يُسند وتطبق قبضة اليد من غير وعي.

ليس هنالك من داعٍ جديد: فطالما أسند الحواريّون والمبشّرون الإنجيليون، والأب الربّ بعد خلق العالم، وهرقل بعد أن أنجز عمله وكذلك كرونوس وزحل، أسندوا الرؤوس جميعاً كما رُسم في اللوحات. لكن دورير وعلى نحو أكثر مركزية من كل المثل التي ربما كان على معرفة بها، عرض الذراع المشدودة في انحناءة والقبضة المطبقة بجلاء وبتعارض فعّال حدّد الوجه المظلّل بطريقة

تقليدية الذي لا يتجه بصره إلى أي شيء يوائم اليد اليمنى خائرة القوة والممسكة بالفرجار.

ولا يسود أي مزاج غامض. وبطريقة متناقضة تمتزج بقايا أساطير العصور الوسطى مع عدّة العمل للعصر الحديث وتخلقان إنشاء اللوحة المتوازن نحو واقعي وذلك الحدّ المفرط من الفوضى، الذي يشيع سوداوية، والحجج المماثلة لصورة حياة هادئة في تفاصيله، مستبعدة المصادفة والتشاؤم المظلم: لقد أصبحت لدى دورير أعراض علم، أصبح لا يخلو من الريبة، ويُدعى بمجمله سوداوية.

إنه التوقف عن التقدم، والتردّد والانقطاع بين الخطى، وإعادة التفكير في ما تمّ التفكير فيه مسبقاً حتى يصبح الشكّ من المؤكّدات. معرفة تثير الاشمئزاز. وهذا ينطبق علينا كذلك.

تتربّع سوداويتنا بين الإيديولوجيات والإصلاحات الفانية: مفتقرة وسط القصور الذاتي، ومتعبة ومشمئزّة من العمليات البطيئة مثل الحلزون، والكئيبة في خضم المواعيد، والتي تسند الرأس مثل سوداوية دورير. وتطبق أيضاً قبضة اليد لأن سكون التقدم يتناسل ويلد بطريقة خنثية تقدماً من سكون: وحالاً سترتحل وستصلح إصلاحاً ناقصاً وتحدّد هدفاً موقتاً، وتتفق على مواعيد وستصمّم ـ خفية ـ طوباوية واضحة يسود في نظامها المنسق على نحو أكثر مرحاً منع صارم للكآبة.

ذات مرة ورد في أغنية: «نحن في الدنيا لكي نكون سعداء...»، طالما سُمع مثل هذا الصوت السوبرانو الصادح وما زال يُسمع برغبة. في كل مكان تحقّقت فيه الطوباويات كنظام ـ سواء في الاتحاد السوفياتي بسبب الدولة، أو بتلفاز الدعاية في الولايات المتحدة الأميركية ـ يؤمر بالسعادة إما بناءً على قرار اللجنة المركزية،

وإما يُوحى بها كسعادة استهلاكية. وصيّة السعادة في أسلوب الحياة الأميركية وابتسامة «إبتسم للصورة» عن تصوّر السعادة الأميركي ليست هي سوى انعكاس متشنّج للخطيئة المتزمّتة وإيديولوجية الهلاك مع كل كآباتها السوداوية. ومن ناحية أخرى توجّهت طوباوية الشيوعية إلى هناك حيث بدأت تصبح حقيقة وتعلّمت ممارسة السلطة تحت الإجبار على تصوّرات السعادة الخاصة بها. ومنذ عهد لينين تُفرض في الشيوعية عقوبات للجنح التي تسمّى تشكّكية وعدمية. ومؤخراً سيعاقب على سلوك المثقفين النقدي ممّا يعني الترحيل إلى مستشفيات الأمراض العصبية: السوداوية بصفة كونها أختاً للطوباوية تلبث تحت الإقامة الجبرية في علبة خاضعة لحراسة صارمة للاشتراكية الشيوعية.

نساء في صحة جيدة وولودات، وشبّان ظرفاء ونظفاء، وكبار سنّ متأمّلون بمرح، ورجال جادّون ولكن محبّون للنشاط؛ كل هؤلاء يصوّرون مجتمعاً لا يجوز له أن يدرك حقيقة ذاته. تحت طلاء التجميل الإيديولوجي تفنى الحياة اليومية الاشتراكية في كآبة، وبيروقراطية تبرهن على وجودها من حركتها العبثية، إشارات الثورة هي جبس ما زال يتفتّت. تضيق اللغة لتصبح مصطلحاً وينقلب سلوكاً سوداوياً إلى الداخل، لأنّ كل تعبير نقدي يُعاقب عليه: لم يعد هناك تقدّم في سكون، بل سكون في تقدّم، وسيتحجّر عمّا قريب.

من كان على استعداد للتفكير في آلاف الشيوعيين، الذين لاقوا الموت تحت سلطة ستالين في يأس واستسلام، ومن يكون مستعداً في الوقت ذاته لتقدير ذلك الحجم من السوداوية الذي جثم على صدر كل الدول الشيوعية بعد احتلال تشيكوسلوفاكيا، فهو في حاجة إلى نوع آخر من نموذج دورير.

أقايـض الملاك المنتسـب إلـى زحل بـكل معانيه مقابـل امرأة اشتراكية، يُستشهد بها كثيراً. وبدلاً من الفرجار الحائر في ذاته تمسك بمطرقـة ومنجل. وعنـد قدميها تجمّعـت معروضات الثـورة: إصبع لينين المشـيرة إلى الأمام، وقبّعات البلشـفيين ذات الشـكل المشـابه للمعـول وبحجم نمـوذج الطـراد أورورا ونظارة تروتسـكي وتمثال كارل ماركـس النصفـي. لعل البيان الشـيوعي ـ صفحـة عنوان العدد الأول ـ يمثّـل مربّع الأعداد، ولعـلّ نموذج الجدلية لهيغل يجد مكاناً بدلاً من الجسـد الهندسـي، ولعلّ روح العالم في شـكل حصان هرم يزيح الكلب المهموم.

المرأة الاشـتراكية المستشهد بها كثيراً تسند رأسها هي الأخرى بقبضة يد مطبقة. وهي في الحقيقة تنظر من وجه مظلّل، ولكن حيثما نظرت لا ينفتح أي شـيء. أين تلاشت اشتراكيتها العفوية؟ هي اليوم تلـك التي ترتـدي قبعـة كبيرة قديمـة الطراز. ولـدت قبل مائـة عام. يحفّز عـام الاحتفاء بدورير واللوحة النحاسـية «السـوداوية الأولى» علـى تركيب صـورة لـروزا لوكسـمبورغ وعلى نشـر صحيفة أخرى «السوداوية الخامسة» بعد ثلاثة وأربعة خيارات.

وبعـد أربعمائـة وخمسـين عاماً من نشـأتها، وجدت سـوداوية الإنسـانية مثيلتها هناك، حيث أصبح الاستشـهاد بالإنسـانية ـ بوصفه جنوناً تهكمياً ـ قاعدة من الممكن توسيع بنائها. ولكن إلى أين نذهب بكيـروف وإلـى أين ببوخارين؟ مـن الممكن والسـهل ظهور جورج لـوكاش فـي الصورة بدلاً من السـيف المثلـوم. بتكبّر أحال فلاسـفة ومنظّريـن، لم تكن كآبتهم واستسـلامهم شـيئاً غريبـاً أو ممنوعاً إلى سـكن سـماه ـ وهو يرى أنه واثق من معرفته ـ «فنـدق الهاوية»، ومن العبـث ذكر كل المتجاهلين مع هيغل مروراً بشـوبينهاور وإرشـادهم إلى «فندق التكبّر» كمأوى.

1514: مـوت الأم، تاريـخ موتها في مربع الأعـداد. منذ دورير قلّما منحت السوداوية مرّة أخرى مكاناً بهذه البداهة وأثبتت أهميتها. يُنظر إلى عصر النهضة على أنه عصر اكتُشـف فيه الفرد ويُكتشف مرّة أخـرى. ولكـن الفرد مع تحريـره أعرب في الوقت ذاتـه عن حقّه في الكآبـة. ظلّ هذا الحق مثـاراً للجدل وضاع مرّة بعد أخرى، وسـوف يُطرح دائماً للتساؤل. وحيثما ظهرت السوداوية في صورة شبح فإنها أُلحقت بالعبقرية كخدعة محترفة. وإن دعي إلى البربرية بسبب حزن عبقـري وخوف فاتن فكان من الجائز لمثل هذه السـوداوية المضافة إلى الجنون الإبداعي أن تتوقّع تصفيق الجماليين. وصف «الحائرون الكبـار» الكآبـة كامتياز، لكن ندر وصفها بالشـرعية مـن حيث كونها سلوكاً اجتماعياً.

استـهجاناً أو بسـبب تعاطـف سـاميّ غالبـاً ما يوصف الشـعب اليهودي ـ إلا مواطني إسـرائيل ـ في وضع التشرّد بالسوداوية، وعلى أنهـا شـيء غريـزي، أو أنها مفروضة مـن القدر منذ تدمير يورشـاليم القـدس: وكأن مـوت الملاييـن في غـرف الغاز لم يكن سـوى عاقبة مأسوية للتشرّد.

أصبحت محرقة آوشفيتس متحفاً، وبات من المستساغ الاستشهاد بعبارة «عدم القدرة على الحزن» بشكل واسع. توافق التعوّد على إبادة الشـعوب مع الاسـتعداد المتعجّل لتنفيـذ جرائم النازيـة كغرور راهن وكخطيئـة غير منطقية وكشـيء غير معقول ويمكـن غفرانه. ربما منح السـلوك الصامت تعبيراً متأخراً لأحد السياسيين، الذي تحمّل العبء هنـاك حيـث كان يوجد الحي اليهودي في وارشـو، وجثـا على ركبتيه ومنح الاعتراف بالذنب. قد يكون الندم كوضع اجتماعي هو الطوباوية الملائمة، وهي تشترط سوداوية مصدرها المعرفة.

يملؤهم التوجس في التشتّت والتمزّق، الحرب والفوضى، يئس الإنسانيون من عجز معرفتهم وجهل السلطة العالمية، مدركين عجزهم لجأوا إلى سوداوية متحكّم بها شكلياً. وفي القرن التالي وطوال حرب الثلاثين عاماً، بقيت آثارها شاخصة، ووجدت لغة الباروك للمسرحية التراجيدية ـ أندرياس غريفيوس ـ وعالج شعر الباروك الألم ـ كفيرنوس كولمان ـ، ومن الاضطراب الفوضوي أصبح الأمل مبدأً. سمي مكانه وادي الأحزان، وبات هدفه الخلاص.

يجب ألاّ يقال هنا إن دورير ـ منحنياً على لوح النحاس ـ استطاع وأراد التنبّؤ بمثل هذا الكم من البؤس والعتمة. مثلنا اليوم رأى حدود زمنه ورأى شيئاً جديداً يظهر بلا شكل، فأقلقه قصور تفكيره وعجزه.

لا يستبعد بانوفسكي وزاكسل في عملهم حول «السوداوية الأولى» لدورير أن السلم المسند إلى المنزل في لوحة النحاس قد يكون إشارة إلى بناء جديد لم ينتهِ بعد، موقع بناء مهجور، إنه بناء هيكلي. في أثناء العمل طرأ ارتياب، فألغيت عدة العمل النافعة والحسابات الدقيقة والمثابرة المؤكدة؛ واستحالت تافهة فسئمت من ذاتها. لم يكن المنزل الذي يُشاد، سوى منصّة تمثال، سوى عمل غير مكتمل جارٍ العمل به، سوى خرائب قبل أن ينشأ.

مثل هذه الرؤية الحديثة التي سبقت بناء المدن اليوم وتصاميمه عالية الطوابق اكتسبت الطوباوية والسوداوية في بدء العصر الحديث. وهي موجودة في جميع أنظمتها. وبينما كنت أضع مخططاً لهذه الكلمة، وبقيت أداوم على ذلك في أثناء ترحالي، عرّفتني تجربتي الخاصة على سلوك جماعي سوداوي وعلى سير حياة مشبعة بالكآبة وعلى الغرف الخلفية الصغيرة الدافئة النتنة باستسلام. المرهقون

بالعمل بين دفَّتَيْ رحى العقل. وفي أثناء إلقاء حديثي دهمني هذا تلقائياً وبدرجة كافية قنوط جعل الحياة أكثر صعوبة عليّ. وهكذا التزمت الصمت خلال حديثي، وتوقفت حين وصفت أهدافاً جزئية بأنها قابلة للتحقيق. وهكذا كنت أعمل ـ ومثلي الكثير ـ من دون أجر في خدمة التنوير، ومكثت على الرغم من ذلك بلا حراك وسط حجج من الورق، محاطاً بنماذج إصلاح متناقضة، وسئماً من صراع الخبراء تحت جرس زجاجي: غائباً هنا.

أو بعدما ترهّلت اللغة من جراء الحديث عن نفسها وامتلأت بفقاعات الكلام، وبينما تطول النقاشات وتصوغ جوقاتُ الكلام المناشداتِ الطوباويةَ في قافية مزدوجة، وبمجرّد أن يطلعني السقوط المأسويِ للادعاء الثوري على أقصى درجة للاستسلام المحسوب سلفاً، إذ خرج هذا الخطاب في شكل مفردات في قاعات المدينة وقاعات المدرسة وصالات الاحتفال المختلفة. وليس هناك من مكان أكثر جلبة من هذه في الصراع السياسي لتلك الأيام، فقد طغت أصوات أنبياء الهدف النهائي «وجود مرضي» وأصوات المربين الناسكين على الرفض الكبير.

ولعلّ المرء يعد ذلك مزحة اجتماعية متأخرة إن استشهد أحد أتباع المذهبين ـ هنا الطوباوي الذي يستحضر الخلاص؛ وهناك السوداوي الجديد الذي ينصح بالرفض ـ بهربرت ماركوس نفسه. إنني أميل إلى قبول مثل هذا التفلسف المتناقض وحدةً متكاملة. وحتى إن فهم جمهور الشبّان في الغالب عرض ماركوس على أنه مزدوج ـ وكلٌ قد أخذ ما يناسبه ـ، فقد قام أحد العلماء للمرة الأولى بالجمع بين الكبيرين ـ فرويد وماركس ـ، وأدرك أن السوداوية والطوباوية متوافقتان، وسبب فوضى محفّزة من خلال إيجاد إجماع

ذي سلوك سوداوي وطوباوي من جدلية اليأس: الرفض الكبير يؤدّي إلى وجود مرضي.

وأتيح لمثل هذه الطوباوية الاستسلامية في تشابهها مع التصوّرات العلاجية الزاهدة أن تحصل على إقبال من كل الجهات، وزمننا يشجّع تشكيل الطوائف. مجاميع الشبّان التابعة للكنيسة وطائفة الانفراديين الباحثة وأبناء وبنات خجلين لفترة قصيرة من امتيازاتهم وأتباع مذهب المسالمة والهبييز ومحبّي الروك والمعارضين لحرب فيتنام وللانقلاب العسكري في اليونان ولغزو تشيكوسلوفاكيا والعدد الكبير للأتباع فاقدي الوجهة استلهموا من مذهب ماركوس ما ناسب حاجتهم الفردية والجماعية: الكثير من الرفض الكبير وجزء صغير من الوجود المرضي أو بالعكس. غالباً ما استعملت مكوّنات ماركوس فقط كملحقات فرعية في خدمة ما يجلب وحسب طبيعته، سواء كانت اشتراكية أم مسالمة، ذات مجاميع نشيطة أم شخصية متعلقة بالأنا.

إنها حركة تلقائية تحيا من ذاتها، وقد ساعدت إلى حين في تغيير ذلك المجتمع الذي أرادت التغلّب عليه وفضحه على أنه غير قابل للتغيير. وقع الوجود المرضي طيّ النسيان، على الرغم من استمرار الأصوات الداعية إليه، ودخلت الأفعال الثورية إلى لغة الدعاية لنظام الاستهلاك ذاك والذي كان من المفروض اتخاذها من خلال الرفض والاستغناء عن الاستهلاك، وتقلّصت الحركة. كما انضم عدد من المجموعات إلى الأحزاب، على حين حاولت أخرى الاستمرار في ميدان العمل الاجتماعي، وقامت الأقلية الراديكالية بدورها في إمكانات الانشقاق كلها في الاشتراكية.

بعد عام على تشتّت أوصال حركة الاحتجاج والرفض ذات

الأصل الاستسلامي ـ الطوباوي، سافرت إلى ستوكهولم كي أتفاوض هناك مع نقابيّين بشأن مشروع للتطوير السياسي، شاركت فيه النقابات السويدية واليوغسلافية وأخرى من ألمانيا الاتحادية. وعلى الرغم من بساطة الفكرة فإنها غاية في التعقيد، وسارت المفاوضات وفق التوقّعات والطموحات.

انتهزت النهار المشمس الذي تهبّ فيه ريح بحرية، في البحث عن مقعد في منتزه. ولما وجدته أتاح لي تأريخا سويدياً مندمجاً بحاضر سويدي، وحفنة من الإمكانات لأية مقارنة محتملة.

وتحت مجموعة من أشجار متلاصقة كانت قد زرعت كي تكون خلفية للنصب التذكاري لكارل الثاني عشر، جاس شبّان السويد من دون تكلّف حول كشك للوجبات السريعة. فتيات مشغولات بشعرهن، شيء مقدّس منقلب إلى داخله، فايكنجيون[1] يعزفون الناي، أنصار طوائف غير معروفة بالنسبة لي كانت تحمل إلى جانب تميمة الهنود الحمر شعاراً للحركة المعارضة للأسلحة الذرية. وبين هؤلاء أمهات وآباء سياح التقطوا باختصار جريء صوراً لكارل الثاني عشر وللشبّان كمعالم سواء كانوا من منشرحي الصدر أم من أولئك المكتئبين، كلّ على حدة لأن المسافة وارتفاع كارل الثاني عشر لا يسمحان أن يُزج تاريخ حروب السويد ومقطع من حاضر السويد السلمي في صورة واحدة.

---

(1) الفايكينج مصطلح يطلق في الغالب على ملاحي السفن والتجار والمحاربين الذين نشأوا في المناطق الاسكندينافية والذين هاجموا السواحل البريطانية والفرنسية وأجزاء أخرى من أوروبا ابتداءً من أواخر القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر (793م–1066م)، وتسمى بحقبة الفايكينج. والمقصود من استعمال التسمية هنا الإشارة إلى سكان المناطق الاسكندينافية عموماً. (المترجم).

دوّنت إضافة إلى هذا مشاهداتي وخواطري، وما فهم على أنه ارتباط وتناقض، بغضّ النظر عن عرض الصورة الضيق: الخطوات الحذرة لحافي القدمين الذي يسير على الحصى، سلاسل الحديد حول قاعدة الجرانيت المحيطة بالتمثال، وطاقيات السبت اليهودي وعصابات الجبين والعباءات، التي يضعها الهنود الحمر، الرياح في شَعر شماليّ وموسيقى الناي المنطلقة الباعثة على التأمل. الرقص الفردي الناعس لفتاة مائلة للسمنة.

دوّنت بإيجاز كيف يشير كارل الثاني عشر بذراع طويلة جداً صوب الشرق، النوارس المنفعلة، الحركة السارحة وجلبتها، ولفافة التبغ المخلوط بالحشيش، إشارات حب لعوب ومنقض في الضوء تحت الأشجار. وفي الخلف الكنيسة الحمراء مثل دم الثور. شخص بقميص طويل أبيض يرى معجزات خلال زجاج نظارات مستديرة ويقود عنزة بيضاء.

وأيضاً بعض الكلمات: بولتافا[1]، عصير البرتقال، تنكر، زهر سن الأسد، قاعة فريدريش، حزن يعلق في الهواء الطلق، نرجسية، شامبو. وشاهدت: قوة وعجزاً سارحين في فقاعة هواء. انتظار مسيح لا شكل له، كتيّباً عن ماو وكتباً قديمة للأدعية، حشداً معقّداً لدورير في جوّ جميل.

وأدركت سبب المرح المتزامن: أطلق زحل سراح أطفاله من التاريخ، لأن هذه اللاتاريخية عند أقدام التمثال ـ والتي تُشاهد في ستوكهولم ويُعثر عليها في أماكن أخرى ـ هي تعبير سوداوي عن الهروب الطوباوي من الحقيقة. متى وقعت معركة نارفا؟ حول أي شيء دارت الحرب الشمالية؟ ماذا فعل كارل الثاني عشر في تركيا؟

---

(1) مدينة تقع في وسط أوكرانيا على نهر فورسكلا. (المترجم).

ليس هناك المزيد من البيانات. وليس هناك سرد للوقائع، إنه تاريخ بلا عواقب.

لو تمّ تصوير السوداوية حسب نموذج ستوكهولم، لما كان ثمة وجود لتاريخ مع إفرازاته. مُحاط بالعروض الاستهلاكية المكدسة و بالفائض المعلب والموضوع في زجاجات لا تُستعمل إلا مرة واحدة وفي أكياس حفظ الأغذية، قد يجلس التاريخ في ثلاّجة: اشمئزاز وملل قد يمنحانه معالمه. في يده اليمنى التي كفّت عن كل نشاط كان يمسك بمفتاح للعلب.

عرض دون طلب. منطقة يرسم أفقها جبالاً من الزبدة وجبالاً من الخنازير، أكوام من سيارات مصنعة حديثاً وأجهزة تلفاز من دون صورة. الاضطرار إلى إنتاج مرتفع ومعدل النمو الذي يزداد من مبدأ الإنجاز إلى الطوباوية، عملا على تمرين السوداوية لتتمكّن من السلوك بطريقة مناسبة. تجلس فتاة، ليست متخمة بل رافضة الطعام الرديء والأكثر رداءة، نحيلة، وربما منتزعة بسبب جوع الرغبة الأخيرة. وهي متخلية أيضاً عن كل هنيهة وعن الحب وحالاته المتبدّلة وعن الفضول والموضة أيضاً. رداؤها مصمّم على شكل أثواب الرهبان: خطوط خشنة. تقشّف كإلغاء للسوداوية فقط يمكن أن يسهّل عليها إدراك طوباوية جديدة: وجود مرضى بالصرامة والنظام.

ولكننا نعرف مسبقاً مثل هذا النظام. وكتيّبات الرذائل لأتباع المذهب الديني التطهيري وصرامتهم العائدة إلى التوراة والستالينية معروفة. والسعادة معروفة أيضاً بكونها أمراً. ومعروف تأثير الكلمة الحاكمة «الروح الانهزامي». وكما تجمّدت البورجوازية في السابق في أنظمة إقطاعية ـ مستبدّة تجمّدت أيضاً في عدم إمكانية استبدالها،

وأصبحت هاربة من العالم بسبب الملل، فإن عدم إمكانية استبدالها تثقل كاهل دول مركزية اشتراكية ومجتمعات، وهي تنتج استسلاماً، وتقشّفاً ورفضاً.

تكلّمت عن السلوك الاستهلاكي الإجباري في أنظمة رأسمالية غربية وعن عواقبه: اشمئزاز وسأم. الشاب المبتهج في الصور ومن دول متشابهة إيديولوجياً لا يعرف سأماً آخر. وهو قد نشأ على واجب تلزم تأديته للاصطلاحية الثورية، وعلى إرادة منقادة ومسلوبة القرار، وعلى اشتراكية مفروضة يناسبها مصطلح الحرية زخرفاً للسفسطة الكلامية فقط. وكما صاغ زحل في السابق أطفاله سرحت الثورة كذلك أطفالها: موسومين بالسوداوية.

الفوز بصداقة في وقت متأخر على سبيل المثال. في الحقيقة طبيعة متفائلة مبدئياً تتاجر في سكسونيا من دون كلل: وغنية على الدوام بالمشاريع. ولكن سيرة حياته تناقض المظهر. وبعد سلسلة بيانات مستقيمة ـ ماركسي شاب، شيوعي، مهاجر شيوعي، بعد ذلك رئيس تحرير لدى راديو ألمانيا في برلين الشرقية ـ يحدث الشقاق في بداية الخمسينيات. وبالتزامن مع المحاكمات الدعائية في بودابست وبراغ تريد جمهورية ألمانيا الديمقراطية أيضاً أن يكون لها محاكمة دعائية. فيُتهم ليو باور ـ مثل رايك وغيره، ومثل سلانسكي وغيره ـ بممارسة التجسّس والخيانة العظمى والتعاون مع المخابرات الأميركية. وتُنتزَع اعترافات جزئية بطرائق تدعو للمقارنة مع أساليب فاشية. وبعد سجن انفرادي دام مدة طويلة وحكم وترحيل إلى سيبيريا، يُطلق سراحه قبل الأوان في منتصف الخمسينيات: منبوذاً من الشيوعية بلا رجعة وبصحة متدهورة. يعيش في جمهورية ألمانيا الاتحادية. شخص يجب عليه تحمل سخرية مدّعي المعرفة وتسامح المثاليين وطوفان الافتراءات والعقلية المجادلة.

وليســت هذه أيضاً حالة نادرة، سيرة حياة تشبه الآلاف. يتحول بـاور في ما بعد إلى ديمقراطي اشــتراكي قَيْدَ الاســتغناء عن الإيمان. صاغه كره تجاه من فقدهم ونذالة خصوم سياسيين، وكذلك الارتياب بالرفقاء الجدد قد يتوجّب عليه في الحقيقة الاستسلام والانسحاب. لكن إرادة كالتي منحه إياها المنكسرون مرّات مضاعفة والمحكومون بالموت والمدركون ذنبهم من جراء ذاتي، جعلته ينشــط على الدوام وإن لــم تجعله يعيش على نحو صحيح. وما إن يصبح الوقت متأخراً ويُقال كل شــيء ويوشــك العمل الشــاق اليومي غير المثمر أن يُنجز، حتـى يصـاب صديقي بالجمـود. غائبـاً على نحو غريـب يجلس في حلقة بائعين متعبين أيضاً ولكنهم ما زالوا حاضرين في فضولهم إزاء المعلومات ولهم معرفة بدقائق السياســة، ثم يســقط منه ما يبقي على إرادته، وكأنه يســمع الصوت الشخصي للزمن، وكأنه اتخذ مأوى في الفــراغ. لا يتعلّــق بصره بأي مــكان. يتظلّل وجهه بلــون رمادي. وأنا أعــرف أن أعضاء زحل المفضّلة، الأحشــاء التي تُــؤكل مثل الطحال والكبد والمرارة، التي لم يُلغ ســجنها الســيبيري وأصعب من ذلك ما ينفذ: كلمة «عبثاً» مصوغة في رصاص ثقيل. اشــمئزاز بعد آخر وقبل معرفة جديدة. تبدو العدالة للاشتراكي مريبة وواهية ومخالفة للمنطق ـ كالهندسة بالنسبة لأتباع المذهب الإنساني.

حين صمّم ألبريشــت دورير لوحته النحاســية «سوداوية» وضع مخططـاً للكآبـة الجاثمـة حسـب صـورة زوجتـه أغنس المشــاغبة. وطغت أيضاً نســخة مخطّط الكلب النائــم. أرى فيه صديقي ليو باور وهــو في مــا بعد، وبعد أن تكون آخر الطوباويـات قد أطفأت مصباح غرفـة النوم، وتزحـف الكآبة في اللوحة: أصبـح كئيباً بعد محاولات كثيرة مثل هذه.

ولكـن كيـف يحـدث أن يسـتمر ليـو باور فـي محاولاتـه حتى الاستسلام؟ كيف يحدث أن كثيرين ممن التقيت بهم والذين يعرفون مثلـي توقـف التقدم، يبدأون دومـاً مرة أخرى ويلغـون وزنهم الثقيل كالرصـاص ويقطعون عن الصخور المتفتّتـة الجاثمة مثل زحل تلك الإشارة التي تقدم لنا أضواء طوباوية؟

بينما ألّفت كتاباً لأطفالي وأطفال أناس آخرين يقاس فيه التقدم تبعـاً لمقياس الحلزون، وصفت فيه في الوقـت ذاته ما يحمل النفس مشقة كبيرة. أتحدث لأجل الكآبة. تركتها في تنوّعات هذا العصر كي تبـدو لنا مادية لا غريبة ولا مريبة. وحـده الذي يعرف ويراعي توقّف التقدّم ومن يتخلّى مـرّة وعدّة مرات، ومن جلس على قوقعة حلزون وسكن جانب الظل في الطوباوية، يستطيع أن يقيس حجم التقدّم.

## مذكرات سياسية: السابقون

**تموز/ يوليو 1971**

كانوا حاضرين. ففي الوضع الصعب كان يجب عليهم أن يظهروا كفاءتهم. وتمكّن كثير منهم من تحقيق ذلك في الخارج: إنهم السابقون ويلتقون كسابقين. ونحن لا نتحدث هنا عن نادي محاربين قدامى بملقى دوري ورايته، بل عن المساعدين التنمويين السابقين. يعيش هناك زهاء الألف وخمسمائة منهم موزّعين على الولايات الألمانية وبرلين الغربية: شريحة هامشية لا أكثر، تلتقي في المناسبات بشكل غير منظّم. وكان لقاؤهم مؤخراً في مدينة بريمن. فقد دعت الهيئة الألمانية للمساعدات التنموية للتباحث، زهاء ألف وخمسمائة شاب وشابة، ممّن عملوا مساعدين في مجال التنمية في بلدان أميركا اللاتينية. على مدى ساعتين أتيحت الفرصة للتعرّف على مشكلات السابقين. انطباعات منقسمة، فمن الغريب أن نفكّر لأوّل وهلة أن هؤلاء الشباب قاموا ببناء مدارس في بوليفيا وتشيلي وقاسوا أبعاد الأرض خبراء في الجمعيات الزراعية، أو عملوا مدرّبين حرفيين في المناطق الفقيرة، ولكنهم يبدون غير مؤثّرين في بلدهم وتكتنفهم الحيرة. ويبدو الأشخاص المحترفون، الذين كان عليهم أن يصمدوا في وجه المصاعب الكبيرة كل يوم، كما لو كانوا من دون

مبادرة تذكر (غير قادرين على أن يتولّوا تنظيم أمورهم بأنفسهم)، أو مشتركين في القضايا الخلافية اليومية المعتادة والمستنزفة لطاقاتهم. في الخارج كانوا أقوياء ومعرّضين للكثير من المقاومة، وهم اليوم من حيث كونهم عائدين إلى الوطن على أهبة الاستعداد للاستسلام في وجه المصاعب التي يجدونها أمامهم. في البدء، وبعد عودتهم مباشرة، يمكن أن يستطيعوا تجاوز ذلك. ويروي أحدهم في دائرة معارفه معايشاته ومغامراته حتى يتوقّف اهتمام الأصدقاء ويصابون بالملل، فالحديث الذي يوقظ السعادة يكون أكثر متعة. ويبدو المرء فيه غير متفهّم ومنعدم القيمة، الكثير من الخبرة غير المستغلّة والطاقة المهدورة. فهناك الكثير من النقص في تلك المهام الملموسة المتوفرة في كل مكان كما يزعم.

صحيح أن الهيئة الألمانية للمساعدات التنموية حاولت مراراً التوسّط في جمع المساعدين التنمويين، ولكن بسبب النقص في المهام الملموسة لا يريد هؤلاء التنظيم المؤسساتي، خشية من أن يكونوا اتحاداً زائداً فحسب. (الخوف من الملتقى الدوري الذي لا يمكن الفرار منه، وحضور أمسيات عرض الصور والاستماع إلى الخطب كهدف في ذاته، والجلوس أمام الذكريات المؤلمة حين يقول أحدهم: هل ما زلت تتذكر، حين...).

يعود الكثيرون من السابقين بخيبات الأمل. فما وجدوه في أميركا اللاتينية لم يناسب حجم توقّعاتهم. كما أن هناك بعض المساعدين التنمويين الذين تحطّمت مثاليتهم الألمانية الواردة معهم على جدار الواقع بقسوة، لدرجة أنهم عادوا إلى بلدهم رجعيين كباراً محمّلين بكراهية عنصرية. وقد يقول بعضهم: «الهنود الحمر في أميركا الوسطى والجنوبية أغبياء وسيبقون أغبياء وكسولين ولا

يغتسلون». والبعض الآخر تحوّلت خيبة الأمل المتعلّقة بالتصوّرات المثالية للمساعدة (فالشخصية الألمانية ترى أن على العالم أن يتعافى) إلى نوع آخر من التشدد: في البدء يجب أن يتم تغيير الظروف السائدة في أوروبا وأميركا اللاتينية بشكل جذري من خلال ثورة، فالمساعدة التنموية ليست أكثر من خداع للذات والآخرين. (في البدء يجب التهديم ثم البناء من جديد). لكن أغلبية السابقين ترغب في مواصلة العمل، الذي تمّ البدء به هناك، في بلدهم، لكنهم لا يعرفون كيف. وهناك في الخارج كان كل شيء واسعاً وقابلاً للتفكير مراراً، بل وممكناً أيضاً. أما في بلدهم فيصبح كل شيء ضيّقاً وما من أحد يستمع، ويبقى كل شي غير ملزم.

تحدثت مراراً إلى المساعدين التنمويين السابقين. ولأني أشاركهم في جزء من تحفّظاتهم، يصبح من الصعب حتى تقديم نصيحة أو مقترحات. (ما هي قيمة المقترحات؟). على الرغم من ذلك كان الحديث في بريمن عن مهمة أراها مجدية وقابلة للتنفيذ: وهي تعاون المساعدين التنمويين السابقين في إعداد كتاب مدرسي ضروري.

أنطلق من أنه ما زالت هناك كتب تاريخ وجغرافيا معتمدة، لا يتم التطرّق فيها إلى مشكلات العالم الثالث وإشكالية السياسة التنموية بتاتاً أو إلا على الهامش. فنحن ينقصنا كتاب يمكنه أن يكون مادة تعليمية للمجالات المذكورة التي ما زالت تُتجاهل مع معرفة أهميتها. أليس من الصحيح أن يُعدّ كتاب تعليمي بمشاركة المساعدين التنمويين السابقين، كي يقدّموا فيه خبراتهم المكتسبة في الخارج؟ يجب تغيير التقارير عن المحاولات القاصرة والأوضاع التي وجدوها أمامهم، فالتصوّرات الواقعية عن النجاحات الجزئية

والإخفاقات وعن النجاحات النظرية الأولية، التي سرعان ما يتم طمسها، وعن المساعدة الحقيقية، تبقى غير معروفة للجميع ـ بسبب كونها غير اعتيادية. ويمكن أن تصبح الإحصائيات المملّة والباعثة على الضجر غنيّة بالعلم في خلال هذه التقارير التي تنطوي على خبرة كبيرة.

في بريمن يتوازن الاهتمام والتشكك: «هل هناك ناشر لهذا العمل؟ ومن يجب أن يموّله؟ فهذا المشروع سيخفق بالتأكيد قبل أن تتم طباعته. وأي وزير معارف في أي ولاية ألمانية سيكون مستعداً لدعم مثل هذا الكتاب التعليمي؟».

وبدت خشية غريبة من خوض تلك المغامرة، وأصبحت تلك الحجج المتعلّقة بضرورة الحماية بحاجة إلى الأمن، ما زلنا نجرّرها منذ وقت المستشار الألماني الأسبق آيدناور. فأما أن يُنعت الكتاب المدرسي، الذي تم اقتراحه فقط، بالتفاهة الكبيرة أو بمهمة جبارة لا يمكن القيام بها، ويتم تناسيه من خلال الاقتراحات المضادة، وفي ما بعد يُهال عليه التراب من جديد ويطرح عبثاً. علينا التعاون مع المعلّمين والمختصّين في المعاهد التربوية العليا، وعلينا أن ندرس بدقة في ما إذا كان مثل هذا الأمر يستحق المحاولة. ويُعدّ هذا الموضوع من الأمور المهمّة، لكن ليس باستطاعتنا تغيير شيء من هذا. على كل حال، فالاقتراح يتّسم بالعملية، ولننتظر ما يحدث.

توصف مثل هذه الأحاديث عموماً بالنافعة. والفائدة يجب أن تعمّ حتى في الحديث نفسه. وقد يرى البعض أن هذا غير كافٍ، فحين يرغب المساعدون التنمويون السابقون في تنظيم أنفسهم في مؤسسة تعاونية وليس في نادٍ للمحاربين القدامى، عليهم حينئذٍ أن يواجهوا مهام حقيقية. وأجد أنّ من هذه المهام تأليف كتاب مدرسي في موضوع السياسة التنموية، يكون في الوقت نفسه كتاباً للمطالعة.

# عن حرية رأي الفنان في مجتمعنا

**خطبة أُلقيت في ندوة للمجلس الأوروبي**
**في فلورنس في حزيران/يونيو 1973**

سيداتي سادتي!

ينظّم مجلس أوروبا[1] ولجنته للثقافة والتربية ندوة، اختارت للنقاش موضوعاً واسعاً ومغرياً للنداءات المجانية، وهو موضوع حرية الرأي ووضع الفنان في مجتمعنا. أشكركم لدعوتي إلى هذه الندوة. لديكم الحق في أن تتوقّعوا معرفة رأيي الشخصي حول هذا الموضوع. فهذا الموضوع يهمّني بصورة شخصية كثيراً، فلا أجد بُدّاً من الخوض فيه لأمثّل أولئك الفنانين، سواء كانوا في اليونان أو

(1) مجلس أوروبا هو منظمة دولية مكوّنة من 47 دولة أوروبية، تأسست في عام 1949. ويتخذ المجلس، الذي تأسس في 5 أيار/ مايو 1949، من مدينة ستراسبورغ على الحدود الفرنسية الألمانية مقراً له. عقد أول اجتماع له في جامعة ستراسبورغ. لاحقاً، أصبح قصر أوروبا (Palais de l'Europe) المقر الرئيس للمجلس. والعضوية في المجلس مفتوحة لجميع دول أوروبا الديمقراطية التي تقبل قانون القضاء والتي تضمن حقوق الإنسان والحريات لجميع المواطنين. من أبرز إنجازات المجلس: الميثاق الأوروبي لحقوق الإنسان في عام 1950 والذي يمثّل أساس المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان. وهذا المجلس يشكّل منظمة منفصلة وليس جزءاً من الاتحاد الأوروبي، مع ملاحظة أنه مختلف عن مجلس الاتحاد الأوروبي والمجلس الأوروبي. (المترجم)

تشيكوسلوفاكيا أو غيرهما من البلدان. أولئك الفنانين، الذين حرموا من حريتهم في الرأي أو الذين قيّدت حركتهم على حجم أصابعهم. وأرى أني أشعر بتشكّكهم الفاتر، حين يدور الحديث هنا في أجواء المؤتمر المريحة عن الحقائق المعروفة لكل الأطراف.

ولأن المهمة المرمية على عاتقي سياسية في البدء، ولأن الفنانين في كل دول أوروبا ـ شاؤوا أم أبوا ـ يرون أنفسهم في مواجهة ظروف سياسية تفرض عليهم التبعية، أريد أن أصف لكم في البدء موقفي السياسي غير الثابت من الناحية الإيديولوجية.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، مثقلاً بذنب نتائج السياسة الألمانية، كان عليَّ أن أعرف خلال عملي كاتباً أن وظيفة الفنان الإبداعية، كما يُدعى، ليست سوى ضرب من الخيال. نعم، إن الفنان، مهما يكن الفن الذي يتبعه، يطبّق عليه المعيار نفسه الذي يطبّقه هو على مجتمعه ويوضع في الإطار نفسه، الذي يرى فيه مجتمعه: طفلاً مدلّلاً أو ربيباً أو طفلاً غير شرعي، تبنّته الدولة إلا أنه نتاج المجتمع ووليد زمانه. وهكذا بات من المفهوم عندي ضرورة القيام ـ إلى جانب عملي على طاولة الكتابة ـ ببعض النشاط السياسي، الذي أعده التزاماً ينبع من كوني مواطناً.

الفنّان كمواطن؟ أليس هذا تناقضاً في ذاته؟ هل يعادي دور الفنان المواطنة وكذلك هو ثابت من الناحية الإيديولوجية؟ أو هل تستطيع غاية اجتماعية-سياسية ما، تعتبر المواطن بالغاً ـ وهي نيّتي أيضاً ـ أن تستبعد الفنان، وتضعه في قفص لأسباب نابعة من التسامح، تُعرض فيه عبقرية القرن التاسع عشر، كي لا يتوجّب على المواطن أن يتخلّص من خوفه؟

قلت منذ قليل إنني كاتب، إلا أنني مواطن في الوقت نفسه،

لذلك لم أقصر نشاطي السياسي على التأليف الرخيص أو توقيع القرارات، بل أحتكّ ـ وغالباً حتى الانصهار ـ بالواقع اليومي السياسي وتغيّراته. غير مهزوم من أي عقيدة، ومن دون النطق بخطة نجاة، قرّرت بعد دراسة واقعية لكل الخيارات أن أدعم الحزب الاشتراكي الديمقراطي. وتبعاً لذلك اخترت الطريق البرلماني البطيء، والحقّ بالمعارضة غير القابل للمساومة، وتعاملت من معرفتي بعدم وجود حقيقة واحدة وواقع واحد فحسب، بل هناك أكثر من حقيقة وأكثر من واقع ـ وكثرتها تجعلها نسبية ـ مرغمة على التنازع بينها وعلى تسامح بعضها إزاء البعض الآخر.

لم يستبعد مثلُ هذا الرأي الليبرالي أن يثبت خلال النشاط السياسي لسنوات طويلة رأياً آخر يقول إن الاشتراكية الديمقراطية قد تكون قادرة بجدارة على حصول الإنسان على تلك الوفرة من العدالة الاجتماعية وتلك الضمانة القانونية لحصول تطوّر حرّ ومتساوٍ في الفرص، تلك الوفرة التي حُرم منها الإنسان حتى الآن من قبل الأنظمة المتسلّطة، سواء كانت بصبغة رأسمالية خاصة في الغرب، أو شيوعية تلتزم رأسمالية الدولة.

لذلك قد يكون من نافل القول أن أذكر: إن حرية الفنون ممكنة فقط، حيث تحترم حقوق الإنسان الشخصية والاجتماعية. وحيثما تُشترى حرية الفن النسبية أو الوضع المميّز للكاتب، من خلال تخلّص الفنان من الأوضاع الاجتماعية، التي تُعدّ عادة أوضاعاً سيّئة كامنة. في كل هذه الأماكن ينعزل الكتّاب كنخبة، ويكتفون بحرّية على قدر ساحة اللعب الصغيرة، ويزوّق فنهم، بشكل أعمى ومتستّر، الأوضاع الإجبارية، ويكون الفنان حينها عاهرة للقوى المتبدّلة.

يمكن أن تكونوا قد لاحظتم أنني أستطيع هنا أن أقوم بجدال حرّ، وليس في نيّتي أن أؤطّر الصورة النمطية «للغرب الحر» بالزخارف.

فالأوضاع في غرب أوروبا لا تسـمح بالإشارة بالأصبع المجرّدة إلى استعباد وتقييد الفنون والفنانين في البلدان الشـيوعية من دون تأنيب مسبق. فالدكتاتورية تسيطر على إسبانيا والبرتغال واليونان. وفي هذه البلـدان يعتبر تعذيب الخصوم السياسـيين ممارسـة يوميـة. بل حتى فـي دول غربية أخرى، تضمن دسـاتيرها حرّية الـرأي، تخالف واقع الدسـتور. وفي فرنسا وإيطاليا يخضع التلفزيون لرقابة الدولة، أما في جمهورية ألمانيا الاتحادية فما زالت مجموعة شبرينغر للنشر تحتكر سـوق الصحف. إضافة إلى ذلك فإن سـلطة الاقتصاد في كل الدول الأوروبية قادرة على التأثير أحادياً على ما يُسمّى بالصحف المستقلة مـن خلال منح الإعلانات وإيقافها. يـدلّ تركيز رأس المال واحتكار المجموعات الكبرى بشـكل متزايد على عجـز البرلمانات المنتخبة بشكل حرّ، وسبب ذلك هو إلغاء الرقابة الديمقراطية الكافية.

صحيح أن هذه الحرية النسـبية التي رسمت خطوطها العريضة، أو الاسـتبداد كذلـك، فـي البلـدان التي تتمتّـع بحكـم ديمقراطي قد ترقى إلى مسـتوى التحمّل، لكنها لا تسـمح، بشـكل متجبّر ويناقض الاسـتبداد الواضح في الشـرق، بالحديث عن حرية الرأي في الدول الغربية. فالممارسـة اليومية في بلدان الكتلة الشرقية والتقييد الملتزم خـط الحـزب المفروض علـى الفـن والوصايـة والوظيفية السـفيهة الواجبـة على الفنانين تُعدّ في الغرب خطـراً كامناً على الأقل. إضافة إلى ذلك فإن تعايش الإيديولوجيات والبنى السـلطوية ـ بشكل أسرع وأكثـر تأثيـراً من أي مجـال آخر ـ تم في مجـال المصالح الاقتصادية ـ السياسـية من خلال سياسـة التهدئة. أي بمعنى آخر، إن الرأسمالية الغربيـة الخاصة تتعامل مع رأسـمالية الدولة الشـيوعية بسـرعة أكبر مـن إمكانية إكثـار الحديث عن موضوع «تبـادل المعلومات من دون قيود» في مجاميع العمل في هيلسنكي. نعم، فمن أجل أن لا تتعرّض

المصالـح الشـرقية-الغربية الكبيرة للخطر، سـيكون المـرء على أتم الاستعداد لغض النظر عن القضايا المتعلقة بـ«حرية الرأي». ويمكن أن يرغـب الخـط المترنيخي[1] الجاثـم على جميع الهيئات الشـرقية والغربيـة على حد سـواء فـي دعم تطـوّر أوروبي، قد يكـون اتجاهه موالياً لنظام الدولة وتطبيقه مرتبطاً بالدولة البوليسية، لضرورة أن يعمّ الهدوء في أوقات التهدئة.

وكـم هي واسـعة الانتشـار حرفة التقييـد. غريبـة ولا تخلو من السـخرية أرى تلك الحقيقة التي تتقبـل المراجعة، تلك الحقيقة التي تقول إنه حيثما تستعمل كلمة «إنسانية» بمعناها الصحيح أو المشوّه، في الشـرق أو الغرب، يرغب التثقيـف الإيديولوجي في حرمان الفن والفنانين من حق التنوّع والميل إلى المعارضة. وسـواء كان الغرض من ذلك حماية القيم الأساسية للغرب المسيحي أو للعقيدة الشيوعية المحضـة من العناصر الهدامة ـ الانحـلال والعدمية ـ، أو كان معاقبة الكاتـب سولجينيتسـين فـي الاتحـاد السـوفياتي، أو دعـم الفنانيـن وبعـض الفنـون في فرنسـا بشـروط معيّنة، فـإن مفردة إنسـانية يجب أن تقـف جامـدة وأن تلتـزم التعصّـب من خـلال هراء بشـع. إذا كان لكلمـات مثل «تربة» و«إنسـاني» و«دعابة»[2] الأصل نفسـه في اللغة الألمانيـة وتدلّ علـى الرطوبة الباعثـة للحياة، فإن التطبيق السياسـي لذلـك المطلـب، الذي ما زال قائمـاً حتى اليـوم، والمتأتّي من حركة النهضة الأوروبية يشيع أن الحديث يدور عن الإنسانية، عندما تغرس الجديـة الإدارية قراراتها الجافة فـي أرض رخوة. وليس الفنانون في

(1) نسـبة إلى السياسي النمسـاوي كليمنز فينتسـل لوتار فون ميترنيخ (1773 – 1859). (المترجم).

(2) بالألمانيـة Humus و human و Humor، وهـذه الكلمـات الثـلاث متأتّية من الجذر اللاتيني homo أي إنسان. (المترجم).

دول الكتلة الشرقية فحسب، بل وفي الغرب كذلك، هم الذين لديهم سبب للخوف أو تقديم الاعتراضات المشوبة بالسخرية، عندما يُساء استغلال مفهوم «الإنسانية»، حتى لو كان شبيهاً بادعاء وزير الثقافة الفرنسي المتشدّق، الذي يرغب في تعليم الفن والفنانين: السيد بامبيو صاحب نزعة إنسانية حقّة. وبسبب أن التلقين الكبير بسخافته لم يصدر عن وزير من النوع السلطوي المعتاد إلى جانب تصريحات رقابية أخرى، بل من كاتب معروف بصفته وزيراً يريد أن يعلّم الفن والفنانين التعصبَ، لهذا أريد أن أبحث هنا، في ما إذا كانت الإساءة إلى حرية الرأي هي: أ) من أجل الدولة. ب) لمصالح اقتصادية بحتة. ج) من أجل تشجيع ضيّق الأفق الكُنسي الإكليريكي الملتزم أو ذلك الحزبي، أو في ما إذا كان الفنانون يمارسون التعصب لمصلحة إيديولوجية الفن حصراً. يوضح مثلي الفرنسي، الذي سقته الآن، أنني لا أومن بالجدول التعليمي الواضح، الذي يرغب في القول إن عشاق الحرية من الفنانين، متحدين بتسامح منسجم، يواجهون بشكل منفصل تماماً القوى الشريرة والمقيدة للحريات، سواء ارتبطت بالدولة أم بالاقتصاد.

حين ولّى الكاتب الإنجليزي جورج أورويل ظهره للحرب الأهلية في إسبانيا، وقفل عائداً برغبته إلى وطنه إنجلترا، تجاهله وقاطعه الكثير من الكتّاب، بل وحتى ناشره. وكذلك الهجمات غير الأخلاقية على الكاتب الروسي ألكسندر سولجينيتسين، كانت صادرة من كتّاب سوفيات. أما الشاعر والمغني فولف بيرمان فقد تمّ تجاهله في جمهورية ألمانيا الديمقراطية من قبل كبار الكتّاب الانتهازيين - سواء كان اسمهم كانط أم هاكس. لقد أثبت الشاعر الألماني غوتفريد بين في كتابه «الدولة الجديدة والمفكرون» بصورة قطعية أنه حتى الفاشية تستطيع إيجاد مظهر فكري لها، وحتى تحامل شخص مثل

يوزيف غوبلز على الثقافة والمفكرين تجسّد في مقالات، لم تستطع أن تخفي قدرة الكاتب الفكرية. لم يكن الكثير من الاتجاهات الفنية، كالمستقبلية الإيطالية على سبيل المثال، سائرة بسبب تعصّبها في ركب الأفكار الشمولية، بل وممهّدة لها أيضاً.

بمعنى آخر: إن التناقض المحبوب في كل مكان بين الفكر والسلطة ليس قاطعاً. فطالما أثبت الفكر وممثلوه بما فيه الكفاية قدرتهم على الحدّ من حرية الرأي في مجال الفنون بشكل تلقائي وقدرتهم على المساعدة في ميادين السياسة بصورة حصرية عدة مرات. وقد نخلص هنا إلى نتيجة متضاربة: غالباً ما كان على السياسيين من أصحاب التفكير الديمقراطي أن يأمروا فنانين متخاصمين بشكل متسامح وورثة فكر باحترام حرية الرأي وبالتسامح.

ومن أجل توضيح هذه المتناقضات نقول: إن حركة التنوير الأوروبية كانت هي مَن وَلَّدَ تلك الأفكار في القرن الثامن عشر، تلك الأفكار، التي تطالبنا حتى اليوم بوصفها إيديولوجيات بالاشتراكية والليبرالية وحتى الرأسمالية. إن حركة التنوير صاغت في الوقت نفسه مفهوم التسامح، إلا أنها أثبتت منذ البدء عدم تسامحها، على نقيض الأفكار، التي كانت تنادي بها. ومن يكُ على استعداد لقبول ميشيل دي مونتين كأب للتنوير الأوروبي، فيجب أن يضحك اليوم من نفسه ويرى كيف يصفه أولاده بالجنون ويلحقون به سُبّة الرجعية. ولكن علينا ألا نتجاهل أن الولادة المزدوجة للتسامح والتعصب في بواكير حركة التنوير الأوروبية ما زالت تشيع تناقضاً حتى يومنا هذا: ودائماً بلهجة تنويرية، وأحياناً بنهاية دموية. وسواء في وقت الثورة الفرنسية حين أسدت المقصلة جميلاً إلى التقدّم والفضيلة الثورية، أم اليوم بعد أن بات أسلوب عمليات التصفية الستالينية مستهلكاً، من

خلال إيداع الفنانين والعلماء غير المرغوب فيهم المصحّحات النفسية المغلقة، فإن كل هذا يعود إلى لغة التنوير المتآمرة على الحريات، وما زالت هي التي تحدّ من حقوق الإنسان الضرورية ليومه باسم الحرية المطلقة وتغرس الظلم في طريق العدالة الكبير، باستمرار وبلا ملل.

ولا يقول التنوير كل ذلك بكراهية بل من أجل التوعية. وليس هناك ما ينصّ على أن الفنانين والمفكّرين أناس أفضل أو حتى أكثر تسامحاً من الآخرين وما من علم أثبت ذلك، فهم ليسوا سوى مواطنين موهوبين عملياً.

متوصّلاً إلى نتيجة مغايرة أقول: إن أثبتت تقارير الصحف والمجلات أن الرسام بيكاسو كان أباً بائساً وقاسي القلب فإن لوحاته التي تصوّر الأطفال، لا تفقد بذلك شيئاً من قيمتها التعبيرية. قد نقرأ في المنشورات ومطبوعات المعارض ومقدّماتها، التي تحول الصراعات الموجهة إلى الفنانين بشكل معاكس إلى رطانة إيديولوجية، وحين نقارنها بالكتب التثقيفية للأحزاب المنفردة بالسلطة في بعض الدول أو مع الكتابات الدينية للكنائس ذات السلطة، التي لا ينازعها فيها أحد، نرى أن التعصّب ليس له لغة واحدة مجمع عليها وترتبط بالمسلك القاسي وغير المتسامح، بل اتخذ لغة متقاربة.

إن المناداة بحرية الرأي، وهذا ما أقوم به الآن، تعني المناداة بالتنوّع، وحماية الثوران التجديفي اليائس، وتحمّل الهراء الذي يزدهر في كل وقت، والسماح بظهور التشكّك الهدّام بشكل ضروري في كل وقت وفي كل مكان، حتى في الأماكن التي يشيع فيها أن يظهر الإيمان كمجتمع منغلق على نفسه، وتعني كذلك تحمّل تلك التناقضات التي تميّز الإنسان والمجتمع الإنساني.

ولأنـي الآن أتحـدث أمـام ممثلـي برلمـان أوروبـا، أي أمـام برلمانيين من غرب أوروبا، ممّن يتحمّلون مسـؤولية سياسية، وليس أمـام مؤسسـة للأعمال الخيريـة، لا أرغب بمناداتـي بحرية الرأي أن تومئـوا برؤوسـكم، لا بل أن تعترضوا إذا اقتضـى الأمر. وبما أنني لا ألقـي على مسـامع فنانين نتائج دراسـة عـن الفنـون وحيرتها، وليس عن تعصّـب الفنانين في علاقة بعضهم بالبعض، فيجب أن أنتقل إلى الحديث مجدداً عن السـلطة السياسية وإسـاءة استغلالها. ومن أجل تجنّـب الضياع في تفصيلات إسـاءة اسـتغلال السـلطة بشـكل عام، سأركّز على الأوضاع في بلد من غرب أوروبا وآخر من شرقها.

سـأتحدث عن قمـع حرية الـرأي في منطقـة نفـوذ الدكتاتورية العسـكرية اليونانيـة وعـن نيـر الاضطهـاد السـتاليني الجديـد فـي تشيكوسـلوفاكيا بعـد اجتياحهـا مـن قبـل خمـس مـن قـوى حلـف وارشو.

من المعروف للداني والقاصي أنه تمّ سجن الكثير من المواطنين في اليونان وتشيكوسـلوفاكيا، ومن بينهم جملة من الفنانين والكتّاب والصحفييـن والعلمـاء، وهـم عرضة لأبشـع أسـاليب الاسـتجواب فـي تشيكوسـلوفاكيا وللتعذيب في اليونان. وتعرفـون أيضاً أن هناك المئـات مـن الفنانين والعلماء فـي تشيكوسـلوفاكيا يحاولون العيش دون أبسـط المقوّمـات الماديـة للبقاء. وقـد لا يخفى عليكـم مقدار الضغـط المُهيـن الذي يتعـرض له الطلاب فـي سـالونيكي[1] وأثينا. وفي مجال الأسـاليب، فإن لدى الإرهابَين الفاشي والستاليني القدرة علـى التبـادل في مـا بينهما. ما من غايـة أو مصلحة براغماتية، سـواء كانـت لحلف شـمال الأطلسـي «الناتـو» أم لحلف وارشـو، ولا من

(1) مدينة في شمال اليونان. (المترجم)

مصلحـة اقتصادية للمجموعات العملاقة، ذات الرأسـمالية الخاصة أو رأسـمالية الدولة، يمكنها أن تقلّل من شـأن هذه الجريمة السياسية المزدوجـة، التي تُقتـرف كل يوم. وحالتـا اليونان وتشيكوسـلوفاكيا تقدّمان وجه العملة القذر لكلا النظامين المنغلقين على نفسيهما.

لا أجـد مـن الضـروري، أن أعيـد وأصقـل حقيقـة معروفـة للجميع، أو أن أطالب بشـكل خطابي رخيـص بحرية اليونان وحرية تشيكوسـلوفاكيا. لكنـي ألتمس منكم هنا في مجلـس أوروبا، وأيضاً فـي مؤتمـر هيلسـنكي، الالتفات بعـزم سياسـي إلى تلـك الأوضاع السائدة في اليونان وتشيكوسلوفاكيا.

وكما يشـكّل انبثاق الستالينية الجديدة في تشيكوسلوفاكيا عاراً على الكتلة الشـرقية، فإن اسـتمرار الدكتاتورية العسكرية في اليونان تمثّـل مسـؤولية على دول غـرب أوروبـا. ولا يمكن مقارنـة أوضاع السـجناء السياسيين بين كلا النظامين المنغلقين. أما الدواعي الأمنية فلا تستطيع أن تبرّر الرجوع إلى البربرية الستالينية والنازية. ولا يجوز أن يتحوّل التسـامح إلى ممارسة ساخرة، من خلال غضّ نظر كلّ من الكتلتيـن الإيديولوجيتيـن عن التعسـف فـي التكتل الآخـر لمصالح مكشـوفة، ذلك هو التسـامح المتواطـئ. فالغراب مضـرب المثل لا ينقـر عين غراب آخـر، ولعلها ثمار سياسـة التهدئة. التعسـف وقمع الحريات في دول المعسـكر الشرقي ليس دليلاً على براءة سلوكيات الديمقراطيات في غرب أوروبا تجاه الدكتاتورية العسكرية اليونانية.

أريـد أن أغتنم فرصتي في الحديث كـي أقول: ما دمتم تطالبون بمعرفـة وإلحـاح ـ سـواء بصفتكم نواباً فـي برلمانات دولكـم أم هنا فـي مجلس أوروبا ـ بإعادة الديمقراطية إلى اليونان، فسـيكون لدول غـرب أوروبـا دافع إلى حدٍّ مـا للحديث عن الديمقراطيـة في مؤتمر هيلسنكي.

يتحدث إليكم هنا رجل طالما أدان الحرب الباردة وإيديولوجيتها القائمة على قاعدة العدو والصديق وما لها من تبعات عسكرية، وطالما مدّ العون لكل محاولات الوصول إلى ضمان السلام على طريق سياسة التهدئة.

وعلى الرغم من عديد الاعتراضات فقد كانت الخطوات الأولى من هذا الطريق ناجحة إلى حين، فقد قام الكثير من المعاهدات، وتلك الخنادق المليئة بالجند، التي كانت قائمة بالأمس، هُجرت على كل حال، إن لم تكن قد رُدمت، بعد أن صارت غير ذات جدوى. فقد خسر كلا التكتلين إيديولوجياً. لكنهما غير واثقين بعد في الممارسة الجديدة. غير واثقين، لأن الشرق والغرب ـ فاقدين لصورة العدو ـ يقفان متقابلين مدجّجين بالسلاح من رأسيهما حتى خُمْص أقدامهم، مجبرين على مداعبة سياسة التهدئة، حيث ما زالا يرغبان في إظهار قوتيهما وفق العادة القديمة. إذن فلنستثنِ التناقضات من قوسي المعادلة، ولنبحث عن القاسم المشترك. ولو قارنّا المصالح المشتركة، لانتهينا إلى اتفاق مشترك على مبعث مشكلاتنا. نعم، علينا البدء بتشكيل جبهة موحّدة ضد كل أولئك الذين يقابلون الاتفاق الجديد بالتشكك والنقد، ذلك الاتفاق الذي يحتاج إلى تسوية عملية لتجاوز سطحيته. فعلى سبيل المثال: بدهشة يثبت البراغماتيون والخبراء من عديمي الضمير لمجتمعين قائمين على قياس الفرد بإنتاجه، ومختلفين جذرياً من حيث التنظيم الأيدلوجي، لم يعد مفهوم الإنتاج السلمي في كلا النظامين من المحرمات، بل أصبح عرضة لتساؤل الشبان بصورة أساسية، سواء أكان مبعث ذلك الميع الناتج عن وفرة الإنتاج أم عن فكرة سياسية وقائية أم مطالب أخلاقية.

حينها يتجرّأ جيل نشأ في وقت السلم على إسقاط عنصر الإنتاج بشكل مخالف لعقيدتي رأسمالية الدولة والرأسمالية الخاصة، ويعلن عن نفسه جيل لم يقدم شيئاً بعد، حاله في ذلك حال الأجيال الناشئة الأخرى، وبريء إلى حدّ الخجل لأنه لم يقدّم شيئاً بعد.

الكثير من البراءة تسبّب الإهانة. وبتوجّع سيبدأ الآباء الشيوعيون والرأسماليون يربّت بعضهم على أكتاف البعض. ويُخشى أن تتّفق اليوم القوى المحافظة نفسها على بقاء الدول في كلا النظامين، التي أدامت العداوة في الأمس لدرجة الوحشية، على أن المهمة الأساسية لسياسة التهدئة هي احترام مبدأ مكافأة الفرد بحسب إنتاجه، وفرض هذا الاحترام من طريق العنف، إن تطلّب الأمر.

مثال آخر على الانحراف المحتمل لسياسة التهدئة، التي يمكن أن تأخذ أساسها من اتفاق القوى التسلّطية بشكل مبدئي وتميل إلى التعصب: يوجد في كلا النظامين فنانون ومثقفون وعلماء، تمّ تعذيبهم في خمسينيات وستينيات القرن العشرين وفق مبادئ إيديولوجية مختلفة، لأنهم أرادوا منح فرصة للتعايش السلمي للأنظمة وعدم الاشتراك في الحرب الباردة .

# الصور لا يمكن أن تصلح من شأن هذا العالم

**تشرين الأول | أكتوبر 1973**

أجد من الصعب جداً الكتابة عن الرسم، على الرغم من أنني أرسم (واعياً) منذ سن الثالثة. لكني لم أبدأ الكتابة بشكل واعٍ إلا في ما بعد، في سن الرابعة عشرة تقريباً، مستسلماً للزوم القافية. وبطبيعة تعليمي المهني صرتُ نحّاتاً ورسّاماً فقط، فقد تعلّمت نحت الحجر وتشكيله وعملت في كلتي المهنتين ثلاثة أعوام في أكاديمية الفنون في مدينة دوسيلدورف وفي المعهد العالي للفنون التشكيلية في برلين. أما في مجال الكتابة فقد بقيت كاتباً متعلّماً ذاتياً. ولأني لم أعانِ البتّة من مهنتي المزدوجة، ولأني لم أكن مستعداً كذلك ـ على الرغم من الكثير من المطالب ـ للتخلّي عن إحداهما، فقد تناوبت على الكتابة والرسم. فكتابة القصة وحدها ورسم الواقع المجسم لا يتنافى بعضهما مع البعض، بل هما ممكنان وضروريان. أجد في كل ما تجود به الطبيعة موديلاً بالنسبة لي، حتى وإن كان محنطاً. لم أرسم قط من غير مجسّم على الإطلاق، فأنا لست بمزخرف. ولا أهتم كثيراً بالألوان، فالتدرّج بين اللونين الأسود والأبيض يكفيني. وفي اللحظة التي يزداد فيها اطمئناني بشكل كبير جداً، أنتقل من مادة الحبر إلى الرصاص أو إلى الفحم، كما أتفحّص مجسّمات الطبيعة

مراراً وتكراراً ومن جميع الزوايا، حتى أدرك خصوصيتها العضوية والمادية. ولأني يجب أن أنظر إليها، فأنا لا أرسم عن ظهر قلب، ولكن مع بعض الخيال.

لا أُعير السؤال عن الأهمية الاجتماعية لرسوماتي اهتماماً، فالصور لا يمكن أن تُصلح من شأن العالم، لكنها تجسّد في أفضل الأحوال تناقضات واقعه. وبسبب عدم انتمائي إلى رابطة الرسّامين الألمان، فإن إنجازاتي الفنية لا تُقيّم من قبله. لدي أماثيلي، التي أقتدي بها: من رسّامي الكهوف الأوائل إلى بيكاسو المتأخّر. أشعر بالخوف من تجارة الفن الألمانية والعالمية، ولكن على الرغم من ذلك فقد ارتبطت منذ زهاء عام بصاحب صالون الفنون البرليني أنزيلم دريهر بكلمة لا تحتاج إلى العقود. والعمل معه يسير على ما يرام، فهو يدير صالون فنون أندريه، وكذلك ورشة لحفر الكليشيات. إضافة إلى ذلك فهو طبّاع مؤهّل ولا يثمّنني وفق أسعار السوق. في أثناء نشاطي السياسي سنين طويلة لم أرسم، لأن السياسة تشوّه كل مجسّمات الطبيعة (حتى المحنّطة منها) وتستعرضها بطريقة إحصائية. ولكني بدأت حديثاً الرسم وحفر الكليشيات من جديد، وهذا ممتع بحق.

# استحضار رواية «الطبل الصفيح»
# أو الكاتب كشاهد إشكالي في قضيته الخاصة

**كانون الأول | ديسمبر ١٩٦٣**

ما إن انتهى المؤلف من تنقيح النسخة المعدّة للطبع، حتى هجره كتابه. حدث ذلك قبل أربعة عشر عاماً، ومنذ ذلك فقدت كتاب «الطبل الصفيح». وبعد أن ترجمت إلى الكرواتية واليابانية والفنلندية كان الطموح أن تقدّم صورة مغايرة لقيم وعادات البرجوازية الصغيرة في كل أصقاع الأرض. فقد اختفى إقليمي دانتزيك-لانغفور من على وجه البسيطة.

فقد بدا الطريق أمامي كما لو كان مسدوداً بالإدانات والأحكام المسبقة المجمعة بإحكام، لأني لم أقرأ قط روايتي «الطبل الصفيح» مطبوعة. وأنجز ما كانت بصمات تدوين مسودته الأولى والثانية والثالثة طوال خمسة أعوام مسيطرة على عاداتي الحياتية وأحلامي. أما الكتب، التي صدرت بعد ذلك، كرواية «سنوات الكلاب»[1] والمجاميع الشعرية فقد بقيت عالقة بذاكرتي.

---

(1) العنوان الأصلي بالألمانية «Hundejahre»، وترجمها إلى العربية الزميل أحمد فاروق، وصدرت عن دار الجمل عام 2003. (المترجم).

ويمكـن تسـمية ذلـك التصـرّف بالقـرف المهني، الذي يُفسـد علـيَّ متعة قراءة رواية «الطبل الصفيـح»[1] مطبوعةً. وعلى الرغم من مطالبتـي الآن بتقديـم تقريـر عن نشـوء روايتي الأولى، فلـم تتجاوز قراءتـي لها سـوى تقليـب بعض الصفحـات ومطلع بعـض الفصول عبثاً. في البدء يجب أن أوضح أنني لسـت على استعداد كافٍ لرؤية ظروفي ودوافعي في تلك الفترة بفضول. أكاد أشـعر بالخوف من أن تكون لديّ الإمكانية من اكتشاف كل هذه الظروف والدوافع مجدداً. والكاتب حين يتحدّث عن كتابه لا يتعدّى أن يكون شاهداً إشكالياً.

معترفـاً بعجزي، أسـتطيع أن أكنّس أكوام الأمـور المتبقيّة على كل حـال، وأحاول أن أتجنّب تلك الأكاذيب البنّاءة، التي ما لبثت أن صارت شتلات، تجعل بستان آداب اللغة الألمانية أكثر غزارةً. فليس هنـاك من يقين خـلاق (في ما إذا، وكيف)، أو قـرار اتخذته من وقت طويل (سأفعل الآن)، أو تكليف وضعني أمام الآلة الكاتبة للاستمرار فـي الكتابـة. بـل كان الباعـث الحقيقـي هـو أصولـي البورجوازيـة الصغيـرة، فقد كانت هناك مسـافات شاسـعة علـيَّ أن أقطعها للحاق بالآخريـن. كان هـذا الجنون بالعظمـة المتعفّـن والمتزايد من خلال انقطاعي عن الدراسة الثانوية ـ فلم أتجاوز مرحلة الصف التاسع ـ هو ما دفعني إلى الرغبة في تحقيق شـيء بـارز لا يمكن تجاهله. وكانت تلـك الرغبـة دافعاً خطـراً، قاد اغتراري بنفسـي. ولأنـي كنت أعرف أصولـي وما لها من طاقات فحسـب، فقد اسـتعملت هـذه الطاقات،

(1) ترجمـت الروايـة إلى العربية ثلاث مرات، مرة عن الفرنسـية ترجمها موفق المشـنوق عام 1999، وصدرت عن دار المدى، وأخرى عن الإنجليزية قام بها علي عبد الأمير صالح، وصدرت عن دار الشؤون الثقافية في بغداد عام 2000، وثالثـة عن الألمانية، قام بها حسـين الموزانـي، وصدرت عام 2000 عن دار الجمل. (المترجم).

بـاذلاً قصارى جهدي ومحافظاً على هدوئـي: فالكتابة لكونها عملية متحفّظة ولذلك فهي ساخرة أيضاً، تُستهل بشكل ذاتي، حتى تتطاول نتائجها في ما بعد علناً، لتتهاوى في النهاية.

فـي عـام 1954 ماتت أمـي هيلينـا غراس ولهـا من العمر سـتة وخمسـون عامـاً. ولأنهـا لـم تكن تتمتّـع بـروح بورجوازيـة صغيرة فحسـب، بـل بحـبّ مماثـل للمسـرح أيضـاً، فقـد أسـمت ابنهـا ذا الثلاثة عشـر ربيعاً ببير غونت[1] سـخرية، والذي كان يسـعده سـماع القصـص الكاذبة ويعدها برحلات إلـى نابولي وهونغ كونغ وبالثروة والمعاطـف الفـراء. وبعد خمسـة أعوام من وفاة أمـي صدرت رواية «الطبـل الصفيح» وأصبحت ما كان يتصـوّره بير غونت من نجاحات ذات يوم. لطالما أردت أن أثبت لأمي شيئاً ما، ولكن موتها فقط حرّر الباعث على الكتابة.

وربما نجح المؤلف في كشـف بعض الآراء التي اكتسبت جانباً جديـداً من الشـجاعة وتجريـد التصرفات المقنّعة مـن جديد وفصل الرهبة الكاذبة عن تهويل الاشتراكية القومية بضحكات باهتة وبشكل منظـم. كما أنـه نجح كذلك في خلـق متنفّس للّغة، التـي كانت حتى ذلـك الحيـن متردّدة بخوف، لكنه لم يسـتطع (أو يرغب) من التغلّب على الماضي.

إن المتعـة الفنية واللـذة الكامنة في الصيغ المتقلبـة وما يقابلها مـن رغبة في صياغة الواقع المغايـر على الورق، أو باختصار أداة كل محاولـة فنيـة كانت جميعهـا حاضرة فـي أثناء عملـي، وكانت تنتظر مقاومتها على شـكل مادة نهمة. لكـن هذه المادة أيضاً كانت حاضرة

(1) الشـخصية الرئيسـية في قصيـدة درامية للكاتـب النرويجي هينرك إيبسـن، كتبها عام 1867.

كذلك وبانتظار التطبيق. إن الخوف من مدياتها إضافة إلى حالة التشتّت المتراخية منعتني في البدء من المحاولة الجادّة.

ولمرات عديدة كانت تلك بواعث شخصية حرّرت طاقاتي. فبعد وفاة أمي في ربيع 1954 تزوّجت بآنّا مارغريتا شفارتس، وبدأت مرحلة التركيز وتقليد العمل والإنتاج البورجوازية، إضافة إلى الهمّة الصارمة في أن أثبت شيئاً لكل الذين زاروني في بيتي متزوجاً: وكانوا مواطنين سويسريين صارمين ذوي أسلوب حياتي متواضع ولكنه متزمّت، والذين كانوا ينظرون إلى لعبي المتخبّط على الأجهزة الكبيرة باهتمام وبفهم فني ليبرالي.

مغامرة غريبة، فمن جانب كانت هناك آنّا، التي خرجت لتوّها من الحضانة البورجوازية الكبيرة، وبدأت البحث عن عدم الاستقرار، ثم الرغبة في اختبار الذات (حتى وإن كان بعناية) في خضم الحياة البوهيمية في برلين ما بعد الحرب. ومن المؤكّد أنها لم تكن تنوي أن تصبح زوجة لما يُسمّى بكاتب كبير.

لكن كم ممتعة هي اهتمامات الخارج عن النطاق البرجوازي الصغير، التي التقت بأمنية المساواة بين الرجل والمرأة لدى بنت العائلة البورجوازية الكبيرة. فزواجي بآنّا جعلني طموحاً، حتى اللحظة الأدبية المخلصة لكتابة رواية «الطبل الصفيح» تعود إلى قبل تعارفنا.

في ربيع 1952 وصيفه قمت برحلة بالسيارة على طول فرنسا وعرضها. لم أكن اعتمد في عيشي على عمل ثابت، بل أرسم على ورق التغليف وأكتب بلا انقطاع: فقد فاجأتني الكتابة كما يفاجئني الإسهال. وإضافة إلى (كما أعتقد) الكثير من الأغنيات عن الربان بالينوروس نشأت كذلك قصيدة طويلة وآخذة بالاتساع بشدة،

ظهرت فيها شـخصية أوسكار ماتسـيرات كمستعمد[1]، قبل أن أطلق عليه تسمية أوسكار.

كان رجلاً شـاباً ووجودياً ـ كما كان الاتجاه السـائد يفرض ذلك آنذاك ـ، ويعمل بنّاءً. كان يعيش بيننا، متوحشاً ومثقفاً بالمصادفة، ولم يبخل في ذكر الاقتباسـات. وسئم الرخاء قبل أن يعم: مغرماً بسـأمه. لذلـك بنى في مدينتـه الصغيرة (التي لا تحمل اسـماً) عموداً، وجلس عليـه مجلّلاً بالسلاسـل. رفعت له أمـه، التي كانت تكيل له الشـتائم، الطعام بواسـطة آنية مثبتة بعصا طويلة. حظيت محاولاتها إغراءه على النزول بدعم من كورال مكوّن من الفتيات المجملات. وحول عموده كانت تمرّ حركة السير في المدينة الصغيرة ويلتقي الأصدقاء والأعداء. وفـي النهاية تجمّعت حوله جماعة من الناظرين. أما المسـتعمد، وقد تحرّر من كل شيء، فقد نظر إليهم من الأعلى واستبدل واثقاً ساقه التي يرتكـز عليها بالأخرى المرفوعة. ثم وجد أفقه فكان ردّ فعله مشـحوناً بالتشبيهات.

لم تنل هذه القصيدة الطويلة حقّها من النجاح، وبقيت في مكان ما. ولـم أحفظ منها سـوى النزر اليسـير، الذي يظهر على كل حال كم كنـت متأثراً بتـراكل وأبولينيـر، ورينغلناتـس وريلكـه، وبالترجمات البائسـة لأعمال لـوركا. وبقي المثير في الأمر: البحـث عن أفق بعيد وكانت وجهة نظر المستعمد المغرقة في العلو غير مجدية. ولـم يقدّم الحركية والبعد نفسـه سـوى طـول أوسـكار ذي السـنوات الثلاث. ويمكن القول إن أوسكار ماتسيرات كان مستعمداً مُغيراً.

وفي أواخر الصيف من العام نفسـه، حين تحرّكت صوب مدينة دوسـيلدورف الألمانية عائداً من جنوب فرنسـا عبر سويسرا، لم ألتق

(1) المستعمد: ناسك مسيحي يعيش على رأس عمود. (المترجم).

آنا أول مرة فحسب، بل أُنزلت المستعمد كذلك عن عموده خلال الرؤية المجرّدة. بمصادفة عابرة في أصيل أحد الأيام رأيت صبياً في الثالثة من العمر جالساً بين بعض البالغين وهم يحتسون القهوة، وكان يعلّق على رقبته طبلاً صفيحياً. فخطر لي وبقي في ذاكرتي ضياع وانشغال الطفل بآلته الموسيقية، إضافة إلى تجاهله لعالم الكبار حوله وهم يحتسون قهوتهم.

بقيت هذه «اللقية» مطمورة على مدى ثلاث سنوات. انتقلت من دوسيلدورف إلى برلين وغيّرت معلمي في النحت والتقيت آنّا من جديد، ثم تزوّجتها بعد عام. وأعدت أختي المهووسة من أحد الأديرة الكاثوليكية. ورسمت وصمّمت لوحات وأشكالاً على شكل عصافير وجراد ودجاج دقيق الملامح. وعشت خيبة أمل أول محاولة نثرية طويلة، كان اسمها «الحاجز»، استعرت فيها من كافكا نموذج الانطباعيين المبكرين في الإغراق في المجاز. وحينها فقط كتبت ـ بسبب تفرّغي بشكل أكبر ـ أولى قصائدي العابرة، راسماً صوراً مدروسة، لم تعبّر عمّا يختلج في قلب المؤلف، وقد نالت بذلك قدراً من الاستقلالية، فكانت جديرة بنشر كتابي الأول «مزايا ديكة الريح»، وهو عبارة عن لوحات وقصائد.

وبعد ذلك ـ ومن دون أن أغيّر مهنتي الرئيسة نحاتاً ـ نشأت مسرحيات صغيرة من فصل واحد مثل «العم، العم» و«الفيضان»، التي ألقيتها بنجاح لا بأس به بعد دعوتي إلى لقاءات جماعة 47. ومن أجل حب آنّا للرقص فقد صمّمت كذلك بعض رقصات الباليه.

وبهذا وجدت المحاولات الأولى لكتابة بعض الحوادث، التي أصبحت في ما بعد فصولاً من رواية «الطبل الصفيح»، وكانت في البدء أساساً لبعض رقصات الباليه، مثال ذلك بداية فصل «التنورة

الواسعة»، وقصة تمثال مقدمة السفينة «نيوبه»[1]، و«عربة الترام الأخيرة»، التي سافر فيها في ما بعد أوسكار ماتسيرات وصديقه فيتلار عبر مدينة دوسيلدورف تحت جنح الظلام. وكذلك كتبت بعض المشاهد، التي هاجم فيها سلاح الفرسان البولندي الدبابات الألمانية. ولكن كل هذه المحاولات لم تثمر عن شيء، فقد بقيت على حالها، ثم انتقلت كلّها إلى مفرمة الأوراق.

تركنا برلين في مطلع 1956 وانتقلنا إلى باريس، حاملين معنا مادة مكدّسة ونيّة غير واضحة المعالم، يحدوني الطموح إلى كتابة روايتي وآنّا إلى ممارسة الباليه. رحلنا بجيوب خاوية ولكن من دون هموم. وعلى مقربة من ساحة بيغاله وجدت آنّا في السيدة نورا معلمة باليه روسية صارمة. أما أنا فقد بدأت ـ في أثناء انشغالي بمسرحية «الطباخون الأشرار»[2] ـ بكتابة رواية، كان اسمها يتغيّر من وقت إلى آخر: ففي البدء «الطبال أوسكار» ومن ثم «الطبال»، ليصبح في النهاية «الطبل الصفيح».

وهنا فقط تتوقّف ذاكرتي عن الاستمرار. صحيح أنني ما زلت أتذكّر أنني وضعت العديد من خطط العمل واختصرت المادة الروائية وملأتها بالكلمات الدلالية، ولكن هذه الخطط تمّت مراجعتها وألغيت خلال مراحل العمل المتقدمة.

وحتى مسودات الصياغة الأولى والثانية والثالثة أيضاً انتهت إلى موقد التدفئة بالحطب في مكتبي، الذي سأحكي عنه في ما بعد. ولكن على الرغم من كل هذا الهوس، الذي اعتراني، لم يدر في

---

(1) شخصية إغريقية خرافية وترمز إلى ملكة طيبة. (المترجم).
(2) ترجمها إلى العربية محسن الدمرداش، وصدرت عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب عام 2001.

خاطري أن ألقّم دارسـي الأدب الألماني وعشـقهم للأدبيات الثانوية صياغات مختلفة لعملي الروائي.

ومـع الجملة الأولـى: «أعترف أنني نزيل مصحـة علاج وعناية طبية...» واجهت مصاعب في الاستمرار في الكتابة واندفعت اللغة، فانعتقـت الذكريات والمخيلـة والرغبة المرحة والجنـون بالتفاصيل فـي الفضاء الرحب. ونشـأ فصل بعد آخر. وكنـت أقفز الثغرات التي تنشأ في سلسلة حوادث الرواية. وأصبحت القصة مناسبة لي ونالت عـدداً جيداً من العروض، فقد انفتقت الفرص وسـادت الإشـاعات. أسّسـت عائلة متشـعّبة الأطراف، وتشاجرت مع أوسـكار ماتسيرات ورفيقـه حول عربـات الترام والطرق التي تسـلكها، وحول الحوادث المرافقـة لذلك، وحول الضرورة السـخيفة لتتابعها، وحول صلاحية أوسـكار للروايـة بصيغة الشـخص الأول أو الثالث، وحـول مطالبته بإنجاب طفل، وحول أخطائه الحقيقية، وحول ذنبه الخداع.

لذلك فشـلت محاولتي فـي أن أجعل لأوسـكار المتوحد أختاً سـيّئة بسـبب معارضته: مـن الممكـن أن تكون الأخـت المرفوضة، التـي تجسّـدت في ما بعد في تـولا بوكرفيكا، قد أصـرّت على حقّها فـي الوجـود أدبياً. ومـن أجل إعـادة الإجابة عن سـؤال مفضّل لدى الكثيريـن، وطالمـا طُرح في السـابق: لم أكتب لأي جمهـور، فأنا لم أعـرف جمهوري. ولكني كتبـت أولاً وثانياً وثالثاً لنفسـي ومن أجل آنّـا وأصدقائـي ومعارفي، الذين كان عليهم المجيء والاسـتماع إلى قـراءة الفصول. وكتبـت أيضاً من أجل جمهور خيالي خلقته بنفسـي بفضل تصوّراتي. حـام على آلتي الطابعة أموات وأحياء: ومن هؤلاء صديقـي المغـرم بالجزئيات غيلدماخر بنظارته سـميكة العدسـات، ومعلّمـي الأدبي ألفريد دوبلين، وحماتـي، التي كانت مطلعة اطلاعاً

جيداً على ميادين الأدب، والمؤمنة بكل ما هو جميل وطيّب وحقيقي، وأربلياس خلال زياراته الخاطفة، ومعلّمي السابق في مادة اللغة الألمانية، الذي ما زلت حتى اليوم أعتبر نزواته أكثر منفعة من المواد التعليمية الجامدة في زماننا هذا، وأمي الميتة، التي حاولت إيجاد اعتراضاتها وتصحيحاتها بالوثائق، لكنها لم تكن تصدّقني إلا متحفّظة.

وإن حاولت الإصغاء خلفي، سأكون قد دخلت في حوارات طويلة جداً مع هذا الجمهور، الذي لا تخلو آراؤه من نظرة نقدية. وكانت هذه الحوارات، سواء صدرت مدوّنة أم في ملحق، ستثري النتاج النهائي بمائتي صفحة على الأقل.

أو يمكن أن يبتلعها موقد التدفئة بالحطب في شقتي في شارع دي إيتالي في باريس. أو ألاّ تكون هذه الحوارات أكثر من خيال. فأنا أتذكّر غرفة مكتبي بشكل أكثر من حوادث الكتابة: وكانت غرفة صغيرة رطبة كحفرة في أرض مستوية، أصبحت كورشة عمل للفصول الأولى من رواية «الطبل الصفيح» بعد أن كانت مخصصة لأعمال النحت. في الوقت نفسه وكان مكتبي قبو تدفئة لشقتنا الصغيرة ذات الغرفتين اللتين تقعان فوقه. في أثناء الكتابة كان عملي مرتبطاً بمهمة التدفئة. فما إن يصعب عليّ الاستمرار في كتابة الرواية، حتى تراني أذهب إلى غرفة خشبية صغيرة أمام المنزل لجلب دلوين من الحطب. كانت رائحة عفن الجدران تنبعث من مكتبي، أما الجدران المتراخية فكانت تديم استمرار تصوّراتي. ويبدو أن رطوبة الغرفة شجّعت أوسكار ماتسيرات على المكر.

ولأن آنّا سويسرية فقد أُتيحت لي الفرصة في إحدى المرات في أشهر الصيف من العام ذاته الكتابة عدة أسابيع في الهواء الطلق

في كانتون تيسينو السويسري. جلست هناك تحت سقيفة من أوراق العنب إلى طاولة حجرية. ونظرت إلى الطبيعة المتلألئة حرارة في هذا الإقليم الجنوبي، فوصفت بحر البلطيق المتجمّد وعرق جبيني يتفصّد.

ومن أجل التغيير كنت أحياناً أخطّط مسودات الفصول في المقاهي والمطاعم الباريسية، كما يحدث في الأفلام. كنت أرسم العاشقين المتعانقين بحزن والسيدات المسنّات المختبئات في معاطفهن والجدران الزجاجية ذات الطراز الشبابي وشيئاً عن كتاب الأنساب المختارة لغوته وعن راسبوتين.

بقيت آنّا طوال هذه الأعوام الأربع بمواجهة طريقة العمل هذه. ولا أعني هنا الرغبة في الاستماع، وإجبارها أحياناً على ذلك، لفترات طويلة فحسب، وهو ما ينتج عنه تغيير طفيف في بعض التفاصيل، بل ربما كان الأمر هو صعوبة معرفة آنّا ذلك الرجل، الذي تزوّجته والذي يجلس قابعاً طوال الوقت منزوياً خلف جدار من دخان سيجارته. ولم أكن بالنسبة لها ذلك الشخص، الذي يمكن تحمّله، لأني كنت خاضعاً لتقلّبات خيالي: فقد أضحيت أداة للتنسيق، توجب إدارتها من أزرار عدة، وهي مربوطة بالعديد من طبقات الوعي المتقلّبة. وهذه الحالة تُدعى: مهووس.

وعلى الرغم من ذلك فقد عشت قوياً في الفترة نفسها، وطبخت بعناية ورقصت في كل فرصة ممكنة، مسروراً بين ساقي آنّا الراقصتين الجميلتين، فقد ولد لنا في أيلول/ سبتمبر 1957 توأم اسماهما فرانتس وراؤول، وكنت حينها منهمكاً في مرحلة التدوين الثانية. ولم أواجه مشكلة في الكتابة، بل في الأمور المالية. وفي النهاية كنا نعيش على الثلاثمائة مارك شهرياً، التي كنت أحصل

عليها من عملي في أوقات فراغي ونخطّط طويلاً لإنفاقها في مكانها الصحيح. ومن هذه الأعمال كانت الرسومات ولوحات الطباعة الحجرية، التي كنت أبيعها في ملتقيات جماعة 47. إضافة إلى ذلك فقد كان هوليرير[1] يأتي الفينة بعد الفينة لزيارة باريس، وكان يدعمني بطبيعته بالتكليفات وقبول المسودات. وفي شتوتغارت البعيدة كان هايسنبوتل[2] يقرأ مسرحياتي غير الممثلة كتمثيليات إذاعية. ولكن بعد عام من ذلك، حين كنت أعدّل في الصيغة الأخيرة، مسكت بيدي أول مرة مبلغاً كبيراً، وهو عبارة عن 5000 مارك لقاء فوزي بجائزة جماعة 47. ومن هذا المبلغ اشترينا مشغلاً للأسطوانات، ما زال صالحاً للعمل حتى يومنا هذا وتمتلكه الآن ابنتنا لاورا.

أعتقد أحياناً أن الحقيقة المجردة، التي أحزنت أمي وأبي لأني لم أجتز البكالوريا، كانت تحميني. فلو كنت قد حصلت على الشهادة الثانوية، لحصلت بالتأكيد على بعض عروض العمل أو لأصبحت محرراً للبرامج الليلية، أو لكانت مسودة غير مكتملة بحيازتي، ولأضحيت كاتباً يمنعه من جمع أفكاره ومواصلة الكتابة غضبه على كل الذين يكتبون من دون هموم وفي كل مكان يريدون ويحصلون مع ذلك على ما يجود به عليهم من يجلس في السماء.

أتبادل الحديث أحياناً مع باول سيلان، أو بالأصح أستمع إلى مونولوجاته الطويلة. وأحياناً أخوض غمار السياسة من قرب، متحدّثاً عن السياسي الفرنسي ميندس فرانس وأسعار الحليب والحملات

(1) المقصود هنا الكاتب وأستاذ الأدب الألماني فالتر هوليرير (1922)، الذي كتب عدة أعمال منها رواية «ساعة الفيلة»، صدرت عام 1973، ومسرحية «كل الطيور» الصادرة عام 1978. (المترجم).

(2) المقصود هنا الكاتب والناقد الألماني هيلموت هايسنبوتل (1921 – 1996). (المترجم).

البوليسـية في حي الجزائريين، أو التنقيـب في الصحف مثل صحيفة أكتوبـر البولنديـة، أو بودابسـت أو عـن انتصـار آدينـاور المطلق، أو الصمت أحياناً.

حتّم عليّ العمل في فصل الرواية، الذي تدور حوادثه عن الدفاع عن مكتب البريد البولندي في مدينة دانزيج، السفر إلى بولندا في ربيع 1958. وتوسـط هوليرير لإجراء السفرة، كما قام آندريه فيرت بكتابة الدعوة، فسـافرت إلى كدانسك مروراً بوارشو. وكان يحدوني الأمل في أنه ما زال بعض من أسهموا في الدفاع عن مكتب البريد البولندي علـى قيد الحياة، فاسـتعلمت عن ذلك فـي وزارة الداخلية البولندية، حيـث وجدت مكتباً يغـصّ بأكـوام الوثائق عن جرائـم الحرب التي اقترفهـا الألمان في بولندا. وحصلت على عناوين ثلاثة موظفي بريد سابقين في بولندا (والعنوان الأخير كان يعود لعام 1949). ولكن قيل لي بشكل زاد مهمتي صعوبة إن هؤلاء الناجين لم يُعترف بهم من قبل نقابة العاملين في قطاع البريد في بولندا (ومن قبل الجهات الرسـمية الأخرى)، لأنهم طبقاً للرواية الرسـمية البولندية الألمانية في خريف 1939 قـد أُعدموا جميعاً بالرصاص وفق الأحكام العرفية. لذلك فقد كُتبت أسـماؤهم على اللوحة الحجرية لضحايا الحرب، ومن يُكتب اسمه عليها فليس على قيد الحياة.

بحثت في كدانسك عن دانزيج، فوجدت اثنين من عمّال البريد البولنديين السـابقين، اللذين وجـدا خلال هذه الفترة عملاً في معمل بناء السـفن، فهناك يحصلان على المزيد من الأجر. كانا في الحقيقة راضييـن عـن وضعهم غير المعتـرف به. ولكن الأبنـاء رغبوا أن يروا آباءهـم أبطـالاً وحاولـوا جاهدين عبثـاً الحصول على اعتـراف بهما كرجـال مقاومة. وقـد حصلت مـن العامَلين كليهمـا، وكان أحدهما

منسّقاً مالياً، على الحوادث المفصّلة في مكتب البريد البولندي خلال الدفاع عنه، فلم أستطع اختلاق طرق هروبهم.

في كدانسك سرت في طريق مدرستي في دانزيج، وتحدثت في المقابر إلى شواهد القبور، التي أعرفها، وجلست في صالة المطالعة في مكتبة المدينة (كما كنت أفعل وأنا تلميذ صغير)، وتصفّحت أعداد جريدة دانزيجر فوربوستن، واستنشقت نسيم نهري موتلا وراداونه. كنت غريباً في كدانسك ولكني وجدت على الرغم من ذلك بقايا كل شيء: المسابح والطرق عبر الغابات والمباني المشيّدة على الطراز الغوطي بالآجر الأحمر وتلك المجمّعات السكنية في شارع لابسفيغ، وبين ساحة ماكس هالبه والسوق الجديد. كما زرت (بناءً على نصيحة أوسكار) كنيسة قلب السيد المسيح مجدداً: ذلك النتن الكاثوليكي، الذي ما زال قائماً.

ثم وقفت في مطبخ عمتي الكاشوبية الكبيرة آنّا. ولم تصدق أنني عدت، حتى أريتها جواز سفري، فقالت: «آه ياغونتر الصغير، لقد أصبحت كبيراً». بقيت هناك بعض الوقت واستمعت إليها. وكان ابنها فرانتس حينها موظفاً في مكتب البريد البولندي وأُعدم رمياً بالرصاص فعلاً بعد استسلام المدافعين. فقد وجدت اسمه منقوشاً على لوحة الضحايا. لقد اعترفوا به حقاً.

وفي طريق عودتي تعرّفت في وارشو على مارسيل رايش-رانيتسكي، الذي أصبح اليوم ناقداً بارزاً في ألمانيا. وبلطف أراد رانيتسكي أن يعرف من ذلك الشاب، الذي قدّم نفسه على أنه كاتب ألماني، طبيعة مسودته ووظيفتها الاجتماعية. وحين رويت له الحدث باختصار (صبي يتوقّف عن النمو في سن الثالثة....)، تركني واقفاً واتصل مضطرباً بأندريه فيرت، الذي توسّط بيننا للتعارف قائلاً:

«إحـذر هذا ليس كاتباً ألمانيـاً، بل عميل بلغـاري». كان من الصعب عليَّ في بولندا إثبات هويّتي.

حيـن أنهيت العمل في المسـودة فـي ربيـع 1959، وصحّحت النسـخة المعـدّة للطباعة، ووضعت شـكل الصفحـة، حصلت على منحة لأربعة أشهر. هولرير توسّط مرة أخرى من أجل الحصول عليها. سافرت إلى الولايات المتحدة الأميركية للإجابة عن أسئلة الطلبة بين الفينـة والفينة، لكن لم يُسـمح لي بذلك. فمن أجـل الحصول آنذاك على سـمة دخول كان يتوجّب خوض فحص طبـي دقيق جداً. قمت بهـذا وعرفت أن رئتي مصابة بالسـلّ في أكثر من مـكان، فقد ظهرت أشكال عقدية. وإن استفحل المرض فإنه يترك ثقوباً في الرئة.

لذلـك، ولأن ديغـول اعتلـى سـدّة الحكـم في فرنسـا فـي هذه الأثنـاء، وبعد ليلة قضيتها في أحد سـجون فرنسـا أشـعرتني بالحنين إلـى الشـرطة الألمانيـة، تركنـا باريس بُعيـد ظهور «الطبـل الصفيح» كتابـاً (وهجرني) وانتقلنا إلى برلين من جديد. هناك توجب عليَّ نوم القيلولة وترك الكحول والذهاب إلى الفحص الطبي بانتظام وشـرب القشـطة وأخذ حبّـات بيضاء صغيرة ثـلاث مرات يوميـاً، وأعتقد أن اسمها كان نيوتيبين. وهو ما جعلني صحيح البدن وسميناً.

ولكني كنت قد بدأت في باريس الأعمال الأولية لرواية «سنوات الشـقاء»، التي غيّـرت عنوانها الأول «تقشـير البطاطا» وتـمّ البدء بها وفق تصوّر خاطئ. في البدء أخذت مني أقصوصة «قط وفأر» الفكرة التي لم تعش طويلاً. ولكني أصبحت حينها مشـهوراً ولـم أكن مجبراً علـى تغذية المدفأة بالفحم. ومنذ ذلـك الوقت أصبحت الكتابة أكثر صعوبة.

هـل قلت كل شـيء؟ أكثر ممـا أردت. هل أخفيت أمـراً هاما؟ بالتأكيد. هل هناك من إضافة؟ كلا.

# إلا لدى دار نشر شبرينغر!
# رسالة مفتوحة

**برلين في الثاني من تشرين الأول / أكتوبر 1974**

عزيزي أندريه سينافيسكي، عزيزي ألكسندر سولجينيتسين[1]،

طلب مني القائم بأعمال دار نشر أولشتاين/ بروبيلين، السيد زيدلر، تهنئتكم بصدور مجلة «كونتيننت»، التي تشتركون فيها. وبصفة كوني واحداً مع زملائي الكتّاب في غرب أوروبا، ممّن تعاطفوا مع مصيركم وحاولوا المساعدة، حين كنتم مطاردين ومدانين ومعتقلين وتُمنعون من تأدية عملكم في الاتحاد السوفياتي، أسمح لنفسي بإخباركم برأيي في مشروعكم من دون مقدّمات طويلة.

---

(1) ألكسندر سولجينيتسين (1918–2008): لعب الكاتب الروسي ألكسندر سولجينيتسين، الذي غيّبه الموت في أثناء إعدادنا هذه الترجمة، دوراً تاريخياً من خلال كشفه للروس وللعالم أجمع الجانب اللاإنساني لمعسكرات الاعتقال السوفياتية، التي سماها «أرخبيل الغولاغ»، بواسطة «يوم من حياة إيفان دنيسوفيتش» في المجلة الأدبية نوفي مير. وكتب سولجينيتسين هذه الرواية بعد أن طبعته تجربة الحياة في معسكر اعتقال بعدما انتقد كفاءات ستالين الحربية في رسالة إلى أحد أصدقائه. وبصدور هذا النص حطّم الكاتب أحد المحرّمات فعمّت الصدمة الاتحاد السوفياتي، واهتزّت الأوساط المؤيّدة للسوفيات في العالم أجمع، حتى شعر ملايين الأشخاص الذين قضوا فترات في معسكرات اعتقال بأنه تمّ تحريرهم مرة ثانية. نال جائزة نوبل للأدب عام 1970. (المترجم).

ربمـا كان من المعروف لديكم حقيقـة أنكم كمؤلفين في مجلة «كونيننت» تدعمون مشروعاً يتمتّع بسلطة كبيرة، ومعروفاً تحت اسم مجموعة «شـبرينغر»، والذي لا يمثل عدم تسامحه الرجعي إلا تعبيراً عن العقلية ذاتها، التي شـكّلت سـبباً لاحتجاجكـم ومعارضتكم في الاتحاد السوفياتي، ولكن تحت مسمّيات إيديولوجية أخرى.

لا أفهـم كيـف يمكنكـم من حيـث كونكـم كاتبين بهـذا الوزن الأخلاقي أن تدعما بتعاونكم مجموعةَ سـلطةٍ، طالما شـكّلت خطراً على الديمقراطية في العالم الغربي. ففي منتجات مجموعة شبرينغر، على اختلاف مسـمّياتها كصحيفتي «بيلد» و«بيلد أم زونتاغ»، يحدث يومياً تماماً ما جرى لكم في الاتحاد السـوفياتي، حتى لو كان بمقدار شمولي: تقديم المعلومات المزيّفة بالرأي العقائدي، وتشويه صورة الخصـوم السياسـيين، ودعوة جاهزية العنف المسـتترة لدى الأغلبية الصامتة، وإدراج المتهمين في قائمة المدانين، وكلّ ما يمثل لزملائكم الكتّاب منذ سنوات، سبباً للخوف على بقاء الديمقراطية في جمهورية ألمانيا الاتحادية. وإن أعطينا تقييماً من الناحية السياسية فإن مجموعة «شبرينغر» تستند في معاداتها للشيوعية على أسس إيديولوجية، ترتبط مباشـرة بعلاقة مشروطة باللينينية ـ السـتالينية. وكما تتّفق الرأسمالية الغربية الخاصة ورأسـمالية الدولة الشـيوعية، حين يتعلق الأمر بغلق الطريـق أمام طريق ثالـث وقمع الديمقراطية الاشـتراكية، كما حدث في تشـيلي عـام 1973، وكما حدث في تشيكوسـلوفاكيا عام 1968، فإن مجموعة شـبرينغر ليست سوى جزء من سلطة الدولة والمال في العالم أجمع، نخشى أنا وأنتم من سوء استغلالها للسلطة.

هل يجب علينا، من أجل تبرير خصومتنا للشـيوعية الشـمولية، أن نبحـث عن العون لـدى القوى، التي لم تثـر الدكتاتوريات الغربية

غضبهــا يوماً ما، والتي تكون على أهبة الاســتعداد في جهلها العدائي للشيوعية لطرد الشيطان الشيوعي بشيطان فاشي؟

ومــع احترامي الكبير لشــجاعتكم، التي أبديتموهــا في الاتحاد الســوفياتي بوجــه ســلطة الدولــة الاســتبدادية، فإنــي لا أســتطيع أن أستحســن تعاونكم مع مجموعة شــبرينغر. أرجوكم أن تعيدوا النظر في ما نويتم عليه، فأنتم على وشك أن تيمّموا وجهكم شطر المؤسسة الخاطئ.

مع أطيب تحياتي

**غونتر غراس**

## العامل القارئ

**خطبة لمناسبة الذكرى الخمسين**
**لتأسيس دار نشر بوشر غيلدا غوتنبيرغ في فرانكفورت/ماين**
**في تشرين الأول/أكتوبر 1974**

سيداتي سادتي،

قدّمت كلمتي المختصرة تحت عنوان «العامل القارئ». وبهذا يمكن أن تُدعى تمثالاً، قدّم نحاته إرث بارلاخ في زمن الواقعية الاشتراكية. ويعطي شيء من التذكار عنواني وزناً إضافياً، كما لو توجّب عليه استحضار العامل القارئ: وهماً وطفلاً مرغوباً فيه. فقد جعل منه الاجتهاد التعليمي البورجوازي صنماً. لذلك أرغب في البدء أن أزيح الستار عن هذا التمثال وأن أصنع علاقة موضوعية لهذه المناسبة الاحتفالية ولموضوعي.

زرت خلال السنوات الماضية الكثير من المصانع لكوني كاتباً دائم التجوال في قضايا السياسة، كما خضت حوارات مع مجالس إدارتها، وقد نظمت إضافة إلى ذلك العديد من حلقات النقاش الدراسية في مراكز التعليم النقابية. وكما هو الحال بعد انقضاء القراءات الأخرى أمام ممثلي البورجوازية المثقفة[1] التقليدية لم تأتِ

(1) البورجوازية المثقفة مصطلح يطلق على الطبقة الاجتماعية المؤثرة، التي ظهرت في أوروبا أواسط القرن الثامن عشر، وأثرت في حكومات الدول الأوروبية من خلال نشاطها الإنساني في مجالات التعليم والأدب والعلوم. (المترجم).

بنات الطبقات العليا إلى مقاصف المصانع أو المجالس الدراسية، بل عمال ونقابيون يحملون كتباً ويرغبون في الحصول على توقيع. وعلى الرغم من أن العملية تبدو معتادة، إلا أنها مع ذلك تنطوي على اختلاف يستحق الذكر والتدوين: فبينما كانت نسخ أصلية أو من كتب الجيب الصغيرة تُقدم بعد القراءات للتوقيع بالشكل، الذي تُغنى فيه البرامج الثقافية صعوداً ونزولاً، إذ وقعت في المصانع والمدارس النقابية في أغلب الأحيان على نسخ، تم إصدارها من دار نشر بوشر غيلدا غوتنبيرغ. ولكن الشيء الذي لا يُعرف على نطاق واسع مع كونه حقيقة، هو أن هذه الدار، التي نحتفي بها اليوم، نجحت في الوصول إلى العاملين والموظفين. وكل كاتب مدين لها بالشكر، فلولاها لبات من الصعب كسب العامل قارئاً لإنتاجه.

فهل العامل القارئ أو الذي لم يقرأ بعد، هو طفل مدلّل؟ هل كان يجب التودّد إليه بهدف كسبه؟ ولكن توجد هناك العديد من المكتبات! وقد يتساءل المرء بخشونة، ماذا كان يمكن أن يمنع العمال من الذهاب إلى المكتبات والاستعانة بالمعرفة الاستشارية لأصحابها ومن كل جانب؟

لا أستطيع أن أمنع الوصول إلى النتيجة القاسية المتمثّلة في أن العاملين في تجارة الكتب هذه والعاملات الجديدات في هذا المجال يضعون وعلى غير رغبتهم قيوداً. وتلك القيود تصعب من زيارة العاملين لهذه المكتبات. وهذا الوضع الناجم عن فقدان العمال الثقة في أنفسهم ما زال مستمراً.

ومن الطبيعي ألاّ يكون بائع الكتب أو بائعة الكتب المشهورة وحدهم مذنبين في هذا الوضع المزري، بل مجمل العاملين في هذه المؤسسة. فما زال تجار الكتب ودور النشر وأسواق تجارة الكتب

ومعارضها بعيدة عن التجديد بشكل يدعو لليأس، حتى وإن كان عدد ممّن يسمى بأصحاب المكتبات من اليساريين لا ينصحون اليوم بكتب كاروسا[1] بل بالكتب التخصصية الجديدة في مختلف المجالات، معتمدين في ذلك على عروض دور النشر.

ومن أجل تعميم الموضوع بشكل أدقّ، أقول: في الوقت الذي ربما تغيّرت فيه الكثير من المؤسسات خلال السنوات الماضية، بعد اصطدامها بالاحتجاجات الطلابية وتحت ضغط تغيّر سلوك الناخبين، فقد بقيت تجارة الكتب في ألمانيا وفيّة لنفسها أولاً ولقرائها ثانياً من دون تغيير بشكل لا يقبل الخطأ. فقد ظلّت مشروعاً للبورجوازيين المثقفين. واستمر هذا المشروع وفق مبدأ رعاية الشؤون الذاتية على عاداتها التقليدية القروسطية، حتى مع زيادة الشكاوى من قبل الكتّاب حول جذب المزيد من شرائح المجتمع القارئة. ويتساءلون لماذا لا يأتي العمال العاديون؟ والكتّاب أنفسهم هم المذنبون في ذلك. فهم يكتبون بالكثير من التعقيد والغموض وبأساليب مركبة.

وقد يكون من السهل نقض مثل هذه الشكوى المنمّقة، فهناك جزء لا بأس به من أعمال الأدب الألماني المعاصر مكتوب بلغة قصصية سهلة، على الرغم مع أن الحاجة تدعو إلى تناول الكثير من المواضيع المختلفة. وحتى الكتب، التي تدور أحداثها في أجواء بورجوازية صغيرة متداخلة أو في المحيط العمالي، فهي تجد قرّاءها هناك، حيث كانوا، أي في مناطق الحماية الهادئة لتجارة الكتب الألمانية.

(1) هانس كاروسا (1878-1956)، طبيب ألماني كتب الشعر والقصة. وتظهر في أغلب أعماله معايشات مهنته في الطب. ومن أعماله «مصير الدكتور بورغر» 1913، و«الطبيب غيون» 1922، و«أسرار الحياة العميقة» 1936. نال جوائز عدة منها جائزة غوتفريد كيللر 1931 وجائزة سان ريمو عام 1939 (المترجم).

وربمـا يُطرح التسـاؤل ويبدأ البحث عن العامل القارئ بشـكل أدق، حيـن نأخـذ منشـوراً مـن جامعة كريسـتيان ألبريشـت في كيل. ويقـدم هـذا المنشـور وعنوانـه «المواطن الكيلـي قارئـاً» معلومات إحصائية واجتماعية.

فـي أحـد أجـزاء هذا العمـل، الـذي يقارن المسـتوى الدراسـي للمواطن الكيلي بعادة القراءة لديه، أجد أرقاماً واستنتاجات مهمّة:

المواطنون، الذين أكملوا الدراسـة الثانوية، يقرأون بنسبة 59.5 بالمائة بشكل دائم، مقابل 16.2بالمائة لا يقرأون إلا نادراً.

المواطنـون، الذين أكملوا الدراسـة المتوسـطة، يقرأون بنسـبة 29.6 بالمائة بشكل دائم، مقابل 28.4 بالمائة لا يقرأون إلا نادراً.

المواطنـون، الذيـن أتمّـوا الدراسـة الابتدائيـة وتعلّمـوا مهنة، يقرؤون بنسبة 20.2 بالمائة بشكل دائم، مقابل 45.4 بالمائة لا يقرأون إلا نادراً.

والمواطنون، الذين أتمّوا الدراسة الابتدائية من دون تعلّم مهنة، يقرأون بنسبة 18.2 بالمائة، مقابل 61.4 بالمائة لا يقرأون إلا نادراً.

وإن وضعنا في الاعتبار قلّة تلاميذ الدراسـة الثانوية المنحدرين من عائلات العمال، يمكن أن يتضح أن تجارة المكتب المكتفية ذاتياً ليست أكثر من انعكاس للعدالة في فرص التعليم، التي ما زالت قائمة حتى اليوم في جمهورية ألمانيا الاتحادية.

ومـع الخـوض في ذكريات سـيّئة، فأنـا أتذكّر معـارض الكتب في نهاية عقد سـتينيات القرن العشرين، حين هيمنت ضرورة زعزعة المؤسسـة الثقافية كاملة بشـكل تعويضـي للمجتمع الرأسـمالي من خـلال الخطب والكلمـات المتطرّفـة. ومهما كانت التوسّـلات إلى البروليتاريـا وصـراع الطبقـات، فلم يكـن هناك غطـاء يمكنه حجب

حقيقـة أن أبنـاء وبنات المجتمع الراقي، هم الذيـن تعلّموا أن يكونوا ممثّلين عن العمال من خلال تحويلهم وظيفة مؤسسـة ثقافية حريصة علـى التغييـر إلـى ملتقيات ثقافيـة مبالغ فيهـا، حيث توجـد وجبات البوفيهـات الباردة، التي تنهب بعد وقت قصير من بدء الحفل، إضافة إلى الثوريين الذين باعوا ثورتهم كحقّ من حقوق الكتب. ولم يكترث العمال خارج هذا النطاق لهذه الملتقيات، وإن فعلوا فإنهم سرعان ما ينفرون منها.

ومنذ ذلك الوقت ظهرت اتجاهات مختلفة على شكل موضات، ومنها: سلسلات الكتب المعتمدة على أطروحات الدكتوراه، وتنميق الكلمـات بالمصطلح غير المفهوم بشـكل عام «النتاج الأدبي». لكن العمـال، الذين يتجرّأون علـى دخول المكتبة بعد جهـد كبير، عرفوا هناك على أي حال أن التعالي اليميني قد تحوّل بعد أعوام إلى غطرسة يسارية، والأولى تشبه الأخرى من حيث عدم فائدتهما له.

صحيح أنني الآن على معرفة تامة في أن إسقاطاتي مجحفة بحق الكثير من أصحاب المكتبات بشـكل شخصي، لكن الموضوع الذي اخترته، لا يمكن عرضه بعد كل هذه التجارب في إطار تعداد جوانب القضية. وحتى في حالة أكلي قبل ذلك قطعة طباشير وتحدثي إليكم الآن بصـوت رخيـم، فإني أجد نفسـي مجبراً على القـول: إن تطرّف معـارض الكتـب في فتـرة نهاية عقـد الستينيات، والـذي جعل هذا الحفل السنوي صالحاً للاستعراضات التلفزيونية فحسب، كان دليلاً على عجز الناشـرين والمراجعين وأصحـاب المكتبات والكتّاب في الخـروج من النتـن الوطني الصنـع وتهوية المكتبـات وتجديدها في ألمانيا.

وبغض النظر عن عجز أو قدرة دار النشر وسوق تجارة الكتب،

نجد أنفسنا أمام السؤال الآتي: ماذا يمنع العمال والعاملات من اللجوء إلى الكتاب والقراءة خلال توجّههم إلى العمل أو جعل ذلك بديلاً عن مشاهدة التلفاز بشكل استهلاكي؟

تقدم إجابة جزئية عن هذا السؤال إحصائيات، تبرهن على عدم التساوي في فرص التعليم في ألمانيا: فالقراءة من الأمور التي يجب تعلّمها، وتحتاج إلى تقليد معين، بل وتقليد عائلي. ولكن العامل القارئ كان موجوداً في القرن التاسع عشر وحتى العقد الأول من القرن العشرين. ويمتدّ هذا التقليد من اتحادات تثقيف العمال وشعار «المعرفة قوة» حتى تأسيس دار نشر بوشرغيلدا غوتنبيرغ. ومن دونه لم يكن ليوجد أوغوست بيبل، ومن دونه لم تكن الحركة العمالية لتنجح ومعها النقابات العمالية في تحمل الضغط البسماركي للقوانين الاشتراكية، وفي ترسيخ الغطرسة التعليمية المهدّدة في الرايخ الثاني وفي نضجها سياسياً.

أتحدّث عن أغلبية متداعية، وبالنسبة لأغلبية العمال والموظفين فإن التقليد المبكر للعامل القارئ لا يمكن تذكّره، بسبب انقطاعه بشكل راديكالي. وهنا يبدأ تقصير النقابات في ألمانيا. وخلال السنوات الماضية من مرحلة ما بعد الحرب كانت سياسة الأجور هي الشاغل الرئيس لهذه النقابات بحكم ضرورتها. أما عمل دار نشر بوشرغيلدا غوتنبيرغ فقد بقي في عزلة، وما زال الكثير من النقابيين لا علم لهم حتى بوجودها. بل وحتى على الجانب البورجوازي لا يُعرف إلا نادراً أن دار نشر بوشرغيلدا غوتنبيرغ هي مشروع نقابي، ولا يمكن فصله عن تاريخ الحركة العمالية في ألمانيا.

في مطلع أيلول/ سبتمبر من هذا العام ألقيت كلمة بناءً على دعوة من نقابة العاملين في الصناعات الفولاذية في شتوتغارت. وتناولت

فيها بشكل رئيس موضوع «الإجازة التثقيفية». وكان يهمّني في هذه الكلمة أن أنبّه إلى خطورة تحوّل الإجازة التثقيفية إلى أضحوكة فظيعة ـ كما هو الحال في هامبورغ ـ، ما إن تصبح قانوناً. وسبب ذلك يعود إلى أن المعروض التثقيفي والتعليمي للنقابات ضيّق للغاية، وتظهر خطورة ذلك في أن يقوم العمال بجعل هذه الإجازة عرضاً، المقصود منه هو الصعود في الأمور الشخصية أو أن يبتكروا نوعاً جديداً من برنامج القدرة ـ من خلال ـ السعادة. ولا أعتقد أن هناك نقصاً في تحقيق ذلك.

ربما صار الآن بإمكان الإجازة التثقيفية أن تتيح للنقابات بشكل خاص ودار نشر بوشرغيلدا غوتنبيرغ المتحدة معها فرصة لإيجاد وصلة تُربَط بتقليد العامل القارئ من جديد. وبمساعدة كتّابها توجّب على بوشرغيلدا غوتنبيرغ تنظيم حلقات بحثية في عطلة نهاية الأسبوع للمجالس العمالية والمسؤولين التثقيفيين والوكلاء، وبهذا تكون قد أسهمت بما تستطيع في قضية الإجازة التثقيفية بالتعاون مع النقابات. كما أن لديها الإمكانية والالتزام بخلق الاتصال الغائب هنا، وغير الكافي هناك بين الكتّاب والعمال. فجمهورها هو الجمهور ذاته الذي نتمنّى الوصول إليه. وبمعزل عن الضغط المتولّد من العمل على عجلة الإنتاج سيصبح من الممكن تجديد الصداقة القديمة بين العمال والكتب.

و يهيمن الآن حكم مسبق بشكل عام ليس في الأوساط البورجوازية فحسب، بل وعلى الصعيد النقابي المنحرف. ويرى أصحاب هذا الحكم المسبق أن هذه الصداقة تتّسم بدرجة كبيرة من التعقيد وتفوق قدرة العمال، وأنهم بحاجة إلى الاسترخاء والراحة. كما أنهم يرون أن علينا نحن الكتّاب أن نكتب روايات رخيصة

تعليميـة وبأسـلوب مبسّـط وملحّ، ولكـن من دون التخلّي عن سـمة الوعـي الطبقي والأفـق الطوباوي الاجتماعي. وقـد يكون هو عنصر الأمل، الذي تتحدّث عنه صحيفة «بيلد».

واسمحوا لي بالقول إنني أعتبر كل هذا الهراء نابعاً عن الغطرسة، لأنه يشـّكل سـبباً لإهانة العمال. وأرى أن العمال قادرون على قراءة الكتـب المعقّدة وتلك التي تقوم علـى التناقضات. كما أقطع باليقين أن وضـع العامل ولا سـيّما في القطاع الصناعـي ينطوي على الكثير مـن التعقيـدات ولا يمكن تصوّره إلا فـي تناقضاته. ومـا يحدث في مـكان العمل من تزامن العمليات والوعي المتراكب بدرجة عالية من التعقيـد، وجوقـة المونولوجات الداخلية الصامتة، يناسـب الجمالية الجديـدة لـلأدب الحديث. ولهـذا فقط بات من الممكـن أن يوضّح العاملـون والعامـلات من الشـبّان وظيفـة المونولـوج الداخلي لدى جيمس جويس وطريقة التعبير الحركي في رواية ألفريد دبلين «برلين ـ ميدان ألكسـندر» والأنظمة البيروقراطية المميتـة في أعمال كافكا. وهـم يجدون عالمهم، عالمهم المكتشـف، في كتب هذا المؤلف أو ذاك.

كان هنـاك فـي جمهوريـة ألمانيـا الاتحاديـة خـلال السـنوات الماضيـة كل الموجات الممكنة وغير الممكنـة أو تلك التي تتوالى: موجة القَرَم وموجة السـفر وموجـة الجنس. وكل هذا يأتي من هيمنة الاستهلاك السائدة. فعمد بعضنا إلى نعت البعض الآخر بالمستهلك. لقد دفعنا التطوّر السياسي مؤخراً، الذي قد يظهر جلياً في أزمة الطاقة، إلى الاسـتقصاء بشـكل أكثـر وأشـعَرَ البعـض منّا بالخـوف وأعطى الأمل لبعضنا الآخر. ويمكن أن تتلاشـى المادية البارزة للاسـتهلاك السـريع وشـارات الازدراء الآلية. ومن الممكن أيضاً أن تأخذ بعض

الاحتياجات الأخرى مكانها في حياتنا، كالحاجة إلى القراءة على سبيل المثال. ويمكن أن تجرفنا موجة إلى القراءة.

ويبدو أن الوقت لفعل ذلك قد أزفَ على حين غرّة. فالكتب مصطفّة بانتظار على الرفوف، تنتظر وقت استعمالها واستهلاكها في القراءة. وهكذا سيكون من الممكن تصور هذا المجتمع ـ قارئاً ـ من جديد. ويحدونا الأمل لا من حيث كونه ظاهرة أو صورة، في أن العامل القارئ سيكون عنصراً في هذا المجتمع، وكما اقترحنا في ما سبق يجب على دار نشر بوشرغيلدا غوتنبيرغ أن تقدّم له ما تملك من عروض للقراءة.

# بيت رعاية حوامل للكتاب

**خطبة لمناسبة تعيين كاتب زائر جديد**
**في مدينة بيرغن-إنكهايم، آب أغسطس 1975**

أعزائي الأشخاص،

طوال سنوات، قبل أن تُلطّخ سمعة تسمية «مواطنين»، خاطبت الاجتماعات مثل هذه بعبارة «أعزائي المواطنين». وكنت أعني بذلك المواطن المتنوّر الناشط، وليس ذلك الفرد الذي يلهو بحمالة سرواله غير مكترثٍ بقضايا مجتمعه. ثم حوّلت كلمة مواطن الجميلة إلى معنى سيّيء، ربما بسبب الجهل بتاريخ ألمانيا وأوروبا، ووصفت بالرجعية وربطت بذيل «البورجوازية الصغيرة». ولوقت طويل حاولت بدء كلامي بالعبارة المعتادة «سيّداتي سادتي». وخلقت ذلك مسافة سيئة وأدت دائماً إلى ردّة الفعل ذاتها بين الجمهور: يتفحّص الرجال خلسة وضع عقدة رباط العنق، والسيّدات يمسحن على تنانيرهن.

استعرت المخاطبة بـ«أعزائي الأشخاص»، فأبنائي، الذين سيبلغون سنّ الرشد قريباً، يخاطبون مجموعات الأشخاص الصغيرة والكبيرة بعبارة «الأشخاص». فهم يذهبون لزيارة أشخاص، ويأتون من مقابلة أشخاص، يلتقون أشخاصاً آخرين يجدونهم جيّدين. أعرف أن هناك عبارة لطيفة تستعمل في الجيش، وهي: «استمعوا إليَّ، يا

أيها الأشخاص». ولكن أبنائي لا يعرفون شيئاً عن ذلك. لذلك أقول على سبيل التجربة: «أعزائي الأشخاص!» وأشارككم سعادتكم في أن الكاتب الزائر الجديد فولفغانغ كوبين[1] يسلم الريشة إلى الكاتب الزائر الجديد كارل كرولوف[2].

وأرجو أن لا تنتظروا مني خطبة عن الواقع السياسي الراهن. فعندما يجب أن يثبت لوح الوجود الضيّق للأدب والمشكوك فيه دائماً، كما هو الحال في بيرغن، فمن غير الممكن الحديث عن السيد دريغر[3] وأمثاله من المعاصرين.

ولكن لا تتوقّعوا أيضاً خطبة مديح. والناس في بيرغن-إنكهايم لا يريدون في البدء تكريم الكاتب الزائر الموقّت، بل يجب أن تسهم هذه المؤسسة بشكل اجتماعي: فالفرصة متاحة للكتّاب للابتعاد عن

---

(1) فولفغانغ كوبين (1906 – 1996): يُعدّ من أهم كتاب مرحلة ما بعد الحرب في الأدب الألماني، من أعماله رواية «الجدار يتهاوى» عام 1935، ورواية «حمامات في العشب» عام 1992، ورواية «حب يائس» وصدرت عام 2003 بعد وفاته. ولم يترجم شيء من أعماله إلى العربية. (المترجم).

(2) كارل كرولوف (1915 – 1999): كاتب ألماني نشأ في كنف عائلة بورجوازية في مدينة هانوفر، ودرس علوم اللغة الألمانية وآدابها والفلسفة في جامعة غوتينغن، من مؤلفاته: «أيام وليالٍ» عام 1956، و«عن أشياء قريبة وبعيدة» عام 1953، و«قصائد تتغنّى بالحب» عام 1997. ولم يترجم إلى العربية شيء من أعماله سوى قصتين قصيرتين، الأولى «آلة العلم»، والثانية «ما كان عرضة للموت»، وترجمهما الدكتور مصطفى ماهر في كتابه «ألوان من الأدب الألماني»، دار صادر 1974. (المترجم).

(3) المقصود هنا السياسي الألماني ألفريد دريغر (1920 – 2002)، كان عضواً في الاتحاد المسيحي الديمقراطي، الذي تتزعمه اليوم المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، وشغل منصب عمدة مدينة فولدا للفترة من 1956 حتى 1970 (المترجم).

هموم موطنهم وغيرها من الأشياء، وكسب المجال الكافي ليمنحوا أنفسهم راحة، ويا لها من رفاهية قديمة الطراز!

وفولفغانغ كوبين وكارل كرولوف ونحن الكتّاب بحاجة إليها. ومن هذه الراحة فقط، نعم من هذا الكسل، الذي ينتج عنه ذلك الإمساك الثقيل، تصل الجمل الطويلة والقصيرة «وربما القصائد إلى الورق».

هل وجد فولفغانغ كوبين الراحة هنا؟ آمل ذلك. هل سيجد كارل كرولوف الراحة هنا؟ أرجو له ذلك. لكن سرعان ما تساورني الشكوك. وأستقي من مقالات الصحف ورسائل القرّاء والرفض المزمن للمعارضة المؤطّرة باللون الأسود. فقد تكون هناك مطالب من الكاتب الزائر في بيرغن - حتى لو وضع في العش الجاهز. نقاش هنا وحديث مع الأشخاص المحتفلين بيوبيلهم الثمانين هناك، والحضور في هذه المناسبة وتلك. وبمختصر العبارة وبتعبير أدقّ: إن على الكاتب الزائر أن يتواصل مع الناس الموجودين في المدينة، من أجل أن يرى الناسُ أنه موجود كذلك.

وسرعان ما تمتلئ الراحة الموعودة الضرورية الجميلة بكمٍّ هائلٍ من المواعيد اليومية الصغيرة. فمن يستطيع مع هذا كله أن يجدَ الكلمات، حين يتوجب تقديم نصف ما هو منجز كدليل على وجوده. بهذا يُقطف أغلب إنجازه غير ناضجٍ، مثل الطماطم والموز عندنا. ثم ينضج في وقت ما لاحقاً.

أدّعي أن تسارع الأنفاس لإنتاجنا الأدبي المعاصر يمتُّ بسبب من الأسباب إلى المؤسّسة الثقافية. فالناس يرغبون في رؤية شعرائهم خلال العمل: متجهّمين مفكّرين وهنا متحدِّين وهناك مشكّلين، وغير منحازين قدر الإمكان، وفوضويين قليلاً،

ولكن بالقول فقط رجاء، فعندما ندعوهم يجب أن يقدّموا شيئاً ما أيضاً.

لا نريد من ذلك السلوك شيئاً. والصوت العالي يجب أن يصمت. وأهم من أي وقت مضى، فإن من الضروري للأدب، أن يقفز قفزات كبيرة ليفتل اللغة من اشتباكات إرهاقها، للتجرّؤ على النجاح الكبير والمهدّد بالفشل، ليلتقط أنفاسه بعد وقت طويل من الجد المضطرب، وأن يكون غير ذي أهمية للمستفيدين، الذين يدمنون التأكيد، وأن يمنع ويعترض مطالب الناس.

المنفرد فولفغانغ كوبين يعرف هذا بشكل أفضل منّي. والشاعر والكاتب كارل كرولوف يُعدّ العارف الدقيق بالتغيّرات الأدبية منذ عقود طويلة. فهو يعرف أن القصائد تُحمل بما فيه الكفاية دائماً كأطفال الفيلة طوال عشرين عاماً. ومن يريد أن يقصر من مدّة حمل الكتاب، يجعلهم طيوراً، تنمو عضلاتها بسرعة تحت تأثير الهرمونات، وتقدّم رخيصة في شوّايات مطاعم فينرفالد. لذلك أرى أن بقاء الكاتب الزائر في بيرغن كدار لرعاية الحوامل للكتاب: وهنا يمكنهم أن يكملوا حملهم بهدوء. صحيح أن بإمكان المرء التعجيل بإنتاج الثلاجات والمفاعلات النووية وأقلام الحبر، ولكن في حرفة الكتابة القديمة الطراز لا يستطيع الكتابة بسرعة أكبر حتى مع اختراع الآلة الطابعة.

حين اتصل بي صديقي فرانتس يوزيف شنايدر قبل أسابيع قليلة، وطلب منّي أن أحكي للناس عن معنى الكاتب الزائر، وانتشلني من العمل في مسودة، ما زلت أعكف عليها منذ سنتين وأحرص على عدم فقدان الرغبة في استمرار العمل عليها. ولكن بما أن على الاشتراكيين الديمقراطيين أن لا يتحدثوا فقط عن التضامن، وافقت

على المجـيء. إضافة إلى ذلك فقد فتق هذا الاتصال الإبداع أمامي. ففي أحد الفصول الوسـطى مـن الكتاب الذي أكتبه ينعكس، حتى لو كان في مكان وزمان آخرين، وضع الكاتب، الذي بات مؤخّراً محوراً للحديـث، وأزماتـه، وتناقضاته السياسـية، وبحثه عن مـأوى. لذلك أسـمح لنفسـي أن أقرأ عليكم، أيها الأشـخاص الأعزاء، هذا الفصل بـدلاً عن خطبة أخـرى. لربما تعمّ الفائدة ونعرف عـن الكاتب الزائر في بيرغن المزيد من خلال حوار بين شاعرين من زمن الباروك.

## توقّعات ناقد

**تشرين الأول/أكتوبر 1975**

ينبغي على النقد الأدبي أن يقيس الكاتب بقصده الخاص. ويفترض هذا على الناقد أن يتحفّظ على قدر كبير من توقّعاته الأدبية الخاصة وطموحاته، بل وكل معيار أدبي يوضع من الخارج مقياساً للمؤلف وكتابه، وكل اختيار إيديولوجي مُلائم مع الكتاب المراد عرضه يجب أن يؤدّي إلى أسلوب نقدي لا يصل إلى المؤلف وكتابه، بل يمكنه أن يثبت على أكبر تقدير، إلى أي حدّ لبّى الكاتب توقّعات الناقد الأدبية والإيديولوجية.

إن أجزاء كبيرةً من عروض الكتب الصادرة باللغة الألمانية تتميّز بتكبّر النقاد، كما تعتاش، بأسلوبها الرائع، على نفقات المؤلفين وتضيع في الغالب الفرصة لمساعدة الكاتب في مشروعه الفردي، الذي لا يجاري الزمن، بالنقد الموضوعي المنصب على شخصه وعمله.

وقد يكون بإمكاني أن ألغي نتائج البحث هذه بخبراتي الشخصية. فعملي الأدبي يرافق منذ سنوات الكثير من النقّاد، الذين أصبحوا خصوماً لي. ومن الطبيعي أن يتم تقييمي من خلال روايتي الأولى «الطبل الصفيح». ومن الطريف أن نرى كيف يطالب النقّاد

مـن أصحاب المطالب التقدّميـة بتصرّف محافظ، مـن دون تطوّر أو تراجـع. لذلك فإن من الممكن ألاّ تكـون روايتاي الأخيرتان «مخدر موضعياً»[1] و«من مذكرات حلزون»[2] مّما ينال إعجاب بعض النقّاد، وسـبب ذلك عدم ظهور شخصية أوسكار ماتسـيرات فيهما. ولكني أعتقـد أن الحقّ في التطور، أو ـ كما يريدون ـ التطوّر السـلبي هو من حقّ المؤلف وحده، بل وكذلك فإن على الناقد أن يسـمح لنفسه بنيل هذا الحق.

---

(1) روايـة صـدرت عـام 1969، ولم يُترجم إلى العربية سـوى جـزء قصير منها في كتاب «ألوان مـن الأدب الألماني»، ترجمة الدكتور مصطفى ماهر، دار صادر 1974. (المترجم).

(2) قصة صدرت عام 1972 وتناول فيها غراس موضوع التنافس في الانتخابات البرلمانيـة الألمانية عام 1969. وبعد صدورها انسـحب غراس من النشـاط السياسي موقتاً. والقصة لم تترجم حتى اليوم إلى العربية. (المترجم).

# حق المشاركة في اتخاذ القرار

**خطبة أُلقيت في الاجتماع السنوي لاتحاد الكتّاب الألمان في مدينة دارمشتات الألمانية في تموز/يونيو 1976**

زميلاتي زملائي الأعزّاء،

إننا بحاجة جميعاً إلى الناشرين ما دمنا نؤلّف الكتب، كما يحتاج الناشرون إلى الكاتب، وتلك حقيقة واضحة كالشمس. نحن جميعاً خضنا عدّة تجارب مع دور نشر كبيرة وأخرى صغيرة. كما أننا نعرف جميعاً تلك المقولة: إن الناشر يدخل في مغامرة كبيرة مع نشر كل كتاب ومع كل كاتب غير معروف. ولكن نادراً ما يتم الحديث عن مغامرة الكاتب، الذي يأتمن إحدى دور النشر على إنتاجه الفكري، الذي يعد جُلّ وجوده. فالكاتب يمنح الناشر حقوق ملكية كتابه بمجرد إبرام العقد. ويصبح هذا الأمر في النهاية غير قابل للتغيير، حتى بموت الكاتب. ولكن بإمكان الناشر أو ورثته بيع دار النشر لمن يقدّم الثمن الأعلى، مع كل عناوين الكتب المتعاقد عليها، أي أنهم يستطيعون بيع الكتّاب كذلك.

وبعبارة أخرى: إن العلاقة بين الناشرين وكتّابهم تنطوي على شيء من العبودية. وبشكل يُذكّر بالحقبة التي سبقت الرأسمالية، فيمكن أن تُباع عزب دور النشر بعبيدها وكل من يعمل فيها، وبهذا

فإن من الطبيعي أن يُمنح المشتري الحق في تقييم القيمة السوقية لهذا الجمع البشري المشترى مرة واحدة. يتم وضع عناوين الكتب لا المؤلفين أنفسهم في مصفاة بثقوب كبيرة ومن ثم هزّها. والنتيجة هي تجاهل الأرواح الميتة التي تسقط من ثقوب المصفاة. يتذرّع الناشرون بقسوة وبإصرار بالقول: هذا هو وضع المنافسة، فنحن في النهاية من يتحمّل عواقب هذه المخاطرة. بهذه الطريقة الإقطاعية أفلست دور نشر كثيرة صغيرة ومتوسطة الحجم في السنوات الأخيرة. وباتت البرهنة على الخسارة الجوهرية للأدب ممكنة. ولكن ما من شخص يهتم بهذا ويرفع صوته عالياً مع كون الحديث إنما هو عن الرأسمالية والاشتراكية، وعن المراقبة المشاركة في اتخاذ القرارات بشأن نوعية الإنتاج، وبالأخص عن الكتّاب.

لكن الناشرين لا يأبهون بذلك، لأن علاقتهم بالمؤلف والصنعة عموماً، علاقة من فترة ما قبل الرأسمالية، كما قلت وبما أنها تتجاوز ذلك إلى علاقة ثقة من النوع الطبقي والسلطوي كما أنها تشجّع الفن أحياناً، فالناشرون المجتمعون في سوق الكتب الألمانية يبقون بعيدين عن المتاعب والضرر. وكان كتّابهم المفضّلون منشغلين إلى النهاية بتحرير كتّاب آخرين إلى الدرجة التي لم يخطر على بالهم فيها أن استعبادهم الخاص والمفروض بات وبشكل مضحك غالباً على النقيض من تصريحاتهم التي يطلقونها في كل اتجاه.

ومنذ وقت طويل واتحاد الكتّاب منشغل بإصلاحات مستحقة ـ كأجور المكتبات والتقاعد وغيرها ـ وبالنهاية بتمشية أموره وقراراته الراهنة، حتى استنفد قواه وأضحى غير قادر على السؤال مجدّداً عن العلاقة بين الكتّاب وناشريهم، أو عن العلاقة الاستعبادية كما أرى.

ولم يتبقّ سوى إمكانية المبادرة الشخصية وحدها أو إنشاء دور

نشر تعود للكتّاب، حيث تتقيّض الظروف الاقتصادية لذلك في قطاع الإنتاج السينمائي والمسرحي. ولا يمكنني إلا أن أتحدث هنا عن مبادرتي الخاصة آملاً أن تكون هذه الخبرات المكتسبة في خلال ذلك مثيرة لاهتمام الكتّاب الآخرين.

وضعتني الحقيقة المجرّدة في أنني أعمل منذ ثلاثة أعوام ونصف على مسودة كبيرة في وضع جيد للتفاوض بالنسبة للمؤلف، لأن الاهتمام بهذه المسودة سبق هذه المفاوضات.

لم تستجب دار نشري لوخترهاند، التي تمتلك منذ عشرين عاماً حقوق نشر كتبي الرائجة أو تلك التي أصابها الكساد، لمطالبي في البدء. فأجريت مفاوضات مع دور نشر أخرى وأخبرت دار نشر لوخترهاند عن المراحل التي وصلتها تلك المفاوضات. وأردت الحصول على الحقّ في اتخاذ القرارات حول جميع المشكلات في دار النشر حتى المتعلقة بالكتّاب. وذكرت ثلاث نقاط:

أ . مشاركة الكتّاب في القرارات المتعلّقة بإنهاء عقود رئاسة التحرير والمديرين وتعيينهم.

ب. مشاركة الكتّاب في اتخاذ جميع القرارات المهمّة المتعلّقة بفقرات خطة النشر: بدء سلسلة كتب معينة، قبول عنوان جديد أو رفضه لأسباب غير أدبية بشكل مثير للجدل، وغيرها من القرارات. وعلى عكس ذلك عدم التصويت لتقدير القيمة الأدبية لبعض الكتب، لأن هذا النوع من المشاركة في اتخاذ القرار تضعف قدرة المراجعين وتسبّب خطورة أن تساوي الخلفيات الأدبية غيرَها.

ج. وهنا أكثر النقاط أهمية: حقّ الكتّاب في المشاركة في القرارات

المتعلّقة بتغيير وضع ملكية دور النشر: اقتراض رؤوس الأموال والبيع والشراء والبيع الجزئي وغيرها.

وعلى مدى عام ونصف تفاوضت مع مختلف دور النشر وكان من بينها دار نشر كارل هانزر وأس فيشر، أبقيت الباب مفتوحاً في مفاوضاتي مع دار نشر لوخترهاند. ولمست لدى كل دور النشر المذكورة تفهّماً لهذه المطالب المبرّرة والمتعلّقة بمشاركة الكتّاب في القرارات. وكان من الجليّ لكل دور النشر أنه من الضروري الاعتراف للكتّاب بتقديم حماية أكبر لحقوقهم لدى دور النشر من عدم اهتمام ورثة أصحاب هذه الدور المحتمل ومن بيعها كلياً أو جزئياً. ولكن عبارات مثل «الحق في المشاركة في اتخاذ القرار» أو «مجلس إدارة» أثارت هلع أصحاب دور النشر. وبدأ الامتناع ما إن تطرّقت إلى توسيع وظيفة المؤلف المقتصرة على الاستشارة لتصير وظيفة تنطوي على المشاركة في اتخاذ القرار بموجب عقد ملزم.

بقيت حججي ولم تتغيّر، فبعد عشرين عاماً من العمل أصدرت اثني عشر كتاباً، كانت مغامرتي المربحة. فتأمين رأسمال عملي من عبث بعض ورثة دور النشر ومن الاضطرار اللاعقلاني للتمركز الاقتصادي في قطاع دور النشر يمنحني حقّ المشاركة في اتخاذ القرار. ودار النشر تعتمد في النهاية على مجموع أعمالي. والكتّاب هم أول من يوجد دور النشر.

ولأني رصدت ما يكفي من الوقت لعملي في مسودة كتابي، فقد بقي بعض الوقت للتفاوض. ولم يكن هناك ما يحرّضني على الاستعجال في ذلك. ولم يكن أقصر من وقت عمل الناشر هيبل. مندهشاً وجدت في نفسي ثقة تكبر من يوم إلى آخر، خلال تمثيلي لقضية الكتاب، إذ كان من الصعب على دور النشر الإحجام عن

موقفها الذي يشجّع الفنون والإنساني-الاستملاكي ولكن المحبّب والمبدئي كذلك، وأن تعترف بمسؤوليتها المتعلّقة بماهية دور النشر في مجتمعنا: مشاريع رأسمالية، مع احترامي الفنون والفكر.

يضع الكتّاب أنفسهم أمام مهمة رفع النقاب القديم المتأتّي من فترة ما قبل الرأسمالية قليلاً عن الناشر، الذي يوصف بالداعم، وتعليمه أن يكون هو ذلك الرأسمالي الموضوعي، الذي يمكن التعامل معه بعدالة. وأخيراً وليس آخراً فقد بات واضحاً لعيان الناشرين خلال المفاوضات أن الكاتب قادر على تأمين واستمرارية عمل الناشر ووجوده.

فالكاتب، لا باعتباره وريثاً بالمصادفة، إنما تربطه علاقة بدور النشر من خلال عمله. وهو يعرف أن الأدب لا يتكوّن من أحد كتبه البارزة فحسب. كما أنه على دراية أن عمله يبقى معزولاً إذا لم يرتبط بتناقضات الأدب في زمانه. ويجب أن يضع في مقدمة حساباته أنه من الضروري أن تدوم الملكية الأدبية للدار التي تنشر كتبه، وأن تُحمى في وقت الأزمات، وأن لا يُضحّى به من أجل اتجاه يلائم الموضة والسوق بأي شكل من الأشكال.

وعن تغيّر الأوضاع في دور النشر: فلا الورثة الجدد لدار النشر، الذين يضاربون على أرباح غير حقيقية، ولا التنويري صاحب رؤوس الأموال والإيديولوجية التملكية الواهية، بل التحفّظ المتنوّر للكتاب هو الذي ينصف الأدب والتقاليد المرتبطة به على الدوام. والشرط المهم في ذلك هو أن يدرك الكتّاب أن كلاً منهم وعلى حدة حالة منفصلة بذاتها وأنهم يعكفون منعزلين على مخطوطات أعمالهم.

وعلى الرغم من كل الصيحات في هذا العقد، فإنه عقد إشراك الكتّاب في اتخاذ القرارات. ومن جديد، لأن الوضع السياسي

أصبح أكثر نضجاً، فقد نالت نقابات العاملين في القطاع الصناعي بشق الأنفس نتائج في صراعها من أجل مطالبها، ولكنها بقيت نتائج جزئية. كما أن نموذج إشراكها في اتخاذ القرار لا يمكن أن يسري على دور النشر. وإذا حاولنا تطبيقه، يبقى الكتّاب غير معتد بهم. فالملكية الفكرية للكاتب، كما يُنص عليه في العقود مع دار النشر، لا يمكن مقارنتها بإنتاج أحد العاملين في القطاع الصناعي. ومهمّة الكتّاب تبقى استخلاص حقّهم في المشاركة في القرارات من طبيعة عملهم الخاصة وملكيتهم المنقولة إلى دور النشر، وإيجاد طريقة معيّنة لا تمسّ قانون حقوق العمال وواجباتهم في مؤسساتهم.

وبعد كل هذه التجارب يجب علينا أن نشعر بالقلق مما سيحدث إذا فقدت دور النشر، المقرّبة منّا، رغبتها أو قدرتها على الاستمرار مستقبلاً. فماذا سيحدث إذا تخلّت دار نشر ليديش-روفولت عن كل أعمالها، وإذا بدأ زيغفريد أونسيلد يشكّ في حيويّته، وإذا كف السيد مون عن تجاربه، وإذا طلب كارل هانزر وناشرو أدوارد رايفرشايد حقّهم في الهدوء.

في الحقيقة يجب أن تكون على قائمة أولويات جميع الأشخاص، الذين ذكرتهم أن عملهم، الذي لا ينفصل عن عمل كتّابهم، يجب أن لا يترك لتصرّفات القمامة التابعة لاقتصاد السوق الحرّ المزعوم. فقد انتهى وقت دور النشر، التي تُقاد بشكل سلطوي. ويمكن أن يتأسّف البعض لذلك. وقد أسهمت شخصيات كبيرة في مجال دور النشر في نهاية هذه الحقبة. ولكن حين لا يترك الأدب لتصرّف الإدارة المجهولة، فيجب أن يُضمَن للكتّاب حقُّ المشاركة في اتخاذ القرار، وعلى حدة وحسب دار النشر.

وفي النهاية تكلّلت المفاوضات مع دار نشر لوخترهاند

بالنجاح. وقد قام زملائي غابريله فومان وبيتر هيرتلينغ بالوقوف إلى جانبي في المرحلة الأخيرة من المفاوضات. وطلب كلا فرعي دار نشر لوخترهاند في مدينتي نوفيد ودارمشتات- الأول متخصّص في الكتب العلمية والثاني في الأدبية ـ طلبا خطة خاصة. ففي عقد تأسيس دار النشر هذه يوجد مجلس إدارة، ينتمي إليه كتّاب لهم الحقّ في المشاركة في اتخاذ القرارات. ويتألّف مجلس الإدارة هذا من سبعة أشخاص: أربعة كتّاب، اثنين في فرع نوفيد والآخرين في فرع دارمشتات، يساعدون مديري الفرعين وأحد موظفي دار النشر، الذي يقرّر المجلس تعيينه.

ويجب أن تتمّ المصادقة من قبل المسهمين على جميع أعضاء المجلس وممثليهم بموجب عقد التأسيس. ويجتمع هذا المجلس ويبت في جميع القضايا المتعلّقة بدار النشر: مثل إنهاء عقد أحد مديري الدار أو تعيين بديل عنه، أو في حالة إدخال تغيير على برنامج النشر، أو في حالة وجوب تغيير ملكية دار النشر.

ويشمل ذلك أيضاً أي تغيير جزئي محتمل يطرأ على ملكية دار النشر. وإن كانت الأسباب الاقتصادية في هذه الحالة وجيهة، يكون من حقّ ممثّلي الكتّاب في مجلس الإدارة استعمال حق نقض «فيتو» لأسباب غير اقتصادية.

ولا يمكن لأصحاب دار النشر وحدهم نقض هذا الفيتو، حين يرجعون حقوق الملكية لمؤلفات الكتّاب الذين لا يوافقون على بيع دار النشر. وهكذا يبقى رأس المال الأدبي محفوظاً لدار النشر إذا اقتضت الضرورة، أو يمكن أن ينتقل إلى دار نشر أخرى أو دار نشر تابعة للمؤلفين يكون تأسيسها ضرورياً. وإذا سمح الكتّاب في

مجلس الإدارة ببيع دار النشر كلياً أو جزئياً، فيجب على المشتري أن يُلزم بالتعامل مع مجلس الإدارة.

وباستثناء حقوق المشاركة في اتخاذ القرارات فإن الكتّاب في مجلس الإدارة يجدون أنفسهم أمام مهمة والتزام يتمثّلان في تقديم الاستشارات. وبعد مرور سنتين يقدم الكتّاب العاملون في مجلس الإدارة، والذين ما زالوا يجرون المفاوضات، لزملائهم في دار النشر تقريراً ويرشّحون فيه أنفسهم لانتخابات جديدة.

وسرعان ما تمّ بشقّ الأنفس التوصّل إلى نتيجة للمفاوضات مع دار نشر لوخترهاند في وقت بدأت فيه الإجراءات التقشفية و«التقليص» و«تغيير الاتجاه» المزعوم وما يمكن أن يُدعى بموضة الكتب الكاسدة في المكتبات في الغد. أعتقد أن نتيجة مفاوضاتنا ـ المتمثلة في مجلس الإدارة الاستشاري ـ يمكن أن تطبّق أيضاً في دور نشر أخرى. وذلك الأمر جدير بالنقاش.

# حتمية وظيفة علمانية

**خطاب ألقي لمناسبة افتتاح مكتبة المؤلفين في برلين**
**أيلول / سبتمبر 1976**

سيّداتي سادتي،

نرحّب بكم، نحن أصحاب المكتبات وشركاء مكتبة المؤلفين. وأعني بشركاء ضرورة تأسيس شركة في البدء، وأن نكون كمؤلّفين قادرين على الشراكة. ولكنني أراهنكم على أن غالبية المؤلّفين المشاركين لم تدرك حقاً كشركاء ما هو عقد الشركاء، باستثناء روبرت فولفغانغ شنيل ورولف هاوفس، اللذين يتمتّعان بخبرة تجارية، أو يقولون ما شابه ذلك.

بدأ الأمر بالبحث عن المكان المناسب. ولأن الطموح يعتري المؤلفين، هذا يعني ضرورة وتوجب الإقدام على التوجّه إلى الضواحي الخارجية: مثل ضاحية كرويتسبيرغ أو ما شابهها. ونال هذا الموافقة، لكن الحقائق الاقتصادية حالت دون ذلك. فالمرء لا يحوم حول مركز المدينة. ولأنه بات من الواضح أن لبرلين مركزاً، ننتقل الآن إلى ساحة سافيني، حاملين طموحاتنا في الوقت ذاته. وهذا يعني: صحيح أننا نريد الاستمرار هنا، لكننا نريد أيضاً أن نكون متنقّلين. وبواسطة مستأجر ـ وهذا احتواه برنامجنا ـ نريد بعد وقت مناسب، طالما لا تحول الحقائق الاقتصادية دون ذلك بعد الآن، أن

ننتقل في الضواحي. ومن الطبيعي أن يكون بعض الكتّاب الطموحين في قافلة التنوير المرتحلة.

ستلاحظون أنني يمكن أن أكون غير مهتم بالاحتفاء بمكتبة المؤلّفين الثانية بعد إنشاء الأولى في مدينة ميونخ، بل بتوجيه الشكر في البدء إلى مكتبة أدباء ميونخ. فهناك بدأت هذه النقلة، التي نأمل أن يكون لها مستقبل. يجب أن تنشأ في جميع المدن الألمانية الكبيرة مكتبات مؤلّفين، من أجل أن يحافظ الأدب على فرصته في وقت مؤسسات السوق المهيمنة والبضاعة الاستهلاكية قصيرة الأمد. نحن معشر المؤلّفين نعرف تماماً أن الكتب - حتى لو كانت تتمتّع بوزن أدبي كبير - سرعان ما تصبح غير ذات أهمية بالنسبة لدور النشر والمكتبات. فنتاج الخريف يمحو أثر نتاج الربيع الذي سبقه، وهلمّ جرّاً. كما أن دور النشر سرعان ما تبدي استعدادها لبيع المتبقّي من نسخ كتّاب بأبخس الأثمان أو لإتلافها. لكن العناوين المهمّة والتي لا يُستغنى عنها لفهم أدبي في زماننا هذا، تختفي من المكتبات بعد ثلاثة أو أربع سنوات من صدورها. وهنا تبرز مهمّة مكتبة المؤلّفين، التي لا يمكن أن يستوعبها على ما يبدو إلا عدد قليل من المكتبات الأخرى.

إذاً، فتأسيس مكتبات المؤلّفين مرتبط بالمساعدة الذاتية. وتصبح سعادة اتخاذ القرار المفاجئة هذه لدى الزملاء المنقسمين على أنفسهم، والذين يتجاهلون بعضهم البعض، مفهومة، حين يتذكّر المرء فقط أن اعتداد الكتّاب بأنفسهم ازداد داخل مجتمع ألمانيا الغربية خلال الخمس أو الست سنوات المنصرمة، وبدأ يأخذ ملامحه.

بعد تداعي جماعة 47 وحلّها لنفسها، تلك الجماعة التي قدّمت خلال عام واحد على الأقل بديلاً أدبياً عن العاصمة طوال عقدين من الزمن، تمّ تأسيس اتحاد الكتّاب. وأعلن هاينرش بُل في خطبته لمناسبة التأسيس «نهاية التواضع». وبحث اتحاد الكتّاب ووجد في ما

بعد أن التعاون من خلال عضوية أعضائه في نقابة العاملين في الطباعة والصناعات الورقية. وتمّ الحصول بمشقّة على خدمات اجتماعية مستحقّة كالتقاعد ومكافآت المكتبات القليلة. وببعض الحظ والتفات القدر نسخ المؤلّفين. وخلال مرحلة النشوة الثورية لمعارض الكتب تمّ الإيهام أن بإمكان الكتّاب بوصفهم منتجين أدبيين أن يعيدوا ذلك في وقت قصير كل ما ناضل من أجله العمال المنضمّون في نقابات خلال قرن كامل. فتبعت ذلك خيبة أمل. لكن بقيت هناك ضرورات مهنة علمانية. سواء النضال لأجل الحصول على الحق في اتخاذ القرار في دور النشر ـ كما هو الحال في دار نشر لوخترهاند ـ أم نشوء نسخ مؤلّفين جديدة، أم تأسيس مكتبة المؤلّفين الأولى والآن الثانية، فإن كل هذه مراحل لتطور بدأ في مطلع سبعينيات القرن العشرين، وكان عليه أن يتجاوز عقبات البداية، وضمّ بين دفّتي كتبه الكثير من الآمال الخاطئة، ولكنه في جوهره لا يمكن إيقافه.

أتمنى لأصحاب مكتبتنا، السيدة كيزيريتسكي والسيد كونه، الاستمرار والمزيد من الإبداع. وأتمنى لزبائن هذه المكتبة كقرّاء تلك المتعة الكبيرة، التي لا يمكن أن يقدّمها سوى الأدب. كما أتمنى لمكتبة المؤلّفين في برلين أن لا تُسرق كتبها، فمن يسرق هنا، يسرق المؤلّفين. وهو وضع، يعرفه الكتّاب بمعناه المضاعف والثلاثي، ولكن يرغب في تغييره إن تمكّن من ذلك. يمكنكم أن تقرأوا النشرات التوضيحية وتفحّصها بنظرة الناقد، وهي تقدم نظرة عن برنامجنا المزمع. ذكرت لكم الحافلة المتوجّهة إلى الضواحي. إضافة إلى ذلك تمّ اتخاذ قرار يقضي أن تمنح مكتبتا المؤلفين في ميونخ وبرلين منح جائزة المؤلّفين للمرة الأولى في العام القادم. ولكننا لا نعرف بعد من سيكون في لجنة التحكيم وما هو قدر الجائزة. فما يزال أمامنا وقت طويل، وهذه البداية فحسب.

# لماذا الآن فقط؟

**لمناسبة منح الناشطات بحركة السلام الشمالية ميدالية كارل-فون-أوسيتيسكي، في كانون الأول / ديسمبر 1976**

من أجل إعطاء مرحلتنا هذه شعاراً، نادى أحد الجنرالات الفاشيين في بدء الحرب الأهلية الإسبانية: «فليحيَ الموت!» حدث هذا في مدينة سلمانكا. فأجابه الفيلسوف والكاتب ميكل دي أونامونو، الذي يعيش في المدينة نفسها: «فلتحيَ الحياة!».

ويا له من جواب تاريخي وشجاع في تلك المرحلة، ولكن كلمات أونامونو نُقضت من الواقع الذي أتت به السنوات اللاحقة لها ولم تجد أذاناً صاغية، فمن أجل الوطن أو رفعة الأمة أو هذه الفكرة أو تلك أو الشرف أو المجد ما زال يُهتف بالموت ويُعلن مضموناً واقعياً للحياة.

وحصيلة ذلك معروفة لدينا. فقد كنّا حاضرين في أثناء القتل وإحصاء عدد القتلى. وفي كل بقعة من بقاع أوروبا يمكن للمسافرين بسياراتهم لقضاء العطلات أن يقرأوا في خرائطهم الأماكن التي باتت فيها مقابر الجنود الشاسعة جزءاً من الطبيعة الجذّابة على الأقل. ويعود تاريخ صلبان القبور البسيطة الموحّدة إلى الحرب العالمية الأولى انتهاءً بالحرب العالمية الثانية، مروراً بالحرب الإسبانية

الأهليـة. وحتى مـن دون التطلّع إلى الأسـباب، فما زالـت لدينا بقية للتجسـيد الراقـي أو الألفاظ الرنانـة ذاتها لنتائـج كل محاولات حلّ الصراعات المذكورة.

ومـن الطبيعـي أن يكـون الاسـتنزاف العام والخسـائر البشـرية المسـجّلة كبيريـن بعـد الحـرب وبشـكل كافٍ لإمكانيـة إيجـاد اسـتراحات، كان يمكـن للمـرء فيهـا أن ينعـم التفكير فـي ما حدث. وهـذا مـا حدث أيضاً: فالسـلام الذي عـمَّ في عـام 1945 ترك بعض الصراعـات المحدودة فحسـب. ويمكن للقوى العظمى المستغرقة فـي التفكير أن تمني نفسـها بهـذا تحت مظلة التوازن النووي بشـكل متبادل. ولكن ما يسـمّى بالصراعـات المحدودة تخلف هي الأخرى ملايين القتلى، على الرغم من اسـتعمال الأسـلحة التقليدية، حتى إن لم يتم إحصاؤهم بالدقة الأوروبية.

وأذكر منها الحرب الكورية، وحرب فيتنام، وإبادة شعب في ما يسـمى بصراع بيافرا، وحرب الإبـادة ضد الأكراد، وكل الحروب في منطقة الشـرق الأوسـط انتهاءً بالجنوب اللبنانـي، والحروب الهندية الباكسـتانية، وما شـابهها من الصراعات كوضع الحـرب الدائمة في ايرلندا الشمالية.

مـن يقوم بهـذه الحروب والصراعات؟ ومن يدفع بعض البشـر إلـى إبـادة بعضهـم؟ وما هـو منطق اسـتثمار جـزء لا يُسـتهان به من الأمـوال والأجور في صناعة تقنيات إبادة تزداد تطوّراً؟ وأي شـيطان يلمّع صورة العدو حتى نجد أنفسنا في مواجهة بعضنا في وقت السلم متأوّهين أمام ثقل تسلّحنا، وواثقين من موتنا؟

وإن أمعنـا النظـر سـنجد أن كل هـذا يجعل الحيـاة، التي ترعى هـدوءاً كهـدوء الببغاوات، جـادة وصارمة إلى حدّ المـوت، وبخبرة

براغماتية وبمطالب أخلاقية، مباركة من رجال هذا الدين أو ذاك. كما يجعلها مليئة بالمعارف وبتفوّق يبذله الرجال منكرين ذاتهم. ويُخطّط لهـذا ويُنفذ من قبل بعض الرجـال، ويزوّدونه ببعض الفهم. فالرجال يصنعون التاريخ، ويحلون الصراعات. كما أنهم يستمرون بألاعيبهم الصبيانيـة. وهم يقفون تارة ويقعون تارة أخرى، ويسـتمر هذا حقيقة حتى الرجل الأخير. ويخشـون حالة الحـرب، ولكنهم يحلمون بها. والرجال يُعدّون إعداداً أساسياً للموت المبكر. وللرجال ـ كما يقول المثل الألماني ـ «في السلاح زوجة».

وترتفـع حدّة كل هذا بشـكل كبير ما دام تدويـن التاريخ يصنع الوقائـع. هجـم الرجـال متحلّيـن بالشـجاعة المستمدّة مـن الغباء، ومزوّديـن بالاسـتهانة بالمـوت، التـي يغذّيهـا الخـوف، ومـا زالـوا يهجمون إلى الأمام، سائرين أحياناً على القبور.

وكل هـذا لا يحصـل في حـالات الحـرب فقط. فحتـى وقائع الثورات المعروفة لدينا لم تكن سوى مؤامرات مجنونة للموت. ومرة كانت نتيجة مبدأ النظافة الرجولي هذا، أو ذاك عمليات تصفية لآلاف البشـر. وسـواء رفعت محاكم التفتيش من شأن طرائقهم في التحقيق لتمجيـد الرب، أم تـم الاحتفاء بالمقصلة كتقدّم إنسـاني، أم حصلت عمليات الاسـتعراض السـتالينية على بركات العالميـن والجاهلين، أم كان التأهيـل فـي المعتقلات النازية ملفـاً إداريـاً بيروقراطياً، فكل مـن فعل هذا كانوا رجـالاً، يتمتّعون بصدق بـارد، ومؤمنين بأفعالهم بشـكل كبيـر، وملزمين بواجباتهـم، التي أوجدوها هم أنفسـهم. كما أنهم أرخوا مسـبقاً موت الكثير من الناس بشكل لا يقبل الخطأ. وهم كذلك مؤمنـون ويؤلّهون ذواتهـم، ويلفّون أنفسـهم خاضعين بحب وعظـة لأدواتهـم في القتـل، كما لو كان الموت اسـتمراراً لممارسـة الجنس ولكن بأدوات أخرى.

ومـن الطبيعـي أن يوجـد فـي كل وقت رسـل للسـلام ورجال يخاطرون بكلمة شـجاعة وبارزة ضد الحرب. وفي الأناشيد الكنسية والمحاضرات الفلسـفية تمّ التغنّي بالسلام، والحنين إليه، إضافة إلى التوحّـد معه. ولكـن لأنه لم تُبذل محاولة جادة بتاتاً، باسـتثناء أبواب التفكيـر الرجاليـة، لحـلّ صراعات المجتمع الإنسـاني، فقـد اقتصر الأمر على التأكيدات المسـتمرة على السـلام أو التمييز السفسـطائي بين الحروب العادلة وتلك غير العادلة. وقد كانت الحروب الصليبية في مـا مضى وبقيت حتى اليـوم ممكنة الحدوث باسـم حب الآخر. كما تمّ ويتـمّ حتى اليوم إلزام الناس بتحرّرهم بالإكراه. وأدى العصر السـامي لاقتصاد السـوق الحـرّ إلى نقـص التغذية المسـتمر وموت الملايين من البشر؛ فالجوع هو شكل من أشكال الحرب.

ولأن التاريخ يُصوّر مثل حلقة حتمية من الحرب والسلام تارة، ومن السلام والحرب تارة أخرى، ويُقرأ كقانون طبيعي لا يسمح بغير ذلك، وينصّ على تفريغ العدوانية بهذا الشكل لا بغيره، وكما لو كان السلام على كل جانب فترة، يستعد فيها المرء بمسؤولية لحالة الحرب القادمـة، ولهـذا كلّه، فإن هذه الحلقة مفرغة كما لـو كانت مغلقة إلى الأبد. وحينها فقط تُكسر هذه الدائرة من قبل أولئك الذين لم يدخلوا التاريـخ حتـى ذلك الوقت، أو الذين لم يسـمح لهم بحلّ الصراعات المعروفـة تاريخيـاً، أو الذين أمـروا بدخول التاريخ بشـكل رجولي، أو الذيـن كان عليهـم أن يدعمـوا التاريخ كعملية حربيـة ويعدلوا من الخسائر البشرية: وهؤلاء هم النساء بوصفهن أمهات.

ولكـن هـل يمكـن أن ينجح هذا؟ وهل سـيُفهم ما اكتسـب في إيرلندا الشـمالية أهمية رمزية، في مكان آخـر ـ ولا أتجرّأ على القول في كل أنحاء العالم؟ ألم تلتزم حتى اليوم أمهات وزوجات وأخوات

الرجـال المقتولين الصمت، وأصبحن بذلك نصبـاً للمرأة الثكلى أو تأليههن كأمّهات باسلات؟

لقد اجتمعنا هنا من أجل أن نحتفي بهن من خلال تفهمنا. ومن يحاول فهم احتجاج نساء إيرلندا الشمالية، لا يمكن أن يبهره نجاح تمّ إحرازه بسرعة، فالقتل مستمر وبشكل أكثر مما مضى. ولكن يمكن له أن يُدرك أن النساء لأول مرّة في التاريخ لم يكتفين بالدور المُناط بهن ويكنّ مجبرات بالوقوف إلى جنب الجنون الرجولي ويعبّرن بصمت عن شكواهن. ولكن لماذا الآن فقط؟ ولماذا لسبب جانبي ولا يأخذ موقعـاً بارزاً من الصحف؟ أليس الأحرى بنا أن نتسـاءل لماذا تركت مئـات الملاييـن من الأمهـات والزوجـات والأخـوات الأوروبيات الحـرب العالميـة الثانيـة وكل الصراعات غير المعـدودة تحدث من دون تقديـم اعتـراض، كما لو كانت قَـدَراً؟ ففي أثناء هـذه الحروب المذكـورة وبعدهـا لـم يصـدر احتجـاج مستمر مـن قبـل الأمهات والأرامـل والأخـوات. وحتى يومنا هذا تشـبّثت الزوجـات، اللواتي أثكلن بفقدان الأخ والـزوج والأب، بالتصوّر الخبيث والعزاء في أن الآباء والأبناء والأزواج سـقطوا في مستنقعات فولشوف الروسية أو الصحراء الليبية أو منطقة شمال الأطلسي، أو في المعارك الجوية من أجـل قضية ما وليس عبثـاً. ويرين أن موت الأبنـاء والأخوان والآباء والأزواج كان له معنى ما.

وبشـكل شـبه منطقـي مـن أصنـاف الفهـم الرجولـي للسـلطة والأخـلاق ـ لأن الأول مرتبـط بالآخر، وناتجهما يسـمح بذلك، بل يُحتم ذلك ـ تمّت البرهنة بشـكل قاطع، على أن القضية الذاتية كانت عادلـة وأن الآخـر هو من كان البادئ، وأن المرء لم يرغب في سـوى السـلام، وأن الضعف أغرى المهاجم، وعلـى الرغم من كل المعاناة

فإنه من المشـرّف الموت في سبيل الوطن أو من أجل فكرة ما، وهذا ما ينبع عادة من رؤوس الرجال. يا له من خلق صبياني.

وأُضيف إلى هذا ويُضاف أن الرجال الناجين بسـبب فروسيتهم السـخيفة لم يكفّوا قطّ عن الانحناء باحتـرام أمام الأمهات والأرامل بعد الحـروب الرابحة والخاسـرة. وبعد اسـتعراضات النصر يجري توزيع أوسـمة الشجاعة. تمرّ أيام الحداد الرسمي من دون مشكلات أو تعقيـدات. أما المعنى من ذلك كلّه فـلا يُقدّم إلا بعد ذلك. وتصير المطالبـات بعـدم تكـرار الحـروب رخيصـة. والتقليـد ـ يـا إلهي أية تقاليـد ـ يجـب أن تسـتمرّ وتُحترم. فصـورة العدو الخاسـر يجب أن تُلمّـع مـن جديـد إن هدّدهـا الشـحوب. وتدخـل مصطلحـات مثل التطبيع والتحرير إلى اللغة العامية في الوضع الراهن. ولا يُخشى من اعتراضات القتلى. وماذا تقول الأمهات؟

علـى خزانـة المطبـخ وطاولـة الكتابـة أو فـوق الأرائـك صور مؤطّـرة لرجال شـباب يبسـمون ببـراءة أو ينظـرون بجدّية ويلبسـون ثيـاب الخـروج العسـكرية. ولكن لم يبـق من ضحكاتهـم وجدّيتهم سـوى الوعود. وفي الأدراج ومحفظات المستندات تتراكم شهادات المدرسـة والرسـائل القادمة من الجبهة، وآخر ادعـاء يقول: «الأمور علـى خير مـا يـرام...»، وقصاصـات الصحف للإعلانـات المؤطّرة بالسـواد، يُعـدّد فيهـا تحـت خبر الوفـاة والعبـارة النمطيـة «من أجل الفوهرر والشـعب والوطن» كل الأوسمة والبطولات والتكريم. يا له من إرث مثقل بملايين الأرواح، لم يكن يُعتد به من الناحية السياسية. ولـم ينحُ أيّ مـن الاعتراضات باللائمـة على ذلك، حيـن أُمر بإعادة التسـلّح ـ علـى الرغم مـن أن خرائب الحرب ما زالـت قائمة. أغلبية النسـاء قبلن مستسلمات باستمرار الجنون، الذي أُقرّ بشكل رجولي.

وحتى في الأماكن الأخرى، حيث نجحت وتنجح النساء في التأثير سياسياً ـ وهي حالات نادرة ـ، فقد مارسنها ـ من مدام بومبادو في إطار الفهم الرجولي للتاريخ حتى أنديرا غاندي اليوم ـ دائماً خلال قرون عديدة أو استمررن بها ـ وفق التعريف المنمّق ـ كحرب. هل يمكن أن يتغيّر هذا؟ في وقت ما، أو قريباً، أو على العموم؟

نحن نعيش في وقت يتّسم بالمحاولات المستمرة لمساواة النساء بالرجال. فالنساء، كما يُقال، صرن أكثر اهتماماً بالسياسة. ويخضن الجدالات ولا يسمحن بمقاطعتهن في أثناء الكلام. وقد سجّلن بعض النجاحات الجزئية. لكن حين تتم تلبية المطالب بالمساواة الاجتماعية والمهنية جزئياً وتحقيق نجاحات في الصراع ضد المعارضة المماطلة لطوابير الرجالية المغلقة، فهل ستقود هذه المطالب إلى كسر قانون الأخلاق والسلطة الرجولي في مثال النساء الإيرلنديات المحتجات؟ أو هل ستؤدّي ـ وتوجد علامات على ذلك ـ المساواة بين الجنسين إلى تقوية طموحات الرجال إلى السلطة؟ وسيعني هذا في أسوأ الأحوال: إن اعتراض النساء الإيرلنديات على الأساليب الرجولية وتطبيقها الدموي في حلّ الصراعات لن يُسمع من قبل أولئك، الذين يكافحون ضد تسلّط الرجال لأسباب تتعلق بعدم العدالة الاجتماعية والقانونية.

أظهرت النساء الإيرلنديات بالاتحاد مع الرجال أنه من الممكن الاعتماد على الفهم والقدرة النسائية على حلّ الصراعات كتلك الموجودة في إيرلندا وغيرها من بقاع العالم، من دون أن تُجبر الأسلحة على التحدّث بلغتها الخاصة. نعم، فالنساء الإيرلنديات أخرجن من المعادلة بشكل مبدئي حق اعتراض السلاح وإسهامه، والأمر يسري أيضاً على الصراعات كلّها. لقد أتت بيتي ويليامز

وزميلاتها ما يريد كوريغن وسـياران ماكاون يمثلن أولئك النسـاء من أجـل أن يقدمن لنا، نحـن الذين نحتفي بهن، أمثولـة على هذا. إن ما حدث ويحـدث في ايرلندا الشـمالية وهو الاعتراض المسـتمر على طريقة التفكير والتعامل وفق صيغة عسـكرية، يجب أن يتعدّى حدود إيرلندا الشمالية وحتى الحدود الملتهبة بنار السلاح.

# في التنافس مع اليوتوبيات

**حزيران/ يونيو 1978**

يوصف عقل الإنسان بكونه الأوسع، فهو أكثر اتساعاً من الكرة الأرضية. وبإمكانه أن يتخيّل وأن يوهمنا معه، وأن يغيّر فكرنا من أي مسافة متحرّرة من الجاذبية الأرضية. ويُكتب سلفاً على نحو يختلف عما يُقرأ في ما بعد. ويُعدّ وصفه من الأمور الإعجازية. ومن هنا ينبع هذا الادعاء. ولهذا نتخطّى الإشارة إلى أنفسنا على نحو يعجز أي حيوان ـ وحتى الطائر ـ على أن يقوم بمثله. هكذا يتجاوزنا التقدّم المولود من العقل. نتتبع جذلين تماماً سعادتنا ونتوه في أنظمة العقل الرحب ونحن ضيّقو الأفق، فعلى الإنسان أن يكون دوماً أوسع ممّا تعد به الحزمة الموثوقة لمداركه. فهو يطالب نفسه على الدوام بشيء أعظم لأنه يرى أنه مكلّف بأكثر من ذلك، وأن عليه دوماً حساب الوقت المتاح له وقبل ذلك حاضره أن يوسّع إدراكه ليبلغ ما هو خارج ذاته وأن يلتمس العالم الأفضل. وطالما يحاول الناس في سعيهم ـ وبحثهم هذا يدوم لزمن أطول من امتلاكنا شهادة عن وجودهم ـ أن يصلوا خيالهم. ذاك الخيال، الذي قد يكون رعاية مطلقة موشّحة على نحو خلّاب بأزهار صغيرة. ويمكن أن يُدعى أيضاً دولة دينية. كان لقرون عديدة في الجانب الآخر من وادي

البـؤس ثـم التمسـت الجنة علـى الأرض. كلا، بل أكثـر من جنة لأن واحـدة لم تعد تكفي لإدراك ما يقتضي من تصـوّر عن عدالة، ورغبة فـي حرية، وقـوة الإيمـان، إرادة النظام، والبحث عـن الأمان. وعلى الإنسان بعقله الكبير الذي يفوق العالم، أن يتصوّر. وما أمكنه تصوّره يصيـر حقيقة له، كونه قابلاً للتصوّر وملموسـاً لديـه. أقول هنا حقيقة أكبـر من الحقائق الحـادة التي يصطدم بها يومياً بركبتـه. فإنه يريد أن يعرف وهو يعلم مسـبقاً ما يوجد وراء الجبال السبعة. يتحدّث بلهجة المنتصـر عن الخيال الواقعي. ويبحث في كل شـيء، حتى في زراعة الخضار، عن الرؤية المستقبلية. وكمقارنة السيارة بعربة الحصان فإن مقارنة سيزان[1] برافائيل[2] تعني هي الأخرى تقدماً.

ويجب على الدوام أن يكون ما هو كائن أكبر مما كان عليه، وما هـو آتٍ أكثر كمالاً من الحاضـر والماضي. وحتى العبارة المحافظة: الماضـي كان أفضـل وما سـيأتي لن يكون سـوى أسـوأ ـ هـي مجرّد عكس للتفكير الهائل خارج الحاضر. وهكذا لا يهدأ رأس العملاق. أمـا قلقه فيدعوه الباحث الهائم على وجهه والمقتفي على الدوام أثراً وهميـاً، إبداعـاً. وهكذا ينشـأ ما هـو جديد وجديد من شـيء جديد. وكون الأمر لا يرجع إلى التسلّط بما يكفي وأن الغيوم لا تقدم أساساً، فقد نشـأ وينشـأ لمدة طويلة وعبر ما هو جديد وكبير وسـط طبيعة أو بمعونـة طبيعة مقيّـدة أو مطلقة من كل القيـود، أو موجّهة بغلظة ضد الطبيعة، نشـأ نسـيج غير طبيعي إضافة إلى الخيال الحاضر: إنه طاقة نووية. ومجدداً ينشـأ شـيء جديد (وجديد من جديد) خارج الطبيعة

(1) المقصود هنا الرسـام الفرنسـي بول سـيزان (1839– 1906)، وهو من أتباع المدرسة الانطباعية. (المترجم).

(2) المقصـود هنا الرسـام الإيطالـي رفائيلـو سـانزيو (1483–1520)، وهو من رسّامي عصر النهضة. (المترجم).

المقيّدة بالأرض: أقمار صناعية ومحطات فضائية تدور حولنا وتغادرنا ومن ثم تغزو كواكب أخرى، وتعود محمّلة بالمعرفة عن شيء جديد، يُمكن بعض الرؤوس الكبيرة من أن تتصوّر مرة أخرى شيئاً جديداً. أما الأجسام الغريبة الطائرة على سبيل المثال، ولأنها معقولة، فهي موجودة وتغزونا أيضاً في السينما وفي الحقيقة. وقد سبق للمفهوم الجديد للربّ أن اكتسب شكلاً على هيئة الصحن. يُتوقع من الخارج شفاءً أو بلاءً. يُصنع بواسطة ملائكة مقرّبين جدد، حسب تصوّر فضائي. ويفترض أن يحدث الخلاص من وادي البؤس الأرضي على نطاق الفضاء. وخيال وحي يوحنا وحده يسبّب الصعوبات، لأنه من الصعب التفوّق عليه. ومهما يكن الثمن غالياً يجب التفوّق عليه. ولو أراد هاينرش شوتس[1] آخر معاصر أن يصوغ الشوق الحالي إلى الخلاص من وادي البؤس المكتظّ بالسكان في تراتيل، لكان على وقع صوته أن يرنّ على نحو كروي وغير مجسّم أكثر من ترانيم الجوع لشوتس خلال زمن حرب الثلاثين عاماً. ولا بدّ أن يُنجز هذا. ونستطيع أخيراً أن نجعل الأثير يغني. سيكون هناك أخيراً أمل في كسب السباق مع كل الأخيلة المبدعة في رؤوس كبيرة جداً، ولو على نحو رمزي. وتوجد أفلام التمست أخيلتنا الأخيرة وقبل الأخيرة وتاجرت بها. وهكذا نذهب بقوّة أسرية، أزواجاً أو فرادى إلى السينما لنشاهد مستقبلنا. ومن لا يريد الذهاب إلى السينما لأن الأفلام خيالية هي الأخرى ومختصرة في العادة، فليفتح كتباً، فنحن ما زلنا نستطيع القراءة، وفي الحقيقة بمشقة أكبر دوماً. لأننا نقرأ بلا تركيز وموزّعين بين المواعيد، بل أكثر خجلاً باستمرار لأننا ندرك الفعل المتخلّف المستنزف عبثاً للوقت. ولأن المكتبات

(1) هاينريش شوتس (1585–1672): موسيقار ألماني برز في بدايات عصر الباروك. (المترجم).

ما زالت مفتوحة وما دامت القراءة مسموحاً بها ـ في هذه الحدود أو تلك ـ فلا تزال الكتب تستهوينا، وخصوصاً التي يكسوها التراب. «جبال بحار وعمالقة» هكذا تدعى إحدى روايات ألفريد دبلين(1) الكبيرة والمبالغ فيها، والمنسيّة والمكتشفة من جديد، والتي صدرت عام 1924. إنها تصميم خيالي وقد كتبت مباشرة بعد رواية «فالين شتاين»(2) الفوضوية الموحية بخيال هارب نحو الخلف. كتاب لا يتغذّى من أحدث التقنيات في اتجاه الخيال العلمي بل يأخذ بوجود تقنية ممكنة ومحتملة، كما كُتب في توجّهاته الأساسية تحت ضغط خيالي هائل: كم هي حقيقية وفي الوقت نفسه مسهبة تداعياته الفكرية وسلسلة الصور وهيجان المشاعر، التي تلتهب لتصل درجة الانتفاخ وفجأة تخبو: فعل مختلق يطغى عليها.

وفي «جبال وبحار وعمالقة» يوجد سكان مدن لا يعيشون في أرياف لا بل في مدن رحبة. أما أجسامهم الكسولة منذ أجيال لتقاعسها عن العمل ومع ذلك مغذّاة بعناية من وجبة مركبة لا بفضل التصوّر فقط، بل تكاد تحمل رؤوساً ضخمة على أجساد هزيلة. المستقبل. يكتب دبلين في استذكار منتصف القرن السادس والعشرين: «تحرر الفيزيائيون والكيميائيون من جسد الحيوان والنبات. لطالما فكّر المرء بامتعاض وبضحكة حائرة في المجاعات التي أنزلها صيف جاف واحد على مناطق باء بسرّها. وهذا الارتباط المخالف للعقل هو ارتباط الإنسان بالحرّ والجفاف. ولم يكره هؤلاء الكيميائيون

---

(1) ألفريد دبلين (1878–1975): كاتب ألماني. هرب من بطش النازيين وتعسفهم إلى زيورخ عام 1933، ومن هناك إلى باريس. من أهم أعماله رواية «برلين ـ ميدان ألكسندر». (المترجم).

(2) إحدى روايات دبلين التاريخية التعبيرية، وصدرت عام 1920. (المترجم).

والفيزيائيون شيئاً مثل كرههم للحقول الخضر والمروج والتجمّع المضحك للمواشي...».

وبعد ذلك يقدّم لنا تقريراً مسبق بصيغة الماضي من قبل القاص: «رجع الناس إلى المدن الكبيرة وتقوقعوا فيها. أخلوا الجزء الأكبر من الأرض. وبهذا استراحت الأرض...». وبعد ذلك: «توقف الصراع المتّسم بالعنف والحماسة بين العاملين. ومنذ تلك اللحظة انقسم سكان الغرب، الذين كادت المدن أن تبتلعهم تماماً، إلى مجموعة صغيرة من العاملين ومجموعة عظيمة من العاطلين. وكان أفراد المجموعتين يتبادلون أماكنهم في ما بينهم حسب الرغبة والحاجة. ولزم الأمر إشغال حشود الكسالى الذين زاد عددهم بمتع وأعمال وهمية. وبسرعة ضاع النظام، الذي يتّسم بوتيرة واحدة. انطلقت قوى تنوّع فوضوي. وإلى جانب الحكام كانت هناك هيئات كبيرة مكوّنة من خبراء وبرلمانات شكلية، اهتمت بمشاغلة الجماهير العاطلة.

لا غروَ في أنه باستطاعة مجتمع مركّب على هذا النحو من طبقات والذي سنحظى بمثله سريعاً مع برلمانات شكلية، سبق لها أن وجدت بشكل أقضّ مضجع دبلين، أن يختلق دوماً شيئاً ما هو جديد ولم يسبق التفكير فيه. وبذلك يصبح ما اختلقوه حقيقة: الممالك العظيمة العابرة، والمملكة الغربية، والآسيوية، وحرب الأورال الصاخبة بينهما والمغيّرة للعناصر، والجمعيات النسوية الكبيرة المفترسة للرجال بعد خلو المدن بشكل موقت، وذوبان ثلوج غريلاند وفظائع رهيبة. وجميع هذه الفظائع والنتائج إن وصفت على هذا النحو أو غيره فهي تتنوّع حسب المصادفة، وستحظى بمستقبلها بفضل عقول بشرية كبيرة جداً ـ إلى صفحة 511 من طبعتي من رواية

«جبال بحار وعمالقة»، حيث تتحوّل خرافة العقل المدمّرة والأخيرة إلى السلطة الأمومية الأصلية لفيناسكة بعد أن يهزم العمالقة أيضاً: «الأثير الأسود فوقهم مع كرات شمسية صغيرة وأكوام نجوم مترسّبة لامعة. رافق السواد الناس جنباً إلى جنب، ومنهم توهّج الضياء».

أخذت معي هذا الكتاب المغالى فيه، والذي اتخذ من مغالاة الإنسان المندفعة نحو السماء موضوعاً له، وقرأت بشكل مقارن، واعترضت حين ساقتني رحلة عبر آسيا وإفريقيا مؤخراً، حيث وجدت كل شيء حاضراً: الطوباويات الماضية والعائدة، المدركة والضائعة وطوباويات أخرى لم يُخطّط لها بعد. ليس الأمر أن الجملة الطوباوية تُغذى فقط بوجبة مستقبلية صناعية. فما غذاها الماضي به، تتخلّص منه في الحاضر لكي يسدّ رمقها مستقبلاً. في اليابان ـ وهي هدف رحلتي الأول ـ رأيت إحدى مدن دبلين. وإذا قارناها بمنطقة الرور فهي خلاّبة مُحاطة بحزام أخضر. كانت تلك المنطقة الكبيرة كيوتو ـ اوساكا ـ كوبه. ويمتد وصفها من مدن الموانئ حتى مدينة القيصر القديمة الواقعة في الأعالي كمساحة من أكواخ وأبنية كبيرة ومواقع عمل وخرائب مهدّمة ومنشآت صناعية متدرّجة ومعابد ضيّقة ومعابد صغيرة وملاعب رياضية خضراء صناعية كتل من الخردة المضغوطة ومساحة مأهولة تحتوي على حقول رز منسيّة، إضافة إلى مساحة تمتد نحو الأفق. يتداخل كل شيء في بعض. فأحواض الأزهار الصغيرة والمزيّنة بالأحجار والمنسّقة على نحو تقليدي في النفايات الصناعية المتجوّلة، التي تتداخل أطرافها مع المقابر. وهناك حيث ما زالت قدسية الأسلاف المنقوشة في الحجر ككتاب أخير مصوّر عن اليابان، تتمتّع باعتبار، تحميها زوايا ميتة من أرصفة القطارات، التي تؤدّي نحو المنطقة الكبيرة طوكيو، التي لا تقع بعيداً: ثلاث ساعات سريعة في القطار عبر منطقة مكتظة بالسكان، ومروراً بمدينة ناغويه

ذات الملايين، وصولاً إلى حقول الرزّ المدرجة والمتداخلة في ما بينها، وحدائق البيوت الزجاجية ذات الأغطية البلاستيكية. وهذه كلّها تصرّ على أنه ما زالت توجد بقايا طبيعة، وإن كانت تمتد على مساحة ضيقة.

قريباً ستتجمّع المناطق الكبيرة لتصبح مدناً. وسيكون من الضروري أن تعد الطبيعة أرضاً بوراً أو منتزهاً طبيعياً فحسب. وفي وقت ما ـ قد يكون اليوم وفق النظريات الغربية، وهو ما لا يوجد في كتاب دبلين إلا في صفحة 229 ـ سيبدأ اكتظاظ المدن. ولكن إلى أي مدى في اليابان حيث لا توجد مساحة لم يتم استغلالها، وحيث يمتد هذا البحر في الخطوة بعد التالية؟ كل هذا الاجتهاد وهذه القناعة التي حوّلت الحياة من السمك إلى الرزّ، وهذه الابتسامة المعقّدة وهذا الشوق المكبوت نحو اليابسة والأرض الرحبة، وهذه القدرة المتحرّرة الآن لتغذية الأسواق العالمية بالأجهزة الدقيقة وغيرها من اللوازم ـ إلى أين يجب أن تذهب الدولة العظيمة الآسيوية التي غلبت عسكرياً في السابق والتي تحقّق الآن انتصارها بشكل سلمي؟

في متاجر اليابان الممتلئة تماماً كما في أي مكان آخر، يتحرّك يابانيون ويبدون مثل يابانيين بين دمى أزياء ذوات سيقان طويلة، تظهر أجسادها الصناعية بشرة وردية وبملابس على الطراز الغربي يجسّدن الجنس الأبيض. هكذا لم تعد هناك رغبة في ذوات العيون الضيّقة كالثقوب، بل يريد المرء أن ينظر بالأعين الزرقاء الكبيرة للدمى، متجاوزاً كل ما هو صغير البنية. وحين تفيض المدن يريد المرء الذهاب إلى حيث أتى الباردون ذوو البشرة الشقراء وطويلو القامة. وإن اكتظاظ المدن أمر مؤكد وسيحدث خلال وقت أقرب تبكيراً ممّا ذكره ألفريد دبلين. وستفرّ الجماعات من المدن لسأمها من التحرّر من العمل واشمئزازها من التسكّع ووجبة ميكي اليومية،

ولعدم رغبتها في حمل الرأس الكبير على الأجسام الضئيلة. وستتحرّك على شكل قطعان تستوطن مكاناً ما لفترة وجيزة وتبحث عن طوباوية ماضية، ثم تكتظّ مدن آسيوية وأفريقية جديدة، وتختلط حشودها بالقطعان البدوية الغربية وتغمر القارة المتحوّلة إلى برارٍ. فأوروبا تمتصّ مثل قطعة إسفنج الشعوب الفائضة عن الحدود.

وما زال شيء يستبقي سكان اليابان في الجزر وعلى متن السفن المحمّلة فوق طاقتها. وما زال اليابانيون يحتملون العيش متزاحمين بكثافة، متراصّين ومرصوصين في طبقات بشكل يمكن مقارنتهم فيه بمليارات الأسماك المجفّفة، التي ترتّب في أسواق اليابان حسب نوعها وحجمها، وتُصفّ في طوابق وتوضع، بعد أن تُملّح بعناية، في صناديق لتصبح جاهزة للتصدير. قد يستغلون البحار، لا المجاورة فقط بل والغريبة والنائية أيضاً. سمك وأصداف وأعشاب بحرية وخيار بحر وعوالق متجمّدة وكل ما يُجفف ويُضغط ويُرصف ويُرتّب ويُكثف كمادة سمكية ويُطحن ليكون مسحوقاً سمكياً، كل ذلك يعود بالفائدة ويمكن أن يطعم العالم، ما دام البحر يجود بالعطاء. وما على المرء في كل مكان أن يسمح لهم بالمجئ فقط وسيأتون بتقنيّتهم وبسمكهم. فهم يرعون مزارع عشب البحر في البحر. ولهم الريادة في إنتاج السمك المربّى في الأحواض. وهم يستطيعون أن يصبّوا جلاتين أخضر غامقاً من كمية من أعشاب البحر على شكل ألواح وتقطيعها حسب الحاجة في كميات تكفي للاستعمال وتغليفها برقائق معدنية ورصفها في كميات للخزن حتى عام 2000، إذا أردنا أن نذكر رقماً ما.

وبين المنتجات البحرية الجاهزة للتسويق والتي إن عادت ملكيتها إلى العالم الذي يعاني من نقص في الغذاء، ولو ترك لليابانيين المستفيدين من كل شيء البحار واستغلالها، فسيؤدّي

ذلك إلى تغذية العالم على نحو أشمل وتوصل طوباوية أخرى تتعلّق بخطوة منتظمة، شاهدت في محلات متجاورة أجهزة صغيرة نزولاً إلى حجم أظفار أصابع اليد ومختلفة الأنواع. شاهدت أجهزة لا أفهم شيئاً عن وظيفتها. ولكون إنتاجها لا يكلّف الكثير في وضع تهيمن عليه فيه الأجور المنخفضة، فضلاً عن حالة الجفاف، فقد استطاعت اليابان أن تزوّد العالم بأجهزة خزن للمعلومات، تكون في متناول الشعب وأجهزة كمبيوتر عائلية ولعب أخرى جميلة، ما دامت الأسواق مفتوحة.

وبين هذا وذاك لا يوجد شيء. هنا منتج طبيعي بكميات ضخمة تدلّ رائحته على السمك، وهناك التقنية القديمة جداً، والتي ليس لها رائحة. وبين هذا وذاك فراغ وخواء، فراغ معقّد. فبين السمكة والتقنية يتحرّك هؤلاء بالخيوط المتبقية لتقليد متتابع وفي خيوط الاضطرابات النفسية المعاصرة، ولكن بشكل سلمي ما عدا الإرهاب العالمي المألوف والإرهاب المضاد. فهنا الاجتهاد والالتزام بالوقت. وبوجود ماض عدائي مشترك وحاضر مشبع بالكبت قد يستطيع الألمان واليابانيون أن يجروا مقايضة بعبارات وطنية. وكما يُقال فإن المقارنة بينهما ممكنة، حتى وإن كان لليابانيين أجساد ذات بنية مختلفة كما يُزعم، وبأنهم لا يحتملون منتجات الألبان كما يُقال. وعلى ما يُزعم فإن كلا الشعبين، باعتبارهما مذنبين ونادمين، انتهج الديمقراطية بحيث أنهما لم يعودا يلاحقان أقليتيهما، وخصوصاً في ألمانيا آنذاك، التي كادت تصبح من دون يهود. وفي اليابان أيضاً فإن أقلية الأيتا[1] ـ ومعناها القذرون ـ في حكم من يتحمّله المرء على مضض. ويُقدر عددهم بمليونين إلى ثلاثة ملايين.

---

(1) أقلية من سكان اليابان ويدعون أيضا بالبورا كومين (المترجم).

أمـا المعلومات المتعلّقة بهـم فمن الصعب الحصول عليها ولا يُتهامـس بها إلا خفيـة. كان اليابانيـون في العصور الوسـطى يأكلون اللحـم ويحتملـون أيضـاً منتجـات الألبان، ولمـا جـاء البوذيون في القرن السـادس وحرموا القتل، نهى المذهب الجديد مضيّقاً عن ذبح الماشية، فأصبح أكل اللحم من الأمور القذرة. حتى منتجات الحليب تم الإقلاع عن تناولها. منذ ذلك الوقت يُزدرى القصابون والدبّاغون وصانعو الأحذية. فهؤلاء يُدعون الأيتا. ولكنهم موجودون في اليابان بأسـرها، ومجتمعـون في القرى، وفـرادى أيضاً بكثـرة خصوصاً في المناطق حول كيوتو وأوساكا وهيروشيما. وهم لا يُلاحقون ولكنهم جميعاً من المتضرّرين. ومهما حرصوا على إخفاء أصلهم، فما يلبث أمرهم أن يُكشف على أنهم من الأيتا. ولهذا يفقدون موقعهم المهني بسـبب مكانتهـم الاجتماعيـة. فيتحوّلـون إلـى أشـخاص منحـدري المسـتوى الاجتماعي بين أشـخاص مرتفعي الشـأن. وبالطبع يوجد في اليابان الحديثـة مثل أي مكان آخر حركة تحرّر لحماية الأقليات. ففي البرلمان يجلس أعضاء اشـتراكيون وشيوعيون ينتمون إلى طبقة الأيتا، ولكنهم ما زالوا يتشـاجرون في ما بينهم، وهذا بديهي: بسـبب الإيديولوجية.

كـدت أن أكون سـعيداً بوجود مشـكلات الأقليات فـي اليابان أيضـاً علـى الرغم من كل تحسّـب ومواءمة، لأن العالـم ما زال يمتاز بكون الإنسـانية المسـتوطنة فيه، وعلى خلاف الجماهير المسـتقبلية التـي توقعهـا دبلين، قد تركت وراء ظهرهـا كل تمييز عنصري في أي مـكان تنتشـر فيـه الأقليات. فـي اليابان يوجـد آكلو اللحـم القذرون الذيـن يتلـذّذون بمنتجات الألبـان. أما في إندونيسـيا فعلى الصينيين المثابريـن المشـجعين لأية تجـارة والممارسـين للربـا الفاحش، أن يحلّوا محل اليهود. وبعد سـقوط سـوكارنو في عـام 1966، حين بدأ

التطهير المفزع، تمّ قتل ما بين ألفين وأربعة آلاف شخص خشية من الشيوعية وتحت ذريعة الخطر الشيوعي؛ وكان من بين هؤلاء الكثير من الصينيين، الذين عرّضوا أنفسهم لشبهة الشيوعية وخصوصاً لكونهم تجاراً مثابرين، ولأنهم استثمروا أموالهم رغبة في الربح. وفي شرق إفريقيا، حيث ساقتني رحلتي أخيراً، توجد كذلك أقلية الأيتا اليابانية والصينيون الأندونوسيون كهنود بدور اليهود. وفي أوغندا فقد أظهر عيدي أمين كيفية التعامل مع الأقليات. فالمرء بحاجة إليهم كي يسخّرهم كما ينبغي من أجل تحريك الاقتصاد؛ وهو يقتلهم باعتبارهم عدواً داخلياً؛ ويترك قسماً منهم لينجو، لأنه من غير الممكن الحياة من دون عدو داخلي.

العالم الثالث الجميل! إندونيسيا بلد غني وأخضر ومترع بالخير، كان محصول الرز فيه يجنى في ثلاثة مواسم سنوياً. وبعد أن استنزف الهولنديون الاقتصاد الإندونيسي لعقود طويلة، فإنه يرزح اليوم تحت وطأة الفساد الداخلي. فالبلد يستورد ثلث حاجته من الرز، بينما اليابانيون، وهم كذلك من آكلي الرز، في وسط بيئة ملوّثة بالنفايات الصناعية وليس لديهم ثلاثة مواسم لزراعة الرز، لديهم فائض كبير منه ويصدّرونه.

مراوح ودراجات هوائية ودراجات نارية ومستلزمات التصوير وكل الأجهزة التقنية الدقيقة وما ابتدعه الإنسان ليزيد من احتياجاته. كل شيء تقريباً يأتي من اليابان وهونغ كونغ وسنغافورة؛ تلك البلدان الصغيرة المهيمنة الثلاث، التي تنمو مراكز تموينها حتى القرن الحادي والعشرين، بينما تتّسع أحياء الفقراء عند أقدام الواجهات الزجاجية التي تنعكس في بعضها، وتستمر حتى العصور الوسطى. وعبر طرق النقل المفتوحة للفساد وحده تمرّ بضائع رخيصة وأخرى مهرّبة. ولأن ممارسة الرشوة العالمية المألوفة في إندونيسيا تفتح

كل بوابة من بوابات العالم، ابتداءً بشركة سيمنس وانتهاءً بأونيليفر، يجوز لليابانيين قطع غابات الأخشاب الثمينة بعيداً في بورناي، وفي الحقيقة على نحو معقول جداً، بحيث لا يبقى لأحلام سكان الغابة أو للتشجير أي نصيب. وقد تزاحم اليابانيون نحو بحيرة جاوة. وعما قريب سيضمنون لأنفسهم وبالوجه الرسمي للفساد حقوق الصيد في وسط البحار بين الجزر الاثني عشر ألفاً، لأن الحكومة الإندونيسية مشغولة فقط بالحفاظ على سلطتها وتأمين مصادر الربح الوفير ونمو أرصدتها في سويسرا، إذ لا يبقى وقت للقيام بإجراء معقول لبقية الإندونيسيين المائة مليون، الذين يتزايد ثمانون مليوناً منهم بكثافة على جزيرة جاوة؛ شيء معقول مثل: تطوير أساليب صيد السمك من صيد السواحل البائس إلى الصيد في أعالي البحار والمحيطات، الأمر الذي يمكن أن يموّن البلد بالسمك عبر سلسلة مزوّدة بأجهزة التبريد ـ ولماذا لا تكون بمعونة من شركة سيمنس.

ولكن سيمنس مهتمة بالصفقات السريعة. أما صيد الأسماك في أعالي البحار والمحيطات فيترك لليابانيين. فهم يتقنون ذلك. وهم ليسوا بارعين في إنتاج مئات الآلاف من الدراجات النارية وملايين من حاسبات الجيب الأنيقة فحسب، بل ويعرفون أن كل شيء مرتبط بالسمكة وبقية منتجات البحر، خصوصاً المستقبل، البقاء على قيد الحياة.

ونحن ما زلنا لم نتجاوز ما توصل إليه ألفريد دبلين في تداعيات أفكاره، التي اختصرت الزمن. ولم توجد بعد معامل ميكي التي تزوّد المدن ومناطق الأحياء الفقيرة بالوجبة الصناعية مجاناً وعلى نطاق العالم. وقد يذهب المرء إلى أبعد من ذلك، ولكنه يمنع الاختراع ذا العواقب الكثيرة كما فعلت مجالس الشيوخ المهيمنة على الصناعة

في المدن الإنكليزية، على ما يذكر دبلين. وقد سجنوا المخترع ميكي عشر سنوات حتى قتل نفسه، وهو المتهكّم الحكيم الذي لم يكن شيء ينعشه سوى الاختراع: «أدركت لندن حينها أن بعضهم استحوذ لوحده على كل أسرار المركب والمرفقات، وأنهم بذلك يكونون قد وصلوا إلى امتلاك وسيلة قوة لا نظير لها».

وكما يذكر دبلين فإن رؤوساً أوروبية كبيرة أمّنت لنفسها التفوّق من خلال التمثيل المتفرّد لوجبة ميكي ـ وقد شُيّد في ما بعد نصب تذكاري لميكي المنتحر. وأنا أميل إلى الرأي القائل إن اليابانيين سينالون الريادة في هذا المجال. فهم مواظبون على نحو هادئ ومهذب جداً. وقد حوّلوا قدرتهم على الطيران الانتحاري المدمّر للآخرين وللذات باتجاه أهداف سلمية. وسيدخلون ابتكاراتهم خلسة وبلطف ومن دون ضجيج الى الأسواق، خلاف الأميركيين المتعجرفين، وبتواضع ومن دون أن يسيطر عليهم تكبر الأوروبيين ذوي الرؤوس الكبيرة؛ وفي الوقت نفسه فهم ما زالوا يسيطرون على أسواق الدراجات النارية ومستلزمات التصوير وأجهزة الكومبيوتر الصغيرة والسمك المجفّف، ستعلن مصانع ميكي يابانية حصصها الأولى في الأسواق لوجباتها المركّبة المعدّة للعالم بأسره. ولكن رواج البضائع ضئيل ومثير للسخرية والضحك بعض الشيء ـ حول ذلك قرأ المرء في كتاب مستقبلي قديم وسميك، ودبلين هو اسم المؤلف ـ ولكن الطلب سرعان ما يرتفع لدى المدلّلين بسبب فضولهم، ولدى الآخرين بسبب العوز.

فالعوز آخذ في الازدياد، وقد يصيب الكساد كل شيء. ولعلّ كل تقدّم يظهر على أنه تقهقر. وفي البيت الأوروبي ربما يرتفع جبل المتقاعدين وتفرغ أبنية المدارس بسبب تراجع معدلات الإنجاب في

وقت ما. أما آسيا فلا تعرف الهلع من استعمال حبوب منع الحمل، فالأطفال في كل مكان، في الأحياء الفقيرة، في القرى. أطفال جملاء وأطفال مرحى. أطفال هادئون، وثمة سيّئو تغذية ولكنهم متحمّسون تماماً لإنجاب أطفال آخرين؛ فالأطفال يمنحون الحياة مغزى يدبّ فيه النشاط، ومن الجائز حتى لأفقر الفقراء أن يتناسلوا ويتناسلوا لأن الأطفال الكثيرين يحلّون محلّ الضمان الاجتماعي الغائب، كما أنه لا أحد من الحكام المحليين يفكر في أن يستبدل نظاماً اجتماعياً بالضمان الاجتماعي للفقراء - وهم الأغلبية - والقائم على كثرة الأطفال. فهذا قد يعني اشتراكية. والاشتراكية كما يقول السيد فيلبنغر بعيداً في شتوتغارت - تقود إلى الشيوعية بشكل مباشر.

ولذلك - وليس لمشيئة الرب - يحدث يومياً وليس بحركة عرض بطيئة، النمو الوحيد لحاضرنا، ذلك الانفجار السكاني، ويتبعه من بعدُ نمو آخر: البطالة والعوز وسوء التغذية والأوبئة والمجاعات. ولو لم يكن في وسع اليابانيين، الذين يعتبرهم دبلين إنجليزاً، أن يمدّوا الإنسانية بوجبة ميكي الصناعية إضافة إلى أجهزة الكومبيوتر الشعبية ومعدات خزن البيانات العالمية، لأصابنا اليأس تقريباً، فليس هناك ما يحول دون ذلك.

هكذا يتحدّث الكتّاب، فالحدث لديهم مستمر على الدوام: حينما أمّنت معامل ميكي إشباع عدد كبير من الناس بمعونة الوجبة الصناعية، بدأت الإنسانية المتخمة تغطّ في خمول دائم، بدأت تشلّ وتسأم من نفسها. «عدم اكتراث خطير يظهر فجأة ويقوّض كل شيء...»، بهذه العبارة يصف الكاتب دبلين هذا الحال، ويضيف: «الأبهة والألعاب والوليمة لم تعد تخلّف الكثير من التأثيرات. فقد وقفت الأشياء الحديثة والجميلة، المبهجة والملهبة للحياة، والتي

تنتجها المكائن، أمام الناس الذين مطّوا شفاههم صامتين. تقلّب هذا في كل مكان بأردية قديمة منسية».

ولمواجهة هذا الوهن والتراجع الخطير للإنسانية حلّت مجالس الشيوخ المسيطرة على الصناعة في المدن الغربية قيود حرب الأورال. وبعد أن افترست نيرانها الطرفين جارفة معها الجماهير الغربية والآسيوية عادت وجبات ميكي اليومية مع بدء وقت السلام لتكون وجبات المستقبل. وحينها اكتظّت المدن، وتملّص المرء من هيمنة الأجهزة ذات التأثير القريب والبعيد، وهدّدت حركات الاستيطان أمن الكرة الأرضية، كما نُبشت أدوات الزراعة. أما الكهنة المسمّون بالمضللين فقد وعظوا ناصحين: لنرجع إلى الطبيعة. وهكذا توجّب على ذوي الرؤوس الكبيرة أن يبتدعوا شيئاً جديداً مهماً للإنسانية. بدأ المرء في مواجهة ذوبان ثلوج غرينلاند: كارثة سبّبت غضب الطبيعة وتحقّقت من دون طاقة ذرية تخيّلناها في رؤوس كبيرة جداً وسابقة لكل نظرة طوباوية إلى كارثة معاصرة.

ليس هناك من داع إلى القلق، فثمة شيء ما سينجو ليبقى على قيد الحياة، لأن النجاة مذكورة في رواية «جبال بحار وعمالقة» أيضاً: ومع محدودية ذلك واكتفائه بمقياس العصور الغابرة الأولى، فإنه يتم برؤوس أصغر مجدداً. وعند دبلين يحدث كل شيء في المستقبل على نحو مغاير. فلا تقع أي حرب نجوم. ولا تغزونا أية أجسام كونية من النوع الثالث. كل شيء يبقى جميلاً على البساط الأرضي، الذي يسحب أحياناً ببطء ولأسباب منطقية نحو الخلف، ما يتسبّب إلى تعثّر الإنسانية. إضافة إلى ذلك فإن أحدث التقنيات لن تكون موجودة أو يُلمح فقط إلى وجودها، فكأنما تكون قد صُممت كما يشاء المرء ومن دون عناء، وليس هناك تفصيلات تُحاك وتُصنع

بصدق ومهارة. حتى مصانع ميكي ليست إلا مجرد ادعاء فحسب. وفي حرب الأورال وفي حالة محاولات أخرى لحلّ الصراعات من النوع التقليدي يبدو الحديث عن أسلحة إشعاعية ذات تأثير بعيد، تدعى باختصار أجهزة، حديثاً هامشياً. ذوبان ثلوج غرينلاند، هذا الحدث الكبير جداً سيكون ممكناً بواسطة حاجز مصنوع من معدن الترمالين، الذي خزنت طاقته، حين نسف المرء متهيئاً براكين أيسلندا وجمعٍ طاقتها. يزعم دبلين أن هذا ـ وانظر ما يقول: سيكون حقيقة، وقابلاً للتصديق مثل حقيقة أنه لا يوجد كتّاب «جبال وبحار وعمالقة» في عالمه المستقبلي.

هم يغيبون من البداية، فما من أحد يكتب أو يطلب طبع الكتب. ولأنه ليس هناك من يقرأ، فلن تتم مصادرة أي كتب ممنوعة. مرة واحدة فقط، حين تسبّبت وجبة ميكي الصناعية إلى وهن عام وعودة خطيرة إلى الذكريات، كتب دبلين: «حمل الألمان الإنجيل الثقيل بأيديهم، تصفّحوا في كتاب التراتيل وغنّوا بحزن في الغابة». وباستثناء ذلك لا ترد شواهد ذات طابع أدبي. ولعدم اعتقال أي كاتب بسبب العنف والعنف المضاد والإبادة الفردية والجماعية، فلا يتوجّب على المؤلفين أيضاً أن يحتجّوا على الاعتقال أو النفي. تجاوز دبلين في سعة أفقه وجوده ككاتب ومحرقة الكتب وحياته في المهجر خلال الحقبة النازية: مهنته أقرب إلى أن تكون من دون مستقبل.

لكننا لم نبلغ هذا الحد بعد. وفي اليابان وهونغ كونغ وإندونيسيا وتايلاند والهند وفي كينيا الأفريقية وحيثما ذهبت ـ تبعاً لجدول مواعيد معهد غوته ـ فإنه يوجد كتّاب، أي أشخاص يصوغون كلمات بطريقة متردّدة وقديمة الطراز، لا تعجل من وقعها أي تقنية بتاتاً. إنهم يكوّنون جملاً ويساعدون الحقائق المتناقضة مع بعضها لتصير حقيقة

جديـدة وخيالية أي أدبية، وبذلك يزاولون مهنة خطرة، فالحقائق غير الأدبيـة ومدبروها يُعرفون سياسـياً، هذا يعنـي: إن الأمر يقتصر على ذلك فحسب. لا يريدون لحقيقة أخرى أن تسير إلى جنب حقائقهم، حتى وإن كانت خيالية. وهكذا حصل أنه حيثما سارت حقيقةٌ واحدة في مكان ما من العالم، يُجبر الكتّاب على السكوت من خلال مراقبة كتبهـم ومنعها ومصادرتهـا ومن جراء نفيهم واعتقالهـم أو اقتلاعهم نهائياً من كل الحقائق.

وهـذا مـا ألـمّ بالكاتـب براموديـا أنانتا تور فـي إندونيسـيا قبل أكثـر مـن اثني عشـر عاماً، حيث كانـت كتبه تتحدث عـن واقع ضيّق لفلاحيـن لا أرض لهم، وقـد أثقل كاهلهم المرابون والفسـاد. وهذا سـبب يكفي لخلفاء سوكارنو ليسجنوه بصفة كونه شيوعياً، مع آلاف آخرين في معتقل جماعي على إحدى الجزر. وطوال اثني عشر عاماً لم تجرِ له أي محاكمة ولم يُشمل بعفو. كما لم تُسمع أي من توسّلاته ومناشداته، فعسكريو حكومة إندونيسيا المهتمون بسلطتهم فحسب، يخشـون الكاتـب وهم ليسـوا وحيدين في خوفهم، فهنـاك من ينضم إليهم.

ومن حيث جئت ـ من ألمانيا مقسمة ـ وإلى أين ذهبت، تايلاند أو كينيـا، فالمرء كان يتقـن دائماً طريقة التعامل مـع الكتّاب أو يتعلّم بسرعة. لا نتحدث عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية، فالكلّ على علم بذلـك، فإننا نعترف بصورة أكثر وضوحاً أن نظام التحسّـس الألماني الاتحادي يشـجع تطوراً متبعاً في ألمانيا وفي دول العالم الثالث، وما إن تحقّق استقلالها حتى يصير التقليد ممارسة محزنة.

ومـن بداية هذا العـام أُلقي القبض على الكاتـب الكيكويوي[1]

(1) ينتمي إلى أقلية الكيكويو في كينيا. (المترجم).

نغوغـي فـا تيونغو في مكان غيـر معروف. ولا تبالـي الطبقة الحاكمة في نيروبي في كونها لا تتميّز بأي شـيء عن سـوء اسـتعمال السـلطة المماثـل لها فـي جنوب أفريقيا وتشيكوسـلوفاكيا وشـيلي والاتحاد السـوفياتي. تشـابهت الإيديولوجيات في التعامل مـع الناس، الذين يـرون عدا الحقائـق الموجودة حقائق أخرى إلـى جانبها أو يحلمون بهـا أو يطلبونها أو حتى يصفونها، مثلمـا يفعل الكتّاب. وضروراتهم الأمنية تملي عليهم مثل هذا التقارب. وهكذا يظهر النظام الرأسمالي والشـيوعي عـداء بعضهما بعضـاً. أمـا إذا تعلّق الأمـر بالحفاظ على الأمـن الداخلـي أو ـ كمـا فـي خطب الأحـد ـ بالحفاظ على السـلم الداخلي فإنهما متفقان في سوء استعمال السلطة.

ولأننـي كاتب فإن هذا الوئام الشـيطاني يبدو لـي في أول وهلة واضحـاً فـي مصيـر الكتّـاب، ومـع ذلـك يجـب أن يُقـال إن مئـات الآلاف، مـن غير الكتّاب، يدينـون للاتفاق الإيديولوجـي بترحيلهم وسـجنهم وغالباً بموتهم. لكن الكتّاب يتفقون في ما بينهم على وجه الخصـوص. وهـم مخيفون لأنهـم يقنعـون بالقليل علـى نحو قديم الطراز. ويعيشـون من لا شـيء تقريباً: قليل من الـورق فقط. يحيون على تناقضات. وما يبتدعونه يصبح له شـكل، يسـتقل بذاته يسـاوم، مـن دون أن يكونوا ملزمين بشـيء. ولكن هـذا غير ممكن، لأنه يقلق السـلام ويعرّض الأمن للخطر ويشـجع التطرّف ويعيـق التطوّر، كما يطرح تسـاؤلاً في وقت نحتاج فيـه إلى الإجابة؛ إجابة واضحة عملية وترتبط بحاضرنا فعلاً!

لذلـك يغيب الكتّاب فـي رواية «جبال وبحـار وعمالقة». فعند دبلين يسـتمر بقاء الإنسـانية. والاتفاق الكبيـر والمتطوّر في حاضرنا للإيديولوجيـات السـائدة لا يفتقر إليهم ولا حتـى كقطعة حلي، فقد

تـمّ التخلّـص منذ فترة طويلة مـن طارحي السـؤال المزعجين، بل ما زالوا موجودين، لكنهم كفّوا عن الكتابة فأصبحوا شخصيات هامشية حالمة، لا تبحث عن أي تعبير بل تستهلك نفسها من دون وسط ناقل. لم يبقَ سـوى أدب معاش فقط، يمارس خارج أطر الحياة على سبيل المثال جوناثان الغريب.

فقـد كانـت أمـه تنتمي إلـى الطبقة القياديـة الجديـدة، أي طبقة النبـلاء التكنولوجيـة. وعلـى الرغـم مـن منع أي شـكل من أشـكال البحـث من قبـل القنصل ماردوك وأمثاله، أصحـاب الهيمنة المطلقة بعد نهاية حرب الأورال في مدينة برلين، اشـتغلت سـرّاً في مجموعة نذرت نفسـها لمهمة إعـادة تطوير الوجبة الصناعية مـن طريق عملية نمـو سـريعة. كان القنصـل ماردوك هو الآخـر ينتمي سـابقاً إلى هذه المجموعـة، لكنـه انفصـل عنهـا بعد ذلـك وأمر بالتطويـر الرجعي الراديكالـي: حتـى إنه أراد إلغاء وجبة ميكـي المألوفة منذ زمن بعيد. لكـن مـا كان ينقصه هو عدم وجود أرض زراعيـة ومرعى في المدينة المستوطنة بشكل كامل والممتدة بين نهري الأودر والإلبة.

وخلال عمليـات التصفية أمر مردوك باعتقال واحد وعشـرين عالمـا مـن بينهـم أم جوناثـان وبحجزهـم فـي غابة تجـارب، بدأت جذوعها وغصونها تنتفخ وتفرز عصارات، بحيث أن الغابة امتزجت بأجسـاد العلماء. وجعلت كتلةٌ طبيعيـةٌ مركّبة تتمازج دوماً من جديد مخترعي معجزة النمو ينغمسـون تماماً في اختراعهم: «النمو العظيم المتصبـب ذو الصـوت المفرقع عَصَرَ وضيّـق وطَحَن وعجن ومزج الأشخاص، وكسر الأقفاص الصدرية، وحطم الفقرات، ودفع عظام الجمجمة لتتداخـل فيما بينها، وصب الأدمغة البيضاء على الجذور. فتلامسـت الجـذور...»، ويسـتمر ليقـول: «ضغـط مـاردوك الرأس

المتعاظم الحجم على الشباك، قضي الأمر الآن، ولم يعد بمقدوركم فعل أي شيء».

ظل الصبي جوناثان خليلاً لماردوك المفتون بالسلطة والنساء، اللواتي يتبدّلن ويترأسن بطريقة مستبدّة الجمعيات النسوية كتيارات مضادة للرجال ولكنهن راغبات في السلطة مثل هؤلاء. صراع مستمر ومتنام بين الأجناس يترنّح خلاله جوناثان متوجّعاً ومرهف الحس، غير منتم بصراحة لا إلى هذا المعسكر ولا إلى الآخر. ولكونه طاقة حسّاسة ولكن عصية على التعبير يُعدّ جوناثان تجسيداً للكاتب، الذي كف عن الكتابة: لعبة بين القوى التي ذابت في ترسانتها الإرهابية وسائل الرعب لكل الأنظمة الحاضرة، وتشبه غابة التجارب الصناعية تلك، التي أذابت مبتكريها.

وكما في رواية جورج أورويل الطوباوية «1984»، اتفقت في رواية دبلين «جبال وبحار وعمالقة» كل الإيديولوجيات التي ما زالت متعادية اليوم ظاهرياً. إذا كانت أنظمة ستالينية وفاشية، أي مشتركة تتّحد في الجماعية الإلزامية لدى أورويل، كشكل من أشكال السلطة العالمية، ولا تتمايز بشعارات متعارضة بل كمركب من كلا كياني السلطة، فإن التوجّه المستقبلي في رواية دبلين هو حقيقة مماثلة. في كلتي الروايتين لم يعد هناك أثر لأنظمتنا الاجتماعية المعاصرة ذات الطبيعة الرأسمالية والشيوعية مع أنظمتها العسكرية الكنسية- الفاشية أو شبه الشيوعية كأنظمة تابعة، وما إلى ذلك من مفاهيم مثل: ديمقراطية أو ليبرالية أو الإدارة الذاتية للعمال والاشتراكية الديمقراطية. وبعبارة أفضل: فكونها مندمجة في إرادة سلطوية مهيمنة وشاملة ووحيدة لم يترك لها علامة بارزة. وقد تنفجر عدائيتها المخزونة، من دون التعليلات الإيديولوجية المألوفة اليوم، في حرب

قارية وفي نشـاطات إقليمية لتوطيد السلام وأحياناً في صراعات بين الجنسين.

صحيح أننا ما زلنا نتحدث في الحقيقة وباستمرار عن المذهب الإنساني على نحو يشبه تقليد الببغاوات، ونستحضر مكتسبات عصر التنوير الأوروبي والقيم ذات الأخلاق المسيحية وحقّ الفرد وحقوق الإنسـان عمومـاً والحقّ في العمل، لكـن الحقيقة الموصوفة مسـبقاً كمستقبل كما عند دبلين ومؤخراً لدى أورويل قد بدأت، ويوجد ثمة أمـل ما في الوصول إلى خط النهايـة الطوباوية في وقت مبكر، وقبل أن تكون قد غُرزت وأرخت.

وسـواء في آسـيا أو أفريقيـا فلا يمكن وبوضـوح تحديد أي من أشـكال السـلطة الراسـخة أو تلك التي سـتفرض نفسـها مـن جديد بواسـطة أحد الانقلابات، بل إن هناك جماعية إلزامية تلوح في الأفق في كل مكان، كما اشترطها أورويل في روايته «1984» وكما فرضها دبلين على مدنه نظاماً للرقابة والسـلطة. وإندونيسـيا أو تايلاند سيان فـي ظهور الطبقات الحاكمة هناك على أنها معادية للشـيوعية، ولهذا السبب تقوم بممارسات دكتاتورية، وبورما أو كمبوديا سيان إن عُرف الحـكام فيهما على أنهم اشـتراكيون ومدّوا أطـراف حكمهم المطلق لأسـباب تتعلـق بمناهضـة الرأسـمالية ومعـاداة الامبريالية: الشـيء المشترك المتنامي والذي يجمع كل الدول المذكورة هو أنها في زيّها الإيديولوجي القابل للاسـتبدال والطبقات الحاكمة المتغيّرة تنمو بلا تضرّر لتكون جماعة عالمية، تموّنها الدول الصناعية من كلا النظامين المغلقين، بحسـب دبلين وأورويل، بالبناء العلوي التكنولوجي: من بنك المعلومات حتى المادة القابلة للانشطار.

ليـس هناك مدعاة للعجب، إذا ما تأرجح المؤلفون بين القوى ـ بصفة كونهم أشـخاصاً مؤثّرين لا يناسبون العصر ـ في هذا المستقبل

الحاضر مثل جوناثان»: صحيح أنهم ما زالوا يكتبون ونداءاتهم واحتجاجاتهم قوية الالتزام من قديم الزمن بتأثير المذهب الإنساني، وصحيح أن المرء يسجنهم هنا وهناك ويبالغ في خطورتهم أكثر من الواقع وينفيهم إلى جزر بعيدة ويطردهم خارج البلد أو يكمّم أفواههم بقرار من المحكمة ـ كما فعل فلبينغر لزميلي هوخوت ـ، وصحيح أن المرء ما زال بحاجة إليهم بعض الشيء ويشجّعهم بجوائز ومنح دراسية، الأمر الذي قد يُعاقب عليه القانون في مكان آخر، وصحيح أنه يتصرّف عموماً وكأنه يريد أن يعتني بنوع من الحيوانات المهدّدة بالانقراض، لكن ما يبدو أكثر وضوحاً من الشعور الغامض، هو الأمر الذي يجعل المؤلفين في الحقيقة المستقبلية لدبلين فاقدي القدرة على التعبير، فهم ما زالوا مثل جوناثان مخلوقات عاطفية عصبية: ظلوا بلا واسطة ومن دون ورق.

ولكن على الرغم من التقليل من قدراتهم ومكانتهم، إلا أنهم يشكّلون سبباً للإزعاج، ويظلّون في المدن على نحو غريب، وتُفهم قوة مشاعرهم، فاقدة التعبير أيضاً، على أنها محيّرة، وهو ما يمنحها قدرة كبرى على الإبهار، تنطلق منهم رقّة لعوب وتعاطف فائض وحنين إلى ماضٍ يحلم أن يصبح مستقبلاً، إضافة إلى الحب القديم للغير. ووسط كيان السلطة الفاقد للإحساس يبقى هؤلاء الكتّاب مرهفي الحس. ولا يردعهم أي إرهاب عن مكاشفة أنفسهم. وسط بؤس هذا العالم ومناطق الأحياء الفقيرة الآخذة بالاتساع، وفي أقاليم القحط التي جرّدها الفساد الحكومي من أموالها الأخيرة، وفي كل مكان يتم السكوت فيه عن الظلم بشكل فاضح، رأيت جوناثان ينشط كرجل أو امرأة، لا جنس له. إنه الشعور النشيط بمنأى عن الفائدة والنجاح، كما أنه انعكاسٌ للدكتور دبلين، ذلك الذي وقف إلى جانب الفقراء في مستشفى المدينة في برلين.

في تايلاند كان ثمة طبيب شاب يدير مستشفى يضم عشرة أسرّة، في مقاطعة براتاي في شمال غرب البلاد، وسط إقليم القحط والجوع. يبدو لأول وهلة شخصاً بتصرّفات صبيانية وبعمر ثمانية وعشرين عاماً، ويتمتّع بروح المرح: تلك الابتسامة المألوفة. رأيته يمارس بتركيز مهنته، التي لا أمل له فيها كطبيب لثمانية آلاف من سكان المقاطعة. أوبئة وسلّ والمطالبة المتأخرة بالتعقيم والتغذية المفقودة وسوء التغذية والأمراض الناتجة عنها، كل هذا يحدّد يوم عمله. ويسيطر على الإقليم بعض مالكي المزارع الأثرياء، الذين تسلب عصاباتهم المسلحة الأجيرة الجواميس المتبقية للفلاحين الذين يزدادون فقراً. أما الشرطة فتحمي مالكي المزارع. ويعرف الطبيب هذا الأمر، ولكنه بلا حول ولا قوة، فقد اختار الوقوف إلى جانب الأطفال الهزلى المصابين بسوء التغذية.

أخبرنا بالأسباب بموضوعية وكأنه يريد أن يثبت فقط بيانات إحصائياته الإقليمية ـ تغذية معتمدة على الرز وحده ونقص الفيتامينات ب1 وب2 وأ ونقص البروتين. كما بيَّن لنا الأعراض: شعراً مقصّفاً باهت اللون وأمراض العيون وزوايا الفم الملتهبة وأكزيما وبطوناً منتفخة. وإذا ما أراد الوقوف بوجه إرهاب العصابات والفساد الحكومي، فسيتحتّم عليه ترك الأطفال والمرضى والذهاب إلى الأحراش حيث تحتشد المقاومة. وما دام البقاء مسموحاً به فهذا الطبيب يريده.

في السابق كانت هنا غابات، لكن أشجارها جُرّدت من جراء فرط الاستغلال المعتاد. نسمع أيضاً أن المطر لم ينزل في وقت الرياح الموسمية. وليس بوسع الطبيب نقل المرضى في حالة حرجة، فلا توجد سيارة إسعاف. وفقدان التيار الكهربائي يُعدّ جزءاً من الحياة

اليومية. وراتبه الشـهري التافه. ما الـذي يدفع هذا الطبيب أن يتحمّل البقاء في مستشفاه من دون ماء؟ إنه حالة نادرة. لا يوجد أي طبيب في المقاطعـات المجاورة كمثل وجود هذا الطبيب هنا. ولد في براتاي، ودرس في بانكوك وبعد إنهاء دراسته عاد إلـى مقاطعته. في بانكوك يجلس الأطباء متلاصقين جنباً إلى جنب. لا أحد منهم يريد الذهاب إلـى الريف، إلى مناطق القحط. يريـدون البقاء في المدينة ويحلمون بعيادة في أوروبا وأميركا.

لمـاذا أتحدّث عـن هذا الطبيـب المتفرّد؟ لأنـي أريد أن أضع هـذا الطبيـب الذي عـاد إلى مقاطعتـه، في مقابل آلاف مـن الأطباء الآسـيويين والإفريقييـن، الذيـن درسـوا في أوربـا وأميـركا وظلّوا هنـاك ولم يعودوا إلى أقاليمهم: أطباء على الورق فقط، فقد ضيّعوا أوطانهـم. الكثير منهـم يُدعون اليوم طالبي لجـوء، وبذلك يكونون قـد تملّصـوا من واجبهم. هـذا الطبيـب المتفرّد يضعهـم في موطن الشـكّ. ويُقاس رفضهم بسـلوكه، وعليه أن يخزيهم ولكني أخشـى أن يسخروا منه.

ورأيـت في كلونغ تـوي، حيّ الفقراء الكبير فـي مقاطعة الميناء في بانكوك، امرأة شابة ربما هي أخت الطبيب في براتاي. فقد ولدت وترعرعـت هناك، وبقيت مع ذلك تعمـل معلّمة في حي الفقراء. إنها تعلّم أطفالاً غير مسـجلين ولا يحق لهـم دخول المدارس الحكومية لكونهـم غير مسـجلين. وتعد كلونـغ توي فوضى من أكواخ خشـبية أساسها أعمدة مغروسة في الوحل، الذي تغذيه النفايات والبراز، في حيـن تشـتد الرياح الموسـمية وتبلع المعابر بين الأكـواخ. يعيش هنا ستون ألف شـخص بينهم ثمانية آلاف طفل صغير. مساعدة المعلمة تكفـي مائـة طفـل تقريباً. تقاسـمهم يوميـاً كأسـاً من حليـب الصويا

المخفف. وقد تبرّعت منظمة تيرا ديس هوميس بحليب الصويا. وتدعم هذه المنظمة كذلك الطبيب في براتا بالأدوية.

هذه هي القطرات المشهورة فوق الحجر الساخن، ولكنها الوحيدة التي تحصى. بدا لي عمل الطبيب والمعلّمة ومدرسة حي الفقراء (مع حليب الصويا) على عبثيّتها أكثر واقعية وصدقاً من الكثير من مشروعات التطوير المبالغ فيها كثيراً والتي تختفي أموالها في أثناء التداولات الإدارية وتوسع نتائجها الموحية بالنجاح فقط الفجوة بين الإقليم المتخلّف والإنجاز الخاص المربح. ومن هذه المشروعات نذكر أعمال الفولاذ والمعامل شبه الأوتوماتيكية، فإنتاج الأسمدة والمستوصف المتطوّر، أو كما في جاكارتا مطبعة التصوير التي لا تطبع الكتب المدرسية ـ كما ينص البرنامج ـ بل تزوّد ورق التغليف بالصور. ومن الطبيعي وجوب استيراد الورق. فقبل أن يكلف المرء نفسه ويشجّع صناعة ورق إندونيسية بدأ إثر البدء بالخطوة الثانية، فقام وهو مفتخر بالمعرفة الحديثة (مدعوماً بمساعدة مادية مناسبة من الناحية الضريبية تقدمها مطابع من ألمانيا الاتحادية وهولندا)، بإنشاء مطبعة لا فائدة منها. ولكي تبقى مربحة فإنها تنتج يومياً ورق التغليف الذي يزيد من غلاء المنتجات على البلد الفقير بأي حال من الأحوال: غياب التخطيط كأعمال النسخ.

كلا، سيد كليت وشركاءه! من الأفضل تيرا دس هوميس والقطرات الكثيرة على الحجر الساخن. فقد كرست منظمة الإغاثة الصغيرة هذه والمموّلة بتبرّعات خاصة، وليس بالأموال الحكومية ولا بمبالغ من الكنائس، جهودها على حالة عوز الأطفال في الأحياء الفقيرة. وليس هناك تناقص في أعدادهم. وإلى جانب معدل النمو الحقيقي الوحيد لحاضرنا ـ نمو سكان

العالـم من غير عائق ـ ونمو البطالة المرافقة لذلك وسـوء التغذية، تتزايد كذلك أعداد الفلاحين الهاربين المُسـتغلين من إقليم القحط والجوع إلى الأحياء الفقيرة.

هنـا يلوح مسـتقبل فـي الأفـق. وهنا تحـدّد أماكـن الصراعات الجماعية كما يذكـر دبلين. وهنا في المدن تتصادم العوالم بعنف في ما بينها، كما في بومباي على سبيل المثال.

يعيش زهاء سـبعة آلاف شـخص في مستوطنة ياناتا التي تُدعى اليوم مخيـم كيتا، وهي أحد أكبر الأحياء الفقيـرة في المنطقة الكبيرة بومباي، التي يعيش فيها وحسـب التقديـرات المتفاوتة بين اثنين إلى ثلاثـة ملاييـن فـي الأحيـاء الفقيرة مـن بين سـكانها السـبعة ملايين. ومباشـرة إلى جنب منطقة مستوطنة ياناتا السابقة أُقيم مركز البحوث الذرية الهندي، الذي تدين له الهند بقنبلتها الذرية الأولى. ولا يرغب الباحثون الذريون في وجـود حي الفقراء المجاور لهم، فهم يصفونه بالخطـر على الأمـن. ولهذا أُخليت مسـتوطنة ياناتا جبـراً عام 1976 وسُـوّيت الأرض عليهـا بالجرافـات. وكمنطقـة لحي جديـد قُدّمت للسـكان السـبعين ألفاً قطعة أرض مفتوحة تقع على البحر، ومع بدء موسـم الأمطار تغمرها المياه وتتحوّل إلى مستنقع. مات بضع مئات من الأطفال خلال الأشـهر الأولى، وتزايدت حالات الانتحار. وفي أثناء ذلك وضع مركز البحوث الذرية خططاً لتحويل المنطقة الخالية إلى مكان للترفيه. ومنذ ذلك الوقت تراكمت هناك ملاعب الغولف، ويسـتطيع المـرء الترفيـه عن نفسـه بلعب التنس. كما تم بناء مسـبح أيضـاً، فالبحث يجلب المتعة للباحثين الذين يشـعرون بالأمان في ما بينهم: النخبة الجديدة، العارفين، أصحاب المعرفة الجزئية والمعرفة بالجزئيـات، أصحاب الرؤوس الكبيرة جداً التي يختلق فيها ما يشـير

إلـى أبعـد من الإنسـان وأفقه فـي الحـي الفقير. هم أصحاب الشـأن والنفوذ، ومن الصعب تعويضهم، وإليهم يرجع المستقبل.

وفـي روايـة «جبـال وبحـار وعمالقـة» مجالس شـيوخ المدن المنفردين بالسـلطة والعلمـاء من حيث كونهم نخبة يتشـابهون. فقد ألغـوا البرلمانـات أو قلّلـوا مـن مكانتهـا لتصبـح برلمانات شـكلية، معتمدين على الصناعات: تلك الدفعة الكبيرة. وبسببهم فشل مدمّرو الآلات[1]. كانـت نتائـج بحوثهم هـي التي تحدّد الاتجـاه ـ لا حاجة الجماهير البليدة. وهم الذين قضوا على الزراعة المرهقة وعلى مبدأ التسـخير المتمثّـل في التشـغيل الكامـل من خلال تنظيم مؤسسـات الإنتاج تنظيماً علمياً. وأمّنوا بالغذاء الصناعي بعض الوجود لجماهير العمال، التي أصبحت عاطلة عن العمل. كما فتحوا للإنسـانية حرب الأورال مهربـاً بعد أن هدّدت حيـاة البطالة في أن تنقلب إلى فوضى. وكان العلمـاء هـم مـن قيّـد جماهيـر المسـتوطنين المنتشـرين فـي اضطـراب بهدف جديـد بعد فيضان المـدن: ذوبان ثلـوج غرينلاند. وحيـن جـرّد حاجز الترماليـن غرنلاند حتى من طبقاتهـا، التي ترجع إلى العصر الطباشـيري وسـبب الغليان اللاإرادي وانفصلت سحالي بدائيـة عملاقـة وتنانيـن طائرة طويلـة جداً مـن النمو المـذوّب لكل شـيء، وغادرت غرينلاند لتهاجم المدن الغربية وتفزع الحشود، كان العلماء كذلك هم من عرف النصيحة من خلال تركهم قتال الوحوش المولودة من الترمالين لما يُسـمّى بسكان الأبراج: مخلوقات صناعية مـن النـوع العملاق ذابت فيها الحيوانات وأجسـام البشـر وبواسـطة إشـعاعات الترماليـن، كما فـي العصـور الماضية في غابـة التجارب العائـدة إلـى مـاردوك والمذيبة لكل شـيء، وتمّـت مضاعفتها لتبلغ

(1) حركـة ثورة ظهـرت في العديد مـن البلدان الأوروبية ضـد مكننة مجالات الحياة بشكل متزايد خلال الثورة الصناعية. (المترجم).

نمـواً هائلاً. أما الحشـود الخائفة ومثلها المختبـرات ومصانع ميكي فقـد نُقِلت بعيداً عن سـطح الأرض إلى مـدن تحت الأرض: «وعلى شـكل طابق فوق طابق اندفعوا في كتل الطين وشقّوا باستمرار كهوفاً أكبر وكدّسـوا كتل التراب والصخور المنشـطرة بين صفوف المنازل على سـطح الأرض وعلى شـكل أكوام من المخلفات. ولم يعد أحد يشـعر بالخوف. لم يهربوا مـن الحيوانات البدائية، بل كانوا في رحلة استكشـافية جديـدة عنيفة. ثـم نادت مجالـس الشـيوخ: ابتعدوا عن الأرض فدفنوا أنفسـهم بنشوة؛ معجزة المقدرة الإنسانية التي شهدها سائقو غرينلاند، يعيشونها الآن بأنفسهم».

هـل يشـير دبلين إلى المسـتقبل بطريقة مضلّلـة؟ وحتى إن كان ذوبـان غرينلاند مع كل العواقب العظيمة يُعد قصة رعب أدبية رائعة، فسيظل مكوث الناس أو جزء من الإنسانية تحت سطح الأرض خياراً بديـلاً: معسـكرات اعتقـال عظيمة تـدور حول الأرض مثـل الأقمار الصناعيـة، شـيء معقـول لكونه ممكنـاً، أو ممكن لأنـه معقول. كان الشـعور بالاشمئزاز الذي انتاب باحثي الذرة الهنود (بسبب حاجتهم الأمنية أيضاً)، شـديداً ومقبولاً بقـدر كاف لإظهار إخلاء حي الفقراء الكبير في جوارهم على أنه شيء منطقي. ومنطقة حي الفقراء الحالي لمخيم كيتا تقع مباشرة إلى جانب ترسانة سلاح البحرية الهندي: مرة أخرى تطرح المسـألة الأمنية نفسـها. ولكن إلى أيـن يُذهب بالأحياء الفقيرة في بومباي وكلكتا وهونغ كونغ وجاكارتا وبانكوك ونيروبي، إذا كان نقلها وترميمها الجزئي يؤدّي إلى نشوء أحياء أكبر للفقراء على الدوام وإلى هروب متنام من الريف؟ «إلى داخل الأرض!»، كما يدع دبلين مجالس شـيوخ المدن فـي رواياته تنادي، «إلـى الفضاء!» كما يمكن أن تصدر التوصية بعد غد من لجنة الترميم الدولية.

والأحيـاء الفقيرة على كل حـال والمنفصلة عـن رعاية المدينة متحـرّرة من نقـل النفايـات وتصريف ميـاه المجاري ونظـام التعليم ونظام المستشـفيات وتزويـد المدن بالماء النظيـف. أطراف مزعجة تُقطـع وتُترك. ولكنها تتعفّن وتصبح نتنـة، لكنها تنمو على الرغم من ذلـك، وتتّحـد وتهـدّد بالتذويـب ـ ولا يوجد ثمة مكان مـا للتخلّص منهـا، إلا إذا دلّ الكاتـب الذي ألّف من بين كتـب كثيرة رواية «جبال وبحار وعمالقة» بالفعل على المستقبل.

والآن بتنـا نعـرف مـا ابتدعتـه رؤوس كبيـرة جـداً ومـا يمكـن أن تبتدعـه. وسـواء أكّدنـا العكـس بصمـت أو بصـوت مرتفـع فـإن مجـيء الطوفـان بعدنا هو أمرٌ مقبول. وفي الحقيقة تتحسّـس أحدث اختراعات المسـتقبل بفضول، لكن في الزمن الحاضر الذي نعيشـه، أدركتنا العصور الوسطى: الأوبئة والخوف من الأشباح والشوق غير واضح المعالم إلى الخلاص والجنون الديني؛ كل هذا يتزايد، وليس رئيـس الولايـات المتحـدة الأميركية فقط هـو الملتـزم بالتوجيهات السماوية. ففي فبراير من هذا العام اجتمع في وسط الهند بضع مئات مـن البراهمة ليقدموا قرباناً للآلهة: مـواد غذائية بقيمة مليون ونصف مـارك، رزاً وحليباً وزيوتاً نباتية. أُحرقت كلها وسـط إقليم المجاعة. وفـي مقابلة صحفيـة قال أحد زعمـاء البراهمة: إنه مـن غير الحكمة مسـاعدة الضحايـا المعاصريـن من الأعاصيـر، لا بل علـى المرء أن يحـاول أن يتفـادى أعاصير مسـتقبلية من خلال تقديـم قرابين كبيرة. قصة معاصرة يمكن لدبلين أن يذكرها.

هكـذا انتهـت رحلتي، في حين يسـتمر السـباق مـع الطوباوية. وممّـا يمكـن أن يُضـاف أنه تـم عرض فيلم «سـمك القـرش القاتل» فـي دور السـينما في هونغ كونغ وجاكارتا وبانكوك، وأن الموسـيقى

الكلاسيكية تنساب في الفنادق اليابانية الفخمة بل حتى في المصاعد: باخ وفيفالدي وبورسيل، وأن الحياة ملوّنة لا سيما لدى الفقراء، كما أودّ أن أضيف أنه كان يحتفل بها على شكل صراع للديكة، وأنه توجد أشباح فعلاً في آسيا؛ وفي آسيا يرد اسم ألمانيا في القسم الاقتصادي من الصحف فقط، أو يأتي مرتبطاً مع اسم بيكنباور؛ وفي هذه القارة المزدحمة الهادئة لا يتردّد صوت السيّاح الألمان أعلى من صوت السياح الفرنسيين والهولنديين وغيرهم. في البيت الكلّ مشغول بنفسه وبمخاوفه الصغيرة، وعلى ما يبدو فإن الملاحظات الإضافية الكثيرة المشاغبة والإشارات العدوانية في الكلمة والصورة والفعل موجّهة ضد العدو الداخلي. وإذا كان الجنون في آسيا ذا رائحة عبقة، فإنه في أوروبا يحاجج بالمنطق. وهنا يوجد كل شيء ـ ومغلّف بشكل جميل. لا يمكن الحصول على الكثير من المستقبل فقط. لذا لا بدّ للمرء أن يبحث، ويأخذ وقته، وأن يبدأ مرة أخرى من البداية ويقرأ. في تقويمي أرى أنه سيمرّ مائة عام قريباً على ولادة ألفريد دبلين الذي هو على وشك أن يبلغ المائة عام.

## أكاتب أنا أم رسّام؟

**نيسان | أبريل 1979**

حيـن كتبـت مؤخراً قصة، يلتئـم في مجرياتها عـددٌ من الكتاب الباروكييـن في نهاية حرب الثلاثين عاماً، ليقرأوا شـيئاً من مسـودات الأعمـال التي كتبوهـا، بحثت عن تعبيـر لوضعهم اليائـس، فوجدته بدءاً في لوحة تصوّر يداً تبرز من الحصى المتشـظّي وممسـكة بريشة الكتابـة، قبل أن أستوعبه فـي الكلمات وأضيفه إلـى قصتي. اللوحة المرسـومة، وكانت من الكليشيات، أصبحت غلافاً لكتابي[1]. يوجد المجـاز المكتوب عرضاً في النص القصصـي. حاولت بطريقتين أن أسـجّل تقليد الشعار الباروكي. وحين تسبق الفكرة المتعلّقة بالرسم، تطلـق عملية الكتابة تنوّعات الرسـم. وكلا الفنّيـن يخصبان بعضهما بشكل خنثوي. ويبرز التناقض بين الرسم والكتابة في تشكيل التخيّل

---

(1) المقصـود هنا قصة «لقاء فـي تيلغته»، التي صدرت عـام 1979 وتصور لقاءً خرافياً بين مجموعة من الكتّاب والشعراء الألمان في مدينة تيلغته الألمانية فـي عـام 1647. وتعد هذه القصـة تصويراً مشـفراً للقاءات جماعـة 47 بعد الحـرب العالميـة الثانيـة. وقد أهـدى غراس هـذه القصة إلـى هانس فيرنر ريشتر، الذي كان يُعدّ الأب الروحي والمؤسّس لهذه الجماعة، التي تركت بصمـات واضحة علـى أدب ما بعد الحرب. والقصة غيـر مترجمة بعد إلى العربية. (المترجم).

الصوري، الذي يؤثّر، موضوعاً في كلمة، بشكل رمز، والذي يمكن كذلك استيعابه بالكلمة كرمز.

وتختلف كلتا الحرفتين وموادهما بشكل محيّر، لا لأن الخط والسطر الرمزي متقاربان صورياً فقط، بل أيضاً بسبب الوضوح.

يرتبط الرسم بالكتابة بعلاقة تبادلية: على الجانب العملي يتخطّى التصوّر الرمزي حدود تعريف الجنس الفني. وربما تكون أصول الفن، من اللغة الصورية إلى تعويض اللغة بالصور، هي من تذكر أن تقسيماتنا الكلاسيكية وتحديد أنواع الفنون في الوقت الحاضر قد استحدثت لضرورات أكاديمية بحتة. لهذا تكون تساؤلات القرّاء مثل «هل أنت كاتب أم رسّام بالدرجة الأولى؟» مفهومة بشكل يدعو للضحك. وقد تبدو إجابتي لهذا السبب وحده فكاهية، وهذا يعني تطوير تناقضات هذا الجواب بعيداً عن التقرير الجاد «أما... أو».

أنا دائم الرسم، حتى حين أكفّ عن الرسم وأكون منشغلاً بالكتابة أو التركيز على أشياء أخرى. في أثناء الرسم أيضاً تستمر كتابة الجمل، التي بدأت تأخذ مكانها على الورق. تلغي الكتابة الزمن، تقصّره أو تمدّده. وفي أثناء الرسم يُخلق التعبير الأكثر اقتضاباً. قبل وقت طويل من كتابتي على مدى سبعمائة صفحة حكاية رواية سمكة موسى[1]، رسمت السمكة المسطّحة الكبيرة بالفرشاة وبالقصبة وبالفحم الهشّ وبالرصاص. وحين اكتملت سمكة موسى كسمكة ناطقة وألمّت الفصول الأولى من المسودة بالمادة، وألغي تسلسل الحوادث التاريخية، وحوّلت إلى وقت روائي آنذاك فقط، نشأت كليشيات محفورة بتقنيات مختلفة (المواد الكاوية والحفر بمقبض الماس)،

---

(1) رواية «سمكة موسى» للكاتب الألماني غونتر غراس صدرت عام 1977، واسمها مأخوذ من حكاية «الصياد وزوجته» للأخوين غريم. والرواية غير مترجمة بعد إلى العربية. (المترجم)

ارتبطت كل منها، من دون أن تكون لوحة، بموضوع المادة الروائية أو وسعته إلى تلك الميادين، التي لا تنفتح أمام النثر القصصي ولكن على الشعر وحده.

تتطوّر القصائد والصور ويرتبط بعضهما بالبعض تبادلياً. فغالباً ما تكون الصورة قصائد مرسومة، كما ترسم القصائد الكثير من الملامح وتخلق تدرّجات اللون الرمادي. كما يقصر البيت الشعري المسافات ويمدّها أو يؤمّن استمرار التألق القصير الأمد، تسجّل اللوحة بشكل غير متيسِّر ثبت التداخلات المحسوسة. فبخط غير مكترث يمكنها إلغاء الشعور بالغربة، وتقدم المتناقضات تحت الخطوط المتوازية وتنقض ـ حالها في ذلك حال القصيدة ـ المألوف. كما تجعل الشاردة جليّة المعالم.

موضوعي هو مواجهة المتناقض. رأس السمكة المشيش والحذاء القديم يرتبطان بعداوة. إن موضوع الحكاية: إيزابيل ـ وتتبنى تعبيرات الوجه صورياً. وولدت في الوقت نفسه قصائد وكليشيات لمجموعة «اختبار الحب»(1)، وسبّبت في مكان آخر باعثاً لبعض الفصول النثرية، التي كانت بدورها بحاجة إلى الصورة كحجر اختبار. فالصورة أدقّ. ولا يغريها وقع الكلمة. وأكثر من الخط الواضح فإن البيت الشعري عرضة لخطر هراء التفسير المرغوب فيه. ويثبت المجاز الكلامي، مترجماً في البدء إلى الصورة المرسومة، في ما إذا كانت هذه تتمتّع بالاستمرارية.

وتقول الصورة: هل ترون؟ فأنا لست بحاجة إلى سوى كلمات قليلة. أما القصيدة فتقول: أتسمعون ما بين الخطوط. وبسبب استمرار الرسم عندي في أوقات الكتابة، وبسبب إمكانية اشتقاق مقاطع

(1) مجموعة شعرية صدرت عام 1974. (المترجم).

ملحمية كانحدار للجمل من التركيب الرسـمي، لم يسـتطع السؤال: «هل أنت الآن كاتب أم رسّـام بالدرجة الأولى؟» أن يقلق ديدني (في الأداء المركَّـب) بالصورة والرسـم: توجد تدرّجـات الوضوح، التي تلوّن واقعنا وتدرجه وتجعله شـفّافاً وغير شفاف. فاللون الأبيض هو الورق فقط، ويجب أن يُلطخ، ويُنعش بمعلم هشّ أو قاسٍ أو يُستعمر بالكلمات، التي تروي الحقيقة بشكل دائم متجدّد وبطريقةٍ مغايرة في كل مرة. والرسام الكاتب هو شخص لا يغيّر مداده.

(1997 - 1980)

# التخلّي عن العقلانية

**مداخلة في ملتقى كتّاب برلين الشرقية**
**في شهر كانون الأول 1981**

حتى بالنسبة لي، وإن كنت لا أعير بالغ اهتمام لمقولات نهاية الكون، فإني أوقن بأنّ نهاية الكائن البشري على هذه البسيطة باتت وشيكة، وذلك ليس بسبب فعل الكوارث الطبيعية، وإنما بفعل الإنسان نفسه. إنه ليس قدراً محتوماً، بل هو صنيعة أيدينا. لقد سعينا نحن البشر بطرق مختلفة، إلى تدمير أسس وجودنا أو وضع شروط إفناء المجتمع الإنساني إذ لم يكن عندنا القدرة الأساسية للعودة عن ذلك.

مهما كانت دعواتنا الإيدولوجية لتحقيق سعادة البشر، فنحن نستبيح الطبيعة. إننا نستنزفها ونستنفد مقدّراتها بالرغم من أنها قد أنجبتنا بإرادتها، وجعلتنا كائنًا من بين الكائنات الأخرى التي مهما بلغت مداركها المعرفية فإن قدراتها تظل محدودة.

إننا لا نستنزف الطبيعة فحسب، بل نستنزف ذواتنا أيضاً، وذلك حين تكون أفكارنا غطاءً لتطوير أساليب الاستغلال. إننا لسنا مدججين بالسلاح حتى النخاع، بل بلغنا في ذلك أبعد مما قد تتصوّره مخيّلتنا. لقد أصبحنا ضحية مفهوم خاطئ للتحضّر، لا يعلّمنا إلا كيفية القضاء

على الذات. عن هذا الخطر الأخير يجب الحديث في هذا المقام، من دون إغفال الأخطار الأخرى، خصوصاً ما يتعلّق بنشوب حرب كونية مدمّرة، واقتصار التفكير على سبل التسلح، ومنْ ثمَّ التخلي عن مقتضيات العقل. إن الكتّاب والعلماء يتحدثون وينطلقون من تجاربهم غير القليلة، والتي هي، مقارنة بالساسة، تظل أكثر تنوعاً وعمقاً. إني ألخّص وجهة نظري في سبع نقاط:

1 - بعد حربين عالميتين، وبعد الأثر المدمّر والمميت لاستعمال القنبلة النووية أول مرة، قررت القوى العظمى، بالرغم من كل الخلافات والصراعات، المضي قدماً في طريق السلام، لكنها هي القوى العظمى نفسها من ساهم في إشعال حروب محدودة، بدعمها تارة أو إطالة أمدها تارة أخرى، غير آبهين بتعريضهم السلم العالمي للخطر إلى يومنا هذا. وليست أمثلة أفغانستان وفيتنام إلا نموذجاً على ذلك، حيث الحرب مشتعلة منذ ثلاثة عقود، من دون أن نغفل ما يحصل في نيكاراغوا وبولندا. إن السلام الذي نصبو إليه سلام غير حقيقيّ.

2 - إن هذا السلام المتفق عليه بين القوى العظمى و معسكراتهم المتحالفة معهم، يعتمد على مبدأ الردع المتبادل، وعلى توازن قوى الرعب، وهذا ما يُسوّغ الاستعمال الدائم والمتجدد لأسلحة أكثر فتكاً، كشكل من أشكال استعراض العضلات تُجاه الآخر بدعوى استتباب السلم العالمي.

3 - هذا الفهم لاستتباب الأمن، جعل القوى العظمى وحلفاءها في سباق محموم من أجل التسلح. إن ما تم تخزينه اليوم من السلاح يكفي لتدمير البشرية جمعاء لمرّات متعددة، والخطر كل الخطر إذا حادت هذه القوى التدميرية عن السيطرة. لم يعد بمقدورنا

اليوم إحصاء ما يملكه كل طرف من عتاد عسكري، ممّا زاد في صعوبة تحقيق التوازن. إن السلام لا يتحقّق بمبدأ الرعب وإلا فقد قيمته الوظيفية .

4 - لا تزال سياسة القوى العظمى متمسكة بخيار التسلح بكل أشكاله، وإن كانت تتحدث عن ضرورة وأهمية جعل العالم خالياً من الأسلحة. هذه السياسة المتبعة من كلا الطرفين، خصوصاً سياسة العصا والجزرة المزاوجة بين التهديد والوعيد، والرغبة في السلام، لا يمكن وصفها إلا بالساذجة لاتسامها بالعجز والتقصير. يتم اللجوء إلى المناورة بغية تحويل الأنظار عن الأزمات المنتشرة داخل دولهم، وعن السياسات الاقتصادية الخاطئة المتبعة من لدن ساستهم، ممّا يدفعهم إلى نهج سياسة الهروب إلى الأمام. إن قواهم التدميرية الخارقة والمتجاوزة لقدرات الإنسان الطبيعية، تجعلهم يمتهنون الإنسانية. يريدون الحظوة بالحب والتقدير، في حين هم يغذون مشاعر الحقد والكراهية؛ تتم خشيتهم في الوقت الذي يخشون هم فيه أنفسهم.

5 - إن فشل سياسة وساسة القوتين العظميين له، بدءاً من الآن، تأثيرات سلبية. أكثر من نصف العلماء يُسَخرون في خدمة التسلح، المليارات التي تنفق من أجل التسلح عبر العالم تحول دون تقديم المساعدات الضرورية للمحتاجين خصوصاً في العالم الثالث، لأن مع التسلح ينتشر الفقر، ويعم البؤس، ويزداد عدد الجياع في العالم (سنوياً خمسة عشر مليوناً). يتنامى الشعور بالخوف حين تجتمع مفارقات استعمال الخطاب العقلي في وقت يتم فيه تعطيل منطق العقل نفسه. هكذا يمكن تصور نهاية

وشيكة للوجود الإنساني.

6- المعارضة واستمرار الاحتجاجات، فقط، كفيلة بقلب الموازين. من الضروري أن يجد تنامي الحركات الداعية إلى السلام هنا، مقابلاً لها باستمرار في أوروبا الشرقية. ربما يمكن لهذه الحركات الداعية إلى السلام، والمنتشرة بشكل تلقائي، والتي هي في الأصل ديموقراطية تمثّل القاعدة، أنْ تنجح في إعادة السياسيين إلى جادة الصواب، ومن ثمَّ حمل القوتين العظميين على القيام بدورهما.

7- وأخيراً يقع، حتى على الدولتين الألمانيتين، جانب من المسؤولية، أعني مسؤولية خاصة، حربان عالميتان انطلقت شرارتهما الأولى من الأراضي الألمانية، تقع وإلى اليوم مسؤولية تبعاتهما على الألمان. لهذا من الضرورة أن يلتزم سياسيو البلدين بنهج سياسة الحليف الناصح والمحذّر. إن هذه المسؤولية الجماعية للألمان عن السلام تقع على كاهلنا وعلى كاهل أوروبا على حد سواء. يجب أن نخطو الخطوة الأولى، سواء في الشرق أو في الغرب، من أجل إيقاف السباق نحو التسلح. يجب استغلال الموارد المُسَخَّرة للتسلح في مساعدة دول العالم الثالث في محاربة الجوع والفقر. هذا الدور الألماني يجب أن يكون محط إجماع، لأن الجوع يعني الحرب أيضاً.

إني لا أشعر، طبعاً، بالتهديد من قبل الروس، ودرايتي الجيدة بالشعب الأمريكي تجعلني أزعم أنه لا خطر يتهدّدنا من الأمريكيين أيضاً. أما ما يثير مخاوفي فعلاً فإني أحاول أن أشرحه عبر مداخلتي. إنهما قوتان عظميان، وانطلاقاً من عجزهما عن تجاوز الصعاب مع حاجتهما الملحّة إلى نيل حظوة أفضل، ليس فقط على الصعيد

الداخلي، بل على المستوى الدولي أيضاً، تبذلان مجهودات تفوق قدراتهما الحقيقية. تنشدان السلام بعبارات منمّقة تنتهي إلى فعل عدواني. إن اقتصار السلام على الخطابات في العقود الثلاثة الأخيرة، أفضى بنا إلى مزيد من العنف، والكل يلقي بالمسؤولية واللائمة على الآخر. ربما يحول توازن الرعب النووي في هذه المواقف دون استفحال الأزمة واتساعها. ولأنه بات من الصعوبة بمكان تحديد ومعرفة مدى التكافؤ النووي وضبط مداه، نشأت أزمة ثقة بين الطرفين. وفي الوقت الذي كانت فيه الأزمات في الخمسينات والستينات وحتى بداية السبعينات تبدو عابرة، يستحيل معها نشوب حرب عالمية ثالثة، أصبح وارداً اليوم، وبالرغم من محدودية بعض الصراعات المحلية، خطر توريط إحدى القوتين العظميين فيها. إن هذه السياسة تزرع بذور الريبة والخوف، وعلى سبيل المثال لا الحصر، الاتفاقية العسكرية التي عقدتها الولايات المتحدة الأمريكية مع جمهورية الصين الشعبية. إنه لأمر مخجل وخطير. يجب أن يعلموا، وبالرغم من عدم جدوى هذه الاتفاقية العسكرية، بأنهم يُنمّون شعور الاتحاد السوفياتي بالخطر والاستهداف. إن هذه السياسة لا تساهم إلا في تصعيد التوتر وإذكاء شعور الريبة والترقب في كلا المعسكرين.

الاتحاد السوفياتي وبدوره ينحو المنحى ذاته، حين يستغل دولة ككوبا لما تعانيه من مشاكل جمّة في صراعات داخل إفريقيا. محصّلة ذلك أن الكوبيين في إفريقيا أصبحوا كالأمريكيين والروس في مصر؛ لا يفقهون شيئاً من عادات وتقاليد هذه الشعوب. وبعد أن استُقبلوا، بادئ الأمر، بالورود والأهازيج، وُوجهوا بسنوات قليلة، بعد ذلك، بالمقاومة والعداء. إنهما قوتان عظيمتان تسعيان إلى فرض احترامهما، وإن اقتضى الحال استخدام القوّة. إنه أحد أسباب

خطورتها. إني أود التأكيد بأن الأمر لا يقتصر على هاتيْن القوتين العظميين. يجب أن لا ننسى هذا الأمر حتى ولو كلّلت مجهوداتنا بالنجاح. هذا ما نسعى إليه تجنباً لاندلاع حرب عالمية ثالثة. لا بد أن يكون لنا، نحن الدول الصناعية في الشرق والغرب، دور في الاهتمام بالعالم الثالث، وذلك بوقف استنزاف ثرواته الطبيعية، لأن ثمن التنصّل من المسؤولية يكون باهظاً جداً.

أعلم علم اليقين بأن هناك إيديولوجيات متعدّدة في المكان عينه، تسعى جاهدة إلى حجب الجرائم التي ترتكبها القوى العظمى وحلفاؤها، مما يزيد الفقر والبؤس استشراءً (الانفجار السكاني المهوّل في الوقت الذي يبلغ فيه اليوم عدد سكان العالم أربعة مليارات ونصف مليار، يُنتظر أن يبلغ فيه هذا العدد، في سنة 2000، سبعة مليارات). هذا التزايد السكاني له نتائج مباشرة لا يمكن تجاهلها، ولا تمكن مواجهة هذا التحدي إلا، كما قال فيلي برانت في تقريره المسمى شمال جنوب، حين نوقف التسلح بشكل شامل عبر العالم، مع التأكيد على ضرورة استثمار جانب من هذه الأموال المهدورة في التسلح لتنمية العالم الثالث.

# من دون مستقبل مضمون

**مداخلة في ملتقى الكتاب في لاهاي**
**في شهر أيار 1982**

يمنحنا تواتر الإرث الأدبي إلينا وطرق تمحيصه اليوم، قدرة على التوقّع؛ إنه يمنحنا القدرة على استشراف المستقبل. إلى اليوم، بالرغم مما شهده من رقابة وتضييق، وبالرغم من تعرّض الكثير من الكتّاب والمؤلفات للاضطهاد والملاحقة، تمكنوا، وبعد عشر وعشرين وثلاثين، وحتى بعد خمسين سنة، من نسيان المضطهد، وإحداث التأثيرات المرجوّة. ما أخشاه هو أن نفقد الإدراك بأن الأدب لم يعد في تأثيره يؤمّن لنا المستقبل بأي شكل من الأشكال. إذا كان الأمر على هذا الحال فنحن هنا اليوم مجتمعون لنطرح من جديد تساؤلات حول ماهية الأدب.

يجب ألاّ نتشدق بمقولات نهاية الكون، وبأن العالم في خطر، في حين تأتي كتاباتنا متفائلة بمستقبل أفضل ومضمون. أعتقد أن مجموعة من الكتّاب بقصد أو بغير قصد، ممن يؤثرون الجلوس بالمكاتب، اختاروا المشاركة في هذا الملتقى وعياً منهم بأن المستقبل في خطر؛ ممّا يبعث على أمل انتظامهم في تكتّلات، وتضامنهم مع الحركات الداعية إلى السلام.

هذه الحركات الداعية إلى السلام، ولأنها نشأت من القاعدة، ولم تخضع لأي توجيه من أي كان، كلّلت مجهوداتها بالنجاح. في لقائنا الأخير في ديسمبر 1981 لم يكن من المعروف أنه قد نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية حينها حركات داعية إلى السلام، وذات تأثير فعّال. لقد عاينّا في ألمانيا، كما في دول أوروبا الغربية الأخرى، كيف أن الضغط من القاعدة سواء أخذ أشكال المعارضة أو العصيان، دفع السياسيين ليس فقط إلى إعادة حساباتهم، بل إلى الحديث عن موضوعات؛ كانت إلى وقت قريب تدخل في باب الممنوعات، كالحديث عن افتقار حلف شمال الأطلسي إلى رؤية مستقبلية شاملة، لأن هذا الأخير إذا ما طرح رؤية جديدة، تشمل مراعاة الجوانب الإنسانية، فإن حلف وارسو سيجد نفسه مضطراً لاتخاذ الخطوات ذاتها.

لهذا السبب أدعم فكرة قبول وتدعيم كل حركة داعية إلى السلام في المعسكر الشرقي، أو في الأقل في ألمانيا الشرقية، أعني تلك الحركات الداعية إلى السلام حديثة النشأة، والراغبة في التطور والانتشار. إنه من الجيد أن تكون في ألمانيا الشرقية حركات داعية للسلام، مدعومة من الحكومة، وأيضاً من المثقفين الذين يجسّدون طرحها الرسمي. الأمر الذي سيوصلنا وربما بعد مرور وقت قصير، إلى نقط تلاق مشتركة بين الحركتين، سواء تلك المنطلقة من القاعدة، أو تلك المدعومة من الحكومة، وحينها لن تعود بنا حاجة إلى التضييق على الحركات الأهلية الداعية إلى السلام.

أليس من واجبنا مساعدة هؤلاء الشباب الذين ينزلون إلى الشوارع، سواء هنا في الغرب، أو هناك في ألمانيا الشرقية للتظاهر من أجل السلام. أليس من حق هؤلاء الاطلاع على مدى دعمنا

وتأييدنـا لهذه الحركات السـلمية، بل أليس مـن الممكن البحث عن أنجع السـبل، ربما للسـيد شـتيفان هيرمليـن، أو الزمـلاء الهولنديين اقتـراح حـول كيفية توفير الحمايـة القانونية لهـؤلاء المتابعين، كفتح مكتب يتلقى شكواهم، إنها إحدى الواجبات المنوطة بنا والتي يجب أن نتفق بشأنها.

ما أشرت إليه سابقاً يعود إلى حوار أجريته مع كارلوس فوانتيس في السـنة المنصرمة بالمكسـيك، مفاده أن القناعة بأن الأدب لا يقدّم أجوبة مطلقة عن المستقبل، مما يطرح حتمية إعادة التفكير في هويتنا من جديد. إن الاهتمام بالحركات الداعية إلى السـلام، يمنحنا فرصة القيـام بذلك. يجـب أن نعي جيداً أننا لسـنا في منـأى عمّا قد يصيب الآخرين، بل إننا جميعاً في قارب واحد.

# في الباحة الخلفية . تقرير حول رحلة الى نيكاراغوا

**تقرير حول الرحلة إلى نيكاراغوا**
**في تشرين الأول 1982**

الحديقة الخلفية للولايات المتحدة الأمريكية، هو الاسم الذى تُنعت به، عادة، دول أمريكا الوسطى، لهذا يصدق المثل المكسيكي الواصف لهذه التبعية: أيتها المكسيك كم أنت بعيدة من الله، قريبة إلى أمريكا. حتى جمهوريات الموز الخمس، بما فيها نيكاراغوا بحدودها الشمالية مع الهندوراس، والجنوبية مع كوستاريكا، لم تسلم هي الأخرى من هذه التبعية. إلى هناك انتقلنا، من دون سابق معرفة، أنا وفرانس آلت ويوهانو شتراسر، برفقتنا أيضا كان أوته، والناشر هيرمان شولتس، والمترجمة دورا فايد هاس، من غير أن ننسى وزير الثقافة الشاعر والكاهن الكاثوليكي أرنستو كاردينال، وعضو اللجنة الحكومية لإعادة الإعمار سرجيو راميرس. هذه الزيارة تمّت بدعوى من هذين الأخيرين. وبعد مقام ثمانية أيام، وَلّينا عائدين. لقد لمس كل منّا تغيّراً في نفسه. هذه الرحلة جعلتني أضع نفسي موضع تساؤل عميق عن مدى مداركي المعرفية قبل ذلك عن هذا البلد.

إن تعاطفي مع الثورة السندينستية يظل مشوباً بشيء من الريبة والشك، وهذا الوضع يجب ألا يستمر، كيف يُعقل أن يكون ضابط

في منتصف عقده الثالث، قبل ثلاث سنوات لا يجيد غير الكر والفر في حرب العصابات، أن يصبح، بين عشية وضحاها، حمامة سلام، وبارعاً في سياسة المال والاقتصاد. متى ستبدأ هذه الثورة، هي الأخرى، بالتهام أبنائها، كما علّمنا التاريخ. الآن فقط أتفهّم ما حصل في بولندا.

لم أكن لأدرك أوجه الشبه الكبير، بين الحركة النقابية البولندية لزوليدانوش وسندنستيي نيكاراغوا. وأن تبعية بولندا المستمرة للاتحاد السوفياتي لا تختلف في شيء عن تبعية أمريكا الوسطى الدائمة، وبالأخصّ نيكاراغوا للولايات المتحدة الأمريكية. بل إن حيرة كل منهما، سواء السندنستيين بنيكاراغوا، أو أتباع زوليدانوش، تثبت، وبالرغم من التباعد الجغرافي، هذا التباين والتعارض في وجهات النظر. إنهم يجهلون كل شيء؛ بعضهم عن البعض، وإنْ علموا شيئاً فإن معلوماتهم تكون في الغالب مغلوطة. في الوقت الذي تواجه فيه الولايات المتحدة الأمريكية حركة السندنستيين، وتعدّهم خطراً على أمنها، تقدّم نفسها كمدافع وراع لحركة زوليدانوش، الأمر الذي انطلى على الكثيرين داخل بولنداً بسبب غياب المعرفة تارة، وسوء الفهم تارة أخرى. أمّا الاتحاد السوفياتي الرابض على الحدود الشرقية لبولندا، والمتأهب على الدوام للزحف، فإنّه ينصِّب، بدوره، نفسه حامياً وداعماً لحركات التحرّر في العالم الثالث. وبسبب غياب وعي شامل بما يحدث، يصدّق غالبية الناس بنيكاراغوا هذا الزعم. هناك يتم التسليم بما تقدمه وكالة تاس من أخبار دونما تعليق، في حين يتم الأخذ، هنا في بولندا فقط، بصوت أمريكا القائل بأن نيكاراغوا قد أتى عليها الدور لتقع في أحضان كوبا والاتحاد السوفياتي.

إن المضطهدين لا يعيرون كبير اهتمام إلا لمن يضطهدهم مباشرة، ويفرض عليهم التبعية. لأن المسافة قصيرة، والخطر القائم على الجوار، نُصْبَ أعينهم، يتهدّدهم باستمرار. حتى التجربة التاريخية علمتنا أنه كلما كان تدخل هناك، كان بالمقابل له تقسيم هنا. هذه المعطيات نجدها مختزلة في تأريخ كل بلد على حدة. وهذا ممّا يجعل مشاعر العداء تُجاه الروس أمراً مُسلّماً به في بولندا، ومستشرياً في نيكاراغوا تُجاه الأمريكيين.

إن الكراهية تحجب الرؤيا وتجعلها ضيّقة. وحيث الحقد والكراهية يتأجّجان بفعل سياسات مغلوطة للدول العظمى، يتم خلط الأوراق حتى بين الذين ينشدون السلطة بطرق سلمية، فيُتهمون بالتبعية، إمّا إلى الإمبريالية الأمريكية، أو إلى نظام الحزب الواحد السوفياتي. هذه الكراهية المزدوجة يمكن تفهّمها.

من زار مثلي بولندا قبل سنة واحدة، وقدِم للتو من نيكاراغوا، سيلاحظ، في كل مرة، كيف أنه من الغباء ومن الخطورة بمكان، محاولات القوى العظمى تأسيس حدائق خلفية لها هناك. لكن ردة الفعل هذه المرة، لا يمكن احتواؤها، إنها حديثة العهد وغير مسبوقة على هذه القوى العظمى، والتي مهما بلغت أدوات القمع لديها، فإنها لن تستطيع تغيير هذا الواقع في شيء. كلتا الحركتين متمسكة بمبادىء الاشتراكية والكاثوليكية، وسالكة المسلك الواضح والمباشر، كما كان عليه الإنسان في الأصل؛ من رَفض الخضوع إلى أي نظام حكم عشوائي.

حتى المشكّكون، أنفسهم، يذهبون إلى القول بأن روزا لكسمبورغ لدى البولنديين باتت تبدو وكأنها السيدة مريم العذراء، الأمر نفسه يتكرّر في نيكاراغوا، حيث حلّت صور روزا لكسمبورغ

محل صور مريم العذراء. إنهما حركتان نابعتان من القاعدة؛ تسْخران من الخطر الأحمر المزعوم، ومقولات لينين، ودعوات الكنيسة واللجان المركزية للحزب الشيوعي. إنَّ ما تم العجز عن تحقيقه في بولندا، إلى اليوم، تحوّل، منذ ثلاث سنوات، إلى صورة ثورة منتصرة في نيكاراغوا. إن هذه الثورة معاصرة، تطمح إلى مستقبل أفضل، تقبل المراجعة والمقارنة مع غيرها.

يمكن عندنا قراءة ما كان افتراضياً على أنه اليوم حقيقة: في نيكاراغوا يوجد معتقلون سياسيون، لا سيّما هؤلاء الذين كانوا ينتمون في السابق إلى الحرس الوطني. هؤلاء كانوا منضوين تحت لواء الديكتاتور زوموزا، حيث قتلوا وأحرقوا كل من وقف في وجههم من الثوار. كنا نسأل عنهم. لقد اقترح علينا وزير الداخلية طوماش بورغو، وهو في الثانية والخمسين من عمره، ويُعدّ أحد رجالات الثورة القلائل المتقدمين في السن، أن نزور سجن تبيتا. كان السجن فظيعاً كفظاعة أي مكان قد يسمح فيه الإنسان لنفسه بسجن أخيه الإنسان. كان يختلف عن سجن زوموزا للتعذيب، بتطبيقه لأساليب الزجر والعقاب الإنسانية، الأمر الذي قل مثيله في العالم الثالث، وحتى في الدول الغربية. اقتصرت بعض هذه المحاولات على الدول الإسكندنافية.

مئات من منتسبي الحرس الوطني السابق يعيشون هناك؛ يقضون أحكاماً تتراوح بين ثلاث سنوات وثلاثين سنة، وذلك بحسب درجة مشاركتهم في القتل والتعذيب. لا توجد هنا أحكام بالإعدام. هؤلاء السجناء يشتغلون من الاثنين إلى الجمعة في تشييد وبناء مستشفى جديد، وجناحين إضافيين للسجن، بزنزانات أكثر اتساعاً، عكس تلك التي كانت تشبه الأقفاص أيام حكم زوموزا. في حين تخصص

أيـام السـبت والأحـد للزيـارات العائلية، إذ يُسـمح للأهالـي بزيارة ذويهم مرة في الأسبوع، والمكوث معهم من ثلاث إلى أربع ساعات كاملة. أما بالنسـبة للمتزوجيـن، فقد خصصت لهم زيارات في غرف خاصـة برغم قلّتها. الأمر الذي يسـبّب بعض المشـاكل التي عرضها علينا السـجناء دونما حرج. وسماع الموسـيقى المنبعثة من المذياع، في أثناء فترات العمـل، كان، أيضاً، من جملة المطالب التي عُرضت علينـا. الكثير منهم اشـتكوا من عدم توفّر ذويهـم وزوجاتهم وآبائهم على تكلفة التنقـل والمواصلات من العاصمة ماناغوا، أو من مناطق أبعد أيام الزيارات.

حتـى طومـاش بورغـو وُجِّهـت لـه تسـاؤلات ومطالـب عدة، وهو الذي مكث خمس سـنوات في هذا السـجن، معصوب العينين، مقيّد اليدين تسـعة أشـهر كاملة، ناهيك عن ثلاثة أشـهر من التعذيب المسـتمر. لقـد عاش ظروفا أسـوأ ممّا يعيشـها السـجناء اليوم، حين كان معتقلاً بسجن تبيتابا، لا سيّما بعد مقتل زوجته. كان يجب عليه، في الواقـع، (على حسـب نموذج الثورة التي نعرفهـا جميعاً)، الأخذ بالثـأر، وردّ المظلمة بالمظلمة. لكن طوماش بورغو قال مسـتحضرًا أحـداث الماضـي: إذا مـا أخذنا بالثأر، فسـنفقد حـلاوة النصر الذي منحتنا إياه الثورة. إن ثورتنا تعني التخلي عن الانتقام.

إن الثورة الفرنسـية، وثورة أمريكا الشـمالية، والثورة الروسـية، نتج عنها الإعدام والانتقام، والرمي بالرصاص، والتصفية الجماعية. كل الثورات المعروفة لطّخت وعودها المثالية بحياة أفضل للإنسانية بالـدم. إنهـا الثـورة السندينسـتية وحدهـا من يشـكل الاسـتثناء. في هـذا البلد الصغير، قليل السـكان، معدوم الإمكانـات، طبّقت تعاليم المسـيح بحذافيرها. لكننا نتسـاءل: ألم تكن هناك بالفعل تجاوزات،

وتعذيب ناتج عن الرغبة في الانتقام؟ إننا نريد أن نعرف الحقيقة. أجل، ذهب طوماش بورغو أبعد من ذلك حين قال: أكثر من سبعمائة من الثوار السندنستيين صدرت بحقهم أحكام، لأنهم نهبوا وعذبوا، وأكثر من ذلك قتلوا.

إنهم لا يحظون بأيّة معاملة تفضيلية، إنهم وأعضاء الحرس الوطني السابق سواء. لكن معظم السجناء من الحرس الوطني تمكّنوا من الفرار. أكثر من خمسة آلاف رجل تجمّعوا في الهندوراس، على الحدود الشمالية لنيكاراغوا، يتم تسليحهم ومنحهم كل وسائل الدعم الممكنة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية. ناهيك عن الوحدات الخاصة التي يتم دعمهم بها، والمكوّنة خصيصاً لهذا الغرض في ميامي وفلوريدا. إنهم يخترقون الحدود، يدمّرون القرى، ويحاولون بناء قواعد لهم. إنهم يهدفون إلى إشعال الحرب، التي إذا ما عمّت سائر أرجاء أمريكا الوسطى، فإن المسؤولية وحدها تقع على كاهل الرئيس الأمريكي ريغن وإدارته.

حين اضطررنا إلى التوقف في ميامي، في أثناء رحلة العودة، تأخرت الطائرة، التي كان من المنتظر أن تقلنا إلى مناغوا، عشر ساعات كاملة، فقررنا استئجار سيارة. سألنا عن أماكن التدريب للاجئين الكوبيين، وأتباع زوموزا، فعثرنا عليها في الضاحية الجنوبية من مدينة ميامي؛ كانت إحداهما تقع خلف أكوام من الطوب، في حين كانت الأخرى مشكّلة من الصفيح، ومحاطة بسياج معدني. على المدخل علّقت لوحة كُتب عليها تابع للـ ف.ب.آي. وإذا أردت ولوج هذا المكان من دون إذن سابق، فسوف تتعرض لعقوبة السجن التي لا تقل عن عشر سنوات، أو تدفع غرامة مالية قدرها عشرة آلاف دولار.

لم يعد لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية من مسوّغ أخلاقيّ يجعلها تدعو إلى مقاطعة الاتحاد السوفياتي بسبب عدوانه على أفغانستان، وممارسته الضغط على بولندا، ما دامت هي الأخرى تسير في الاتجاه ذاته. إن الولايات المتحدة الأمريكية دعمت زوموزا بالرغم من أنه قد تسبّب في مقتل الآلاف، ودعمت من قبله أباه، وذلك بتوفير الدعم والحماية والقروض. وإلى آخر مراحل المواجهة مع السندنستيين، لم تدخر جهداً في تقديم السلاح، ولا تزال، إلى اليوم، تحاول القضاء على الثورة، وذلك بمنع وصول المساعدات إلى السندنستيين؛ بما فيها قطع الغيار للمنتجات الأمريكية، كآلات الفلاحة، بل أكثر من ذلك، كانوا على استعداد لإشعال حرب فيتنام ثانية في أمريكا الوسطى.

لقد كنت أعلم هذا قبل السفر، لكن في نيكاراغوا أصبحت فقط أدرك وبخجل كألماني، من أية طينة هم هؤلاء الذين نحن متحالفون معهم. لو كان بإمكاني كفرد، لسعيت إلى التحلل من هذا الحلف، لأنه تخلّى عن واجبه في حماية الديمقراطية الغربية ومنذ زمن. لأن هذا الحلف محكوم بقوة الجبر، وقبول جرائم الحليف الأكبر، والسكوت عنها أو دعمها إذا اقتضى الحال، لأنه لم يعد ينتج عن هذه القوى العظمى أو معارضيها، سوى العدوان. لأننا لم نعد نستطيع أن نجد العذر لهذه الحماقات المرتكبة من قبل هذه القوى العظمى، لأنني على حد سواء أدعم كلاً من الحركة النقابية البولندية زوليدانوش، والحركة السندينستية في نيكاراغوا، ولأنني لا أريد أن أتخذ موقفاً سلبياً تُجاه هذه الجرائم المرتكبة.

كيف تعدّ الولايات المتحدة الأمريكية، وبعض دول أوروبا الغربية، هذه الدول خطراً عليها، إذا كانت هذه الدول نفسها تعاني

الفقر والعجز، والأزمات؛ اثنان ونصف مليون من السكان يعيشون موزّعين بين العاصمة ماناغوا، وبعض المدن الصغيرة. إنهم مُوزّعون بشكل غير منتظم عبر كل أرجاء البلاد. إن الثورة ورثت عبئاً ثقيلاً من فترة حكم زوموزا. الخزينة كانت فارغة، والديون الخارجية بلغت ملياراً ونصف مليار دولار، حتى المساعدات التي قدمت إبان الزلزال الذي ضرب العاصمة سنة 1972 قام زوموزا وأسرته بنهبها. أكثر من ثلاثمائة ألف من سكان العاصمة يقطنون دور الصفيح، ويعانون التلوّث بسبب انعدام الصرف الصحي، ناهيك عن هجرة رؤوس الأموال إلى الخارج؛ أكثر من مليار دولار، ممّا أدى إلى استفحال التبعية الاقتصادية. فحجم الصادرات إلى الخارج لا يتجاوز ما حجمه خمسمائة مليون دولار، في مقابل واردات تتجاوز قيمتها ثمانمائة وخمسين مليون دولار لتغطية الحاجات الأساسية للبلد.

أضف إلى ذلك، إن أسعار المنتوجات التي تصدّرها نيكاراغوا كالقهوة، والقطن، والسكر، تواجه في الأسواق الدولية هبوطاً حادّاً. فعلى سبيل المثال لا الحصر، إذا كان قنطار واحد من القهوة قبل الثورة يساوي مائتي دولار، فإنه اليوم لا يتجاوز الثمانين دولاراً. في حين أسعار الواردات في ارتفاع مستمر، خمسون في المائة من الواردات الغذائية، كالذرة، والفاصوليا، يتم استيرادها من الخارج. حتى القروض التي تم الحصول عليها، والتي تتجاوز في مجملها مليار دولار، لم تعد تفي بالحاجة، بل أصبحت تشكّل عبئاً إضافياً على خزينة الدولة، بسبب الفوائد المترتبة عن سداد هذه الديون. وبالرغم من أن هناك تزايداً في المنتوج المحلي، يتهدّد خطر الإفلاس الدولة في سنة 1985

قدم لنا كلٌ من وزير الإصلاح الزراعي جيم ويلوك، ووزير

التجارة الداخلية ديونيزيو مارينكو، بهذا الصدد تقارير واضحة (على ألواح مدرسية). هذان الوزيران الشابان المشهود لهما بالكفاية، وحسن التدبير، يستندان في خططهما إلى معطيات الواقع، وليس إلى شعارات الثورة. إنهما يمثلان تياراً في السندينيستية، يهتم بما يسمى بالاقتصاد المشترك والذي بمقتضاه، تعود نسبة عشرين في المائة إلى الدولة، وثلاثين في المائة إلى القطاع الخاص، في حين تخضع الخمسون في المائة المتبقية، إلى مبدأ التعاون بين الدولة والقطاع الخاص.

جيم ويلوك قدم لنا نموذجين لتعاونيات؛ وكيف أن إحدى الضيعات التي كانت في ملك زوموزا سابقاً، قد تحوّلت إلى ملكية مزارعين جدد لم يكونوا، ومنذ أجيال، يملكون شيئاً. أزيد من خمسة آلاف من هؤلاء المزارعين، أصبحوا يمتلكون ضيعات اليوم. وعن سؤالنا ماذا تغيّر بالنسبة لهؤلاء المزارعين منذ مجيء الثورة، حصلنا على الجواب الآتي؛ ذلك الجواب الذي كان أوضح من أي برنامج حزبي، أو تسويغ نظري، عن مدى أهمية الثورة الساندينستية: « قبل ذلك لم نكن نمتلك شيئاً، وكان يجب علينا أن نعمل كثيراً، أما اليوم، فإننا نشتغل في مزارعنا، نبذل مجهوداً أكبر، ونشعر بقيمة ما نفعل».

على أكواخ هؤلاء المزارعين، تجد إلى جانب صورة الجنرال ساندينو، صورة مريم العذراء معلقتين جنباً إلى جنب. إن الدين كان، ولا يزال، يشكل عامل طمأنينة، ومبعثاً للأمل، خصوصاً للفقراء في نيكاراغوا وبولندا. وباندلاع الثورة في نيكاراغوا، بدأت بعض هذه الآمال في التحقق. إن هذه الثورة، لم تُضعف قوة الإيمان لديهم، بل أذكت لديهم رغبة الفعل في الواقع المعيش. هذا ما يُسوّغ عدم اصطدام السندينيستية بالكاثوليكية. الكثير من الكهنة يشغل مناصب

وزارية أو قيادية. هذا الفهم الجديد للمسيحية، انتشر بوتيرة متسارعة فـي كل أرجاء أمريـكا اللاتينية، وحتى في كوبا نفسـها، حيث يسـود الاعتقاد بأن الثورة قد بلغت أهدافها، وبأنهم يشكّلون نموذجاً يُحتذى به. بالنسبة لنيكاراغوا، بدأت التأثيرات السندينيستية في الظهور، لأن بنيان هذه الحركة يسـتند في تشـكيله إلى القاعـدة، وليس إلى القمة. وهذا ما يجعلها تنظر دوماً إلى التراتبية الهرمية للكنيسـة، بعين الشك والريبة.

لقـد كان رئيس الأسـاقفة فـي نيكاراغوا أول مـن رفض مبادئ الثـورة والمشـاركة فيهـا، بل ذهب أبعـد من ذلك، حيـن توعّدها من منبره، محاولاً إحياء أساليب إقصاء الآخر التي استُعملت في القرون الوسطى، إنه يسـتغل أي موضوع خلاف ليشعل صراعاً؛ أحد أطرافه الكنيسـة، غير آبه بالتهديدات الخارجيـة، والأزمات الاقتصادية التي يعانيهـا البلـد، ليصبـح الأمر برمته أكثـر تأزّماً. وممّا يزيـد الطين بلّة، وقوع السندنيسـتيين في شـرك اسـتفزاز الكنيسـة لهـم، واتخاذ ردود أفعال غير منضبطة، لا سيّما بعد تلقي رجال الدين المحافظين رسالة دعم وتأييد من البابا؛ زادت من تأجيج الوضع.

أيهـا البابـا القادم مـن بولندا، الكثيـر الرحلات، يا مَن ارتسـمت علـى وجهه علامات الألـم ممّا يعانيه الناس في هـذا العالم من الظلم والمعاناة. فويتيلا، هل تسمح لنا بأن نناديك باسمك الخاص مباشرة؟ أمـا زال في إمكانـك، كما كنت في بولندا، الوقوف إلى جانب الفقراء، والمعذبيـن، والمطارَديـن، والضـرب على يد كل من تسـوِّل له نفسـه اضطهاد هؤلاء المسـاكين، بما فيهم أتباعك من الرهبان والقساوسة؟ ألا تريد أن تدرك بأن السندينسـتية، والحركة النقابية لزوليدانوش، لهم جذور مشتركة، وإن كانوا هم أنفسهم، سواء في نيكاراغوا، أو بولندا لا

يعون شيئاً من هذا التشابه، لأن فكرهم يظل مُركّزاً، فقط، على مصدر الخطر الذي يتهدّد كلاً منهما.

تصوّر معي أنه يجلس إلى طاولتك زعيم النقابة البولندية، وواحد من السندينستيين. العمّالي ليش فاليسا، والشاعر الراهب أرنستو كاردينال، وكل منهما يقدم لك تقريراً عن حاجتهم الملحة، وآمال وآلام شعوبهما، عن انتصاراتهم وإخفاقاتهم، عن أخطائهم وكبواتهم،عن تبعيّتهم وشعورهم بالوحدة، عن بحثهم اليومي عن رمق العيش، عن كيس الذرة. أليس بإمكانك أن تزرع بذور المحبة والأخوّة بين فاليسا وكاردينال ببركة نور الروح القدس، وتجعلهما يشعران بشمول رعايتك وحمايتك لهما؟

إن القوى العظمى يقف بعضها في وجه بعض، وملؤها الشر، شاهرة السلاح، مستعدة لارتكاب الحماقة. وحيث يقع ظلّها، يكون الاضطهاد والظلم. أنظر أيها البابا، ليست فقط بولندا، بل حتى نيكاراغوا لم تُستثنَ من ظلّ هذا العملاق. إذا تخلّفت عن تحذير وإدانة الولايات المتحدة الأمريكية كما عوّدتنا أن تفعل ضد الاتحاد السوفياتي، فإن المسؤولية ذاتها تقع عليك، خصوصاً إذا لم يحظَ هذا البلد الفقير المنهك بالحروب، والمدمَّر بسبب الثورة، والمتّبع لتعاليم المسيح، بدعم منك.

إن هناك أخطاراً تتهدّد الثورة من الخارج، ومن الأزمات الاقتصادية الداخلية، وحتى من السندينستيين أنفسهم، بسبب أخطائهم المتكررة، وتصيّد هذه الأخطاء واستغلالها، ل اسيّما من أعداء الثورة الذين يسعدون لكل كبوة أو لتراجع في منجزاتها. لحسن الحظ، أن هناك في نيكاراغوا مسؤولين سياسيين يعترفون بأخطائهم، الأمر الذي يندر وجود مثيل له في العالم. فعلى سبيل

المثـال، تهجيـر شـعب الهنود الحمـر ميسـكيتو من مناطـق الصراع علـى حدود هنـدوراس، إلى وسـط البـلاد. دانييـل أورتيغا، منسّـق الحكومـة، قـال: لقـد ارتكبنا جملـة أخطاء، لـم نكن نعلم شـيئاً عن ثقافتهـم الدينيـة، وخصوصياتهم العرقيـة، ناهيك عـن تأريخهم وما خلّفه الاسـتعمار الأمريكـي البريطاني من مشـاكل التمييز العنصري لديهم. إن البروتسـتانتية كانت، بالنسـبة للنيكاراغويين، ديانة الغزاة، وهذه النقطة تم اسـتغلالها من قبل أتباع زوموزا، لا سـيّما في ميامي والهونـدوراس. لقـد حاولوا اسـتقطاب شـعب الميسـكيتو، وتقديم الوعود له لإنشـاء دولة مستقلة خاصة بشـعب الميسكيتو، في الوقت الـذي كانـوا يهاجمون فيه القـرى على حـدود الهنـدوراس؛ يقتلون المعلمين والأطباء والناشطين ضد الأميّة.

إن غالبية الهنود الحمر الميسـكيتو من أتباع الكنيسـة المورافية في القرن الماضي، قد تمّ تنصيرهـم من قبل جماعة الإخوان محافظوا الرب. لقـد أقلّتنا طائرة مروحية من ماناغوا عبـر مناطق جبلية وعرة، وتلال ومناطق شاسـعة قليلة السـكان، إلى أن اضطررنـا إلى الهبوط علـى مقربة من إحدى مسـتوطنات الميسـكيتو، بسـبب تعـذر الرؤيا نتيجـة السـحب المنخفضة في موسـم المطر. هذه المسـتوطنات لـم تكن مشيّدة إلا من بيوت خشبيّة، إلى جانب أخرى من قش، خُصّصت للحالات الطارئة. أما غرفة الإسعافات الأولية، فهي بجوار المدرسة التي شيّدت من الصفيح. لقد تم إطلاعنا على ما حقّقته الحكومة من إنجـازات، ومـا بذلته من جهود مضنية في وقت قصير وقياسـي، وإن كانت تبدو، في معظمها، غير كافية. لأنه مهما تكن مسـوّغات ترحيل الإنسـان عن موطنه الأصلي، فإن شـعوره بأنه اقتلع من جذوره يظل قائماً.

الأرض هنا خصبة وجيدة كما يزعمون، خمسة وثمانون في المائة من الذكور، والذين هُجِّروا من مواطنهم الأصلية، وكانوا يشتغلون في السابق في المناجم، يعانون أمراضاً في التنفس، وهم اليوم يحصلون على رعاية طبية، ويستفيدون من معاش دائم. في هذا المكان، وفي كل أرجاء البلاد، تم، ولأول مرة، القضاء على مرض الملاريا. كل فرد كان يخضع وبصفة متكرّرة لنظام تلقيح صارم.

إن سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية لدى الأمم المتحدة، ادّعت بأن ترحيل الميسكيتو من موطنهم الأصلي يُعدّ إبادة جماعية. هذا الادّعاء الكاذب يصدر عن البلد الذي اعتمد في تأسيسه ومنذ الأمس القريب، على اغتصاب الأرض، والإبادة الجماعية.

ما قد يُلام عليه السندينيستيون، هو الحماسة الزائدة، وقلّة المعرفة. غير أنه كان بالأحرى ومن وجهة نظر المسيحية، أن تقوم الكنيسة البروتستانتية، ليس فقط في ألمانيا وفي مقر جماعة الإخوان محافظي الرب مرافي ببون، بالمشاركة في تخفيف تبعات التهجير القسري من جهة، ومن جهة أخرى مساعدة السندينيستيين على حلّ المشاكل المتبقية.

لقد زرنا القائدة الشابة دورا ماريا تيليس التي شاركت في احتلال قصر زوموزا أيام الثورة. عن هذا الموضوع تحدثت قليلاً وباستحياء: «البطولة شيء ضروري، لا سيّما إذا كانت معاناة الشعب لا تترك بديلاً آخر». تسهر القائدة دورا ماريا تيليس، بوصفها نائبة رئيس مجلس مستشاري الدولة، على تفعيل وسائل الرقابة ضد الحكومة. لأنه ليس هناك قانون حزبي أو دستور، أو قانون انتخابي للدولة، خصوصاً إذا ما علمنا أن في سنة 1985 حُدِّد أول تاريخ انتخابي من قبل توماش بورغو، وسيرجيو راميريس، ودورا ماريا

تيليس. بالطبع سنفوز، يقولون جميعاً بصوت عال ملؤه الثقة.

هناك نقص في التجربة الديموقراطية، والقوانين الدستورية، والرؤيا الشاملة حول تعدد وسائل الرقابة الديموقراطية. أليس من واجب ألمانيا، وهولندا، والدول الإسكندينافية، واستنادًا إلى تجربتهم الطويلة مع الديموقراطية، تقديم المعونة والنصح، لا سيّما إذا تعلق الأمر ببلد فتي حديث العهد بالديموقراطية، بغية وضع دستور يتناسب وحاجات هذا البلد. إن الأمر لن يكلّف كثيراً، لكن التأخير في مد يد المساعدة، أو لعب دور المعلّم الذي يجب أن يُطاع ويُتّبع، قد يفرز نتائج عكسية.

لما ولّينا عائدين إلى ألمانيا، بدت لنا المفارقة بين ما شاهدناه، ما هو عليه واقع الحال هنا. إن المرء يلاحظ وفي أول وهلة، مدى الغنى والترف البادي على المجتمع الذي، وإن ادعى أنّه مجتمع تضامني، فإن ما ينقصه بالفعل هو التضامن نفسه.

قبل أشهر لا يزال النقاش يدور حول ما يُسمّى بالاقتطاعات الخاصة التي يتم، بمقتضاها، اقتطاع من واحد إلى اثنين بالمائة من مجموع أجرة ذوي الدخل المرتفع. بهذه المبالغ المحصّلة، يتم خلق مناصب شغل جديدة، وفرص تأهيل إضافية. إن عدد العاطلين عن العمل، بما فيهم الحاصلون على شواهد تأهيل متخصصة، قد قارب المليونين. إن ذوي الدخل المرتفع والهيئات التي تمثّلهم، يرفضون هذا القانون. ولهذا يتحمّل العمّال والموظفون العبء الرئيسي في الأزمة الاقتصادية الحالية. إن هذه الأنانية الممارسة من قبل ذوي الدخل المرتفع، تقضي، وبصفة نهائية، على أي مبدأ للتكافل والتضامن الاجتماعي، ومن ثمَّ تضع الحجر الأساس لمجتمع طبقي جديد.

إن نيكاراغـوا فـي حاجة إلى المسـاعدة فـي الميـدان الزراعي خاصّة، حيث الفرصة سـانحة لرفـع الإنتاج. .إنتاج الذرة والفاصوليا سيساعد على مواجهة خطر المجاعة في العالم. هل آن الأوان لهؤلاء الماكثيـن فـي بون، أن يعوا، أخيـراً، أننا حين نسـاعد نيكاراغوا، فإننا نسـاعد أنفسـنا. أم سنسـتعيض عـن ذلـك بالتوجه نحـو كوبا عوض السندينيسـتيين، و التفكيـر فـي غيرهـم، نـزولاً عنـد رغبـة الحليف الأكبر.

فـي الفتـرة التـي عدنـا فيهـا إلـى ألمانيـا، اندلعـت فـي بولنـدا احتجاجـات ضـد خراطيم المياه والغازات المسـيلة للدموع. لقد تم مـن جديـد إحياء المفهـوم القديم للتضامـن الذي تم قبـره في القرن التاسـع عشـر إذا ما صح التعبير. لقد شـاهدته فـي نيكاراغوا وبولندا ينمـو في الحدائـق الخلفية والأماميـة للقوى العظمـى. إننا يجب أن نأخذ به مرة أخرى .

## لقد بدأت إبادة الإنسانية

**كلمة ألقيت في روما بمناسبة الحصول على جائزة أنطونيو فيلترينيلي للقصة، في شهر تشرين الثاني 1982**

سيدي الرئيس المحترم، سيداتي وسادتي المحترمين،

سأحاول وباسم جميع الحاصلين على جائزة أنطونيو فيلترينيلي، التعبير عن شكري وامتناني لكم. الأمر يبدو، من الوهلة الأولى، بسيطاً. إن هذا التقدير لا يُعد اعترافاً بالأعمال التي أنجزت بقدر ما هو تكليف للاستمرار في البذل والعطاء في المستقبل. في مثل هذه المناسبات، يشيع جو من التفاؤل؛ يعطي انطباعاً بأن واقع الحال باق، ولا ريب سيظل من دون تغيير. إن فهمنا للتقدم لا يخرج عن إطار هذا التفاؤل، لأنه وبأي شكل فنحن ماضون قدما إلى الأمام.

إن شكري يلفّه نوع من الشك في قدرتي على أن أكون في مستوى تطلعاتكم، إن حاضرنا يجعل من مستقبلنا إشكالية مطروحة بل مستعصية. إنه ينتج باستمرار، لأننا تعلّمنا كيف ننتج. إنها النتيجة نفسها التي نحصل عليها كل يوم، الفقر، الجوع، الجياع، هواء ملوّث، مياه معدومة، هنا أمطار مالحة، استنزاف لثروات الغابات، وتخزين للعتاد في مستودعات السلاح؛ يكفي لتدمير الإنسانية مرات عدة.

روما، هذه المدينة التي أحاول فيها أن أعبّر عن شكري، هي – إضافة الى مكانتها الحالية والتاريخية – لها شراكة مع تقارير «نادي روما». هذه التقارير تُعدّ بمثابة توقّعات علمية مثبّتة. إن الخطر الذي يتهدّدنا لن يكون مصدره وعد ووعيد الآلهة، أو الإله الواحد بحساب في حياة بعد الموت. إنه ليس يوحنا في جزيرة باتموس، حين يكتب عن نهاية العالم، وقيام الساعة، أو كتاب مبهم مليء بالألغاز والأسرار، بل إنه موضوعي ومحايد؛ يوافق منهج البحث العلمي المعاصر كما هو واضح وجلي. سلسلة أرقام تحدّد عدد ضحايا الموت جوعاً؛ إحصاءات حول البؤس؛ كوارث بيئية في بيانات موجزة؛ توصيف لما يرتكبه البشر من أفعال جنونية؛ تحويل نهاية العالم إلى تقرير اقتصادي؛ اقتصار النقاش على ما هو ثانوي؛ وليس حول نتائج البحث الرئيسة. إن فناء الإنسان على يد الإنسان قد بدأ وبطرق مختلفة.

حين أفترض أن العلماء اليوم، صاروا يتخذون من المستقبل موضوعاً ومادة للبحث، من أجل تحقيق التقدم المنشود، هذا المستقبل، وإن لم يكن مفقوداً ضائعاً، فإنه يطرح جملة تساؤلات. إني أتمنى، في هذا المقام، أن أوافق على نقل وجهة نظر كل الحاصلين على هذه الجائزة، وإن كنت سأقتصر على عرض بعض الأفكار الواردة في أعمالي، إلا أن هذه الأخيرة ستضعني موضع تساؤل.

عكس بقية الفنون، كان الأدب دائماً ينطلق من فكرة استشراف واستقراء المستقبل. لا الأنظمة المطلقة، ولا العقائد الإيديولوجية الدينية منها وغير الدينية، ولا حتى أعتى الديكتاتوريات تمكّنت من حجب حرية الكلمة وإخضاعها للرقابة. إن تاريخ الأدب يعكس وبجلاء، أهم لحظات هذه الانتصارات؛ انتصار الكتّاب على الرقابة،

وانتصار الشاعر على الحاكم، وبمعنى آخر، فإنه، بالرغم مما قد يلاقيه الأدب من صعوبات اليوم، فإن المستقبل لا محالة ناصفه. سيلون وموراافيا، بريشت ودوبلين، انتصروا على الفاشية كما انتصر إسحاق بابل، وأوسيب مندلستام على الستالينية، وإن كانت الستالينية قد نجحت في تصفيتهم جسدياً، إلا أن أعمالهم وصلت إلينا.

كان للأدب دائماً باع طويل. فهو يراهن في تأثيره على الوقت، حتى ولو كان صدى الكلمة والجملة والقصيدة والفكرة بعد عشرات السنين ستصدح وربما أيضاً بعد مئات السنين. إن هذا الاستشراف للمستقبل، يجعل أفقر الشعراء اليوم أغنياء غداً؛ يظفر بالخلود بالرغم من الجحود. يتعرض دوماً للسجن والنفي والقتل، لكن في النهاية هو وحده الكتاب من ينتصر أخيراً. هذا ما جرت عليه العادة إلى اليوم، أو بالأحرى إلى الأمس القريب، لأنه، مع التهديد بضياع مستقبل الإنسانية، أصبح القول بخلود الأدب لا جدوى منه، خصوصاً أننا بتنا نتحدث عن القصيدة الاستهلاكية التي تقرأ مرة واحدة كالكتاب، وتنسى بعد ذلك لتلقى في سلة المهملات. قبل التساؤل عن ماهية المستقبل، يجدر بنا أولاً معرفة هل ما زلنا نؤمن بشيء اسمه المستقبل؟ إن شعور الغرور، والذي طالما أدى بالإنسان إلى الهلاك، يطفئ الروح قبل أن يبدّد الجسد، ويضيع كل أمل في المستقبل، وكل فكرة طوباوية، وحتى تلك الواردة في كتاب «مبدأ الأمل» للكاتب أرنست بلوخ تصبح درباً من الجنون.

بإلقائنا نظرة على كيفية توزيع السلطة داخل السياسة والإقتصاد، يظهر لنا كيف أن أساليب النهب في تطور مستمر، بالرغم من المعرفة المتوفرة لدى الإنسان، وذلك حين يتم، وبلا خجل، تسويغ أساليب تدمير عناصر الحياة الإنسانية. إن القوة التدميرية للقوتين العظميين

وحلفائهمـا، ارتكبـت مـن الحماقـات ما يصعـب إحصـاؤه أو عدّه. وبالرغـم مـن كل التحذيـرات، ظلت السياسـة عاجزة عـن اتخاذ أي موقـف إيجابي، وحتى أصحاب الحل والعقـد لم يكونوا قادرين، أو بالأحرى مسـتعدين لإيقاف هذا التدهور الكارثـي المؤدي لا محالة إلى الهاويـة. اقتصروا على التنقل بين المؤتمرات، متخذين من ذلك مخرجـاً للتنصّل من المسـؤولية. وما تبقى من هـذه المؤتمرات، هو صور تلك الاحتجاجات التي تنم عن العجز والخوف، والتي يصعب وصفهـا. إن الرتابـة والجمـود تلفّ فعل هؤلاء الساسـة، وتجعل أي تعليق على ما يحدث غير ذي جدوى.

سـيداتي سـادتي، ربما تكون هذه الطريقة في التعبير عن الشكر صادمـة لكـم، وتناقض مـا يمكن أن يحصـل من احتفال في مناسـبة كهـذه. قد لا يشـاطرني الآخرون مـن حاملي هذه الجائـزة الرأي في التوصيـف الذي قدمته، ويحسـونني مفرطـاً في التشـاؤم، مصيباً في جانـب، ومخطئاً في جوانب أخـرى. لأنه مهما يكن، فإن الحياة تظل مسـتمرة. ابتـكارات جديـدة تُعـرض؛ تطـورات تُنجز؛ مؤلّفـات تلو الأخرى تُكتب، وحتى أنا سأظل ملتزماً بالكتابة، لأنني لا أستطيع غير ذلك. وإن كنت عن غير يقين بأن أي كتاب أكتبه في المستقبل سيجد له قارئاً. كتاباتنا جميعاً يجب أن تصف كيف جالت في رؤوسنا أفكار عن الدمار والألم والنزيف.

إن كل كتـاب أكتبـه ظـل حبيـس الزمن الـذي أنجز فيه يعكسـه ويحللـه، ولا يسـتطيع تجـاوزه. إن مـا أكتبـه يعكـس نقـداً معاصـراً وشـاهداً علـى الصيـرورة. إن الماضي يجـب تجـاوزه بإخفاقاته إذا مـا أردنا النهـوض بالحاضر، حتى لا تتواتر من جديد عوامل الفشـل ذاتها. وفهم المستقبل لا يتأتى إلا بإحضار الماضي. لقد كنت حبيس

مـا يحدث في ألمانيا، أنتقل بين أزمنـة الحاضر والماضي، غير ملتزم بتسلسـل تاريخي معيـن. إنها لملحمـة تقتضي إعـادة تفكيك الواقع وبنائـه من جديـد؛ تلتقط الجزئية تلو الأخـرى، وكأنك أمام جبل من الحصـى لا ينتهـي. إن لحظات الأنس والسـعادة، التي نسـترقها بين الفينـة والأخـرى، تظل مشـوبة بالإحسـاس بالذنب تجـاه ما ارتكب مـن جرائم فـي الماضي؛ تطل علينـا برؤوس ضحاياهـا في كل زمن وحين.

بين كتاب وآخر، كان مفيداً لي أن أكرّس هذا الوقت للسياسـة. بعـض الأحيان كان يحدث شـيئاً. إن التجارب علّمتنـي أن أتخذ من كائن كالحلزون شـعاراً ومبدأ في الحياة، وأن أخلص إلى ما مفاده أن التطوّر يشـبه الحلزون. في الماضي كالكثيرين كنت أتمنى لو أن هذا الحلـزون قادر على القفز، لكني أدركـت اليوم، واليوم فقط، بأن هذا الحلزون أكثر سـرعة منا. لقد تجاوزنـا بدورة كاملة، في وقت ما زلنا فيـه نعتقد نحن مَنْ تجرّد من الطبيعة، وناصبها العداء، أننا نسـبق هذا الكائن الضعيف.

هل آن الأوان أن يتوقف الإنسـان عن تنصيب نفسه كمركز لهذا الكـون؟ هل هناك من العباقرة من يسـتطيع اليـوم أن يقول لا لصنيعة مـن صنائعه؛ تسـبّبت في ضرر للإنسـان؟ هل هم مسـتعدون لرفض تسـخير قدراتهـم لتدمير ما تبقى مـن الطبيعة، واعتبار أنفسـهم جزءاً منهـا ؟ وأخيراً، هل نريد ما نسـتطيع؟ أن يكون العطـاء متبادلاً، حتى يصبح الجوع حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة.

إن الجـواب عـن هذه التسـاؤلات يُعدّ ضرورة ملحّـة. حتى أنا نفسـي لا أملـك جوابـاً شـافياً عنها. مع عجـزي عن ذلـك، أدرك أن

المستقبل يصبح أفضل إذا ما وفقنا في العثور على الأجوبة المناسبة، والقيـام بالـدور المنوط بنـا كضيوف على وجه هذه البسـيطة، وذلك حيـن نتوقف عن تخويـف وإرهاب بعضنا البعض، بنزع كل أسـباب التوتر والقلق؛ بما فيها وسائل الدمار الشامل.

## التقدير، أو إلى أي مدى تستهين الدولة بمواطنيها؟

**في شهر آذار 1983**

ماذا يُراد من المواطنين: بين يدي استمارة متعلّقة بمكان الولادة والحالة العائلية ونوعية الدخل يجب ملؤها من أجل تسهيل إحصاء عدد السكان المحدد بتاريخ 27 نيسان 1983. وبالاطلاع على هذه الاستمارة بدا لي، من جهة، حجم اتساع الهوّة بين المواطن والدولة، ومن جهة أخرى مدى خصوصية المعلومات التي تروم هذه الأخيرة معرفتها عني كمواطن، وتحويلها، من ثمَّ، إلى أرقام وإحصائيات. تفاصيل دقيقة يراد الاطّلاع عليها بالرغم من عدم أهميتها كالمطبخ وأدواته مثلاً، إلا أنها، بالمحصلة، تكتسي أهمية قصوى، الأمر الذي يفتح شهية الدولة إلى طلب المزيد.

لقد باتت الحاجة ملحّة إلى طمأنة المواطنين بإصدار قانون الإحصاء يوم 25 آذار 1982 حول إخضاع المعلومات المدلى بها قيد السرية والكتمان. حتى هؤلاء الستمائة ألف من المعاونين الذين ألقيت على عاتقهم مهام إنجاز هذا التعداد السكاني عبر كل أرجاء البلاد، سينالهم جانب من هذه المعاناة، لا سيّما إذا ما علمنا أنهم يتفحّصون كل استمارة على حدة، للتحقّق من توفر كل الاستمارات على المعلومات المطلوبة. لكن من بمقدوره توفير الحماية للمعاون والمواطن على حد سواء من خطأ الوقوع في إفشاء الأسرار؟

ما يبعث على الحيرة والتساؤل ما كُتب على ظهر الإستمارة وبخط دقيق، ضمان سرية المعلومات، فعلى سبيل المثال، حين يدلي المواطن بالمعطيات المطلوبة، فإن السلطات المعنية تكفل له حق عدم اطلاع لجان الإحصاء على اسمه وانتمائه الديني، في حين يظل السن والعنوان دونما حاجة إلى السرية؛ الأمر الذي يمكّن هذه اللجان من الحصول على أي معلومات عن أي مواطن، ناهيك أنها تصبح في متناول أجهزة الدولة وغيرها. وبهذا تكون الطريق معبدة إذا ما أريد إساءة استعمال هذه المعلومات. إلى أي حد صارت الدولة تستخف بعقول مواطنيها؛ مبالغ طائلة أهدرت من غير جدوى، اللهم إلا إذا استثنينا بالقول إنّ هذه الإحصاءات تصبح أكثر فعالية إذا ما أردنا وضع مخططات للمستقبل. إني مستعد وعن طيب خاطر لتقديم كل المعلومات عن حياتي الخاصة للدولة، إذا ما التزمت هذه الأخيرة بضمان استمرارية سريتها.

إن الثقة بأجهزة الدولة يظل مفقوداً، ليس فقط بسبب قانون سرية المعلومات الفضفاض غير الواضح، وإنما بسبب ما أدلى به وزير الداخلية، وسكرتير الدولة لدى وزارة الداخلية، بأن الأمن يسبق في أهميته ضرورة المحافظة على سرية المعلومات، حتى لا يحوّل هذا القانون إلى قانون حماية المجرمين. فإذا كان كل من تسيمامان وشبخانغا يُتبعان القول بالفعل، فإن الخشية منهم تصبح مشروعة. إن كلاً منهما، بل هما مجتمعين، يشكّلان خطراً على الأمن، وعليه فإنهما ليسا محل ثقة.

إنني أرجو وفي الأيام القليلة القادمة، ولا سيّما بعد الانتخابات التشريعية للسادس من آذار، أن يساهم كل المواطنين في إيقاف الخطر الذي يتهدّدنا، والمسمى تسيمرمان وشبنغر. غير أن التساؤل

يظـل قائماً، هل في نهاية فترة حكـم كول، تعود المصداقية من جديد لمشروع التعداد السكاني لسنة 1983؟ إن جوابي سيكون بالنفي، لأن هذا القانون صدر وبإجماع غالبية نواب البرلمان فترة حكم الائتلاف المشكّل آنذاك من الاشـتراكيين والديموقراطيين الأحرار. بمقتضى هذا القانـون، وبالرغم من الهفوات التي يحملها في طياته، يتم تعداد السكان وفق نوعية وظائفهم وأماكن سكناهم.

إذا كان هانـس يوخـن فوغـل هـو المستشـار القـادم لألمانيـا الاتحاديـة، فـإن أول مـا يجب أن يقوم بـه هو مراجعة قانـون التعداد السـكاني. لأنه مع غياب أي ضمانات ملموسـة من قبل الدولة، يجد الكثير من المواطنين مُسـوّغًا للتهرب، وذلك إما بالامتناع عن تقديم المعلومـات اللازمـة، أو بتقديم معلومـات مبهمة يصعـب تحليلها. تبعات ذلك كله تقع على عاتق كل من الدولة والمواطن.

إن نـواب البرلمان الاتحادي لجميـع الأحزاب الذين يتحمّلون مسـؤولية هذا العبث، مدعوّون للاسـتجابة لمطالـب المحتجين من المواطنيـن، القاضيـة بإلغاء هذا القانون وسـحب مليـون قرار غرامة بسـبب التماطل فـي ملء هذه الاسـتمارات؛ خلاف حاد يشـمل كل أسرة من بين كل خمس أسر، الأب يريد ملء الاستمارة، فيما ترفض ابنته التي تبلغ التاسـعة عشـرة من العمر ذلـك. احتجاجات ودعوات مرفوعة لدى المحكمة الدسـتورية. ما يستفاد من هذا كله هو تسجيل حق الاعتراض، والمعارضة تكفلها الديموقراطية.

ورد فـي مطلع السِّـفر الثاني من إنجيل لوقا مـا يلي: «وفي تلك الأيام أمر القيصر أوغسـطوس بإحصاء سكان الامبراطورية. وجرى الإحصـاء الأول عندمـا كان كيرينيوس حاكماً في سـوريا.... وصعد

يوسف من الجليل... ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة، وكانت حُبلى».

لوقا لم يخبرنا هل يوسف قام بإدراج أسرته في هذه التقديرات قبل أو بعد ولادة ابنه؟ ولأن إنجيل متى يتحدث عن لجوء الأسرة إلى مصر، وقتل الأطفال في بيت لحم، يمكن الذهاب إلى الاعتقاد بأنّ هذه التقديرات أجريت بعد ولادة المسيح، ما يجعل الإحتمال قائماً بأنه ليس من المستبعد أن هذه التقديرات قد أجريت بغية قتل كل مولود جديد.

كم يكون الهروب أحياناً ذا جدوى، وأنه لمن المفيد فعلاً، تصفّح إنجيل لوتر بين الفينة والأخرى، ليس فقط في يوم إحياء ذكراه، وفي يوم إحصاء التعداد السكاني.

# أقصى ما بوسعنا

**مداخلة بملتقى كتاب برلين (الغربية)**
**في شهر نيسان سنة 1983**

لطالمـا تحدث الكتّاب واختلفوا بشـأن السـلام المهدّد، دوماً، بالخطـر. فمنـذ إقامة أول ملتقى، قبل أكثر من سـنة ببرليـن، لم يتغير شيء البتة. لا يزال العنف يُمارس، كما كان في السابق، من قبل القوى العظمى، ضد شـعوب بولندا وأفغانسـتان، وأمريكا الوسـطى. كانت الأسلحة المستعملة في الحروب، ولا تزال، ترد من كلا المعسكرين؛ سـواء إلى الخليج الفارسـي أو لبنان؛ عشـرات الآلاف من القتلى لم يكـن لهم من وزن إلا بقدر ما اسـتفاد منه خبـراء آلة الحرب عن قيمة هذه الأسلحة التدميرية. وبالرغم من سيادة سياسات اقتصادية فاشلة في كلا المعسكرين الرأسمالي والشيوعي، وما نتج عن هذه السياسة من بطالة وندرة المواد الأساسية كالتغذية وما شابه ذلك، فإنَّ الجهود تظل مركّزة لدى الطرفين على سـباق محموم نحو التسـلّح، معتقدين بأنهم، بهذا، سـيصبحون قادرين على تعويـض الإخفاقات الحاصلة فـي المجال الاقتصادي، وذلـك بتطوير نظام الصواريـخ، وكأن هذه الأزمة الاقتصادية في العالـم سـتنتهي بالاستمرار في إنتاج الأسلحة. وإذا اقتضـى الأمر، يتم اسـتعمال هـذه الصواريـخ المحمّلة برؤوس نووية. حتى هذا الاختيار المجنون له منطقه الخاص.

منذ الملتقى الأول المنعقد ببرلين، لاحت في الأفق بوادر أمل إيجابية، بأنّ الاتحاد السوفياتي على وشك القيام بتقديم اقتراحات عملية لمراقبة نزع التسلح. وعلى العكس من ذلك، رفضت الإدارة الأمريكية هذه الاقتراحات، من دون أن تبحث في نواياها أو مصداقيتها، بل أكثر من ذلك، كشفت إدارة الرئيس ريغن علانية عن نيتها في السعي إلى تحقيق التفوق العسكري للغرب، بغية إنهاك قدرات الاتحاد السوفياتي التنافسية في التصنيع العسكري كهدف استراتيجي مرسوم. هذا ما يدفع إلى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة، في أي وقت، للقيام بأول ضربة نووية. أضف إلى ذلك قناعتها بأن أي حرب نووية، سواء اقتصرت على أوروبا، أو عمت العالم، ستكون نتائجها في صالحها

لهذا السبب أجدني مضطراً للاعتراف، بأنني أنتمي إلى هذا الغرب، وهذا الانتماء يعنيني بالدرجة الأولى، خصوصًا إذا كانت سياسة هذه القوى الغربية العظمى قد باتت خطيرة. إني أعاني بسبب هذا التحالف. وما يدعو للمرارة، أن السياسة الحالية للإدارة الأمريكية لم تعد قادرة على نشر مبادئ الديمقراطية والترويج لها، واستعاضت عن ذلك بمبدأ القوة والعنف. لأنني أنتمي إلى هذا الغرب، أشعر بالخجل حين لم يكتفِ الرئيس ريغن، قبل أسابيع، بإعلان الإتحاد السوفياتي عدوًّا، بل مصدرٌ للشر، وهذا ما يعني وجوب وحتمية القضاء على هذا الشر. إنها عبارات بمثابة إعلان الحرب. إن نبرة الخطاب هذه لا يمكن الاعتذار عنها، حتى لو كان الإتحاد السوفياتي يستعمل لغة التهديد نفسها، فهذا لا يوفر لنا المسوّغ الكافي لفعل ذلك.

إن الغرب لن يعفى من المسؤولية التاريخية، إذا ما استمر في دعم هذه القوى التي تلوّح بحرب إبادة بشرية شاملة. إن مسؤولية

وضع سياسة الولايات المتحدة الأمريكية موضع تساؤل، لا تقع فقط على عاتق الحكومات الغربية، لاسيّما إذا كانت هذه الحكومات، وعلى رأس قائمتها حكومة ألمانيا الغربية، لا تملك القدرة ولا الإرادة، على تحقيق استقلالية في القرار السياسي لدول أوروبا الغربية، بل أكثر من ذلك، يطرح التساؤل عن مدى قدرة أي فرد يؤمن بحق الحياة لنفسه كما لغيره، على التصدي لهذه السياسات.

لأنني أنتمي إلى هذا الغرب، وأُشيد بمفهوم الحرية للديمقراطية الغربية، أجد نفسي مُلزمًا بالتصدي لما يحصل، انطلاقاً مما عشناه في ألمانيا، خاصّة، من أحداث مشابهة، كالتهاون في مقاومة السياسة المعلنة للتطهير العرقي في سنة 1933، وما آلت إليه الأمور لاحقاً. تلك الأحداث جعلتني لا أجد بُدّاً من اتخاذ موقف رافض ومعارض. إني لا أعتقد بأن الإيمان بالقدر وحده، وبأن الإنسان خطّاء، يكفيان لحل هذه المشاكل. إذا ما نجحنا، وعبر فعاليات الملتقى الثاني لبرلين، في تجاوز الشعور الحالي بالعجز، فإننا سنصبح قادرين، بوصفنا كُتّابًا، على الانخراط الفعلي في الحركات الداعية للسلام، سواء في الشرق أو الغرب، ومن ثمَّ، لإضفاء المشروعية على كل حق للمقاومة.

إن هذه المقاومة يجب أن تكتسي طابعًا سلميًّا، لأن هدفها الأساس، هو مواجهة العنف و قواه التدميرية. إن هذه المقاومة تعني العصيان، وتهمّ، بالدرجة الأولى، الغرب. يجب القيام بالمبادرة الأولى في التعبير عن الرغبة في السلام، وليس انتظار الآخر للقيام بذلك. لهذا تجدني أتحدث دوما عن ضرورة قيام ألمانيا الغربية بأول خطوة في اتجاه نزع السلاح النووي، ومنع نصب بطاريات الصواريخ متوسطة المدى.

الكثيرون في الغرب يشاطرونني هذا الرأي، وهذا ما يجعلني أرغب في موقف مماثل من لدن الكتّاب في ألمانيا الشرقية، لأن مسؤولية ألمانيا في السلام، تفرض وجوب وجود معارضة ألمانية؛ لا تختلف بين هنا وهناك. إنهم الألمان جميعاً، سواء ألمان الأمس أو اليوم، من يتحمّل مسؤولية ما نتج عن المحرقة إلى اليوم وفي المستقبل.

قبيل انتهاء ملتقى برلين الأول، قبل أكثر من سنة، قال ستيفان هيرملين: «لقد حقّق هذا اللقاء أحد مراميه». إني أتساءل، هل ما زال يتشبّث، إلى اليوم، بالرأي ذاته؟ لأنه أصبح لي واضحاً، أننا، ومن خلال هذه الحوارات، بلغنا أقصى ما نستطيع بلوغه، وأننا مطالبون باستخلاص العِبر من هذا كله. في هذا الإطار تم تقديم مقترحات عدة؛ أريد أن أعرّج عليها قبل أن أختم مداخلتي.

إنني أحسب، بالرغم من هذا الرأي المشكك، بأننا بلغنا أقصى ما نستطيع، وأنَّ اجتماعنا هذا، بما عرفه من سجالات بيننا، يُعَدّ، في حد ذاته، انتصارًا لنا جميعا. يجب ألا ننسى أنه، ومنذ وقت قريب، كان من غير الممكن أن يحصل أمر كهذا. لقد كان من المستحيل، في السابق، أن نلتف حول مَجْمَع كهذا؛ نتناقش و نتبادل وجهات النظر، ونختلف أيضاً. إنني أتمنى أن نسهم في تطوير الحركات الداعمة للسلام، وذلك بتطوير الأشكال التي يجب أن يستمر عليها هذا الحوار في المستقبل. لقد كانت هناك أفكار واقتراحات، في هذا الاتجاه، بتفضيل أو إرجاء موضوع عن الآخر، أو حتى بإلغائه، بغية عدم الإضرار بالموضوع الرئيس، موضوع النقاش. إني أعدّ هذه الأفكار والاقتراحات بالممكنة، وفي الوقت نفسه بالخطيرة. إننا لا نعيش في فضاء فارغ، وإذا كنا نحسب أنفسنا ضمن حركة مستقلة

للسلام، وجب علينا، وعلى النقيض من الحكومات التي لا تهتم إلا بمصالحها الخاصة، إظهار تناقضاتنا بصراحة للعلن. لهذا لا يجوز الفصل بين مقتضيات حقوق الإنسان، والحركات الداعية للسلام، حتى ولو كان هذا مطلب البعض.

لقد شكّل حافزاً، بالنسبة لي، ومبعثاً للأمل، سماعُ هانس فيرنر ريشتر الذي شارك في الاحتجاجات، وتحمّل عبء تنظيم الحركات الداعية للسلام، كمجموعة «غرين فادر كرايز»، ولحركة النضال ضد الموت النووي. مِثله في هذا، وإنْ حدث في سن متقدمة، كمثل روبرت يونغ، وستيفان هايم، لا يعرف التوقف والاستسلام، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن جدوى ومُسوّغ استسلامنا في أول الطريق. هانس فيرنر ريشتر كان له عليَّ الأثر الإيجابي، وربما على الكثيرين، هنا، في توفير الحافز لديَّ. إنه وحده من كان، وربما لتقدّمه في السن، ذكرنا، وكما علمته من أبنائي، بأنه في الأجيال الحالية هناك حركات تتجاوز حدود البلد الواحد، منتشرة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية؛ حركات لا تُريحنا، وسرعان ما نتهمها باللاعقلانية. يجب أن نعترف في هذا الإطار، نحن جيل الإنجازات، نحن من أسهم في تقسيم ألمانيا، وتقسيم أوروبا، إلى أي مآل انتهينا إليه بمفهومنا للعقلانية؟

كارل ميكل أخذ باقتراح هانس فيرنر ريشتر. لقد أوجد هذا الرجل تعبيراً أود الاحتفاظ به، لقد أشار إلى شكل جديد من أشكال الاستغلال غير المحدود، والذي لا يقل في خطره عن خطر السلاح النووي، حين أسماه بـ«استغلال المستقبل». لقد أصبحت، في الواقع، إيديولوجياتنا المتجاوزة، التي لا يزال البعض منا، متمسكاً بها إيماناً بصيرورتها، أو لأنه يجد فيها ملاذاً، مدعاة للسخرية

والتساؤل. لا سيّما إذا ما عاينا كيف أن المستقبل يتعرّض، وبغض النظر عن هذه الإيديولوجيات مجتمعة، سواء هنا أو هناك في مجال كالبيئة، يتعرّض لاستنزاف متواصل. وكيف أن هذين العاملين التدميريين، سواء التهديد النووي، أو تدمير البيئة، يكملان بعضهما البعض، ويضاعفان، من ثَمَّ، من حجم الخطر المحدق بالإنسانية. لقد أجهدنا أنفسنا يومين كاملين، يجب أن نجهد أنفسنا، أعلنها لزملائنا من الاتحاد السوفياتي غير المعتادين على هذا الأمر خاصّة، لأن هذا قد يخدم صورة الاتحاد السوفياتي في الخارج، ويُظهر نواياهم السلمية بشكل واضح التي أعتقد جازماً بصدقيتها، خصوصاً إذا ما أجهدوا أنفسهم في النقاش الجاري مع الآخرين، معترفين بأخطائهم، محاولين إصلاحها.

لقد طُرِحت اقتراحات، من بينها مشروع مقترح من قبل جيورجي كونراد، بانعقاد الملتقى القادم بهنغاريا. لست أدري إلى أي مدى يمكن، هناك، عَرْض موضوعات ألمانيا الداخلية. إنني مُرتاب من جدوى ذلك. صحيح أن اللقاء باتحاد كتاب هنغاريا يُعدّ أمرًا مُهمًّا ومثمراً، لا سيّما فكرة اتساع دائرة النقاش، لتشمل سائر أرجاء أوروبا، سواء في الشرق أو الغرب. غير أن هناك أموراً أخرى تشغلنا هنا في ألمانيا الغربية. سأكون شاكراً وممتناً، إذا ما كان بمقدور الفريد ميشترسهايمر مساعدتنا هو وروبرت يونغ وآخرون، على الخروج من هذا الإطار الضيق إلى إطار أوسع؛ يمكن فيه استشعار مدى الخطر الذي يحدق بنا. سيكون هذا أمراً مفيداً ومثرياً للقاءاتنا. لقد أسعدني سماع ما ردده ميشترسهايمر، بأن حوارنا حول الحركات الداعية للسلام، يُعد حافزاً مُهمّاً إذا ما وُفِّقْنا، لأن كلا الطرفين سيصبح مستفيداً، هذا إذا ما انطبق تعريف الطرفين علينا،

سـواء أكنا، نحن معشـر الكتّـاب، أم الحركات الداعية للسـلام. لقد بلغنا جميعاً أقصى ما نسـتطيع، حتى هذه النتيجة السـلبية التي وصلنا إليهـا أعدّها، في حدّ ذاتها، أمراً إيجابياً، كما أعدّ غياب موقف موحّد بيننـا علامـة على القـوة وليس مؤشـراً إلى الضعف. إنـه من الصعب القـول بأنني أتوقع الكثير من الملتقى القادم، لأن أسـباب اللقاء، هي نفسها، لا تبعث على التفاؤل، لكن سأهيّئ نفسي ومن الآن، سواء في إيفل أو هيلبغون، أو في أي مكان آخر. إنني أشكركم جميعاً.

# الصبيان المشعوذون

آب\1984

مـن ابتدع كل هـذ الأنظمة، التي تُـروج أن المجتمع الإنســاني سينعم بسعادة أبدية، ويصبح تحقيق العدالة والسلم، فيه، أمراً واقعاً؟ من له القدرة على استشـراف المسـتقبل بتفاصيله المعقدة، ويجد في نفسـه مجالاً يتسع لكل ذلك؟ من بوسـعه التفكير في الشيء ونقيضه على حد سـواء؟ بل من المسـتفيد من تحويل الحقيقـة أو ما يناقضها إلى وهم؟

لا يوجـد أي تعبيـر محدد يصف الإنسـان، سـواء أكان فردًا أم جماعـة، وهو يعكس ويحلل، ويسـطّر برامج المسـتقبل. توصيفات متعددة تلك التي يُنعت بها المثقف والمثقفون، إلا أنها، جميعاً، تشترك فـي تحقيره. لقد جـرت العادة من قبل التيار اليميني داخل السياسـة، اسـتعمال المصطلح المثقف اليساري، إذا ما أريد التحقير أو القذف، في حين يدّعي اليساريون اسـتفرادهم بالثقافة، وينفون صفة المثقف عـن غيرهـم. إنهم يعـدون الثقافـة جزءاً، بل شـرط للتقدم. وبسـبب تعرّضهم الدائـم للهجوم من اليمين، يتكتل المثقفون اليسـاريون في مجموعات منغلقة. ويعقد صبيان السـحرة، الذين بغياب أسـيادهم، الاجتماعات الفخمة المُخجلة التي يُمجدون أنفسهم فيها بامتلاكهم

للحقيقة؛ يرِدّدون أطروحات؛ تخلى أصحابها عنها منذ زمن. إنهم يعيشون في غيبوبة في الأولمب.

أفلاطون على سبيل المثال، هذا الفيلسوف الذي طالما عَدَّ الأخلاق والفضيلة أسمى ما في الوجود، كانت طوباويته تعتمد الفضيلة كمبدأ أساس، لديه العديد من التلاميذ المثقفين ذوو المكانة السياسية المختلفة. هؤلاء التلاميذ لم يتوانوا باسم الفضيلة، وتحت مسميات أخرى كالثورة والنازية، أو دكتاتورية البلوريتاريا، عن تصفية وإقصاء كل من يخالفهم الرأي. كمعلمهم كان التلاميذ حريصين على البلوغ بالطوباوية إلى أعلى مراتبها. وبالرغم من الاختلافات الحاصلة حول مفهوم الفضيلة، ظل الهدف الأسمى لكل هؤلاء هو نشرها وتعميمها.

إنها في الغالب المصطلحات المجرّدة، كالفضيلة، والسعادة، والعقلانية، والعدالة، والسلام، مَنْ يؤسس للطوباوية. هذه المصطلحات سواء أكانت منعزلة أم في ارتباط بعضها بالبعض، تؤسس لمبدأ المثالية، لأن الإنسان في الواقع يفتقر إلى القدرة على التحلي بهذه الصفات ليكون فاضلاً، وسعيداً، وعقلانياً، وعادلاً ومُسالماً؛ فيصبح الهدف المنشود من الطوباوية غير ذي أهمية. إلا أنه يجب على الإنسان أن يضع نصب عينيه تحقيق بعضها، كأنْ يكون سعيداً مثلاً.

ليس من المستغرب أن تقع شعوب بأكملها، باسم السعادة المميّزة، تحت براثن الشقاء، وذلك حين يؤدي الاعتماد المفرط على منطق العقل إلى طريق مسدود. كم من الحروب أشعلت بدعوى تحقيق السلام. تستشري العبودية باسم نشر العدالة. إنه كلما أضيئت الطريق للشعوب نحو الفضيلة، حطّت البربرية بظلالها عليها.

لا تجب مساواة هؤلاء صبيان السحرة مع المثقفين ومقاصدهم الفكرية بما يؤديه الجلاد من وظيفة، أو ما يقوم به المستجوب في معتقلات التعذيب، أو ما يفعله محارب ساذج، أو إنسان بدائي، إنهم ليسوا هم من يمسك بعجلات الحكم، إلا أنهم يسهمون في توفير الغطاء لذوي السلطة، من أجل تمرير وتسويغ أفعالهم. لقد هُيِّئوا لتحمّل هذه المهام المعقدة التي تتطلب جانباً كبيراً من الدراية والمعرفة. يجب الإثبات علمياً، كيف أنه من الطريق الخطأ يتم بلوغ أوج العقلانية، وكيف أن الحروب تؤدي إلى السلام المنشود. لم يتكبّد هؤلاء المثقفون الجدد، وعبر التاريخ، أيّ عناء في توفير المسوّغ العلمي لذلك. كيف أن حقبة واحدة للعبودية، فقط، شكّلت الانطلاقة الفعلية لعدالة شاملة. إنهم كانوا يسمّون هذه الحقبة حقبة الانضباط الضروري. حتى البربرية وعدم التحضّر تشكل، في نظرهم، وسيلة لتطهير المجتمع، بغية بلوغ، وبعد مرحلة انتقالية، درجة من الفضيلة أكثر صفاءً وإشراقاً. لم تعوزهم الحجج والبراهين، بدءاً من أوغيستينو، وانتهاء بماركس. على أن من الخطأ أنْ يتعلم الإنسان: وبعد الفشل يأتي النجاح.

إنهم يقعون دوماً ضحية أفكارهم، في الوقت الذي يحتقرون به البرجوازي الصغير، لا يتحملون ظل البروليتاري، مع أنهم يدعون انتماءهم للبروليتاريا، يغذّون بذلك، من حيث لا يدرون، الحقد المتنامي على الطبقة المثقفة. هذا العامل البسيط الملقى على عاتقه القيام بدور الجلاد المستعبد، والمحارب البطل، لا تجب الاستهانة به، كي لا تتكرّر مأساة روبسبيير. إن قدر هؤلاء صبيان السحرة، قد يجعل منهم وقوداً يؤجّج لهيب نار الثورة. هذه الثورة تلتهم أبناءها وكل من يقع في طريقها بغية تحقيق أهدافها المثالية.

هنـاك من لا يزالون على قيد الحياة، بـل هناك الكثيرون مِن مَن ظـل وفيّـاً لنهجه واسـتمر عليـه. وما إن نجـوا من الوقـوع تحت حدّ المقصلة، وبطش دكتاتورية البلوريتاريا، وتنكيل الفاشية، حتى عادوا من جديد للتنظير لإيديولوجية معارضة، من غير أن يكون لهم موقف انتهـازي معـروف. لم يكونوا يرون في هـذه الإيديولوجية إلا تحقيقاً لمبادئهم المثالية، وتمريراً لأطروحاتهم الفكرية.

كم من شـخص غيّر ولاءه، وانتماءه بين عشـية وضحاها؟ فبعد أن كان داعمـاً للثـورة اليعقوبيـة، أصبـح في اليـوم التالي مـن أنصار نابليـون، وبعدها من أنصار ميترنيخ؟ كم من المثقفين النازيين – كان لهـم وجـود حقيقـة – يسـهمون اليوم بتجاربهـم المتراكمة في قسـم حمايـة الدسـتور الديمقراطية وكذلك في مؤسسـة القضـاء؟- كم هم بارعـون، السـتالينيون القدماء، فـي عرض الحجـج والبراهين، على حتميـة التصدّي لخطر مفهوم الحريـة لدى الديمقراطيات الغربية، لا سـيّما إذا تعلّق الأمر بما يُسمّى الاشـتراكية الديمقراطية، وهذا أمر لا يخفى عنّا جميعاً.

بمعنـى آخـر، إن قـدرة هـذه الفئة مـن صبيـان السـحرة تعد لا متناهيـة على فـرز إيديولوجيات جديدة. إنهم يحسـنون التصرف في أي وضـع، كي لا ينالهم العقاب. ويضعون، دائماً، الهدف المرسـوم نصب أعينهم، الهدف المتمثل في ذلك المجتمع الذي يعمّه السـلام والطمأنينـة، وتسـوده الفضيلـة والعـدل، وتصبح العقلانية فيه سـمة أفـراده الأولى. إن جُلَّ أطروحاتهم لا تخرج عن إطار هذا المجتمع، وإن تعـددتْ مسـمّياته، وتنوّعـت بين مجتمـع لا طبقـي، أو مجتمع بجـذور عرقيـة صافية موحّـدة، فهم يجمعـون بيـن المتناقضات في قالب تعسّفي ومصطنع، كي يظلوا على قيد الحياة.

حين تصبح الوعود، في مجتمع مثالي تتوفر فيه أسباب السعادة، مستهلكة وغير ذات جدوى، يصير مطلب تحقيق الفضيلة المطلقة مدعاة للسخرية، وثمن تحقيق العدالة والمساواة باهظاً، والحديث عن السلام أمراً مملاً، ليتم اختيار توصيفات أخرى، خالية من الحمولة الإيديولوجية، كالأمن مثلاً.

انطلاقاً من القناعة بأن الإنسان فاسد السلوك عدواني ولا عقلاني، به حاجة ماسة إلى حماية نفسه من نفسه، تضع هذه الفئة من صبيان السحرة خططاً وبرامج للمراقبة، بغية تحقيق أعلى درجة من الأمن. إنه مبدأ الشعور بالمسؤولية، مَنْ يجعلهم يجتهدون ويبدعون، سواء في جهاز أمن الدولة، أو في أنظمة الرصد العسكري. كل حالة على حدة تخضع من قبلهم للاستقراء، ومن ثَمَّ، وضع تصوّرات استراتيجية ممكنة الحصول في المستقبل، مستغلين، بذلك، أحدث المعارف العلمية لإحداث السبق والتفوّق على العدو. وحين بلوغ الهدف المنشود بتحقيق توازن في القوى، يتم تصنيف الوضع برمّته تحت مسمّى حالة خاصة مدروسة. يتم الانتقال بعدها إلى حالات جديدة أخرى. إنه لا يملك التوقف حتى ولو لم يكن راضياً، تمام الرضا، على نتائجه المحصّلة، بأنْ ينادي/ أيتها المكنسة السحرية، توقفي يكفي/ فإن أدوات الدمار التي ساهم في إحداثها لن تتوقف. هذا التوقف لا يجب أن يكون سطراً في قصيدة، وإنما فعلٌ في الواقع. لأن المسؤولية، هو وحده، يتحملها هذا الصبي.

هذا مايجعله يشعر بالوحدة والبرود، إنه يسبق، بأفكاره، أحدث ما توصل إليه خبراء الأمن. كونه مُثقفاً يُمكنه أن يكتشف العدو، ويقدّم صورة واضحة عنه، عن كيف يفكر ويخطط وينجز. إنه يستطيع توقّع ما سوف يحدث.

إلا أنــه من الوارد جداً أن يفقد هذا الصبي الســاحر هويته بغض النظر عن انتمائه، وذلك بأن يقع ضحية أفكاره، فيتم إبعاده والاستغناء عنــه. هذا الإبعاد يتم في الغالب على يــد مثقفين آخرين، ليصبح دور إقصـاء المثقف منوطـاً بالمثقف نفســه. لا ينتهي الأمر بمعظمهم إلى المكوث في مصحّات نفسـية، بل الكثير منهم يجد القدرة على كتابة مذكراته الشخصية. هذه المذكرات تُكتب، في الغالب، بلغة متعجرفة عديمـة المعنى؛ يصبح معها من الصعوبة بمكان، معرفة إلى أي مدًى بلغت قدرتهم على الاستشـراف، حين عملـوا في أجهزة المخابرات المختلفة.

لحسن الحظ أنه بموازاة هؤلاء، صبيان السحرة المثقفين، يوجد مثقفـون آخـرون لم يحصلـوا على الفرصـة ذاتها، أو ربمـا لأنهم لم يسعوا، قطّ، وراءها، فعاشوا على الهامش، غريبي الأطوار، يرفضون كل شـيء، يعرفون إلى أي طائفة هم ينتمـون، ويعلمون إلى أي نقطة سـتنتهي بهم هذه الطريق. ولأنهم ينتمون إلــى زمرة المثقفين، ينفون صفـة المثقـف عن غيرهــم. البعض منهــم كان ينتمي إلــى فئة صبيان السحرة، فاستبدل جلده، أو بالأحرى تم الاستغناء عنه.

جـورج أورويـل كان واحـداً مـن هـؤلاء، فقـد كان الحكيـم المتمـرّد، الضابـط الرافـض لتنفيـذ أوامـر المسـتعمر، الاشـتراكي التحريفـي. كُتُـبٌ، مـن قبيل مزرعـة الحيوانـات، و1984، لا يمكن أن تصــدر إلا عن إنســان مثقـف؛ آمن بوعـود ورديّة طالمـا حملتها الطوباويـة فـي ثناياهـا. لقـد كانـت لأورويل القـدرة على اسـتقراء مسـتقبل كل الإيديولوجيات التي كانت سـائدة فـي عصره، ووضعٍ الإصبـع علـى القواسـم المشـتركة بيـن السـتالينية والفاشـية مثلاً، وذلـك لاسـتقراء ظاهر منطوقهـا، والبرهنة على زيـف ادعائها. لقد

استطاع أن يستشفّ أهدافهم التوليتارية من خلال استعمالهم لترسانة المصطلحات من قبيل التغيير الطبقي، والإقصاء الطبقي، والتطهير، والترهيب، والتحريف الرسمي للتاريخ، وأدلجة اللغة. إن أطروحة أورويل لا تزال قائمة إلى اليوم، بالرغم من أن الزمن قد باعد بينها وبين ظروف نشأتها، وخير دليل على ذلك كتاباه؛ مزرعة الحيوانات، و1984 الصادران في منتصف وأواخر الأربعينات. هذان الكتابان عُدّا، آنذاك، دحضاً لأطروحات صبيان السحرة.

أورويل رأى، وبصفة جد مبكرة، وإبّان الحرب الأهلية الإسبانية، أن التوليتارية المعاصرة اتجاه فكري. إن قدرة المفكرين على التحليل الحر الممنهج والمثالي، مكّنت الأنظمة التوليتارية من استغلال التقدّم العلمي والتقني لتمرير أجنداتهم، ومن ثَمَّ، تأمين مستقبلهم.

إن روايته 1984 تعكس الواقع بجلاء، تثبته، تعارضه، أو ترسم جانباً منه. إن الطبقة المثقفة في سنوات الثمانينات، تنظر إلى ما بعد سنة الألفين، سواء أتعلّق الأمر بالأبحاث النووية الإليكترونية البيوكميائية، أم بالأبحاث المتعلقة بالجينات، أو بأنظمة الأمن ضد أي ضربة نووية محتملة. في حين يظلّون بعيدين، كل البعد، عن المشاكل التي تشغلنا على وجه هذه البسيطة، بمعنى آخر إنهم حبيسو أسوار أفكارهم المثالية التي يعيشون داخلها. ليست آفة الجوع والجفاف ما يشغلهم، إنما ما قد يحقّقه العدو من تقدّم وسبق، من دون العلم بذلك في الوقت المناسب. إنهم لا يعدّون الحق في الغذاء، وحلّ المشاكل الاجتماعية المتفاقمة بسبب ازدياد البؤس والفقر بين الإنسانية، كأحد التحديات المطروحة، وإنما التحدي الأكبر، يكمن في كيفية مراقبة هذه الطبقات البائسة. ليس استنزاف

أو مـوت الطبيعـة، ولا تلـوث الأنهار والبحـار، يحظـى باهتمامهم، وإنمـا الأولوية كانت دائما إلى توفير بنية تحتية شـاملة، سـواء أتعلّق الأمـر بالكهرباء أم غيرها، واحتكار المعرفة الجينية، والسـيطرة على العالم، وإطالة التفكير في مدى حدود كسب حرب نووية، بالرغم من المخاطر المصاحبة لذلك.

إن عـدداً غير قليل من العلماء والخبراء يشـتغلون اليوم، سـواء بطريقـة مباشـرة أو غيـر مباشـرة، مع الأجهـزة العسـكرية، ويضعون تجاربهم في خدمة سـباق التسـلح. لقد تحوّلـت البرامج العلمية من قبـل القوتيـن العظميين، عن وعـي أو عن غير وعي، وبسـبب غياب الـوازع الأخلاقي، إلـى أداة لتدمير الإنسـانية. إن العمل في مثل هذه البرامـج يبـدو مثيراً ومغرياً، غير أن القليل فقط مـن العلماء والتقنيين من يفـزع إلى النتائـج المحصلة. إنهم، مرة أخرى، صبيان السـحرة، الموفّقـون في كل شـيء، ما عدا شـيئاً واحداً؛ أن يتخلـوا، برهة، عن أنمـاط فكرهم المتبعة، ليعطوا لأنفسـهم مهلة يعيـدون فيها النظر في نجاحاتهم كما في إخفاقاتهم.

## حلم العقلانية

**خطاب بمناسبة افتتاح ندوة حول أزمة التنوير في أكاديمية الفنون في برلين في شهر حزيران 1984**

سيداتي وسادتي الأعزاء،

قبل أن يخالف كل من فولتير وروسو وديدرو، بعضهم، بعضاً، الرأي، ويؤسسوا لحقبة؛ لانزال إلى اليوم، نختلف بشأنها. يجب رسم صورة لمرحلة؛ ما زال أهم رموزها محط خلاف. هذه الصورة تحمل توقيعاً من الرسّام غويا، مفاده أن «حلم العقل ينتج الهول». هذه الصورة تُظهر كيف أن رجلاً ينام مستلقياً على ريشة كتابة، وخلفه كائنات ليلية، بوم وخفافيش، في حركة هوجاء دائمة، وحيوان كاسر رابض يتوسط، في حجمه، الفهد والقط. وبما أن مرادف كلمة الحلم بالإسبانية يعني النوم، فإن دلالة عنوان هذه الصورة المخيفة قد يعني «نوم العقل ينتج الهول». بهذا يطلق العنان للجدل والنقاش. هل شقاء التنوير أصبح أمراً واقعاً؟ هل هذا هو الموضوع؟

عادة ما يتم تصوير العقل على نحو نمطين معينين؛ فهو حين يحلم ينتج العنف في أحلامه، إذن هو مجرد مصدر للعنف، أو لأنه ينام، فإنَّ كائنات الليل المُفزعة تحصل على فضاء حر، ومجال

أرحب لفعل كل ما من شـأنه مناقضة منطق العقل، وما جاء به التنوير ويعم الظلام.

إن التفسـير الأول يظـل واضحـاً. إن العقـل، ميزة الإنسـان عن الحيـوان، يصبـح بمقـدوره فـي حالـة الحلم، رسـم صـورة ووضع سيناريوهات مفزعة عن أنظمة حكـمٍ إرهابية. إن الماضي والحاضر يثبـت هـذا التفسـير بما لا يـدع مجالاً للشـك، ذلك أن كل مشـاريع الإيديولوجيـات المؤثـرة إلـى اليوم، تظـل في مجملهـا أحلام عقل تنويـري. هـذه الإيديولوجيـات أثبتت عنفها سـواء هنا عـن طريق ما أنتجته الرأسمالية من بؤس، وهناك بسبب الشيوعية المفروضة.

إن التفسير الثاني يُثير جملة تساؤلات، والتي كلما تمت الإجابة عنها، تولّدت عن إجاباتها تسـاؤلات جديـدة. هل يحظر على العقل النوم؟ لأنه، مع نومه، يفسح المجال لكل ماهو عنيف وغير عقلاني. إن جوابنا بالطبع يكون بالنفي، كيف سيؤول بنا الوضع إذا نام العقل؟ لا يجـب أن ينـام العقـل مطلقاً مرة أخـرى، أو أن يتخلّـى عنّا. يجب أخـذ جانـب الحيطـة والحذر في الوقت المناسـب. يجب ألا يشـعر هـذا العقل بالخمـول والتعب. إنَّ بنا حاجة إلى عقـل متوهّج في كل الأوقـات، بوصفنـا منتمين إلـى حقبة موصومة بنـوم العقل، وبولادة غول اسمه الفاشية.

إن عكس السؤال يثير، بدوره، جملة مشاكل؛ ما هذا العقل الذي لا ينام، ولا يُسمح له بالحلم؟ هل هذا العقل، المستيقظ على الدوام، يبعـث، أيضاً، علـى القلق، ويدعو إلى العنف؟ هل سـيصبح بمقدور هـذا العقـل إماطـة اللثام وكشـف الحجاب عـن دواخلنـا ومكامننا، وحتى عن أسـرارنا وأحلامنا؟ أليسـت هذه الرقابة مـن العقل تجعل من مفهوم التطور مفهوما يظلّ حكراً على الجانب التقني، وما تسمح

بـه التقنيـات الحديثة؟ إن العقل الذي لا يُسـمح له بالنـوم، والذي لا يستطيع النـوم إذا ما أراد النوم فعلاً، يُعدّ عقـلاً لا يعرف النوم؛ خالياً من المشـاعر الإنسـانية. في هذه الحالة، تصبح الأحلام ضرورة. إن الولـوج إلـى العوالم الأخـرى بكائناتهـا الليلية، كالبـوم والخفافيش والفهود يعبّر بدوره عن العقل.

ليسـت الصورة الواضحة عن رواد التنوير وهم يتجادلون حول المفاهيـم والنظريات فقـط، وإنما لوحة غويا حلم ونـوم العقل ينتج العنف، هي ما يجب التذكير به في بداية هذه الندوة، لأن المحاضرات والنقاشـات والقـراءات، يجـب أن تقـدم جميعها تقاريـر «عن بؤس التنوير» مدة سـنة أو أكثر. لمـاذا التنوير، ولماذا بـؤس التنوير؟ لماذا هذا الجدل الأوروبي القديم الجديد، ولماذا لا تشـمله الحداثة حتى يتماشـى ومتطلبـات العصر؟ لأن التنوير مشـروع يعود إلـى أكثر من ثلاثمائة سـنة، فهو لا يعرف التوقف. ليصبح طرح السـؤال مشـروعاً عن ماهية التنوير ذاته. إن بؤس التنوير لا يمكن تجاوزه إلا بالوسـائل التي يوفّرها التنوير نفسه. إن اللغة وملكة التبليغ، والرغبة في المعرفة ومعرفـة الأفضـل، والنظـرة التربويـة المفرطـة، وواجب التسـامح، والحدائـق التجريبية وينابيع الأمل، شـروط الفضيلـة ولجان الرعاية الاجتماعيـة، تشـكّل كلها، في الوقت ذاته، وعلى حد سـواء، عوامل للرقي والانحطاط.

سـوف يظهر لنا أكثر من سـؤال في المسـتقبل؛ هل لهذا الجدل من جدوى؟ هل بات بمقدور أسـاتذة الكرسي المعروفين والأساتذة الزائريـن المتجوّليـن؛ أتباع ومعارضي مدرسـة فرانكفـورت، الذين كانوا، ولا يزالون، يؤمنون بالماركسـية، وحتى علماء التربية، البرهنة علـى أنـه لا يـزال بمقدورهـم السـجال، وعـدم الانصيـاع لـلأدوار

المرسـومة لهم سـلفاً، والتزام موقف متوازن؟ هذه الرغبة الدائمة في تحقيق التوازن، تحول دون تطوّر الفكر، وتمنع نشـوء أي حوار جاد. فيعلـو اللغط، ويخفت صوت العقل، وتصبح الرغبة في التنوير دعوة صريحة إلى البؤس.

إن الفلاسفة المعاصرين، والعلماء والكتّاب والسياسيين؛ ممّن لايزالون يؤمنون بمنجزات عصر الأنوار، ولا ينتابهم فيه أدنى شـك، لابـد أن يخضعوا للمسـاءلة، مِن قبيل، ماذا اسـتفادت الإنسـانية من جعل الإنسـان كائنا اجتماعياً؟ هل الوعي الجماعي أصبح قادراً على تقبّل فكرة نهاية الكون؟ هل باءت تربية الكائن البشـري بالفشل؟ من ينوّر المتنورين؟

هنـا برليـن، وفي إحدى قاعـات أكاديمية الفنـون، يجب طرح هذه الأسـئلة المتعلقة بجذور المسالة برمّتها. في السابق كانت برلين منبعاً للأنوار، كما أنها كانت ساحة للطغيان واللاعقلانية. وهذا الأمر لا يستثني أكاديمية الفنون، بغض النظر عن نوايا مؤسسيها الطيبة قبل ثلاثمائة سـنة، ليلحقها قبل خمسـين سـنة العار والخـزي، لتولد من جديد، بعد نهاية الحرب، مقسّمة بين شطري برلين. وسواء أكانتا في غـرب هـذه المدينة أم في شـرقها، فإنّ هاتيـن الأكاديميتين مدعوتان إلـى مراجعـة نقديـة للذات، لأن بـؤس التنوير يشـمل الفنـون أيضاً. الرسم، والموسيقى، والهندسة عانت بدورها من العقلانية المفرطة، وما ترتـب عنها من آثار يمكن رصدها. بنايات شـاهقة فقدت قيمتها التنويريـة لطغيـان طابـع الحداثـة عليها، فتحـول الاهتمـام عنها إلى الاهتمام باللوحات الفنية. إنَّ بنا حاجة إلى أحاسيس ومشاعر جيّاشة، لأنها، مهما تكـن، تظل ضرورة. إن هذا المفهوم الجديد للفن يرجى منه سد الفراغ الحاصل.

إنـي بدوري أشـعر بالعجـز عن إيجـاد الجواب المناسـب لهذه التساؤلات. إن اهتمامي بعصر الأنوار ليس ناتجًا عن رغبة ملحّة منّي، بل لإحساسـي بواجب تدارس المرحلة، وفرز الحابل من النابل فيها. إني كنت أعلم سابقاً بأن مفهوم العقل لدى المتنورين يتسم بالبساطة، وأن مفهومهم للأخلاق يظل متمركزاً حول الذات. لماذا ينتابني شعور بالرتابة حين أجدني مضطراً للتعامل مع مفاهيم كهذه؟ ربما لأنني كنت أعلم مقاصدها مسبقاً. لقد كانت أهدافها، دائماً، واضحة وجلية؛ تريد استكشاف كل ما يتعلّق بمكامن نفسي الخفية، إنها تجعلني، وباستمرار، أعيـد ترتيـب أفـكاري، كي تصبـح أفضـل، وذات مفهـوم اجتماعي؛ يروم العدالـة، والمعرفة، والتنوير. إنها، بالمحصّلـة، درب من دروب ديكتاتوريات التسامح، أو استبداد الفضيلة. غير أن التنوير الذي نصبو إليـه، هو ذاك الذي يوفّر المتعة، ويتيح هامشـاً للحرية ومُتعدد الألوان ويسـمح بالبُقع، ويرفض مبدأ تعريف المعرّف. إنـي كواحد من رعايا حقبة الأنوار، أرغب في أن تسود الطبيعة العقل وليس العكس.

أليـس عرض هذه المطالب يُعَدّ أمراً متأخراً بعض الشـيء؟ ألم تحسـم الأمور كلها مـن قبل؟ ألا تعد كل المحـاولات للحديث عن بؤس التنوير، دليلا على ما يروّج من دعاوى حول قرب انتهاء الكائن البشري؟

إن الاستمرار على نهج السلف في درب التنوير، يكون له معنى إذا ارتبط بالمسـتقبل. وحتى ولو كانت هناك من وسـيلة لإحياء حقبة التنويـر، ونفض الغبـار عن بعض مرتكزاتها، والتخفيف من بؤسـها، يظـل تأثيرها في تشـكّل المسـتقبل قائمـاً. إن هذا المسـتقبل تعرض للاستنزاف، وما كتاباتنا إلا انعكاس لهذا الواقع.

قبل مائتين وخمسـين سـنة، و في أوج عطاء عصر التنوير، كان

الأمـل كبيرًا في انتصار نور العقل على قوى الظلام. إن الإنسـانية إذا ما تحررت من الخرافات، وشملها نور العلم، فإنها تصبح قادرة على تلمّـس طريق المعرفة والصواب، ومن ثَمَّ، خلق إنسـان جديد سـليم وخال من الشوائب. بذلك يتحقق السلام الأبدي، وتعم العدالة شتى أرجاء المعمورة.

لقد تبدّدت هذه الآمال جميعاً وكما نعلم، ربما لأن تحقيقها أمر بسـيط لا يسـتحق كل هذه التعقيدات. لا مد أسـلاك الكهرباء سـاعد علـى تحسـين وضع الإنسـان، ولا التغطية التلفازية حولتـه إلى كائن حر ومسـتقل. لقد ظل إنسـانًا بدائيّـاً؛ يحمل مظهـراً عصرياً؛ يرتكب الفظائـع والحماقـات، كلّمـا أطلقت يـداه في ذلك، مسـتغلاً أحدث الوسائل والتقنيات.

إن هذا الإنسـان الجديد، والـذي هو في الأصل بدائي، لا يظهر بمظهـر المتوحـش، فقـط، بـل هـو ديمقراطي إلـى حد ما؛ متسـامح إذا مـا وافـق ذلـك هوًى في نفسـه؛ اجتماعـي إذا تعلّق الأمـر بتوزيع الغنائم. إذا لم يكن أكثر ذكاء، فإنه قد أصبح أكثر مكراً. وكما جاء في الإحصائيـات، فهو يُعَمِّر طويلاً. أهذه هي نتيجة التنوير؟ ألم يكن من الممكن تحقيق غير ذلك؟

هكـذا تجب إثارة التسـاؤلات. ألا يُعـد تقدمّاً ونصـراً للتنوير، حين يسـتعمل، كلٌّ من دعاة التسـليح النووي ومعارضيهم، على حد سواء، لغة العقل والمنطق، وحين يرفعون شعار إنقاذ الإنسانية بشكل موحـد؟ إن الأمـر لا يعـدو أن يكـون غير ذلـك، أو في الأقـل هذا ما ينقل لنا عبـر البروتوكولات والخطابات. كل منّا يتفهم الآخر؛ يتقبّله ويستوعبه إلى أن تحين الفرصة فيبيده.

لما صار بوسع الإنسان الأول تدمير كل مظاهر الحياة التي تحيط

بـه، لم يعد له من وسـيلة يعتمد عليها غير العقـل. لقد أصبح مضطراً للتمركز حول الذات، عوض اللجوء إلى الله. لقد فقد السـيطرة على كل شيء، بعد أن مل من استعمال العقل. آمن بالطبيعة وإن بعد فوات الأوان. هل بوسـع هذه الطبيعة إعادة الإنسان الأول؟ أنْ تكون مهربه ومخرجه الأخير، وذلك بأن تعرفه من جديد؟

يجـب إثارة هذه التسـاؤلات إذا ما أردنا هنا، تحت سـقف هذه الأكاديمية، أن يكون موضـوع النقاش هو «بؤس التنوير». إننا نرغب فـي عـرض أفـكار فولتير، وروسـو وديـدرو للنقـاش، وكأن جدلهم عصري، وزلزال لشبونة ما زال قائم أمامنا.

# هل ما زال هذا هو عصر التنوير؟

**خطاب بمناسبة استمرار سلسلة اللقاءات حول بؤس التنوير، بأكاديمية الفنون في برلين في شهر حزيران 1985**

سيداتي سادتي،

لا نـزال نتذكـر جميعا أننا تحدثنا، بادئ الأمر، عـن روّاد التنوير، وكيـف أن برود العقل قد يقابله دفء الشعور. لقد سـمعنا الكثير عن التطور العلمي وتسارع وتيرته، وعن الجنس البشري ونُظم تربيته عبر مداخلة كلٍ من بوفارد وبيكوشي حول الحماقة الإنسانية، كما أنه كانت هناك مداخلة حول الإنسـان الأوروبي الراشد العقلاني، وأخرى حول حلـم العقل ينتج العنـف، ومداخلتان حول كيفية جعل الإنسـان كائناً اجتماعياً. وأخيراً أربكنا مفهوم فريدريش نيتشـه حول التنوير الجديد. والآن بعد هذا كله يجب الاستمرار.

هـل يمكن أن نسـتمر على الوتيرة نفسـها، أليس مـا ينقص هذه السلسـلة مـن اللقـاءات الغنيـة بالموضوعـات، عنصران مـن توابل التنوير وبؤسه الملح والفلفل؟

لقـد حاولنـا بتعـاون مـع كاريـن كيفـوس، المكلفـة بالتحضير لفعاليات هذا اللقاء، أن نظهر أوجه الخلاف والتناقض، وأن نؤسـس لحـوار متنـوّر. غير أن الوقائع أثبتت عدم جـدوى النقاش مع هؤلاء،

إذا ما غابت الرغبة في ذلك. كما أن الرغبة في تحقيق الموضوعية الأكاديمية، أفقدت الكثير من القضايا أهميتها. لم يكن أحد ليجرؤ على عرض رأيه للنقاش بجرأة، لعلّ بعضهم كان يخجل من البعض الآخر. القليل منهم فقط من عبّر عن رأيه حول بؤس التنوير، من دون طرق أهم الموضوعات، مكتفين بإعادة ترديد آراء الآخرين، متخذين الحيطة و الحذر مخافة إبداء الرأي. إن كل هذا التخبّط يحدث في زمن تسود فيه اللاعقلانية، مما قد يؤدي بالكائن البشري اليوم قبل الغد إلى هدم الذات. حينها تفقد الأنظمة التربوية سبب وجودها.

سيتم القول بأني أبالغ، أو أني غير عادل. ألم تكن محاضرة فولف ليبينيس مُنيرة؟ ألم يكن شارغاف، وبالرغم من عدم وجوده بيننا اليوم، حادّاً وساخراً؟ ألم يبذل كل من نيغت وكروكوف مجهوداً في إطلاق العنان للنقاش؟ إن هذا كله صحيح. إنه شئ يبعث على البهجة والسرور، أنْ نجد، اليوم، كل هذه المحاضرات مجتمعة في كتاب جيب. إنه ليس كتاباً كغيره، بل هو غني وزاخر بالمعرفة، ومتنوّع المشارب. إلا أنني لست راضياً تمام الرضى لشعوري بافتقار هذه الملتقيات إلى أفكار جريئة قابلة للانتشار. هذا ليس مردّه بعض المحاضرات الواردة في الكتاب، بل بسبب الوضع القائم والمحيط بنا. كل شيء يمضي وكأنه أعد سابقاً. الأمر ممكن، معه حق، متفق معي جنباً إلى جنب لكي يقال بعد نهاية البرنامج، لقد كان الأمر جيداً وبنّاءً.

هل هذا هو التنوير، أم فقط بريقه؟ هل هناك من بوسعه الادعاء، اليوم، ببلوغ درجة كل من فولتير وروسو وديدرو في التضحية وبذل الجهد؟ وبمعنى آخر، هل يجوز إلقاء القفّاز، وإعلان الاستسلام قبل دخول حلبة الصراع؟

حين يتم التعامل وبرفق مع المنافس يجب عدم تجاهل كونه

مخالفاً في الرأي، إنه مستعد للضرب وإعادة الضرب كلما أتيحت له الفرصة لذلك. إن تاريخ أكاديمية الفنون ببرلين لحافل بأمثلة من هذا النوع. حين نطّلع على البروتوكولات المؤرخة في 15 و20 من شهر شباط من سنة 1933، نجدها تخبر، وبلغة منمقة، عن استبعاد أعضاء كيته كولفيتس، وهاينريش مان، وكيف كانت ردّة فعل غوتفريد بن الساخرة. هذه البروتوكولات عكست، وبجلاء، فزع وقلة الحيلة لدى دعاة التنوير. إننا لم ننته، بعد، وإلى اليوم، من فصول هذه الحقبة. لقد بدا لي مدى هشاشة المواقف التي اتخذتها أكاديمية الفنون، خصوصاً إبّان الثامن من أيار سنة 1945. إذا ما أردنا، ومن خلال البرنامج المطروح، الحديث عن الأدب والفن، فإنه يجدر بنا عدم الاكتفاء بشرح المشروح وتذييل المذيّل، وإنما محاججة الآخرين، والرد على دعواهم.

إن حقبة الأنوار غنية بالموضوعات مثار النقاش. مرة أخرى نجد شعراء يستطلعون المستقبل، مهندسين معماريين وازنين ارتبطت أسماؤهم بواجهات لبنايات فنية بديعة، متاحف أنشئت وكأنها معابد مقدّسة. حين التزم الكثير من الحداثيين، بالأمس، الصمت بإزاء العديد من القضايا، ظل هؤلاء المنتسبون إلى ما بعد الحداثة غير مرتبطين باتجاه أو موقف معين. ينعتون الحماقة بالأسطورة، ويستمتعون بتمجيد الذات. من بوسعه الاهتمام، بعد هذا كله، بقضايا الفقر والبؤس، الظلم والاستبداد، بولندا ونيكاراغوا، أو حتى بأنفسنا نحن الألمان. إن الحديث كله يجري عن بؤس التنوير: «عدم اتباع سياسة التنوير» توافق ألماني؛ هاينريش مان، وتوماس مان، وتبعات ذلك كله.

## خطاب لم يقرأ أمام البرلمان الألماني

**تشرين الثاني سنة 1985**

سيدي الرئيس سيداتي سادتي،

لقد رأيت في منامي بأن الفرصة أتيحت لي للظهور أمام البرلمان وإلقاء خطاب. لما شاهدت البرلمانيين وهم يجلسون أمامي؛ كلٌّ وفق انتمائه السياسي في فريق معين، وخلفي رئيس مجلس النواب، في حين كان على يميني يجلس كل من المستشار وبقية الوزراء، قلت: سيدي الرئيس سيداتي سادتي، لقد صُوِّر لي، وأنا أحلم، كيف أنكم موزعون وفق نظام معين على هذه القاعة، في حين أقف أنا، كضيف، وراء المنصة. لأنني كنت أحلم وبلغة الحلم أخاطبكم، سأتوقف طويلاً عند بعض التفاصيل، وأمرّ مرور الكرام على بعضها الآخر. الأحلام عادة ما تتميز بعدم توازنها وانضباطها، وهي، وإنْ كانت تعبّر عن الحقيقة، تظل في مجملها غير دقيقة. منذ اللحظة وبعد انقضاء فترة الدهشة في هذا المقام، بدأت أتبيّن المسافات بين كل الفرق النيابية؛ كلٌّ منها على حدة .إني لا أرى أمامي أحزاباً، وإنما مصالح ومواقف تثير الدهشة والاستغراب. ما إن بدأت في إلقاء خطابي، حتى طالعتني صورة البرلمانيين وهم يتلقون الواحد تلو الآخر رزمة

مـن الأوراق الماليـة، وبدا لي المستشـار على يميني يلتهـم، وبنهم، قطع الحلوى.

إني أعلم، بالطبع، أن الأمر ليس هكذا أبدا، لن يسمح البرلمانيون والوزراء لأنفسهم بأن يتلقوا مبالغ في العلن وبهذه الطريقة. لن يُظهر المستشـار شـراهته في التهام الحلوى أبداً. في حلمـي، فقط، يصبح هـذا الأمـر ممكنـاً، بـل أكثر مـن ذلك، يسـمح لـي حلمي أيضـاً بأن أخاطب المستشار بحرية مطلقة، وبلا قيد أو شرط.

إنـي أود، فـي هـذا المقام، أن أقـدم اعتذاري، لا سـيما إلى كل النواب الذين ساهموا في تشكيل الحكومة الائتلافية، بسبب الرسالة التي وجهتها لهم قبل سنة. آنذاك كنت أعدّ هذا الأمر مهمّاً وضرورياً. لقـد كانت مخاوفي غير مسـوّغة، محكومـة بإيديولوجية خاطئة. لقد نسـيتم مضمـون هذه الرسـالة، وأرجوكم عـدم المؤاخـذة على هذه الرسـالة. بصقت سـماً ومرارة ضد هذه الصواريخ متوسـطة المدى، ومـا رافق ظهورها من لغـط واحتجاجات، كان معظمهـا، في حقيقة الأمر، غير ذي أهمية .

إن هـذه الصواريـخ صـارت اليـوم أمراً واقعـاً، إذ لـم ينتج عن وجودها ما يكدر السـلم والأمن. بـل على العكس من ذلك، أصبحنا قادرين على ردع العدو، والتقليل من خطره. لقد أصبحنا نشعر جميعا بالأمن ـ لنكن صريحين – وفوق ذلك كان لهذه الأشـياء المعارة من مخـزون حلفيتنا الدولـة الحامية بركة مؤثرة على السياسـة الألمانية. لأنـه مـع كل هـذه النوايـا الجريئـة لصيانة السـلام، يجد السـوفيات أنفسـهم مضطرين، أيضاً، لإعارة حليفتهم الدولـة الألمانية الأخرى بعض الصواريخ متوسطة المدى من مخازنهم. وبهذا يتم على الأقل في مجال صيانة السـلام توازن الماني الماني، وهذا ما يجب أن نحيّه وهذا ما أقوم به دون تردد.-

إننا نشعر بالمسؤولية تُجاه مواطنينا في الدولة الألمانية الأُخرى، بـل أكثر من ذلـك، لأن الجميع، هنا كما هنـاك، يدرك أهداف ومدى هذه الصواريخِ، يصبح الوصول إلى أيّة نقطة، في ألمانيا، سهلاً، قريب المنال، ومن ثمّ، تضيق المسافات الفاصلة بين المواطنين. بسبب هذه الصواريـخ أصبحوا قريبين مـن أي وقت مضى، بعضهم من البعض. وسـواء في براندنبورج أو فـي هايلبرون وضواحيها هيلبغون، يشـعر المرء بما معنى أن يكون ألمانيّاً.

وأنتـم، سـيدي المستشـار، أودّ أن تتوقفـوا، ولـو للحظـة، عن التهام قطـع الحلوى، لأبيّن لكم القدر المحتوم، والمصير المشـترك للألمان، وأساعدكم على وضع حلول للمستقبل. لقد حدث، أخيراً، ما كنتم تحذرون منه دائماً عبر خطاباتكم.

لم يسـبق أن كنّا في ألمانيا، قريبين من بعضنا البعض، ولم نكن يومـاً مـن الأيام نعيـش مع بعضنا في أمـان الموت. لم يسـبق أن كان الألمـان الذيـن عزلهـم مصيرهم عـن بعضهـم واعين بهذا الشـكل، وبالرغم من تقسيمهم. يجب ألا نضيّع فرصة اقتراح التوأمة بين مدن هايلبـرون، ونـوي أولـم، وموتلانغن، ومـا يقابلها من مـدن في دولة إيريـك هونيكر. إني أفكـر في نوي براندنبـورغ وإيرفورت. ليس من أمر يستطيع أن يوحّدنا كشعورنا بأن كلاً منا يشكّل هدفاً للآخر.

إنـه يصبـح ممكناً، في المسـتقبل، السـعي إلى تحقيـق التوأمة، سـواء هنا أو هناك، إذا انتشـرت هذه الصواريخ متوسطة المدى على أراضينا، كأن نأخذ جهة أيفل، وسـاكنة هونسرونغ من ألمانيا الغربية، وسـاكنة غابـة تورينغن في الشـرقية. يجب ألا نولـي كل الأهمية إلى ما يسـمى انقراض الغابـات، لأن هناك ما هو أخطـر من ذلك؛ إدراك قيمة هذا الأمر بالنسـبة لألمانيا ككيان موحد. لنكن، سيداتي سادتي، إيجابيين ولو لمرة واحدة.

لسذاجتي كنت أشعر بالقلق والخوف، لاعتقادي، يومها، بمقولة نهاية الكون. لقد أيقنت أننا سنصبح على فوهة برميل من البارود، إذا ما انتشرت هذه الصواريخ على أراضينا. لم أكن أقدر الأمور على حقيقتها، لأنني لم أكن أحظى بالقدر نفسه من الرزانة والطمأنينة التي كان يتحلى بها مستشارنا الألماني. ولأنني لم أكن داعمًا لموسكو، لم أكن مستعداً للتنازل عن الحرية، وقبول أي ثمن لذلك. إنني لم أقرأ، وإلى اليوم، لأي فيلسوف جديد يدعو إلى ربط الروح الفرنسية بنظام صواريخ. سيتقلّب فولتير في قبره، إذا ما علم إلى أي مدًى ذهب إليه السيد غلوكسمان في تأويله للتنوير.

باختصار، كان يجب عليَّ، سيدي المستشار، أنْ أصغي لمقولة سلفكم. لم يكن مثلكم أكولاً للحلوى، بل كان يعتمد على الرب كمستشار علمي، إلى جانب آراء إمانويل كانت، في استنارة طريقه. كان يردد، وفق ما جاء في الإنجيل، «لا تخشوا شيئاً». لم أكن لأشعر بهذا الخوف لو أنني أصغيت له، ومن ثمَّ، ما احتجت إلى تقديم الاعتذار عن الرسالة التي بعثتها لكم بالطبع في الحلم. كنت جباناً أريد العيش بأي ثمن. التزمت جانب المعارضة، بل أكثر من ذلك، رأيت أنَّ نشر هده الصواريخ يشكل خطراً على الجيش الألماني. قلت، آنذاك، إن هذا الأمر مخالف للدستور الذي إن لم يكن يمنعها بالحرف، فإنه يمنعها بما ينمّ عن ذلك. أعترف اليوم بأني كنت مخطئاً.

لأنه بينكم، سيداتي سادتي، وبعد استئذان السيد الرئيس، يمكن الحلم بطريقة بناءة وفاعلة. أتوجه بالرجاء إلى هؤلاء المنشغلين بتوزيع الأموال على البرلمانيين بالتوقف قليلاً، لأنه ليس ضرورياً تلقي الرشاوى والتهرّب من الضرائب في كل وقت وحين. هذا الرجاء

موجّه إليكم جميعاً كي ألفت انتباهكم إلى ما قد أقترحه عليكم. اقتراحي لن يكون فقط داعماً للسلام والأمن، وإنما للثقافة أيضاً. إنه من النادر جداً أن يسمح لأي كاتب بأن يُلقي كلمة أمام البرلمان، بعد أن تمكن من الحلم داخله. أرجو، من مستشارنا الألماني، أن يتوقف، بدوره، عن التهام القطعة الثالثة من الحلوى، بالرغم من المتعة التي يشعر بها جراء ذلك. كي يعي هو الآخر اقتراحي.

إني أعلنها وبصراحة، أن الأمر، كله، يتعلّق بالقنبلة النيترونية. إنكم تتذكرون كيف كان الجدل حولها قائماً. لقد كنت، آنذاك، من جملة المعارضين، لاعتقادي بلا إنسانية هذه القنبلة. كانت، ولا تزال، كذلك، لأن الحياة تختفي في كل مكان تُلقى عليه. إن الأشعة المنبعثة من هذه القنبلة تشلّ حركة الإنسان. لقد علمت، حسب ما أكده الأطباء والمتخصصون، بأن هذه الأشعة تصيب الجهاز العصبي للإنسان بالعجز، وتدمّر القدرة على التواصل بين الأمعاء والمعدة، كما تسبّب نزيفاً داخلياً وإسهالاً حادّاً، لتجف بذلك آخر قطرة ماء في جسم الإنسان.

إن خطر القنبلة النيترونية يصيب الإنسان فقط، في حين تظل مظاهر الحياة الأخرى على حالها، كالبنايات، والآلات والسيارات تظل جميعها في منأى عن التدمير. ما قيمة دبابة صالحة، أو ثكنة قائمة، إذا كان الإنسان نفسه الذي يستعملها غائباً عنها.

أسألكم، سيداتي سادتي، كيف سيكون عليه الأمر، إذا أنيطت بالقنبلة النيترونية مهمة حماية وتأمين الثقافة؟ أليس من الرائع أن يكون لهذه القنبلة دور داعم للفن؟ أليس من الممكن التعايش معها، لا سيما إذا حافظت على سلامة الكاتدرائية الغوطية، وعلى الواجهات المزخرفة، إلى جانب الدبابات والمدافع؟ إنه يجب علينا التخلّص من المخاوف المزعومة تجاه هذه القنبلة.

لنتذكـر جميعاً النقاشـات الحادة التي سـادت بالأمـس، والتي لـم تكـن خالية من الانفعـالات. هذه الخلافات أسـهمت في تعطيل تطور الأبحاث من أجل جعل القنبلة النيترونية خياراً استراتيجياً. لقد كان هـذا التأخير محزناً، لكنـه بالإمكان اليوم تدارك هذا الأمر، إذا ما توفـرت الإرادة لذلـك. من منّـا لا يرغب في حمايـة موروثنا الثقافي فـي حالة الحرب؟ إني أعلم، علم اليقين، أن لدى كل البرلمانيين هنا الرغبـة نفسـها. من أجل هذا يجـب دعم هذا النوع من التسـلّح، بغية إنتاج القنبلة النيترونية بكونها قنبلة تؤمّن الحماية.

إن هـذا النـداء موجّه بطبيعة الحـال إلى كلا المعسـكرين، لأن توازن الرعب يجب أن يقابله توازن في الإحسـاس بالأمن. لهذا يُعدّ مـن الضروري إحداث اتفاقية ثقافية من أجل حماية الأماكن الأثرية، كـي يصبـح الـدور المنـوط بالقنبلـة النيترونية هـو الحمايـة، حماية الثقافة.

يجـب، وبموجب هذه الاتفاقية، إحداث لجنة مشـتركة ومنبثقة عـن كلا الحلفين، تكون فيها تمثيلية الطرفيـن متوازنة. من مهام هذه اللجنـة حصـر كل الأماكن التراثية فـي قارة أوروبـا، لتعمّم بعد ذلك علـى باقـي قـارات العالم. هكـذا يتم إنتـاج القنابـل النيترونيـة بعدد الأماكـن التراثيـة الموجـودة، ومـن ثَمَّ، إحـداث محميـات للمعالـم الثقافيـة. حينها يصبح، من الضرورة، تبادل المعلومات بشـأن العجز الـذي قد يحصـل في إنتاج هذا النوع من القنابـل، بغية توفير الحماية لكل المواقع الثراتية، كي لا تقع تحت طائلة التدمير النووي.

سـيداتي سادتي، إني أفهـم معارضتكم ومقاطعتكم لي على أنها بداية في الاهتمام بما أقول. إنكم تحفزونني إلى الدخول مباشـرة في الموضوع. سـأفعل ذلك للتو. سأبدأ بالألمانيتين بامبيرغ في الغربية،

ودريسدن في الشرقية، كمدينتين تراثيتين محميتين بالقنبلة النيترونية، لتليهمـا، في ما بعد، روتنبرغ او تاوبر ومدينة شـترالزوند، وبعد ذلك كلٌّ من مدينتي لوبيك وباوتسن إلى آخره.

مع شـكري الجزيل إلى سـيدي الرئيس، أطلب منكم سـيداتي سـادتي، أن تتركوا بعض التسـاؤلات جانباً، من قبيل مـاذا عن مدينة تسيله، أو لما لا بايروت؟ لأنه مع ارتفاع عدد المدن المقترحة لدخول المحميـة، تـزداد مهمـة اللجنة المشـكلة صعوبة، ويصبـح تحديدها للأولويـات معقداً. إلا أنه سـيظل بمقدور هـذه اللجان، رفض بعض المدن المقترحة إذا ما أصرت أن تحمي نفسـها بالسلاح النووي. في هذه الحالة، لا يسعنا إلا أن نتأسف لكون العواصم الأوروبية لم تحظ بالحمايـة النيترونيـة، كـبراغ وروما، ووارسـو وباريس، وبودابسـت ولندن، من دون أن نغفل برلين وبانكو، وبون كولونيا.

إنـي علـى يقيـن بـأن هـذه الاتفاقيـة الثقافيـة سـتفتح لنـا آفاقـا جديـدة فـي اتجاه تفعيل المحميـات الثقافية، حتى ولـو كانت معظم المحميـات النيترونية لا تشـمل المـدن الزاخرة بتـراث ثقافي وفني. إنـه يصبح بوسـعنا، إذا مـا تجنّبنـا الحـوارات الجانبيـة، والفرقعات الإعلامية، واستعظنا، عن ذلك، بالعمل في الوقت المناسب، تجنب تلقـي مجموعة من المناطق الأثرية لضربـات نووية، وذلك بإلحاقها بالمحميـات التي تشـملها الاتفاقيـة، كأن نُلحق، على سـبيل المثال، مقـدّرات الفاتيكان بمحمية أفينيو، أو القطع الأثرية للوفر إلى محمية ستراسـبورغ، أو معالم وارسو الثقافية بمحمية كراكاو، أو ما يزخر به متحف برلين الشرقية من تحف فنية، بمحمية دريسدن. إني لا أستبعد أن تحمل إلى هذه المحميات، سواء بدافع الطواعية أو الحسرة، أبواب الكنائس البرونزية، والواجهـات المزخرفة، وأحـواض المعمودية،

وأحجار عمود غولاند المنقوشة. يجب ألا ندّخر أي جهد في حماية أهم المعالم الثقافية لأوروبا من الدمار الشامل، لتظل خالدة أبدية.

اسمحوا لي، وبعد إذن السيد الرئيس، أن أضيف شيئاً أجد من الضروري الإشارة إليه، في هذا الوقت خاصّة، وفي هذا المقام. إذا كانت مدينة دانتسيك، مسقط رأسي، التي أصبح يُطلق عليها اسم غيدانسك بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة، قد أصبحت ضمن المحميات النيترونية الثقافية بأبراجها، صغيرة كانت أم كبيرة، بعمارة بيوتها وأشكال زخرفتها، فإنه يصبح بمقدوري تحمل ما قد يسقط من ضحايا في أماكن أخرى.

طبعا سيقال بأن هذا الأمر، بجملته، يدعو إلى السخرية، بل قمة السخرية. ما قيمة المحميات الثقافية إذا كانت المدن المحمية نيترونياً خالية من العنصر الآدمي؟ لا تخدعوا أنفسكم، سيداتي سادتي، تمسكوا بمواقفكم في قولكم نعم وبالأغلبية. نعم للصواريخ متوسطة المدى. لتكن لديكم الشجاعة على دفع ثمن باهظ بغية الحصول على الحرية. وأنتم، سيدي المستشار المحترم، يجب أن تظلوا ذلك الرجل الوفي لمبادئه، لا يعرف الخطأ، ولا يتأثر بالعوامل الخارجية، ذو قلب صادق ووفي. بانتمائك إلى جيل لا يعرف إلا قول نعم، بُرِّئتْ ذمتك وثبتتْ أصالتك.

وأنا أقترب من نهاية خطابي، أرى قاعة البرلمان تخلو شيئاً فشيئاً، إلى أن صرت وحدي. حتى المستشار غادر المكان هو وبقية أعضاء حكومته، ولم يخلّف وراءه إلا بقايا قطع من الحلوى. لقد بدأت أشك في مدى قدرة البرلمانيين والحكومة الحالية على تحمّل مسؤولية قراراتهم المتخذة، والتصرف بحكمة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

لقد كنت أودّ لو قدّمت اقتراحات جديدة من أجل تطوير نُظُم حماية المناطق التراثية نيترونياً. إن الخبراء ذهبوا جميعاً إلى تأكيد وجود تبعات بيئية خطيرة؛ يصعب تجاوزها في حالة اندلاع حرب غير تقليدية، كاحتجاب السماء عنّا بسبب الغبار المتطاير، أو انتشار سحب رمادية تعمّ شتى أرجاء الكرة الأرضية، فتصاب بالصدأ ويكسو السواد، جرّاء ذلك، واجهات الكنائس المقدّسة والقصور المزخرفة. إنها خسارة غير مسبوقة، إنها كارثة وفضيحة ثقافية. ألا يجدر بنا فعل شيء، ومن الآن، لمنع هذه الكارثة؟ أوليس بإمكان علماء الكيمياء، لدينا، تطوير سائل حافظ، يحمي، وبلا استثناء، هذه المدّخرات من التلف؟

إن السؤال يظل مطروحاً حول من بإمكانه إعادة هذه المدخرات إلى سابق عهدها بعد انتهاء الحرب؟ إني أعلم الجواب، يجب ألا يُلقى الأمر، برمّته، على عاتق الإنسان. أذكركم بالفئران التي استطاعت أن تنجو من الهلاك. إنها ستحل محلنا إذا ما تعرّضنا للإبادة في المستقبل. إن لها القدرة على معالجة السموم والنفايات، وحتى السوائل الكيميائية المخصّصة لحفظ مقدّرات التراث البشري. ستقوم هذه الفئران، وربما بسبب الفضول الذي نعرفه عنها، بقضم ما طليت به هذه المعالم الثقافية من مواد حافظة، فينكشف جمالها وبديع صنعها.

إن الفئران ستلقّن أبناءها درساً؛ مفاده: هذه صنيعة الإنسان. لقد كان معتزاً بنفسه، مؤمناً بقدرته إلى درجة أسس فيها لنهضة شاملة. أنتج وأبدع في أوقات الشدة. أنظروا أي طاقة تلك التي كان يزخر بها. تجده يصل إلى أبعد حد في تطوير وبحث أية فكرة وإن كانت مجنونة. لم يحصد في نهاية المطاف غير الدمار، وإن كان يخلّف

دائماً ما يثبت مهارته. أنظروا ماذا كان بوسع الإنسان الذي لم يعد له، وللأسف، وجود اليوم.

إني لم أعد أحلم بأن يسمح لي مرة أخرى بالمثول أمام البرلمان، وإلقاء خطاب. إن آخر جملة نبست بها، في هذا المكان الخالي، إلا من هؤلاء الذين يعدون نقودهم في الصفوف الخلفية، أشكركم أولاً سيداتي وسادتي على غيابكم، وثانياً لأني استيقظت على صدى صوتي يتردّد في المكان.

# إننا في هايلبرون بالرغم من كل شيء

**خطاب بمناسبة لقاء هايلبرون الثاني**
**في شهر كانون الأول 1985**

سيداتي سادتي،

لا تتوقعوا مني اليوم أن أكون متفائلاً. هذا النوع من التمويه عايناه مؤخراً بجنيف حين نجحت وسائل الإعلام، الشرقية والغربية وعلى نمط واحد، في تقديم السيدتين الأوليين لدى القوتين العظميين، وجعلهما يستحوذان على الأضواء كلها. لقد شهد العالم التمايز القائم في ميزان القوى بين الشرق والغرب، متمثلاً في ما ترتديه السيدتان؛ تسريحة الشعر ونوع العطر، الابتسامة، وانبساط أسارير الوجه، كانت محط انتباه وتتبع الجميع.

محصّلة ذلك كله، تميّز سيدة الاتحاد السوفياتي عن نظيرتها وبشكل طفيف ببساطتها، في حين تميّزت سيدة أميركا الأولى بسحر وجاذبية روحها. لأن الإعلام انشغل بتتبع أخبار السيدتين طوال الوقت، انتهز الساسة الفرصة لمناقشة القضايا الراهنة، من دون أن يتعرّضوا لأهمها، ككيفية حفظ السلم والأمن الدوليين. وعلى العكس من ذلك، لم ينجحوا إلا في تمهيد الطريق لاستمرار السباق نحو التسلح.

باختصار، وعلى المدى القريب، يمكن القول بأن منطق العقل قد انتصر في جنيف. طالعتنا كتابات متفائلة في الشرق، كما في الغرب، عن قرب انفراج الوضع. كانت الآمال توزّع على الناس كما توزّع الهدايا على الأطفال في أعياد الميلاد. أيها القدّيس بلوخ، ائذن لي، ولو بإشارة بطرف عينك، بأن أتحدث، ومن الآن فصاعداً، عن مبدأ جنيف، لا سيما أنّ نبرة التفاؤل السائدة هناك، قد ساهمت في ارتفاع قيمة الأسهم في البورصات الدولية. من يجرؤ على إبداء التشاؤم بعد الآن؟ يحق لمستشارنا الألماني، اليوم، أن يشعر بالفخر، لأنه، ولولا حكمته وتوازن موقفه، لما حقق مؤتمر جنيف كل هذا النجاح الباهر. وبمعنى آخر، إن التباشير الأولى لهذا النجاح، بدت بقدوم السيدتين إلينا بابتسامة شرقية وغربية؛ جعلت الشباب يتشبّثون بالأمل من جديد، ويسترجعون ذكريات سنوات الخمسينات. لكن هؤلاء الذين يعارضون مبدأ جنيف لإفراطه في التفاؤل وأنا واحد منهم، يجب أن يعوا أنهم في موقف ضعف، ويبحثوا، من ثَمَّ، عن أساليب أخرى لإبداء رأيهم.

قبل سنتين، لما سافر عدد من الكتّاب أعضاء أكاديمية الفنون ببرلين إلى هايلبرون، كانت نتائج اللقاء، برمّته، لا تدعو إلى التفاؤل، لا سيما أن البرلمان الألماني صادق بالأغلبية، وقبل شهر من ذلك، على نشر صواريخ بورشينغ. عدا بعض الاحتجاجات المتفرقة، هنا وهناك، لم يكن بمقدور أحد فعل شيء. إلا أننا في اللقاء الأول بهايلبرون، لم نخرج خالي الوفاض، ذلك أن ما تضمّنه بيان هايلبرون الختامي، من حق في المعارضة والرفض، أحدث ضجة واكتسب تأييداً، فتم عرض كل صغيرة وكبيرة للنقاش، وإن استحوذت بعض الموضوعات عن غيرها على الاهتمام ونالت الأولوية، كمشكل استنزاف الغابات، ما يسمى بفضيحة فليك، وتفشي البطالة،

والمطالبة بتحديد ساعات العمل بـ35 ساعة في الأسبوع. أضف إلى ذلك ما حققه الثلاثي كول، غينشر، شتراوس، من نجاح وإثارة للرأي العام من خلال سلسلة الأزمات والإخفاقات التي عاصروها. لقد قام الحزب الاشتراكي الديمقراطي بدوره كاملاً في المعارضة، في حين انشغل الخضر بانقساماتهم ومشاكلهم الداخلية.

ليس من الغريب أن تفقد الحركات الداعية للسلام فعاليتها وقدرتها على الإتيان بالجديد، وإثارة الاهتمام عوض الانشغال بصواريخ بورشينغ التي صارت أمراً واقعاً. تُطلعنا شاشة التلفزة بأخبار متزاحمة عن فضيحة هنا أو فضيحة هناك، حتى ما يعرف بحادثة الصواريخ بهايلبرون طرح على أنه شأن محلي لا يعني الآخرين. إن برامج التلفزيون تخفي عن المواطن الألماني وبشكل متعمّد، أنه يقع، قاب قوس أو أدنى، من آليات الدمار الشامل، وذلك بأن تشغله بالكوارث، وبعض الفضائح السياسية. تبعث فيه الأمل بأن تغذي فضوله في تتبع ومعرفة أخبار الآخرين، وفق ما جاء به مبدأ جنيف.

رغم هذا كله عدنا إلى هايلبرون. ممانعتنا وقولنا لكلمة (لا) لم تؤدِّ إلى مظاهرات حاشدة، إلا أنها جعلت نهج المعارضة يستمر. إننا سنتشبث، على الدوام، بموقفنا الرافض والمعارض لنشر أنظمة الصواريخ النووية التي ليس لها من دور، إلا تدمير الحياة البشرية. إن هذا الإصرار على الرفض، وكما أنه موجه إلى الاتحاد السوفياتي، موجّه، أيضاً، إلى الولايات المتحدة الأمريكية. بالرغم من عقد التحالف الذي يربطنا بها، فإننا لا نجد المسوّغ لفعل العكس.

إن نشر أنظمة الدمار الشامل النووية على الأراضي الألمانية يُعدّ نقضاً لاتفاقية الدفاع المبرمة وفقاً للدستور، وخرقاً لأحد مبادئه

القائلة «بمنع انطلاق أي حرب من الأراضي الألمانية». إن هذه الأنظمة تجعل من كل جندي من الجيش الألماني ضحية لمنطق الحماقة هاته. إن هذا المنطق يروم الدفاع، إلا أنه لا يحصد إلا تدميراً للذات.

إن إعلان هايلبرون في ديسمبر 1983 يظل، وبعد مرور سنتين، ساري المفعول، بل أكثر من ذلك، وكما أثبتت التطورات منذ نشر أنظمة الصواريخ النووية على أراضي ألمانيا الغربية، تم، وبالمقابل، نشر صواريخ نووية على أراضي ألمانيا الديمقراطية والاتحاد السوفياتي. إن هذه الصواريخ بمقدورها إصابة أهدافها في خلال دقيقة واحدة، لا سيما إذا كانت أهدافها من قبيل مدن موتلانغن أو هايلبرون. مَنْ بمقدوره، بعد هذا كله، الادعاء بأننا آمنون؟

عن غير وعي أو شعور بالمسؤولية، أسهمت الحكومة الألمانية الحالية في تحويل الألمانيتين إلى هدف مشروع لأول ضربة نووية، ومن ثَمّ إتاحة الفرصة لإحداث دمار شامل. لأن مليون طن من المواد المتفجرة، يقابله مليون طن من القتلى.

إني أعلم بأن هناك رأياً آخر يدّعي أن الأمر ليس بالسوء الذي صُوِّر عليه. إن هذه الأسلحة لم توضع للاستخدام، إنما هي فقط للردع. كما أن مبادرة الدفاع الاستراتيجي، إذا ما ساهمنا في تطويرها، ستسمح بجعل كل أنظمة الصواريخ المتبقية متجاوزة وغير ذات جدوى، بل أكثر من ذلك، وعلى حد زعم شتراوس وشبيت، سنصبح قادرين على الاستفادة، اقتصادياً، من برنامج حرب النجوم. هذه المكاسب ستعود بالنفع على الصناعة الألمانية، إذ سيتم خلق مناصب شغل جديدة، ويستتب الأمن، كما استتب قبل سنتين بفضل نشر صواريخ بورشينغ.

أكاذيب يسهل دحضها، وبالرغم من ذلك، أخشى أن تنطلي على البرلمان، فيتم تمريرها والمصادقة عليها في حالة الضرورة. السيد غينتشر الذي يرفض اليوم دعم مبادرة الدفاع الاستراتيجي، قد يصبح بالغد مؤيداً لها. وبعد إظهار التردد وإبداء التمنع، يتم التوقيع بالإيجاب بدعوى الضرورة الملحة. هذه هي السمة الغالبة على السياسة المتبعة اليوم.

هل هناك فرصة لمواجهة هذا النوع من السياسة؟ هل من جدوى للدعوة إلى إعادة التفكير؟ هل لإعادة التذكير بأن ارتفاع نفقات التسلح يواكبه بالمقابل اشتداد للبؤس، وتفش للفقر في العالم الثالث، وطأطأة الرؤوس؟ هل يعي الإنسان أنه ماض في طريق إفناء نفسه بنفسه؟

لقد شغلتني هذه الأسئلة، طوال السنة الماضية، وكنت أعيد طرحها على نفسي يومياً، لا سيما في فترة انشغالي بمسودة كتابي الجديد. إني أكاد أجزم بأن الإنسان بدأ في إفناء نفسه. كل يوم يُضاف أربعون ألف طفل إلى قائمة الجياع بدعوى التطور. تُستنزف الغابات، ينتشر التلوث ويعم الجهل. هناك سيناريوهات عسكرية، وتقارير علمية تحدثت عن كيفية حصول هذا الفناء. إن هذه النهاية، في الواقع، تجعلنا نعيد التفكير في أدق التفاصيل، لأن كل ما يمكن التفكير فيه يُعَدّ قابلاً للإنجاز. إنها ملكة لدى الإنسان، ومنذ الأزل، تثبت قدرته على الابتكار والخلق، لا سيما إذا تعلق الأمر بالحروب؛ تجده يسلك كل السبل من أجل بلوغ غايته. إننا نعلم هذا جيداً، يظل راسخاً في عقولنا، ماثلاً في أذهاننا، تنتابنا مشاعر متأرجحة تارة بين الإحساس بالفخر والرضى تارة، وتارة أخرى الإحساس بالقلق والخوف بإزاء ما أنجزناه. نبحث، على الدوام، عن كبش الفداء.

أجهـزة الحاسـوب أو بنك المعلومـات، هم من يتحمّل مسـؤولية ما حدث وقد يحدث. إننا نخلي سـبيلنا من أية مسؤولية، لأنه، في نهاية المطـاف، ليـس نحـن بل التقنيـة، أو ربمـا المصادفة، من تقـع عليها تبعات ذلك كله.

ما جدوى عقد هذا اللقاء الثاني بهايلبرون؟ ما فائدة هذه الجهود المبذولة إذا كان الأمر كله سـيمضي وفق مبادئ جنيف الأخيرة؟ أما زالـت تكفـي، إلى اليـوم، المعارضـة، أو كلمة (لا) لإقناع الساسـة، وردهم إلى ناصية الصواب؟ لسـت أدري لذلك جواباً. كل ما نملكه هو جُمَلٌ مشكّلة من كلمات منتظمة في إيقاع معين. صور تحكي عن نفسـها، تُظهر، جميعها، أن للفنان حاسـة وحواسّـاً ورغبة في الحياة. وبهذا يتميّز عن غيره.

لتجـاوز حيرتنا سـنتحدث؛ بعضنا مع البعض، بغيـة التعبير عن عجزنا وقلة حيلتنا. ربما يصيبنا بالعدوى أحد المسـيحيين المؤمنين، أو ربما نجد الوسـيلة لفضح هؤلاء الساسـة، وكشف ألاعيبهم. وفي حالة الضرورة، سأقتدي بسيزيف الذي كان يدحرج الحجارة مرة تلو الأخرى، من دون أن يكون لهذا الفعل من جدوى.

## قهقهة ساخرة للشرق والغرب

**خطاب بمناسبة انعقاد المؤتمر الدولي لنادي القلم بنيويورك في شهر كانون الثاني 1986**

إن الموضوع المقترح حول تصوّرات المثقف وتصورات الدولة يتجاوز قدراتي اللغوية، لهذا أرجو منكم أن تسمحوا لي باستعمال اللغة الألمانية لإبداء بعض الملاحظات.

إن القادم من بلد؛ يُعَدّ، في الحقيقة، مشكّلاً من دولتين حريصتين على إظهار انقسامهما السياسي للعالم، وبالرغم من إقامته ببرلين الغربية، يديم التفكير في برلين الشرقية. لا يستطيع التخلّص من ثقل إرث ألمانيا السياسي والأدبي إذا ما أراد الكتابة. لهذا يُعَدّ موضوع هذا المؤتمر، من جهة، واقعاً معيشاً، ومن جهة ثانية، محاولة لإبداء الملل، لأنه في كل مرة، كانت تقتصر النقاشات في المنتديات على التعارض الحاصل بين المثقف والدولة، بدون إبراز مواطن ذلك الخلاف، ولا حتى التمييز بين المثقفين الذين يحتكّون بالواقع، والماكثين داخل أبراج عاجية.

عادة في هذه النقاشات، يتم تجاهل دور المثقف ومسؤوليته، في ما تأتيه سلطة الدولة من أفعال. لا يمكن الحديث عن عجرفة إمارة بروسيا بمعزل عن التفكير في فلسفة الدولة لهيغل. هناك كاتب

مشهور اسـمه ميكيافيلّي حدّد بلغة جميلة ومنمّقة أسس الحكم لدى الدولة، والتي لا تزال إلى اليوم متّبعة، تمارس ليس فقط في الكرملين أو البيـت الأبيـض، وإنمـا أيضاً فـي دول العالـم الثالـث. لقد أصبح تصـوّر المثقف داعماً ومؤيِّـداً لتصوّرات الدولة. مـا إن تتبنى الدولة أطروحات ميكيافيلي، حتى تشـرع فـي تحويل لغتها الجميلة إلى لغة عشـوائية قاسية، وأسس الحكم لديها إلى استغلال متواصل للسلطة. إن القـدرة علـى التصوّر لدى الطوباوية الأدبية لا يبدو أحسـن حالاً. فمن توماس موروس إلى كارل ماركس يمكن البرهان أية مرتبة تلك التي قد تتبوّؤها الطوباوية، إذا كان للدولة غرض في تحقيقها، بجعلها جنة الفردوس على الأرض.

إن حاضرنـا مسـوم بإفـلاس الإيديولوجيات الحاكمـة، وتبخّر وعـود الدولـة الوردية. أصبـح من المعلـوم، اليوم، كيـف أن الدولة الشـيوعية تظل حبيسـة مبادئها، وإن طال عمرها. النظام الرأسـمالي، بـدوره، يكاد لا يتجـاوز أزمة إلا ويقع في غيرها. إن من يعدّ النموذج الأمريكي، اليوم، مثالاً يُحتذى به، يجب أن يتحلّى بشيء من اللاواقعية كي يتجاهل العشـوائيات، ودُور الصفيح المنتشرة هنا وهناك، ناهيك عن المجاعة المتفشّية عبر العالم. ماذا سيتبقّى بعد هذا كله من وصايا الرب الواردة في الأناجيل؟ في الواقع هناك من المسـيحيين من يتبع هـذه الوصايا بالحرف. عايشـت هذا الالتـزام بتعاليم المسـيحية في بولنـدا؛ بيـن أنصـار حركـة زوليدانوش النقابيـة خاصّة. لقـد التقيت بعضهم بين أنصار حزب الساندسيين في نيكاراغوا، في وقت تخلّت الكنيسـة نفسـها عـن تعاليم المسـيحية. إن البابـا الحالي، وفـي أثناء زيارته للدول الفقيرة، تجده ينحني دوماً ليقبّل الأرض، وبعد أن يعود إلى روما، يظل كرسـي البابوية الذي يجلس عليه رمزاً لكرسي الروح

القدس. إنه هروب إلى المجهول، وتشبّث صارم بتطبيق وصايا المسيح، لأن الكنيسة تمثّل التقوى والإيمان.

هل هناك من مكان شاغر، على هذه الأرض المُحتلة والمُدمّرة؛ يمكننا فيه الاستمرار في لعبة تبادل الأدوار بين تصوّر المثقف وتصوّر الدولة؟ سأحاول، ومن خلال مثال من الماضي القريب، أن أظهر، في الواقع، ما المقصود من موضوعنا:

في خريف السنة الماضية انعقد ولمدة ستة أسابيع ببودابست، منتدى للثقافة كمؤتمر منبثق عن اتفاقية هيلسينكي. إن كل ممثلي الدول الأوروبية، باستثناء ألبانيا، كانوا حاضرين إلى جانب ممثّلي الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، بلغوا، في مجملهم خمسة وثلاثين بلداً. كانوا يجلسون وفق تراتبية معيّنة؛ تفرضها أدبيات المؤتمرات. يقدمون الاقتراحات حول سبل دعم التبادل الثقافي بين الدول الأوروبية برغم اختلافاتها الإيديولوجية.

هذا المؤتمر لم يكن ليحظى بالأهمية التي حظي بها، لولا الإجماع الذي حصل بين حكومات الدول المشاركة على دعوة الفنانين إلى جانب آخرين للحضور من بلادهم، إلى بودابست. لقد جاؤوا جميعاً؛ كان بينهم الرسامون، النحّاتون، المهندسون، مُخرجون وملحنون ومديرو المسارح، المؤلفون والكتّاب. أنا بدوري كنت ضمن المدعوّين من أعضاء الوفد الألماني، الذي كان يجلس إلى جانب أعضاء وفد ألمانيا الديمقراطية. لقد قمت بالتحضير لهذا المؤتمر، وعلى غرار الكتّاب والفنانين الآخرين، عرضت اقتراحاتي القاضية بطلب من الدول التي اجتمعت مع بعضها البعض، ومنذ مؤتمر هيلسينكي إلى تأسيس مؤسسة خيرية ثقافية، يكون مقرها في بودابست، لدعم ثقافة أوروبية شاملة، من مهامها إرساء مبادئ الحوار والتواصل بين الشرق والغرب.

يبـدو للمرء مـن خلال الوهلـة الأولـى، اعتماد هـذا المؤتمر في فعالياته على لغتين أساسيتين، بالرغم من وجود لغات أخرى تمثّل الدول المشـاركة؛ أولها تلك اللغة الرتيبة الباعثة على التثاؤب والرسـمية لدى رجالات السلطة، سواء في الشرق أو في الغرب. هذا التصلّب المستمر لا يزيـد الفـوارق إلا اتسـاعاً. ثانيها لغة الأطياف المختلفـة من الفنانين والكتّـاب، يقدمون اقتراحـات واقعية، انطلاقاً من تجاربهم الشـخصية والعملية. لا يعيرون كبير اهتمام للفروق الاجتماعية، مشكّلين خطراً، من وجهة نظر حكومات الدول المشاركة.

لأن الفنانيـن المدعوّيـن، وبعـد وقـت معيـن، سـيعودون إلـى بلادهـم، تـم الأخـذ بمقترحاتهم مـن قبل ممثلـي الدولة الرسـميين الخمسـة والثلاثيـن، لا سـيما تلـك التـي اتسـمت منهـا بالعقلانيـة، وعـدم تعريض النظام الأمني للاتحاد السـوفياتي، أو اقتصاد السـوق الرأسـمالي للخطـر. إن هؤلاء الممثّلين الرسـميين للدولة يحتاجون إلـى أسـبوع واحد فقـط، لجعـل كل مقترحات هؤلاء تذهـب أدراج الرياح. لم يلتزموا، ولـو مرة واحدة، بتنفيذ توصيات البيان الختامي. كل مـا تـم الحصول عليه، هو تلـك الصورة المفزعة لواقع السياسـة الحالية العاجزة عن فعل شـيء. إنه مؤتمـر كغيره، بُدّدت فيه الأموال من دون طائل. ليس هناك ما يدعونا، نحن معشر الكتّاب، إلى الفخر. حتى إنجاح مؤتمرنا هذا يحتاج إلى مجهودات مضنية.

إن قـدرة الدولـة علـى التصوّر فاقـت حكايات كافـكا في كتابه «مسـتعمرات العقـاب»، وتجاوزت كل ما جاءت بـه روايات الخيال العلمي. ما ترتكبه هذه الدول من حماقات، ومن تهديد مسـتمر بفناء الجنـس البشـري، تجاوز كل قـدرة على التصـوّر لدى الأدبـاء. ماذا بوسع الأدب فعله غير الإحساس بالمرارة؟

## خطاب عن أهمية الشعور بالمسؤولية

**خطاب بمناسبة الحملة الانتخابية البرلمانية بولاية شليسلش هولشطاين، في شهر أغسطس 1987**

أيها السيدات والسادة،

إن بعض الرغبات المكتومة أملت على خصومي السياسيين في الآونة الأخيرة القناعة الآتية: «إن النهج الاشتراكي الديمقراطي قد استطاع الصمود». إن هذا القول الصريح يؤكد حقيقة ثابتة بخصوص عراقة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، الذي يمتد عمره إلى مائة وعشرين سنة خلت. وبرغم كل التناقضات، ظل هذا الحزب الضامن الأكبر للنهج الديمقراطي، والساهر على تطوره. هذه العوامل، إلى جانب أخرى، تحفزني، كالاستمرارية التاريخية للحزب الاشتراكي الديمقراطي، على أن أستمر في خدمة مبادئه. الآن تتاح لنا فرصة محو صورة ما خلّفه هذا الصيف المطير من نتائج مخيّبة للآمال، وذلك بتحقيق نتائج إيجابية عبر صناديق الاقتراع.

أودّ في هذا الإطار، أن أعرض لبعض الأفكار التي يمكن، حسب رأيي، الاعتماد عليها أكثر من أي توقعات للأحوال الجوية. وبحكم جولاتي المتعدّدة المندرجة في إطار الحملات الانتخابية، في ولاية شليسلفك هولشطاين، المتميزة بجمالها وجاذبية طبيعتها، ارتأيت

أن أبـدأ بنظرة تاريخيـة؛ ترتكز على تجربتي الشـخصية إبّان مخاطبتي الناخبين، ومحاولة حشد أصواتهم.

قبـل عشـرين عامًـا، إبّان خريف سـنة 1967، حينمـا كان أوائل ناخبينـا يجهلـون، آنـذاك وبصفـة مطلقـة، مـا قـد يحمله المسـتقبل المجهـول، تحدث كل من الكاتب زيغفريـد لينز، والمؤرخ أبرهرت يكل وأنا، بمناسـبة الحملة الانتخابية من السـاحل إلى الساحل، أمام جماهير كانت في ذلك الوقت مذهولة. لقد كانت هذه التجربة جديدة وخارجـة عما هو معتاد؛ أن ينخرط الكتّاب والمثقفون في السياسـة، وهم الذين لم يكن لهم موقع داخل هذا المجال.

كانـت نظـرة الحـزب، الـذي نتعاطـف معـه بـادئ الأمـر، إلى المهرجانـات الخطابيـة التـي نعقدهـا متأرجحـة بين التخـوّف تارة، والإعجـاب تارة أخرى. يوخن شـتفن، زعيـم المعارضة حينها، كان عنصـراً متميّـزاً وعنيداً في آن، إذ استطاع أن يجهر أمام فلاحي ولاية شليفك هولشتاين بحقائق مذهلة، لكنها لا تزال قائمة إلى يومنا هذا. وبالنظـر إلى الوضع المزري الـذي تعرفه الزراعة حالياً، فإن توقّعات «شـتفن الأحمـر» مـا زالت تـرنّ فـي آذان من عايشـه مـن الفلاحين آنذاك.

1967، كانـت الأجـواء السياسـية في تلك الحقبـة تنذر بهبوب ريـاح التغييـر. أعني هنا، «ربيـع براغ» الذي حاول مـن خلاله العديد من المثقفين التشيكوسـلوفاكيين، بمعيـة مجموعة من أطر الأحزاب المنادية بالإصلاح، إضفاء صبغة إنسـانية على الشـيوعية، حسـب ما تـم تداوله في تلـك الحقبة. أدى هذا المدّ الجديد في السـنة الموالية إلـى اضطرابـات داخل المعسـكر الشـرقي؛ ممّا أفضى إلـى احتلال تشيكوسـلوفاكيا فـي 20 آب 1968 مـن قبـل القـوات التابعة لحلف

وارسو. كان النصر، بداية، حليف الدبابات الشيوعية، غير أننا نعيش اليوم على وقع تحقق وتأكيد نظريات «ربيع براغ»، وأفكار ألكسندر دوبشيك داخل الاتحاد السوفياتي، وإن كان لم يتم التسليم بهذا الأمر علانية، بل على العكس من ذلك، راجت شائعات عن سعي القوى الصغيرة، داخل حلف وارسو، إلى احتلال الاتحاد السوفياتي نفسه.

في الوقت ذاته، خاضت الولايات المتحدة سنة 1967 حرباً ضروساً في فيتنام. وانتقلت شرارة الاحتجاجات على حرب فيتنام، من الولايات المتحدة نفسها إلى أوروبا، حيث انطلقت من برلين، وانتقلت لتشمل مدن جمهورية ألمانيا الاتحادية، قبل أن تبلغ باريس وبعدها وارسو. في إثر ذلك، تشكّلت حركات احتجاجية طلابية بمنطلقات مختلفة. وضع جزء من جيل ما بعد الحرب نفسه في خضم هذه الاحتجاجات، سعياً منه إلى أن يعمّ تمرّد هذه الفئة الصغيرة بقية مكوّنات المجتمع. خاب الأمل المنشود بسبب عدم تناغم لغة الطلاب الثورية ولغة العمال. ولم تسهم حملات مؤسسات شبرينغر الإعلامية المتهجّمة، ولا سيّما جريدة بيلد تسايتونغ، إلا في جعل الحوار بين الطلاب والعمال مستحيلاً. وعلى الرغم من ذلك، أحدثت الحركة الطلابية الاحتجاجية، منذ عشرين سنة إلى يومنا هذا، تغيّرات لا يمكن تجاهلها داخل المجتمع الألماني الغربي.

كنت في تلك الآونة أنا وزيغفريد لينز وأبرهرت يكل في العقد الرابع من عمرنا، ننتمي إلى جيل آخر. كنا في واقع الأمر نتعاطف مع احتجاجات الطلاب، غير أن تجاربنا منعتنا من الانسياق وراء الصخب الثوري. كان الطريق الوحيد إلى التغيير، بالنسبة لنا، يمر عبر الإصلاحات. كنا نعلم أنه، ومع وجود ساسة من قبيل فيلي برانت وغوستاف هاينمان، أصبح من الممكن فسح المجال أمام

سياسة التعايش السلمي بين الشرق والغرب، ومن ثَـمَّ، باتت الطريق ممهّدة لسياســة ألمانية واقعية. تمكنت حقبة أدناور، وبعدها إيرهرت فــي واقع الأمر، مــن الصمود، غيــر أن قرع طبول الحــرب الباردة لم تخفــت بعد، لهذا كان من الواجب مواجهتها بأفكار مقنعة، فانخرطنا فــي العمــل السياســي. وبغية بلــوغ أهدافنــا، تركنا ريشــة الكتابة التي كانت تحمينا من الانتقاد المباشــر، وتحدثنا في شــليفك هولشــتاين، قبل عشــرين ســنة، أمام جماهير لم تكن معتادة على مناقشــة صاحب الخطاب بعد الانتهاء من الإلقاء. باختصار، لاقت فكرة إنشــاء مبادرة لناخبــي الحزب الاشــتراكي الديمقراطي عبر التــراب الألماني كافة، تجاوباً لدى الناس الذين تحدثت إليهم بمعية زيغفريد لينز وأبرهرت، خلال الجــولات والتظاهرات الانتخابية التــي نظمناها، والتي أثرت تجربتنــا بشــكل كبيــر. من هنــا إذن، انتشــرت الفكرة خــلال العامين التاليين، ليتم إحداث مبادرات مماثلة في كل من ولاية بافاريا، وبادن فرتنبيرغ، ونيدرزاكســن، وزارلاند، وفي مــدن كبرى وصغرى أيضاً. هذا ما أســهم، حســب رأيي، في الفوز بالانتخابات التشريعية خريف عام 1969،وإن كان بفارق أصوات ضئيل.

تميّــزت الفتــرة الموالية بخطاب سياســي جديــد ومنفتح، إذ تمّ الاعتــراف بالدولة الألمانية الأخرى القائمــة. قادت المفاوضات مع الاتحاد الســوفياتي وجمهورية بولندا الشعبية وممثلين عن جمهورية ألمانيــا الديمقراطيــة، إلى توقيع معاهدات؛ لا تــزال قائمة حتى الآن، برغــم أن معارضــي سياســة التعايش الســلمي لــم يكلــّوا، منذ ذلك الوقــت، وإلــى عــام 1987 مــن محاولــة عرقلــة، بــل حتــى إجهاض الاتفاقيــات التي تم إحرازها. جدير بالذكــر، ومن باب الإنصاف، أن الحزب الاشــتراكي الديمقراطي كان أول من عبّد الطريق أمام إجراء محادثات مباشرة بين الألمــانيتين، بتقريب وجهات النظر بينهما، حتى

توّجت بالزيارة الرسمية المرتقبة من قبل رئيس مجلس الحكم في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، إريش هونيكر إلى ألمانيا الفدرالية.

خريف 1967، هو الموعد الذي حُدّد للحملة الانتخابية في ولاية شليسفك هولشتاين. كانت تلك فترة انتقالية، فترة الأمل المشوب بالحذر، فترة طبِعت بكثرة الحسابات السياسية، بعيدة المدى. إنها بداية التحوّل السياسي نحو الأمام.

وبعد وقت قصير رفع الشعار الآتي: «علينا الاتجاه نحو ديمقراطية أكبر»، وأصبح الحديث أكثر حول «المواطن المتحرر». بات من الواجب ضمان الحريات الاجتماعية وتوسيعها. واكتسب مفهوم المجتمع؛ متعدّد الأدوار، وزنًا أكبر، مقابل المفهوم المبهم والمجرد للدولة. بدا وكأنه بمقدور المواطن داخل جمهورية ألمانيا الاتحادية، استخلاص العبر من الماضي الأليم، وإدراك معنى التوجّه الديمقراطي في الحياة اليومية، وأن الديمقراطية تحوّلت، وبامتدادها إلى شتى مناحي الحياة اليومية، إلى واجب مستمر منوط بكل مواطن، فنشأت من مبادرات الناخبين، مبادرات للمجتمع المدني. وقبل مجيء حزب الخضر بوقت طويل، أدرك سياسيو الحزب الاشتراكي الديمقراطي؛ أمثال أرهرد أبلر، وأوسكر لافونتين، أبعاد التخريب الذي تتعرّض له بيئتنا، فحذروا من زحف المنشآت الصناعية، وقاموا بطرح تساؤلات حول الوضع البيئي؛ لم نجد لها أجوبة حتى الساعة. إنها حقبة من التفكير المثمر، والتنافس المتزايد بين الأفكار، حيث أنشئت منتديات حول موضوعات النقاش كافة. أفضى ذلك كله إلى حدوث أمر منقطع النظير في ألمانيا؛ خلال بضع سنوات، ظهر إلى الوجود في ألمانيا رأي عام؛ ممثل في مؤسسات الإذاعة، والتلفزيون، والمدارس، والجامعات، والكنائس.

هـا نحن نتسـاءل اليـوم، ماذا تبقّى مـن ذلك كلـه؟ إن من يعمد مثلـي إلـى تقييم الوضـع، بعد عقدين مـن الزمن، يخلـص إلى نتائج متباينة. بقيت النتائج السياسـية المحصلة، تُجاه شرق أوروبا وألمانيا الديمقراطية، فعالة وقابلة للتطوير. ولم يفلح، لا شتراوس ولا دريغر إلـى يومنا هذا، في عرقلة المسلسـل الذي أطلقه فيلي برانت، والذي أثبت نجاعته يوماً بعد يوم. ولعل الزيارة المرتقبة لهونيكر، كما ذكرت سابقاً، لخير دليل على نجاعة هذه السياسة.

بالمقابل، وعلى صعيد السياسة الداخلية، فإن الكثير ممّا تحقّق في عهد الائتلاف الاشـتراكي الليبرالي، والذي كان نتيجة لمجموعة مـن التنـازلات التـي تـمّ، علـى أساسـها، تطويـر العديد مـن النظم، وإعطاؤها صبغة قانونية، عاد ليتهدّم ويتضرّر بشـكل كبير. أمّا سياسة التحـول التي دشّـنت في عهد المستشـار كول، فقـد أدت إلى تفكك الأمـن الاجتماعي الذي لم يكـن تحقيقه، في ما مضى، بالأمر الهين، إذ إنَّ أزيَدَ من مليوني عاطل عن العمل وأسـرهم، يعيشـون، منذ عدة سـنوات، في ظل الإقصاء الاجتماعي، وسياسة البقاء للأقوى، اقتداء بالرئيـس الأمريكي. تزايدت حدة البطالـة ليصبح الفقر أمراً واقعاً في ألمانيـا الاتحاديـة التي من المفتـرض أنها تنتمي إلـى منظومة الدول الغنيـة. يعانـي، عادة، هـذا الوضع، كبار السـن من العمال، والنسـاء والشباب الذين تبدّدت أحلامهم في مستقبل أفضل، إذ إنَّ لأي إقصاء اجتماعي مبكر، عواقب وخيمة، وتبعات خطيرة في المستقبل. كيف لنـا، إذن، أن ننتظر ممّن يقضي سـنوات طويلة فـي البحث عن فرصة للتكويـن، أو مـن يجد نفسـه عاطلاً عن العمل مباشـرة بعـد الانتهاء مـن فتـرة تكوينـه، أن ينخرط فـي العمل السياسـي، ويصبـح مواطنًا ديمقراطيّاً متحرراً. إن دعوة فيلي برانت، في مطلع السـبعينيات، إلى الاتجاه نحو المزيـد من الديمقراطية، قوبل لدى هؤلاء العاطلين من

الشباب بالريبة والسخرية. وحسب ما يُعرف بالإصلاح الضريبي الذي جاء به كل من السيد شتولتنبرغ وبانغمان، لم يسبق للطبقة العاملة أن استُغلت، في وقت من الأوقات، بهذا الشكل السافر الذي زاد الأغنياء غنى.

إن حال الرأي العام السياسي، الذي سَلِم بداية السبعينيات من كل اضطراب، وشهد حركة سياسية دؤوبة، لم يبق منه إلا هيئات وجماعات متفرقة، إذ باتت كل الأمور تقاس حسب أهواء كول. لم يأت الرأي العام الجديد الذي لا يحمل إلا الاسم بأية أفكار سياسية، كان التوجه برمته يدور حول الأقوال الجوفاء التي تم تشريعها في منطقة بحيرة فولفغانغ، وكان الوقت يُهدر هباءً في خلافات غير مجدية داخل حزب كول من جهة، ومن جهة أخرى بين غاوفايلر في مقاطعة شتراوس. كان عندي، في غالب الأحيان، شعوربأنه يتمّ استغلال النجاح الذي حققه لاعبان لكرة المضرب، من أجل إخفاء سياسة الإخفاق لكول عن الرأي العام الذي لم يبق من دوره غير الاسم، كما ذكرت آنفاً. إلا أن الشيء الوحيد الذي نجح فيه هذا المستشار، هو الإضرار بتلك الصورة الإيجابية، والتقدير المتزايد لألمانيا الاتحادية الذي أفلح كل من المستشارين برانت وشميت في إشاعته شرقاً وغرباً. لم تكن التوجّهات العامة للسياسة الألمانية تفتقر إلى برنامج واضح ومحدد كافتقارها له اليوم.

ومن أمثلة تراجع صورة السياسة الخارجية الألمانية، أذكر لكم سير المفاوضات الراهنة بشأن تفكيك أسلحة الدمار الشامل. لقد أجمع العالم كله على أن اقتراحات الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف، كانت هي الأولى، على الإطلاق، التي من شأنها أن تحرز نتائج ملموسة على مستوى الأسلحة النووية القصيرة والمتوسطة المدى؛ ممّا قد يجعل أوروبا خالية من السلاح النووي.

حتى في الولايات المتحدة، تراجعت الاعتقادات حول الصور المعتادة للعدو، و انطلقت مفاوضات جدية في جنيف. ولم تعد هناك من عقبات تعترض طريق التوقيع على اتفاقية لتفكيك الأسلحة النووية؛ ما من شأنه أن يقود إلى إبرام اتفاقيات مماثلة لاحقاً.

بقيت إذن ألمانيا الاتحادية بزعامة المستشار كول هي عنصر التشويش الوحيد، فتفكيك السلاح النووي كان يعني، بالنسبة لتلك الحكومة، معاودة السباق نحو التسلح لاحقاً. تكتمت هذه الحكومة، أسابيع طويلة، حول 72 صاروخًا من طراز بوشينغ أـ1 والتي كانت، برؤوسها النووية، تحت تصرف الولايات المتحدة. استمر الدفاع عن الحق المزعوم في امتلاك تلك الأسلحة إلى أن نجح الفريق النيابي للحزب الاشتراكي الديمقراطي، في دفع البرلمان إلى عقد جلسة استثنائية؛ أبدى خلالها كول رغبة مترددة في التخلي عن تلك الأسلحة، من دون أن يخفي تحفظه إزاءه. فبدلاً من تقديم اقتراحات بنّاءة؛ منبثقة عنه شخصياً، كان كل من فورنر ودريكر – ممثليْ كول – ينهجان تكتيكات من أجل المماطلة. أدى ذلك كله إلى عزل ألمانيا الاتحادية باعتبارها حجرعثرة أمام مسلسل تفكيك الأسلحة النووية. إذا نجحت حكومة كول في تعليق مفاوضات جنيف، أو إذا كان أي فشل محتمل لتلك المفاوضات سبباً في دفع العالم، في سباق مدمر جديد، نحو التسلح، فإن المسؤولية ستُلقى، مجدّداً على عاتق الألمان. سينظر إلينا العالم حينئذ كشعب لا يريد السلام، ولا يستفيد من الماضي الذي أضيفت إليه، اليوم، ديون جديدة؛ تثقل كاهل الدولة. ليست حكومة كول وحدها مَنْ يتحمل المسؤولية في هذا الوضع، بل إننا نُعَدّ كلنا مسؤولين، لأن الناخب هو من أعاد انتخاب هذه الحكومة في الاستحقاق التشريعي الأخير، بالرغم من عيوبها التي كانت واضحة للعيان، والفشل الذي راكمته.

هنا إذن نتساءل عمّا إذا كان لدينا المستشار الذي نستحق، أم إن قامة كول هي الشعار الذي قد يدفعنا إلى الأمام؟ أليس هناك من هو أجدر من كول القابع هناك في بون، أو أوفه بارشل، هنا في هذه الولاية؟

وكما كان الحال، قبل عشرين عاماً، مع زيغفريد لنيز وأبرهرت، فإني ما زلت أحتفظ بالرأي المختلف نفسه. استطاع زعيم المعارضة في ولاية شليسفك هولشتاين، بيورن انكهولم، على الخصوص، إدراك ضرورة الإبقاء على المسار الاشتراكي الديمقراطي كخيار بديل. كانت قائمة فريق عمله صامدة في وجه أي انتقاد؛ إذ تميّز البرنامج الانتخابي للحزب الاشتراكي الديمقراطي بالوضوح، وخلوّه من أية وعود جوفاء. لكن في نهاية المطاف، تظل مفاتيح التغيير الديمقراطي على هرم السلطة، بين يدي الناخب الذي يضطلع بالمسؤولية والقرار الفصل.

إن من يمارس الكتابة مثلي، و التي قد تطول مراحل الإبداع فيها أكثر من أية فترة تشريعية، وانشغل بالسياسة مدة عشرين سنة كاملة، يتعوّد على الانتصارات والإخفاقات. في هذا السياق، فإن التراجع لا يعد مفهوماً غريباً عني، إذ إنني أتعامل مع الأمور بحذر، لأن بمقدوري إعطاء مائة سبب قد يمنعني من تجديد ولائي للحزب الاشتراكي الديمقراطي. ومع ذلك، فهناك كلمة رنانة واحدة تدفعني دوماً نحو الأمام؛ نضجت بفضل تميز الفيلسوف إمانويل كانط، إنها المسؤولية التي تجعلني أستمر في عملي هذا. مسؤولية لن يستطيع أحد أن يأخذها، ولا أن ينتزعها مني. مسؤولية قلّدني إياها التاريخ الألماني؛ تجاه كل أمر حاولت أن أسهم فيه حتى يومنا الحاضر، بل أيضاً، المسؤولية المستقبلية التي قد ينوء بحملها أبناؤنا وأحفادنا في المستقبل.

ربما كنت أنا وزيغفريد لنيز وأبرهرت يكل، نستشعر قبل عشرين

عاماً أمـلاً أكبر، لحظة تحديد أهدافنا. كان يبـدو أن مجريات الزمن، آنذاك، تجري وفق رغباتنا. أما اليوم فقد تبدّد الأمل بالنسبة للكثيرين. دفعني هذا إلى مغادرة بلدي الغني والفاقد للأمل، لأحصل على الدعم والتأييد في أماكن أخرى. بسبب سفري إلى الهند وإلى أماكن أخرى، عشت تجارب جعلتني أستمر في عملي المسؤول. هكذا عشت مع زوجتي مدة ستة أشهر في كلكوتا عاصمة غرب البنغال .عاينّا الصراع القائم بين الغنى والفسـاد، والفقر والبؤس. وكما هو الشأن في بلدان أخـرى مـن العالم الثالث، رأينـا في كلكوتا من أيـن يأتي، وكيف يتم تمويـل الرفاهية التي تشـهدها الدول الصناعيـة الغنية. إن من يحصي الاحتياجات الأساسـية لسـكان كلكوتا؛ المتـراوح عددهم بين 4 و5 مليـون، الذين يعيشـون في أحياء عشـوائية، ويقارنها بهَوَسِـنا الأمنيّ ـ أعنـي هنـا التسـلح المفرط ـ فإنه سـيدرك أن مشـكل الفـوارق بين الشـمال والجنوب، يتجاوز الخلاف بين الشرق والغرب، وسيُدخل العالم أجمعه، في فوضًى عارمة.

قـد تسـألونني عـن العناصـر الرابطـة بيـن الفقـر المدقـع فـي الأحياء الهامشـية لكلكوتا، والحملة الانتخابية الراهنة في شليسـفك هولشـتاين. هناك روابط عديدة بين هـذا وذاك؛ حيث الصراعُ المرير الذي يخوضه ملايين سـكان الأحياء الهامشـية، من أجل كسب لقمة العيش، بعيداً عن المعايير الأوروبية، من أجل الانتصار على الظروف القاسـية، ذلك الصـراع هو الذي حملنـي بعد عودتي على اسـتئناف عملي السياسي.

حينما عدت إلى بلدي، وجدت الناس قد أصابتهم الأنانية وحب النفـس، وشـعرت وكأن المجتمـع الألمانـي بـات تحت وقـع تخدير شـامل. وجدت الناس، في شـرقيّ برلين وغربيّها، يقيمون احتفالات بذكرى مرور 750 سنة على تأسيس مدينة برلين؛ كلفت أموالاً باهظة.

مهما بلغت تكاليف ذلك كله، فلن يكون بالإمكان تقديم منتوج ثقافي، بـل على العكس، كان يتم دائما خلق أجـواء ثقافية؛ تبعدنا عن التفكير وإمعـان النظر بالأمـور. هذا النوع من النشـاط الثقافـي يفقد المواطن وعيه، ويصنع منه إنسانًا عاجزاً. منذ وقت ليس بالبعيد، أظهرت فضيحة فليك بجلاء، إلى أي حد أصبحت السياسـة فـي ألمانيا الاتحادية مادة للمسـاومة، وكيف صُنفت الرشوة على أنها جرم الشرفاء. من يتحدث اليوم عن هذا؟

قبل نحو عام، هزّنا، على امتداد بضعة أسـابيع، حادث المفاعل النووي تشـرنوبل الذي حمل معه العديد من العواقب. عند ذلك، تم التمويه سـريعاً، وتحويل أنظار الناس عن هذا الحادث بتنظيم أنشطة جديدة مـن قبل محترفين في تحويل انتبـاه المجتمع. بفضل اختلاق أحداث بديلة، ونشـر أقاويل أطلقت، تـم التلاعب مجدداً باهتمامات غالبيـة الناس داخـل المجتمع. ما تعـداد التحذيرات التي سـتضرب مستقبلاً بِعُرض الحائط؟

حين كنـت أنا وزيغفريد لنيز وأبرهرت يكل قبل 20 عاما نطوف بين أرجاء شليفك هولشتاين من الساحل إلى الساحل بمناسبة الحملة الانتخابيـة الخاصة ببرلمان تلك الولاية، اسـتأثر كل من «ربيع براغ»، وويلات حرب فيتنام بالاهتمام الدولي. ها هو «ربيع براغ» اليوم يعيش ولادة جديـدة بفضل الآمال والتحديـات التي عُلّقت عليه، وأمّا حرب فيتنام بالمقابل، فإنها لـم تتوقف قطّ، وظلت مسـتمرة في أرجاء أخرى من العالـم. كنّا، آنذاك، نعتقد بالمقولة التي تدّعي أن معارك الدفاع عن الحرية في الغرب تجري على أرض فيتنام. وبعد انكشاف هذه الخدعة وغيرها اليوم، بات مؤكـدا أن الانتخابات الخاصة بالبرلمان المحلي، ستجرى يوم 13 أيلول في ولاية شليسفك هولشتاين، وليس في خليج إيران، وسيحسم نتائجها مواطنون متحرّرون في شليسفك هولشتاين.

# خطاب الناشر

**خطاب بمناسبة صدور المجموعة الكاملة لأعمال غراس،**
**احتفاء بعيد ميلاده الستين | تشرين الأول سنة 1987**

أعزائي الناشرين، سواء أولئك القادمون من قريب أو بعيد، ليتجمّعوا اليوم، وبهذه المناسبة، حول كاتبهم لنسترجع معاً شريط أحداث السنوات الأخيرة، وليشهدوا، بأم أعينهم، عناوين الكتب متراصّة؛ جنباً إلى جنب، تحوي ما أساله قلم الكاتب من مداد. لقد صارت عشرة مجلدات كاملة؛ كان أولها، قبل ثلاثين سنة، وهو عبارة عن مجموعة من القصائد والرسوم. حاولت أن أجد ناشراً لهذا الكتاب بالرغم من عدم الاهتمام الذي وُجه به، آنذاك، من قبل الناشر رايفرشايد، هذا الذي ينشر بالدرجة الأولى الكتب القانونية بدأ محاولة ضعيفة بنشر الكتب الأدبية لاحقاً.

وحالاً تمكن كاتبكم هذا من نشر رواية من الحجم الكبير في هذه الدار؛ التي أثارت اهتمام عدد غير قليل من القرّاء. بدأت ومنذ ذلك الحين أرفض طرح أي شروط مسبقة للنشر، وأتعاقد على كل كتاب على حدة. غير أني بدأت، ومنذ أكثر من عشر سنوات، في التعامل وبخبرة مع دور النشر بسبب مخاوف انتابتني حول مستقبل هذه الدور، بمعنى آخر، مستقبل الكتاب الذين يودّون النشر لدى

هذه الدور، لأنه ومهما كانت قيمة اسم دار النشر، فإنها بدون أسماء كتّاب بارزين، تظل خاوية على عروشها.

لقد سعيت، بمعية كتّاب آخرين لدى دور النشر هذه، إلى وضع مقاييس موحّدة تحمي الكتّاب من أي شكل من أشكال الاستغلال؛ حقوق النشر من جهة، ومن جهة ثانية، الناشر، من ارتكاب أية مخالفة. إلا أنه كانت هناك أمثلة سيئة عن حالات تم فيها القضاء على كتّاب كانوا في بداياتهم، بأن حُوّلت حقوق نشر كتبهم من دار نشر إلى أخرى؛ لم تُعرهم أي اهتمام. هناك أناس غير شرفاء سواء بين الناشرين أو الكتّاب. لقد كنت مخطئاً في اعتقادي آنذاك بأن الناشر الذي أتعامل معه غير نزيه.

بعد أن قضيت أكثر من ثلاثين سنة في الكتابة، واعتقدت أني صرت آمناً من أي تلاعب للناشر بسبب العدد غير القليل من الكتب التي نشرتها لديه، وبسبب رغبة رئيس القسم الأدبي في جمع هذه المؤلفات لكثرتها في طبعة شاملة وموحّدة من عشرة أجزاء، بل أكثر من ذلك، تم اختيار الاحتفال بعيد ميلادي الستين كمناسبة للإعلان عن هذا الحدث. بعد هذا كله، أكتشف أن هذا الناشر، الذي اعتقدت أنه انتهازي في السابق، حذف وبشكل سري، بنوداً مهمة من العقد، من غير أنْ يشعر مسبقاً هؤلاء الكتّاب بذلك. تاجَرَ في مؤلفاتهم، بطرق غير شرعية، فخاب ظننا فيه.

هكذا يشهد هؤلاء الكتّاب، ذوو النوايا الطيبة، وبعد أن جُرّدوا من حقوقهم المنصوص عليها في تلك العقود، كيف أن كتبهم وأسماءهم تحوّلت إلى بضاعة مدفوعة الثمن؛ تتنقل ملكيتها من مؤسسة إلى أخرى أكبر. هذه الرغبة في الامتلاك، والخشية من الوقوع تحت ملكية الغير، هو نتاج ما وصلت إليه الرأسمالية.

لم يعد في وسع هؤلاء الكتّاب إلا الصراخ والاحتجاج على

مـا تعرضوا له من نصـب واحتيال. كان الجميع يتسـاءل لماذا يصيح هـؤلاء الكتاب عالياً؟ هـل أصيبوا بأذى ؟ أجل، وفي الأقل بحسـب مـا ورد في الجرائد وتـم الاطلاع عليه من المُـلاك الجدد. الآن فقط علمـت المؤسسـة الهولندية أنها وقعت في الفخ، ليس فقط بشـرائها لدور النشـر تلك، بل لحقوق النشـر أيضاً، الأمر الذي جعل الكتّاب يسـعون حثيثـاً إلـى التخلّص من هـذه الكتب، بغيـة التخلص من أي ارتباط بهذه المؤسسة الهولندية التي تتشبث بالبقاء في الوسط الأدبي مهما كلفها ذلك من ثمن.

إن أصحاب المؤسسة الهولندية سعوا جاهدين، ووفق ما تسمح بـه حـدود مصالحهم، إلى فتح حـوار بين المؤسسـة المالكة لحقوق النشـر سـابقاً، ومعشـر الكتاب الذين يشـعرون بأنهم قـد خُدعوا. ما تـم الاتفاق عليه وتلك الكلمات المعبرة عـن تفهم متبادل التي، وإن خَففـت من أثر الشـعور بالألم والإحباط، هو أنّ مشـكلة البحث عن دار نشـر أدبية بديلة عن سـابقتها تظل قائمة، ذلـك أن الكثير من دور النشر تسابقت على شراء دار النشر لوخت هاند؛ بما فيها حقوق النشر لهـؤلاء الكتّـاب. لا يعقل دفـع كل تلك المبالغ الطائلة في شـراء دار نشـر، من دون حقوق النشـر. ما مصير هؤلاء الكتّاب غير المحميّن بأي شكل من الأشكال؟ يخضعون لمنطق العرض والطلب، من دون أن يكون لهم أي تأثير في ذلك.

هذا ما تم تحقيقه إلى اليوم، لا يزال وللأسـف مُلاك المؤسسـة الهولنديـة الذيـن هم في حقيقة الأمر رجال أعمال وكما في السـابق، يفاوضون في حدود ما تسمح به مصالحهم. إني لا أجد لهذا الخطاب مـن نهاية إيجابيـة أهديها لجمع الناشـرين هنا، لا سـيما لكِ عزيزتي هيلين فولف، بمناسـبة الاحتفاء بصـدور مجموع أعمالي الكاملة في عشرة مجلدات.

# تحديق وتدوين

**في شهر أيلول سنة 1989**

إن أوراق الخريف المتساقطة تحجب آثار الموت البادية على وجه تلك المرأة المحمولة على نقّالة الموت، بوقع خطى متناغم، حُملت على الأكتاف. لفت ناظري مشهد هؤلاء الجالسين القرفصاء على كعوبهم غير آبهين بالزمن. عجيب ذلك التنوع غير المسبوق للهنود في استعمالهم للعمائم. وعجيب تحويلهم بقايا القمامة إلى أشكال ومناظر بديعة. صحراء قاحلة بجانب حيدر آباد؛ كانت قبل خمسين سنة مكسوّة بالأشجار، تعيش داخلها قطعان النمور التي كانت هدفاً مفضلاً للصيد من قبل المستعمرين. على الرأس حملتْ رزمة من الأخشاب؛ تبدوا لناظرها وهي تتمايل وكأنها آيلة للسقوط، قطعت من جذوع أشجار ميتة. المشرّدون يبدون وكأنه ألقي بهم على قارعة الطريق. إن هذه الصور لم تنتج عن محض خيال، بل هي انعكاس لذلك الواقع على صفحات كتاب، كي لا تتعرض للاندثار تحت ضغط الأحداث وتواليها.

إن رسم هذه التخطيطات الموجزة يعني أن تنتقي. إني أدوّن ما يروق لي، ويثيرني ويستفزني أو يستعصي عليّ أمرُ تحويله إلى كلمات. كلمات مشتتة غير منظمة؛ وضعتها على صفحات مذكراتي اليومية، تعكس جميعها التحول الكبير الذي أشهده في حياتي.

تظهر عجزي عن الفهم والاستيعاب، وفي حالة الضرورة بحثي عن المهرب أو المخرج. غالباً ما تدخل الانطباعات ومذكراتي اليومية في ما بينها في حوار مباشر، فتعوزها الدقة ويغيب عنها التركيز، لأن الصورة في الواقع قد تناقض ما يرسم عنها على الورق. هذه الرسوم والكلمات والقصائد التي قد تنتج عن التناقض الحاصل في ما بينها، تشكل جميعها مشروع كتاب؛ لا أزال بصدد التفكير في إنجازه. سيكون عنوان هذا الكتاب إخراج اللسان، وستشكل كلكوتا؛ إحدى كبريات المدن البنغال في الغرب، موضوعه الأساس.

لقد مكثت هناك منذ منتصف أغسطس 1986 إلى آخر كانون الأول 1987. وقد نشأت جُلّ هذه الانطباعات وأنا في كلكوتا سواء أكانت كلمات متفرقة؛ كُتبتْ في عجل، أم نقل صور بتفاصيل وجزئيات. وكأن العناصر المكوّنة لهذه الصورة المكتملة الوجود، شَكّل دائماً الحافز والمرجع لانبعاثها. ناهيك عن الواقع المعيش في البنغال والهند. هذا الواقع يدعو الرسّام ليس فقط إلى احترام مبادئه، بل التحلّي بالصبر أيضاً، لأنه كلما سعى إلى الرسم في مكان معين بوضع أدوات رسمه على الأرض، حتى يجد الناس قد تجمهروا من حوله بدافع الفضول في معرفة ما يجري. لعلهم لن يوافقوا، أبداً، أن تلتقط لهم صور لعدم اقتناعهم بها من جهة، ومن جهة ثانية لكونها تلتقط بسرعة؛ تعكس حالة الضنك التي هم فيها، في حين يمكنهم، في حالة الرسم، تتبع حركات وسكنات أصابعك. لهذا شعرت وأنا في قلب كلكوتا كرسّام بالقبول والطمأنينة، وإنْ كان هذا الشعور يقتصر فقط على المدة التي استغرقها إنجاز هذا الرسم.

إني، بكوني كاتباً، أرغم الرسام، فيّ، على إمعان النظر، بل إعادة إمعان النظر في كل ما قد لا يلفت انتباهي من أول وهلة، لأن دور الصفيح ببيوتها تُعد شاهداً ونُصْباً تذكارياً عن حقبة استعمارية

مضـت. إنهـا ترغب في أن تسـتحوذ على الاهتمام إلـى جانب البقرة المقدسـة ومحـارق الجثث، وسـاكني بيوت تبدو وكأنهـا أنابيب من حجـارة، وأماكن للطهـي نصبت تحت الأشـجار، ناهيك عن هؤلاء المستلقين تحت أسوار البيوت والمصانع من المشردين في كلكوتا، الـذي يطلق عليهم هنا اسـم سـاكني الشـوارع، لأنهـم ممنوعون من دخـول أحياء الصفيـح. هؤلاء أيضاً يريـدون، بدورهم، الاسـتحواذ علـى الاهتمـام. من بوسـعه، اليـوم، الانتباه إلى أوضاعهـم غير تلك الإحصاءات الرسمية.

كائنـات ليلية تعيـش بين واجهـات المحلات ومجـاري المياه الحجريـة. أبقـار تظهر على الصـور. جوز الهنـد الأخضر المجوف، بعـد أن شُـرب وأُكِل ما بداخلـه. بقايا قطع فحم التـقطت من وسـط الرمـاد. فـي كل مكان توجـد فيه جبـال القمامة يوجد مصـدر رزق. داخل هذه النفايات تجد أناسـاً صنّفهم المجتمـع في خانة النفايات، بمعنًـى آخر يشـكلون نفايات مجتمـع لا يزال يأخذ بنظـام الطبقات. وإذا مـا أمعـن النظر طويـلا كما أمعنـت ورسـمت، لا يمكن حجب مدى الظلم والاسـتغلال السـائد هناك، بل أكثر من ذلك، فإن الصبر على هذا الحيف يُعد ضرباً من القداسة.

إن من يجعل الفن غاية له، يبدو كمن يعالج داءً مزمناً بمسكنات. حاولـت بـأدوات التلويـن وبالريشـة، تجنّـب الوقـوع فـي التجريـد والتصـوّف، فـي زمن صار فيـه المثقفون يصرفون النظر عن مشـاكل عصرهـم الحقيقية، بـل يعدّون هذا العـزوف درباً مـن الفضيلة، وأن المعاصرة تقتضي النظر إلى دواخل النفس البشرية. في هذه اللحظة، فقط، يصبح إمعان النظر أمراً ضرورياً.

# تقرير من آلتدوبرن

**خطاب في المجلس النيابي في برلين**
**بمناسبة التحضير لمجلس الأمناء**
**من أجل ألمانيا ديمقراطية ودستورية، في شهر حزيران 1990**

حين توصلت بالدعوة إلى هذا الاجتماع، كنت في حالة لا أستطيع معها التفكير بشكل إيجابي. في أيّة جريدة أتصفّحها، يتم فيها نصب حبل المشنقة. إذا كان يتم، في هذه الجريدة، تفضيل حبال القنب الخشنة كوسيلة مناسبة لذلك، فإنه، في غيرها، تُستعمل حبال من النايلون والألياف. إذا كان نهج الأسلوب المعتدل سمة أسبوعية «دي تسايت»، ففي أعمدة الجرائد اليومية كـ«فرانكفورتار ألجماين تسايتونغ» و«دي فيلت» تمّ تبنّي مواقف أشد قسوة وتطرّفاً. هذا الاستحضار المسبق لطقوس المقصلة، لم تعد تخفى أهدافه على أحد. تارة يقع الاختيار على هذا الكاتب، وتارة أخرى على ذاك، لا سيّما من هؤلاء العاجزين عن النظر إلى أعلى. هذه المرة وقع الاختيار على كريستا فولف التي يجب تصفيتها.

القيام بهذه المهمة كان منوطاً بزمرة من الصحفيين المحترفين في نصب حبال الشَرَك. وهم يتمتعون، في العادة، باللباقة، وبقدرة فائقة على الكتابة. متوسط أعمارهم يتراوح بين أواخر الثلاثينات، ومنتصف الأربعينات،غير أنهم كانوا يفتقدون إلى تلك التجارب

المحصلة من معاصرة إيديولوجيات متعددة. ربما أصابهم بعض من حُمّى أفكار ماو إثر حركة 1968. اتخذوا بعدها لأنفسهم منهجاً بعيداً عن التأثر بأي توجه إيديولوجي. الآن، فقط، يحاكمون كاتبة كبيرة، وما أصدرته من كتب وازنة، لا لشيء إلا لأنها تثير، في هذه الكتب، قضية الوجود العبثي، عاكسة بذلك تلك الحمولة الإيديولوجية التي تزخر بها.

احتاجت كريستا فولف إلى وقت طويل، كي تتخلّص من تأثير الحزب الواحد، الذي كنت أشمئز منه دائماً. بالرغم من هذا الخلاف الحاصل في وجهات النظر بيننا، فإن ذلك لن يحول دون مساندتها. إننا نعلم كيف عُومل الكتّاب ومنذ زمن بعيد في ألمانيا، وكيف أنه استحضرت أدوات محاكمتهم من تقاليد الماضي. إذا ما قُدِّر أن يُسْتَهَلّ مسلسل الوحدة الألمانية بنصب حبال المشانق للكتّاب، فإن هذا المسلسل، لا ريب، سينتهي من دون بقاء أي منهم على قيد الحياة.

بالنظر إلى هذا الموقف المتفرد والمنعزل، آثرت السفر، بعد ذلك بأيام قليلة، باتجاه الشرق، حاملاً معي حقيبة خفيفة. كانت وجهتي تقع بالقرب من الطريق الرابط بين برلين ودرسدن، وبالضبط بين كوتبوس وكالاو، غير بعيد عن زنفتن برغ وفنسترفالد. لا أعلم إذا ما كانت هذه المنطقة الرملية تعني شيئاً لكم؟ عدت، قبل البارحة؛ من هناك، بعدد من الرسوم في محفظة الأوراق. مباشرة خلف مستشفى آلت دوبرن الخاص بالنساء، تتكسر القشرة الأرضية، لكي تتدرج، بما يقارب، ثمانين متراً إلى العمق؛ دون مستوى سطح البحر، لتعكس واقعاً كالقمر؛ يخلو من أي أثر للحياة. يظهر هناك ما يشبه الجبال الناتجة عن المخاريط المجمّعة حول البحيرات، التي تتدرج بعمق،

تقريباً، تحت الأفـق، لتنعدم رؤيتها تحت حجاب الدخان. إن تعدين الفحم الرمادي، لا يخلو منه مكان في لوزيتس.

قالت لي النادلة، وهي امرأة متقدمة في العمر؛ تنحدر من منطقة شـليزين: «سيتم إغلاق هذا المكان قريباً، غير أنه يأمل في الاستمرار سنتين أو ثلاثاً، بفضل ما سيحصل عليه من أموال جديدة». ربما سيأتي إلينـا أحـد من الغرب، في نهايـة المطاف، ليشـتريها جميعاً. لا يوجد أيُّ شـيء في آلتدوبارن يسـتحق الذكر. قبل سنوات تم إغلاق معامل النجـارة، ومنذ مدة قصيـرة، معامل تعبئة زجاجـات البراندي. خلف سـاحة السـوق مباشـرة، أصبحت اللقالق تسـكن مدخنة أحد معامل البيرة سـابقاً. صورة تبعث على المواساة. يُقدَّر عدد سكان آلتدوبارن بزهاء ثلاثة آلاف وخمسـمائة نسمة؛ منهم أكثر من ألف يشتغلون في مجال التعدين بكرايفنهاين، ثمانياً وأربعين سـاعة أسـبوعياً، في نظام يعتمد تناوب سـبعة أفواج؛ يحصل بمقتضـاه كل عامل على ما قيمته ألـف وثلاثمائة مارك ألماني شرقي. إن نسـبة الفحم، من مجموع ما يُسـتخرج، هـو واحد من اثني عشـر. الصخب المنبعـث والناتج عن أعمـال الحفر والتنقيب، إضافة إلى الأصـوات التي تصدرها آلة نقل الركام، تزيد الصمت حدة، عبر تلك الفتحة الواسعة والعميقة.

قبـل الظهيـرة، حيـن جلسـت علـى حافـة الحفرة، وبـدأت في الرسم، توقف، فجأة، تزفيت الطريق إلى بريتسن، وكأنه قضم بشراهة انتفى معها أي شـعور إنسـاني. قرية بريتسـن أصبحت، بدورها، غير موجودة. هذه الصورة المقفرة، صارت وكأنها تعكس واقع جمهورية ألمانيا الديموقراطية؛ ليس الماضي، وحده، مسـؤولاً عن هذا الشلل الاقتصادي، بل تلك الإرادة المستقبلية فـي تكريس التبعية، لأن أي اتفاقية غير عادلة، وإنْ كانت تصبو إلى تحقيق الوحدة، تلقي بظلالها،

ومـن الآن، على البلد وعلى الناس. وبمجرد دخولها حيز التنفيذ، لن تطيـل من أمـد الأعمـال البربرية التي نشـهدها اليوم فحسـب، وإنما سـتضفي عليها نكهة غربيـة. لعلّ القناعات التي سـيتم التوصل إليها لاحقـاً، مـن خـلال النتائج المحصّـل عليهـا، كنهج لسياسـة اقتصاد السـوق، سـتدفع إلى الادّعاء بالقول، وإن كان بصفـة متأخرة: هذا ما لم نكن نرغب في حدوثه.

مـن كان يرغـب في حصـول ذلك كلـه؟ أهو وحده المستشـار كول، بسـبب وعـوده التي لم يفِ بها؟ ألم يكـن الآخرون على عجل مـن أجل تحقيق الوحـدة ؟ من فيلي برانت إلى هانز ديترش غينشـر، كل منهـم كان يعتقـد بأنه مسـؤول تاريخياً. حين تـدور عجلة القطار إلـى الأمـام، لا يمكن العودة بهـا إلى الوراء. يتحدثـون في كل وقت وحين عن تلك اللحظات والسـاعات التاريخية. لم يُستشـر الشـعب الألمانـي، فـي كلتا الدولتين، عن مـدى جاهزيته لتقبـل واقع جديد؛ أملتـه الشـروط المعلنـة لإعـادة الوحـدة. ومـن دون أن يعلـم أفراد الشعب شيئاً عن حقيقة ما يجري، وبسبب غياب معرفة شاملة ووعي تـام بمـا يحدث لـدى البرلمانيين، ومن دون التشـاور مـع حكومات الدول المجاورة، وعلى الضد من كل التحذيرات الصادرة عن البنك المركـزي، تم وضع اللمسـات الأخيرة في مطبخ كول على مشـروع قرار الوحدة. إن المسـؤولية عمّا سيظهر من صعوبات في المستقبل، تقع، بالدرجة الأولى، على عاتق حفيد أدناور، لكونه يريد السير على نهج بسمارك.

الآن، فقط، أسـبوعان قبل تلك الصدمة التي تعرّضَ لها شـعب جمهورية ألمانيا الديمقراطية، من دون تهيُّؤ نفسي، أو تأهيل اقتصادي مسبق، أصبح يتضح، لعموم الناس، شيئاً فشيئاً، أيّ سراب ذاك الذي

اعتقدوا به. أدركوا أي خطأ ارتكبوا بمنح أصواتهم لهؤلاء. ما عُدَّ، ولزمن طويل، خيانة للوطن، خطاب المعارضة الذي ألقاه رئيس وزراء ولاية زارلاند أوسكار لافونتين، والذي شبه فيه كول بذلك القيصر المبهر الهيئة والشكل، الخاوي على عروشه، حين سخر بالقول: إن القيصر عار، إن القيصر عار. إن هذا كله تؤكده الوقائع التي نشهدها يومياً وبوضوح تام، لا سيما في آلتدوبارن.

في طريقي إلى حافة تلك الحفرة، الواقعة في آلتدوبارن، كنت أمرّ دائماً، وعلى نحو يومي، بإحدى المحلات، التي تُسَمَّى بـ«محل الصناعة». هناك تم، ويتم، إجراء المساومات، وطرح المزايدات حول كل منتجات جمهورية ألمانيا الديمقراطية. الأمر نفسه يتكرّر في المحلات الأخرى، إذ يجب إخلاء كل المخازن من محتوياتها في أجل محدد. يجب توفير أماكن جديدة للمنتجات الغربية، والغربية فقط. كان هذا شرط الموردِّين.

معظم منتوجات جمهورية ألمانيا الديمقراطية المعروضة للبيع فقدت قيمتها، هذا يعني أن استراتيجية المبيعات المتبعة من لدن الشركات الغربية، تسعى إلى تلبية رغبات الزبناء. من سترالسوند مروراً بآلتدوبارن، وصولاً إلى بلاون، يتم القضاء على فرص العمل من جهة، بسبب التجاهل الحاصل لكل منتوج محليّ، ومن جهة ثانية التقدير المبالغ فيه لكل بضاعة قادمة من الغرب. إن هذا التخريب المنظم والمنهجي لأسس الاقتصاد المحليّ، الذي سيشهد ابتداء من أول حزيران إرهاصاته الأولى، لا يجد له تسويغًا، مهما بلغت إغراءات تلك المنتوجات الغربية. محصّلة ذلك كله، تظهر جلياً في الارتفاع المتزايد لنسب البطالة. إن جميع شركات جمهورية ألمانيا الديمقراطية التي تعرّضت منتجاتها للمضايقة في السوق، ملزمة،

وبرغم ذلك كله، بدفع الأجور وبعملة المارك. بات إعلان إفلاس هذه الشركات وابتداءً من أول حزيران مسألة وقت فقط.

هذا هو ما يطلق عليه اسم اقتصاد السوق الذي لا يزال يتشدّق بكونه يراعي الجوانب الاجتماعية. واحدة من اثنتين؛ من مجموع الحانات في آلتدوبارن، تقدم اليوم فقط البيرة البافارية. وبعبارة أدق بيرة بشور، بيرة القمح المُخَمَّرَة طبيعياً. قامت شركة هاكر- بشور، بميونيخ بتزويد الحانات بجملة تجهيزات منها: قطع مستديرة توضع عليها كؤوس البيرة، وقوائم بأسماء وأثمنة المأكولات والمشروبات المعروضة، ناهيك عن الاكسسوارات المزخرفة لتزيين المكان. مقابل هذه الخدمة، يلتزم صاحب الحانة بعدم تقديم أي صنف من أصناف البيرة المنتجة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. ما المقصود، هنا، إذن، بالمنافسة؟ الجودة وحدها، هي من تفرض جدارتها في نهاية المطاف.

عقلية قطّاع الطرق هذه، تمكّننا من قراءة مستقبل التنمية بجمهورية ألمانيا الديمقراطية. لا تشكل جمهورية ألمانيا الديمقراطية، في المقام الأول، سوى سوق مربح في المنطقة الشرقية بالنسبة لكبريات الشركات الغربية. أصبح لهذه الشركات فروع؛ تغطي كل أرجاء البلاد، فعلى سبيل المثال، نزل بفندق «لوزيتس» في مدينة كوتبوس، عدد من وكلاء الشركات الغربية، من أجل إبرام صفقات جديدة. يبحثون طولَ ساعات النهار عن صفقة هنا، أو صفقة هناك. ولشدة المنافسة، تظل كل الخطوط الهاتفية مشغولة طوال المساء. تتزايد الرغبة في الظفر بإحدى الصفقات التجارية. أمّا الحديث عن استثمارات فعلية تخدم السكان، فيكون دائماً نادراً. إنهم يفضّلون التريّث والانتظار، وإن كنت لا أدري، ماذا ينتظرون؟

وبعبارة أخرى: حين أنظر من على حافة حفرة، ومن إحدى ضواحي مدينة آلتدوبارن، إلى مرتفعات الفحم الرمادي، هذه النظرة إلى ذلك الجرح المفتوح، الذي يأبى أن يلتئم، لأنه تم، وببساطة، خفض المياه الجوفية إلى مستويات متدنية قبيل الحفر. منذ ذلك الوقت تعاني المنطقة، برمّتها، قلة الموارد المائية. إن تأملي العميق في العواقب الناتجة عن نهج سياسات اقتصادية خاطئة، جعلني أعتقد، موقتاً، بأن كل القرارات الجديدة والقادمة، ستواصل التدمير الممنهج لكل البنى المخالفة، وإنْ كان ذلك سوف يتم تحت مسميات أخرى، حتى وإن ادّعى عمدة بلدية آلتدوبارن، المتفائل دوماً، بالقول: لعله في يوم من الأيام، سوف تصبح تلك الجبال من الركام، مكسوّة بغطاء نباتي أخضر، وستتحول الحفر إلى بحيرات جميلة تعكس صورة تلك الجبال الخضراء. هذا يتطلب بطبيعة الحال بعض الوقت، استطرد قائلاً: لكن في السنوات الثلاثين المقبلة، سوف يصبح ذلك ممكن الحصول.

برغم تمنياتي الصادقة والخالصة لكل سكان آلتدوبارن بعموم الخير والرخاء، لا يزال يجرى الحديث، هنا في برلين، عن مخططات ومشاريع تهدف إلى ابتلاع كل جسم قائم، سواء في الحاضر أو المستقبل. المكان، تحت قبة البرلمان، و16 حزيران هو التاريخ المحدد، للدعوة المقدمة من مجلس الأمناء، لجعل ألمانيا دولة دستورية ديموقراطية، إلى المواطنين من الدولتين الألمانيتين طلباً للمشورة وإبداء للرأي. أسباب هذه الدعوة، ترجع، بالأساس، ليس، فقط، إلى تلك التخوفات الاقتصادية،لأنه وبالنظر إلى الوتيرة المتسارعة، التي تمّت، على وفقها، معاملة جمهورية ألمانيا الديمقراطية، بل إلى ضرب كل القيم الديموقراطية عُرض الحائط .

لم تكد تمضي نصف سنة على ذلك، حتى عرض السيد كول برنامجاً من عشر نقاط. شيئاً فشيئاً حاول جرّ أوروبا إلى تحمل جانب من تكاليف الوحدة، وإعادة الإعمار. كانت هناك عبارة شهيرة يردّدها فيلي برانت بعد الانتهاء من أي خطاب، وقبل بداية أي خطاب، مفادها: سننمو سوياً ما دمنا جنباً إلى جنب. بقدرة قادر، لم تعد هذه النقاط العشر ضمن أولويات جدول المستشار كول. أي إصلاح هذا، الذي تم بسرعة وسطحية، وبإيعاز من وزيري الاقتصاد هاوسمان وبول، ووزيري الداخلية شويبلا وديستل. بناءً عليه، أصبح جلياً أن المائدة المستديرة التي عُقدت من أجل وضع مشروع دستور جديد، قد ألقي بتوصياتها في سلة المهملات. كان هذا المشروع يهدف إلى إضفاء الشرعية على جمهورية ألمانيا الديموقراطية، وجعلها شريكاً في المفاوضات على قدم المساواة مع الطرف الآخر.

مرة أخرى وبعجل تمّ حسم كل شيء. لأي شيء تصلح، إذن، المادة 23؟ هذه المادة وُضِعت لنوظفها لتعطيل المادة الأخيرة من القانون الأساس لجمهورية ألمانيا الاتحادية، لأن هذه المادة الأخيرة، تلزم الألمان، إذا ما أرادوا تحقيق الوحدة، بصياغة دستور جديد ديموقراطي. مثلما تم، ومنذ البداية، تمرير اتفاقية الوحدة على الهيئات الديموقراطية، ينبغي الاعتماد على مقتضيات المادة 23، لتجنّب صياغة دستور جديد. حظي هذا الحل التحايلي السريع، بالقبول والتأييد، فلم تعد للمقاومة من فائدة تذكر.

مساهمتي في هذا اللقاء، وهذا الجمع التأسيسي، تقتصر علي عرض لمقترحات العمل، حتى وإنْ كنت أعلم أن أي تغيير أو تأثير في ما يحدث قد بات ضئيلاً، لأن خرق الدستور قد تم بمجرد حصول تجاهل المادة 146، وعدم العمل على تفعيلها. ما ينبغي الآن فعله،

هو إعداد مذكرة بمطالبنا الدستورية، وعند الاقتضاء، رفعها لدى المحكمة الدستورية. لن أدعم هذه الوحدة الألمانية، التي تقوم على خرق الدستور.

إن من يستغل المادة 23 متخذاً منها تفويضاً قانونياً، يجب أن لا يستغرب إذا ما أعاد التاريخ نفسه من جديد. هذا التاريخ يحذّرنا من مغبة عدم أخد المادة الأخيرة من القانون الأساسي على محمل الجد، وعدم الاستهانة بالمطالب الداعية إلى تشكيل لجان تسهر على وضع مشروع دستور معدّل وجديد؛ ينال الاعتراف والشرعية من لدن كل المواطنين، سواء هنا أم هناك. إن ما توصلت إليه اللجنة الدستورية من نتائج، يجب أن يُعرض للاستفتاء لدى فئات الشعب. لعلّها الفرصة الوحيدة المتبقية لجعل الوحدة الألمانية، لا تقوم فقط على سيادة المارك الألماني، وإنما أيضاً على مؤسسات ديموقراطية صُلبة.

تم اختيار الموعد بعناية فائقة. إن ما عُرف بانتفاضة العمال في 16 و17 حزيران 1953، والتي انتهت وقتها إلى الفشل، كُلّلت لاحقاً بالنجاح في تشرين الأول وتشرين الثاني 1989. لقد تمت الإطاحة بالنظم اللاديموقراطية. كانت الكلمة الأخيرة للشعب وللشعب فقط. صار من جديد لكلمة الحرية معنى. إذا قدر لهذه الحرية المثيرة للجدل، أن تجد طريقها إلى نصوص الدستور الجديد، لكي نجعل من جمهورية ألمانيا الغربية، وجمهورية ألمانيا الديموقراطية، اتحاداً للولايات الألمانية، فسنعكس، حينها، التنّوع الفيدرالي الذي نتميّز به. لا نريد أن نكون، بعد اليوم، مصدر خوف وقلق للآخرين.

# الصورة المُنتهكة

**خطاب بقصر بيلفو في برلين آذار 1991**

أعلـم أنه لا يمكن وصف اللوحات إلا بشـكل تقريبي، وأنه من الصعـب أن يجـد المرء دائمـاً العبارات المناسـبة، لا سـيما إذا تعلق الأمـر بلوحة تمّت إشـانتها علنيـاً. إنها لوحة بعـرض ثمانية، وارتفاع يناهـز أربعـة أمتار؛ يتداخل فيهـا الفضاء الخارجـي والداخلي. تتجه كل الأشـكال سـواء أكانت لإنسـان أم لحيوانات، نحـو إطار اللوحة كمـا لو أنهـا تريد ~~إتلافها~~ والخـروج منها. يظهر فـي الفضاء الداخلي والخارجـي مصبـاح بضـوء خفيف، كما لـو أن المصبـاح الكهربائي لـم يكن كافياً لإظهار الحدث. وسـط اللوحة، تطل من النافذة سـيدة بـذراع طويـل يحمـل المصباح الزيتي، في سـعي منها لإلقـاء الضوء علـى مجريـات الأمور بـكل تفاصيلها: حصـان هائج يصهـل، وثور عديم الحركة مرفوع الرأس. في وضع كمن يسـتجدي العون، قفزت فتـاة ملؤها الذعر والخوف. في جانبٍ آخر، نـرى امرأة تصرخ رافعة يديها إلى السـماء. فارس يمسك باقة ورد بقبضة يده اليمنى وهو آيل للسقوط من على صهوة فرسه. يسيطر على اللوحة عنف خفي مندفع مـن الخارج. هل وُضِع الفارس علـى الأرض بمحاذاة إطار اللوحة، وصراخ المرأتين يمين ويسـار اللوحة، وهما متجهتان بناظريهما إلى السماء. من أين يأتي، إذن، كل ذلك العنف الخفي؟

أراني أتساءل عما حدث حتى يتم اختيار تلك اللوحة التي ليست إلا سواداً في سواد، كلوحة القرن، بالنظر إلى الأحداث المؤلمة التي يعرفها العالم الحاضر. أين هم الجناة، لأن اللوحة لا تظهر سوى الضحايا؟ الجميع يصرخ: الضوء الكهربائي، والبشر، وكذلك الحصان. يرمز إلى الألم. فقط الثور يبقى صامتاً حتى يعلو الصراخ. وهكذا يجب أن يكون اسم هذه اللوحة، الم يكن اسمها غيرنيكا.

رأيت تلك اللوحة مرات متعددة حينما كانت منفية إلى جانب قطع فنية أخرى في متحف الفنون المعاصرة في نيويورك (لم تكن هناك إلا لوحة تريبتيخون للرسّام ماكس بكمان في القاعة المجاورة، التي تظهر مشاهد مشابهة؛ ترمز إلى التقارب الحاصل بين العملين وبين الفنان الألماني والفنان الإسباني).

عادت لوحة بيكاسو غيرنيكا إلى الوطن، وهي الآن موضوعة على مسافة غير بعيدة من متحف برادو، وإنْ كانت تُعدّ ضمن ممتلكاته، إنها توجد على مقربة من «اللوحات السوداء» لـ غويا. تُعْرَض اللوحة في بناية تم فيها إنجاز الدراسات والتصميمات الخاصة بهذا العمل الفني، الذي وضع للمعاينة في قاعة ذات مكيف، وزجاج واقٍ لصدّ أي هجمات سطو محتملة.

كان بابلو بيكاسو قد بدأ بالأعمال التمهيدية عام 1937 بعيداً عن الحرب الأهلية التي كانت تدور في بلاده، ولكن بُعْده هذا، لم يكن إلا ذا طابع جغرافي. خلال الصيف تم عرض نتيجة ذلك الجهد، أمام الجمهور في الرواق الإسباني، بمعرض باريس الدولي. خلال فصل الشتاء الأول من حرب عام 1936 كان قد صدر الأمر من قبل حكومة الجمهوريين، بإكراء قاعة كبيرة، بإمكانها احتضان لوحة من الحجم

الكبيـر. بقيت القاعة مغلقة إلى أن جاء خبر خلال فترة الحرب؛ ألهم بيكاسو رسم تلك اللوحة.

تقـع المدينة الصغيـرة، التي كانت يوماً عاصمة إقليم الباسـك، بمحـاذاة البحـر، لغيـر بعيـدة عـن مدينـة بيلبـاو. فـي 26 من نيسـان 1936 تـم قصـف غيرنيـكا لمـدة طويلة اسـتمرت من نهايـة الظهيرة حتى المسـاء. كانت الطائرات، التي أنجبتهـا تكنولوجيا الحرب قبل الحـرب العالميـة الثانيـة تحمـل قنابل من نـوع «هينـكل 3 وويونكر 52 وجونكيـرس 52»، ألقتها علـى المدينة. تم إلقاء قنابل انشـطارية وأخـرى مُحرِقة بوزن خمس مئة كيلو، وتمّـت تجربة طائرات حربية قامت بمهاجِمَة مساحات شاسعة.

كان يوم إثنين، وهو يوم السـوق الذي يعجّ خلاله وسط المدينة بالحركـة. مـع سـقوط أولـى القنابل، عمّـت الفوضـى والخوف كل مـكان، وقامـت بعدهـا طواقـم الطائـرات بمهاجمـة النـاس الفارين بوسـاطة الأسـلحة الرشاشـة. خلـف الهجوم مصرع 1654، و جرح 889 شخصاً من سكان غيرنيكا الـ 7000.

لـم يكن مـن هذا وذاك وانما مـن طائرات ألمانيـة ألقت طواقم ألمانية قنابل من صنع الماني. المسـؤل عن هذا الهجوم الإرهابي هو الكتيبة الألـمانية «كوندور» التي هي من بين الوحدات الخاصة.

مع ذلك كله، لا تحمل اللوحة إشـارات الكراهية ضد الألمان، وتُجاه الجنرال الانقلابي فرانكو الذي انقض حزبه على الجمهورية. إن تأثر الرسّام جاء بشكل آخر، إذ إنه لم يرسم صورة عدائية. لا يجد المرء في اللوحة أي رمز مباشر أو غير مباشر؛ يشير بإصبع الاتهام إلى الفاشية، أو إلى الجناة الألمان. اكتفى هذا الفنان بنقل صورة الضحايا وصراخهم ومعاناتهم، لأن ذلك هو ما كان يهدف إليه فنه في محاولة للفت أسماع وأنظار العالم، لكن العالم لم يُعر الحدث أي اهتمام.

حين عُرضت لوحة غيرنيكا في رواق المعرض الدولي للجمهورية الإسبانية، انقسمت مواقف اليسار واليمين حيالها، في حين تحدثت الأقلية عن القيمة الفنية. احتفظت لوحة بيكاسو، غيرنيكا بموقعها المتميّز في ساحة الفن الحديث تماماً، كما كانت رائدة خلال فترة عرضها، غير أنها وقعت ضحية تفسيرات خاطئة لعكسها تلك الصورة المُشينة لواقع العالم. بين هذا وذاك، استطاعت اللوحة أن تحافظ على قيمتها، من دون الاعتماد على أي زجاج واقٍ يحميها.

نهاية أيلول 1990 قامت كلٌّ من مجلة غونغ، وشتيرن، ودير شبيغل، بإعادة تشكيل اللوحة بشكل تقني متميّز، صاحَبَ ذلك نصّ تعليقي. حدث هذا قبل بضعة أيام من إعلان الوحدة الألمانية، وقبيل دقّ الأجراس، كتب، بخط بارز، تحت الجزء الأيمن للصورة، في أربعة أسطر منفصلة كعنوان افتتاحي: «الصور العدائية هي آباء الحرب». كان العمود الصحفي يمين الصورة يمدح الجيش الألماني الاتحادي، مقدّماً إيّاه كصاحب المقال. وأعلن الجيش الألماني، بختم توقيعه المميز، أنه هو من موّل هذا الإعلان، عن طريق أموال دافعي الضرائب.

وإذ حاول النص المُعلن، الإشارة إلى السبب والنتيجة المتجلية في العنوان، زعم الجيش الألماني، من عبر ثلاثة وعشرين سطراً، أنْ ليس لديه أية صور عدائية، وأن تلك الصور أدوات تستخدمها الأنظمة الشمولية، إن هذه الأنظمة تقدم صوراً سيّئة للعدو بغية تسويغ سقوط الضحايا.

يشير باقي النص إلى الخطر الذي يشكله انتشار الصور العدائية في إشعال فتيل الحروب، كما يعرض فضائل الجيش الألماني الذي

لم يُسوّغ وظيفته، قط، بالصور العدائية: «إن السؤال الذي نثيره، قبل كل عملية، هو لماذا وليس ضد من؟» يعدّد النص، بعد ذلك، كل ما يدخل تحت واجبات الجيش الألماني الأساسية، قبل أن ينتقل لتقديم تعريف له: «إنه ضمانة من التقلبات التي ليس بمقدور أحد التنبُّؤ بها». قد يظن المرء، من خلال ما تقدم، أن الجيش الألماني هو فرع من فروع مؤسسة التأمين على الحياة «لا سيّما أن النص المعلن يحمل في طياته عدداً من العناصر المانحة للثقة».

لا نجد ولو سطراً واحداً يشرح لمَ تم استخدام لوحة بيكاسو غيرنيكا كصورة عدائية في هذا الإعلان. تم تجاهل حتى المناسبة التي أدت إلى نشأة اللوحة التي لم تشر مباشرة إلى العدو بأصابع الاتهام، واكتفت، فقط، بتصوير معاناة الضحية. إن الصمت يوازي الكذب الذي يخفي حقيقة الطيارين الألمان، والقنابل والطائرات والأسلحة الرشاشة الألمانية التي دمرت المدينة الباسكية جيرنيكا، ووضعت حدّاً لحياة 1654 من سكانها. لا نعثر ولو على إشارة هامشية واحدة؛ تفصح عن اسم المنظمة الإجرامية كتيبة كوندور. على العكس من ذلك، تم تقديم فكرة مُشينة عن العمل الفني المتميز لبيكاسو، ومن أجل ذلك ساهم الجيش الألماني في تمرير صورة عدائية ضد هذا العمل؛ تم فيها استخدام أبشع الطرق التي كانت سائدة إبّان الحقبة الفاشية والستالينية.

كُتب بخط رقيق، يسار الجانب الأسفل للصورة، اسم الرسّام، إضافة إلى إشارة جميع الحقوق محفوظة، من قبل مؤسسة استغلال الأعمال الفنية الموجودة في بون. من المحتمل أن يكون ورثة بيكاسو حصلوا على عائدات مادية نظير استغلال أعماله الفنية، غير أنهم لم يدركوا حتماً، أن المال الذي تلقّوه هو ثمن هذا الإعلان

لأنهم لا يعلمون ذلك. وددت لو كان بإمكاني إخبار الورثة عن طريق مكتب للمحاماة بمدينة هامبورغ بالموضوع، لا سيّما أنه لم تكن لديّ حجج دامغة لإدانة الفاعل. كُتب تحت النص الإشهاري اسم وعنوان الجهة الواجب الاتصال بها، للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص الموضوع.

كان العنوان المشار إليه أمراً شكليّاً فقط. لم أجد نقداً لذلك النص الإشهاري إلا من مجلة الفن. لم تحرك جمعية الفنانين الألمان، ولا فرع الفنون الجميلة لأكاديمية برلين، ولا حتى البرلمان الألماني، ساكنًا حيال المشينة التي تعرَّضت لها لوحة بيكاسو. في ظل هذه اللامبالاة، قمت بالتعبير عن احتجاجي على مدى ستة أشهر، وأنا أعلم أن هناك فرصة أفضل تنتظرني في مكان آخر مع غونتر دي بروين.

قبل عام ونصف، حينما كانت ألمانيا الديمقراطية في أوج قوتها، جاءتني دعوة من رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية. تسارعت الأحداث بشكل لم تعد تسعه كتب التاريخ. وعلى الرغم من توحّد شطري ألمانيا من الناحية السياسية، تزايدت الفوارق الاجتماعية بين الألمان. شعر مواطنو ألمانيا الشرقية سابقاً، بالتهميش وعدم الاهتمام من قبل المنتخبين. مع اندلاع أزمة الخليج التي انتهت إلى نشوب الحرب، اتضح الوجه الآخر للسياسة الألمانية الداعية لنشر السلم. حينها أدركنا حجم المسؤولية التي تتحملها الشركات الألمانية في بيع الأسلحة للعراق. كان ذلك تحت غطاء ومباركة وبضمانات من الحكومة الاتحادية في بون.

قد يتساءل المرء عن الجدوى من تلك الصورة العدائية المتقادمة التي نشرها الجيش قبل نصف عام، علماً أن الوزارة الوصيّة مثقلة بالعيوب. من يكترث للمشينة التي تعرّضت لها هذه اللوحة

الفنيــة؟ من يهتم لمصرع 1654 من سـكان مدينـة غيرنيكا؟ إنَّ الأمر، برُمّتـه، يدعو إلى إبداء التحفّظ، وتوجيه اللوم إلى إدارة الجيش، لأنه يُعدّ فضيحة كبرى.

تبين لي أن التاريخ قد تجاوز هذا النوع من التواصل، لا سيّما أن التهمة، التي ألصقت بي، كمدافع عن الأخلاقيات ومنذ عهد هاينرش بول، جعلتني، أطالب بإدراج حق جديد من حقوق الإنسان؛ ألا وهو حق الإنسـان تُجاه معرفة أحـداث الماضي. طرحت هـذا الموضوع المثيـر للجـدل علـى مضيفي السـيد الرئيس تحـت عنـوان «اللوحة المُشينة»، لثقتي بموقفه الذي عبّر عنه في خطاباته الكثيرة؛ بأن ألمانيا لن تتنصّل من مسؤولياتها تجاه ما حدث في الماضي.

إنه يعي جيداً ماذا تعنيه غيرنيكا، لا سيّما أن جيله وجيلي عايشا آثارها. وقف بوجه الأصوات المنادية بنسيان الأمر، وعمل، من خلال منصبـه، على إحياء الذاكـرة الجماعية للأجيال الحالية بمسـؤولياتها تجـاه الماضي. إني أشـعر بمـدى صعوبـة المهمة التـي تنتظره، لأن دعوتي هذه، قد تثير الجدل، وأيّ تصريح يصدر عنه له وقع كبير.

إن وزير الدفاع مسـؤول، مسـؤولية مباشرة، عن نشر هذا النص المعلن. إنه يضر بوحدات الجيش على مستوى ما يقوم به هذا الأخير من خدمات. علماً أن الجيش تورّط في حرب تجاوزت آثارها السلبية التوقّعـات، وبلـغ ضحاياها عـدداً كبيراً. لا يمكن محـو الضرر الذي سببه هذا النص الإشهاري. إنه أمر غير مقبول. إنني أدعو سيادة رئيس الجمهورية ريتشـارد فون فايزسـيكر أن يطلب من وزير الدفاع تقديم الاعتـذار لسـكان مدينـة غيرنيـكا. لا أنتظر الشـيء الكثير من السـيد الوزيـر، ولا حتـى تقديم اسـتقالته، بل كل ما آمله هـو أن يضطلع كل مسؤول سام في الدولة بمسؤوليته.

# صور ماكس الثنائية

**نيسان سنة 1991**

الصورة المزدوجة لماكس، هذا هو اسم اللوحة التي نتجت في منتصف السبعينيات. حاولت، قبل ذلك وعلى عجل، وضع خطط مسبقة لرسم ماكس فريش، لأنني، وببساطة، لم أكن أتوقّع كيف ستكون ردّة فعله عند رؤيتها. ربما سعى إلى تقديم صورة عن نفسه، قد تخالف تماماً الصورة التي رسمتها له. وعلى غرار التخطيط، حاولت التركيز في اللوحة على مثلث العينين والأنف والفم. أبرزت شكل النظارات الموضوعة على عينيه، بغية إخفاء بعض من ملامح وجهه. حتى ذلك الغليون في فمه، سخّرته ليحجب شكل أنفه الحقيقي.

إنها جملة تدابير اتخذت، من أجل جعل صاحب الصورة، بعيداً عن الإدراك. سعيت في آن واحد، تارة لإظهار ملامحه، وتارة أخرى لحجبها. باءت جميع محاولاتي بالفشل، إذ أجبرتني هذه اللوحة المبهمة على الإمعان والتأمل، وألهمتني، من ثـَمَّ، أفكارًا جديدة لتطويرها. ولكي أحدد هويته الحقيقية، وضعت إلى جانب الغليون الذي كان في فمه، غليونًا آخر. لما أقام ماكس فريش، ولفترة بإحدى ضواحي برلين، زارني في مشغلي. ما إن اكتشف صورته؛

ومـن الوهلـة الأولى على إحدى اللوحات، حتـى التزم الصمت ولم يعلّق. التقينا بعد ذلك بأحد المطاعم، أكلنا وشربنا وتحدثنا طويلاً.

كانـت هناك شـروط معروفـة للتعامل مع الأصدقـاء، حين تثار أسـئلة للنقاش، يؤرّقنـا أمر إجابتها. ظـل، وإلى مماتـه، وبالرغم من إيمانه العميق والخالص بمبادئ الديمقراطية، يتكلم على الديمقراطية كإشـكالية قابلـة للنقـاش والخـلاف، لأنهـا أصبحت اليـوم منظومة جامدة ومغلقة؛ تفتقر لأسـباب التطور، واستشـراف المسـتقبل. إنها صارت عاجزة عن حل إشكاليات واقعنا الملحّة.

في منتصف الخمسـينيات، التقيـت بماكس فريش في زيوريخ، كنت آنذاك لم أتجاوز السادسـة والعشرين من عمري. اتسمت بشيء من الجرأة وأنا أقرأ أمامه مشاهد من نصوص مسرحية. لأنه حاورني، بعـد ذلـك، فأيقنـت بأنـه لم يسـتصغرني. شـعرت بـأن فارق السـن والتجربة بيننا قد تلاشـى. أظهر احتراماً وتجاوباً مع كل نقد عرضته. ربما كانت الرغبة في إشـباع ذلك الفضـول المتبادل في معرفة ماهية بعضنا البعض، هي من سهّل علي الأمر. لقد استطعت، ولفترة قصيرة، الاقتراب منه واللقـاء به، وإنْ ظلّ إمكان حدوث خلاف في وجهات النظر، بيننـا، أمراً وارداً. في مدينتي بيرزونا وزوريخ، كانت أسـاليب الحياة السويسرية بالنسبة لشخص كماكس فريش صعبة التحمل، في حين حظِي، في برلين، بقسط من الراحة والسكينة، من دون أن تفارق مخيلته صورة موطنه. شـكلت هذه المدن مهربـاً يلجأ إليه. كان دائم الترحال؛ ينتابه شعور مَنْ أبعد كرهاً عن موطنه.

هكذا يصبح لماكس صورتان؛ الصورة الأولى بتنا نعرفها بفضل مـا قدّمه لنا من نتاجـات: صلابته، كتاباته المتنـوّرة، نقده لمعاصريه، كتبـه التـي اسـتفزت كل الأجيـال. أما صورتـه الثانيـة المتخفية وراء

قناع مسرحي، فتظهر لنا ملامحها بين الفينة والأخرى. يحلم في اليقظة، ينتفض فجأة كمن يريد تحطيم كل شيء من حوله. يشعرك بصداقته، من دون أن يعبّر عن ذلك مباشرة. تجده إلى جانبك أوقات الشدة، يصغي إليك. لن أعدو الحقيقة، إذا ما زعمت بأنه لم يكن لأحد القدرة على التحلّي بذلك الصبر، وبتلك الرأفة تجاه مصاب الروائي أوفه يونزون، كماكس فريش. أما أنا، فقد وجه إليَّ نصيحة، من خلال خطاب، ضمّنه نصائح لآخرين غيري. أبدى هذه النصيحة بجمل متقطعة، وبلغة متلعثمة، اضطر معها أن يعيد النصيحة مرات عديدة: ليس المهم أن تصبح في المستقبل حكيماً، بل الأهم أن تظل دوماً حانقاً.

## حلمي عن أوروبا

**خطاب بمناسبة المعرض الدولي المرتقب في مدينة إشبيلية شهر نيسان 1992**

قبل ما يزيد على خمس سنوات؛ حين كنت، أنا وزوجتي، نقيم بإقليم البنجاب الهندي، كان يروق لي الجلوس بين الفينة والأخرى على تلك الكراسي الإنجليزية التي ورثت عن الحقبة الاستعمارية، كانت رمزاً للبذخ والعجرفة. حين أجلس في وضع معين، تنتابني مشاعر متداخلة بسبب انتسابي إلى أوروبا من جهة، وتفوّقي ومسؤوليتي عمّا يجري، من جهة أخرى.

عُدّ كوربتشوف، آنذاك، أول من بثّ الأمل في تشييد صرح «البيت الأوروبي». لما كنا، مرّة، في دار الضيافة التابع لجامعة تاغور شنتنكتان، وهو بناء شيد زمن الإصلاحات؛ يبث اليأس في النفوس، التقينا بمدرسة للغة من البلطيق، وبعالم روسي من منطقة الأورال. وبعيداً عن قارتنا المنقسمة والخاضعة لمراقبة قوتين عظميين، تحدث بعضنا مع البعض، بوصفنا أوربيين، حول مآسي الحياة اليومية في الهند التي يحتار الإنسان عندها، فشكل ذلك مناسبة؛ تقارَبْنا فيها بشكل غير متوقع، بالنظر إلى البلدان التي ننحدر منها.

أوروبا رمز المستقبل، أوروبا كعالم لا يُرى إلا من الخارج،

أوروبا كساحة تتبارى فيها الأفكار وتمنح لأبنائها فرصة التألق بفضل ابتكاراتهـم و إنجازاتهـم، أوروبا مقابل بقية العالـم. موضوع لم يعد يبعـث علـى الارتياح، كما هو الشـأن بالنسـبة للصورة التي رسـمتها الكراسـي الإنجليزية المتبقية عن الحقبْة الاسـتعمارية. لهذا السبب، أنا اليوم أتحدث إليكم سيداتي سادتي، من موقع لا يعكس الارتياح، حيـث إن كل مـا كان يبدو ثابتاً ومؤكداً فـي الماضي، أصبح اليوم في مهب الريح، وآيلاً للسقوط.

مؤكد أن بعضكم اليوم يشـاطرني ذلك الحنين الذي ينتابنا، من وقت لآخر، نحو الكتب التي أثارت، في ما مضى، شغف الشباب من القـرّاء. كنا نرى أنفسـنا في نقطة البداية، غيـر مرتبطين بأية مواعيد أو دعوات لحضور المؤتمرات المهمة. لقد خالجني، مؤخراً، الشـعور نفسـه حيـن قرأت كتاباً للكاتب الإسـباني ميجيـل دي أُنامونو، الذي كان، فـي آنٍ واحـد، أوروبياً وباسـكياً فـي روايته المسـلية والحزينة المسـمّاة «الضبـاب». كان أنامونو يتلاعب بالقصـة كصنف أدبي، إذ اقتـرح علـى النقاد الضالعيـن مفهوماً جديـداً للقصـة. فحين لا يجد نفسـه قادراً على الالتزام بقواعد القصة الكلاسيكية، يلجأ إلى صنف الأقصوصة المبتكر والمجهول لدى القرّاء.

ها أنا أحاول تحاشـي الموضوع المطروح أمامي على الشـاكلة نفسـها، لأنني لا أرى نفسـي قـادراً على إيفائـه حقه، ذلـك أن البعد الأوروبـي يمنحنـي هالـة كبرى. فـي الحقيقة أعددت هـذا الخطاب تحت عنوان «حلمـي بأوروبا»،غير أنني حين ألقي نظرة على خريطة العالم، أجد نفسـي أتبنّى ستراتيجية أنامونو في اعتماد صيغة التصغير السـاخرة التـي تضفي على الخطـاب صبغة إنسـانية. بالرغم من هذا كله، قد يكون النجاح حليفي في سرد «حلمي عن أوروبا الصغيرة».

إني أحبّذ صيغة التصغير، لأنها لا تضفي على الأشياء تلك الهالة الكبرى. ربما سيكون العالم في وضع أفضل، إذا ما اعتمد صيغة التصغير كعلاج لأسقامه. لهذا سأتحدث هنا عن أوروبا الصغيرة. وإذا سمح لي أن أصف بلدي ألمانيا الذي عظم شأنه في نظري، في الآونة الأخيرة، بصغيرتي ألمانيا، فإن صيغة التصغير هذه، قد تروق الدول المجاورة لحدودنا. بل أكثر من ذلك، إن صيغة التصغير، تحمل معها القدرة على التخفيف من ثقل الوقائع في هذا البلد، وفي هذه المدينة التي حصد فيها المواطنون ثلاث هزائم. إن أجندة اليوم حافلة بتظاهرات كبرى؛ قد تحول دون اعتماد صيغة التصغير.

تأتي الألعاب الأولمبية، التي ستنظم في برشلونة، على رأس تلك التظاهرات الدولية، التي يُنتظر، خلالها، الاحتفاء بالأرقام القياسية التي سيتم تحطيمها، اللهم إلا إذا تم عكس الصورة، بمنح الميداليات الذهبية والفضية والنحاسية إلى الرياضيين الذين سيحتلون المراتب الأخيرة. إنها صورة عكسية تتماشى مع نظرة أنامونو وتخدم أوروبا في المستقبل.

لعل الاحتفال الذي سيقام هذه السنة، بمناسبة اكتشاف أمريكا من طرف كريستوف كولمبوس، هي أكثر التظاهرات إثارة للجدل. إن هذا الاكتشاف، إذا ما تم فعلاً، لن يترك مجالاً لاستخدام صيغة التصغير بالنظر إلى المخلفات السلبية التي جاء بها، من قبيل إبادة الشعوب، والقضاء على حضارات عريقة، وسلب العبيد حريتهم. هل هناك من سبب يدعو إلى الاحتفال في ظل هذه الحقائق!

على العكس من ذلك، فإن الوقت قد حان كي يتم إمعان النظر في هذا العار الإسباني، بل الأوروبي أيضاً، لا سيما أن أوروبا، اليوم، تتصرف بعقلية القوة الاستعمارية تجاه بقية دول العالم المغلوب على أمرها. الولايات المتحدة، بدورها، انضمت إلى تلك المنظومة

المبنيـة على الاسـتنزاف، ومقابلـة أي تهديد لمشـروعها الاقتصادي بفرض عقوبات زجرية. حينمـا اجتاحت القوات الأمريكية بناما عام 1989، خـلال فترة أعياد ميلاد المسـيح، بالتزامن مع التغيير الدموي الذي شـهدته رومانيا في هرم السـلطة، تم إجراء اختبار لنظم أسلحة جديـدة. لم يكـن ذلك إنذاراً قبيل حرب الخليج فحسـب، بل إعلان موجّـه للعالـم، برمّته، ببداية العودة الى النظـام العالمي القديم، الذي استأثر فيه الإنسان ذو البشرة البيضاء بالسلطة المطلقة.

إنـه نظام يحصـي ضحاياه وفـق المعايير التي يحددهـا. منذ أن فقـدت تعاليم المسـيح قيمتها، أصبـح النظام الحديث يتغنى بشـعار الديمقراطية التي باتت بضاعة مجانية؛ تروّج في شتى دول المعمورة، إلى جانب «اقتصاد السـوق الحر». سياسـتنا الاسـتغلالية، تجاه دول العالـم الثالث، خلفت صورة سيئة. في كل بقعة من العالـم حيث العوز والفقر، تنكشـف الخدعة التي تتحدث عن حقوق الإنسـان في أبهى صورهـا، ولعـل الأحياء الهامشـية لكلكوتا و ريو دي جانيرو شـاهد علـى ذلك. هـا نحن الآن نبدو فـي صورة المبعوث الـذي لا يصدقه أحد. بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ومعه تلك الصورة الإيديولوجية علـى أنه عدو، أدركنا أننا أغنياء و فقـراء في آن واحد؛ نمتلك أحدث الأسلحة، لكننا مرهقون بفعل تبعات التقدم الذي عاقبنا به أنفسنا.

إن تاريخنـا الـذي لا يعـدو كونـه تاريخـاً مثقـلاً بالاجتياحـات الدموية، والتعسـفات السـافرة، أصبح اليوم ماثلاً أمـام أعيننا. ها هي دول العالـم الثالـث تقـف لتطـرق أبوابنـا. إن مـن يظـن أن بمقدوره الاحتفال بذكرى اكتشـاف أمريكا كإنجاز أوروبي، فإنه يعتبر مسـانداً للإبـادة والإرهاب ضد الشـعوب، كمـا نقل عن برطلومي دلكاسـا. كانت هناك الكثير من الأصوات التي ارتفعت مندّدة بهذا الوضع.

حيـن قام الانقلابيّ لينيـن عام 1917 بخنق ثورة شـباط، ومكّن اللجنـة المركزيـة من فرض نظام دكتاتوري سـيطر عليه نظام الحزب الواحـد، تنبأت السـيدة الاشـتراكية روزا لكسـمبورغ مبكـراً بانهيار الاتحاد السـوفياتي. يشير الكاتب المكسـيكي كارلس فوينتي اليوم، إن انهيار النظام الشيوعي لا يُحسب على أنه انتصار للنظام الرأسمالي الـذي حمل معه مخلّفـات ظاهرة من قبيل الاسـتنزاف والفقر، وهي سلبيات دقّت بدورها ناقوس الخطر.

أشير إلى أن التظاهرات الثلاث المقرر أن تعرفها إسبانيا؛ الألعاب الاولمبيـة، والمعرض الدولي، وذكرى الاحتفاء بكولومبوس، يجب أن تشـكّل مناسـبة للتوقـف عن القيام بـدور الحاكـم والجلاد، وهي صـورة عُرِفـت، فـي التاريخ الأوروبـي، تحت مسـمّيات؛ مـن قبيل المسـيحيةَ والشـيوعية، الفاشية أو الرأسـمالية. والسبب في ذلك هو أننا، نحن الأوروبيين، نبث الرعب أينما حللنا وارتحلنا، سـواء تعلق الأمـر بالهند أو البيرو أو جاوا أو شـواطئ إفريقيـا الذهبية. لذلك فأنا أرى أنـه لا يمكننـا الحديث عـن أوروبا موحـدة وديمقراطية، إلا إذا أصبحـت هـذه الأخيـرة، واعية بتاريخهـا الفظيع بإعلان مسـؤوليتها الكاملة عمّا حدث.

هل ستسـتطيع أوروبا، التي تضع نفسها في مركز العالم، تقديم هذه التنازلات؟ إنَّ هناك شكوكاً كبيرة تلف حقيقة الموقف الأوروبي اليـوم، إذ إنَّ الخطـوة المرجوة تتأجل من مؤتمر إلـى آخر، ومن قمة اقتصاديـة إلى أخرى، حتى باتت أوروبا كياناً من دون توجّه سياسـي واضح. تصاب أوروبا الغربية بالصمم وكثرة التردّد، إذا ما أبدت دول أوروبا الشرقية والوسـطى رغبتها في تثبيت حريتها المكتسبة حديثاً، عبر اعتماد اسـتثمارات بعيدة المدى. ومقابل ذلك، فإننا نرى أوروبا

تسارع إلى إبرام الصفقات التجارية، قصيرة المدى، وفي الثناء على البولنديين لتحلّيهم بالصبر على ما يلاقونه من تجاهل لرغباتهم وحاجاتهم الحقيقية، وتهنئة جمهوريتي التشيك وسلوفاكيا على ثبات مواقف رئيسيهما. شكّل انهيار يوغسلافيا حدثاً أبرز العجز الأوروبي في صوره المخجلة. دفع تقاعس الآخرين ألمانيا إلى تسلُّم مهمة فرض النظام، و دفع الأمور نحو الأمام في منطقة البلقان، و هي خطوة تأريخية لم تكن محط إجماع

أودّ أن أضيف شيئاً بخصوص وضع أوروبا الضعيف، حيث إن البرلمان الذي يجتمع في ستراسبورغ، والذي يحمل اسم هذه القارة العجوز، لا يعدو كونه ساحة للمرح واللعب. فالقرارات التي تتخذها هذه الهيئة الديمقراطية، تظل حبراً على ورق، لأن الهيئات الأوروبية الأخرى، التي تتخذ من بروكسل مقراً لها، هي من يمسك بخيوط اللعبة. البرلمان الأوروبي، إذن، لا يتوفر على ما يكفي من الصلاحيات القانونية لمراقبة عمل الأجهزة المركزية في بروكسل، ممّا يضع البرلمان الأوروبي، في نهاية الأمر، في زاوية مظلمة. أمّا المدينة فقد فقدت جمالها بسبب احتضانها لهذه البيروقراطية الوزارية، التي تحوّلت إلى هيئة؛ همّها الوحيد إملاء معايير جديدة، وتحديد حجم الإنتاج، ومنح الدعم المالي لبعض القطاعات، مغفلة بذلك الإتيان بأية أفكار؛ من شأنها الإسهام في بلورة الحلم الأوروبي.

لا يخفى الدور الذي تقوم به بروكسل كمصدر دعم مالي لمجموعة من الدول. إنها البقرة الحلوب، التي تسهم في تطوير الهياكل الجهوية، وتقطع الطريق على انتشار الرشوة على المستوى المركزي. سواء اليونان أم ايرلندا، البرتغال وجنوب إيطاليا؛

المزارعـون فـي إسـبانيا وفرنسـا وألمانيـا، يسـتفيدون، جميعـاً، من الدعم الذي تمنحه إياهم بروكسـل، مـن دون أن ننكر الإعانات التي أصبحت تتلقاها دول أوروبا الشـرقية والوسـطى. لا شـك أنه سـيتم تشـييد السوق الأوروبية المشتركة بإفساح المجال أمام المنافسة التي تحكمها القواعد الصارمة لاقتصاد السـوق، التي ترجّح كفّة الأقوياء لبسط سيطرتهم الكاملة، بعد ذلك، على هذا السوق. يتلو ذلك نجاح أوروبا في إخراج العملة الموحدة إلى الوجود، بالرغم من المعارضة البريطانية، ولكن بموافقة فرنسـا وبغطاء ألمانـي. إن هذه النجاحات الباهرة لم تشـمل في حقيقة الأمر إلا المجال الاقتصادي، ولم تمنح للتطوّر صفته الإنسـانية. بات واقع أوروبا الموحّدة مرادفاً لنشـر نظم استهلاكية، واعتماد العمل بنظام الشركات العملاقة والبنوك الكبرى، وهو ما لم يدع مجالاً لاسـتخدام صيغة التصغير، وما شـابه ذلك من أنـواع المزاح. عبثاً أنظر حولي؛ في سـعي يائس للاسـتنجاد بأنامونو الذي توارى خلف ضباب روايته.

مؤكـد أنكم لاحظتـم إن أوروبا بهـذا الوضع لا تمثّـل لي ذلك الحلـم المنشـود، بـل حتـى جـزءاً يسـيراً منـه. إن مخاوفـي تزايدت بسـبب اتجاه الوضع نحو السـعي إلى تحقيق أقصـى درجات الربح. لعـل الاختـلال الراهن في موازين القوى، الـذي يرجح كفة الأجهزة المركزيـة فـي بروكسـيل، علـى حسـاب البرلمـان الأوروبـي فـي ستراسـبورغ، لخيـر دليل على حجم الخسـائر الكبرى التي سـتمس المكاسـب الديمقراطيـة، في ظل الأرباح الطائلة التـي يجلبها النظام المعمـول بـه. الاهتمـام بتحسـين الوضـع الاقتصـادي فـي أوروبـا وإخضاعـه لمقتضيـات السـوق، يهدّد الأمـن الاجتماعـي، ويجعل مـن أزمـات البورصـة، في مـا يُعـرف بالجمعة السـوداء، أمـراً قابلاً للحدوث. النمو الوحيد الذي سيسـجل عندها هـو الارتفاع المهول

في عدد العاطلين عن العمل. حينئذ سيصبح أمراً مشروعاً أن نتساءل عمّن، أو عن القوة التي ستوقف النزيف الاجتماعي بعد انهيار النظام الشيوعي، وترقّب نهاية وشيكة لعهد الديمقراطية الاشتراكية.

في كل مكان بدأت مُقايضة اليسار الأوروبي، سواء في فرنسا وألمانيا أو غيرها، مع العلم أن اليساريين الديمقراطيين كانوا، ولسنوات طويلة يشكّلون العدو اللدود الأكثر تعقّباً ومطاردة من لدن الشيوعية. بعض هذه الاتهامات التي تُشبه محاكم التفتيش تُذكرنا بالحقبة المكارثية. إن انهيار الاتحاد السوفياتي جعل بعض الحلفاء الغربيين يعتقدون أن النهج الرأسمالي هو التوجه القادر على الاستفادة من مرونة نظرية اقتصاد السوق، لتصبح هي الإيديولوجية السائدة والمهيمنة. حين يعدّ النهج الرأسمالي نفسه النظرية الوحيدة المثلى، رافضاً تقديم أي نهج بديل؛ يكتسب، بذلك، صفة العدو، إيذاناً ببداية نهايته.

من شأن التكهن بمثل هذا المصير، أن يدفعنا إلى مراجعة حساباتنا. ربما كان تصحيح مسار عصر الأنوار الأوروبي أمراً مجدياً، فحينما بدأ عالمنا الحديث تشكيل طبقاته الاجتماعية؛ بما يحمل ذلك معه من إمكانات ومخاطر، ظهرت الرأسمالية والاشتراكية في آن واحد، كأبناء شرعيين لهذا المسلسل، في وقت كانت فيه الليبرالية تتنقل بشكل دائم بين كلا المعسكرين. تلك النظم، هي التي قضت على النظم الإقطاعية، وأسهمت بإيجابياتها وسلبياتها في تحديد معالم واقعنا. إن علاقاتها المتعارضة مكّنتها، بعد مضي قرون من الصراعات، من تحقيق نوع من التوازن الاجتماعي، وتحجيم دور الكنيسة، والاكتساب التدريجي للحقوق الديمقراطية الأساسية. إن من يظن، اليوم، أنّه بالإمكان الاستغناء عن الاشتراكية باعتبارها

واحـدة مـن المتصارعين الثلاثة، فعليه الأخذ في الحسـبان، إن ذلك ينذر بخروج الرأسـمالية عن نطاق السيطرة. هناك إشارات تحذر من سيادة نظام الاستغلال، والتعسف البربري.

أليسـت تلـك النظـرة المتحسّـرة اعترافاً بـأن الحركـة العمّالية الأوروبيـة هـي مـن كان وراء ترويـض النظـام الليبرالـي لمنشسـتر، وبتحميل الرأسمالية واجبات اجتماعية؟ لقد ألقيت على عاتق الحركة العماليـة والنقابـات، إلى جانب وظائف أخـرى، مهمة التصدي لهذا الغول الكبير الذي يلتهم كل من يجرؤ على محاولة عرقلة مسيره.

ها هي الإنسـانية تجد نفسها، مجدّداً، أمام واقع وحيد عليها أن تسلم به، حيث إن معالمه اتضحت مباشرة بعد حرب الخليج، فارضة بذلك نظاماً عالميّاً جديداً يرفض أي خيار ثالث. أدركت حينها أن ما نحتـاج إليه هي أفكار وتصوّرات مناسـبة لتحكـم عالمنا الذي نعمل على تخريبه بأيدينا. إن الاسـتهلاك المفرط لمصادر الطاقة، والسعي إلـى تحقيـق النمـو بأي ثمـن، قد أدّيـا إلى الإضـرار بطبقـة الأوزون التـي تحمينا، والتـي بات تدميرهـا الكلي لكوكبنا وشـيكاً. قد يكون الاسـتغلال الفاحش للثروات التي تزخر بها الكـرة الأرضية؛ بما في ذلك الغابات الاستوائية في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا، أمراً مُدرّاً للربح، ولكن الغنى والترف الذي تعيش في كنفه الطبقات الاجتماعية العليا والوسـطى في العالم الغربـي، يقابله تزايد فقر وحاجة مليارات النـاس، المشـكّلين للطبقـة الكادحـة، والذين لـم تعد لهـم إلا قيمة إحصائية.

تتفاقـم أوضـاع الفقر فـي العالم الثالث بشـكل متسـارع، ليس بمقـدور أحـد تحديـد مـداه. تـزداد الصـورة قتامـة مع تزايـد ضغط الانفجار السـكاني. يزحفون بدون انقطاع من الجنوب ومن الشرق، ومع ذلك، فإن أوروبا تظن نفسها حصناً منيعاً أمام هذا التطوّر.

تسنّ قوانين من أجل الحدّ من تدفّق المهاجرين. يشتد العداء ضد الأجانب، ويتخذ أشكالاً عنيفة، تتعالى معها أصواتٌ داعية إلى تحصين أوروبا مِن الغرباء. الواقع أنه لن تصمد أية قلعة أو حصن في وجه التغيرات المناخية المرتقبة، ولا في وجه الانفجار السكاني وتنامي الفقر. كيف يمكن أن تشرق شمس مستقبل أوروبا الموحّدة، إذا لم تنتصر نظرية الحصن المنيع؟ ها أنا ذا أجازف بحلمي، وأنا أعلم أن صديقي أنامونو الإسباني يرقب ما أفعله. لا أجد بُدّاً من الحديث عن حلمي الأوروبي الصغير، الذي أتمنى له مع ذلك، وفي الأقل، عمراً يضاهي عمر فقاعة هوائية.

يبدأ حلمي الأوروبي الصغير بعقد جلسة تأسيسية؛ يتم في بدايتها التخفيف عن دول العالم الثالث عن طريق شطب ديونها. بل أكثر من ذلك، يجب إدماج مبدأ شطب الديون في مقدمة الدستور الأوروبي المشترك. كما أن أوروبا يجب أن تستعد في ظل نظام اقتصادي جديد، لمنح الدول التي ليس عليها ديون، فرصاً متساوية داخل هذا السوق. من شأن هذا التوجه، ضمان استمرارية نهج اقتصاد السوق الحر، الذي هو في الأصل صنيعة أوروبية.

حسب مجلس البنوك المركزية في أوروبا، فإن حلمي الصغير يضع في الاعتبار تخصيص الموارد المالية الموجّهة لأعمال البناء وبرامج التسلّح، لتحصين أوروبا بمكافحة الفقر، وما يترتّب عنه من هجرة جماعية. يصبح حلمي أجمل حين تقرّر الدول الأوروبية، مجتمعة، التخلّي عن تصدير الأسلحة نحو الخارج. سيتوقف إلى الأبد جني الأرباح من تكنولوجية أوروبا المتفوّقة في صناعة أسلحة الدمار. كما ستنتفي كل الذرائع لخوض حروب في الخليج، وستكف ألمانيا عن تصدير تكنولوجيا التدمير؛ ممّا سيساهم في وقف انتشار

مصانـع الأسـلحة الكيماوية فـي ليبيا، وغيرها من البلدان، سـتختفي بذلك المصانع المنتجة للغازات السامة وإلى الأبد.

سيكتسـب البرلمان الأوروبي في حلمي الصغيـر، القدرة على مزاولة مَهَمَّة الرقابة، مبتعداً بذلك عن حاله كسـاحة للهزل و المرح. وستتخذ قراراته صفة ملزمة، ولن تبقى حبراً على ورق. من المنتظر، أيضـاً، أن تتخلـى قرابـة 12 دولـة أوروبية عـن دسـاتيرها التي كانت تتمتّع إلى عهد قريب بالقدسـية، لتفسـح المجال أمام دستور أوروبي موحّد، وحتى فرنسا وبريطانيا ستجدان نفسيهما مضطرتين إلى اتخاذ الخطـوة نفسـها. سيسـتمر حلمي في تقديـم المعجزات، إذ سـتتّخذ المسـاعدات المالية المتدفّقة من بروكسـل وجهاً إنسانيّاً يختفي معه شـبح البيروقراطيـة، وظاهـرة الرشـوة. أمّـا حـق العمـل والسـكن، فسـيصبح من الحقوق الأساسـية المنصوص عليهـا. ومع جني ثمار الديمقراطية، سـيدفع كل شـخص الضرائب المسـتحقة. علاوة على ذلـك، سيسـهم فتح الحدود بين الدول في تحقيـق تقارب أكبر في ما بيننا، بل سيتعدى الأمر ذلك كله، فيحاول الانفصاليون الانضمام إلى البيت الأوروبي.

يمضـي حلمي الصغير قدماً في طريقـه، متخذاً من الثقافة حدثاً يوميـاً، وليس أمـراً تخصّص له المؤتمرات بيـن الفينة والأخرى. في سياق سرد هذه التصوّرات، ندرك حقاً أننا أغنياء، كما ندرك كيف كنا أغبياء حين انحصرت جهودنا في الجوانب الاقتصادية. انظروا كيف تناقـص حجم النفايـات بتراجع التسـابق نحول الاسـتهلاك! انظروا كيـف اكتسـبت مدننا جمـالاً مع اختفـاء السـيارات! وانظـروا كيف تكافئنـا الطبيعـة، حيث صـارت الوديـان والبحار نظيفـة، وتخلّصت الشواطئ من بقع الزيوت الملوّثة. ها هي الغابات التي اختفت سلفاً،

تنبعث فيها الحياة من جديد، وها هو الإدمان على المخدرات قد أصبح في طيّات الماضي. أمّا ثقب طبقة الأوزون، فهو في طريقه نحو الانغلاق.

يتوقف الحلم بشكل مفاجئ، حين تجد أوروبا نفسها محاصرة بالواقع المرير للحرب الأهلية في يوغسلافيا. ها هي جمهوريات الاتحاد السوفياتي العظيم تتناثر بفعل الصراع المسلح، بعد عهد طويل من الوئام. باتت العمليات الإرهابية في إيرلندا الشمالية، وهجمات الإرهابيين الباسكيين مشهداً يوميّاً معهوداً في أوروبا. وبقيت ألمانيا منقسمة على نفسها من الناحية الاجتماعية، برغم الوحدة المعلنة. هذا التمايز بين الطبقات امتد ليشمل كلاً من بولندا وجمهورية تشيكوسلوفاكيا. أمّا الشمال الإيطالي الغني، فقد تعب من تحمّل الجزء الجنوبي الفقير. تشهد بلجيكا، بدورها صراعاً بين الفلامانيين والفالونيين. تحظى كلمة «الوطن» في فرنسا بحمولة كبرى، لا نرى لها مثيلاً في أي مكان آخر. أصبحت الكراهية ضد الأجانب، توازي الفاشية؛ تتجاوز كل الحدود؛ تريد الاستئثار بالمستقبل. إني أعلنها، صراحة، إن حلمي، لا بل حتى حلمي الأوروبي الصغير قد تبدّد.

هل أنهي خطابي بهذه النبرة؟ إن الكاتب يتوفّر على مجال واسع للمناورة، سواء عن طريق القصة أو الأقصوصة، أو في الرواية التي تمثل مجالاً خصباً للخيال الذي يقترب، أو يكاد يتساوى مع الواقع. هذه التقنية في السرد مفضلة لدى الأدباء نظراً لجذورها الراسخة في أوروبا.

لقد كانت البداية هنا في إسبانيا، بل في شبه الجزيرة الأيبيرية، التي ظهرت فيها شخصية بيكارو ضمن الموروث السردي العربي، الذي اضطلع بأدوار بطولية حينما غادر الأسواق والمساجد، ليتخذ

شكلاً جديداً مستمداً من اللغة الإسبانية، والواقع المحلي. جاء الكاتب سرفينتس، بعد قلة من أسلافه المعروفين، ليشيد بفضل كتابه «دون كيشوت» نموذجاً أدبيّاً؛ يُحتذى به، بالنسبة لكل من كتب الرواية بيكاريسكية من بعده، فإلى جانب البطل اعتمد شخصية سانجو بانزا كشخصية ثانوية.، تعرف عليها القارئ الأوروبي في كتب أخرى: مثال على ذلك كتاب «جاك القدري» لديدرو وكذلك كتاب «تيل أويلنشبيغل».

في ألمانيا عمل الأديب كريملسهاوزن على الأخذ، في كتابه سيبليسيسموس، بتلك الصورة المثالية التي خلفتها الحقبة العربية في إسبانيا، وخلق شخصية نسائية كاقتباس من العمل الإسباني «بيكارا جوستينا»، وألبسها حلة أوروبية.

تطول قائمة الكتب والأدباء الواجب ذكرهم، كالكاتب البولندي كومبروفتز وروايته «فرددورك»، والكاتب الألماني كافكا بإنتاجاته الكثيرة. أريد هنا الإشارة أيضاً، إلى أدب أمريكا اللاتينية المتنوّع، من دون أن أغفل رواية سلمان رشدي، «أطفال منتصف الليل» التي يعكس بطلها في مومباي واقع الهند المرير. كلها ألوان أدبية امتزجت بالواقع الأوروبي، لتخلق تواصلاً بين شعوب مختلفة. هكذا يتّضح التنوّع والانفتاح الثقافي الذي تعرفه القارة الأوروبية، والذي لا تعكسه التوجّهات السياسية.

# رحمة بكوبا

**نيسان سنة 1993**

جزيرة تنبغي زيارتها. إنها تشكل نموذجاً أكل عليه الدهر. ينبغي التوجه وبسرعة إلى هناك، قبل محو مخلّفاته، لأن المنتصرين لا يحتملون بقاء شيء يذكّرهم بالماضي. حالياً يتم، في ميامي، التنازع حول الغنائم. إنه لا ينبغي، نهائياً، أنْ يَستعصي على أولئك، نقل التجربة الألمانية؛ بإيجاد مقابل لهذه الأفعال، من قبيل «أنجز» و«أرجع».

بدأت الرحلة إلى كوبا من مطار برلين الشرقية شون فيلد، الذي لا تزال تلازمه رائحة ليزول البروسية - الاشتراكية؛ من فترة جمهورية ألمانيا الديمقراطية. هذه الرائحة التي، إلى الآن، لا تستطيع أيّ كمياء غربية مقاومتها.

طُلب مني، وأنا أهم بركوب الطائرة، أن أحمل معي علبتَيْ دواء، بغية تسليمهما إلى طبيب بكوبا. إن الحصار المفروض والمحكم من طرف الولايات المتحدة الأمريكية على كوبا، ومنذ عشرات السنين، اتخذ منذ وقت قصير، شكلاً حادّاً، إذ لم يستثن حتى الأدوية. هذا الحصار الذي لا يستثني حتى الدواء، يُفهم، حسب الاعتقاد الغربي، كعمل إنساني، ومناسب لكوبا، من أجل تعزيز مفهوم حقوق الإنسان

هنـاك. نتيجة لهذه السياسـة المتبعة لتكريس منطق التعسّـف، تنتشـر ظواهر؛ كالصيدليات الخالية من الأدوية، العودة إلى الطرق التقليدية في العلاج، عدم حصول المسنين على ما يكفيهم من حاجات يومية، سواء أكانت دواءً أم غذاءً. وضعيّة تبعث على الشفقة.

من السـهل البرهنة، وإنْ توفرت لدينا أدلّـة كافية، على أن تبعية هذه الجزيرة للاتحاد السـوفياتي، بسبب الحصار المفروض، جعلت اقتصاد البلد موجّهاً؛ يعتمد على الفلاحة، الأمر الذي حال معه نشوء اقتصاد قويّ؛ بمقدوره الاستغناء عن الواردات، لا سيّما تلك القادمة من العالم الغربي. إنَّ القوة المنتصرة في الحرب الباردة وضعت كوبا كهدف لها، أي تجويع أحد عشـر مليون نسَمة. التزم الحلفاء، وبنحو صـارم، بمقتضيات الحصار، إذ كانت فـي مقدمتهم جمهورية ألمانيا الغربيـة. من أجل هذا الهدف الغبي وغير الإنسـاني، تم إيقاف تزويد كوبا بالحليب المجفف، عكس ما كان عليه الحال إبّان فترة جمهورية ألمانيـا الديمقراطيـة. عمل مستشـار ألمانيا الغربية، بعـد ذلك، على تزويد أندونيسـيا؛ النمـوذج الديمقراطي المحتفى به، ببعض السـفن الحربية من بقايا أسـاطيل جمهورية ألمانيا الديمقراطية. إن ازدواجية معايير القوى المنتصرة ليس لها حدود.

هافانـا تبـدو حزينة، كما جـاء فـي العناوين البـارزة على صدر كبريـات المجـلات، والصحـف الغربيـة، وهي تعـرض للإنجازات والانتصـارات المحققـة. رفوف واجهات المحـلات الخالية من أي معروضـات، تعكـس مـدى الحاجـة والعـوز السـائدين. المكتبات، بدورهـا، لم تسـلم من نـدرة في إصدارات سـردية جديـدة. اصطف المواطنـون فـي طوابيـر طويلة؛ بغيـة الحصول على رغيـف خبز، أو بعـض الخضـر. كان الدفع يتـم عن طريـق بطاقات تموينيـة خاصّة،

عوضاً عن العملة المحلية. هؤلاء لا يؤمنون بالعقيدة الشيوعية، غير أنهم ملزمون، بعد ذلك بأيام قليلة، بالإدلاء بأصواتهم في ما يُسمى بالانتخابات، التي كانت نتائجها محسومة مسبقاً، إذ غالباً ما تقارب مائة بالمائة. هذه الوضعية لا تكرّس سوى تلك البنى الجامدة التي ترفض أي تغيير أو تحوّل.

لم تكن تلك الانتخابات ديمقراطية ونزيهة حسب النموذج الأوروبي. تم تخصيص غرف للاقتراع وبطائق انتخابية. في ترينيداد، تمكنّا من معاينة إحدى هذه المكاتب الانتخابية. لم يكن يسمح لأيّة معارضة بالظهور والتوجّه إلى الناخبين. لقد تمّ، ولأوّل مرة، التأكيد على أنه أصبح بمقدور المواطنين الاختيار بين عدة مرشحين لا ينتمون بالضرورة إلى الحزب الحاكم. كان من بينهم الأطباء، ورجال العلم، والفنانون. على سبيل المثال، تمكن ميكيل بارنت من الحصول في دائرته الانتخابية على أصوات غالبية الناخبين بنسبة قاربت 98 من المائة؛ ممّا حمّله مسؤولية أكبر، لا سيّما وأنه قد ترشّح للمرة الأولى. كان دائماً عرضة للتهميش، ليس فقط لكونه مسيحياً، وإنما، أيضاً، بسبب الحظر الذي طال كتبه في السبعينات. لقد انقلب الأمر رأساً على عقب؛ فبعد أنْ كان منبوذاً، أصبح يشكّل بادرة أمل لدى ناخبيه في حدوث تغيير ما.

كان بارنيت دائم السفر إلى الخارج. ليس فقط كتابه «السيمرون» بل جميع كتبه عرفت رواجاً كبيراً. لم تثنِه المصاعب التي واجهته بسبب الحزب الحاكم، واتحاد الكتاب، عن التعرّض لبلده، أو في إثارة البقاء في المنفى وعدم العودة. إنه كان يرى ما لم يكن يخفى عن النظر. لا تزال هذه الثورة الراسخة تسعى إلى التحرّر من تلك القناعات الجامدة، فكان من الضرورة، فضّ تلك النماذج المستوردة

القادمة من الاتحاد السوفياتي، والاستعاضة عنها بالعودة إلى التذكير بالبدايات الأولى، والتقاليد المتوارثة، واتخاذ نموذج الثوري البورجوازي الليبرالي خوسيه مارتي، مثالاً يُحتذى به. فيدل كاسترو لم يكن بدوره شيوعياً، حين استطاع بمعيّة عدد قليل من الرجال والنساء، القيام بثورة انضمت إليها لاحقاً جميع فئات الشعب، لتتم الإطاحة بالديكتاتور باتيستا سنة 1959.

ليس وحده ميكيل بارنيت، بل كل من تحدثنا إليه، سواء في هافانا، ترينيداد، أو في بينار دلريو، يرفضون تكرار تجربة الدكتاتور باتستا. إنهم يخشون ولادة باتستا ثانٍ بين صفوف هؤلاء المهاجرين الكوبيين بميامي. كان الجميع يتحدّث، وبحذر شديد، عن وجوب الشروع في الإصلاحات، من دون أن يسمح لأحد بالتراجع عن نتائج ومنجزات الثورة. هذا ما تحدثت به فئة العمال القدماء والعاملات في حقول التبغ حول بينار دلريو الذين اكتسبوا، بما حققته لهم الثورة من إنجازات، الثقة في النفس، والشعور بالأمن الاجتماعي. إن افتقادهم الحقوق الليبرالية يُعد بالتأكيد، أخف وطئاً من افتقاده لدى الزوار الأجانب. المثقفون، بدورهم، طالبوا ومنذ سنتين، عبر رسالة مفتوحة إلى فيدل كاسترو، بسنّ قوانين تكفل حرية التعبير.

نتيجة لهذه الرسالة المفتوحة، تعرّض هؤلاء المثقفون للتنكيل. حُكم بالسجن، مدة سنتين، على كل من الشاعرة ماريا إيلينا كروزفاغيلا، والشاعر المترجم جورج بومار. قامت وحدات خاصة بالاعتداء، بالضرب، على الشاعر بومار، وذلك قبل اعتقاله وبفترة وجيزة من قبل الشرطة. أطلق سراحه، لكنْ لم يُسمح له بترك محل إقامته إلا بعد انقضاء مدة الحكم الصادر ضده. ظلت ماريا إيلينا كروزفاغيلا هي الأخرى بمستشفى السجن، إلى حين انقضاء مدة اعتقالها.

لقد قمت بعرض هاتين الحالتين على عدد كبير من أعضاء اتحاد الكتّاب الكوبيين، الذين كان من بينهم الرئيس أبيل بريتو المنتمي إلى اللجنة المركزية للحزب الحاكم. دام النقاش أربع ساعات كاملة، تعارضت فيه الآراء. لم يكن هذا التعارض نابعاً من احتجاجي المنفرد، ضد جبهة متصلبة المواقف، وإنما أيضاً بسبب التغيّرات الحاصلة في بعض المواقف المعلنة. لم أشهد درجة من السخرية كتلك التي بلغها تعبير هرمان كانط، إبّان فترة جمهورية ألمانيا الديمقراطية. في واقع الأمر ظل السؤال قائماً؛ هل نشر رسالة مفتوحة لفيدل كاسترو، عبر وسائل الإعلام الأجنبية، يُعد تسويغاً كافياً لما حدث؟ إني أتذكر، بأن رسالة الاحتجاج الموقّعة من طرف كثير من الكتّاب في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، على تجريد المغني فولف بيرمان من جنسيته، يجب أن تعرف طريقها إلى النشر لدى وسائل الإعلام الغربية، لأن جريدة «ألمانيا الجديدة» امتنعت عن النشر.

لعلّ مقارنتي بين أساليب التعامل لدى موظفي جمهورية ألمانيا الديمقراطية، واحتجاجي المبدئي، دفعت بعض الكتّاب الكوبيين المجتمعين؛ بما فيهم أبيل بريتو، إلى إعادة التفكير بجدية في الأمر. لم أكن واثقاً بأن دعوتي هذه ستجد لها آذاناً مصغية. ربما، وبعد استيفاء عقوبة السجن، سيُعرف إنْ كان كلٌّ من ماريا إيلينا كروزفاغيلا وجورج بومار، لا يزالان يتعرّضان للمضايقة. كل ما نأمله هو أن تؤدي سياسة التوجّه الجديد إلى نهج ليبرالي. باستحضاري لمجريات الأحداث إبّان مقامي بكوبا، عاودت تذكير اتحاد الكتّاب الكوبيين ورئيسهم بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم؛ بالإصغاء إلى شكوى الكاتبَيْن. هذان الأخيران تعرّضا للحيف. هذا الحيف لا يجب التقليل من شأنه لمجرد أنّ دولاً حليفة لأمريكا الشمالية كتركيا وكوريا الجنوبية تشهد انتهاكات أفظع وبشكل يومي.

إن المعايير المزدوجة لدى الغرب أصبحت مثيرة للشك والجدل. اليوم، وبعد أن وضعت الرأسمالية أمام مسؤولياتها، يجب الاعتراف بأن كوبا لم تستطع فقط الصمود في مجالات عدة، مقارنة بالدول الرأسمالية، بل تمكنت من إعطاء النموذج عن طريق التغيرات الثورية التي أنجزتها. على سبيل المثال، يعد النظام الصحي المتبع في سائر أرجاء البلاد، الذي، بمقتضاه، يُخصص طبيب، وبالمجان، لكل ثمانمائة مواطن، تجربة فريدة ليس لها مثيل بين دول العالم الثالث. عاينّا كيف أنه في كل قرية، خُصّص منزل من طابقين؛ الطابق العلوي للطبيب والممرضة، في حين يستعمل الطابق الأرضي كقاعات للتشخيص والعلاج. تمكن قراءة نتائج هذه الرعاية الصحية في تقارير الأمم المتحدة، وفي إحصائيات منظمات أخرى معترف بها عالمياً. تدنّي معدل الوفيات للرضع، وارتفاع نسب الأعمار جدير بأن يشكّل نموذجاً يُحتذى به، ليس فقط من قبل ما يعرف بالدول المتخلفة، بل حتى من الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، التي لا يزال رئيسها الجديد المنتخب، يبحث عن سبل للإصلاح، بغية التخلّص من الأوضاع المخزية السائدة في بلده. ليست فقط المصحات النموذجية ذات التقنيات العالية، أو الجهود الجبارة المبذولة في زرع الأعضاء، التي تتوفر أيضا في كوبا، ما يستحق الذكر، وإنما ذلك النظام الاجتماعي العادل في تعميم الرعاية الصحية، الذي تفتقر إليه دولة كالمكسيك. ما إن غادرنا الجزيرة المعزولة، حتى رأينا في قرى ألمايا، وشبه جزيرة يوكاتان، وفي كل أرجاء مدينة مكسيكو، حجم التقصير الحاصل في مواجهة مظاهر الفقر والبؤس، المتمثلة في الانتشار السريع لأحياء الصفيح.

إني أعلم أنّ مثل هذا النظام الصحي لا يعني الكثير؛ في زمن اتسم بالتراجع عن كل المنجزات التي تحقّقت في ما يخص الأمن

الاجتماعي. إن سعي القوى المنتصرة الحثيث في إيجاد أعذار لاختياراتها الإيديولوجية، لا يتوقف إلا بالقضاء المبرم على كل أعدائها. مَن المستفيد من عودة تلك الزمرة؛ من المُلاّك والنافذين إلى كوبا؟ بكل تأكيد، لن يكون الشعب الكوبي. الولايات المتحدة الأمريكية، تلك القوة العظمى، تشهد، على مشارف حدودها، صوراً للبؤس، سواء تعلّق الأمر بمكسيكو أو بهايتي، لا سيّما بسبب السياسات الاقتصادية الخاطئة المتبعة من لدن ساساتها. إن العالم، اليوم، ليس فيه حاجة إلى مزيد من الحروب، سواء أ كانت أهلية أم غيرها، وإنما فيه حاجة أكبر إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، بسبب ما ترتب من خسائر عن الحرب ضد يوغسلافيا، والعبر التي تم استخلاصها جراء ذلك، أصبح بمقدور أوروبا، اليوم، القيام بالخطوة الأولى تجاه رفع الحصار الذي لا يخلّف إلا الجوع والبؤس والحروب. إذا عجز الساسة عن فعل أي شيء، فإن الأمل يظل قائماً في المبادئ المسيحية الداعية إلى الإحساس بمعاناة الآخرين، رحمة بكوبا.

بعد هذه الزيارة القصيرة لكوبا، اتضح لي أن العوز والطقس الجيد هو كل ما تتميّز به هذه الجزيرة. هذه العجوز التي بلغت الرابعة والتسعين من عمرها، والتي اشتغلت، منذ أن كان سنّها عشر سنوات، في فرز الجيد من الفاسد من أوراق التبغ، كان عملها، هذا، يجري، بجانب منصّة يتوسّطها منبر. جرت العادة أن تلقى الخطابات فوق هذه المنصات الموجودة بداخل مصانع السيجار في بينار ديرريو، وعلى غرار ما كان يحدث بمصانع إنتاج السيجار بهامبورغ. ماذا هناك أيضاً؟ ثلاثون ألف كوبي من الجنسين، درسوا بجمهورية ألمانيا الديمقراطية، وتعلموا اللغة الألمانية، يشتغلون اليوم كمرشدين سياحيين. هؤلاء السياح لا يتوانون عن إظهار ترفهم بما يملكون

مـن عملـة صعبة. إن ما يظـل عالقاً بالذاكرة، هو تلـك الصور لهؤلاء القادميـن عبـر البحر إلى كوبا، سـواء أكانـوا بيضاً، سـوداً أم ملوّنين، ومن التعايش السلمي، من دون بروز أية مشاعر عنصرية؛ لا تزال إلى اليوم تنخر جسـم الجار الأمريكـي، والتي تنتهي معظمها بجرائم قتل بشعة. أن تقول كلمة حق في كوبا، يعني أن تضع رئيسها فيدل كاسترو محـطّ تسـاؤل. فبرغم خطاباتـه الرنانـة المدغدغة للمشـاعر، يمكن الادّعاء أن حقبته قد ولّت. الأمر نفسه قيل عن الماريشال تيتو إلى أن واراه الثـرى. اليوم، علمتنا أوروبا، وعبر ذلك الإخفاق المخجل، أن نُقيِّم إنجازات تيتو بشكل عادل وموضوعي. من يريد إزاحة كاسترو، ينبغـي لـه أن يملأ الفراغ الذي سـيخلفه رحيل ذلـك الرجل العظيم، بالرغم من أخطائه المتعدّدة.

# الغربة كتجربة مستمرة

**خطاب بمناسبة تسليم جائزة توماس مان في مدينة ليبك**
**أيار 1996**

لقد غمرتني السعادة وأنا أقرأ مقتطفات من كتاب أمام تلامذة ثانوية كترنيوم في مدينة ليبك. تم اقتيادي إلى إحدى المواقع، حيث نصبت سبورة؛ تحمل لائحة بأسماء أشهر من درسوا في هذه المدرسة، بما فيهم الأخوان مان. إضافة إلى تلك الأسماء كان اسم أريش موزاَم.

في مستهل كلمة الشكر هذه، أودّ أن أشير إلى أن توماس مان الذي هاجر، بقي غريباً في ألمانيا برغم كل المحاولات التي بذلت للتعريف به. ينطبق هذا الوضع، بشكل كبير، على من يُنعتون بأدباء المهجر، غير أن وقع ذلك على مان كان أكثر شدة بالمقارنة معنا. إن الاعتقاد بأن كتابات مان ترمز إلى السخرية، تأسياً برائدها جون بول، جعل الأدباء في ألمانيا يرفضونه، وينعتون إنتاجه الأدبي باللاألمانية. لم يطوه النسيان، إذ كنا نستمع إلى نصوصه ممثّلة عبر الأثير. ظلت التحفّظات حياله قائمة، حتى داخل دائرة زملائي. صدرت حوله تعليقات بنبرة ملؤها الغَيْرة والحسد كمن قبيل، نثر فني ليس إلا، السخرية تطول كل شيء، «كاتب بهالة مضخمة»، «كاتب يحاول التشبّه بغوته».

ها هو العديد من الطاقات الشابة تنهل من محصّلته، وتحاول، جاهدة، اقتفاء أثره. يتسابق الأكاديميون إلى التنقيب في حياته الخاصة ودراسة مؤلفاته. نلاحظ، في الآونة الأخيرة، محاولات هؤلاء، من محرّري السيرة الذاتية، الاستمرار على نهج ماكارتي. ألصقت به صفات كغياب النضج الإيديولوجي، وتقرّبه من الشيوعية، وتقبّله للدولة التي كانت تسمى يوماً ألمانيا الديمقراطية، من دون تحفّظ، في وقت لم تكن ترحب به جمهورية ألمانيا الاتحادية التي تأسست في العهد نفسه؟

برغم تباين المواقف بين ألفريد دوبلن وتوماس مان في الحقل الأدبي الألماني، حاول كلٌّ منهما العودة من المهجر. أقفل الشطر الغربي من الوطن الباب في وجهيهما، فلم يُقابلا إلا بالرفض واللامبالاة، الأمر الذي حدا بهما إلى الترحيب بأي التفاتة من الشطر الشرقي للوطن، والذي لم يقم بتلك الخطوة إلا لأسباب تكتيكية من جهة، ومن جهة ثانية لما يحظيان به من تقدير واحترام. حتى يومنا هذا، يُؤخذ على مان قبوله ارتداء معطف من صنع شيوعي.

إني لست من نقّاد توماس مان – كما لاحظتم–، كما أنني لست من العارفين بشأنه، لكنّني قارئ معجب وشغوف بأعماله وقارئ لها من حين لآخر. أشير هنا إلى أن الأمر يتعلّق برفّ مليء بالكتب التي قد يحتار المرء في ما يقرؤه من بينها. في واقع الأمر، لا أستطيع كبح جماحٍ رغبتي في ذكر أسباب اختياري لإحداها، وجعله منطلقاً وموضوعاً لكلمتي.

حين سافرنا قبل 10 سنوات، إلى كلكوتا، وغرب البنجاب، ومكثنا هناك مدة طويلة، أرسلنا في طلب صندوق من الكتب؛ وصلنا عبر البحر. أدركنا أهمية الحصول على ذلك الدعم الأوروبي خلال

فتـرة تغربنا. كانت حصة زوجتي من الكتب تضم أعمالا لفونتانا، أمّا أنا فكنت قد أرسـلت في طلب كتب لليشـتنبيرغ وشوبنهاور وكانيتي والنـص الكامل لثلاثية «يوسـف وإخوتـه»، التي تشـتمل على أربعة أجـزاء؛ يزيـد عـدد صفحاتها علـى الألف والتـي تحكي عـن الغربة والحيـاة في الغربة. كان مـان قد بدا بتأليفها في مدينة ميونخ، ولم يتمّ كتابتهـا إلا إبّـان فترة الغربة. اسـتغرق تأليفه لهذه الروايـة عقداً كاملاً من الزمن.

تلـك كانت هي عدّة الكاتب عنـد ترحاله، لا يمكن أخذها منه، سـواء في ذهابه وإيابه. لهذا سـأحاول رصد جانب من هذه التنقّلات خلال كلمة الشـكر هذه، والتي وضعتها تحت عنوان «الغربة كتجربة مستمرة»، أعني بذلك حاضرنا، ولا سيّما الإحساس بالغربة في مدينة ليبيك مثلاً التي يجب أن تظل باستمرار موضوعاً ملازماً لنا.

فـي أثناء مقامي فـي كلكوتا، كنت أقرأ في أماكـن مختلفة؛ أمام المكيّفات الهوائية عند اشـتداد حرارة الصيـف؛ على الدرج المؤدّي إلى القصور الفاخرة المتبقيّة من فترة الاستعمار؛ عند جذوع الأشجار مترامية الأغصان، وافرة الظلال؛ على مقربة من مقبرة أرمينية، وعلى سطح شـرفة تطل على الأحياء الهامشية لكلكوتا، وتحت شبّاك واقٍ من لسعات البعوض. حينما كنت أقرأ قصة يوسف التي تدور أحداثها فـي مصر إبّان حكـم الفراعنة، لم ينتابني شـعور بالغربة في ظل تنوّع الشـعوب والثقافـات والديانات فـي كلكوتا، بالرغم مـن أن أحداثها كانـت تجري في محيط غريب عني. لقد نجـح الكاتب في نزع ذلك الإحساس بالغربة لدى القارئ، وجعلها أمراً يتقاسمه الجميع في هذا العالم.

هكذا بدأت محنة ذلك المهاجر في سواحل كاليفورنيا، بعد أن تخلّـت عنه مدينة مسـقط رأسـه، ورفضه بلده الأم، فـي حين لم تكن

اللغة الألمانية أداة يستنجد بها عند الحاجة. ظل ذلك الغريب الذي كان دوماً تحت الحراسة، يُنظر إليه بتوجّس وهو في رفقة سيده، بعد أن بيع من قبل بعض التجار العابرين، الذين عثروا عليه بعد أن ألقى به إخوته في البئر. وبرغم قضائه فترة طويلة، متغرّباً في خدمة سيده، وكسب ودّه بفضل ذكائه وتفوّقه، لم يسلم من الخطر،إذ ورد على لسان الكاتب: «كان السيف دوماً مُصوّباً على رقبته، وكنّا دائماً نعجب كيف لم يصبه. بيع يوسف كغريب في مصر، كقادم من آسيا، فتى من أمو، شابيره أو عبراني، استمر على صبره إلى أن تفوّق على تلك النظرة التي كانت آنذاك سائدة بمصر الفرعونية».

لم يكن لشخص يوسف، وحده، القدرة على تجاوز ذلك الإحساس بالغربة لولا ما كانت تتمتّع به مصر آنذاك من قيم ليبرالية متجذرة في نفوس المصريين القدامى. في عهدهم كان كل شعور بالكراهية ضد الأجانب يتبخّر على ضفاف النيل. في ظل سيادة تلك الحضارة التي كانت تسخر العديد من الشعوب لخدمتها، ساد هناك قدر من التسامح المحدود بحسب المزاج و الرغبة. اتسم نمط العيش في عهد الفراعنة بنوع من المثالية والرغبة في إظهار التفوق، عُدَّتْ أية نبرة هادئة ولبقة مرادفا لتصرف حضاري، وإنْ ظلّت هناك بعض المؤاخذات.

انتقلت بعد ذلك تجربة المهاجر الأمريكي عبر رواية «يوسف وإخوته» إلى الهند. اطلع القارئ على مستوى التسامح المحدود الذي يسود في الهند. تتراجع هذه الصورة بالنظر إلى القرب من كلكوتا، وتزايد مظاهر الفقر المدقع في الأحياء الهامشية، وارتفاع عدد اللاجئين الفارين من الأوضاع الصعبة للحياة في ولايتي أوريسا وبهار في بنغلادش. تتّضح تعقيدات الوضع أكثر أمام التعايش الديني

الحذر والهش بين المسلمين والهندوس في غرب البنجاب، الذي يشرف التحالف اليساري ذو التوجه الشيوعي على إدارة عجلات الحكم فيه. إنه وضع يفرضه ذلك التعايش الإجباري، الذي يعيد إلى الأذهان ذكريات أليمة حول الأحداث الأخيرة الدامية.

يا لها من مغامرة مثيرة للقراءة تنقل إلى القارئ أحداثاً تاريخية متنوّعة؛ تدعوه إلى الخروج عن الإطار الصارم للنص، ومن ثَمَّ، إلى نسج خيوط أحداث موازية أخرى. تتواصل أحداث رواية يوسف وإخوته وراء أطلال القصور الفاخرة التي خلّفتها حقبة الاستعمار، التي ترجع، في نشأتها، إلى عهد الملكة فيكتوريا. سرعان ما تختلط الطقوس الخاصة بالكاهن المصري بكنشون، بالطقوس التي تقام للضحايا داخل المعبد الخاص بالآلهة السوداء والفظيعة كالي. بحثت عن يوسف بين الصعاليك والمتشرّدين في الشوارع الذين لم يجدوا لهم موطئ قدم حتى في تلك الأحياء الهامشية لكلكوتا. لم أيأس في العثور عليه. كان رثّ المظهر بالرغم من مسحة التفاؤل التي تعلو محياه. اقتيد من قبل موظفين تابعين للحزب الحاكم، غرب البنجاب، إلى الزعيم الشيوعي باسو. كان هذا الزعيم يبحث عمّن يفسر له الأحلام بشكل استعجالي في كل أرجاء المدينة، لأن هناك أحلاماً ماركسية مخيفة تؤرقه، لم يستطع فك طلاسمها. تقدّم يوسف الذي هو مهاجر في البنجاب، وقادم من منطقة جبلية مترامية الأطراف، أمام الحاكم ليفسّر حلمه. إنها مَلَكَة حظي بها يوسف دوماً.

في مطلع عام 1986 أصبح اسم غورباتشوف ومصطلحات كلاسنوست والبرسترويكا ذائعة الصيت. تنبّأ حينها يوسف بانهيار الاتحاد السوفياتي، وبتفرّد النظام الرأسمالي بالسلطة والقرار. لم

يغفل في تفسيراته عن ذكر الأساليب والوسائل التي يجب أن تلجأ إليها الماركسية لكي تظل على قيد الحياة. أما باسو الذي ظلّ إلى يومنا هذا يحكم غرب البنجاب، فقد أخذ بتفاسير يوسف ليتجاوز السنوات العجاف.

عبر قراءتي لهذا النص، اكتسبت من شخصية يوسف موهبة القدرة على التوقّع المستند إلى أحداث الواقع. إنه كتاب متميّز، يحمل القارئ إلى فضاء تخيلي، منفتح وواسع، وإن كان فهرس الكتاب لا يتضمّن أية إشارة مسبقة إلى ذلك. بفضل قراءة هذا الكتاب، يكتسب القارئ صفة الاغتراب، فيصبح أمر إسباغ علاقة الغريب بالحاكم، على واقعنا، أمراً ممكناً، وقابل الحصول. لهذا السبب، تُعدّ شخصية يوسف شخصية منفتحة على قراءات متعدّدة، وجب استحضارها، بالنظر إلى قدرتها المثالية على استيعاب كل المواقف، وتشخيص مختلف الأدوار.

من خلال الاطلاع على تفاصيل سيرته الذاتية، نلحظ كيف أنَّ يوسف الغريب قطع المراحل تلو الأخرى، حاملاً معه حرقة البعد عن الجذور والوطن، غير أنه حافظ على نظرته الشمولية للأمور، بفضل فضوله الإيجابي، وبحثه الدائم عن موطئ قدم. احتفظ يوسف بأسلوبه المرح في ظل الغربة، لأنه لم يكن هناك شيء يربطه بذلك المكان. كان ينظر مبتسماً إلى النيل الأعلى والنيل الأدنى، وكان يشعر بالحرية حتى في وقت غيابها. استطاع تعلّم فنّ الحدس. وبرغم أنه كان غريباً، كانت ليوسف أفكار نيّرة ومتميّزة لم تتجاوز الزمن الذي عاش فيه فحسب، بل حتى حاضرنا أيضاً. أصبح، بذلك، المنقذ في الحالات الكارثية والحرجة.

اقتداءً بنظرة يوسف البنجابي للأمور الذي كان قدّم خدمات عدة

كمُفسر أحلام، قمت، في السنوات الماضية، بتأليف قصة تحت عنوان «ذير شـؤم» وضمّنتها طبعاً تغيّر مكان الحدث. كان يوسف غريباً في «دانتسك كدانسك»، التي هي مركز أحداث أعمالي الأدبية؛ حيث قام يوسف، هناك، بحلّ أزمة المرور بشكل حديث وهادئ، كما نجح في توزيع كم هائل من الدرّاجات الرباعية العجلات الهندية الأصل في «كدانسـك» وأوروبا، لتشمل مناطق أخرى من العالم. استطاع بذلك تقليص عدد السيارات المتسبّب في فوضى المرور. الطريقة البسيطة التي خلّص بها المدينة من صخب وسائل النقل، وما يترتّب عليها من تلوّث، جعله محط إعجاب ومبعثاً للغيرة والحسد. ظلّ في أعينهم، دائماً، ذلك الغريب المثير للمخاوف والقلق لأسباب لا نعلمها.

إن يوسـف فـي قصتي اختـرع الدراجة ذات العجـلات الأربعة مـن أجل رفاهية أوروبا، يحمل هنا اسـم شـترجي زوبهاس شـندرا، والذي جاء إلى أوروبا بمحض إرادته، لم يُبَعْ، ولكنه اختار بنفسـه أن يهاجر. ويعتبر نفسه قدوة للآخرين وسيتبعه الكثيرون حتى ابن عمه. وبرغم أنـه لم يدخل إلى الأرض الجديدة خـاوي الوفاض؛ إذ حمل معه أفكاراً من شـأنها حلّ العديد من المشـاكل المحلية.لم يلاق أي ترحاب من السـكان الأصليين المضطربيـن ولذلك يكرهون كل. لم يمض وقت طويل حتى تعالت أصوات منادية بترحيله.

وبرغـم كل المجهـودات التي بذلها تومـاس مان في جعل بطل أسـطورته شـخصية متميّزة ومتفوّقة، بفضل أفكارهـا الغنية وقدرتها علـى التكيّف مع ما اسـتجد مـن الظروف، فإنّ يوسـف ظلّ في أعين النـاس غريباً دائمـاً. إنهم كانوا ينظرون إلى الهيئة الخارجية ليوسـف علـى أنه غريـب، وهو بذلك مختلـف عنهم. من خلال هـذه الجولة الأدبية في أعمال مان، نلحظ أن الغربة تجربة مستمرة يشعر بها المرء

أينما حلّ وارتحل. ومن خلال سردي للأحداث الواردة في رواية يوسف وأخوته، أودّ نقل ما شعر به توماس مان من غربة، وهو شعور أسهم في إطالة أمد عزلته. أنصح كل من يودّ المساهمة في فك قيود هذه العزلة، إلى ترك الخلافات الثانوية جانباً، ووضع عمل توماس مان في إطاره الصحيح والشمولي، من أجل إعادة اكتشافه من جديد، بغضّ النظر عن مكان وجود قارئه. إنني أدعوكم، في النهاية، إلى التمتّع بسحر وجاذبيّة أعمال الكاتب توماس مان.

**(2007 - 1997)**

# كلمة في تقريظ ياشار كمال

**تشرين الأول/أكتوبر 1997**

في مكان تاريخي، كثيراً ما يستحضر الخطباء روحه، يجري، بأبّهة مناسبة، الاحتفال بمنح جائزة نفيسة حقاً وحقيقة. فهنا، في كنسية باولوس (Paulskirche)، جرت، على مدار زمن طويل، المطالبة، بلا جدوى، بالحقوق الأساسية المميّزة للمجتمع الديمقراطي. فبدءاً من عام 1848/ 49 وحتى نهايتها الفاشلة، تطلّعت الثورة إلى أن يعبّر المؤتمر القومي الذي اجتمع هنا، في هذا المكان التاريخي، عن مكنون أهدافها. ولكن، وبما أن الواقع السياسي لم يكن مناسباً أصلاً، لذا كاد الخطاب البرلماني البليغ أن يكون مجرّد إعلان لا قيمة له. ومن بين المجتمعين، كان هناك أدباء أيضاً، أدباء كان من بينهم لودفيغ أوهلاند (Ludwig Uhland). وتولّى أحد النبلاء من ملّاك الأراضي مهمّة إلحاق الفشل بهذه الجهود المبكرة، ولم يكن هذا النبيل سوى أوتو فون بسمارك. فبسمارك، بصفته نائباً بروسيّاً، كان يفكّر بوحدة [ألمانية، المترجم] من نوع مختلف، كان يفكر بوحدة ما كان يستطيع تحقيقها إلا باستخدام القوة، وحدة حققها من خلال ثلاث حروب دامية في نهاية المطاف. فمستقبل ألمانيا لم يتحدّد من خلال الجهد

الذي كابده مؤتمر كنيسة باولوس ـ وهو جهد ثبّته الرسام يوهانس غروتسكه (Johannes Grützke) في صورة مشهورة تنمّ عن وجهة نظر مكتئبة ساخرة ـ بل تحدّدَ من خلال إرادة بسمارك. وإذا لم يبق أثر ذو بال لإمبراطورية هذا المستشار الذي يتغنّى البعض بصلابته «الحديدية»، إلاّ أن هذه الإمبراطورية خلّفت أمراً لا يستهان به: فسياسته الاستعمارية، التي ثبّت أسسها في المؤتمر المنعقد عام 1878 في برلين، لم تحاول، فقط، توظيف الأزمة المندلعة على ضفاف البوسفور لصالحها، بل كانت قد أفرزت أيضاً تلك العلاقة المتميزة التي سادت بين الإمبراطوريتين الألمانية والعثمانية، أعني تلك العلاقة التي تجسّدت في التكاتف المتين بين الألمان والأتراك في الحرب العالمية الأولى والذي درج البعض على تسميته بأخوّة السلاح وإصرارهم على المضي قدماً في الكفاح يداً واحدة إلى أن لحقت بهم الهزيمة النكراء؛ بهذا المعنى فإن هذه الأخوّة قامت على الدم والحديد.

هيهات، هيهات، إن كنيسة باولوس لا تصلح لمثل هذه التحالفات. إنها الأثر الحزين الشاهد على الأمانيّ الألمانية الضائعة. فهي والفكر التي كثيراً ما يستوحيها المرء منها كانت في عداد المهزومين باستمرار. فحينما أراد المرء في عام 1949 اختيار عاصمة لدولة ألمانية غربية الهيكل، دولة تتكون من ثلاث مناطق كانت تخضع للاحتلال، لم يجرِ اختيار فرانكفورت، بل وقع الاختيار على ما أراده كونراد أديناور، ابن حوض نهر الراين والسياسي المعروف بانحيازه الإقليمي. وهكذا كانت هذه الكنيسة قد أمست أثراً تتعالى منه زفرات وحسرات متواضعة. وبفضل اتحاد الناشرين الألمان صار هذا الفراغ في متحف تاريخنا الألمانيٍ، المتخم بالأحداث، مسرحاً يشهد من عام لآخر احتفالاً مهيباً حقاً وحقيقة.

وبعد هـذه الجولة القصيرة في أحـداث التاريخ، أتوجه بالتحية إلـى الأديب الـذي حصل على جائزة السـلام لهذا العام، إلى ياشـار كمال!

وهكذا صار يتعيّن الآن على واحد من الأدباء أن يتجاهل نفسـه وأن يُشِـيد بنتاج أديب آخر. ولا بد أن تكون لديك، يا عزيزي ياشـار كمال، أسـباب معيّنة لاقتراحك أن أكـون أنا الخطيب في هذا الحفل المهيب. لقد استجبت إلى رغبتك عن طيب خاطر ورحت، منطلقاً من البحر الأبيض المتوسـط، أتجوّل بين المزارع المنبسـطة المطلة على ساحل البحر وأطوف، من ثم، تارة في ربوع جوكوروفا (Cukurova) المغطاة بشـجيرات العُلَّيق والكروم والحلفاء، وتارة في داخل البلاد لأتجول بين المسـتنقعات وبين المزارع الخصبـة والتلال التي يفوح منهـا عطر الآس والريحان، والهضـاب التي منها هضبة ديكنليدوزو، هـذه الهضبة التي تـأوي خمس قـرى تتوجه أنظارها صوب سلسـلة جبال طوروس المغطاة قممها بالثلوج.

لقـد بلغتُ سـنَّ الشـيخوخة ولم تطـأ قدمـاي أرض الأناضول قـط. إلا أنـي، مع هذا، اسـتطعت، كقـارئ، أن أحيط علمـاً بوطنك، فلقـد واظبـتُ على مطالعـة الكتاب تلـو الآخر. فما هـو غريب عني صار مجسّـداً أمامـي بكل العطر الـذي يفوح منه، صار مجسّـداً أمام ناظـري بكل ما يكابده المزارعون من فاقة وبكل القسـوة التي يعانيها الفلاحـون المحرومـون مـن الأرض الزراعيـة. نعـم، إن الكلمـات تسـتطيع تجسيد هذا كله. إن الأدب يُلغي الأبعاد الجغرافية. إن تولي الأدب فتـح البلـدان يقربنا من أناس موجودين علـى الورق فقط. إنه ييسـر التجـول فـي البراري الوعـرة وبين القمـم الشـاهقة التي تحوم حولهـا النسـور. وبفعل الظلـم الذي يكابـده الفلاحـون المعدمون،

يذكرنـي الأدب، ذو الباع الطويل في فتح البلدان، بأولئك المسـاكين الذين كانوا يعيشـون في وطني عيشـة أقنان يسـتعبدهم النبلاء حائزو الأراضـي. إن الأدب بفتوحاته هذه لا يُلغي الحدود المرسـومة على الخرائـط فقـط، بل والحدود المسـيطرة على وعينا أيضـاً. إن الأدب ينصب الجسـور التي تربط المرء بالآخر، تربطه بالآخر الذي اغترب عنه. إنه يربط الواحد منّا بالآخر ويجعل منه شريكاً في ما يحدث. إن الأدب يجعل لنا نصيباً بدواهي الأمور.

وبهـذا النحـو، أعني بنحو غير مباشـر، بنحو يتجسّـد من خلال ثلاث أواصر قربى، ثمة صلة نسـب تربط بيننا يا عزيزي ياشار كمال. ليـس باعتبارك كردياً فقط تنتمي إلى تركيا التي تسـومك مرّ العذاب، وتتحمّـل منهـا مـا تحملته أنـا أيضاً من ألمانيـا التي أنتمـي إليها بكل جوارحـي وإن كنـتُ قـد لاقيـت منهـا الأمرّيـن باعتبـاري من جنس الكاشـوب (Kaschube) من ناحية الأم؛ بل وبسـبب ميلنا المشـترك لأن نسجّل من خلال الكلمات عبء الخسائر التي مني بها كل واحد منّـا. إن هذا الفعـل اللاإرادي يدفعنا للكتابة عن الزمن بنحو عكسـي وروايـة تلك الأحداث التي لـم تَرْقَ إلى مصاف الحدث الذي يشـغل بال الحكومات وذلك لأنها تدور حول أشـخاص لم يكونوا من عليّة القوم وذوي السـلطان، بل كانوا أشـخاصاً انصبّ عليهـم دائماً جورُ الهيمنة وتعسّفُ السلطان.

أضف إلى هذا أن بلدينا تفصل بينهما مسـاحة واسـعة جغرافياً، إلا أن الواحـد منهمـا اقترب من الآخر أكثر وأكثـر وذلك، من ناحية، لأنهمـا لا يـزالان يتحمّـلان وزر ما اقترفا من إثم، ومـن ناحية أخرى لأن الأغلبية في مجتمعات هذين البلدين تمارس القسـوة والخشونة في تصرّفها مع الأقليات. وحينما كان القرن العشرون يخطو خطواته

الأولى، شرع المرء في تركيا بتنظيم قتل جماعي أودى بحياة مئات الآلاف من الأرمن. من ناحية أخرى، فإن اسم مدينة أوسشفتس (Ausschwitz) قد صار عنواناً على الجرائم الألمانية بحق عدد لا يحصى من اليهود والغجر. إن بلدينا، اللذين ما كانا قادرين على التوصل إلى توافق معنا، نحن شعبيهما، تسبّبا في اندلاع حروب دامية نشرت الرعب والأهوال بين جيراننا باستمرار. فنحن الألمان اندحرنا المرة تلو المرة، وتقطّعت أوصالنا وتفتّتت وحدة ترابنا الوطني وصرنا، على مدار أربعين عاماً، دولتين تقف الواحدة منهما مقابل الأخرى مدجّجة بالسلاح وكأنها قد نسيت دروس الماضي وعِبَره؛ وفي تركيا، فإن هناك الشعب الكردي الذي يعاني الأمرّين ممّا تقوم به السلطات التركية حتى يومنا الراهن من أساليب تعسّفية وحملات عسكرية ضحاياها هم الأطفال والنساء في أغلب الأحيان. إن الجنون العنصري وإظهار الكبرياء للتغطية على افتقار التسامح وشن الحروب وما تخلفه هذه الحروب، إن هذا كله علامات تبيّن المسار الذي اتخذه تاريخ بلدينا.

وعلى خلفية هذه الأحداث التي لا يمكن لأي حفل مهيب أن يُزوّق صورته، يتسلّم اليوم ياشار كمال جائزة السلام التي يمنحها كل عام الناشرون الألمان. وعلاوة على إنتاجه الأدبي، يُراد من منح هذه الجائزة إطراء ما يقوم به الكاتب من جهود «للدفاع عن حقوق الإنسان». بيد أن هذا الإنتاج وهذه الجهود ليست محامد لا رابطة تربط بينها. فواقع الحال يشهد على أن هذا الإنتاج حصيلة تلك الجهود وأن تلك الجهود ما هي إلا الحصيلة المنطقية لذلك الإنتاج. إن مَنْ يغوص في أعماق الإنتاج الروائي لياشار كمال هو فقط ذلك المرء الذي يدرك أن المعارضة السياسية التي يبديها هذا الكاتب إنما تضرب جذورها في آلام وأحلام وتطلعات البسطاء من

المواطنين. ففي وقت مبكر، في قصته الموسومة «رحلة في ربوع الأناضول» (Anatolische Reise) يغامر الكاتب ويطأ بقدميه أرضاً هي، سياسياً، ضيقة المساحة: فأحداث هذه القصة تدور حول توقف مصير الفلاحين على مشيئة الإقطاعي الذي يغمر الأراضي والقرى كافة بالمياه بهدف الحصول على الربح الوفير من زراعة الأرز. إننا نعرف جيداً هذه القصة التي تتكرر دائماً وأبداً. ففي كل مرة يقف المغلوب على أمره في مواجهة المتسلّط الغالب. وفي كل مرة يقلق القرّاء على نهاية الصراع غير المتكافئ وإن كانوا يعلمون مسبقاً بالنهاية المحزنة التي تنجم عن هذا الصراع عادة.

ويلعب دور البطولة في هذه القصة، المروية باقتضاب، شاب كردي وفلاحة فقيرة. فهما يقودان سكان القرية، التي غمرتها المياه، وينظّمان مسيرةً احتجاجاً على هذا العمل. من ناحية أخرى يتولى الاثنان شرح الأمر لموظف حكومي شاب شديد السذاجة ويحيطانه علماً بمدى الفقر المخيّم على السكان وبالأبعاد الواسعة والأساليب الحاذقة التي آلت إليها الرشوة. وكل حادث يُروى هاهنا ـ تظاهرات البسطاء من صغار الفلاحين على سبيل المثال ـ، وكل الجزئيات المسجّلة على الهامش ـ من قبيل مكتب الموظف الشاب ـ إنما هو تجسيد حي للتجربة ودليل ساطع على رؤية المؤلف؛ فالإقليم المعذب ما هو في الواقع إلا جوكوروفا، ما هو في الواقع إلا ذلك الإقليم الذي لازم المؤلف منذ طفولته، ذلك الإقليم الذي صاغ طبيعته وتركه يفطن لما هو حق وما هو باطل، ما هو في الواقع إلا ذلك الإقليم الذي كان المؤلف صوته المعبّر سواء في مطلع شبابه حين كان يكتب العرائض والرسائل للأميين، أو حين أصبح صحفياً، أو حين كتب هذه القصة التي كانت باكورة أعماله القصصية.

إن ياشار كمال من صنف أولئك الكتّاب الذين يرون بالقرية التي ولِدوا فيها بمحض المصادفة عالمهم الوافي. فكما هو الحال عند فوكنر (Faulkner) و [الكاتب القرغيزي] آيتماتوف (Aitmatow) أو عند جويس (Joyce) أيضاً، فإن كل الأحداث تتمحور حول مكان آلام الطفولة والصبا. إذ يجري استحضار تلك المناظر الريفية ـ وبعض المناظر الحضرية من حين لآخر أيضاً ـ التي يسكنها أناس تعلّقوا بها وجعلوا منها محور العالم حتى وهم يعيشون على الهامش عيشة ضياع وخيبة.

وأنا أيضاً مصاب بهذا الولع. وأنا أيضاً لا أستطيع نسيان أقاليم ضاعت منا منذ زمن طويل. فكل سطر دوّنته على الورق يظل – حتى وإن ذهب بعيداً في النهاية – يضرب بجذوره في الأرض الواقعة بين وديان نهر الفايكسل وتلال منطقة الكاشوباي، في مدينة دانسك وضاحيتها لانغفورت، في سواحل بحر البلطيق. فهناك توجد ولاياتي الشبيهة بالولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأميركية[1]، هناك ضيعت مدينتي دبلن[2] وهناك يمتد إقليمي الشبيهة سهوبه بسهوب القيرغيز[3] (Kirgisisch)، هناك توجد مدينتي جوكوروفا[4].

وفي منتصف الخمسينيات يتخذ وصف ياشار كمال الظلم السائد من حوله أبعاداً عالمية، يغدو وصفاً يتخطّى تعرّجات وانحناءات الكوكب الأرضي: فقد تُرجمت الرواية الموسومة «صقري ميميد» (Memed mein Falke) إلى أكثر من لغة. وسبب

(1) يشير المؤلف هنا إلى الكاتب الأميركي وليم فوكنر، المترجم.
(2) أراد المؤلف الإشارة إلى الكاتب الإيرلندي جيمس جويس، المترجم.
(3) يشير المؤلف هنا إلى الكاتب القرغيزي جنكيز آيتماتوف، المترجم.
(4) أي مدينة ياشار كمال، المترجم.

هـذا الإقبال الواسـع مـا كان يكمن في أننـا نواجه هاهنا قصة شـبيهة بقصـة روبـن هود الخالـدة فقط، بـل كان يكمن أيضاً فـي أن القاص قـد ترك القرّاء ـ سـواء كانوا فـي أميركا الجنوبية أو في روسـيا أو في الدولتين الألـمانيتين – يشـعرون بأنهم يعيشـون فـي إقليم ليس غريباً عنهـم، إقليـم يئن أنيـن أقاليمهـم من فرط مـا فيه من فاقـة وحرمان. فالمؤلـف يتحدث، بلا بكاء تقليدي أو شـكوى نائحة بلهجة منبرية، عـن عمق التفـاوت في توزيـع السـلطان، ويروي قصة فتـى ضعيف البنيـة، امتهن بـادئ الأمر رعي الأغنـام وصار، من ثم، قناً من أقنان الأرض يُكافـأ علـى جهده من خلال جلده وإذلاله يومـاً بعد يوم. ثم خسـر هذا الفتى فـي نهاية المطاف الفتـاة التي هام بها منـذ الطفولة. ويبرهن المؤلف على أن هذه الأسـباب مجتمعة كانت السـبب الذي دفـع هذا الفتى للهرب إلـى الجبال والتحول إلى قاطع طرق مرهوب الجانب وأسـطورة تتحدث بها الأفواه، لا سـيما أنه بات يثأر للفقراء والمزارعيـن المظلومين الذين فقدوا آخر ما لديهم من أرض يقتاتون من محصولها.

إلا أن بطـل القصـة ليس نسـخة مسـتقاة من قصص رومانسـية مبتذلـة تدور حول واحد من قطاع الطـرق. ففي القصة لا يوجد بطل يريـد إلقاء الدروس علينـا وتعليمنا العبر. فمع أن بطل القصة إنسـان هزيـل البنيـة لا يتصـف بعظمـة عضلاتـه، ولا باسـتعداده لتصويـب مسدسـه على الآخرين لأتفه سبب، إنسان كان قد درج على مساعدة والدتـه فـي مزرعتها المتواضعـة، إلا أن هذا الإنسـان الهزيل يتحوّل بيـن ليلـة وضحاها إلـى متهم خطيـر لا لشـيء إلا لأنه طالـب بحقه المشـروع. وهكـذا، يلتحـق بطـل القصة بجماعـة من قطّـاع الطرق ويرضـى بنهب مال مَنْ كانوا قد اسـتضافوه في السـابق، ويتحول من بعـد اعتقـاده بأنه عثر على الشـخص الذي عذب وقتل والدته وسـامَ

القـرى الخمس الذل والهوان، إلى مجرم يضرم النيران متعمّداً ويزيد من نكد الفلاحين المستعبدين حينما يضرم النيران، بلا تعمد منه، في أكواخهـم وحظائرهـم. إننا هاهنا إزاء شـخص غريـب الأطوار، فهو، تارة، بريق أمل للفلاحين، وتارة، ينشـر فـي صفوفهم الرهبة والفزع. إنه بطل يكافح الإرهاب الناشئ عن الجور المتصاعد، إنه بطل يكافح الإرهاب الذي تنعكس فيه أسـباب وآثار الإرهاب القاتل الذي ينشـر ظلاله على العالم في اليوم الراهن.

ويجري، في هذه الرواية، تصوير الشخوص الثانويين على أنهم يعانون من ازدواجية في الشخصية، وتناقض في الأفعال والتصرفات. وللتدليل على هذه الحقيقة يكفينا أن نأخذ علياً الأعرج كمثال صارخ على ازدواجية شـخصية هؤلاء الأفراد. فعلي يكره الإقطاعي ويحقد عليه، ويقدّم في العديد من المرّات براهين تؤكد على إخلاصه لميميد الهارب. ولكن، وبما أنه أعني علياً، هو الشخص الوحيد القادر على تتبـع أثـر الهارب ولما كان عليٌ هذا شـغوفاً باقتفاء أثـر المطارد، لذا فإنه يظل عرضة للخيانة، أي أنه يظل فريسـة سـهلة تسـتطيع الشـرطة الاستعانة بها متى ما تشاء لمطاردة الهاربين. حقاً تحاول إيراس، الفتاة الهاربة مع ميميد ورفاقه، التقليل من شـأن هذا الخطر فتقول مؤكدة: «كلا، لـن يجرؤ عليٌ الأعرج على اقتراف إثم من هذا القبيل»، إلا أن ميميد يرد قائلاً بعبارات واثقة: «لكنه لن يحجم عن اقتراف هذا الإثم إذا مـا رأى أثراً. فـي الواقع، كان عليَّ أن أقتل عليـاً الأعرج في اليوم الأول».

وهكذا، يرى القارئ شخوص الرواية حيارى قد يرتكبون بنحو مفاجـئ الخيانة، ومترددين بين الحـب والكراهية وبين الأمل العظيم والقنـوط المفرط. ويشـارك القارئ شـخوص الروايـة فيعيش معهم

مـا يمـرّون به من انتصارات وهزائـم كافة وكأنّ ما تسـرده الرواية من أحداث هو من صلب انتصاراته وهزائمه. من هنا، لا غرو أن يواصل المرء القراءة في الجزء الثاني من قصة ميميد، أعني الجزء الموسـوم «الأشواك تحترق». وبعد انتهاء القارئ من الجزء الثاني لا مندوحة له من أن يتحوّل إلى مدمن يتطلّع لقراءة الجزء الثالث الموسوم «مملكة الأربعين عين».

إن روايات ياشـار كمال تسـتحوذ على لب القارئ. إنها تأسـره حقاً. فميميد، المتخفّي في مسـتنقعات ينتشر فيها الوباء، المتستر بين الحلفـاء، المطارد فـي أراضٍ أُضرمت النيران في أشـواكها، الهارب في غابات لا دروب فيها ولاً طرقات، واللائذ بين قمم الجبال، يشعر بوحدة قاتلة وتسـاوره مشاعر تقضّ مضجعه وتتركه لا يريد شيئاً آخر سـوى النجاة بنفسـه. وهكذا، لا عجب أن نراه يتغيّر تغيّراً عظيماً في نهاية الرواية، نراه يتحوّل، في نهاية الرواية، إلى إنسان آخر.

وحين يختتم ياشـار كمـال روايته بهذا النحو، فـإن هذا لا يعني أنه قد انحاز إلى هذا الطرف أو ذاك. إن مؤلفات ياشار كمال لا تدفع الآخريـن إلى أداء فعـل معين، إنها تريد وصف الحـال كما هي. فهو وإن كان، بصفتـه اشـتراكياً عـن تجربة، يعلـم أن الظلم قد اسـتفحل فعـلًا، وأنـه يتخذ دائماً وأبـداً صوراً مختلفة حاذقـة، إلا أنه، مع هذا، لا يعتقد أن الظلم سيزول عن الوجود، وذلك لأن الكفاح ضد الظلم يـؤدي، من ناحيته، إلى نشـر الفوضى في العالـم. بيد أن هذا لا يمنعه مـن الكتابة عن هذا التفاوت العظيم. فأبطالـه وخصومهم يقفون بين فكـي الرحـى. ولا يحاول ياشـار كمال، أبـداً، الاسـتعانة بالتأملات الفكريـة لإظهـار أبطالـه وخصومهم بمظهـر يخفي حقيقتهـم. إنهم شـخوص أسـطورية، أو لنقـل، إنهم شـخوص يبدون، في سـياق ما

تقوم به الرواية من عملية لخلق الشخوص الأسطورية، أناساً أكبر من حجمهم المعتاد، أناسـاً خالدين. وتزداد هذه العملية تعزّزاً من خلال هذه الإشاعات، ومن خلال ما يرويه الناس من أنصاف الحقائق، وما يتداولونه من آمال تنشأ عن هذه الحقائق المشوّهة.

وبوضـوح يفوق الوضوح الذي اتسـمت به رواية ياشـار كمال المبكـرة، أعنـي روايته الموسـومة «صقري ميميد» يتجلّـى لنا هؤلاء الأبطـال بنحو مضاعـف وأكثر مـن المضاعف في ملحمتـه اللاحقة المنشـورة عـام 1978، هـذه الروايـة التي نُشـرت بالألمانيـة بعنوان «Zorn des Meeres» «غضـب البحـر» والتـي لا تـدور أحداثها في الأناضـول، في قـرى جوكوروفا وجبـال طوروس، بل فـي الفوضى المخيمـة علـى المدينـة الكبرى، فـي الفوضـى الضّاربـة أطنابها في اسطنبول.

وتدور أحـداث الرواية هنا أيضاً حول أناس يميلون إلى اعتزال الآخرين. وسـليم هو اسـم أحد أبطال هذه الرواية. إنه سمّاك ينحدر من أصول شركسـية ويكابد من جرّاء المذابح المنظّمة، التي يتعرّض لها سـمك الدلفين في بحيرة مرمرة، لا لشـيء إلا حباً بكسـب الربح الوفير، ما يكابده المرء الذي يرى بأمّ عينه أن مصدر رزقه قد نُسـفت أركانـه من الأسـاس. أما الآخـر، زينل، فإنه يرجع بأصوله إلى أسـرة كانت تقطن على سـاحل البحر الأسـود. وتبدأ الروايـة بجريمة قتل، حالها في ذلك حال الروايات البوليسـية التقليدية. وهكذا، ومن الآن فصاعـداً، يتحـوّل زينل إلى شـخص تطـارده أجهزة الشـرطة. وتتيح هـذه المطاردة للقارئ متابعـة زينل وهو يتخفّى في أكثر زوايا المدينة ريبة.

ومـا كاد زينـل ينتهي من اقتراف جريمة القتل، وما كاد السّـماك

سليم يبصق في وجه القاتل زينل، سرعان ما تتلاشى ملامح كل ما هو حقيقي صريح، وسرعان ما تمحو الضوضاء المتعالية من المقهى الشعبي، الذي ارتكب فيه زينل جريمة القتل، الملامح التي تميّز بها أبطال الرواية حتى ذلك الحين. إن هذا الأسلوب، الذي كان المؤلف قد جرّبه في روايته الأولى – أعني ترك بعض الأصوات تتحدث عن نفسها وتثرثر على مدى صفحات كثيرة من صفحات الكتاب بلا تعليق أو انحياز من المؤلف – يسرد جزيئات الوقائع كافة، سواء المذبحة المرتكبة بحق أسماك الدلفين أو العمليات التي تنتهجها الشرطة وهي تطارد القاتل الهارب، بتصعيد شيّق ملموس وبتفصيل دقيق ويفضي، في نهاية المطاف، إلى مبالغات تساعد على خلق الأساطير وذيوع بعض الإشاعات وتكذيب إشاعات أُخر ويتصاعد، من بعد، إلى أنشودة من تلك الأناشيد التي تخلّلت المسرحيات التراجيدية في التاريخ القديم.

وفي موضع من المواضع القليلة التي يعلّق فيها المؤلف على القاتل زينل، يقول ياشار كمال: «لقد تحوّل زينل إلى مرآة تعكس آثامهم. ففي رؤوسهم خليط من كل ما يخطر على البال. كان مهرّباً وقدّيساً، كان أفّاقاً لا يرحم وإنساناً طيّب السريرة، كان مؤذياً، جواداً، وحشياً غاشماً، بخيلاً، شجاعاً وجباناً في الوقت نفسه».

علاوة على هذا، كان هناك جيش جرّار من صحفيين يزوّدون الصحف بأخبار مثيرة تتحدث عن زينل ـ المطارد الذي يخدع الشرطة باستمرار بوحي من غريزته، والذي يتّصف بضعف البنية وبالجبن في الواقع ـ فتصوّره الصحافة على أنه رئيس عصابة عريض المنكبين وأنه يرتكب الجريمة تلو الجريمة ويثير الرعب في قلوب سكان اسطنبول. وحتى صوره الفوتوغرافية صارت متداولة بين

النـاس: صـوره التي أمسـت تثير لا الرهبة فحسـب، بـل والإعجاب أيضاً، عند الكل، بما فيهم زينل ذاته.

إن اسـطنبول، المدينة العملاقة المطلّة على مضيق البوسـفور، والبحـر الذي تطل عليه هذه المدينة، هما المكان الذي تدور فيه هذه الأحـداث المثيـرة للحيـرة. وتتداخل في هـذه الرواية أماكـن كثيرة، فخيوطها تمتد لتشمل مركز المدينة والضواحي المحيطة بها، وأماكن سـكنى السـمّاكين والمهرّبيـن، والمقابـر والجوامع ومنطقـة الميناء والأسـواق التجارية. ومـن خلال الصور التي تتعاقـب بأنفاس لاهثة وبنحو متصاعد مشيرة إلى أن شخوص الرواية قد صاروا يقفون على أبـواب الجحيم، ينجح ياشـار كمال في اسـتدعاء اسـطنبول بصفتها مركـزاً يثير الفـزع من ناحية، ومكاناً يمنـح الأدب الحرية التي يحتاج اليها : «فحينما تستيقظ اسطنبولُ، تستيقظُ معها أيضاً الأقذارُ، والقَرْنُ الذهبـي المروّعُ، الذي لـم تعد الميـاه تتحرك فيه قيد أنملة من فرط ما فيـه من قمامة ورمم قطط لا تُعـد وكلاب لا تُحصى وفئران ونوارس لا حصر لها، والذي صارت أشـعة الشـمس وأنوار النيون والأضواء الكشافة تنعكس على ما فيه من وحلٍ، والذي غدا المكان الذي تُرمى فيه أغصان الأشـجار وقشـور الفاكهـة وكميات لا تقـدّر غير صالحة للأكل من طماطـم وباذنجان وبرتقال وبطيخ لتختلـط بالمياه القذرة والزيوت الطافحة من مواسـير المصانع مكونة طبقة متماسـكة تركد فوق مستنقع لا شبيه له في العالم أجمع من حيث رائحته الكريهة».

وقـد ينطبق هـذا الوصف على مدن أخرى كثيـرة. ومهما كانت الحال، فإن منظر المدينة يخترق دائماً وأبداً الشـبورة وضوء الشمس المتخفيـة من خلف الغيـوم، وأن القاتل المطارد يتـرك مركز المدينة ويتخفّـى فـي الضواحـي المحيطـة بها. ففـي مركز المدينـة لا مأوى

يحميـه. أمـا في الضواحـي فإنـه يحصل علـى المخبأ الذي ينشـده. وانتشـرت الشـرطة فـي كل مـكان. فجماعـة منهم متسـتّرة بلباسـها المدنـي ومزوّدة بصفّارات الإنـذار، وجماعة أخرى ترتدي الملابس الرسـمية. وجلس ثلاثة من الشـرطة في مكان الجريمة، في المقهى، بانتظـار عـودة القاتل إليـه. ويصوّر ياشـار كمال بوضـوح لا مثيل له فـي باقي صفحات الرواية هؤلاء الشـرطة باعتبار أنهـم يمثّلون القوة المناوئـة فيقول عنهم: «... ولقد جلسـوا منتظرين وصول زينل، وإن كانـوا في قرارة أنفسـهم واثقيـن من أنه لن يعود. لقـد كان الثلاثة من الريف. وكان أصحاب السـلطان قد أوحوا إليهم بأنهم من عرق نبيل وأن في عروقهم يجري الدم النقي، وأنّ ضمهم إلى سلك الشرطة ما كان إلا بسـبب هـذه الصفـات. وبعدما آمنوا، هم أنفسـهم، بأنهم من عـرق مميّز، صـاروا يرون فـي كلِ امرئ من جنس آخر عدواً، سـواء كان هـذا الآخـر شركسـياً، كرديـاً، لازياً، يهوديـاً، إغريقيـاً أو أرمنياً. وهكذا، راحوا يشـحذون السـكين لذبح زينل، فزينـل كان لازياً، فلو تمكّنوا منه ووقع في قبضتهم، فإنهم على أهبة الاستعداد لسلخ جلده وحشو فمه بالرصاص! كما أحجموا عن تبادل الأحاديث مع صيادي السمك الجالسين في صالة المطعم البسيط، فهم ينظرون إليهم نظرة فوقيـة متعالية. لقـد اعتزلوا هؤلاء جميعاً وفضّلـوا الجلوس في ركن مـن أركان الصالة وهم يتهامسـون ويصوّرون لأنفسـهم الطريقة التي سـيذبحون بها الاشـتراكيين في يـوم من الأيام حفاظاً علـى نقاء الدم التركي النبيل. فهم يشـعرون بأنهم أقوياء أشـدّاء. ففي جهاز الشرطة فقـط هناك عشـرون ألفاً من النسـور الأصيلـة التي تكنّ أشـد العداء للأكراد واللازيين والشراكسة والبدو واليهود. فالأعراق المنحطّة من جنس البدو والأكراد والشراكسـة واليهود والنازحين من اليونان وباء يهـدّد مصير هذا الوطن. ما على القائد سـوى إعطـاء الأمر... فالقادة

قامـوا بجرد دقيق وتوصّلوا إلـى نتيجة مفادها أن «الذئـاب الرمادية» (Die Grauen Wölfe) قـادرة علـى قتل ثلاثة ملايين وطرد خمسـة ملايين واسـتدعاء خمسـة ملايين من الأتراك الأصيلين المقيمين في أواسـط آسـيا، منهم القرغيز على وجه الخصوص، فهؤلاء هم آباؤنا ذوو الدماء النقية. إن هذه هي الطريقة المثلى لإنقاذ تركيا».

من خلال هذه السـطور يتحدث جنون تعظيم العرق عن نفسه، ومن خلال لسان رجال الشرطة الجالسين من حول طاولتهم المفضّلة فـي المقهـى تتحدث عن نفسـها، حملات إبـادة الشـعوب. ومقارنة بباقـي صفحات روايته «غضب البحر»، يعطي ياشـار كمال، هنا، في المقهى، الحقد العنصري المتعجرف حرية واسعة للتحدث عن نفسه والتعبيـر عما يجول في خاطـره. حقاً يجري الحديث هنا عن العنصر التركـي النقي وعـن الأعـراق المنحطّـة الممثلة بالأكـراد واللازيين واليهـود والشراكسـة، إلا أن القارئ يظل يتصوّر أن الجالسـين حول هـذه الطاولـة لا يتحدثـون التركية فقط، بل لغات مـن مختلف أنحاء العالـم، يتحدثون الألمانية أيضاً. فليس هذا الموظف أو ذاك في جهاز الشـرطة هو فقط الذي يعبّر، بهذه الصراحة، عن مكنون ما في صدره من معاني فاشيّة. ألـم يحذر قبل فترة وجيزة من الزمن سياسي ألماني كبير المنزلة من «تغلغل الأعراق الأجنبية في الشـعب الألماني»؟ ألا تعبّـر كراهيـة الأجانب عن نفسـها في ألمانيـا بلغـة بيروقراطية مبطّنة تعكسـها الأسـاليب التـي تنتهجهـا وزارة الداخلية لإبعـاد الأجانب، أسـاليب تجد صداها ووحشـيتها في ما تقوم بـه العصابات المتطرّفة من اليمينيين؟ فأكثر من أربعة آلاف لاجئ من تركيا والجزائر ونيجريا محجـوزون في معتقـلات مخصّصة لأولئـك الذين تريد السـلطات إبعادهـم وإن لـم يشـاركوا بأي عمل جنائـي. إننا جميعـاً قد أصبحنا شـهوداً لا نحرّك ساكناً، أصبحنا شهوداً على تكرار الأعمال البربرية،

ولكن بربرية تكتسب شرعيتها من الديمقراطية في هذه المرة.

ومع أن ياشار كمال يعرض في مؤلفاته ـ التي لا أستطيع أن استقي منها إلا أمثلة وجيزة في هذه الكلمة المقتضبة المخصّصة لتقريظ رواياته ـ جنون العظمة بالعرق بصفته كراهية للأجانب من خلال الحوار الذي يدور في هذه الروايات بنحو متواصل، إلا أن الأمر الواضح أيضاً هو أن ياشار كمال يريد أن يبيّن لنا أن هذا الحوار ليس سوى تجسيد لسياسة رسمية، لسياسة حكومية. من هنا لا عجب أن يرى ذوو السلطان في المؤلف عنصراً مثيراً للإزعاج. من هنا تراهم يقدّمونه إلى المحاكم باستمرار. من هنا تراه يتحمّل الاعتقال والتعذيب. من هنا تراه – وللنجاة بحياته من عمليات الاغتيال التي يدبرها له المتطرّفون اليمينيون – يلتجئ إلى البلدان الأجنبية لسنوات عديدة. بيد أنه يعود إلى اسطنبول، إلى هناك حيث يستطيع التحدث بلغته التي يستقي منها الأساطير والحكايات، وحيث يستطيع مواصلة قض مضاجع السلطات الحاكمة.

إنه كاتب بعيد عن البرج العاجي الذي يتجدّد ويُستحضر روحه من حين لآخر. إنه شخص يأبى فك القيود التي تربطه بمجتمعه. ولهذا السبب تراه يَمْثُل أمام القضاء. لهذا السبب قضى سنوات حياته معارضاً لا يهادن. فهو، وبصفته اشتراكياً ماركسياً، جرّب السجون التركية في وقت مبكر. وكان، من بعد، قد أطلق على هذه السجون اسم مدرسة الأدب التركي. وكان الشاعر ناظم حكمت، الذي حُكم عليه بالسجن بسبب عقيدته الشيوعية، قد استبدل السجن باللجوء إلى خارج البلاد. ومن خلال نشاطه السياسي كان الكاتب الساخر عزيز نسين يشعر بوجود أواصر صداقة حميمة تربطه بياشار كمال. إن هؤلاء الكتّاب الثلاثة تجسيد دقيق لتركيا غير تركيا التي نعرفها

حالياً، إنهم الضمانة الأكيدة لبلد تعيش فيه كل الشعوب جنباً إلى جنب وفي سلام ووئام وبلا تمييز وتفرقة، لبلد ينطوي فيه التطلع نحو السلام على تحقق التطلع للمساواة الاجتماعية أيضاً. إن هؤلاء الكتّاب الثلاثة كانوا قد مكّنوا العالم من التعرف على آداب اللغة التركية. وبإصرار وحزم وبرغم النقد الحاد الذي يوجهه المرء في الغرب وفي ألمانيا بوجه خاص إلى الأدب الرامي إلى إزاحة الستار عن الأوضاع الاجتماعية السائدة، أعني الأدب المخالف لروح العصر وما يتّصف به هذا العصر من موضات جديدة، واصل ياشار كمال تأليف الرواية تلو الأخرى، وراح، برواياته الموسومة «النسيم القادم من السهل» (Der Wind aus der Ebene) و«عشب الخلود» (Unsterblichkeitskraut) و«أرض حديد، سماء نحاس» (Eisenerde, Kupferhimmel) و«نشيد الألف ثور» (Lied der Tausend Stiere) يكثف نسيج أساطير بلاده الأناضول ويفتح عيوننا لترى حتى أقصى أقاليم تركيا. لقد نجح المؤلف في تحقيق ما حالت دون تحقيقه السياسة المتردّدة، القلقة، المعادية للآخر الغريب عداءً وحشياً: فبأسلوبه القصصي، وبطريقته في إظهار الأسطورة بمظهر واقعي وفي تبطين الواقع القائم ببطانة أسطورية، اصطحب المؤلفُ القارئَ ليعبر معه الحدود، جعله يحيط علماً دقيقاً بعالم غريب عنه.

والآن، وبعد انتهائنا من رحلتنا الطويلة في مؤلفات ياشار كمال، لا مندوحة لنا من أن نتوجّه بالشكر إلى المؤلف، أي وبتعبير آخر، لا بد لنا من أن نتغلب على الضغوط السياسية الرامية إلى عزل الآخر، من أن نعيش مع جيراننا الأتراك بلا مخاوف يريد البعض إيحاءها إلينا، لا بل لا مندوحة لنا بما هو أكثر من هذا، إن علينا أن نطالب بضرورة منح ملايين الأتراك والأكراد القاطنين في بلادنا الحقوق المدنية التي يتمتع بها الآخرون.

فمنذ عشرات السنين، سواء في برلين أو في لوبيك، المدينة التي عشت وكتبت فيها دائماً، كان وجود الأتراك في الشارع ظاهرة معتادة، كان الأطفال الأتراك زملاء أبنائي وأحفادي في المدرسة. وكنتُ، على الدوام، واثقاً من أن نقاط التماسّ اليوم بأسلوبِ حياةٍ مختلفٍ تنطوي على إثراء لنا بكل تأكيد. فليس هناك ثقافة واحدة تستطيعُ العيش دوماً وأبداً من جوهرها فقط. فحين نزحتْ إلى ألمانيا عامة، وإلى ولاية براندنبورغ على وجه الخصوص، في القرنين السابع عشر والثامن عشر الأعدادُ الغفيرة من اللاجئين الهوجونوت، أعني أولئك الفرنسيين الهاربين من الإرهاب الذي مارسته بحقهم الكنيسة الكاثوليكية والدولة المحكومة حكماً استبدادياً، أعاد هؤلاء المهاجرون الحياة إلى الاقتصاد والتجارة وأخيراً وليس آخراً إلى الأدب الناطق بالألمانية أيضاً. وهل يمكننا تصوّر ضحالة معلوماتنا عن القرن التاسع عشر فيما لو افتقرنا إلى روايات تيودور فونتانه (Theodor Fontane)؟ ويمكن قول الشيء نفسه عن العطاء الذي يسبغه علينا الستة ملايين أجنبي القاطنون في ألمانيا اليوم الراهن؛ وتبقى هذه الحقيقة قائمة حتى وإن أخذنا بنظر الاعتبار أن هؤلاء الأجانب، خلافاً للهوجونوت الذين أبدت ألمانيا التسامح معهم ومنحتهم الحقوق المدنية، لا يزالون يعانون من التمييز المجحف ويئنّون تحت وطأة سياسة تميل إلى معاداة الأجانب؛ فشعار «يا أجانب غادروا البلاد» لا يجده المرء مكتوباً على جدران المنازل والعمارات فقط».

وربما تفلح جائزة السلام، التي يمنحها اتحاد الناشرين الألمان في هذا اليوم، في فرز عامل، لا بل عوامل كثيرة [لإنصاف الأجانب في ألمانيا]. إن تحقّق هذه العوامل يعكس تطلّعات الأديب الذي يحصل على هذه الجائزة في هذا اليوم، تطلّعات ياشار كمال، الذي لم يركّز

نقده على الأوضاع الداخلية السائدة في بلاده فقط. ففي مقالة نشرها قبل بضعة أعوام في مجلة «دير شبيغل» أدان ياشار كمال الاضطهاد الذي يتعرّض له الأكراد في بلاده وأعاد إلى أذهاننا أن الديمقراطيات الغربية يجب أن تتخذ موقفاً حازماً حيال هذا الاضطهاد. فقد كتب قائلًا: «لم يعد بالإمكان، ونحن نقف على أبواب القرن الواحد والعشرين، حجب حقوق الإنسان عن أي شعب أو عن أية أقلية عرقية. فحجب هذه الحقوق يفترض توفّر قوة لا تتوفّر عليها الدولة بكل تأكيد. ففي نهاية المطاف، فإن إرادة وعزيمة بني البشر هي التي أخرجت الأميركان من فيتنام والسوفييت من أفغانستان وخلقت المعجزة في جنوب أفريقيا. إن الجمهورية التركية لا يجوز لها أن تواصل شن هذه الحرب وتدخل القرن الواحد والعشرين محمّلة بهذا الوزر العظيم. إن الضمير الإنساني سيساعد شعوب تركيا على وقف هذه الحرب الوحشية. وغني عن البيان أن من واجب تلك الشعوب على وجه الخصوص، التي تزوّد دولها الحكومةَ التركية بالسلاح والعتاد، المساعدة على وقف هذه الحرب...».

إن هذا النداء، أيتها السيدات وأيها السادة، موجه إلى ألمانيا أيضاً، ليس موجهاً إلى ألمانيا اعتباطاً، بل لسبب بيّن وواضح. إن على المرء المشارك في اجتماع يعقد هنا، في كنيسة باولوس، أن يعلم، إذا ما كان يساند سياسات حكومة كول/ كينكل، أن ألمانيا الاتحادية تسمح منذ سنوات كثيرة بتزويد الجمهورية التركية بالأسلحة التي تستخدمها في حرب الإبادة ضد شعبها. فحتى بعد عام 1990، حين منحتنا الظروف الفرصة المناسبة لإعادة توحيد ألمانيا، واصلت ألمانيا دعم الحرب التي تشنها الحكومة التركية وذلك من خلال تزويدها بدبابات وعربات مجنزرة كانت موجودة في مستودعات الأسلحة والعتاد في ألمانيا الشرقية. لقد كنّا ولا نزال شركاء في هذه

الحرب. إننا نغضّ الطرف عن هذه الصفقات السريعة والقذرة. إنني أخجل حينما أرى بلادي قد انحطّت إلى تاجر يتاجر في الأسلحة، حين أرى أن حكومة بلادي تجيز المتاجرة بوسائل القتل والإبادة رافضة في الوقت نفسه منح الأكراد المضطهدين حق اللجوء.

لقد انعقد هذا الاجتماع لمنح جائزة للسلام. وإذا أُريد لهذه الجائزة الممنوحة لكاتب كبير أن تكون بمستوى العنوان الذي تحمله، إذا أُريد لمكان الحفل، كنيسة باولوس، أن لا يهبط إلى مجرد عامل مظهري، إذا أُريد للأدب، الذي ثمنت إنتاجه، أن يكون قوة دفع كبيرة، فسيكون كل كاتب وناشر وصاحب مكتبة يشارك في هذا الحفل، سيكون كل واحد يعي مسؤوليته السياسية، مطالباً بفتح صدره لنداء ياشار كمال ومساندة هذا النداء والعمل من أجل أن تحترم السلطات في بلاده حقوق الإنسان وأن تكف عن مخاطبة شعبها بلغة السلاح، وأن يعمّ السلام كل قرية في البلاد.

# المعلّم الذي ينشد التعلّم

**خطاب أُلقي في ندوة حول المدرسة الشاملة**

**أيار / مايو 1999**

بحـذر شـديد، وكما لو كنـتُ أتلمّس طريقي في أرض شـديدة الوعـورة، أتجـرّأ، بتردد مشـوب بالخـوف، وأضع قدمي فـي منطقة يطلق عليها المرء، ليس دائماً من باب الإطراء، بل ومن باب الذم في بعض الأحيان، عبارة «المؤسسـة التربوية». إنها منطقة تحدّها حدود مفتوحة، أو لنقل إنها منطقة لا تحيط بها حدود ظاهرة للعيان، منطقة ما يكاد المرء يثق بأنه يستطيع التنزه فيها، وأنه، بعدما ينتهي من توجيه النقـد إلـى طرقاتها الخطـرة وافتقارها إلـى لوحات تنبّـه إلى مكامن الخطر واتصافها بضيق المسـاحة وندرة أماكن الاسـتراحة، يغادرها، بعـد هذا كلـه، وهو يعاني من إرهاق بيّن وتعب صـارخ. وهكذا، فأنا أيضـاً سـأحاول في سـياق هذه الكلمـة أن أخرج عن هـذا الموضوع حيثما أستطيع. ولهذا السبب أرجوكم، سيداتي وسادتي، أن تسمحوا لـي أن أهـرب، أو أن أحتال وأحاول، بين فقـرة وأخرى، العثور على عذر أتخفّـى وراءه، فأنا حين أتجرّأ وأقف بين يديكم أعترف طواعية بأنـي لا أعـرف إلا القليل عما هو متـداول في طول البـلاد وعرضها مـن مناهج تخصّ التدريـس والبحث العلمي ومـن الخطط الهيكلية

والنظريـات التعليمية المختلفة. من ناحية أخرى، لا أود أيضاً أن أثير الضجر لديكم وأردد هنا ما تعلّمته من مطالعاتي المختلفة.

أنتـم، أيتهـا السـيدات وأيها السـادة، أنتـم، الذيـن دخلتم عالم التربيـة، بمحض المهنة، أي عـن ميل وبرغـم خيبـة الظن، وأصبحتم فـي المـدارس الشـاملة معلّميـن يرتاب منهـم البعض ويثنـي عليهم البعـض الآخر، لا مندوحـة لكم من أن تقنعـوا بمعارفي المتواضعة، غيـر المتخصّصة والتي أختصرها بعبارة واحدة مفادها: نعم، إني من مؤيدي المدرسة الشـاملة [هذه المدرسة التي يتعلّم فيها كل الفتيان، سـواء أولئـك الذين سـيذهبون، مـن بعد، إلـى المـدارس المهنية أو أولئك الذين سـيواصلون دراسـتهم الجامعية في ما بعد، المترجم]. فأنـا أعلن منذ السـتينيات – أي منذ كنتُ أناصـر الجهود الإصلاحية التـي بذلهـا وزير التعليم فـي ولاية برلين كارل هاينـس أيفرز (Karl-Heinz Evers) – عن تأييدي للمدرسـة الشاملة. فمن هذه المدرسة يتوخّى المرء أن تكون وسـيلة مهمة لكسـر طوق المعـارف الجامدة والقضـاء على القيود المفروضـة. ومنذ ذلك الحيـن، وطبقاً للنظرية التي سـار المرء على نهجها، فشـل أصحاب الشـأن في تحقيق بعض الأمـور الصائبـة ونجحـوا، عبر الطـرق الملتوية، في تحقيـق الكثير. وحاليـاً، فإني توصّلـت إلى قناعة مفادها أن المدرسـة الشـاملة فقط هي القادرة حالياً، أي في هذا الزمن الذي يتصف بالتأزم الاجتماعي، لا أقـول علـى الحيلولـة دون النتائج المفزعـة التي تفرزهـا الفوارق الطبقيـة، بل أقـول إنها هي وحدهـا القادرة على التخفيـف من وطأة هذه النتائج.

وأنـا حينما أقول هذا، فإنـي أعترف طواعية بأنـي أعبّر عن أمل ضعيـف. هـل نطلب مـن المدرسـة الشـاملة أن تكون مجرّد وسـيلة

لإصلاح خلل اجتماعي؟ ألا نريد منها ما هو أكثر من هذا؟ وتلافياً لكل سوء فهم، لا بد لي من أن أحاول الاستعانة بتجاربي المدرسية لتوضيح وجهة نظري. وغني عن البيان أن الزمن الذي قضيته في المدرسة كان، بسبب ظروف الحرب، قصيراً. فبعد أربع سنوات قضيتها في المدرسة الابتدائية وخمس سنوات قضيتها في المدرسة الثانوية، ارتديت، حالي في ذلك حال الكثيرين ممن كانوا في عمري، الملابس العسكرية الخاصة بالأفراد الذين يعملون جنوداً مساعدين في القوة الجوية. وهكذا، تعلّمت، وأنا فتى يافع يبلغ من العمر خمس عشرة سنة، تشغيل زناد المقاومات الجوية. لقد كانت الحرب هي المعلّم الذي تعلّمت عنه. فمع اندلاع الحرب كان عهد المدرسة قد مضى وولّى.

وفي الواقع، لم أشعر بالندم وقتذاك إلا نادراً ولماماً. فبما أني كنت تلميذاً تأخذ اهتماماته اتجاهاً أحادياً بشكل متطرّف - اللغة الألمانية والتاريخ عادة ومن حين لآخر مواد مدرسية من قبيل الجغرافية والرسم - لذا عانيت صعوبات كثيرة في المدارس الثانوية المختلفة. فقد رسبت في السنة الثالثة ثانوي وكنت، بقدر تعلّق الأمر بالرياضيات والكيمياء أو الإنجليزية واللغة اللاتينية، بلا سند عائلي، أي كان يتعيّن عليَّ الاعتماد على نفسي فقط، على ما لديَّ وما ليس لديَّ من إرادة. حقاً تعيّن على والديّ أن يشدّا الحزام على البطن وذلك لكي يكون بمستطاعنا، أنا وشقيقتي، أن ننتقل من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية أملاً في أن «نحيا حياة أفضل من حياتهم في المستقبل». ومع أنهما تحمّلا عن طيب خاطر عبء الرسوم التي كانت تتقاضاها المدرسة في دانسيغ، إلا أنهما لم يستطيعا أن يجاريا المرفّهين من الطبقة الوسطى ويقدّمان لنا ما يقدّمه هؤلاء لأبنائهم من مساعدة في مراجعة الواجبات المدرسية. أضف إلى هذا أنهما

ما كانا قادرين على دفع تكاليف المدرّسين الخصوصيين. وهكذا، وتأسيساً على وضعي المدرسي الضعيف، فإني كنتُ دائماً وأبداً عرضة للسقوط في الهاوية. فإذا كنتُ قد حققت نجاحاً باهراً في امتحانات اللغة الألمانية (حصلت في الامتحان على 100 بالمائة)، فإني كنتُ قد رسبت في مادة الرياضيات. ودرجة التفوق في مادة الرسم ما كانت تستطيع التعويض إلا بضآلة عن الرسوب في مادة اللغة اللاتينية. وينطبق الأمر على المواد الأخرى أيضاً. فدرجة جيد في مادة التاريخ والجغرافية ما كانت تعوّض إلا بشكل حرج عن درجة مقبول التي حصلت عليها في اللغة الإنجليزية. وبقدر تعلّق الأمر بالمدرسة الثانوية، كان فشلي أمراً متوقعاً، إن لم يكن مكتوباً عليَّ؛ وفي هذا – وفي هذا فقط – يكمن القدر الذي شاء لي أن أصبح، في زمن كانت الحرب صفته المميزة، جندياً مساعداً في القوة الجوية.

ولكن، هل كان بوسعي أن أكون في وضع أفضل، فيما لو كانت المدرسة الشاملة موجودة فعلاً آنذاك؟ إن هذا السؤال قد يبدو الآن أمراً لا طائل تحته. إلا أني كثيراً ما طرحت هذا السؤال على نفسي. ومهما كانت الحال، الأمر الأكيد هو أن معاناتي المفزعة وتجاربي القصيرة قد ساهمت جميعاً في تعزيز تأييدي لنموذج المدرسة الشاملة، أي لنموذج يعزّز تكافؤ الفرص ويمهّد الطريق لتحقيق العدالة الاجتماعية في النظام التعليمي. وإذا كانت هذه هي المهمة المطلوبة من المدرسة الشاملة، فإن هذه المهمة زادت اتساعاً في اليوم الحاضر، وذلك لأن هيكلها القائم على مبدأ التآزر يقدّم للكثير من التلاميذ المنحدرين من أصول أجنبية طرقاً يستطيعون سلوكها لبلوغ مصاف تعليمية أعلى درجة: فَمَنْ لا يستطيع «مجاراة الآخرين» في التعلّم، لا يُكتب عليه أن يسقط في القاع أو أن يعيش على هامش المجتمع.

ولكن، دعوني أرجع إلى كارثة شهادات النجاح والرسوب. فمع أني قضيت سنوات وجيزة في المدرسة، إلا أن هذه الحقبة من الزمن تركت بصماتها عليَّ. لقد خلّفت هذه الحقبة ندوباً لا تزال تؤلمني وإن كانت قد التأمت منذ زمن طويل. وكانت الشائعات تنتشر في كل مكان، شائعات ما كانت تريد أن تذهب أدراج الرياح أبداً. من ناحية أخرى، امتزجت الوصايا الألمانية المثالية بالتطلعات النازية وحفرت نفسها في أعماق الذاكرة بحيث أن المرء لا يزال حتى الآن يحفظ عن ظهر القلب مقاطع من الأناشيد التي كان يتغنى بها شبان هتلر. وظل بعض المعلّمين يستحوذون على مساحة عريضة في أحلامي ولم أتخلّص منهم إلا بعدما دوّنت رؤاي ودفنتها في مؤلفات كان عنوانها على التوالي «الطبل الصفيح» و«قط وفأر» و«أعوام الكلاب». إلا أن هذا لم يكن هو كل ما في الأمر. لقد واصلت التركيز على المعلّمين في رواياتي وقصصي التالية. فمؤلفاتي «مذكرات حلزون» و«بنج موضعي» تتمحور حول المعلمين أيضاً؛ وكان مؤلفي الموسوم «مواليد الرأس. أو الألمان ينقرضون» يدور، أصلاً، حول زوجين يمتهنان التعليم ولا يعرفان ما إذا كان ينبغي لهما أصلاً إنجاب طفل في هذا العالم الملعون. بيد أن هارم (Harm) ودورته (Dörte) أبوان من طينة صلبة لا يلدان إلا ما يتوافق مع الأرضية الليبرالية والنزعة الاشتراكية اللتين جُبلا عليها. وكان معلم الرياضة مالينبراند (Mallenbrandt) ومدرّس الثانوية كلوزه (Klohse)، هذا المدرّس الذي تسبّب، بالقسوة التي كان يتصف بها، في فشل تلميذه القديم ماهلكه (Mahlke)، هذا التلميذ الذي مُنِحَ نيشان صليب الفرسان في ما بعد. وما من شك في أن معلمة المدرسة الابتدائية ستتصرف، في اليوم الحاضر، بنحو لآخر فيما لو واجهها تلميذ السنة الأولى الابتدائية أوسكار ماتسيرات (Oskar Matzerath) والطبل المرافق

له. إنها ستتصرف معه بأسلوب تربوي يحاول إبراز الجانب المسلّي في الموضوع، أي ستتعامل معه بأسلوب آخر يختلف عن أسلوب الآنسة شبولنهاور (Spollenhauer) التي تحطّمت نظاراتها من شدة رنين صوت أوسكار كما وصفتُ ذلك في الفصل الموسوم «جدول الدروس». وعلى ما يبدو فقد قضى نحبه ذلك المعلّم الذي وصفت ملامحه في رواياتي. فالمعلّم الغريب الأطوار، المعلّم الذي يشبه المدرّس برونس (Brunies)، - فهذا المدرّس دأب على تكسير البُونْبُون أثناء الدروس - ما عاد يعثر، في اليوم الراهن، على زاوية يخفي فيها أطواره الغريبة. وكان هناك أيضاً المدرّس الذي تعلّمت على يده اللغة اللاتينية، أعني الدكتور شتاخنيك (Stachnik). فهذا المدرّس، الذي كانت صرامته تترك العرق يتصبّب من جبين تلامذته، والذي ظلّت ذكراه عالقة في ذهني وذلك لأنه، وبصفته الرئيس السابق لحزب الوسط في دانسيغ، كان قد أُجبر، إبّان الحكم النازي، على استبدال مكتب المدرّسين بزنزانة في سجن شتوتهوف في مرّات عديدة. ولهذا السبب فإني خلّدت ذكراه في روايتي «سمكة موسى» (Der Butt). وكان هذا المدرّس قد اتخذ مواقف صلبة، في موضوعات أقل خطراً، وراح يعلن عن رأيه، ليس من خلال الصمت الرافض، بل ومن خلال الاحتجاج الصارخ لدى مديريات التعليم الحكومية. وهكذا، سيداتي، سادتي، أستطيع مواصلة الاستشهاد بمدرّسين كثيرين خلّدتهم الأعمال الأدبية؛ مدرّسين كانوا الضمير المعبّر عن تطلعات ومعاناة العصر الذي عاشوا في كنفه. إلا أني أود الآن الاكتفاء بهيرمان أوت (Hermann Ott)، الشخصية التي تناولتها في روايتي «من مذكرات حلزون»، هذا المدرّس الذي كان تلامذته في المدرسة اليهودية الخاصة يطلقون عليه لقب دكتور مُتَشَكِّك.

ولم تكن لديّ معرفة بهذا المدرّس، أو لنقل أن معرفتي به نشأت

من خلال ما رُوي عنه فقط. وكم كنتُ أتمنى أن أتعلّم على يد هيرمان أوت، المعروف بالدكتور المتشكّك. ومهما كانت الحال، فإن هذا المدرّس اختلقته في روايتي من تصورات عديدة وأمنيات كثيرة. فهو شخص ينظر للأمور في ضوء التجارب الطويلة والتمحيص الدقيق. إنه شخص كان بوسعه أن يعلّمني، في زمن الإيمان الأعمى، التشكيك والحذر. إنه ذلك الشخص الذي كان يستهزئ بالمقالات الرخيصة التي كان المرء يدبّجها وقتذاك حول المعتقدات السياسية. على صعيد آخر، ألم أعاصر في السنوات التي قضيتها عضواً في التنظيم المسمى «شبان هتلر»، معلّمين شجعاناً أعربوا عن شكوكهم، إن لم يكن بنحو صريح فمن خلال التلميحات على أدنى تقدير؟ إنني لا أزال أتذكر مدرّساً كان يهابه التلاميذ كلهم، كان شديد التمسك بالعقائد المحافظة، وكان يلقي علينا المحاضرات بدرس التاريخ وهو يقطع قاعة الدرس ذهاباً وإياباً. وكان هذا المدرّس يزيد من تعقيدات أحداث حرب الثلاثين عاماً بتشعبه في الحديث وفي رواية الأحداث الجانبية. وكان لا يكل عن تكرار عبارات من قبيل «إن هناك أكثر من سبب يدعونا إلى التشكيك بـ...» أو «ويجب على المرء هنا أيضاً أن يشك بـ...»، ولا ينسى أن يقول قبل كارثة ستالينغراد «إن الشعب الألماني، ومعه القيادة العامة للجيش، قطيع خراف» تاركنا نستفيق من الغفوة التي استسلمنا إليها. وفي وقت لاحق، وبنحو مفاجئ اختفى هذا المدرّس. وتصديقاً لما دار في خلدنا، فإن بعض طلبته كانوا قد وشوا به قبل أن ينتهوا من امتحان البكلوريا الذي تزامن مع أيام الحرب.

وكان هذا المدرّس، الذي لم أسمع نصيحته للأسف، قد حفزني بعد عقدين من الزمن لأن أروي قصته رواية أدبية باسم هيرمان أوت، المدعو دكتور متشكك. بل جاد هذا المدرّس عليَّ بما هو أكثر من

ذلـك: فله يعـود الفضل فـي أني أصبحـت أضع «مبدأ الشـك» فوق المبادئ الأخرى كافة، بما في ذلك «مبدأ الأمل».

وفي هذا اليوم وعلـى خلفية هذا الخطاب، أود أن أتقدم خطوة أخرى فأشـير عليكم،من حيث أنكم المعلّمات والمعلّمون العاملون في المدارس الشـاملة في مختلف المدن الألمانية، بضرورة التمسك بـ«مبدأ التشـكّك» باعتبار أن هذا المبدأ أحد المبادئ الأسـاسـية. إني أعـرب عـن نصيحتي هـذه عن قصد وعمـد، ففي السـنوات الأخيرة تعالت الأصوات، بما في ذلك صوت رئيس الجمهورية نفسه، مطالبة بضرورة التمسك ثانية بقيم مختلفة الألوان متعددة الضروب. وكثرت التحذيرات والمواعظ المناشـدة بضرورة وضع حد للنظام التعليمي الذي تتقاذفه الرياح والسائر بلا مبادئ واضحة يهتدي بها. وإذا كانت القيم المذكورة لم تشـتمل على مبدأي المُفضل، مبدأ التشـكك، إلا أنها اشـتملت على قيم أخرى مثيرة للريبة والشكوك حتى وإن تجلّت لامعة بفضل ما بذل المرء من جهود للإعلاء من شأنها. ومهما كانت الحال، فإن الكد والاجتهاد، والتمسـك بالنظام وحسـن السـلوك من جملـة القيـم التي طلـب منّا البعض ضرورة التمسـك بهـا وتبجيلها. ولكن، ما هي الجدوى من هذه القيم، إذا لم يعد دسـتورنا نفسـه، أو قانوننـا الأساسـي الديمقراطي كمـا يحلو للبعض أن يسـميه، عُرضة لأية شـكوك أو شبهات؟ ففيما لا يزال هذا الدستور يقر بأن «المِلْكية تترتب عليها مسـؤولية اجتماعية» - أي أن «على الملكية الخاصة أن تخدم متطلبات المجتمع» - يشـهد واقع الحال على أن هذه الملكية قـد صارت تتعارض مع متطلبات المجتمع. فالقرارات السياسـية لم تعد تُتخذ من قبل الحكومة المنتخبة أو من قبل المستشار: فعوضاً عن خضوعها للسياسـيين صارت القرارات السياسية تخضع، بلا تخويل شرعي، لمديري شركات لديهم قوة اقتصادية متماسكة وتأثير عالمي

الأبعـاد، مديرين ما انفكوا يعتقدون أن مـن حقهم أن يتهرّبوا من دفع ضرائب تقدر بالمليارات.

إني كثيراً ما أسـأل نفسـي عن موقـف المعلّميـن - وعلى وجه الخصـوص أولئـك المعلّميـن العاملين فـي المدارس الشـاملة غير المكلّفـة بمهام تعليمية فقط، بل وبمهام اجتماعية أيضاً - من النزيف المسـتمر الـذي تتعرض له القيـم الديمقراطية الأساسـية؟ فبأي نحو يفسّـر هؤلاء المعلّمـون للتلاميذ اعتـداء الصناعـة والمصارف على الدسـتور من خـلال ما لديها من قـوة وتأثير؟ وما هي المشـاعر التي تخيّم على الشـبان العاطلين عن العمل حين لا يكون أعداء الدسـتور شـيوعيين يتطلعون إلى تقويض أركان النظام الرأسمالي، بل مديرون يتحكّمـون بشـركات عملاقـة مـن قبيـل دايملر وسـيمنس ومصرف دريسـدنر والمصرف الألماني (Deutsche Bank)؟ أي، وبتعبير أقل صرامة: ما هي قيمة الورق المكتوب عليه دستورنا، إذا كان هناك من يسخر منه يومياً بتهديدات تقول: «إذا لم تستجب الحكومة لوجهات نظرنا فإننا سننقل إنتاجنا إلى بلد آخر»؟

نعم، إني أدرك جيداً أن المدرسـة لا تسـتطيع الوقوف في وجه هـذه العملية الآخذة بتقويض نظام الحكـم الديمقراطي. إلا أنها، مع هـذا، تسـتطيع تطعيم الطلبـة والطالبـات بمصل مبدأ التشـكيك. إن تطعيماً احترازياً من هذا القبيل يحول دون انتشـار المرارة بين الناس فـي كل مرة يشـعرون فيها أن الأماني التي يبشـرهم بهـا صنّاع الأمل الـكاذب لم تكن سـوى خدعة مدبّرة. من هنا، فإن مـن حق المرء أن يشكّك بكل النظريات المتداولة في اليوم الراهن. ومع أن المعتقدات الكاثوليكية والشيوعية بشأن الخلاص من المعاناة قد خسرت الكثير مـن فاعليتهـا، ومع أن المنظّرين لكل واحدة مـن هاتين العقيدتين قد

خسروا الكثير من تأثيرهم، إلا أن الأمر الواضح هو أن عقيدة النظام الاقتصادي القائم على حرية الأسواق لا تزال عقيدة لا يطولها الشك أبداً؛ خاصة منذ أن تخلّى هذا النظام كلّيةً عن مسؤوليته الاجتماعية؛ فقفص الحيوانات الكاسرة صار بابه مفتوحاً على مصراعيه!

وهكذا، لا عجب أن يترعرع هؤلاء الشبّان وهم واثقون من أنهم حين يغادرون المدرسة نهائياً فإنهم سيغادرون في الواقع تلك المؤسسة التي منحتهم الشعور بالأمن والاطمئنان بنحو ما، وأنهم، وبعد الانتهاء من الدراسة، لن يحصلوا على المكان الذي يتدرّبون فيه لإتقان مهنة معيّنة، وأنهم لن يكونوا قادرين على تقديم نفع يذكر لمجتمع تخلّى عن التكافل الاجتماعي وصار يفكّر بالحسابات الاقتصادية فقط كما هو بيّن من تصريحات أقطاب هذا النظام. إني أعلم جيداً بأن الكتب المدرسية تؤكد أن واجبنا في النظام الديمقراطي يحتّم علينا التفتيش عن مناحي الاتفاق والوئام، وأنها تحثّنا على السعي إلى العثور على حل وسط للمسائل التي نختلف عليها. ولكن، أيمكن لنا أن نُقنع الطلبة بأهمية الاتفاق والوئام والتوصل إلى الحل الوسط في عصر صار فيه الاتفاق أمراً يدعو الى السخرية من وجهة نظر الدولة ذات القوة الاقتصادية الكبيرة، في عصر صار فيه الحل الوسط ليس إلا مبرّراً للمضي قدماً في خفض الضرائب على الثروات والدخول العالية؟

ومعنى هذا كله، هو أنه لا بد للمدرسة من أن تعلّم التلاميذ العصيان السياسي إذا كانت جادة فعلاً في عدم ترك هؤلاء الشبان يشعرون بأنهم مغلوبون على أمرهم وبلا حول وقوة. إن العصيان السياسي يتعلّمه التلميذ كتعلّمه التشكيك: أي كتعلّمه التشكيك في ما يسمع من مزاعم. يتعلّم تقشير الخطابات الرنانة والغوص في معدنها والنظر إلى القيصر، إلى الحاكم، على طبيعته الحقيقية،

مجرّداً من مظاهر الأبّهة والإجلال. يتعلّم ضرورة التشكيك بالأمور بنحو مبدئي. وإذا كان الحال على ما نطالب به، أين هو الموقف الايجابي يا ترى؟ إنه يكمن هنا: في أن يستبيح المرء لنفسه التمتع بكل الحريات التي تجيزها له الديمقراطية. فحين تتخلّى الديمقراطية عن صفتها الحقيقية، عن كونها نظاماً شرعياً للحكم، حين تطأطئ الرأس أمام هيمنة المال المتداول عالمياً، وأمام تطلّعات الشركات العملاقة المواظبة على دمج بعضها بالبعض الآخر، أي وبعبارة واحدة حين تطأطئ الرأس أمام اللاعبين المهيمنين على الأسواق، تكون الديمقراطية عندئذ قد أُفرغت من محتواها ويكون الشعب قد خسر دوره مصدراً للسلطات، ويكون الفرد الواحد قد فقد القدرة على التشكيك بما هو قائم أو بنفسه هو ذاته. وإذا كان وضعنا لم يصل، بعد، إلى هذه الحال، فإن الأمر البيّن هو أننا نسير بهذا الاتجاه بحسب ما يبدو لي. وهكذا، فما هو الأمر الذي ستتعلمه فيما لو انتهى بنا المطاف إلى هذه الحال فعلاً؟ لا ريب في أن المدرسة ستكون قد أغلقت أبوابها ثانية [أي كما أغلقت أبوابها أيام الحرب العالمية الثانية، المترجم].

وإذا كنتُ قد تحدثت آنفاً عن تشكيك المرء بنفسه، فإني كنتُ أتحدث عن نفسي. فحينما كنت أضع الخطوط العريضة لهذا الخطاب، شعرت بقرارة نفسي بأني، ولأسباب مختلفة، عرضة للتشكيك بموقفي الشخصي حيال بعض الأمور. ولم يتأت هذا التشكيك من أني طرحت على نفسي سؤالاً مفاده: أنت الشخص الذي ترك المدرسة مبكراً وعلّم نفسه بنفسه بنحو متواصل، ما هي المساهمة التي تستطيع أن تقدّمها بشأن الوضع الذي تمر به، حالياً، المدارس الشاملة، بل كان هذا التشكيك قد تأتّى أيضاً من الحرب الدائرة رحاها في البلقان ضد أقليات معينة منذ عشر سنوات وما رافق

هـذه الحرب مـن تصعيد. فهذه الحرب جعلتني أتشـكك في مواقفي بنحو مبدئي. ففيما كنتُ واثقاً بأن الهجمات التي شـنتها قوات حلف النيتو وقيادتها الأميركية لن تُنهي الإرهاب الذي يمارسه الصرب ضد الألبان من سكان الكوسوفو، كنتُ، من ناحية أخرى، متأكداً بأن تدمير قرى الكوسـوفو وطرد وتشـريد سـكان هذه القرى واغتصاب النساء والفتيـات وإعدام المدنييـن والجنون العنصري القاتـل، الذي أفرز، قبـل بضع سـنوات القبور الجماعيـة في فوكوفار وسربينتشـا وتوزلا وسـرايفو، لا يجـوز لنا أن نقف مكتوفي الأيـدي حياله. وكان قد بان للعيان أن الرئيـس الصربي يريد أن ينتهز فرصة المفاوضات المضنية وعجـز الدول الأوروبية عـن اتخاذ موقف صارم وذلك لتنفيذ ما أعدّ مـن تهجيـر جماعي للألبان من سـكان الكوسـوفو. وهكـذا اقتنعت بضرورة استخدام القوة العسكرية، مع علمي بأن هذا لم يكن بتخويل مـن الأمـم المتحدة وأنـه يتنافى مع مهمـة القـوات الألمانية بوصفها قـوات واجبهـا الدفاع عن حيـاض الوطن فقط. فمأسـاة المشـرَدين وشقاء النساء والأطفال المشرّدين والقهر المتواصل وما نشأ عن هذا القهـر مـن نتائج قاتلة، إن هذا كله لم يقلل من ريبي، لكنه غطّى عليها وأبطـل مفعولها. فقد غضضت الطرف عـن موقفي المبدئي، لا، لقد حاولـت أن أغض الطـرف، لكن محاولتي باءت بالفشـل طبعاً. فبعد هنيهة، أي بعدما اتضح لي أن الهجمات الجوية، التي رسمت القيادة الأميركية خطوطهـا العريضة، لم تفلح في ردع الإرهاب، ناهيك عن أن تفلح في وضع حد نهائي له، سيطرت عليَّ ثانية كل تلك الشكوك والريب التي قفزت من فوقها. لكن هذه الشكوك والريب تبددت مرة أخـرى بعدمـا رجعت بناظري إلـى المائتي ألف قتيـل الذين خلفتهم عمليات «التطهير العرقي».

إلا أن تأييـدي للحـرب دام وقتاً قصيراً فقـط. فقد واظبت على

الاستعاذة بكل التبريرات المناهضة للحرب. ولأني ترددت في اتخاذ موقف معارض للحرب ضد العدوان الصربي، ولأن هذا التردد تعارض مع تجربتي المستقاة من الحرب العالمية الثانية بنحو شديد جداً، لذا فإن ترددي هذا صار جزءاً من الكلمة التي أتحدث بها إليكم الآن. وأنا، بدوري، أستطيع تصوّر مدى المعاناة التي مررتم بها، أنتم رجال التعليم في المدارس الشاملة، أعني حينما تعيّن عليكم تحكيم ضميركم في صواب القرار المعارض للحرب وأحقية القرار المؤيد لها. لا، بل تعيّن عليكم ما هو أشد وطأة من هذا. فسواء اتخذتم هذا الموقف أو ذاك، فقد كان عليكم أن تُقنعوا تلامذتكم بصواب موقفكم. فأنتم ما كانت لديكم فرصة اللجوء إلى الصمت المحزن. أضف إلى هذا أنه ما كان هناك سبيل يمكن من خلاله تلافي الجواب على الأسئلة التي يطرحها التلاميذ. وإذا أخذ المرء بعين الاعتبار أن قاعات المدرسة لا تضم تلاميذ ألماناً فقط، بل وتلاميذ من أصول صربية وكرواتية وبوسنية وألبانية وتركية وكردية أيضاً، فلا مندوحة عندئذ من أن تعيشوا تداعيات ما يمرّ به العصر الراهن من صراعات دامية وعويصة في مكان ضيّق لا يترك لكم أي مجال لإغفال هذه الصراعات وتجاهل تداعياتها.

وكيف يرغب المرء في أن يكون معلّماً، إذ كان السياسيون ينقلون تداعيات عجزهم إلى المدارس؟ وكم هو عمق المحنة التي يعاني منها المعلّمون والمعلّمات حين تصبح - كما هو جارٍ هنا، في هذا البلد - عمليات إبعاد عائلات بالكامل أمراً مألوفاً في سياق «التطهير العرقي»، أي حين يرى التلاميذ أقرانهم يُبعدون قسراً عنهم وعن معلّميهم؟ ونود أن نسأل أيضاً عن موضوع تواجهه المدرسة في كل يوم: هل يستطيع المعلّمون تلافي أو التخفيف من وطأة المعاناة التي عاناها التلاميذ الذين صار آباؤهم عاطلين عن العمل؟

وحين أقول هذا كله، فإني لا أريد القول بأن المعلّمين والمعلّمات يتحمّلون ما لا طاقة لهم بتحمّله. فأنا لا يخطر على بالي أبداً أن أحمّل المعلّمين والمعلّمات وزر التحديات والمحن الاجتماعية التي تواجه المدرسة الشاملة؛ ولكن، وبما أن المعلّمين، منذ الأزمنة الغابرة وحتى هذا اليوم، غالباً ما يكونون هدفاً للنقد وشخوصاً ينسب إليهم المتبرّمون وزر القرف المخيّم عليهم ويحمّلهم الكثيرون فشل الأسَر في النهوض بواجباتها التربوية، لذا أعرب هنا عن مساندتي للمعلّمات المنهكات القوى وللمعلمين أيضاً، وحتى لأولئك المعلّمين الذين باتوا يشعرون بالإحباط في الأيام الراهنة. ففي منتهى الرخص أن يجعل المرء من المعلّمين والمعلّمات متنفّساً لسخطه. ففي منتهى الرخص أن يشير المرء بإصبعه إلى قانون الموظفين وإلى الكسل أيام العطل المدرسية الكثيرة والطويلة. إن من العيب أن يجعل المرء من المعلّمين والمعلّمات مشجباً يُعلّق عليه الشكاوى والمظالم المعهودة كافة. إن ألمانيا هي البلد الوحيد، حسب علمي، الذي ينظر فيه التلاميذ والآباء إلى المعلّمين نظرة محمّلة بالريب والظنون، نظرة غالباً ما تتحول إلى عداء سافر. ولهذا السبب بالذات كنتُ، في بادئ الأمر، قد أطلقت على كلمتي هذه عنوان «رحمة بالمعلمين»، علماً بأني ما كنتُ بعنواني هذا أريد أن أكون سبباً في اندلاع حرب بين جنس الرجال والنساء، بل كنتُ، ضمنيّاً، أقصد الرحمة بالمعلّمات أيضاً. كما لا أريد بهذا العنوان، المثير للجدل والعامّ المغزى، أن أقصر طلب الرحمة على معلمي المدارس الشاملة فقط. فمناشدتي الرحمة بالمعلمين تنسحب على المعلّمين كلّهم، على معلّمي المدارس الابتدائية والمهنية والمتوسطة والثانوية. فهؤلاء معنيون بهذه الرحمة؛ فهم جميعاً يواجهون كل يوم الأشجان العظيمة والآمال البسيطة المخيّمة على جيل صاعد من تلاميذ يشعر

العديد منهم بأن عائلاتهم لم تعد السـند القوي الذي يركنون إليه عند الشـدائد، تلاميـذ يشـاهدون عياناً وعلى شاشـات التلفـاز أن «الحق للأقـوى»، تلاميـذ يرون أمامهـم مسـتقبلاً معتماً ويأملـون، من فرط قنوطهم، بأن يعثروا في المدرسـة على أكثر ما تسـتطيع هذه المدرسة تقديمـه لهم. وعلى ما يبدو، فإن أسـاتذة الجامعات والمعاهد العالية فـي غنى عن تحمّل مسـؤوليات من هـذا القبيل. ولهذا السـبب فإني أرى أن هؤلاء الأسـاتذة ليسوا بحاجة لأن أطلب الرحمة لهم ولا من حقهم أن يطالبوا بهذه الرحمة. إنهم يستحقون هذه الرحمة فقط حين يتحمّلـون مشـقات أكثـر، إما طواعية، أي لأسـباب تربويـة، أو جراء إصلاح النظام الجامعي الراهن.

ولكن، هل وضعت يدي في عش الدبابير؟ ليكن ما يشاء. فميلي لأن أتحـدث عن تجاربي أيضاً في سـياق ما أقصّـه من قصص، أعني لأن أسـكب في القصص التي أرويها ما حصلت عليه من معارف وما أدركت من معارف أجهلها، قد أكسـبني، شـئت أم أبيت، صيتاً مفاده أني أتحدث من علياء وجهة النظر الجمالية الصرفة وبأسلوب ينطوي علـى «لهجـة ذات نزعة وعظية». إلا أني أقرّ بهـذه التهمة إلى حد ما: فأنا، التلميذ الذي لم يحصل من المدرسة على نصيبه كاملاً، تعلّمت أن الكثيـر من الكتب تعلّمنا هامسـة، منوّهة تارة، وبنحو وعظي جلي وبنزعة عنيفة تارة أخرى. وما من شـك في أن المرء ينظر إلى الكتب من هذا المنظور فقط حين لا يقلّص منزلتها إلى منزلة صغائر الأمور، ولا يطرح بشأنها - كما هو الشأن في حالة الكتب المدرسية - أسئلة مـن قبيـل: ما هو النفع الذي يمكنني أن أحصـل عليه من هذا الكتاب أو ذاك؟ وكـم هو الربح الذي أجنيه منه؟ أي أن يطرح بشـأنها أسـئلة تشبه السؤال الذي يطرحه المرء بشأن مقدار الحليب الذي تدرّه عليه البقرة التي ينفق عليها المال.

وأذكـر، من بيـن المؤلفين الذين أسـبغوا عليَّ تجـارب تعليمية مهمـة: هاينـرش بيسـتالوزي (Heinrich Pestalozzi). وآمـل أن لا تفزعوا حين أذكر هذا المؤلف المنكود الذي باءت محاولاته التربوية بالفشـل بسـبب ظروف عصره من ناحية وبسبب مناحي القصور التي اتصـف بها هـو نفسـه. وتجدر الإشـارة إلـى أن المدرسـة الابتدائية التـي تعلّمت فيها في دانسـيغ قد كانت مسـماة باسـمه. لقد ألّف هذا الكاتـب روايـات كثيـرة كانـت إحداهـا الروايـة الرائعـة الموسـومة «لينهـارد وغرتـرود» (Lienhard und Getrud)، أعنـي تلك الرواية التي قصّت المآسـي التي واجههـا المزارعون الذيـن كُتب عليهم أن يعيشـوا عيشة الأرقّاء، وتحدثت عن قسوة قلب فوكت (Vogt). ومن خـلال حوارات متقنة السـبك وبلغة زاخرة بالألـوان ومطعّمة بلهجة سويسرية محبّبة، يسلّط المؤلف في روايته هذه الضوء على كل دقائق ذلك النظام القهري الذي كان يفرض على المزارعين الطاعة العمياء. ومـع أن هـذا المُؤَلَف يتـرك القارئ يشـارك المقهورين في مآسـيهم ويتألـم بآلامهم، إلا أنه يحثّه أيضاً علـى متابعة الأحداث بوعي يقظ. وغنـي عن البيان أن فولتير في مؤلفه الموسـوم «كانديد» (Candide) وكاتبـاً آخر من كتّاب عصر التنويـر الأوروبي، أعني ديدرو في مؤلفه الموسـم «جاك الجبـري» (Jacques le fataliste) قد انتهجا، أيضاً، هذا الأسلوب التعليمي، الوعظي.

ومـع أنـي أشـعر بدافع قـوي يحثّني علـى التفتيش فـي المكتبة عـن كل كتاب ينشـد الوعـظ والتعليـم، إلا أنه لا مندوحـة لي من أن أختصـر كلامـي إلى أبعد قـدر ممكن. بيـد أن هـذا لا يمنعني من أن أعيد إلى ذاكرتكم رواية آلان فورنير (Alain Fourniers) الموسـومة (Le grand Meaulnes) (موليـن الكبيـر) هـذه الروايـة ذات النفس الرومانسـي المتأخـر والتي قرأتهـا مترجمة إلى الألمانيـة بعنوان غير

دقيق مفـاده «Der große Kamerad» (الرفيق الكبير). فهذه الرواية كانـت حاضرة في ذهني بـكل تأكيد حينما بدأت أكتـب روايتي «قط وفأر» الدائرة أحداثها في بيئة شـبابية. ولهذا السـبب أصبح اسم بطل هذه الرواية - المتحدثة عن سنوات الدراسة في حقبة الحرب ـ «der große Mahlke» (مالكـه الكبيـر)، أي أنني أطلقت عليه اسـماً يبدأ بحـرف الميـم أيضاً، أي بالحرف نفســه الذي يبدأ به اسـم بطل رواية آلان فورنير.

أمـا الكتاب الآخـر الذي لا بدّ لي من الإشـارة إليـه هاهنا فإنه، وإن كان لا يسـرد أحداثـاً مستقاة من وحي الخيـال، إلا أنه، مع هذا، يسـتخدم أسـلوباً قصصياً رائعاً. وكانت قراءة هذا الكتاب متعة كبيرة بالنسـبة لي، فهو غني بالتجارب وكان قد سـاعدني كثيراً على معرفة خصائص القرن التاسـع عشـر، إني أعني: السـيرة الذاتية التي نشرها أوغوسـت بيبل (August Bebel) بعنوان «Aus meinem Leben» (شيء من سيرة حياتي)، فهذا الكتاب تناول البدايات الأولى للحركة العمّاليـة الألمانية، وتحـدث عن حقبة القوانين الاشـتراكية ووصف بنحـو دقيـق الجدل الصاخـب الذي اندلـع، في ما بعد، حـول أفكار الاشـتراكيين المرتدّين. وأنا لا أشـطّ كثيراً إذا زعمـت بأننا لن نحيط علمـاً دقيقاً بمغـزى المصائـب الاجتماعيـة الراهنة وبـروز التفاوت الطبقي ثانية واسـتمرار تمتّع الطبقة المهيمنـة على الاقتصاد العالمي بالخيلاء والتكبّر والنزاع المبهم والمستغرب بين الحزب الاشتراكي الديمقراطـي مـن ناحيـة وحـزب الخضر مـن ناحية أخـرى، نعم إننا لـن نحيـط علماً دقيقـاً بهذا كلـه إلا بعد قراءتنـا هذه السـيرة الذاتية. أي بعبـارة أخـرى: إن بيـع بعض ملابسـنا الرثة إلـى تاجر متخصص بالسـلع المستخدمة يدرّ علينا بكل تأكيد المبلغ الكافي لاقتناء مؤلف أوغوست بيبل «شيء من سيرة حياتي».

وأودّ أخيراً، وليس آخراً، تقريظ كتاب صار كبير الأهمية بالنسبة لي، أعني الرواية الموسومة «اكتشاف التمهّل» (Die Entdeckung der Langsamkeit) لمؤلفه الأصغر مني سناً ستن نادولني (Sten Nadolny). فمن خلال كل صفحة قرأتها في هذا الكتاب، صرت أكثر تأكداً من الفائدة العظيمة التي تقدمها لنا هذه القصة المروية بتأنٍ. إن هذه الرواية يمكن أن تكون الترياق المناسب للعجلة السائدة بين عامة الناس. فلم يستطع أي كتاب آخر مجاراة هذا المُؤَلَف من حيث القدرة على استطالة الزمن بنحو جلي. ولا أعتقد أن البراعة الفنية المميّزة لهذا الكتاب ستتعرّض إلى جور ذي بال، فيما لو أخذتْ منه المدرسة درساً بليغاً «لتعلّم التمهل». وبوحي من نادولني أذهب خطوة أخرى وأقترح أن تضيف المدارس عامة، والمدارس الشاملة على وجه الخصوص، مادة «تعلّم التمهل» إلى برامجها التعليمية. ومن وجهة نظري لا شيء يمنع أن تكون هذه المادة من جملة المواد التي يجري فيها اختبار التلاميذ. وغني عن البيان أن التمهل يعني أن المرء يسير بخطى تتنافى مع الزمن. إنه يعني التواني المتعمّد. إنه يعني إعاقة السرعة من مواصلة استمرارها، يعني تركها تصل إلى مستوى التوقف التام. يعني تعلم الاستراحة، تعلم تذوّق الفن. ففي عصر الفيض الهائل من المعلومات، في عصرنا الراهن، لا شيء أنفع من دفع التلاميذ إلى التفكّر بلا مشوّشات جانبية، بلا انطباعات تتوالى سريعاً، الكف عن الفاعلية والغوص، بلا عناء، في مغامرة السكون الذي لا يسمع فيه المرء سوى خلجات نفسه. إني أعلم بأني أقترح أمراً لن يكون هناك متسع من الوقت كافٍ لتنفيذه. إلا أني مع هذا أتوجّه إليكم راجياً ألا تقابلوا اقتراحي هذا بضحكة ساخرة، أرجوكم أن تأخذوه مأخذ الجد؛ فهو ينطوي على معاني كبيرة النفع.

وقبل سنوات كثيرة ـ سنوات تقادم عهدها ـ، أي في نهاية

الستينيات على وجه التحديد، كنتُ ضيفاً على أحد مؤتمرات الحزب الاشتراكي الألماني في مدينة نورنبرغ. وناقش المؤتمرون الكثير من المقترحات وصوتوا على توصيات ما كان لها آخر. وكانت إحدى اللجان قد خُصصت لمناقشة التحذيرات التي يطلقها البعض بشأن «أزمة الثقافة والتعليم»، أي لمناقشة أمور مدرسية وأوضاع المدرسة الشاملة أيضاً. وصوّت أعضاء اللجنة أخيراً على ما كانوا قد تجادلوا عليه كثيراً. وفي سياق هذا كله تبلورت ملاحنة لم يفهم كنهها لاحقاً إلا عدد ضئيل من المطلعين على خفايا الأمور. وهكذا لم يستطع لا التلاميذ ولا الآباء إدراك مغزى هذه الملاحنة. وكل ما في الأمر هو أن مدارس ولاية هسن أرادت أن تبز مثيلاتها في برلين والعكس بالعكس أيضاً. وفي خضم هذا كله وفي سياق الحماس الناشئ عن الشغف بمعرفة الحقيقة استقبح كل طرف حسنات الطرف الآخر. لقد كانت أعمال المؤتمر مضنية فعلاً. فذلك الزمن كان عصر المقترحات المكتوبة بأصغر الحروف، عصر المقترحات التي درج المرء على تسميتها «papers» أيضاً.

وهكذا تلمّست طريقي إلى الفندق شاعراً بشيء من الدوخة. وهناك، في صالة الفندق، في ركن منزو بعض الشيء، جلس حول منضدة صغيرة كارلو شمت (Carlo Schmid): السياسي صاحب الجسم الضخم والنسخة اليتيمة في صفوف حزب الديمقراطيين الاشتراكين. لا أدري أكان الأمر حدساً أم مصادفة، فقد كان على المنضدة كأسان فارغان وقنينة نبيذ أحمر. ومهما كانت الحال، فقد أشار شمت أن أجلس إلى جانبه وراح يسكب النبيذ في الكأسين. ولا يزال رنين حسراته في أذني: «لقد أصغيتُ السمع وتحدثتُ وصوّتّ، النهار كله، على مسائل مدرسية غاية في الأهمية، يا صديقي العزيز. وكان هناك الكثير من الأمور السديدة، الصائبة والنافعة أيضاً. ولكن

مَـنْ هـو ذا»، مضى شـمت قائلاً بعد حسـرة طويلة، «نعـم، مَن هو ذا الذي سيُعَلِّم ويتعلّم في المستقبل الأمر غير النافع؟».

وإذا كان المـراد من هذه المزحة تثميـن خطابي المهزوز بعض الشيء، فإني، والحالة هذه، سأكون شاكراً كثيراً فيما لو استطاع المرء أن يـرى فـي تعلّم التمهل أمـراً نافعاً، أمراً نافعاً للطـلاب والطالبات، وأمراً نافعـاً للمعلّمات والمعلّمين أيضـاً. فاقتراحي المعروض على المدرسة الشاملة يفترض وجود المعلم الذي ينشد التعلّم.

وأعترف طواعية بأن هذا المعلّم موجود فعلاً. فالضرورة غالباً ما تجبره على عدم الاكتفاء بما تعلّم في السابق، وتفرض عليه أن يوسّع معارفه باسـتمرار لا سـيما، على سـبيل المثال لا الحصر، أن تلاميذه ينحدرون من أجناس مختلفة وأن عليه بالتالي إعطاءهم بضعة دروس في التاريخ التركي أو في الأمور التي يتسامح بها القرآن والأمور التي لا يتسـامح بهـا مقارنـة بالأديان الأخرى. ومـا أعظم الفائـدة فيما لو روى المعلّـم علـى تلامذتـه المسـلمين أن الدولة الإسـلامية - التي حكمت في الجزيرة الأسـبانية قروناً عديدة من الزمن - قد سـاعدت الغرب المسـيحي على كسـر وثـاق اللاهوتية المدرسـية المتحجّرة، وأن العلمـاء العرب واليهـود كانوا رواداً في حسـاب الجبر والطب، وأن علومهم كانت قد بزّت معارف القرون الوسـطى وتفوّقت عليها، أي وبعبـارة واحدة، أنهم كانوا قد سـاهموا في وضع حجر الأسـاس لعمليـة النهضـة التي اندلعت فـي أوروبا لاحقـاً. وبالنسـبة لدروس اللغـة الألمانيـة، أليس أمـراً رائعاً أن يبيّـن المعلّم للتلاميـذ كافة، أي على اختلاف مشـاربهم وعقائدهـم الدينية، أن جذور ما يسمى برواية الأبطـال المَكّاريـن (pikaresker Roman) - أي بـدءاً مـن روايـة دون كيشـوت وانتهـاءً برواية جريملسـهاوزن (Grimmelshausen)

الموسومة «زيمبليسيسيموس» (Simplicissimu) وروايات تلامذته من بعد، الذين أرى نفسي في عدادهم - إنما تضرب في أعماق الفن القصصي العربي-الأندلسي؟ ولا أشك في أن التلاميذ المنحدرين من أصول أجنبية، من أصول فارسية أو نيجرية مثلاً، يستطيعون التحدث بأمور كثيرة هي من صلب ثقافتهم الوطنية، أي بأمور لا علم للمعلم بها ولا تستطيع إدراكها حكمتنا النابعة من منظور يسبغ على أوروبا وضعاً عالمياً مركزياً.

وبهذا المعنى، فإن المعلّم الذي ينشد التعلّم إنما هو ذلك المرء الذي يتعلّم مع ومن تلامذته. هو ذلك المرء الذي يكون حب الاطلاع من صلب طبيعته. إنه ذلك المرء الذي يتخلّى طواعية عن آراء متحجّرة، لا تصدّق إلا نفسها، ليحصل على آراء جديدة يتخلّى عنها هي الأخرى أيضاً حالما يبان له تحجّرها. إنه يظل، حتى سن الشيخوخة مواظباً على توسيع معلوماته وعلى الاستزادة من المعارف الجديدة، سواء بدت هذه المعارف مغرية أو انطوت على تهديد مفزع، سواء تعلّقت بأمور تخص الزمن الغابر أو تعلّقت بأمور ضاعت في السرعة التي يسير بها الزمن. ولكن، أليس بوسعي أن أختصر الكلام وأقول بعبارة واحدة ما أريد قوله؟ نعم أستطيع ذلك من خلال الاستشهاد بشخص هو المثال الأكيد لما أريد قوله: إن المعلّم الذي ينشد التعلّم هو هاترتموت فون هينتغ (Hartmut von Hentig).

فأنا مدين له من وجوه عديدة. فما أكبر المتعة التي أسبغتها عليَّ القراءة المتجددة لمقالته المُرَكَزة والمتميّزة مقارنة بالكلام المبتذل المتداول في أيامنا الراهنة، أعني مقالته الموسومة: «الإبداع - توقعات عظيمة معقودة على مصطلح عاجز» (Kreativität – Hohe Erwartungen an einen schwachen Begriff). ففي هذه المقالة

يُشير المؤلف إلى مدى التضخم الذي أصيب به مصطلح الإبداع، وأن هذا المصطلح قد أمسى المفتاح السحري لكل ما يصلح له وما لا يصلح. فالإبداع هو، بحسب النصائح التي تقدّمها النظرية الليبرالية المحدثة، كلمة تصلح، إذا ما أضاف المرء إليها كلمات من قبيل «الإنتاج» و«المسؤولية الذاتية»، لإنعاش أسعار الأسهم في البورصة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بالإمكان الاستعاضة عن الإبداع بمصطلح خداع يجري على لسان المستشار أيضاً، أعني حديثه عن «جمهورية برلين»؛ ففي هذه الحالة أيضاً يبني المرء توقعات عظيمة على مصطلح واهن.

واسمحوا لي أن أستشهد الآن حرفياً بجملة من مقالة هينتغ الواضحة المقصود: «إن الإبداع المُطالَب به هنا يُراد منه الريادة في المجالات التقنية والعلمية ـ في تكنولوجيا الجينات وفي التكنولوجيا البيولوجية وتكنولوجيا المحافظة على البيئة وتكنولوجيا الإلكترونيات وتكنولوجيا اكتشاف الفضاء وتكنولوجيا الكمبيوتر والاتصالات، أي وبعبارة واحدة: التكنولوجيا المتقدمة في المجالات كافة التي تحقق الريادة فيها ميزة اقتصادية، ويعني التخلّف في مضمارها تدهوراً اقتصادياً. والأمر البيّن هنا أن هذا الإبداع لا يرمي إلى إيجاد حل لكسر طوق شبكة الضغوط الناشئة عن النظام – الضغوط الناشئة عن التحديث المتواصل لعملية الإنتاج، وعن تصاعد وتعمّق هيمنة وسائل الإعلام وتزايد التبعية في ظل العولمة السائدة حالياً وتمتع الاقتصاد بالمقام الأكبر في المناحي الأخرى جميعها في المجتمع، وفي السياسة على وجه الخصوص – بل هو يسعى إلى تمكيننا بنحو فعّال وعريض وبديهي من الدخول في المعمعة السائدة. وباختصار فإن المرء يطلب منّا الاستعداد لأن نسلّم أنفسنا، بأبعد قدر ممكن، إلى الاتجاهات السائدة حالياً».

وبحسب ما أراه أفانه لا تكاد توجد عبارات أكثر من هذه العبارات دقة في تعرية الصراخ المتعالي حالياً بشأن الإبداع. ولهذا السبب أيضاً أود أن أنصح المعلّم الذي ينشد التعلّم بضرورة قراءة مصنف آخر من المصنّفات التي حرّرها هينتغ، وذلك لأن هذا المصنّف ينعش الروح ويأتي بنسمة عليلة في أروقة المدارس، أعني المؤلف الذي نشره هينتغ مؤخراً بعنوان ينم عن آهة دفينة: «واحسرتاه على القيم!» (Ach, die Werte!). ففي هذا المؤلف النضالي يعثر القارئ على ما أردت قوله باختصار وبنحو جموح في سياق حديثي إليكم. فبادئ ذي بدء، يطالب هينتغ بضرورة انتهاج «تربية سياسية». إنه يحذر من أن يؤدي فيض ما هو [متداول عبر شبكة الإنترنت، المترحم] من «معلومات إلى إقصاء المعرفة». بيد أنه يحاول، في الوقت نفسه، ومن خلال الإشارة إلى سقراط، إقامة الدليل على «خِصَب وفائدة التوعية بالجهل (في المسائل ذات الأهمية القصوى) بالنسبة للحياة الرشيدة ولحكم المدن والبلدان».

وفي نهاية هذا المؤلف الغزير بالمادة، وبعدما ينجح مؤلفه في تحرير القيم المتوارثة والمطالب بها حديثاً من كل السفسطات والجعجعات ويتركها، أي هذه القيم، تظهر على مسرح الحداثة المتأخرة عارية، على طبيعتها الحقيقية، فإنه يخصّص، من ثم، فقرة لموضوع جعلت منه وسائل الإعلام بقرتها المقدّسة. وبالنظر لأهمية هذه الفقرة، أود أن استشهد بها هاهنا حرفياً، فقد جاء فيها: «علينا أن نقرّر، هذه هي العبارة التي تبدأ بها الأمور التربوية كافة. هل نريد مجتمعاً يحاور كل واحد فيه الآخر من خلال صفحات شبكة الإنترنت مدرّباً نفسه على إلقاء الكلام على عواهنه، على عدم تحمّل مسؤولية ما يذيعه على الملأ؟ هل نريد التسريع المتواصل، البلادة المستمرّة للحواس والمدارك، التضحية بالذاتية، تفضيل السطحية

على الاستقصاء والتعمّق؟ هل نريد اتساع التشابك الرقمي مع أفراد مجهولين كبديل عن التواصل والجدل مع أناس يعبؤون بنا ونعبأ بهم؟ هل نريد... ضياع التمعّن في خضم الضوضاء الصاخبة وفي سياق تداخل الصور بنحو دائم؟ هل نريد تزايد (المظهر)، التخلي عن الواقع المُدرك لصالح الواقع (المتخيّل)، استبدال النفيس والصمود بالمبتذل وبالهش... إن هذه الأسئلة لا يراد منها لا الإنشاء وتزويق الكلام ولا التهكم أو إدانة وسائل الإعلام الحديثة، بل هي ترمي إلى إدانة ضعف إرادتنا، إلى إدانة غرورنا الخدّاع، إلى إدانة تفاؤلنا وما ينطوي عليه تفاؤلنا هذا من عجز عن النهوض بالتربية الصائبة».

وبما أن من حق هذه الأسئلة أن تجد الجواب الشافي هنا على وجه الخصوص، في هذا المؤتمر المنعقد تحت شعار «المدرسة الشاملة ـ تقليد وخلاف»، لذا فإنني لا أنحني إجلالاً أمام هارتموت فون هينتنغ فقط، بل وأمام المعلّمين كافة أيضاً الذين ينشدون التعلّم، هؤلاء المعلّمين الذين نتمسك، نحن الاثنين هينتنغ وأنا أيضاً، بتقاليدهم. فهذا التقليد هو الميراث الذي خلّفه لنا عصر التنوير الأوروبي؛ بدءاً من روسو وبيستالوزي ومن هردر وهمبولد ومروراً بفرتس كارزن وآدولف رايشفاين وانتهاءً بصديقنا هارتموت هينتنغ. وكانت ولا تزال المحاولات جارية لإغلاق مدرسة التنوير. ولا ريب في أننا هاهنا إزاء عبث محض، عبث يدّعي أن عليه أن يؤسّس عقيدة خرافية جديدة. بيد أن هناك أسباباً أيضاً تجعلنا نشك بالنتائج التي تتأتى من التنوير الذي يسبغ الرشد. وها أنا أذكر إليكم أهم سبب من هذه الأسباب.

ألم يكن من حقائق الأمور أن المذابح الجماعية في معتقل أوسشفتس قد تحققت في بلد كان يحسب نفسه في عداد البلدان

الآخـذة بمبـادئ حركـة التنوير؟ وحتـى ذلك الحيـن، ألـم يُنظر إلى مواطني هذا البلد على أنهم قد قطعوا شوطاً طويلاً على درب التنوير وصـاروا أناسـاً متحضّرين بالمعنـى الذي تنطوي عليـه حركة التنوير هـذه؟ وأمـا كان تخلّـي ألمانيـا عـن الحضارة فـي العصـر الغابر هو الحدث الذي لا يزال، حتى يومنا الراهن، يثير الشكوك والريب حول الجهود المبذولة كلها للتنوير؟

وفـي العام الماضي اندلع في طـول البلاد وعرضها جدل حول خطاب جرى إلقاؤه في كنيسـة باولوس. وكان هذا الجدل يدور، في المقـام الأول، حول حـق المرء في صرف النظـر عما حدث، وحول رفـض التلويح بعصا الأخـلاق القويمة، كان يدور حـول العودة إلى الوضع العادي والكف عن استخدام آوسشفتس ذريعة لتأنيب الذات. وكنـتُ قـد عزفت عـن كتابة مقالة مسـهبة أدلـو فيها بدلـوي في هذا الجـدل، وذلك لأن هذا الجدل مـا كانت تُرْجَى منه جدوى، فقد كان ولا يزال عاجزاً عن شرح أي شيء ذي بال. إنه، وفي أفضل الحالات، جدل يوقظ ذكريات الماضي لا غير. فنحن، يا عزيزي مارتين فالزر[1] (Martin Walser) ، مهمـا بذلنا في سـريرتنا مـن جهد لصرف النظر عما حـدث، ومهما أخذنا بالاعتبار أن هناك رغبة تتطلع بفارغ الصبر إلـى العودة إلـى الوضع العادي، ومهما كان عمـق التقزز الذي ينتابنا

(1) ينـوّه غـراس هنا بالكلمـة التي ألقها فالزر في كنيسـة باولـوس عندما منحه اتحاد الناشرين الألمان جائزة السلام. ففي هذه الكلمة كان فالزر، المولود عـام 1927 فـي فاسـربورج، قد أشـار إلى ضـرورة الكف عـن الحديث بلا انقطـاع عن النازية وجرائمها وذلـك باعتبار أن الجيل الحاضر قد أدان هذه الجرائم التي لـم يكن مسؤولاً عنها قطعاً. وفالزر أديب ألماني مرموق. وهو عضـو في نادي القلم في ألمانيا الاتحادية وفي العديد من الجمعيات الفنية الأخـرى. وحصـل في عـام 1955 على الجائـزة التي تمنحهـا «جماعة 47» وجوائز أخرى كثيرة، المترجم.

حينما تغدو مناشدة الناس، في أيام المناسبات والاحتفالات على وجه الخصوص، بضرورة الاعتراف بالذنب، خطاباً رخيصاً لا معنى له ولا قيمة، فإنه لأمر بيّن أن كلّ ما يكنّه الفرد، بصورة شخصية، من مشاعر حيال ما يثير استياءه وما يتمناه وما يحتاج إليه – وهي مشاعر ليست حقاً مشروعاً فحسب، بل وليست عسيرة على الفهم أيضاً – تغدو، أعني هذه المشاعر، أمراً ثانوياً، أمراً بلا قيمة حقيقية، حالما تعود إلى ذاكرتنا تداعيات آوسشفتس، أي حينما يُزيح الذهب الذي سبكته شركة ديغوسا (Degussa) والذي خزّنه المصرف الألماني «دوتشه بنك» أولاً ثمّ نقله إلى الخارج ، الستار عن هوية مصدره أو حينما يغدو الجدل الدائم منذ سنوات كثيرة حول النصب التذكاري المركزي أمراً مثيراً للنزاع والمشاحنات أو حينما يُطرح السؤال، يوماً بعد يوم، على الجيل البريء من ذنوب ذلك الزمن: كيف كان بالإمكان حدوث ما حدث في آوسشفتس؟

ولأن هذا السؤال سيظل يرافقنا طوال حياتنا، ولأن هذا السؤال يريد منا جواباً مقنعاً، لذا لن يكون، لا صرف النظر الخفي ولا غضّ الطرف المعلن، الحل النهائي. كما ليس بوسع أي نصب تذكاري عظيم من الناحية الجمالية والمعمارية، أن يعطينا الجواب الشافي. لن يستطيع ذلك أبداً. إن المطلوب من النصب التذكاري القويم هو أن يكون داراً مشرّعة أبوابها على مصاريعها لكل أولئك الذين يريدون، بغض النظر عن انتهاء قرن وبداية قرن جديد، معرفة السبيل الذي قاد آنذاك إلى حدوث الجرائم المستعصية على الفهم إلى الآن، هذه الجرائم التي كانت بمثابة حرب إبادة لشعب من الشعوب. كما يتعيّن بهذه الدار أن تكون صرحاً تذكارياً، ومكاناً للبحث في السبب الذي جعل من حرب الإبادة التي تعرّض لها اليهود والغجر مثالاً يحتذي به البعض في تكرارهم «التطهير العرقي»، حتى وإن كان العالم أجمع

قد أقسم: لا، لن تتكرر آوسشفتس ثانية أبداً. إن هذا هو ما يجب معرفته وما يتعيّن تعليمه. فبما أن سلوك بني البشر ينطوي على ما لا يستطيع المرء تفسيره أبداً، وبما أن هذا السلوك يظل ينطوي على أمور غاية في الخطورة، لذا يجب أن يكون هذا السلوك جزءاً من فحوى الدروس التي فرضها التاريخ علينا.

ولا ريب في أن البعض سيسأل نفسه عن علاقة هذه الأمور بالحاجة الماسة إلى إصلاح نظام الثقافة والتعليم أو بوضع المدارس الشاملة المثير للجدل؟ وعما إذا يجوز ترك هذا الموضوع لأولئك الذين لا همّ لهم سوى إثارة الشكوك والريب، أو لأولئك الذين يتقنون الترقيع لا غير؟ إني أعترف طواعية بأني لست قادراً على الرد على هذا السؤال بالنحو الشافي. ففي كل مرة فتشت فيها عن الرد المطلوب، كنتُ أشعر بأني في خضم نماذج متعارضة وحسابات كلفة لا نهاية لها. وهكذا، ولأني عاجز عن تصميم صيغة لإصلاح الثقافة والتعليم ولأنني عاجز أيضاً عن شرح الطريقة المناسبة لتلبية المتطلبات المالية الخاصة بهذا الإصلاح، ولما كانت مناداتي «ضحّوا بشراء الطائرات الحربية باهظة الثمن وخصصوا هذه المبالغ العظيمة لتمويل المسائل الخاصة بالثقافة والتعليم» قد ذهبت أدراج الرياح مثلها في ذلك مثل الكثير من النداءات التي أطلقتها في كثير من الأحيان، لذا تظل مناصرتي للمدرسة الشاملة تقوم على تلك التجارب، فقط، التي تكونت لديَّ بصفتي أباً لأطفال عديدين كانوا قد تعلّموا في المدارس الشاملة هنا، في برلين، في مدرسة فرتس كارزن على سبيل المثال. ولست بحاجة إلى التأكيد بأنهم قد انتفعوا كثيراً من هذه المدارس. ففي وقت مبكر تعلّموا الاعتراض وعدم التسليم للرأي الآخر بلا تمحيص وتدقيق. ولست بحاجة للتأكيد على أن تعلّم هذا الأمر لم يخلف لديهم آثاراً جانبية سلبية الطابع.

وظل هؤلاء الأبناء شغوفين بمعرفة الأمور المستقبلية ومترددين تارة ومسرعي الخطى في الدروب الملتوية تارة أخرى وملتزمين عادة بمتطلبات الأخوة الإنسانية. إنهم متحررون من كل خيلاء الانتماء إلى الصفوة الممتازة، ويعيشون حياة غزيرة المعارف بالرغم من قصورهم في المعارف المدرسية ويخوضون الحياة العملية بمستويات تعليمية متباينة، لا بل أن أحد أبنائي قد أصبح معلّماً في مدرسة شاملة. وهكذا صار هذا الابن يناقشني الآن حول مسألة الإصلاح المزمع إدخاله على طريقة كتابة المفردات والجمل في الألمانية. إلا أن هذا الإصلاح مسألة أخرى ليس هذا المكان مناسباً للخوض فيه.

وفي نهاية خطابي هذا ـ وهو خطاب خيّمت عليه، وأنا مسترسل في تدوينه على الورق، الحرب في صربيا وما رافق هذه الحرب من تشريد مستمر لسكان الكوسوفو الألبان - أشعر بدافع جامح يدفعني إلى الحديث ثانية عن حيرتي أنا نفسي وعن شكوكي الذاتية. فمهما كانت النتيجة التي ستؤول إليها هذه الحرب، فإن الأمر الأكيد هو أنه لا أحد سيخرج منها منتصراً. فالضرر سيلحق بالجميع، بكل أولئك الذين أكدوا على ضرورتها أو نفوا وجود هذه الضرورة. وبقدر تعلّق الأمر بشخصي، فإن قراري الهش بتأييد هذه الحرب، ازداد قوة من خلال خطاب قصير، ولكن عظيم المغزى، كان ابن جيلي أرهاد أبلر (Erhard Eppler) قد ألقاه في آخر مؤتمر للحزب الاشتراكي الديمقراطي. ففي سياق هذا الخطاب ناصر أبلر ذلك القرار الذي رأى فيه أمراً مأسوياً وذلك لأن مناصرته جعلته شريكاً في تحمل عواقبه. وغني عن البيان بأني قد ناصرت هذا القرار أيضاً.

ولكي أناصر هذا القرار توجّب عليَّ أن أتخلّى عن مواقف كان

اتخاذها من مسلّمات الأمور بالنسبة لي. فقد ترتبت على مناصرة هذا القـرار دروس مؤلمـة وعِبَر مزعجة. لقد توجّب علـيَّ أن أتعلّم أموراً جديدة. ولا أشكّ أبداً بأنكم قد عايشتم في الأسابيع الأخيرة تجارب مشابهة حينما راجعتم أنفسكم وواجهتم تلامذتكم. من هنا، لا غرابة أن يحمـل خطابي، الـذي كان عنوانه في الأصل «رحمة بالمعلمين»، عنواناً مفاده «المعلم الذي ينشد التعلّم».

إن وجـود المعلّم الذي ينشـد التعلّم شـرط أساسـي لكل جهد تربوي. فإصلاح المناحي التعليمية والثقافية يظل، بالرغم من أهميته القصـوى، أمـراً لا نفع منه، إذا مـا عجز عن تهيئة المعلّم الذي ينشـد التعلّـم. فالتلاميذ يحصلون علـى المعارف التي يحسـن بهم امتلاك ناصيتهـا من خلال المعلّم والتربية المدرسـية في المقام الأول. على صعيد آخر، فإن السـجل الطويل للقيم المنادى بها بأعلى الأصوات، أعني السـجل الذي ترد فيـه عبارات ومصطلحات رنانـة من قبيل أن كل امرئ يتحمّل شـخصياً تبعات ما يتخذ من قرار وأن على المرء أن يتسـم بالشـجاعة ويتخذ القرار الذي ينطوي على شيء من المجازفة والذي يحاول جاهداً أن يبيّن للشبان مغزى الحياة في الزمن الراهن، إن محتويـات هـذا السـجل لا يمكـن للتلاميـذ اختبـار مصداقيتهـا وجدواها إلا من خلال المعلّم الذي ينشد التعلّم ومن خلال الوسيلة الرائعة التي أسـبغتها علينا حركة التنويـر، أعني تعليم التلاميذ أصول الشك في ما يُروى عليهم.

ويخـوض هينتنـغ فـي هـذه المسـألة أيضـاً فيؤكـد فـي مؤلفـه «واحسـرتاه على القيـم!» «أن بالإمـكان مطالبة معلمي المسـتويات المدرسـية والمـواد التعليميـة المختلفـة كافـة، بـأن يقضـوا، خلال دراسـتهم الجامعيـة، سـنة دراسـية علـى الأقـل في حضـور دروس

مخصصة لهم تتناول المسائل الفلسفية والأخلاقية ذات العلاقة بمهنة التعليم. وأود، من ناحيتي، أن أثري هذا المشروع فأقترح بأن يكف المعلمون لمدة تبلغ نصف عام وعلى مدار كل ثلاث سنوات عن عملهم التدريسي. بهذا النحو سيكون بوسع الكثير من شباب المعلمين العاطلين عن العمل حالياً الحصول على فرصة العمل المناسبة. أضف إلى ذلك أن هذا الاقتراح يمنح المعلمين الفرصة الضرورية لأن يقضوا فترة الإجازة المذكورة في تجديد قواهم وتوسيع دائرة معارفهم. فبالحيوية الجديدة سيكونون قادرين على تصعيد عطائهم في العمل المدرسي اليومي. وأنا حينما أتقدم باقتراحي هذا لا يغيب عن بالي طبعاً أن أعباءً مالية تترتب على هذه الإجازة الزمنية، أعني خسارة الراتب الشهري خلال هذه الفترة. بيد أني، وبصفتي شخصاً لا يزال، أي حتى بعد بلوغه سن التقاعد، يكسب متطلبات المعيشة من خلال العمل الحر، أعلم من كثب أيضاً أن التعامل مع حقب القحط أمر قابل للتعلم؛ من ناحية أخرى، فإن من المستحسن أن يواجه المعلّم، بصفته موظفاً حكومياً غير معرض للفصل من وظيفته، خطراً من هذا القبيل.

وأود أن أسوق مثالاً مستقى من ذلك العالم الذي نطلق عليه العالم الثالث تنويهاً بأننا ننتمي إلى العالم الأول. بين العامين 1986 و1987 قضينا، قرينتي وأنا، نصف عام في الهند، أو في كلكوتا على وجه التحديد، أي في مكان تنعكس فيه معضلات البشرية جمعاء. وفي بادئ الأمر صُعقت حقاً وحقيقة من هول ما رأيت. لكني، ومن خلال قيامي برسم ما تراه عيني على الورق بنحو تخطيطي، تمالكت نفسي شيئاً فشيئاً. فالرسم يفرض على الرسام أن يجيل النظر ويمعن البصر في ما حوله. لقد تعلّمت الكثير من خلال المشاهدة. فالفقر المدقع الذي تئن تحت وطأته الملايين من بني البشر من ناحية،

وكفاحهم العنيد للتغلب على المأساة من ناحية أخرى، تركاني أرتاب من مصداقية ما قرأت. ووصلت بعد تجوال كثير ومستمر، إلى ضافا (Dhapa) أيضاً، إلى حي القمامة في المدينة العملاقة. ففي هذا الحي بعيد الأغوار يعيش الآلاف من بني البشر في القمامة ومن القمامة. واجتماعياً، ينتمي هؤلاء البشر إلى القمامة أيضاً بحسب التسلسل الاجتماعي الذي يفرضه نظام الطبقات المغلقة (Castes). وهناك، على أرض مكان كان في الأيام الخوالي جبل قمامة، شيّد زوجان عجوزان مدرسة أطلقا عليها اسم «Calcutta Social Project» (مشروع كالكوتا الخيري). وكان هذان الزوجان في سابق الزمن من أبناء أرقى الفئات، من أبناء الطبقة البرهمية. لكنهما اعتزلا طبقتهما وراحا يشيدان مدرسة في حي للفقراء يجاور الفيلا التي يقطنان فيها. ولأن السيدة كارليكار كانت قد تولت، في السابق، تدريس المعلّمين والمعلذمات، لذا تكلّلت مساعيها بالنجاح فصارت هذه المدرسة، مدرسة حي الفقراء، مكاناً لتدريب الشبان على مهنة المعلّم. وكان هؤلاء الشبان قد قاموا، من ثم، بالتدريس في مدرسة القمامة الواقعة في حي ضافا.

وفي هذه المدرسة، في مدرسة ضافا، قرفص على حصيرة من لحاء الأشجار وتحت سقف شرفة خارجية وفي حجرة للتدريس تقع إلى جوار الشرفة أطفال تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وأربعة عشر عاماً يتعلّمون شيئاً من المبادئ الأساسية. وكان حماس التلاميذ، شغفهم الجاد والمصطنع، قد أبان بنحو ساطع مدى حاجتهم إلى المدرسة، ومدى السعادة التي تسبغها هذه المدرسة على أولئك التلاميذ، وكشف بأسلوب بيّن أن المدرسة لا تزال أمراً استثنائياً إلى حد ما في الكثير من مناطق العالم الثالث وأن وعينا - نحن الذين شاء الحظ لهم أن يعيشوا في العالم الأول - لم يدرك بعد

بنحـو كاف حقيقـة الميزة العظيمة التي يتسـم بها الوضـع الذي نحيا فـي ظله. ففيمـا تمنح المدرسـة هناك حيّـزاً ضيقاً لتحرير بني البشـر مـن الجهـل، حيّزاً لا يتجاوز شـرماً ضيقـاً، نجيز لأنفسـنا، نحن أبناء العالم الأول، النظر إلى المدرسـة على أنها وسيلة قسرية. بيد أن هذه النظـرة لا يمكـن ولا يجوز لها أن تسـتمر. وربمـا زادت هذه الجولة القصيرة في ربوع عالم القمامة بعض الشـيء من مسـاحة ما لدينا من حيّز تربوي ضيق. وبحسـب رأيي الشـخصي، فإن مدارسـنا الشاملة هي أفضل الأماكن التي يسـتطيع أن يحلّ فيها الروح المنعش المخيّم على مدرسة القمامة في ضافا.

# أدب وتاريخ

**لمناسبة توزيع جوائز أمير أستورية**
**تشرين أول/أكتوبر 1999**

جلالة الملك، سمو الأمير،

سيداتي، سادتي

السادة الأفاضل الفائزون بجائزة الأمير!

حينما أتوجّه بالشكر، باسمكم وباسمي الشخصي، على معاني الشرف التي تُسبغ علينا بحضرة جلالة الملك ومن يد سمو أمير أستورية، فإني أسعى جاهداً، في أول وهلة، إلى العثور على شيء مشترك يجمع بيننا، نحن الذين نهتم بمناحي متباينة، إلى أن أعثر على رابطة تجمع بيننا في الفترة القصيرة التي سيستغرقها الإعراب عن آيات الشكر في الأقل. على صعيد آخر، يفرض نفسه فرضاً جامحاً الحدثُ الذي ينتظره العالم أجمع: انتهاءُ قرنٍ وبزوغُ فجرِ ألفيّةٍ جديدة. وعلى نحو ما، يحق للمرء أن يزعم بأننا، نحن حائزي الجوائز، نجسّد المصابيح الخلفية لمسيرة زمن كان رهيباً وما زال، حتى اليوم الراهن، مولعاً بالتمسك بنظريات وعقائد معينة. ولكن، ولأننا جميعاً، وبغض النظر عن هوية البلد الذي ننتمي إليه، نشعر

بـأن الماضي لا نهاية له، بل هو يريد أن يظل ملاحقاً كل واحد منّا في مجتمعـه، لذا فليس من المتوقع أن تأبه الأمور، التي نريد نسـيانها أو نريد اعتبارها في عداد أمور فرغنا منها، بتاريخ انتهاء قرن وبزوغ فجر قرن جديد. فإذا كانت برامج تشـغيل الكومبيوتر عرضة لأن تحل بها كارثـة من جراء خطأ قد يحدث في برمجة الصفر، فإن الأمر البيّن هو أن التاريـخ وصداه لا يعيران اهتماماً لسـاعة الصفر. إنهما يسـتهزئان بالأرقام. إنهما سـيظلان ينشـران ظلالهما على عقود كثيرة من القرن القادم. إننا لن نسـتطيع الهروب من التاريـخ. فالتاريخ يحتّم علينا أن نجتر أحداثه وتداعياتهـا. وهكذا، فإن ما تداعيات عجزنا عن هضمه وامتصاصه، سـتقف في طريق جيل اليوم الحاضر وجيل المسـتقبل: كبُـراز خلفناه لهـذه الأجيال، بُـراز يقرأ المرء فيه أخبـار ذلك الزمن، يقرؤهـا مـن خلال السـطور التي حفرت نفسـها على سـطح قشـرته الجافة.

وهـا أنـا ذا قـد وصلـت إلـى موضوعـي: الأدب والتاريـخ. إن التاريـخ، والتاريخ الألماني بوجه خاص، فرض نفسـه عليَّ فرضاً لا مفـر منه طـوال ممارسـتي الكتابة عـن وعـي وإرادة، أي أنهما فرضا نفسـيهما علـيَّ على مدار فتـرة بلغت الآن خمسـة عقود مـن الزمن. فهـذا التاريخ ما كان بالإمكان تحاشـيه وغض النظـر عنه قط. وحتى محاولاتـي الجريئة والبهلوانية القفز من على التاريخ لم تجدِ نفعاً في إرادتي تحاشي الخوض فيه، فكانت هذه القفزات تقودني إلى مساره باستمرار. لقد وقعتُ أسير هذا التاريخ منذ كتبت روايتي الأولى «الطبل الصفيـح» وحتـى انتهائـي من أحدث طفـل جادت بـه نزواتي، أعني مؤلفي الموسوم: «مئويتي» (Mein Jahrhundert). إن تدمير وضياع مدينتي دانسـيغ قـد أطلق العنان لمادة قصصية كدّرتْها، حقاً، مشـاعرُ الطبقة الوسـطى والنتانة الكاثوليكيـة. وكان التاريخ [يقصد المؤلف

الحرب العالمية الثانية، المترجم]، يتحدث عن نفسه باستمرار، سواء في سياق الملل اليومي أو في الاحتفالات العائلية التي ليس لها آخر. وكان حديث التاريخ يدور، بادئ الأمر، حول أخبار الانتصارات، ومن بعد حول أخبار الهزيمة التي راح المرء يقرّ بها بصوت خفيض. وما كان بمستطاع حتى أكثر البيئات رغداً وعزلة النأي بالنفس عن التحوّلات التي كانت تنشأ عن مسيرة العصر. فالاهتمام بالمسائل العائلية كان حالة استثنائية. وواصل التاريخ تسجيل وقائعه على نحو جهوري [أي في أثناء أزيز الرصاص، المترجم] وبلا انقطاع. وبفضل الحيلة الأدبية كان بالإمكان الصمود أمام استبداد أحداث التاريخ، أعني خلال كتابة نص أدبي مضاد يتلاحق فيه الزمن تارة بسرعة خاطفة، ويُترَك فيه الزمن تارة ثانية يتمدد ويسير بخطى وئيدة – وذلك بعرض أحداثه على نحو مشحون ومتزامن و خلال قيام القاص بتغيير المنظار الذي ينظر منه إلى الأحداث المتلاحقة – وتارة أخرى خلال التجاهل الصريح لما يحدث.

وهكذا يفلح الأدب في إزاحة النقاب عن بِطانَةِ التاريخ، عن حقيقة وقائعه. فهو يزيح العوائق من أمام الناظر إلى صغائر الأمور المدمرة السائدة خلف كواليس الحكم. فعلى هذا النحو يصبح جليل الأمر مضحكاً بالنسبة للأدب، وعظيمُ الأمر من الصغائر، أضف إلى هذا أن الأدب الشبيه بأسطورة أندرسون «ثياب القيصر الجديدة» (Des Kaisers neue Kleider)، يسمح للطفل أن ينظر إلى صاحب الجلالة عرياناً من ثيابه كلّها. وأنا حينما أقول هذا فإني أعني ذلك الأسلوب القصصي الذي يبدأ بالأعماق أولاً ومن قبل أن ينتهي إلى ما هو ظاهر خارجياً؛ إني أعني الأسلوب الأدبي الذي يتّصف بالنزاهة وذلك لأنه لا يأبه بالأخلاقيات، أعني ذلك الأسلوب الذي لا تخدعه المظاهر الخارجية. وعلى هذا النحو يصبّ مسار

التاريخ، المعقول زعماً، في تلك المياه القذرة التي يتغذى منها بحر السخافات والأباطيل.

ولهذا السرد الأدبي المقذع جذور طبعاً. وهنا، في إسبانيا، حيث سادت الثقافتان العربية/ الأندلسية والثقافة الأسبانية على مدى قرون كثيرة في ظل علاقات اتسمت بالمحبة تارة وبالبغضاء تارة أخرى، جرب حظه أسلوب روائي تناقض تناقضاً عجيباً مع الوقائع الحقيقية وذلك لأنه كان قد رفع مَنْ لا أهمية له إلى مصافِ الأبطال، أعني الرواية التي أطلق عليها الباحثون في الأدب مصطلح رواية «الفرسان المكارين» (pikaresker Roman) لاحقاً. فهو، أعني البطل الماكر، قد رأى العالم وما فيه من أحداث صاخبة بواسطة مرآة مقعرة تارة ومرآة محدبة تارة أخرى. ودأب هذا البطل على استخدام الأكاذيب والحيل لتسليط الضوء على الحقيقة. بهذا المعنى، ما كان عنده شيء مقدّس. فعلى خلفية سخريته ذهبَ أدراج الرياح كل ما كتبه علماء اللاهوت من صحف. وأطلق العنان لقهقهات دفعت حتى أقوى حكّام هذا العالم لأن يطربوا ويرقصوا على نغماتها. ومن بين المؤلفين الكثيرين الذين أسسوا هذه المدرسة، التي ما كانت مدرسة أكاديمية ولا مدرسة لها بناية محددة، بل مدرسة تتنقل بين المغرب والأندلس، كان هناك أيضاً سرفنتس (Servantes)، المؤلف الذي جاد يراعه بالرواية الشهيرة المعروفة باسم بطلها: دون كيشوت؛ هذا البطل الذي كان وما زال المادة الخصبة التي يستوحي منها الكثير من أدباء عالمنا المعاصر ما يؤلفون من روايات، روايات أخذت على عاتقها، مثلها في ذلك مثل دون كيشوت، إزاحة الستار عما في الوضع القائم من مغزى لاعقلاني، وتكفلت بمنح ما هو لاعقلاني الملامح المميّزة له. إن رواية «دون كيشوت» كانت بمثابة الأب الذي أنجب في أوروبا ذلك الصنف الروائي الذي جال فيه

«كانديد»[1] فولتير مفنّداً وجود «أَرْوَع العوالم»[2]، والذي بفضله طرح «تريسترام شيندي» (Tristram Shandy)، بطل رواية لورنس ستيرني (Laurence Sterne)[3]، السؤال عن مزاج ساعة الزمن، والذي أدى فيه «تيل أُلِنشبيغل» (Tyll Ulenspiegel)، بطل رواية شالرز دي كوستير[4] (Charles de Coster) الموسومة «قصة أُلِنشبيغل ولام غودزاك» (Geschichte von Uylenspiegel und von Lamme Goedzak)، دور عابث ماكر يشارك الفلاندر في مقاومتهم الاحتلال الأسباني، والذي ترك فيه جريملسهاوزن[5] (Grimmelshausen) بطله، المسمى سيمبليسيسيموس، يجاهد للبقاء على قيد الحياة من خلال تنقّله بين الجيوش المتحاربة. وهل كان بوسع الألمان أن يدركوا مقدار المآسي التي خلّفتها حرب الثلاثين عاماً لو لم يقص عليهم سيمبلكس (Simplex) بنظرته الثاقبة تلك الأحداث المأسوية التي أضافها المؤرخ إلى وقائع التاريخ بدقة تامة من ناحية وبحيادية تخلو من أية مشاعر من ناحية أخرى؟

إن ما يخلّفه الأدب من شواهد تاريخية ينطوي على مغزى أعمق. فهو يتيح للخاسرين فرصة للتحدث عن أنفسهم: لأولئك الخاسرين كافة الذين لا يصنعون التاريخ، بل يعيشون وقائعه وذلك لأنه يخلق منهم مجرمين وضحايا، دمى طيعة ومطاردين. وما كنتُ سأعرف شيئاً يذكر عن الحرب الأهلية في أسبانيا لو لم يتكفل جورج

(1) «كانديد» هو بطل إحدى أشهر روايات فولتير. وتحمل هذه الرواية اسم بطلها عنواناً يدل عليها، المترجم.

(2) لاحظ أن «أروع العوالم» كان عنوان رواية الأديب الإنجليزي أَلْدوس هُكْسلي (1894- 1963) (Aldous Huxley)، المترجم.

(3) روائي إيرلندي (1713- 1768)، المترجم.

(4) روائي بلجيكي (1827- 1870). وكتب روايته هذه بالفرنسية، المترجم.

(5) أديب ألماني (1622 - 1676)، المترجم.

أورويل (George Orwell) في مؤلفه الموسوم (Mein Katalonien) بوصف ذلك النظام الشيوعي الإرهابي الذي كان جلاوزته ينفذون أحكام الإعدام بالأسرى من الفوضويين والاشتراكيين. لقد قام أدباء من أنحاء العالم كافة برواية كفاح وهزيمة الجمهورية. وتكاد هذه الحرب الأهلية أن تكون الحدث الوحيد من أحداث هذا القرن [القرن العشرين، المترجم] الذي تحدثت عنه المؤلفات الأدبية وعلى هذا النحو المتنوّع وبهذه الصيغة الحية؛ وتبقى هذه الحقيقة قائمة حتى وإن أخذنا بالاعتبار أن أصوات المؤلفين الأسبان قد قهرتها الرقابة على المطبوعات دهراً طويلاً وأنها لم تستطع أن تعبّر عن نفسها إلا في وقت متأخر. وهكذا، صدر في ألمانيا، وفي هذا الخريف بوجه التحديد، الجزءان الأول والثاني من الأجزاء الستة التي تتكون منها رواية «المتاهة السحرية» (Das magische Labyrinth) لمؤلفها، الأسباني جنسية والألماني-الفرنسي أرومةً، ماكس آوب (Max Aub)؛ وكان قد ألّف هذه الرواية خلال عقدين من الزمن كان قد قضاهما في المنفى. كلا، إن هذا التاريخ لا يمكن أن ينتهي. لا بد من إعادة روايته مجدّداً و باستمرار. ومَنْ يدري، فربما يظهر على الساحة شاب ينتمي إلى وطن الرواية التي خلقت الأبطال المكّارين، شاب يتكفل بأن يكون تلميذاً متأخراً لأونامونو[1] (Unamuno) ويفلح في يوم من الأيام في أن يقدم لوطنه رَقَصات المَوْت بالحمية نفسها التي اتسمت بها الصور المتتالية التي خلفها لنا غويا (Goya) في مؤلفه الموسوم «Die Schrecken des Krieges» (أهوال الحرب) والتي حفرت نفسها في أذهاننا؛ تماماً كما حفر بيكاسو أهوال الحرب

---

(1) دو اونامونو (1864-1936) أديب إسباني عُرف بتمثيله مرحلة الحيرة والقلق والتعبير عن آلام إسبانيا ومصائبها المتراكمة، متقدماً، في آرائه، التيار الوجودي، وغائصاً في تحليله على أعماق النفس الإسبانية، المترجم.

في أذهاننا حينما صوّر أهوال الحرب الأهلية الإسبانية في لوحته الموسومة «Guernica».

وبحسب ما يبدو لي، فإن جزءاً كبيراً من الأدب ينشأ من خلال النكبات والهزائم. فحينما تتقوض أركان هذا النظام أو ذاك بفعل تطوره التاريخي، على النحو الذي انهار فيه النظام السوفياتي مؤخراً، وحينما تتبدد كل مناحي القوة والعزة في هذه الدولة أو تلك، وحينما يصل غباء المنتصرين أقصى مدى، وحينما تجلب الحرية معها البؤس والشقاء وتختلط جموع اللاجئين بعضها بالبعض اختلاطاً يعيد إلى أذهاننا تجوال الشعوب في العصور الغابرة، وحينما يتخذ التاريخ مساراً يفضي إلى كارثة وتتبخر الرأسمالية، بصفتها آخر ما تبقى من إيديولوجيات، فتغدو لاعقلانية معولمة الأبعاد، وحينما تحدد البورصة فقط سلوك الأفراد وتنهار المناحي كافة بانهيارها، وحينما، أخيراً وليس آخراً، يضل المؤرّخون سبيلهم، من جراء تخاصمهم على صغائر الأمور، ويتيهون في مجاهل المنظار الساعي إلى تسجيل ما أفرزته وقائع التاريخ لاحقاً، عندئذ يعظم الأدب في عيون الناس. بهذا المعنى، فإن الأدب يعيش من ثمار الأزمات. إنه ينتعش في خلال الدمار. إنه يسمع دبيب الديدان. إن سلب الموتى والمغشي عليهم أسرهم وتعريتهم من ملابسهم هما وظيفته المعتادة. فسواء قام الكاتب بما قام به لقاء أجر أو بلا أجر، إن الأدب يجلس على رؤوس الأموات ويروي لذويهم القصص القديمة المرة تلو المرة.

بيد أن مَنْ يلقي نظرة عابرة على صفحات ركن الأدب والفن ويصغي إلى الهمسات الآتية من المؤسسات الثقافية، يسمع حيثما ولّى وجهه، حيثما تجرّأ الثانوي على ما هو أصلي وأراد أن يتخذ مكان

الصــدارة، مقولة تزعم أن الأدب فقـد أهميته، وأنه يصلح، في أفضل الحالات، للمناسـبات الطارئة أو لتغذية شـبكة الإنترنت بالمشهيات المناسـبة. وعلى حسـب مرامي وسـائل الإعلانات ينبغي للأدب أن يكون وسيلة لتشجيع الناس على شراء السلع الاستهلاكية.

إننـي لا أريـد تصديق هذا كلـه. إنني أعترف طواعيـة بأني غبي لا يعيـر اهتماماً لهـذا التقدم المزعوم. فأنا من الطـراز القديم وامتهن مهنــة قديمــة النمط، فلا أمتلك جهـاز كمبيوتر ولا أتجوّل في شـبكة الإنترنـت، بـل مـا زلـت مواظبـاً علـى كتابـة مخطوطاتي باليـد حقاً وحقيقة، وعلى طباعة مسـوداتي مرتين أو ثلاث مرات على آلة كاتبة مهلهلـة. وأمـارس، يوميـاً، كل هذه الأمـور على منضـدة أتحرك من أمامها ذهابـاً وإياباً مدمدماً ألوك الُجمل إلى أن، تصبح، نطقاً وكتابةً، شديدة الاقتضاب أو مشحونة المعنى. وأنا، في هذا كله، واثق من أن التاريخ سـيواصل مسيرته مصارعاً وأن الأدب سيصارع أيضاً، ولكن على نحـو معاكس. فهو، أعني الأدب، له أيضاً وبكل تأكيد مسـتقبله الزاهر.

وإذا مـا أُزيـح الكِتـابُ مـن مكانـه واحتل مكانـاً هامشـياً، فإنه سـيتحوّل ثانيـة إلى أمـر هدّام. مـن ناحية أخرى، سـيظل هنـاك قرّاء يعتبرون الكتب وسـيلة للنجاة من أهـوال العصر. إني أرى الكثير من الأطفال قد ملّوا من مشاهدة برامج التلفاز والألعاب التي تقدمها لهم أجهـزة الكومبيوتـر وفضّلوا الانـزواء عن هذا كلـه مصطحبين معهم كِتاباً يحكي لهم قصصاً تأسرهم. إني لن أشط أبداً إذا قلت بأن هؤلاء الأطفال سـيُنَمّون تخيّلاتهم وسيقرؤون بين سطور هذا الكتاب أموراً تزيد على ما هو مطبوع على صفحاته. إن هذا هو بالضبط الأمر الذي يميّـز بنـي البشـر. ولا أعتقد أن هناك صـورة أجمل مـن صورة طفل

يطالـع في كتاب، صورة طفل اسـتغرق بين صفحـات الكتاب، لكنه، مـع هذا، ظـل واعياً بما يدور حولـه وراغباً فـي أن لا يعكّر عليه أحدٌ الإمعان في معاني الكتاب.

وإذا ما أراد بنو البشـر فـي يوم من الأيام القادمة تدمير أنفسـهم بأنفسـهم علـى هـذا النحو الحـاذق أو ذلك - وهذا أمـر صار ممكن التحقـق في اليوم الراهن - فإني، سـيداتي وسـادتي ويـا عزيزي أمير أسـتورية، على ثقـة تامة بأن الكلمة الأخيرة سـتكون للكِتاب؛ وتبقى هـذه الحقيقة قائمة وإن قال الكِتاب كلمته الأخيرة على هيئة منشـور لا غير في نهاية المطاف.

# وللحديث بقية...

**لمناسبة منح جائزة نوبل للأدب**
**كانون الأول / ديسمبر 1999**

أعضاء الأكاديمية السويدية المحترمين، سيداتي، سادتي!

وللحديث بقية... بهذا الإعلان خلقت المؤلفات الأدبية لنفسها في القرن التاسع عشر الصيغة المناسبة لأن تظل تروي القصص ردحاً طويلاً من الزمن. إن الرواية المنشورة تباعاً، أي التي تُنشر حلقات متتابعة، كانت بضاعة رائجة آنذاك. فحينما كانت الفصول المختلفة تُنشر فصلاً بعد آخر، كان المؤلف لم ينتهِ بعدُ من كتابة النصف الأول من القصة، و بعيداً عن تصور النهاية التي ستؤول إليها روايته. ولم تأسر قلوبَ القراء،القصصُ المبتذلة المثيرة للرعب وذرف الدموع، فقط. فالعديد من روايات ديكنز كان قد جرى نشرها حلقات متتابعة. وكذلك الحال بالنسبة لرواية تولستوي «أنا كارينين»، فهذه الرواية نُشرت أيضاً على نحو متتابع. وكان عصر بلزاك قد جعل من الرواية المنشورة بهيئة حلقات متتابعة سلعة تهفو إليها قلوب عامة الناس و قد نجح في تعليم بالزاك، الروائي الذي كان مغموراً وقتذاك، انتهاج أسلوب الجذب والتشويق وأهمية التوقف عن نشر الحلقة في اللحظة المناسبة، أي اللحظة التي تدفع القارئ إلى أن ينتظر ظهور الحلقة التالية بفارغ الصبر. على صعيد آخر، فإن معظم روايات

فونتانه كان قد جرى نشرها في الصحف والمجلات وذلك على هيئة حلقات متتابعة، أعني، على سبيل المثال، روايته الموسومة «أخطاء ولخبطات» (Irrungen und Wirrungen)، هذه الرواية التي تركت صاحب الجريدة المسماة (Vossische Zeitung) يصرخ محتجاً: «أما توجد نهاية لحلقات هذه القصة الداعرة!».

ولكن، ومن قبل أن أواصل نسج خيوط خطابي هذا أو أن أبدأ بعزل بعض هذه الخيوط عن البعض الآخر، ينبغي أن أنوِّه هنا، بأن هذه الصالة والأكاديمية السويدية المضيفة لنا ليستا غريبتين عني من الناحية الأدبية الصرفة. ففي روايتي الموسومة «الفأرة» (Die Rätten) -وهي رواية صدرت قبل زهاء أربعة عشر عاماً وما زال هذا القارئ أو ذاك يتذكر مسارها المأسوي القائم على مستويات سردية متواصلة الانحدار- ثمة مشهد تحدثت فيه عن خطاب أُلقي في ستوكهولم، وأمام جمع يتكوّن من خليط مشابه للاختلاط الذي اتسمت به المستويات السردية، خطاب يشيد بالفأرة، أو لنقل على نحو أدق، يشيد بالفأرة المخصصة للتجارب المختبرية.

لقد حازت هذه الفأرة جائزة نوبل. أو لنقل، لقد حازتها بعد طول انتظار. فاسمها كان مندرجاً ضمن أسماء المرشّحين للفوز بهذه الجائزة منذ زمن طويل. أضف إلى هذا أن فوزها كان متوقعاً على الدوام. وهكذا، وبالنيابة عن ملايين الحيوانات التي تُجرى عليها التجارب، بدءاً من الأرنب الهندي (Meerschweinchen) وانتهاءً بالقرد الهندي (Rhesusaffen)، تم الآن تكريم هذه الفأرة، البيضاء اللون، الحمراء العيون، والمخصصة للتجارب المختبرية أيضاً. ووفق مزاعم الراوي الذي يسرد الأحداث في روايتي، فإن هذه الفأرة كانت أكثر الحيوانات الأخرى أهمية، فهي التي عبّدت الطريق

أمـام البحوث القيّمة والابتكارات المتقدمة في المجالات الطبية وما حقق وتسـون (Watson) وكريك (Crick)، العالمان الحائزان جائزة نوبـل، من نجاحـات باهرة فـي مجال تغييـر الجينات، هـذا المجال الواسـع الـذي لا حدّ لـه. ومن هذا الحيـن صار، على نحـو أو آخر، جائزاً استنسـاخ النباتـات والحيوانات: الـذرة والخضروات وكذلك العديـد مـن الحيوانـات. ولهذا السـبب جرت نسـبة الفئـران - التي راحـت، فـي نهاية الروايـة المذكورة، أي في عصر البشـرية الاخيرة، تهيمـن على أحـداث الرواية أكثر فأكثر - إلـى العالِمَيْن المذكورين، وصـار اسـمها: (Watsoncricks). فهـذه الفئران تطوي فـي داخلها أفضـل مـا في الفصيلتين مـن خصائص، أعني أنها تضـم في حقيقتها ما في الإنسـان من جوهر تتسـم به الفئران، وما في الفئران من جوهر يتسـم به الإنسان. وعلى ما يبدو، فإن العالَم ينشد إِبْلال نفسه بواسطة ما في المخلوقات التي يطورها هو نفسـه من جوهر. ولقد آن الأوان لأن يضـع الإنسـان حداً للفوضـى التي عمّته عقب الانفجـار الكبير، ويعيـد إلى العالم النظام ثانية وذلك بواسـطة الـ«Watsoncricks»؛ فعقب هذا الانفجار لم تنجُ بنفسها سوى الفئران والصراصير والذباب وقليل من الأسماك والضفادع.

ولكن، وبما أن باب هذا السرد ظل مفتوحاً وذلك لأن «للحديث بقية...»، وبما أن كلمة الثناء على الفأرة المختبرية لمناسبة منحها جائزة نوبـل لـم تُنهِ الروايـة بنحو بهيج، لـذا أرى أن من حقي أن أعير السـرد الروائي اهتمامي الآن بصفة أساسـية وذلك لأن هذا السرد هو الصيغة الفنية التي ألجأ إليها للنجاة من أهوال الزمن.

لقد رافق السـرد القصصي البشرية منذ فجر التاريخ. فمن قديم الزمـان، أي قبل أن يحاول بنو البشـر الكتابة ويتقنـوا القراءة والكتابة

خطـوة فخطـوة، كان كل واحـد منهـم يسـرد قصـة ما للآخـر، وكان الواحـدُ منهـم يصغي بالسـمع إلى ما يرويـه القاص. ولم يـدم الأمر طويـلاً حتى كان بيـن الأفراد، الذين كانوا ما زالـوا لا يتقنون الكتابة، أفـرادٌ يُحسـنون أكثر من غيرهم سـرد القصص أو يحسـنون أكثر من غيرهم جعل الكذب والتلفيق أمراً محتمل التصديق. ومن بين هؤلاء كان هناك أيضاً أفرادٌ نجحوا، فنياً، في أن يسترسـلوا في سـرد قصتهم وفي تركها تنساب انسياب المياه في النهر أولاً وأن يصعّدوا، من بعد، الأحـداث عدداُ وحجمـاً تصعيداً يجعلها تفيـض وتعبر ضفاف النهر خالقـة بذلـك لا تفرعـات فقط تتدفق فيهـا المادة أبداً، بـل ومبتكرة، وعلى نحـو مباغت، مجرى عريضاً تطفو على مياهه مادة غزيرة تفرز الكثير من الأحـداث الجانبية. ولأن هؤلاء القصاص الأوائل، هؤلاء الذين ما كانوا بحاجة ماسـة الى نور النهار والمصابيح، وذلك لأنهم كانـوا قادرين علـى التهامس فـي الظلام، بـل كانوا يحبـذون الظلام وذلـك لأنه كان يشـد أعصاب السـامعين، ولأن هـؤلاء القُصّاص ما كانـوا يتهيّبون جـدب طاقاتهم القصصيـة، ولأنهم ما كانـوا يتوقفون عن السـرد إلا بفعل الإرهاق وبتعهد يفيد بأن «للحديث بقية...»، لذا كان يصغي إلى هؤلاء القُصّاص أفرادٌ كثيرون كانوا قادرين على سرد الأقاصيص أيضاً، ولكن ليس من معين لا ينضب.

ولكـن ما هي المـادة التي كان هؤلاء الأفراد يروونها من قبل أن تعرف البشرية الكتابة والقراءة؟ ومنذ فجر التاريخ، منذ قابيل وهابيل، كان الكثيـر مـن الحديث يدور حول القتل العمد. وشـكّل أخذ الثأر، والأخـذ بثأر المقتول على وجه الخصوص، مادة رئيسـية في الشـأن الـذي نحن بصدد الحديث عنه. من ناحية أخرى، كانت إبادة شـعب من الشـعوب عادة دارجة وقتذاك. إلا أن الفيضانات وحقب الجدب وسـنوات الجوع وأعوام الخير الوفير كانـت أيضاً مدار قصص ذلك

الزمـان. ولم يألُ المرء جهداً في الحديث بإسـهاب عن عظم ثروات البعض من الحيوانات والرقيق. على صعيد آخر، ولكي يفصحوا عن معارفهم الواسـعة، ما كان بوسع القُصّاص أن يتجاهلوا الحديث عن أنسـاب القبائل والعشـائر والشـعوب. ودأب قُصّـاص تلك العصور على رواية أخبار الأبطال وأنسابهم. أضف إلى هذا أنهم كانوا يروون قصـص الخيانـات الزوجيـة التي مـا زالت محبّبـة إلـى الكثيرين في يومنا الراهن أيضاً، وقصصاً أخرى تثير الرعب والفزع وكانت سـلعة رائجـة جداً، وذلك لأنهـا تتحدث عن مخلوقـات تجمع بين صفات البشـر وصفات الحيوانات وتتخفّى في متاهات أو بين حلفاء ضفاف الأنهـار؛ ناهيـك عـن أسـاطير الآلهـة والأصنام وقصـص الرحلات البحريـة وما يرافقها من مصائب ومغامـرات، هذه القصص التي كان النـاس يتناقلونها بعد صقلهـا تارة وبعد الزيادة عليها تـارة ثانية وبعد تغييـر أو تحريف معناها إلى عكـس مغزاها الأصلي تارة أخرى؛ كما كانـت هناك تلـك القصص التي سـجّلها ذلك الراوي الـذي يُقال أن اسمهُ كان هوميروس، أو سجّلتها مجموعة من رواة عديدين – ككتب اليهود وكتب الأناجيل. وسواء في الصين أو في فارس أو في الهند أو فـي جبال البيرو أو في بقاع العالم الأخرى، أعني في كل مكان عرف الكتابـة، كان الرواة هم أولئك الأفـراد الذين تحوّلوا أفراداً أو جماعةً إلى أدباء معروفين أو أدباء مغمورين.

وظلـت حيـة، بالنسبة لنـا نحـن الذين يسيطر عليهـم الحرف المكتـوب سـيطرة غاية في التطـرّف، ذكرى الرواية الشـفوية، ذكرى الأصـل الشـفوي للأدب. وإذا ما فاتنا أن كل مـا جرت روايته قد كان منذ البداية شـفوياً، كان تارة يدور على الألسـن متعثّراً، وتارة متسارع الخطى كما لو كان هارباً من أمر مفزع، وتارة هامسـاً كما لو كان يريد أن يبوح بسـر يحرص على أن لا يعرفه كثير من الأفراد، وتارة أخرى

منادياً بصوت مرتفع في حديث تتخلله نداءات النصر أو أسئلة تريد بكل إلحاح إزاحة النقاب عن المناحي كافة، نعم إذا ما فاتنا، نحن المتشبثين بالحرف المكتوب، هذا كله، فستكون رواياتنا عندئذ مجرّد أقاصيص جافّة لا روح فيها ولا حياة، أقاصيص ليست وليدة أنفاس عطرة.

ولا ريب في أن من حسن حظنا أن تكون بين أيدينا الكتب بعدد كاف، كتب لها قيمة سواء طالعناها بصوت خفيض أو قرأناها جهاراً. إنّ هذه الكتب كانت القدوة التي سلكتُ دروبها. فمعلّمون كبار من قبيل ملفيل[1] (Melville) ودُبلين[2] (Döblin)، وكذلك ترجمة مارتين لوثر لكتب العهدين القديم والجديد إلى الألمانية، كانوا قد حفزوني، وأنا صبي فتح صدره لتعلّم المعارف والعبر، أن أنطق بما أدوّن على الورق بصوت مسموع، وأن أخلط الحِبْرَ بشيء من رضابي. إنني أمارس الكتابة بشغف كبير وسرور عظيم منذ زهاء خمسة عقود من الزمن، وتجدر الإشارة إلى أنني أقوم طوال هذا الزمن بمضغ الجُمَل صعبة الهضم إلى أن تصبح كلاماً مهروساً أدمدم به وأنا مواظب على الكتابة في وحدة غاية في الروعة وأنني أدوّن على الورق تلك الجمل فقط، التي تتخذ، عند النطق بها، نبرات متغيرة ويصبح لها رنين وصدى.

نعم، إني مغرم جداً بمهنتي. فهذه المهنة تمنَّ عليَ مصاحبة جماعة تتحدث عن نفسها بأصوات متعددة وتريد أن تدخل سطور

---

(1) Herman Melville (1819-1891): روائي أميركي عُني بتصوير حياة البحر، المترجم.

(2) Alfred Döblin (1898-1956) أديب ألماني كان أحد مؤسسي الصحيفة التعبيرية «العاصفة». وكان قد نشر قصصاً وروايات عديدة، المترجم.

المخطوطة كنسخة من الأصل إن أمكن. وأَحَب شيء إليَّ هو أن ألتقي بكتبي، التي فارقتني أو التي سلبها منّي القرّاء منذ سنوات كثيرة، وأنا أقرأ منها على المستمعين ما هدأ لهيبه بعدما صار مكتوباً على الورق وتم التعبير عنه. وتغدو، من ثم، وعند الوقوف وجهاً لوجه أمام جمهور المستمعين من شباب كفوا في وقت مبكر عن الشغف باللغة، ومن جمهور شيوخ لم يرتوِ بعد تعطشهم للغة، تتحول الكلمة المكتوبة، المستخدمة للتعبير عمّا يجول في الخاطر، ثانيةً إلى حديث شفوي. ويتحقق سحر الكلمة الشفوية المرة تلو المرة. وهكذا يكسب قوتَه الطبيبُ الساحر القابع في أعماق الكاتب. فالكاتب، هذا الذي يكتب عكس الزمن المنصرم، والذي يختلق الوقائع القابلة التحقق، يثق المرء بتعهده غير المعلن بأن: «للحديث بقية...».

ولكن، كيف أصبحت كاتباً وشاعراً ورسّاماً؟ – كيف أصبحت هذا كله في آن واحد وعلى ورق أبيض حقاً وحقيقة؟ ما هي طبيعة هذا الاعتزاز بالنفس الذي دفع طفلاً إلى هذه المغالاة بالأحلام والتطلعات؟ فأنا كنت في سن الثانية عشرة تقريباً حين بدا لي جلياً أنني عقدت العزم على أن أكون فناناً. واتخذت هذا القرار حينما اندلعت الحرب العالمية الثانية في مسقط رأسي، بالقرب من ضاحية دانسيغ المسماة لانغنفوهر (Langenfuhr). وكان الانتماء إلى صنف الأدباء قد تبلور في السنة الأولى من سنوات الحرب، حينما أعلنت مجلة شبان هتلر «Hilf mit!» (شارك في تقديم العون!) عن عرض مغر فعلاً: فعلى صفحات المجلة جرى الإعلان عن مسابقة روائية. وتكفّلت المجلة بدفع مبالغ سخية للفائزين. وهكذا، عكفت في الحال على كتابة روايتي الأولى على صفحات دفتر متواضع القيمة. وكان عنوان الرواية مأخوذاً من اسم الشعب الذي انحدرت منه أسرة والدتي: «الكاشوبيون» (Die Kaschuben). ولم تكن

أحـداث الرواية تدور حول الواقع المأسـوي الذي كان هذا الشـعب الصغيـر يعانيه وقتذاك، بل كانت تـدور حول وقائع حدثت في القرن الثالـث عشـر، أي فـي ذلك الزمن الذي خضع فيه الشـعب لسـلطان حكومـة موقتة، وذلك لأنه ما كان هناك قيصر يقوم على حكم البلاد، في زمن كانت فيه الطرقات والجسـور تخضع لسـيطرة قطّاع الطرق، وما كان فيه لدى المزارعين حلٌ سوى تنفيذ قوانينهم الخاصة وإقامة المحاكمات السرية لمن يقبضون عليه متلبساً بالجرم المشهود.

وكل مـا أتذكـره هـو أن العرض القصيـر للوضـع اقتصادي في ريـف بلاد الكاشـوب لحقت به في الحال مشـاهد تعـرض عمليات النهـب والسـلب وما رافـق هـذه العمليات مـن قتال وطعـان. ولأن الرواية كانت قد أفرطت في تصعيد عمليات الخنق والطعن بالسيوف والحراب والإعدام إما بقطع الرقبة بالسـيف أو بحبل المشـنقة تنفيذاً لقرارات صادرة عن محاكمات سـرية، لذا خسـرت الرواية في وقت مبكر جداً، في نهاية فصلها الأول، شـخوصها الرئيسيين كافة وغالبية شـخوصها الثانويين؛ فهـؤلاء جميعاً قضوا نحبهم إمـا مطمورين في اللحود أو فرائس للطيور الجارحة. وبما أن المشـاعر التي سـيطرت على أسلوبي السردي لم تسمح لي أن أترك الموتى يواصلون دورهم في الرواية على هيئة أشـباح أسـتطيع الانتفاع بها للسـير بالرواية إلى مجـالات مثيرة للفزع، لذا رأيت في الرواية محاولة فاشـلة وخُيل لي أنـه لن يكون «للحديث بقية...»؛ أنه لن يكـون «للحديث بقية...» لا علـى نحـو دائم، بل لحين من الزمن فقط، فالمبتدئ أخذ درسـاً بليغاً وتعلّـم أن عليـه أن يتعامل مع ما يختلق من شـخوص بنحو أكثر تأنياً وأقل تبديداً.

وعلـى كل حـال، فبعـد هـذه المحاولة الفاشـلة، رحـت ألتهم

الكتب. وكنت أقرأ الكتب بأسلوبي الخاص: أقرؤها وأنا واضع سَبابتيّ في الأذنين. ويكمن تفسير هذا الأسلوب المتميّز في أننا، أنا وأختي الأصغر مني سناً، قد ترعرعنا في سكن متواضع، في شقة صغيرة تتكون من حجرتين فقط، أي ما كان للواحد منا ولو جحر صغير خاص به. وفي الأمد الطويل، كان هذا الوضع عظيم النفع بالنسبة لي. ففي خلاله تعلّمت مبكراً التركيز على ما أقرأ وإن كنت محاطاً بالأشخاص وتعالت الضوضاء من حولي. وهكذا، وكما لو كنتُ في عالم آخر، كنتُ أستغرق في مطالعة الكتب وقراءة القصص التي ترويها هذه الكتب استغراقاً تاماً. وأرادت والدتي - بحكم ميلها إلى المزاح - أن تبيّن لامرأة من جيراننا مدى استغراقي في قراءة الكتب فأعدت لي فطيرة محشوة بالزّبدة ووضعتها الى جنب أحد الكتب. وبينما كنتُ أقضم من حين لآخر شيئاً من هذه الفطيرة، شاهدت المرأتان كيف استبدلتُ قطعة صابون بالفطيرة - كانت من ماركة البالموليف على ما أعتقد - ورحت ألوك شيئاً منها من دون أن أرفع بصري عن الكتاب ومن غير أن أعي حقيقة ما حدث إلا بعد مضي أكثر من دقيقة من الزمن. ولا أخفي بأن والدتي شعرت بفخر ملحوظ وهي ترى فتاها مستغرقاً في الكتاب على هذا النحو.

لقد درّبت نفسي على هذا السلوك في وقت مبكر؛ وما زال التركيز ديدني حتى اليوم الراهن؛ أقول هذا وإن اعترفت طواعية بأني لم استغرق في القراءة قط بالعمق الذي استغرقت فيه وقتذاك. وكانت الكتب مصفوفةً في دولاب متواضع ثُبتت عليه ستائر زرقاء. وكانت والدتي عُضْوَةً في نادٍ للكتب. وإلى جانب روايات دُستُويَفسكي وتولستوي ضمت الخزانة بين جنبيها بضعة مؤلفات لهامسون (Hamsun) ورابه (Raabe) وفيكي باوم (Vicki Baum). كما احتوى الدولاب الصغير على مؤلف سلمى لاجَرْلوف (Lagerlöf) الموسوم

(حكاية غوسْتا بَرْلنغ (Cösta Berling). أما في الزمن التالي، فكانت المكتبة العامة في المدينة هي التي تروي تعطشـي للقراءة. إلا أن هذا الأمـر لا يغيّر شـيئاً من حقيقـة أن خزانـة الكتب العائدة إلـى والدتي هـي التـي أيقظت فيَّ الشـغف بالكتب. ومع أن والدتـي كانت تاجرة تتقن حسـاب الربح والخسارة جيداً وتحذق في تصريف أمور دكانها المختص ببيع السلع القادمة من المستعمرات والذي كان يؤدي مهام جليلة للزبائن الذين يشـترون بالدين ولا يسـددون ديونهم بيسر أبداً، إلا أنها كانت تحب المناحي الجمالية وتسـترق السـمع إلى ما يقدمه المذياع الشـعبي من مسـرحيات غنائية وتصغي بشغف إلى قصائدي الشعرية المبشرة بمسـتقبل واعد وتذهب إلى مسرح المدينة في كثير من الأوقات وتصطحبني معها إلى هناك من حين لآخر.

وبالنسـبة إلى اليوم الراهن، تكمن قيمة هذه الحكايات المروية هنا باقتضاب، هذه الحكايات التي عشتها في بيئة اجتماعية متواضعة، والتـي كنـتُ قـد رسـمت صورتها قبل عشـرات السـنين روائيـاً، أي بواسـطة شـخوص مختلقين، فـي أنها تسـاعدني علـى الجواب عن «كيـف أصبحـت أديباً؟» إن القـدرة على الحلم في وضـح النهار بلا انقطـاع، والشـغف بالنكتـة اللفظيـة والتلاعـب بالكلمـات، والولع بالكذب لا لنفع خاص، بل لأن سـرد الحقيقـة كان قد بدا أمراً مملاً، أي وباختصار أن ما يسمّيه المرء عادة موهبة قد كان موجوداً فعلاً، إلا أن الطغيـان المفاجئ للسياسـة على الحياة العائلية الهادئة شـارك في تحميل الموهبة، المنسـابة في عرض البحر بخطـى متئدة، مادة ثقيلة تسبّبت في تركها تغطس في مجالات أعمق.

وكان ابـن عم والدتي من أصول كاشـوبية أيضاً ويحظى بمنزلة متميّزة عندها ويتردد على نزلنا محبوباً مكرّماً. وكان هذا العم موظفاً

فـي دائـرة البريـد البولونيـة فـي المدينـة الحرة دانسـيغ. وفـي الأيام الأولى من الحرب شـنّت قـوات الدفاع الشـعبي النازية هجوماً على بنايـة البريد الكائنـة في ميـدان هيفيليـوس (Heveliusplatz). ولأن عمـي هـذا كان من جملة الأفـراد الذين دافعـوا عن هـذه البناية حيناً مـن الزمن، لـذا أُعدم هو وزمـلاؤه رمياً بالرصاص بنـاءً على الحكم العرفـي. وهكذا، خسـرنا هذا العـم على نحو مفاجـئ. فلم يعد أحد يتحدث عنه قط. لقد ظل مسـتثنى من المشـاركة فـي الحياة العائلية. إلا أن خسـارتنا اياهُ جعلته يحفر ذكراه فـي خاطري، بلا قصد ووعي وعبر سـنوات وسنوات، سـنوات ارتديت فيها لباس الجندية وأنا ابن خمسـة عشـر عاماً وتعلّمت فيها الرهبة والخوف وأنا ابن سـتة عشـر عاماً ووقعت فيها أسـيراً في قبضة القوات الأميركية وأنا ابن السـابعة عشـر عامـاً وحصلـت على حريتـي ومارسـت المتاجرة في السـوق السـوداء وأنـا ابـن الثامنة عشـر عامـاً وتعلّمـت، أخيراً وليـس آخراً، مهنـة النحت وتمرّنت فـي مختلف المعاهد العاليـة للفنون وواظبت تارة على الكتابة والرسـم وتارة أخرى على الرسم والكتابة؛ ودبّجت قصائـد على جناح السـرعة، وألّفت مسـرحيات مضحكـة من فصل واحـد. وظـل الأمر على هذا المنوال إلى أن شـعرت، أنـا الذي يكاد حـب الجمال أن يكون جزءاً من غرائزه، بـأن مادة عظيمة قد صارت تصدّنـي عن المضي قدماً. وتحت أنقـاض هذه المادة كان يتمدد ابن عم والدتـي العزيز، الموظف البولوني في مكتـب البريد، كان يتمدد ميتاً منتظراً مني – نعم مني أنا – فَمَنْ هو أولى مني بهذا العمل؟ – أن أعثـر عليه وأرفع عنه أنقـاض الزمن، أن أعيده إلى الحياة ثانية باسـم آخـر وبهيئـة مختلفـة وذلك خـلال ما في السـرد الأدبي مـن قدرات خلاقـة تنعـش الأرواح وتعيد الحيـاة إلى الموتى؛ ولكـن، وفي هذه المرة، في رواية لا يقضي شـخوصها نحبهـم في فصلها الأول،لا بل

في رواية يظل شخوصها، سواء كانوا من أصحاب الأدوار الرئيسة أو الثانوية، يحتلون فصولاً كثيرة محبين الحياة حباً جماً جذلين مفعمين بالغبطة والنشاط. وظل بعض هؤلاء الشخوص يؤدون دورهم حتى نهاية الرواية. وعلى هذا النحو استطاع المؤلف أن يوفِ بتعهده بأن يكون «للحديث بقية...».

وتواصلت الجهود ونما زادُ التجارب. فحينما نشرت رواياتي الاوائل، أعني «الطبل الصفيح» و«قط وفأر» و«أعوام الكلاب»، فإني كنتُ قد تعلّمت مبكراً، أي بصفتي روائياً ينتمي إلى جيل الشباب نسبياً، أن الكتب قد تثير الاستياء والاستنكار، والغضب والحقد أيضاً. فما قِيل في هذه الروايات بشأن الوطن حباً بالوطن ذاته، اعتبره البعض إساءة بحق الوطن. ومنذ هذا الحين أصبحت شخصاً موضع نقاش وخلاف.

وإذا كنتُ واحداً من أولئك الكتّاب الذين يتمنى المرء لهم النفي إلى سيبريا أو إلى الجحيم، فلا أخفي عليكم بأني أشعر بالغبطة حينما أكون بصحبة هذه الزمرة من الكتّاب. بهذا المعنى، فإنه لا يجوز لنا أن نشتكي ونتألم. فشعورنا المستمر بأننا موضع نقاش وخلاف يشحذ قوانا وينعش خيالنا ويتناسب أيضاً مع خطر المهنة التي اخترناها. فبالنسبة لأصحاب الهيمنة والسلطان، بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون دائماً وأبداً أن مكانهم المناسب يقع في صفوف المنتصرين، يشكل الكُتّاب شوكةً تجرح عيونهم، فالكتّاب يعكّرون عليهم صفو حياتهم عن وعي وإرادة وعلى نحو مدروس. ولهذا السبب أيضاً نرى أن تاريخ الأدب يتطور تطوراً موازياً لتطور أساليب الرقابة الحكومية على المطبوعات.

فغضب المتسلّطين كان قد أجبر سقراط على شرب السم حتى

آخر قطرة في الكأس وقاد أُوفيد (Ovid) إلى المنفى ودفع سنيكا (Seneca) لأن يقطع وريده بيده. على صعيد أخر، تُزين أروعُ الثمارُ الأدبيةُ التي جادت بها الروضةُ الثقافيةُ الأوروبيةُ قائمةَ الكتبِ التي حظرت الكنيسة الكاثوليكية قراءتها في قرون الزمن الغابر وما زالت تمنع قراءة البعض منها حتى اليوم الراهن. ولكن، ما هو مدى العرقلة التي عانت منها حركة التنوير الأوروبية من جراء أساليب الرقابة على المطبوعات التي مارسها الأمراء المتسلّطون والحكّام المستبدّون؟ وكم هو عدد الكتّاب الألمان والإيطاليين والبرتغاليين الذين أجبرتهم الفاشية على هجرة أوطانهم ومحيط لغاتهم الأم؟ وكم هو عدد الكتّاب الذين اغتالهم الإرهابُ اللينيني-الستاليني؟ وما هي أساليبُ القمع والإكراه التي يخضع لها الأدباء في اليوم الراهن، سواء في الصين أو في كينيا أو في كرواتيا؟

إنني أنحدر من بلد إضرام النار في الكتب. وإننا نعلم جيداً أن الرغبة في القضاء على الكتب المكروهة، سواء بهذه الطريقة أو تلك، قد عكست، أو لنقل، أمست تعكس ثانية روح العصر وأنها تعثر على مَنْ يصفق لها من حين إلى آخر. الأمر الأكثر افزاعاً هو أن ملاحقة الكتّاب تزداد قسوة وأنهم يتعرّضون للتهديد بالقتل أو للإعدام في كل أنحاء العالم وأن العالم أجمع قد اعتاد على هذا الإرهاب المتواصل. والملاحظ هو أن ذلك الجزء من العالم، الذي يسمّي نفسه العالم الحر، يصرخ محتجّاً، حين تحكم سلطات نيجريا في عام 1995، على سبيل المثال، بالإعدام على الكاتب كين سارو فيفا (Ken Saro-Wiwa) وتنفذ به هذا الحكم فعلاً، لا لشيء إلا لأنه أدان، هو ورفاق آخرون، تلوّث البيئة في بلادهم، إلا أن هذا العالم يتحول في لمح البصر إلى جدول الأعمال العادية ذلك لأن الاحتجاج

على تلوث البيئة قد يسيء إلى النشاطات الاقتصادية الخاصة بشل (Shell)، الشركة العملاقة الناشطة في مجال البترول.

ولكن، ما هو الأمر الذي يجعل من الكتب ومؤلفيها خطراً يحتّم على الدولة والكنيسة، وعلى مؤسسات الإعلام العملاقة والمكاتب السياسية، أن تتخذ إجراءات مضادة لها؟ والملاحظ هو أن إخراسَ الألسنِ ونُذُرَ الشرِ نادراً ما يعود سببه إلى الهجوم المباشر على الإيديولوجية السائدة في الأزمنة والبلدان المختلفة فقط. فمحاولة الكاتب في مؤلفاته الأدبية إقامة الدليل على أن ما هو حق وما هو زائف أمر يتوقف على الموقع الذي ينظر منه المرء، على أنه ليست هناك حقيقة واحدة، بل إن هناك أكثر من حقيقة، إن هذه المحاولة بحد ذاتها تكفي، في كثير من الأحيان، لاعتبار الأدب الروائي خطراً عظيماً، خطراً قاتلاً بالنسبة لأولئك الذين لا يرون سوى حقيقة واحدة لا غير. وإذا كان الكُتّاب - بحكم مهنتهم - لا يستطيعون تجاهل الماضي وغض الطرف عنه، وإذا كان دأبهم هو أن يشجوا الجرح المندمل، وأن ينبشوا الجثث القابعة في السراديب، وأن يدخلوا الحجرة المحظور دخولها، وأن يأكلوا لحم البقرة المقدّسة أو أن يقدموا - على غرار ما سبقهم إليه يوناتان سُويفت[1] (Jonathan Swift) - النصيحة إلى الطباخين، الذين يهيئون للنبلاء الإنجليز طعامهم، بأن يشووا على السيخ الأطفال الإيرلنديين، أي إذا كان الكُتّاب لا يقدّسون أي شيء، حتى الرأسمالية نفسها، عندئذ لا عجب أن يرتاب المتسلّطون بالكتّاب وأن يروا فيهم أشخاصاً

(1) كاتب إيرلندي (1667-1745) شارك في معظم القضايا السياسية والدينية والأدبية التي شغلت أذهان الرأي العام الإنجليزي والايرلندي، وكان له فيها مواقف واضحة وعنيفة في معظم الأحيان، المترجم.

يستحقون العقاب. ومع هذا كله، فإن جريمتهم النكراء تبقى تكمن في أنهم لا يسايرون، في مؤلفاتهم، أولئك الذين حققوا لأنفسهم النصر المبين في المسيرة التاريخية، أنهم يظلون ملازمين المهزومين الواقفين على هامش التحولات التاريخية. فَمَنْ يدافع عنهم، يثير الريب حول الانتصار المتحقق. ومَنْ يحيط نفسه بالمهزومين، لا يمكن أن يكون إلا مهزوماً مثلهم.

وغني عن البيان أن أصحاب القوة والسلطان، المرتدين موضة هذا العصر أو ذلك، لا يعادون عموم الأدب. لا بل إنهم يتطلّعون إليه بشغف كبير كزينة يزيّنون بها عصرهم، من هنا لا عجب أن تراهم على أتم الاستعداد لتشجيع الأدب. والمطلوب من الأدب في اليوم الراهن هو أن يكون مادة للتسلية، أن يخدم متطلبات الثقافة العابثة، أي أن لا يكون سلبياً فقط، بل أن يمني الناس البائسين بمستقبل باهر. ويمكن القول بأن الأدب كان ولا يزال مطالباً برسم صورة «للبطل الإيجابي». وتبقى هذه الحقيقة قائمة حتى وإن لم يعد المرء يصرّح، علانية، بهذا المطلب الذي كان المرء يصرّح به في أزمنة الأنظمة الشيوعية. فهذا البطل قد يظهر في اليوم الراهن، في غابة اقتصاد السوق الحرة على هيئة رامبو، البطل الذي اختلقته هوليوود، البطل الذي يعبد طريقه بأشلاء الضعفاء ببهجة وسرور، البطل المتهور الذي يمارس، بين قتل هذا وذبح ذاك المستضعف، الجنس مع هذه المومس أو تلك، البطل الذي لا يخلّف وراءه سوى خاسرين، أي وباختصار، البطل الذي يسبغ على عالمنا المعولم شيئاً من طبيعته الإيجابية. وكما هو الحال في كل العصور، تتجاوب وسائل الإعلام، أيضاً، مع تطلّعات العصر الراهن لأن يوجد فيه البطل الصلب الذي يظل مرفوع الهامة مهما كانت المعضلات والمخاطر: فجيمس بوند

خلّف لنا الكثير من الأطفال الذي يحتذون حذوه. فبفضل إرادته القوية وجرأته الخارقة يواصل الخيرُ تحقيقَ النصر على الشر.

ولكن، أيعني هذا أن البطل السلبي هو الصورة العكسية للبطل الإيجابي، اللاعب المضاد له؟ ليس بالضرورة. فكما قرأتم، فإن جذوري تضرب في أعماق المدرسة الأندلسية-الإسبانية، هذه المدرسة التي وضعت أسس الرواية التي تدور وقائعها حول «الفارس الماكر» (Der pikareske Roman). فهذه المدرسة، التي كان كفاح بطلها يذهب مع الريح، شكّلت نموذجاً اقتدى به الأدباء على مدار قرون عديدة من الزمن. بهذا المعنى، فإن الفارس الماكر كان يقتات من مهزلة الانحدار. فنكاته تسكب البول على أركان السلطان، وتنخر في قوائم كراسي أصحاب السلطان؛ إنه يفعل هذا وإن كان على علم أكيد بأنه لن يفلح لا في نسف أسس المعبد ولا في تقويض أركان العرش. إن كل ما في الأمر هو أن صاحب العظمة سيبدو رثاً رخيصاً، بعدما يمرّ من أمامه بخطى متئدة فارسي الماكر، كما سيبدو العرش مهتزاً بعض الشيء. ومهما كانت الحال، فإن مزاح فارسي الماكر مستقى من اليأس. وعندما يجري في مدينة بايرويت (Bayreuth) الألمانية عرض أوبرا فاجنر (Wagner) الموسومة «فجر الآلهة» (Götterdämmerung) أمام جمهور من عليّة القوم، فإن المرء يسمعه يُكركر ويضحك ساخراً، ففي مسرحه تمشي الملهاة (Die Komödie) والمأساة (Die Tragödie) يداً بيد. وهو يستهزئ بالمنتصرين بحكم القضاء والقدر ويجعلهم يتعثّرون في خطاهم. وإذا كان فشله يثير فينا الضحك فعلاً، إلا أن ضحكنا هذا مصطنع: فهو يتوقف في حلوقنا كأن ألسنتنا قد شُلت؛ وتنطوي حتى أبسط تهكماته اللاذعة على شيء ذي طبيعة تراجيدية. أضف إلى هذا، أنه - من وجهة نظر اليساريين واليمينيين الذين يضيقون

ذرعاً بأبسط نقد يوجه إليهم - إنسان يهتم بالشكل دون المضمون (Formalist)، لا بل إنه إنسان يجسّد، بأوضح نحو، الأسلوب الأدبي الذي ساد في الزمن الواقع بين عصر النهضة [العصر الذي أهتم بالمضمون أولاً، المترجم] وعصر الباروك [الذي أعار جل انتباهه إلى المحسنات البديعية المتكلفة، المترجم] (Manierist): فهو يمسك المنظار على نحو مقلوب. إنه يعيق حركة الزمن إلى حين من الوقت. إنه ينصب المرايا في كل حدب وصوب. ولا علم للمرء قط بصفة الشخص الذي ينطق هو باسمه ويعبّر عن طموحاته في هذه اللحظة أو تلك. ومن أجل إضفاء مسحة مغرية على المنظور يوجد، من حين لآخر، في حلبة السرك التي يلعّب فيها الفارس الماكر الأقزام والعمالقة جنباً إلى جنب. فرابليه[1] (Rabelais) ظل طيلة حياته هارباً من وجه الشرطة ومحاكم التفتيش وذلك لأن بطليه العملاقين غارغانتوا (Gargantua) وبانتاغرويل (Pantagruel) كانا، في روايته، قد قلبا العالم السائر على نهج المدرسة اللاهوتية رأساً على عقب. وما أصخب الضحك الذي أثاره هذان البطلان! وحينما جلس غارغانتوا على بروج كنيسة نوتر دام وراح يُغرق من هناك باريس كلها بما يسكب من بول عليها، طرب الشعب واهتز فرحاً، هذا إذا لم يغرق الشعب نفسه ببوله. ويمكننا الاستشهاد بالكاتب سُويفت أيضاً: فاقتراحه بشأن الطريقة الفضلى لتخفيف وطأة المجاعة في ايرلندا يمكن تطبيقه في العصر الراهن أيضاً؛ فالطعام الشهي، الذي سيُقدم على مائدة الرؤساء المشاركين في الاجتماع

---

(1) فرنسوا رابليه (Francois Rabelais) (1494-1553) أديب فرنسي اتصف بتحرره الفكري والتزامه بأدب غنائي يحاول التَّفلُّت من القيود لتُطلق للخيال والعاطفة العنان. وكان قد ألف الرواية الموسومة (Gargantua und Pantagruel)، المترجم.

القادم لمجموعة الدول الصناعية الثماني الكبرى، يمكن أن يشتمل على أطفال ليسوا من جنس الأطفال الايرلنديين الجياع، بل من جنس الأطفال البرازيليين المشردين في الشوارع والطرقات أو من جنس أطفال جنوب السودان. ويطلق المرء على هذا الأسلوب الفني مصطلح الأدب الساخر. وكما هو شائع، يجوز لهذا الأسلوب الفني الاستفادة من كل ما يناسب مرماه، يجوز له استخدام حتى أبشع الصور طالما كانت هذه تدغدغ عصب الضحك عند المستمعين والقرّاء.

وحينما ألقى هاينرش بول (Heinrich Böll) في الثاني من أيار/ مايو من عام 1973 محاضرته هنا، من على هذه المنصة وذلك في سياق منحه جائزة نوبل للأدب، فإنه كان قد أشار في هذه الكلمة إلى ما بين العقلانية والشعر من مواقف تبدو عكسية الطابع، وراح على نحو متصاعد يجعل من هذه المواقف متعارضة تتقابل وجهاً لوجه مشتكياً في آخر جملة من كلمته من أن ضيق الوقت قد حتّم عليه أن يتجاهل أمراً معيّناً: «فقد توجّب عليَّ أن أهمل الدعابة وما فيها من شاعرية وقدرة على التستر على المقاومة والمناوأة، توجب عليَّ أن أهملها وإن لم تكن ميزة مختصة بفئة دون أخرى». ومهما كان الشأن، لقد كان هاينرش بول على علم أكيد بأن جان باول[1] (Jean Paul)، يظل، ولو لم يقرأ أحدٌ مؤلفاته إلا نادراً، أحد عظماء المفكرين الألمان، وعلى معرفة دقيقة بأن المنظار اليميني واليساري

---

(1) أديب ألماني اسمه الحقيقي يوهان فريدريش ريشتر (Johann Paul Friedrich Richter) (1763 – 1825). كتب جان باول أعمالاً جعلت منه كاتباً مشهوراً سنوات قليلة. وبعد ذلك وعندما كتب أحب أعماله إلى قلبه (تيتان، سنوات المراهقة) لم يجد نجاحاً يذكر، فاعتزل الحياة وعاش على هامشها، المترجم.

كان يثير الريب والشبهات حول نتاج توماس مان الأدبي؛ وأنا من ناحيتي، لا يفوتني هنا أن أضيف قائلاً: بأن هذه الريب والشبهات مازالت قائمة إلى اليوم الراهن. وغني عن البيان أن هاينرش بول ما كان يقصد الدعابة المثيرة للابتسامة البينة، لا بل كان يقصد الدعابة المثيرة للضحك المكتوم بين السطور، كان يقصد الروح الحزين الذي سيطر بلا انقطاع على المهرّج [الذي اختلقه في روايته الموسومة «تأملات مهرج» (Ansichten eines Clowns)، المترجم]، كان يقصد الدعابة اليائسة التي يتصف بها المهرّج الذي يختزن الصمت. ولعل من نافلة القول الإشارة هاهنا إلى أن هذه الممارسة قد صارت، في كثير من الحالات، منهجاً متعارفاً عليه في وسائل الإعلام التي اعتادت على الإعلان بأن «للحديث بقية...» صيغة من صيغ «الرقابة الذاتية الطوعية» المستخدمة للتغطية على الرقابة الحكومية في العالم الغربي.

وفي مطلع الستينيات، حين بدأت أكتب عن وعي، كان هاينرش بول، كاتباً معروفاً حقاً، إلا أنه، مع هذا ما كان يحظى بالاستحسان والإعجاب. فهو وفولفغانك كوبين (Wolfgang Koeppen) وغونتر آيش (Günter Eich) وآرنو شمت (Arno Schmide) كانوا يقفون بعيداً عن المؤسسة الثقافية التي كانت مهتمة آنذاك بترميم الأوضاع. وكان أدب حقبة ما بعد الحرب ما زال فتياً حينذاك. وكان هذا الأدب قد استعصى عليه التعامل مع اللغة الألمانية التي أفسدها النظام النازي. أضف إلى هذا أن جيل هاينرش بول - وجيل الكتاب الأصغر سناً، أي الجيل الذي كنتُ أنا أيضاً واحداً منه - كان قد وقف وجهاً لوجه أمام جملة صاغها تيودور آدورنو (Theodor Adorno) كما لو كانت تحذيراً مكتوباً على لوحة تقف على قارعة الطريق. فقد قال آدورنو حرفياً: «بعد آوسشفتس، فإن كتابة قصيدة شعرية فعل

همجي، كما أنه [أي كتابة القصيدة الشعرية، المترجم] أمر يتنافى مع الرأي الذي يعتقد أن من مستحيلات الأمور كتابة قصيدة شعرية في اليوم الراهن...».

ومعنى هذا هو أنه ما كان للمرء أن يتوقع أن الجهود ستتواصل وستكون «للحديث بقية...». ومهما كانت الحال، لقد كتبنا القصائد الشعرية على الرغم من هذا التحذير. كتبنا الشعر من بعد أن استطعنا طبعاً - تماماً كما فعل آدورنو في مؤلفه الموسوم «Minima Moralia, Reflexionen aus dem beschädigten Leben» (أدنى حدود الأخلاقية، تأملات مستقاة من حياة معطوبة) - النظر إلى آوسشفتس كعطب لا شفاء منه طرأ على تاريخ الحضارة. وبهذا التأويل فقط كان بالإمكان الالتفاف على تحذير آدورنو وتجاهله. ولكن، ومع هذا، لا مراء في أن تحذير آدورنو مازال ساري المفعول إلى اليوم الحاضر. فبالنسبة الى الكتاب من أبناء جيلي ما كان من السهولة بمكان التعامل مع هذا التحذير. فالكاتب أراد الصمت، إلا أنه لم يفلح في ذلك. فالأمر كان يدور حول ضرورة إخراج اللغة الألمانية من الأسلوب الموحّد الذي كتبه النازيون على الكتّاب، حول ضرورة إنقاذ اللغة الألمانية من كيانها الباطني المتعفّن من شدة الرتابة التي فرضها النازيون عليها. وبالنسبة إلينا، نحن أبناء الجيل الذي كواه العصر بتجارب لا تُنسى، كان المطلوب منّا أن نقلع كلية عن الركض خلف الزعامات المستبدّة، أن نقلع عن النظر إلى الأمور من زاوية الإيديولوجية التي تعتقد أن الأمور إما بيضاء وإما سوداء فقط. لقد كانت الشكوك والريب شاهداً أهدانا العديد من الظنون، أعني أهدانا قيماً عديدة لا هي خالصة البياض ولا سوداء بالكامل. وبالنسبة لي، أنا شخصياً، فإني حَمّلْت نفسي عناء هذا التقشف، وذلك لكي أكتشف ثراء لغتي التي مالت بيسر إلى التحدث بالأمور

التي رأى فيها المرء ذنباً لا يغتفر، ثراء ما في لغتي من ليونة مغرية، ما فيها من نضارة، ما فيها من ميل إلى التفكر، ما فيها من صلابة قابلة للإنحناء، ما فيها من رخامة، ما فيها من معاني واضحة ومعاني مبهمة، ما فيها من تعبيرات غريبة الأطوار وأخرى حدسية رائعة الجمال. وبهذه الموهبة المكتسبة مجدداً كان عليَّ أن أعمل وأنتج رغم آدورنو وأحكام آدورنو. وعلى هذا النحو فقط كان بالإمكان مواصلة الكتابة - النثرية والشعرية - بعد أحداث آوسشفتس. على هذا النحو فقط، أعني على النحو الذي صارت فيه الكتابة ذاكرة لا تريد للماضي أن يكون نسياً منسيا، استطاع الأدب الألماني، الذي تلا الحرب العالمية الثانية، أن يُبرر، أمام نفسه وأمام الأجيال التالية، أحقية القاعدة العامة في التأليف الأدبي، القاعدة التي تقول بأن «للحديث بقية...». وعلى هذا النحو فقط، أي خلال الإصرار على ترداد عبارة «وكان يا ما كان...»، كان بالإمكان الإبقاء على الجرح شاهداً حيّاً على الماضي وإلغاء النسيان المتعمّد.

ومهما كان عدد المرات التي طالب فيها المرء، بهذا التبرير أو ذاك، نسيان الماضي والعودة إلى الوضع العادي والتخلّص من عار الزمن الغابر، ظل الأدب يقاوم هذه الرغبات المعذورة من ناحية والخرقاء من ناحية أخرى؛ الخرقاء فعلاً! ففي كل مرة يُعلن فيها عن ساعة الصفر في ألمانيا، في كل مرة ينادى فيها ببلوغ الحرب العالمية الثانية نهايتها - في آخر مرة قبل عشر سنوات حينما سقط جدار برلين وجرى توحيد ألمانيا على الورق - يلحق بنا الماضي كأنه ابن اليوم.

وفي تلك الأيام، في شباط/ فبراير من عام 1990، ألقيتُ محاضرة في فرانكفورت أمام حشد من الطلبة. وكان عنوان المحاضرة هو «الكتابة بعد آوسشفتس». وقدّمت في هذه المحاضرة جرداً حاسبتُ فيه نفسي كتاباً بعد آخر. وقد قادتني عملية الجرد هذه

إلـى المُؤَلَف المنشـور عـام 1972 بعنـوان «من مذكـرات حلزون»، هـذا المؤلف الـذي يتقاطع فيه الماضي والحاضـر على صعُد عديدة من ناحية ويسـيران جنباً إلى جنب من ناحيـة ثانية ويصطدم أحدهما بالآخر أحياناً. ويشـتمل هذا المؤلَّـف على الجواب الذي أعطيته رداً علـى سـؤال أبنائي عن ماهيـة مهنتي، فقد قلتُ في هـذا المؤلف: «يا أحبائـي، إن الكاتب هـو ذلك المرء الذي يكتب ضـد الزمن الغابر». وواصلت حديثـي فقلت للطلبة: «وإذا وافق المرء على هذا التعريف لمهنة الكاتب، فلن يكون من حق الكاتب أن يرفع نفسه عن الآخرين، لـن يكون من حقه أن يتشـرنق على نفسـه ويعيش بعيـداً عن أحداث الزمـن، بل سـيكون من واجبه أن يرى نفسـه ابناً لعصـره، بل عليه ما هـو أكثر من هذا، عليـه أن يتفاعل مـع التحوّلات التي مـرّ بها الزمن الفـارط؛ أن يخـوض في هذه التحوّلات وأن يتّخـذ منها موقفاً دقيقاً، إمـا مؤيّـداً أو مناهضاً. إن المخاطر التي تحفّ بالكاتب الذي يسـلك هـذا السـلوك معروفة، بيّنة: فإنـه يكون عرضة لأن يفقـد القدرة على تقييم الأمور تقييماً موضوعياً؛ وسـيحفّ به خطر أن تصبح لهجته بلا زاد كبيـر؛ كما يمكـن لحرج الظروف السـائدة أن يضيّق الخناق عليه وعلـى انطلاقـة قريحته، أي وبعبـارة واحدة، أنه يكـون عرضة لخطر الإصابة بقصر النفس».

إن هـذا الخطر ظل يلازمني عبر عقـود كثيرة من الزمن. ولكن، مـا هو المصير الذي سـتؤول إليه مهنـة الكاتب فيما لـو كان الكاتب غيـر مُعَرَّض للخطر؟ حسـناً؛ إنه سـيكون على شـبه كبيـر بالموظف الحكومـيٍ الـذي لا خـوف عليه من فقـدان فرصة عملـه. إلا أن هذه الطمأنينـة لا يجـوز أن تحجـب عنّـا حقيقـة أن الكاتب سـيكون، في مواجهتـه العصـر الحاضر، أسـير مخاوفه مـن مواجهة هـذا العصر. فخوفـاً مـن اتخـاذ الموقف الزائـف، قد يلجـأ الكاتـب، عندئذ، إلى

مناحي بعيدة كل البعد عن مشاكل عصره، قد يلجأ إلى مناحي تَنسج فيها الأساطيرُ نسيجَها ويحتفي فيها السمو بنفسه كما لو كان هو فقط الموجود في الساحة. كلاّ؛ إن الحاضر المتحوّل باستمرار إلى زمن غابر، سيلحق بالكاتب بكل تأكيد ويخضعه إلى المساءلة. فكل كاتب هو وليد عصره، ولن تغيّر من هذه الحقيقة شيئاً كلُ تأكيداته بأنه وُلِدَ قبل أو في زمن متأخر عن عصره. فهو لا يختار بمحض إرادته المادة التي يكتب فيها، فهذه المادة تملي عليه بلا إرادة منه. وبقدر تعلّق الأمر بي، أنا شخصياً، فإني لم أتمتع قط بحريّة التصرّف. فلو كان الأمر محض إرادتي وبحسب هواي فقط، لكنتُ تركت قيادي إلى القواعد الجمالية الصرفة؛ ولعثرت، من ثم، في المناحي المضحكة، على دور يسبغ عليَّ راحة البال ويعفيني من الهموم والكروب.

إلا أن هذا نهج ما كان بالإمكان السير على هداه. لقد كانت هناك عقبات مختلفة. فالتاريخ الألماني خلّف وراءه خراباً وأشلاءً بشرية لا تعد ولا تحصى. إن هذه المادة، التي أخذت تنمو نمواً عظيماً حين بدأت بإزاحتها، ما كان بالإمكان القضاء عليها بيسر؛ ولا سيما أني، أنا شخصياً، أنحدر من أسرة مُهجّرة. ولهذه الأسباب مجتمعة، ونتيجة لكل ما يدفع الكاتب لأن يؤلّف الكتاب تلو الآخر - أعني الطموح والفزع من الملل وغريزة الأنانية - صار اليقين بضياع الوطن ضياعاً لا رجعة عنه قوة خلاّقة. وكان المطلوب هو استحضار دانسيغ، المدينة المدمرة، المدينة الضائعة، كان المطلوب هو استحضار ذكراها سردياً، وليس استرجاعها حقاً وحقيقة. وكانت هذه الرغبة الجامحة في الكتابة قد حرّضتني لأن أوضّح للقارئ - بشيء من العناد - أن ما ضاع لا يطويه النسيان بالضرورة، بل يمكن أن يعود إلى الذاكرة من خلال الفن الأدبي: يعود إلى الذاكرة بعظمته وبصغائر أموره، بكنائسه ومدافنه، بضجيج صناعته المختصة بتشييد السفن، يعود إلى

الذاكرة بأريج بحر البلطيق الهادئ، وبلغته التي لم يبق منها أثر ذو بال منذ أمد طويل، يعود إلى الذاكرة بأحاديثه المتذمّرة، وبخطاياه التي قد تُغفر له، وبجرائمه التي لن تُغفر له أبداً.

إن ضياع مدينة من هذا القبيل صار، ليس عندي فحسب، بل لدى كتّاب آخرين أيضاً، الأرض الخصبة لعملية سرد جامحة. ومهما كانت الحال، فقبل عدة سنوات، تبلور، في سياق حديث جرى بيني وبين سلمان رشدي، أنه هو الآخر أيضاً تنتابه المشاعر نفسها التي تنتابني من ضياع دانسيغ، فبومباي ضاعت من بين يديه أيضاً، هو أيضاً ضيّع هذه المدينة التي كانت المنبع الذي يغرف منه، النقطة التي يتسمّر عندها ناظراه، كانت مركز العالم بالنسبة اليه. وغني عن البيان أن هذه النظرة المتطاولة، هذا الإفراط في الأحاسيس، من صفات الأدب. فهذا كله شرط أساسي للعملية السردية التي تستعين بكل ما تسجّله العين وبكل ما ينتاب الفؤاد من مشاعر. ولا غرو في أن هذه المادة الهائلة لا يمكن الإحاطة بها لا من خلال فن منمّق ولا بواسطة التطبيق الزائف لمناهج علم النفس ولا عن طريق الأسلوب الواقعي الذي يزعم، زيفاً، أنه نسخة مطابقة للحقيقة القائمة. ومهما تمسكنا بتراث عصر النهضة، هذا التراث الذي يهتدي بالعقلانية أولاً وأخيراً، يظل المسار التاريخي غير المعقول يسخر من كل تفسير يتشبّث بالعقلانية فقط.

وكما هو الحال مع جائزة نوبل، هذه الجائزة التي تضرب جذورها، إذا ما جرّدناها من أبهة الاحتفال، في اكتشاف الديناميت، أي في ذلك الاكتشاف الذي يمّن على العالم – مثله في ذلك مثل الاكتشافات الأخرى التي تمخّض عنها اكتشاف انشطار الذرة أو اكتشاف خصائص الجينات – بالخير والشرور، نعم كما هو الحال

مـع جائزة نوبل، ينطـوي الأدب أيضاً على قـوة تفجيرية؛ وتبقى هذه الحقيقة قائمة حتى لو أخذنا بالاعتبار أن التفجيرات الناجمة عن هذه القوة تندلع بشيء من التأخير، أي أنها تندلع وتغيّر العالم بسرعة تبان لنا - بتعبير مجازي - متباطئة الخطوات: إنها تندلع وتغير العالم على النحـو الـذي يغمر العالم بالخيـرات تارة، وعلى النحو الذي يسـبّب الأذى والويلات للبشـرية تارة أخرى. وكم هي المدة التي استغرقتها عمليـة التنويـر الأوروبيـة بـدءاً مـن مونتينْـي (Montaigne) ومروراً بفولتير وديدرو وكانط وليسِّـنغ وليشـتنبيرغ إلى أن استطاعت إضاءة الأنوار في كل زاوية من الزوايا التي فرضت عليها مدرسـةُ اللاهوت الظـلامَ الكالـح. وأطفـأ البعضُ بصيـص النور في كثير مـنٍ المرات. فالرقابـة علـى المطبوعـات تسـبّبت فـي تباطؤ ازدهـار حُلَّـة الأنوار المنبعثة من التمسـك بالعقل. ولكن، ما إن سطع النور بكامل حليته، سـرعان مـا تجلّت العقلانية بهيئـة باردة الروح، بهيئـة تقتصر على ما هـو ممكن التحقق تكنولوجياً، بهيئة أخذت على عاتقها خدمة التقدم الاقتصادي والاجتماعي فقط، بهيئة تدّعي لنفسـها أنها تجسّـد حركة التنوير ولا هم لها سوى تلقَين ابنيها، المتخاصمين منذ الولادة، أعني الرأسمالية والاشتراكية، شعاراً بائس العقلانية وإرشادهما إلى دروب توصل كل واحد منهما إلى التقدم بأي ثمن كان.

ونحـن نرى في اليوم الراهن إلى أين قـادت حركة التنوير ابنيها العاقّيـن. بوسـعنا الآن تقدير مدى خطـورة الوضـع المنحرف الذي رمانا فيه الانفجار المتباطئ الذي نشأ عن كلمات مكتوبة. وغني عن البيان أننا نحاول بالوسـائل التي زوّدتنا بها حركة التنوير - فلا توجد لدينا وسـائل أخرى - إصلاح الخلل وترميم العطب. فنحن نشـهد، بفزع بيّن، أن جنون العظمة قد أخذ يسـاور الرأسـمالية منذ أن قضت نحبها شـقيقتُها، أعني منذ أن تقوّضت أركان النظام الاشتراكي. فمنذ

ذلك الحين أخذت الرأسمالية تصول وتجول بلا رادع يردعها. إنها تكرّر أخطاء شقيقتها المقبورة زعماً؛ فهي، أي الرأسمالية صارت، بدورها، تتحجّر إيديولوجياً، صارت ترى أن اقتصاد السوق فقط هو النظام الاقتصادي الحق؛ لقد أسكرتها إمكانيتها الواسعة غير المحدودة، فغدت تسلّم نفسها لممارسات المجانين، أي أخذت شركاتها تندمج على مستويات عالمية وذلك طلباً لتعظيم الأرباح. من هنا، لا عجب أن يُبان بنحو ساطع أن الرأسمالية - مثلها في ذلك مثل النظام الشيوعي الذي خنق نفسه بنفسه - عاجزة عن تطبيق الإصلاحات المطلوبة. إن العولمة هو اسم الظاهرة التي أملتها الرأسمالية. وهكذا، يُزعم ثانية، وبخيلاء العصمة من الخطأ، أن العولمة هي الخيار الوحيد.

وتأسيساً على هذه التصورات، فإننا صرنا شهوداً على نهاية التاريخ. إن المرء ما عاد ينتظر بفارغ الصبر أن يكون «للحديث بقية...». ولكن، وإذا كانت السياسة قد تركت للاقتصاد أصلاً كل ما لديها من قوة على اتخاذ القرارات، أليس هناك أمل في أن يقوم الأدب، على أدنى تقدير، في عمل شيء يستطيع زعزعة التحجّر العقائدي الجديد؟

ولكن، ما هي الخصائص التي يتعيّن أن يكون عليها هذا العمل الروائي الهدّام، إذا ما أراد أن تكون له قوة شبيهة بالقوة التفجيرية الكامنة في الديناميت؟ وهل هناك حيّز زمني كافٍ لانتظار الأثر الناجم عن الفتيل الأدبي ذي القوة التفجيرية المتباطئة؟ وهل بوسع المرء التفكير بأن المستقبل، هذه البضاعة النادرة، سيجود على الكتّاب بالمرتع الخصب؟ وألا تشير البوادر الراهنة إلى أن الأدب سيكون من نصيب الفئة المتقدمة بالسن، وأن المؤلّفين الشبّان

سيصولون ويجولون في شبكة الإنترنت في أفضل الحالات؟ إن ركود المؤسسة الأدبية - وهو ركود تَسْبِغُ عليه عبارةُ «وسائل الاتصال» شيئاً من الهالة الزائفة - يزداد اتساعاً من يوم الى آخر. لقد وُضعت الخطط بشأن التصرّف في الحيّز الزمني المتاح لبني البشر حتى آخر لحظة من لحظات بلوغ البشرية انحطاطها المحتمل. لقد وقع العالم الغربي أسيراً في قبضة حياة يائسة، بائسة، خيّمت على مؤسساته الثقافية. ولكن، ما العمل؟

وأنا، بصفتي إنساناً لا يؤمن بوجود علّية إلهية، ليس لديَّ سوى الركوع أمام ذلك القدّيس الذي واظب حتى الآن على تقديم العون ودحرجة أعظم الأحجار. إني أتضرّع قائلاً: «يا أيها القدّيس، يا سيزيف (Sisyphos)، يا من حصلت على جائزة نوبل بفضل كامو (Camus)، أتضرّع إليك متوسّلاً أن لا تبقى الصخرة في مكانها، أن نبقى قادرين على دحرجتها، أن نبقى، مثلك، سعداء بصخرتنا وأن لا ينتهي أبداً التاريخ الذي يروي المشقات والأتعاب التي ينطوي عليها وجودنا[1]

وهل سيسمع القدّيس أناتي وحسراتي؟ أم ينبغي لنا، بعد كل الضجيج الذي صرنا نسمعه في الآونة الأخيرة، أن ننتظر استنساخ بني البشر على أمل أن يكون الإنسان المستنسخ قادراً على خلق الظروف المواتية لأن يواصل تاريخ الجنس البشري مسيرته؟

---

(1) يشير المؤلف هنا إلى ألبير كامو ومؤلفه المنشور عام 1942 بعنوان «أسطورة سيزيف» (Le mythe de Sisyphe). وأسطورة سيزيف أسطورة إغريقية تروي أن مالك الأرواح قد عاقب سيزيف فقضى بأن يرفع صخرة هائلة الحجم إلى قمة جبل عال شديد الانحدار. ويستجمع سيزيف ما فيه من قوة ليرفعها، لكنه ما أن يكاد يصل هدفه لينتهي إلى الخلاص مما هو فيه من آلام حتى تنقلب الصخرة من يده وتتدحرج نحو الأسفل؛ ومن جديد يعود سيزيف ليرفع الصخرة لكنه لن يبلغ هدفه أبداً ولن يدرك نهايةً لعذابه، المترجم.

وهكـذا وصلـت إلـى ما بدأت بـه خطابـي منوهاً ثانيـة بروايتي الموسـومة «الفـأرة» وإلـى فصلهـا الخامـس ومـا جاء فيـه من حفل تخيّلي لمناسـبة التفكير بمنح الفأرة المخصّصـة للأعمال المختبرية جائزة نوبل نيابة عن ملايين الفئران التي تجرى عليها التجارب خدمة للبحوث العلمية. وحينما أعود بذاكرتي إلى هذا الموضوع، يتبيّن لي في الحال قصور الجهود كافة التي جرى تتويجها بالجوائز حتى الآن عـن القضاء على ما يعذّب البشـرية، أعني قصورهـا عن القضاء على الجوع الذي يئن تحت وطأته بنو البشـر. حقاً بوسع مَن هو قادر على الدفـع الحصول على كُلى جديدة. كما صـار بالإمكان زرع القلوب. أضـف إلـى هذا وذاك أننـا صرنا قادريـن على التحـدث بالتلفون مع كل أرجـاء المعمورة بلا سـلك يربط بيننا. وأن الأقمـار الاصطناعية ومحطـات الفضـاء تـدور مـن حولنا اعتنـاءً منهـا بشـؤوننا. وبفضل البحـوث العظيمـة جـرى تطويـر وتصنيـع منظومات أسـلحة تحمي أصحابها علـى نحو لا يبقي ولا يذر، أي تقتل، مرات مضاعفة، حتى أصحابها أنفسهم. لقد توصّل الإنسان إلى كل ما تجود به مخيّلته. إلا أن الفقر فقط هو الأمر الذي لم يستطع بنو البشر التغلّب عليه. فالفقر يـزداد من يوم الى آخر. وهنـاك، في ذلك العالم الذي يوجد فيه الفقر بالوراثة، يتحوّل الفقر إلى بؤس لا يرحم وشقاء لا يُطاق. لقد صارت جيوش المهاجرين تجوب العالم أجمع، إنها تجوب العالم مصحوبة بالجوع والحرمان. ومع هذا كله، ليس هناك إرادة سياسية مصرّة على أن تضـع، هي والطاقات العلمية المتاحة، حداً نهائياً للبؤس المتفاقم والحرمان المتنامي.

وفي عام 1973، أي في ذلك العام الذي خيّم فيه الاسـتبداد على شـيلي- بتأييد من الولايات المتحدة الأميركية - كان فيللي براند أول مستشار ألماني يلقي كلمته في اجتماع الأمم المتحدة. وفي سياق هذا

الكلمة تحدث براند عن البؤس السائد على المستوى العالمي وراح يعلن بأن «الجوع أيضاً حرب لا تبقي ولا تذر!» ولأن إعلانه هذا كان صادقاً كل الصدق، لذا دوّى التصفيق في القاعة كالإعصار الهادر.

لقد كنت حاضراً حينما ألقى براند خطابه هذا. وكنت قد كتبت وقت ذاك مؤلّفي الموسوم «سمكة موسى» (Der Butt)، هذا المؤلف الذي دار حول الأساس الرئيس للوجود الإنساني، حول السلع الغذائية، أي حول العوز والوفرة، حول الآكلين حتى التخمة والمحرومين حتى الموت، حول المتنعمين بنعم الحياة وحول المتسوّلين على مائدة اللئام.

وما زال هذا الوضع ماثلاً أمام أنظارنا. إن الثراء المتراكم يردّ على الفقر المتعاظم من خلال معدلات النمو المتزايدة. ومهما بذل الشمال والغرب الموسران من جهود لبناء القلعة المحصّنة التي تحميهما من الجنوب الفقير، فإن الأمر الواضح هو أن تدفّقات اللاجئين ستصل إلى أراضيهما بالرغم من كل هذه الجهود، فتدفّق الجياع لا قدرة لأية أحكام وترتيبات على الوقوف في وجهه.

إلا أن هذه الوقائع سيجري سردها في المستقبل. فالرواية التي تخصّنا، نحن جميعاً، لا بد وأن تظل مستمرّة. وحتى وإن أحجم المرء في يوم من الأيام على نحو نهائي عن تأليف الكتب وطباعتها أو صار ممنوعاً عليه تأليف وطباعة الكتب، أي حتى لو فقدت الكتب كلية قدرتها على أن تكون إحدى الوسائل المتاحة لإنقاذ البشرية، إلا أن الأمر الذي لا شك فيه هو أنه سيكون هناك الرواة الذين يحدّثوننا شفهياً، الذين يعيدون إلينا الحياة خلال حديث ينتقل من أفواههم إلى آذاننا مباشرة، حديث يروون علينا فيه القصص القديمة بحبكة جديدة: بصوت عال وبنبرة صاخبة، بأنفاس لاهثة تارة ومتباطئة تارة أخرى، وتقترب من الضحك مرة ومن البكاء مرة أخرى.

# إعادة توحيد ألمانيا مهمة طويلة الأجل

**خطاب أُلقي في ندوة احتضنتها سِيُول**
**لمناقشة إعادة توحيد ألمانيا**
**أيار / مايو 2002**

لقد وصلتُ إلى سِيُول ومعي حقيبة فيها تجربة الوحدة الألمانية. وسأعود إلى ألمانيا بعدما حصلت في كوريا على تجارب جديدة ذات نفع بالنسبة إلى إعادة توحيد ألمانيا.

ووفق ما يقوله المثل فإن «السفر مدرسة يتعلّم المرء منها الكثير». ويسري هذا المثل على الكُتّاب أيضاً. فهؤلاء ينقّبون عادة عن الماضي ومخلّفاته المتناثرة. ومع أن مؤلّفاتي تدور حول الماضي الألماني وما خلّف وراءه من أوزار، إلا أنها كُتبت بوحي من العصر الراهن بكل تأكيد. وتنطبق هذه الحقيقة على تلك الرواية أيضاً التي نشرتها عام 1995 بعنوان «حقل واسع» (Ein weites Feld)، فروايتي هذه ذات مستويين، فقد سردت، على نحو مركّب، لا تداعيات السنين الخمس الماضية من إعادة توحيد شطري ألمانيا فحسب، بل وحقبة تأسيس الإمبراطورية الألمانية في عام 1871 أيضاً.

ولم تواجه هذه الرواية، بعد صدورها، ذلك النقد الذي اعتدت عليه فقط، بل أثارت موجة عارمة من الغضب. ولكن، ما هو الدافع لهذا الغضب؟ السبب هو أني سمحت لنفسي أن أسرد قصة إعادة

توحيد الشطرين الألمانيين من وجهة نظر الألمان الشرقيين الذين اعتقدوا، بعدما خلّفوا وراءهم أربعين عاماً قضوها تحت نير حكم مستبد، أنهم ليسوا مهزومين بحكم التاريخ، وأن الألمان الغربيين لن يعاملوهم في إطار الوحدة الجديدة كشعب مندحر. إلا أنهم خضعوا، مع هذا، للوصاية. ومع أن مفهومهم للديمقراطية كان مفعماً بالحيوية والنشاط، إلا أنه لم يكن هناك أحد يريد أن يصغي إليهم. فالألمان الغربيون، الذين كثيراً ما تشدقوا بوحدة الدم، واجهوهم في كثير من الأحيان مدّعين لأنفسهم أنهم هم الأعرف بحقائق الأمور والأكثر دراية بها وتعاملوا معهم من حين إلى آخر معاملة فوقية كما لو كانوا سادة مستعمرين وعلى نحو جشع كما لو كان المطلوب هو جَنْي أكبر ربح ممكن من الممتلكات التي خلّفتها جمهورية ألمانيا الديمقراطية عقب إشهارها الإفلاس في حلبة المنافسة بين المعسكرين الشرقي والغربي. وَوَقَفْت مؤسسةٌ جرى تأسيسها بلمح البصر أعني شركة الأمانة على ممتلكات الدولة (Die Treuhandanstalt). إلى جانب الجشعين المتطلّعين لجني الأرباح، وهكذا، وبلا أية رقابة ديمقراطية قوية الفاعلية، وبوسائل انطوت، من حين الى آخر، على أساليب جنائية، عقد المرء العزم على «تصفية» ما خلّفته دولة ألمانيا الشرقية وراءها من قطاع صناعي واقتصادي. أضف إلى هذا، أن الشطر الغربي كان قد استباح لنفسه حق تقييم الأشخاص الذين يشغلون مناصب رفيعة – بدءاً من المديرين العامين للشركات وانتهاءاً بأساتذة الجامعات. وغني عن البيان أن الشطر الغربي قد قيّم هؤلاء الأفراد انطلاقاً من تصوراته هو نفسه. ولم تكن عبارات من قبيل «تصفية» و«تقييم» موضة تلك الأيام فحسب، بل كانت تعني ما هو أكثر من موضة عابرة، إنها كانت تعني ممارسات قاسية، ممارسات خلّفت وراءها نتائج تفعل فعلها إلى اليوم الراهن. على صعيد آخر،

تكرر ثانية سؤال هؤلاء الأشخاص بإلحاح عن تفكيرهم [السياسي، المترجم] وذلك لمعرفة ما إذا كانوا يؤمنون بالأفكار «الصحيحة».

وبعبارة أخرى: إن الأمرين، أعني تعميم عُملة الشطر الغربي على الشطر الشرقي ونقل مِلْكية طاقات اقتصاد ألمانيا الشرقية إلى مالكين جدد يعتقدون أنهم أحرارٌ في تصرفهم بما تملّكوه، حالا دون شفاء اقتصاد الشطر الشرقي وتعافيه مع مرور الأيام وتسبّبا في خلق البطالة المتزايدة بمعدلات مفزعة وأديا، في نهاية المطاف، إلى أن يكون زهاء تسعين بالمائة من الطاقات الإنتاجية الشرقية في حوزة الألمان الغربيين.

إن روايتي «حقل واسع» تستعرض البدايات الأولى لهذا التطور، إنها تقلب هذا التطور فتحوّله إلى أمر مضحك محزن تارة وإلى عبث وجنون تارة ثانية، وتندّد بنظام التجسس على المواطنين في ألمانيا الشرقية وبطرائق التفكير الغربية المهتدية بالمال أولاً وأخيراً. وكان التطور اللاحق قد ساء إلى الدرجة التي ما كان بوسعي قط - أنا الذي يزعمون بأني مجبول على الروح السوداوي المتشائمة - التنبؤ بها. ومع أن المادة الأخيرة من الدستور تحتم تشريع دستور ديمقراطي جديد في حالة إعادة توحيد شطري ألمانيا، إلا أن هذا الأمر جرى تجاهله بكل إصرار. وهكذا ضيّع أصحاب السلطة فرصة مهمة بالنسبة للحياة السياسية في البلاد. فهؤلاء أشاروا إلى أن ألمانيا الشرقية هي التي تطلب الانضمام إلى الدولة الألمانية الغربية القائمة أساساً وأن عليهم بالتالي الالتزام بتنفيذ مادة دستورية أخرى لا تحتم تشريع دستور جديد. وبهذا النهج ضاعت فرصة ثمينة لإشراك مواطني الدولتين في إبداء رأيهم بدستور جديد. فقبل أن يعلن المواطنون عن رأيهم بما هم عازمون عليه، كانت الوحدة حبراً على ورق، أي كانت أمراً مقضياً.

إن مهمة إعادة توحيد ألمانيا ما زالت تفرض نفسها على الجميع، إنها مازالت معضلة قائمة، معضلة لم يستطع أصحاب الشأن حلها على نحو نهائي إلى الآن. فإعادة توحيد ألمانيا مهمة طويلة الأجل، مهمة لا يمكن التنبؤ بموعد الانتهاء منها. وبالرغم من كل السلبيات، لا شك في أننا، نحن الألمان، محظوظون. فلقد أسبغت علينا الفرصة الضرورية لإعادة توحيد بلادنا. فبمفردنا ما كنّا قادرين على تحقيقها قط، فميخائيل غورباتشوف فتح لنا، بسياساته المسماة «كلاسنوست» (سياسة الشفافية) وبيريسترويكا (سياسة إعادة هيكلة الاتحاد السوفياتي)، باباً مهماً وقدّم لنا دعماً ضرورياً وأيّدنا في نهاية المطاف في إعادة توحيد شطري البلاد. وكانت البوادر الأولى قد طفت على السطح في الستينيات، حين قوّضت دبابات النظام الشيوعي تطلّعات التشيكيين والسلوفاكيين لتحقيق الإصلاحات الضرورية في بلادهم. وجاءت المساعدة الأخرى، بعد ذلك، من الحركة العمالية البولونية المسماة «Solidarnosc». وبعدما تبلورت كل هذه التطورات نشط الألمان الشرقيون فنزلوا إلى الشارع معلنين احتجاجهم وسخطهم. وفي بادئ الأمر ظل الغرب يراقب فقط هذه التطورات ؛ ولم يشمّر عن ساعد الجد إلا بعد أن اتضح بجلاء أن النظام السياسي الشرقي قد انهار انهياراً لا رجعة عنه.

إلا أن ثمة أمراً استثنائياً لا يجوز التقليل من شأنه. فلو لم تبذل ألمانيا الغربية ما بذلت من جهود في مجال الانفراج السياسي، لما كان من المتوقع أن تتحقق الشروط لإعادة توحيد ألمانيا. إن فللي براند، مستشار ألمانيا ورئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي، هو الذي وقّع مع الحكومة السوفياتية في موسكو الاتفاقيات الأولى. على صعيد أخر تكاتف براند مع السياسي الليبرالي فالتر شيل وطمرا الخندق الفاصل بين ألمانيا وبولندا خلال اعترافهم على نحو نهائي

وعلى رغم المعارضة التي أبداها الحزب المسيحي الألماني بأن الخط الممتد على طول نهري الأودر والنايسه يشكل الحدود النهائية بين الدولتين. وعلى الرغم من كل هذه الوقائع والجهود، استغرق الأمر ثلاثين عاماً إلى أن سقط جدار برلين وإلى أن صار بالإمكان إضافة «الستار الحديدي» الفاصل لا بين الشطرين الألمانيين فقط، بل بين أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية عموماً، إلى مزبلة التاريخ.

وفي المنظور اللاحق، يبدو هذا كله كما لو كان هو العمل المنهك الذي كتبته الآلهة على سيزيف (Sisyphus-Arbeit)، أي أنه يبدو مهمة شاقة لم تكتمل بعدُ. أي، وعلى خلفية ما ترويه أسطورة سيزيف، لا تريد الصخرة الهائلة الاستقرار في القمة أبداً، بل هي تتدحرج إلى الوادي باستمرار طالبة إلى سيزيف أن يحملها إلى القمة المرة تلو المرة. وغني عن البيان أن على الدولتين الكوريتين أن توطّنا نفسيهما على ما قاساه سيزيف. إلا أني كثيراً ما أسأل نفسي: أيمكن مقارنة العملية، التي لم تكتمل في ألمانيا بعدُ، بالعملية التي تلوح في الأفق الكوري حالياً؟

ومهما كانت الحال، الأمر البيّن هو أن ثمة أموراً مشتركة: فتقسيم كوريا وبلادي كان، في كلتا الحالتين، من النتائج التي أفرزتها الحرب العالمية الثانية وما تلا هذه الحرب من حرب باردة حرّكتها المناحي الإيديولوجية. وحين أن يذكر المرء الحرب الباردة، سرعان ما يطفو على السطح فرق جوهري بين الوضع في ألمانيا والوضع في كوريا. ففي أوروبا، وبالتالي في ألمانيا أيضاً، لم تؤدِ الحرب الباردة إلى حرب ساخنة؛ أما في كوريا، فإن الأمر البيّن هو أن هذه الحرب كانت حرباً بالنيابة عن العالم أجمع. إن الثلاثة ملايين قتيل شاهد أكيد على هذه الحقيقة. أضف إلى هذا، أنه لا يوجد، في خارج كوريا،

ولا في دولة عظمى واحدة استعداد لتشجيع مواطني هذا البلد على السير قدماً في العملية الضرورية لأن يوحدوا أنفسهم. فكما قدم لنا ميخائيل غورباتشوف العون الضروري، يتعيّن على الرئيس الأميركي أن يُبدي، هو الآخر أيضاً، الاستعداد الكافي للموافقة على الوحدة المنشودة، إن لم نقل إن عليه أن يبدي الاستعداد الكافي لرعايتها والعمل على نحو مثابر من أجل الوصول إليها. إلا ان الوضع الراهن لا يشير إلى وجود هذه الرغبة. فالسيد بوش أدرج كوريا الشمالية في قائمة البلدان الخارجة على القانون. فالقوة العظمى في العالم، أعني الولايات المتحدة الأميركية، ترى أن كوريا الشمالية ـ البلد الذي هو أحد أفقر بلدان العالم ـ تشكّل تهديداً صارخاً لأمنها. إن الولايات المتحدة الأميركية بأمسّ الحاجة، على ما يبدو، لاصطناع عدو ترسمُ صورتَه وفق أهوائها وعلى نحو متجدد، وذلك لكي تجرّب قوتها وتؤكد لنفسها أنها هي، وحدها، القوة العظمى. إلا أن الإرادة والرغبة في إعادة توحيد البلاد، هما أطول أمداً، من مدة حكم هذا الرئيس الأميركي أو ذاك. فبحسب تجاربي، ستستعيد كوريا وحدتها في يوم من الأيام بكل تأكيد ما دامت هذه الرغبة قائمة وهذه الإرادة حيّة نشيطة وسيعيش مواطنوها غبطة عارمة وسيواجهون معضلات جديدة غير مألوفة.

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن لقاءنا هذا وتبادلنا الأحاديث ووجهات النظر وسيلة نافعة لتلافي هذه المعضلات والمشاكل. بيد أن تبادل التجارب لا يفترض أن هذه التجارب قابلة للاستنساخ طبق الأصل، أي مائة في المائة. ومع هذا، لا بد من الأخذ بالاعتبار أن الوحدة الكورية المضنية لا يجوز أن تكرّر الأخطاء التي ارتكبها المرء في عملية الوحدة الألمانية الشاقة. ولهذا السبب أسمح لنفسي أن أقدّم إليكم الملاحظات الآتية:

أولاً: إن الألمان الغربيين لم يقدّروا أبناء جلدتهم الشرقيين حق قدرهم ولم يأخذوا بالاعتبار أن هؤلاء قد عاشوا ظروفاً حياتية صعبة وأنهم عانوا الأمرّين من حكم مستبد نشر ظلاله عليهم طوال أربعين عاماً وتحمّلوا وزر النتائج المدمرة التي خلّفتها الحرب العالمية الثانية بلا مساعدة أجنبية - أي بلا مساعدة شبيهة بالمساعدة العظيمة التي حصل عليها الألمان الغربيون في إطار مشروع مارشال. وتسبّبت الاستهانة بالألمان الشرقيين في أن يقف، على نحو تقريبي، معسرون وميسورون وجهاً لوجه، في أن يرى الألمان الغربيون أن أبناء جلدتهم الفقراء يتظلّمون بلا انقطاع ويشكلون عبئاً لا نهاية له. وتسبّبت هذه المواقف في أن يخيم على الألمان الشرقيين الشعور بأنهم ألمان من الدرجة الثانية. إن تطوراً من هذا القبيل يمكن أن ينشر ظلاله في كوريا أيضاً، أعني حين يضع الجنوبُ الغنيُ الشمالَ الفقيرَ في منزلة مشابهة و يتصرف معه تصرف المنتصر.

وتُحذر ملاحظتي الثانية من خطر التسرّع في إنجاز الوحدة التي نرجو تحقّقها في أقرب فرصة ممكنة. فوفق وجهة نظري، كان على ألمانيا أن تحقق هذه العملية خطوة فخطوة وأن يكون هناك اتحاد فيدرالي بين الدولتين كمرحلة انتقالية. فالتسرّع بإلغاء عملة ألمانيا الشرقية واعتبار العملة الألمانية الغربية هي عملة الشطرين الموحّدين تسبّب ـ وفقاً لما تمتعت به عملة الشطر الغربي من قوة عظيمة - في تقويض الكثير من الأمور ولم يفلح في إشاعة البهجة إلا على مدار زمن قصير. إني أرى أن من الأفضل لهذا البلد أن يبدأ وحدته باتحاد فدرالي يُشرّع دستورياً وأن يقوم الشطر الجنوبي، في إطار هذا الاتحاد الفدرالي، بتقديم المساعدات المالية الضرورية لتجديد اقتصاد الشطر الشمالي وتنميته إلى مستوى يضمن لمواطني الشطر الشمالي أن يروا في أنفسهم، مستقبلاً، أي في كوريا الموحّدة

علـى نحو نهائـي، مواطنيـن أكفّاء لمواطنـي الشـطر الجنوبي. وكان المستشار الألماني فيللي براند قد أكد على أن السبيل القويم لتحقيق الوحدة الألمانية المنشـودة يكمن فـي «التحول من خلال التقارب». إلا أن وجهـة النظـر هذه وما تعنيه من فعل حذر وسـلوك محترس لم تلق الأذن الصاغية ولم يُؤخذ بها حين شرع أصحاب الشأن في خلق الكيان الموحد.

وتـدور ملاحظتي الثالثة حول الأسـس الثقافية لشـعب مقسـم بين دولتيـن. ففي ألمانيا تبيّن ـ على رغـم الاختلافات الإيديولوجية والاقتصاديـة والالتزامـات العسـكرية الناشـئة عـن الانضـواء تحت رايـات معسـكرين متعادييـن – أن الجوهر الثقافي للبـلاد ظل عصيّاً علـى التقسـيم وأنـه صمد فـي مواجهـة كل المحاولات التـي كانت تسعى جاهدة إلى تقسيمه. وحين حالَفَنا الحظُ في التسعينيات وحققنا الوحدة المنشـودة، حاول الطرف الغربي التشنيع على مجمل العطاء الفني في ألمانيا الشـرقية، بما فـي ذلك الأدب، باعتبار أن هذا العطاء كان يجسّد الإنتاج الذي كانت تأمر به السلطات وأنه بالتالي قمامة لا قيمة لها. إلا أن هذا النهج الغربي لتطبيق رقابة على الفنون لم يستطع النجاح في مسـاعيه. وهكذا، وبعد نقاشات مسهبة وحّد «نادي القلم الشرقي» (P.E.N.-Club) ونادي القلم الغربي نفسيهما. من هنا، فإن على الفنانين والكُتّاب، في كوريا أيضاً، أن يؤكدوا على ما بين شـقَّيْ البلد المقسّـم من وحدة ثقافية قوية الأواصر وأن يحترموا إنتاج أبناء جلدتهم وأن يكون نقدهم لإنتاجهم نقداً موضوعياً سـليم الطوية. إن الثقافة تعبر الحدود متحدّية كل الضغوط الإيديولوجية والاقتصادية، ولا سيما في بلد يتحدّث مواطنوه لغة واحدة.

# وا أَسَفاه... لقد دقّت طبول الحرب[1]

**كانون الثاني/يناير 2003**

وإن كان التحذير من المخاطر التي ينطوي عليها التهديد بالحرب قد أمسى بلا نفع وصار عملاً روتينياً؛ إلا أن ما دبّجه ماتياس كلاوديوس[2] في زمانه لا يزال يعبر عن الحقيقة بالكامل:

«إنها الحرب، إنها الحرب!
فقاوم يا ملاك الرحمن،
وتدخّلْ وقُلْ القول الفصل!
وا أسَفاه إنها الحرب
وأنا لا أود
أن أحمل وزرها!».

علامات التعجب الكثيرة هي دعم للمقطع الأول من هذه القصيدة التي ستبقى حيّة على مرّ الأيام وذلك لأن تحذيرها لا يجد الأذن الصاغية. إني أضعها في مقدمة تحذيري آخذاً في الحسبان أن تدخل ملاك الرحمن - «وتدخَّلْ وقلْ القول الفصل!» - لم يجدِ نفعاً

(1) العنوان الأصلي لهذه المقالة هو: «Zwischen den Kriegen»، المترجم.
(2) كاتب وشاعر شعبي ألماني (1740-1815)، المترجم.

قط. فمنذ تدبيج القصيدة وحتى الآن اندلعت الحروب بأعداد لا تُعدّ ولا تحصى.

خطر الحرب. توشك الحرب أن تندلع من جديد. أم تهديد الحرب لا يعني سوى أن الحرب لن تندلع؟

ولكن، أتعني العبارة الشرطية «فقط» أن حشد الجيوش والأساطيل الأمريكية والبريطانية منذ أسابيع في الجزيرة العربية وفي البحر الأحمر أمر لا يُراد منه سوى تغذية وسائل الإعلام بصور تشهد على عظمة القوة العسكرية، أمر لا يراد منه سوى التلويح بالحرب لا غير، أمر سيكون بالإمكان وقفه - حالما ينتهي واحد من من عشرات الدكتاتوريين الحاكمين في أرجاء المعمورة إلى المنفى أو من الأفضل أن يموت - أمر يجب فهمه على أنه عرض عضلات يكفل تحقيق السلام؟

هيهات هيهات. فهناك من يتطلّع بفارغ الصبر للشروع في هذه الحرب. فالحرب أمست واقعاً متحقّقاً في العقول المخططة لها، في بورصات القارات أجمع، في البرامج التلفزيونية التي تروّج لها كما كانت تستبق وقوعها. فالعدو المستهدف أمسى معروفاً وصار، شأنه في ذلك شأن الأعداء الآخرين الذين سيتعيّن التعرف عليهم والكشف عن هويتهم عند الحاجة، المبرّر المناسب لإطلاق تحذيرات تُلجم أفواه المتحفظين المناوئين للحرب. إننا نعرف الطريقة التي ينتهجها البعض لاختلاق عدو وإن لم يكن له أي وجود. كما شاعت الصور الوافية عن نوع من أسلحة متطورة لا تُخطئ الهدف، وإن أصابت هدفاً آخر، فما ذلك إلا عن طريق الخطأ! كما خبرنا المصطلحات التي نحتها المرء للإشارة إلى أن الأضرار والخسائر في الأرواح أمور لا بد منها. هذا ولقد اعتدنا على أن يؤخذ في الحسبان ما تتكبده

الدولة العظمى من خسـائر - متواضعة نسبياً - في الأرواح وعلى أن يُحـزن عليهـم فقط، أمـا الأعداد الضخمـة من موتى العـدو، فمع أن بينهم نسـاء وأطفالاً، إلا أنهم جميعاً لا يؤخذون في الحسـبان بل أن يكونوا جديرين بالحزن عليهم.

إذن فلننتظـر تكرار الحـدث. ففي هذه المرّة ستُسـتخدم أنظمة صاروخيـة جديدة قادرة على دكّ الهدف بدقة أكبر. لقد أزفت سـاعة الحـرب التي خبرناها خلال ما عُـرض علينا من صور اختيرت بعناية فائقة. ولأننا نعرف ذلك السيل الجارف من الصور، التي شذّبها المرء مسـبقاً وأسـقط منها كل تفاصيل الهول والرعب الملازمين للحرب، ولأن حقوق النقل التلفزيوني قد مُنحت لمحطات بثّ خبرناها سابقاً بحروفها الثلاثة، لذا فإننا لن نشطّ أبداً إذا توقّعنا أن الحرب ستُعرض علينـا وكأنّهـا ملهاة لا يعكّـر صفو التمتّـع بها إلا مـا يتخلّلها من بث لإعلانات ترمي إلى إغراء مسـتهلكين تغمرهـم الطمأنينة. لقد استعد المرء اسـتعداداً تاماً لخوض الحرب ولـم يبق سوى معرفة هوية ذلك الذي سـيعلن بأعلى صوته بأنه سيشـارك فيها مشـاركة فعلية، وذلك الذي سيسـهم فيها بلا جدية، وذلك الذي سيشـارك فيها بأقل ما لديه مقتفياً خطى الألمان الذين أقلعوا، أو يُفترض بهم أن يكونوا قد أقلعوا عن الشـروع في الحروب، بفعل الدروس التي اسـتقوها من تجارب الماضي.

ومـا هي صفة ذاك الذي تُشـن عليه هذه الحـرب التي يُزعم بأن المراد منها هو التهديد ليس إلا؟ وفقاً لما يُقال: تُشن هذه الحرب ضد دكتاتـور مُرَوِّع. إلا أن واقع الحال يشـهد على أن صدام حسـين كان في يوم الأيام، شـأنه في ذلك شـأن دكتاتوريين آخرين، رفيق سـلاح بالنسـبة للقـوة الديمقراطية العظمـى. فنيابة عن الغرب، وبالأسـلحة

الفتاكة التي زوّده بها الغرب، شــن العراق حرباً دامت ثماني ســنوات ضد إيران، وذلك لأن مقاليد السلطة في هذا البلد المجاور للدكتاتور كانت بيد دكتاتور آخر كان يُعتبر آنذاك العدو رقم واحد.

إلا أن صــدام حســين أضحــى الآن يمتلك، بحســب ما يضيف المرء قائلاً ـ وهو قول لم يقم عليه الدليل ـ أسلحة الدمار الشامل. إن هذا هو ما يقوله الغرب. من ناحية أخرى، ثمة وعد يؤكد أن الانتصار على الدكتاتور ونظامه سـيفضي إلى نظـام ديمقراطي في العراق. إلا أن واقع الحال يشـهد على أن البلدان المجـاورة للدكتاتور – العربية السـعودية والكويـت –، وهمـا بلـدان حليفـان للغـرب ويشـكلان القاعدة التي سـينطلق منها الهجوم، يُحكمـان حكماً دكتاتورياً أيضاً. مـن هنا، هل سـيكون هذان البلدان الهدف القادم لحرب تنشـد نشـر الديمقراطية؟

إننــي علــى بيّنة مــن أن هــذه الأسـئلة لا طائل تحتها: فغطرسـة الدولـة العظمى تعطي الجواب على كل الأسـئلة. ومع هذا، فإن كل إنســان يدرك أو يتكهن بــأن الأمر يدور حول البتــرول. أو بتعبير أكثر دقة: إن الأمر يدور من جديد حول البترول. فقناع النفاق الذي تَسْـتُر به القوة العظمى مصالحها قد تداعى مع الزمن بطريقة كشفت حقيقة النية السـلطوية؛ فهـذه أماطت اللثام عن وجههـا دونما خجل وبتكبّر صـار يشـكل تهديـداً للجميع. ويترجـم الرئيـس الحالـي للولايات المتحدة الأمريكية هذا التهديد إلى واقع عملي.

علـى صعيد آخر فإنـي أجهل ما إذا كانت الأمـم المتحدة قادرة علـى الصمود بوجـه ما لدى الولايـات المتحدة الأمريكيـة من إرادة تتسـم بالقوة والتصميم. وتوحي لي تجاربي السـابقة أن هذه الحرب سـتتبعها حروب أخرى يحرّكها الدافع نفسه. هذا وكلّي أمل أن يقدم

المواطنون والحكومة في وطنـي البرهان على أننا، نحن الألمان، قد أخذنا درسـاً بليغاً من الحروب التي تسبّبنا بها وأننا لهذا السبب نقول صراحة: لا لهذا الجنون المتواصل المسمى: الحرب.

«فماذا سأفعل إذا ما زارتني في المنام

أطياف القتلى وقد خيّم عليها الضيق والكآبة،

صفراء شاحبة، تنزف دماً،

وراحت تبكي بين يدي، ماذا؟».

هذا هو السـؤال الذي يطرحه المقطع الثاني من قصيدة ماتياس كلاوديوس المسـماة «نشـيد الحرب». وهو سـؤال لم نرد عليه حتى الآن رداً شافياً ونحن نستدعي حروبنا «وقتلاها». ولا ريب في أن تلك الحرب القصيّة، وشـيكة الاندلاع، لـن تكون آخر حرب في التاريخ؛ فالحروب لن تتوقف أبداً وسنبقى إلى آخر الدهر نكرّر ونعيد:

«وا أسفاه، وا أسَفاه إنها الحرب – وأنا لا أودّ

أن أحمل وزرها!».

# ظلم الأقوى

**بيان بشأن الحرب على العراق**
**أيار / مايو 2003**

وأخيراً اندلعت فعلاً تلك الحرب التي تمناها البعض وخطّطوا لها منذ زمن طويل، وضاع سدى كل ما أعلنته الأمم المتحدة من نداءات وتحذيرات. لقد صدر الأمر إلى آلة عسكرية هائلة الجبروت بشن هجوم وقائي منافٍ للقانون الدولي جملة وتفصيلاً، ولم تجدِ الاعتراضات سوى آذان صماء. فالتصويت في مجلس الأمن الدولي قُوبل باحتقار وسخرية باعتباره عديم الجدوى. وهكذا، وبدءاً من العشرين من آذار/ مارس من عام 2003 لم يعد يسري إلا قانون الأقوى. وبحكم هذا القانون الظالم صار الأقوى يمتلك في هذه الحرب السلطة لشراء المتطوّعين ومكافأتهم واحتقار العازفين عن المشاركة فيها، بل ومعاقبتهم أيضاً. إن مقولة الرئيس الأميركي بأن «مَنْ لا يكون معنا فهو علينا» تخيّم على كل ما يحدث الآن كما لو كانت صدى آتياً من العصور الهمجية. لا غرو إذن أن تتشابه المفردات التي يردّدها المعتدي مع مفردات الخطاب الذي يردّده عدوه. لقد دفعت الأصولية الدينية كلا الطرفين إلى انتهاك حرمة الدين، وجعلت من الله، خالق الكل، أَسيراً للفهم المتعصب. وضُربت عرض الحائط حتى النداءات الحارة لبابا الفاتيكان ـ الرجل الذي يعلم حق العلم

عظمـة الخراب الدائم الذي خلّفته وراءهـا عقلية الحروب الصليبية. إننا نشـهد، مذهوليـن، فاقدين الوعي، وبغضب عـارم أيضاً، الانهيار الأخلاقي الناشـر ظلالـه على القوة الوحيدة المتبقيـة في العالم. كما تسـيطر علينا هواجس توحي لنا بأن لهذا الجنون المنظّم عاقبة لا مفر منها: المزيد من الإرهاب والمزيد من العنف والعنف المضاد.

ولكن، أهذه هي الولايـات المتحدة الأميركية التي نحتفظ لها، نحـن الألمان، بذكرى حميدة لأسـباب عديدة؟ أهذا هـو البلد الذي أغدق بسـخاء على مشـروع مارشـال لإعادة تعمير ألمانيا؟ أهذه هي الولايـات المتحدة الأميركيـة التي كانت، على مدى سـنوات كثيرة، المعلّم الذي أرشـدنا إلـى الديمقراطية بأناة وصبـر. أهذه هي أميركا التـي لم تتورع عن توجيه النقد الشـجاع لذاتها؟ أهـذا هو البلد الذي تمكّن من التغلّب على حقبة الاستعمار وشرّع لنفسه دستوراً نموذجياً بفضل ما اسـتوعبه مـن حركة التنوير الأوروبية؟ أهـذا هو البلد الذي كانت فيه حرية الكلمة حقاً ثابتاً من حقوق الإنسان؟

إننـا لسـنا الوحيديـن الذيـن لمسـوا عن كثـب كيف بُهِـت، مع مـرور الزمن، بريق تلك الصـورة التي تجلّت بهـا الولايات المتحدة الأميركيـة فـي ماضي السـنين فغـدت أمنيـة بدّدتها الوقائـع وصورة تعكـس التشـوّهات التي طـرأت على الولايـات المتحـدة الأميركية ذاتهـا. إن قطاعاً واسـعاً مـن المواطنين الأميركييـن المحبين بلادهم ينتابهم أيضاً السـخط حين يرون انهيار قيـم وطنهم وانفلات عجرفة حكومتهـم وعربدتهـا. وتربطني بعـدد من هـؤلاء الأميركيين أواصر قربـى. إلـى جانبهم، ينتابني شـعور بأنني من أشـد مناصـري أميركا. ومعهـم أحتـج على الظلم الوحشـي الذي يمارسـه الأقويـاء، وعلى تقليـص حريـة التعبير عن الـرأي وعلى انتهاج سياسـة إعلامية تدرج

على ممارستها الدول ذات الأنظمة الشمولية. إني أضم صوتي إلى صوتهم لإدانة هذه العقلية الخبيثة التي تغض الطرف عن قتل الآلاف من النساء والأطفال مقابل الحفاظ على مصالح اقتصادية وسياسية دنيئة.

كَلا، ليست المواقف المتحفّظة حيال السياسة الأمريكية هي التي تسيء إلى سمعة هذا البلد، ولا قدرة لا للدكتاتور صدام حسين ولا لبلاده، التي نُزع عنها معظم أسلحتها، على تهديد أعظم قوى المعمورة أو الإساءة إلى سمعة الولايات المتحدة الأميركية، إنه الرئيس بوش وإدارته، إن هؤلاء هم الذين يعملون على انهيار القيم الديمقراطية ويلحقون الضرر ببلادهم ويتجاهلون الأمم المتحدة ويرعبون العالم بحرب منافية للقانون الدولي.

ونحن، الألمان، كثيراً ما طُرح علينا السؤال عما إذا كنّا نشعر بالفخر ببلادنا. وإذا كنّا في سابق الزمن نشعر بحرج من الجواب على هذا السؤال، فإني أقولها اليوم بكل صراحة بأني أشعر ببعض الفخر وذلك لأن أغلبية المواطنين الألمان أدانت هذه الحرب الوقائية وأعلنت عن غضبها منها. فنحن الألمان قد استوعبنا دروس التاريخ بعد حربين عالميتين، حربين كنّا مسؤولين عن اندلاعهما ونتائجهما المريعة. استوعبنا الدرس جيداً، وهو أمر لم يكن بالسهل قط.

منذ عام 1990 وجمهورية ألمانيا الاتحادية تتمتّع بكامل السيادة. وحين تحلّت الحكومة الألمانية بالشجاعة وعارضت أقوى حلفائها، فإنها اتخذت ولأول مرة قراراً ينبع من محض إرادتها، قراراً يعكس سيادتها على ترابها الوطني. وبقرارها هذا كانت الحكومة الألمانية قد صانت الألمان من خطر الانتكاس إلى سلوك القاصرين. إنني أتوجّه بالشكر إلى المستشار غيرهارد شرودر ووزير خارجيته يوشكا

فيشر على صلابتهما. لقد حافظا على مصداقيتهما بالرغم من كل العداوات والافتراءات.

وربما شعر البعض بالإحباط الآن. وهناك أسباب لهذا الإحباط. بيد أن معارضتنا الحرب، ودعمنا السلام، لن يضيعا هباءً. فما هي حقيقة ما حدث حتى الآن؟ إن حقيقة الأمر هي أن الحجر الذي قلبناه إلى أعلى الجبل تدحرج إلى الوادي ثانية. لا بد إذن أن ندفع به إلى الأعلى مرة أخرى، حتى وإن انتابتنا الهواجس بأنه سيعاود الهبوط إلى السفح بمجرد بلوغه القمة. بهذا المعنى، فإن هذا الرفض وهذا الاعتراض المستديمين، هما أقل ما يستطيع بنو البشر فعله، ذلك أضعف الإيمان.

# مؤلّف ومترجم

**كلمة ثناء بحق لاسلو دارفازي وهاينرش آيستيرير**
**حزيران ايونيو 2004**

إنكم تعرفونه. فالصورة التي حفرها ديرر (Dürer) على لوح من نحاس خلّدت ذكراه: أعني ذكرى القدّيس هيرونيموس (Hieronymus) في المخدع. فهو يجلس ومعه أدوات الكتابة، مقوّس الظَهّر، منكباً، على الكتب. إنه وليّ المترجمين كافة. وقد نقل في نهاية القرن الرابع كُتب العهدين القديم والجديد من الإغريقية والعبرية إلى اللاتينية. على صعيد آخر، فإن العلماء المسلمين واليهود، هم الذين تولوا، في طليطلة، ترجمة مؤلفات أرسطو وأُقليدُس إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أي إبّان الحكم العربي في الأندلس. من ناحية أخرى، فإن لغتنا الألمانية الطيعة للتأليف الأدبي كانت قد نشأت بفضل الجهود التي بذلها ذلك المترجم الذي أرشدنا إلى المذهب البروتستانتي أيضاً: فلغة الإنجيل الألمانية هي ألمانية لوثر.

تُرى ما هي الحالة التي كنّا سنؤول إليها لو لم يكن هناك المترجمون؟ فلولاهم لما أحيط الواحد منا علماً بأفكار الآخرين. لولاهم لبقينا الآن أغبياء نجلس على كومة معارفنا التافهة. لو لا

جهـود المترجمين لـكان حديث غوته عـن الأدب العالمي كلاماً بلا محتـوى. ولتعرّضنا إلى بلبلة لغوية شـبيهة بالبلبلـة التي تعرّضت لها بابل ولغدونا، بالتالي، نجترّ تاريخنا فقط.

إنـي أعزّ المترجميـن وأتعامل معهم معاملـة الصديق للصديق. فهـم أكثـر قرائي إمعاناً في ما أكتب. إنهـم يضعون أيديهم على حيلي ويدركـون بواطـن مراوغاتي. وقبل فتـرة وجيزة من الزمـن كنتُ في مـكان مخصّـص للمترجميـن يقـع بالقرب مـن الحـدود الهولندية. وأكـبّ العديـد مـن المترجميـن علـى ترجمـة نـص مـن نصوصـي القصيـرة نسـبياً. وكان أحد الأسـئلة يـدور حول كيفيـة ترجمة عبارة «Brausepulver» (المسـحوق الغـازي)؟ ولـم ينطـوِ الأمر على أية معضلة بالنسبة للمترجمة الفنلندية ولا بالنسبة للمترجِم الجيورجي. إلا أن الأمـر ليس كذلك بالنسـبة للمترجم الصينـي؛ ففي لغته الأم لا يوجـد مصطلح مـرادف لمصطلح «المسـحوق الغـازي». ولـم نقف عند هذا السؤال فقط، بل ناقشنا موضوعات أخرى كثيرة وأسهبنا في الحديث عن جزئياتها.

ومنذ منتصف السـبعينيات وأنا مواظب على الالتقاء بمترجمي مؤلفاتي. وكنتُ قد أرغمت الدار التي تنشـر مؤلفاتي ـ وقتذاك كانت هذه الدار هي مؤسسـة لوخترهاند (Luchterhand) – على الرضوخ لعقـد يملي عليها أن تموّل لقاءً يجمع بين المؤلّف والمترجمين على مـدى أسـبوع واحـد. وكان الموضوع قـد دار حينذاك حـول روايتي «سمكة موسى» (Der Butt). وهكذا صار اللقاء أمراً يتجدّد من كتاب إلى آخر منذ ذلك الزمن وحتى الآن. وفي سياق هذه اللقاءات اطلعت علـى ما لـدى المترجميـن من حميـة وضمائر حيّة وعلـى تواضعهم المفـرط فـي أغلب الأحيـان. فما هـي الطريقـة المثلـى للتعامل مع

الفقرات المكتوبة باللغة العامية؟ أضف إلى هذا أن الحِكَم والأمثال لا يمكن ترجمتها حرفا بحرف. وهكذا قادتنا هذه المعضلات إلى ما هو أعم وأشمل، إلى السؤال عما إذا كان على المترجم أن يترجم بنحو حرفي أم أن عليه أن ينقل المعنى الذي ينطوي عليه النص.

ولا أشطّ أبداً إذا قلت بأن الجدل حول الأسلوب المناسب للترجمة قد تخلل كل الأزمنة. أليس المترجم إلا ببغاء، بل ماهو سوى مستعبد مأسور بأساليب المؤلف؟ أم أنه يترجم بأسلوب أدبي مميّز له؟ وربما أعطانا وليّ المترجمين، أعني القدّيس هيرونيموس، عبرة مهمة حين قال بالحرف الواحد: «إني لا أعتقد فقط، بل أقرّ جهاراً أيضاً، بأني لم أترجم كلمةً كلمةً، بل ترجمت المغزى المقصود منها».

إن هذا التصريح خير جسر للانتقال إلى الحديث عن السيدين اللذين يجري تكريمهما في هذا اليوم.

لقد كتب لاسلو دارفازي رواية تتسم بالواقعية وإن كانت من صنع خياله، كتب رواية مشحونة بالصور والعبارات المجازية، ومتميّزة بمتانة لغتها وقوة مفرداتها، أعني روايته الموسومة «أسطورة المشعوذين سافكي الدموع» (Die Legende von Tränengauklern)؛ وبلغة لا تقل متانة ترجم هاينرش آيستيرير هذه الرواية - المنطوية على صور عظيمة الدلالات من حيث استدعاؤها عصراً انفرط ظاهرياً لكنه ما زال قائماً معنوياً - إلى اللغة الألمانية ترجمة اهتمت بالمغزى في المقام الأول كما لو كان ولي المترجمين، القديس هيرونيموس، قد أخذ بيد مترجمها ووقف إلى جانبه عوناً وسنداً.

ومع أن هذه الرواية تعود بنا إلى القرنين السادس عشر والسابع

عشـر، إلا أنها تعكس أيضاً حقبة المآسـي التي خلّفتها حروب القرن العشـرين. وما خلا الموت الحاصد الأرواح بـلا انقطاع، ليس هناك شخص رئيسي تدور حوله حوادث الرواية. إن كل ما في الأمر هو أن السـكان في المجر المجزّأة إلى ثلاثة أقسام كانوا يتألّفون من الحكّام الأتراك والهابسبورغ ومن المجريين والتتار الثائرين واليهود والغجر المظلوميـن. وتدور حوادث الرواية في المنطقة الواقعة بين فالاخاي (Walachei) ومولدافيا (Moldawien)، وعلى ضفاف نهري تهايس (Theiß) والدانـوب، بيـن بلغـراد وبودا (Buda) وزجيـد (Szeged) وترانسـيلافنيا (Siebenbürgen) والبندقيـة. ففـي هـذه المـدن كافة يشـاهد المـرء المشـعوذين الذين يتظاهرون بسـفك الدمـوع، الذين يسـفكون من عيونهم دماً وعسـلاً وشـظايا زجـاج وأحجاراً سـوداء ودموعـاً متجمـدة كالثلـج. وكيفمـا اتفق، إن هـذه الروايـة لا يمكن تلخيصهـا على نحو وافٍ؛ إنها جديرة بأن تُقـرأ من أولها إلى آخرها. ولا يسعني هنا إلا أن أهنّئ لاسلو دارفازي وهاينرش آيستيرير، الأول على تأليفه هذه الرواية القيّمة والثاني على روعة ترجمته إيّاها.

# حرية بحسب مواصفات البورصة

**أيار / مايو 2005**

ستون عاماً مضت منذ أن أعلنت الإمبراطورية الألمانية استسلامها – وستون عاماً مضت، أيضاً، على حياة أرهقها العمل فصارت ترنو ببصرها إلى التقاعد. هذا هو عمر الحوادث التي تكاد الذاكرة أن تنسى الكثير من تفاصيلها الآن. ومهما كانت الحال، ففي خضم الفوضى التي صاحبت انسحاب القوات الألمانية من جبهات القتال أُصبتُ في منطقة اللاوزيتس (Lausitz) بجروح حتّمت عليَّ قبل ستين عاماً أن أقيم في المستشفى العسكري الكائن في مدينة مارين باد (Marien Bad) وذلك لتضميد جرح في الفخذ اليمنى كان قد التأم بعد وقت قصير وللشفاء من شظية صغيرة صغر حبة الفول كانت قد استقرت في كتفي اليسرى. وكانت القوات الأميركية والوحدات السوفياتية قد احتلت، على التوالي، مدينة مارين باد والمدينة المجاورة لها، أعني مدينة كارلز باد (Karlsbad)، قبل وصولي إلى مارين باد بأيام قليلة. وقد عشت الثامن من أيار/ مايو في هذه المدينة وأنا شاب يافع لا يزيد عمري على سبعة عشر عاماً. وكان الغباء قد أخذ مني كل مأخذ فواظبت على الاعتقاد بأننا سنحارب الى تحقيق النصر. بهذا المعنى فإن الأَجَلَ ما كان حُمَّ لي

ساعة تحرير البلاد من الحكم النازي، بل كان قد ساورني شعور خفي بأنني قد هُزمت في خضم الاندحار المريع. إن الناجين من الإبادة الجماعية التي مارسها النازيون في معسكرات الاعتقال هم، في أفضل الأحوال، أولئك الذين كان بمستطاعهم الشعور بالتحرير، وتبقى هذه الحقيقة قائمة حتى وإن أخذنا بالاعتبار أن هؤلاء الأفراد كانوا في حالة مزرية لا جدوى فيها للحرية.

وهكذا، فحين تحيّي الخطب البليغة من عام الى آخر ذكرى الثامن من أيار/ مايو مشيدة به بكونه يوم التحرير، فما ذلك إلا باعتبار أنها تجسد اعترافاً بالجريمة النكراء في وقت لاحق، لاسيما أننا، نحن الألمان، لم نبذل إلا القليل لتحرير أنفسنا بأنفسنا. وخيم على الحياة اليومية في السنوات الأولى من الزمن الذي أعقب الحرب الزمهرير والمجاعة والأوضاع المزرية التي عاشها المدنيون والمُهجّرون والنازحون من ديارهم المدمرة بالكامل. وما كان بالمستطاع تدبير شؤون اثني عشر مليون ألماني قدموا من بروسيا الشرقية والغربية ومن بومرن وشليزين والزوديتنلاند إما فارين أو مهجرين إلى مناطق الاحتلال الأربعة [المكونة ألمانيا الغربية] إلا من خلال حشرهم في مساكن تكتظ بساكنيها. وإذا ما طرح البعض - كل بحسب انتمائه الحزبي - السؤال عن الأمر الذي يحق لنا، نحن الألمان، الافتخار به، فإن أول ما يخطر على البال هو بلا شك الأداء العظيم الذي أبداه الألمان في التغلب على هذه المحنة. وما إن بدأت الحياة تتسم بشيء من مقومات الحرية، حتى تسارعت مظاهر الإكراه طافية على السطح: مظاهر إكراه لعبت دوراً في الحيلولة دون أن تواصل جموع النازحين والمهجرين العيش في معسكرات دائمة. فمن خلال مظاهر الإكراه هذه حال المرء دون تزايد مشاعر الكراهية [ضد المنتصرين، المترجم] ودون تبلور مشاعر أخذ الثأر [منهم، المترجم]؛ فهذه

المشاعر كان يمكن أن يجري توارثها في ظل الحياة الدائمة في معسكرات اللاجئين - كما يشهد على ذلك الزمن المعاصر- وكان من الممكن جداً أن تؤدي إلى الإرهاب والإرهاب المضاد.

بهذا المعنى فإن أداء ألمانيا في المجال الذي نحن في صدد الحديث عنه كان أداءً متميّزاً حقاً وحقيقة. فإقامة النازحين والمهجّرين في أماكن تحددها لهم الجهات الرسمية تحققت في أغلب الأحيان رغم مشاعر العداء التي كان السكان المحليون يكنونها للغرباء [من أبناء جلدتهم، المترجم]. فالحقيقة القائلة بأن الألمان جميعاً وليس أولئك السكان فقط الذين أصبحوا مشرّدين من جراء الخراب الذي حل بمدنهم قد أصبحوا الآن مشرّدين أمر لم يحظ بالقبول العام إلا رويداً وعلى نحو متردد. وتأسيساً على هذا العداء لا مندوحة لنا من القول أن ما نلحظه في ألمانيا في اليوم الراهن من سلوك شديد العداء للأجانب إنما هو سلوك مارسه بعض الألمان ضد بعضهم في وقت مبكر.

على صعيد آخر ظهر في ذلك الوقت المبكر خطباء يشيدون بالتحرير ويمجّدونه. وكان هؤلاء الخطباء يظهرون أمام الملأ منفردين أو مجموعة متكاتفة. ولأن عدد أولئك الذين راحوا يوجهون الآخرين ويقودونهم بصفة كونهم ديمقراطيين معادين للتوجهات الفاشية كان قد فاق كل التوقعات، لذا كان من حق المرء أن يسأل: إذا كان الأمر على هذه الحال فعلاً، كيف نجح هتلر إذن في التغلب على هذا العدد الهائل من المعادين للفاشية وأن يستحوذ على السلطة كل هذه الفترة الطويلة؟ ومهما كانت الحال، فقد تبرّأ الكثيرون من ماضيهم فحصلوا على شهادات حسن السلوك بعجالة فظهروا بمظهر قوم لا تشوب صفحتهم شائبة. من ناحية أخرى،

راحت الأبـواق المتقنة تزييف الحقائق تختلق المصطلحات الزائفة. فالاستسـلام بـلا قيـد أو شـرط [للشـروط التـي أملاهـا المنتصرون علـى ألمانيـا، المترجم] تحول بين ليلة وضحاهـا إلى «انهيار» [نظام الحكم النازي، المترجـم]. ومع أن الكثير من مناحي المجتمع، بدءاً بالاقتصـاد ومـروراً بالقضـاء وانتهـاءاً بالمـدارس والجامعـات التي فتحـت أبوابهـا بعد قليل مـن انتهاء الحرب، والسـلك الدبلوماسـي الذي باشـر عمله في وقت لاحق وما سوى هذا وذاك من مرافق عامة كثيرة، قد ظلت بأيدي نازيين قدماء واصلوا لعب أدوارهم في الحياة العامـة وارتقاءهم في المناصب السياسـية، فإن هـذا كله لم يمنع من الإعـلان عن أن ألمانيا قـد بدأت عهداً جديـداً، أي أنها قد بدأت من سـاعة الصفر. وما زالت الخطب والبيانات الدارجة إلى اليوم الراهن تقتـرف تزييفاً مفضوحاً للحقائـق، فهذه الخطـب وانبيانات ما زالت تصـم الجرائـم التي ارتكبهـا أفراد ألمان بأنها ليسـت سـوى «جرائم ارتَكبها البعض باسـم الشـعب الألمانـي». من ناحية أخرى، تَجَسَّـد التقسـيمُ الذي مني بـه، في وقت لاحـق، الجزء المتبقي مـن ألمانيا، من خلال المفردات التي شـاعت في كل جزء: ففي المنطقة المحتلة من قبل القوات السـوفياتية أمسـى الجيش الأحمر فقط هو القوة التي حـررت ألمانيـا من الاسـتبداد والإرهـاب النازيين؛ أما فـي المناطق الأخـرى، أعنـي المناطق الواقعـة تحت قبضة الاحتـلال الغربي فإن تحريـر أوروبا برمتها لا ألمانيا فقـط من حكم النازيين وطغيانهم إنما يعود فضله إلى الأميركيين والبريطانيين والفرنسيين فقط.

وكما هو متوقع، فحينما اندلعت الحرب الباردة بعد مضي فترة وجيـزة علـى انتهاء الحرب العالميـة الثانية، انضمت منـذ عام 1949 كل واحـدة مـن الدولتيـن الألمانيتين إلى هذا المعسـكر أو ذاك باذلة أقصـى مـا لديها من جهـد لكي تثبت للقـوة العظمـى المهيمنة عليها

بأنهـا تلميذ نجيب يعوّل عليه دائماً وأبداً. ولعل من مفارقات التاريخ أن يسحب الاتحاد السوفياتي بعد أربعين عاماً من التاريخ المذكور الأرض من تحت أقدام حكام ألمانيا الشرقية وذلك لأن هؤلاء كانوا قد أصبحوا عبئاً عليه في زمن سياسة الشفافية (Glasnost) التي بشّر بها غورباتشوف. على صعيد آخر، فإن ألمانيا الغربية كانت في أغلب الأحيان أداة طيّعة في يد الأميركيين وكانت قد حرّرت نفسها من الخضوع للأميركيين في أول مرة حين اتخذت الحكومة الائتلافية المكوّنة من الحزب الاشتراكي وحزب الخضر قراراً يعكس تمسّكها بالحرية التي أهداها الحلفاء الى ألمانيا قبل ستين عاماً وراحوا يعلنون عن رفضهم إرسال جنود ألمان للمشاركة في شن الحرب على العراق.

وكان عنوان إحدى الخطب التي ألقيتها في أكاديمية الفنون التابعة لبرلين في الثامن من أيار/ مايو من عام 1985 هو «الحرية المهداة» (Geschenkte Freiheit). وكانت ألمانيا في ذلك الحين ما زالت بلاداً مقسّمة الأوصال. من هنا فإني كنت قد عقدت مقارنة بين شطري البلاد، قارنت حاجة كل شطر إلى تأكيد ذاته ورسم حدوده الوطنية، وتناولت مناحي التباين في تبعية كل شطر، واستعرضت الاختلافات القائمة بينهما بناءً على الفلسفة المادية التي تسيطر على النظريات السائدة فيهما، ورسمت صورة أيضاً لفزع كل واحد من الشطرين من إعادة وحدة البلاد وتطلعه إلى تحقيق هذه الوحدة في الوقت ذاته، علماً بأن «الحرية المهداة» كانت من نصيب الشطر الغربي من ألمانيا فقط، فالشطر الشرقي خرج خالي الوفاض من هذه الحرية.

وبعد عشرين عاماً، وتأسيساً على الوضع الناشئ عن انضمام الشطر الشرقي إلى الشطر الغربي، لا بد للمرء من أن يسأل عما آلت

إليه هذه الهدية. فهل تصرفنا بعناية وحكمة بالحرية التي حصلنا عليها من دون أن نبذل، نحن أنفسنا، جهداً يذكر؟ هل اتخذ الألمان الغربيون التدابير الضرورية للتعويض العادل عن الأعباء الجسام التي تحمّلها الألمان الشرقيون حين تحمّل هؤلاء القسط الأوفر من أعباء الحرب التي أشعل فتيلها الألمان جميعاً؟ وبصفة كونها الضمانة الأكيد للحرية، هل تتوفر ديمقراطيتنا البرلمانية، على المقوّمات الضرورية لحل مشكلات القرن الحادي والعشرين؟

وبعد مضي خمسة عشر عاماً على المصادقة على اتفاقية الوحدة بانَ بجلاء وعلى نحو لا يمكن التستر عليه أو تزويقه أن الوحدة الألمانية قد فشلت قياساً بالخطوط العريضة التي كنّا نتمناها لها والأموال التي أنفقت عليها؛ قد فشلت منذ البداية. فالحسابات المهتمة بالأمور الثانوية أعاقت حكومة تلك الحقبة من الوفاء بشرط مثبت دستورياً، أعني تلك المادة الدستورية التي تفرض تشريع دستور جديد يحظى بموافقة مواطني الشطرين الألمانيين. من هنا لا عجب أن يعتقد مواطنو ألمانيا الشرقية بأنهم أمسوا مواطنين من الدرجة الثانية في ألمانيا الموحّدة. وفيما كانت ملكية المصانع وشركات الطاقة والصحف ودور النشر العمود الفقري «لثروة الشعب» في الدولة التي اختفت من الوجود، صارت هذه الملكية، بعد إعادة توحيد ألمانيا، في عهدة شركة الأمانة على ممتلكات الدولة (Die Treuhandanstalt)، هذه الشركة التي جرّدت الشعب من ثروته وباعتها، من بعد، بثمن بخس وبأساليب إجرامية في بعض الأحيان. أضف إلى هذا أن معدل البطالة قد بلغ هناك ضعف المعدّل السائد في الشطر الغربي. من ناحية أخرى، فإن غرور الألمان الغربيين بأنفسهم دفعهم إلى عدم احترام ما أنجزه الألمان الشرقيون. وإذا جرى تعميم المارك الغربي على الشطر الشرقي بحجة مفادها أن هذه

الوحدة النقدية هي الأسلوب الناجع للحيلولة دون هجرة مواطني ألمانيا الشرقية إلى الشطر الألماني الغربي، فإن واقع الحال يشهد على أن مناطق وجهات عديدة وقرى ومدناً كثيرة قد أخليت من سكانها. وبعد انتهاء شركة الأمانة على ممتلكات الدولة من تفكيك القطاع الإنتاجي في الشطر الشرقي رفضت الصناعة والمصارف في ألمانيا الغربية تمويل الاستثمارات الضرورية وخلق فرص العمل في القطاع الشرقي، وراحت تتحدث بلا انقطاع ومن غير كلل أو ملل عن رداءة المقوّمات الضرورية لاستيطان الصناعة في ألمانيا، وذلك لتبرير نقلها أموالها إلى خارج البلاد. وعلى خلفية كل هذه التطورات لسنا بحاجة إلى التأكيد على أنه لا قيمة هاهنا للخطب الرنانة. فهذا الوضع المزري لا يمكن إصلاحه إلا من خلال السلطة التشريعية، من خلال مجلس البرلمان. وإذا كانت الحال على ما نقول، لا بدّ، والحالة هذه، من السؤال عن مدى صلاحية الديمقراطية البرلمانية لاتخاذ القرار الرشيد.

وأيّاً كانت الحال، فإني أعتقد بأن نوابنا في البرلمان لم يعودوا أحراراً في ما يتخذون من قرارات. وحين أقول بأنهم لم يعودوا أحراراً فإني لا أقصد ـ تلقائياً ـ التزام كل واحد منهم بالخط الحزبي العام وبالقرارات التي تتخذها في البرلمان الكتلة الحزبية المعنية. فهذا أمر قد تكون له مبرراته. إني أقصد هاهنا جماعات اللوبي المدافعة عن مختلف المصالح الخاصة وما تمارسه هذه الجماعات من تقليص لحرية النواب المنتخبين بصورة شرعية ومن ضغوط عليهم. لا بل تمارس هذه الجماعات ما هو أكثر من الضغط، لقد صارت تجبر النواب على السماح لها، أعني السماح لجماعات اللوبي، في الإسهام بصياغة القوانين. وغني عن البيان أن الهدايا الصغيرة والكبيرة عامل مساعد على ترويض البرلمانيين. فالتصرفات الجنائية يُنظر إليها على

أنها مخالَفة تدخل في عداد الجنح البسيطة التي يرتكبها حتى الشرفاء من بني البشر. وهكذا، لم يعد هناك مَنْ يستنكر الرشوة وتطورها إلى نظام متقن.

بهذا المعنى، لا يتخذ البرلمان قراراته على نحو مستقل وبمحض الحرية، فهو يخضع للضغوط التي تمارسها عليه اتحادات الصناعيين والمصارف والشركات العملاقة، أي يخضع لضغوط مؤسسات لا رقابة ديمقراطية عليها. وبخضوعها هذا جعلت السلطات التشريعية من نفسها أضحوكة بين الناس. فالمجلس النيابي تحوّل إلى فرع من فروع البورصة. وعلى هذا النحو أمست الديمقراطية خاضعة لما يمليه عليها رأس المال المتنقل عالمياً. من هنا لا عجب أن يزداد باطراد عدد المواطنين الغاضبين والمتقززين والمحبطين في نهاية المطاف من جراء هذه الأساليب المستنكرة والمفضوحة، وأن ينفروا من الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات اعتقاداً منهم بأن حقهم في انتخاب ممثليهم في البرلمان صار مهزلة ما بعدها مهزلة. إن المطلوب الآن هو القرار الديمقراطي الضروري لتشييد جدار صلب يحمي المجلس البرلماني من الاستسلام لضغوط اللوبي. ولكن، هل ما زال لدى ممثلينا في البرلمان الحرية الكافية لاتخاذ قرار يذهب إلى آخر مدى في فرض مستلزمات النظام الديمقراطي؟

إن هذا كله يدفعنا إلى أن نسأل: ما هو الوضع الذي آلت إليه الحرية التي أُهديت إلينا قبل ستين عاماً؟ هل أصبح نفع هذه الحرية يتجسّد في الأرباح المتحققة في بورصة الأسهم والسندات فقط؟ إن دستورنا لا يصون الحقوق المدنية في المقام الأول، لقد ذهب هباءً بأبخس الأثمان، وتحوّل إلى أداة طيعة تلبي، بالدرجة الأولى، متطلبات ما يسمى «اقتصاد السوق الحرة». وغني عن البيان أن

«اقتصاد السوق الحرة» قد أمسى مصطلحاً مضلّلاً يخفي وراءه ما تنتهج المصارف واتحادات الصناعيين والأطراف المضاربة في أسواق المال من سلوكيات أنانية لا تعير أي اهتمام للصالح العام. فنحن أمسينا جميعاً شهود عيان على هدر رؤوس أموال عظيمة على مستوى العالم كله، أمسينا شهود عيان على ما يقوم به البعض من استحواذ على الشركات بالتراضي أو بلا تراض، شهوداً على الدمار العظيم الذي تتعرّض له فرص العمل في اللحظة التي تعلن فيها الشركات أنها تنوي تنفيذ مناهج ترمي إلى تطوير عملية الإنتاج؛ فهذا الإعلان يتبعه تسريح آلاف من العاملين والمستخدمين باعتبار أن عمليات التسريح هذه هي الضمانة الأكيدة لزيادة أسعار أسهم الشركات، أمسينا شهود عيان على أن البعض قد صار يرى في عمليات التسريح هذه ثمناً لا بد من دفعه «للحياة في ظل الحرية».

وصارت النتائج التي تتمخّض عن هذا التطوّر المتنكّر خلف مصطلح العولمة بيّنة للعيان بكل وضوح وجلاء، فالبيانات الإحصائية تشير إليها بكل دقة. فعلى خلفية معدل البطالة العظيم والمستقر منذ سنوات كثيرة، وبناءً على عزوف الشركات عن خلق فرص للعمل، في الصناعات التصديرية على وجه الخصوص – هذه الصناعات التي تحقق معدلات ربحية عظيمة ـ لم يبق أمل للوصول إلى حالة الاستخدام الشامل للأيدي العاملة. أضف إلى هذا أن العاملين المتقدّمين في السن يُحالون على المعاش في وقت مبكر وإن كانوا ما زالوا قادرين على مواصلة العمل. من ناحية أخرى، فإن العديد من الشبّان لا يحصلون على الفرصة المناسبة لتعلم المهنة التي ينشدونها. والرزية الأعظم هي أن ألمانيا – البلد الذي ما زال يتمتع بثراء عظيم – تتقبل عن رضا نموَّ وضع مخجل، أعني «افتقارها إلى الأطفال»، تتقبل عن رضا نموَّ هذا الوضع المخجل على رغم

تعالي العويل حول خطر تعرض المجتمع إلى الشيخوخة وعلى رغم المطالبات المستمرة بضرورة تقديم المزيد للشبان والعمل على رفع المستويات التعليمية.

في اليوم الراهن ما برح أصحاب الشأن يستسلمون إلى كل هذه السلبيات كما لو كانت قضاءً كتبه رب العالمين؛ فهؤلاء ليس لديهم، في أفضل الحالات، سوى الإعراب عن تبرّمهم وإعلان استيائهم من هذه السلبيات. وإذا ما سأل المرء عن الجهة المسؤولة، فإن هذا السؤال يجري إرجاؤه إلى الأزمنة القادمة. وهكذا يظل بلا حلّ ناجع مستقبل ما يقرب من مليون طفل مكتوب عليهم الترعرع في أحضان أُسَر يخيم عليها الفقر. والطامة الكبرى هي أن المرء الذي يشير إلى هذا الوضع المحزن وإلى خطر أن يتعرّض عدد أكبر من المواطنين إلى هاوية التهميش الاجتماعي، يسخر منه شبّان الصحفيين ويتهمونه، في أفضل الحالات، بأنه «رومانسي اجتماعي» ويشنّعون عليه عادة بأنه «إنسان ساذج، حسن النيّة». ويشيحون بوجوههم عن السؤال عن أسباب اتساع الهوة بين الفقر والغنى زاعمين بأن الحديث عن هذا الموضوع ينم عن حسد بيّن ومفضوح. وهكذا لم يعد مصطلح «التكافل الاجتماعي» سوى مادة من مواد «قاموس المفردات الغريبة».

نعم لقد انقسم المجتمع على نفسه؛ فهنا قادة المصارف والشركات، وهناك الفقراء الذين يسدّون رمقهم بالعصيدة البائسة. هنا العظماء الذين يحصلون على أعلى الدخول، وهناك المهمّشون اجتماعياً والمُدرجون في البيانات الإحصائية بلا اسم وبلا هوية. وعلى رغم كل ما يقال من مديح وإطراء بشأن المجتمع المدني، فقد أخذ يتبلور ثانية في ألمانيا ذلك المجتمع الطبقي الذي اعتقد

البعض أنه صار في ذمة التاريخ. والأمر الذي لم يعد مجرد تكهن، بل صار واقعاً قائماً، هو أن الظاهرة التي يزوّقها البعض بشعار الليبرالية المحدثة تتجلى، عند إمعان النظر فيها، بأنها ليست سوى عودة للأساليب، البشعة، غير الإنسانية، التي جرى تطبيقها في المرحلة المبكرة من تاريخ الرأسمالية. وعلى الصعيد نفسه، انحطّ نظام السوق القائم على التكافل الاجتماعي – هذا النظام الاقتصادي الذي ضمن لألمانيا في حينه تحقيق التقدم الاقتصادي والتكافل الاجتماعي – إلى نظام اقتصاد السوق الحرة، أي انحطّ إلى ذلك النظام الذي يجعل من السعي لتحقيق الأرباح عملاً قدسياً ويتذمّر من المادة الدستورية المؤكدة على أن للمِكية الخاصة مهمة اجتماعية أيضاً.

وحين أهدانا المرء – نحن الذين خسرنا الحرب وما كنّا نعرف آنذاك الحالة التي سنؤول إليها – الحرية قبل ستين عاماً، شرع الألمان يطبّقون هذه الحرية رويداً رويداً. فهم تعلّموا الديمقراطية وأقاموا الدليل – كما هو معهود عنهم وبصفتهم ألمانا لا يغيرون شيئاً من طبيعتهم أبداً – على أنهم النموذج الأصيل للتلامذة المطيعين. ومن منظار اليوم الحاضر، وبناءً على العبر والدروس التي تعلّموها، لا مراء في أن بوسع المرء أن يقيّم أداء الألمان في مسائل الحياة الديمقراطية بدرجةِ مقبول. فنحن تعلّمنا ممارسة الحكم تارة والمعارضة تارة أخرى، ولاحظنا أن بقاء مقاليد الحكم زمناً طويلاً في عهدة الشخص نفسه، يؤدي غالباً إلى جمود وتحجّر. من ناحية أخرى، فإن جيل عام 68، هذا الجيل الذي أطراه البعض بآيات المديح وشنّع عليه البعض الآخر بمختلف التهم، كان قد علّم الآخرين أولاً، ونفسه لاحقاً، أهمية التسامح في الحياة الاجتماعية. فقد أدركنا أن ما يثقل كاهلنا لا يمكن لنا أن نغض الطرف عنه ونتناساه، فهذا العبء يخلّفه الآباء لأبنائهم، أي أن الماضي الألماني سيظل يواجهنا حيث ذهبنا

وإلى أي مستوى بلغت عظمة تقدّمنا الاقتصادي وأدائنا في مجال الصادرات الصناعية. وقد أساء النازيون الجدد إلى سمعتنا في كثير من المرات. ومع هذا كله، يمكن للمرء أن يعتقد بأن الديمقراطية صارت تقوم على أساس متين في ألمانيا. فالديمقراطية صمدت أمام ثلاثة تحديات؛ أما التحدي الرابع فإنها لم تواجهه بعد.

فبعد أن تخلّصت الدولتان الألمانيتان من أنقاض الحرب، بدأ إعمار الشطر الشرقي وفق النظام الستاليني التعسفي؛ أما في الشطر الغربي فإنه تم في ظل ظروف أفضل بكثير. من ناحية أخرى، فإن ما صار يسمّى لاحقاً «المعجزة الاقتصادية»، لم يتحقّق، في واقع الحال، بفضل جهود فردية، بل كان نتاج تكاتف المواطنين. فالمهجّرون واللاجئون شاركوا أيضاً في إعمار البلاد؛ وتبقى هذه الحقيقة قائمة وإن كان قد توجّب عليهم أن يبدأوا من الصفر قدر تعلّق الأمر بملكيتهم من الثروة المادية. ولا يجوز للمرء هاهنا أن ينسى الإسهام الكبير الذي قدّمه العمال الأجانب الذين أطلق المرء عليهم مصطلح «العمال الضيوف» مجاملة. على صعيد آخر، دأب أصحاب المشاريع إبّان الحقبة المبكرة من إعمار البلاد على استثمار كل مارك يربحونه في خلق فرص عمل جديدة. وعلى ما يبدو كانت النقابات العمالية والمشاريع على وعي تام بالانهيار الذي عصف بجمهورية فايمار[1]، وبالتالي فقد سعى كل طرف منهما للتوصل إلى

(1) جمهورية فايمار هي أول جمهورية ديمقراطية ألمانية قامت عقب انهيار الحكم القيصري بعد اندحار ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. وامتد عمر هذه الجمهورية من عام 1919 إلى عام 1932. وكانت برلين هي عاصمة هذه الجمهورية. وجاءت تسميتها «جمهورية فايمار» من اسم المدينة الألمانية «فايمار»، التي انعقد فيها البرلمان الوطني الذي شرع لألمانيا دستوراً ديمقراطياً جديداً. وانهارت هذه الجمهورية عقب تسلم هتلر زمام الحكم في ألمانيا عام 1932، المترجم.

حل وسط مع الطرف الآخر في المسائل الخاصة بتوزيع الدخول. وعلى خلفية جهود إعادة إعمار البلاد والسعي لتحقيق أكبر ربح ممكن كاد النسيان أن يسدل ستاره على أحداث الزمن الماضي.

وفي الستينيات جرى السؤال أول مرة عن ذلك الموضوع الذي ما كان جيل الحرب يريد التحدث عنه قط. وكان الأدباء هم أول من تكلم عن حواداث ذلك الزمن. وجاءت من بعدهم تلك الحركة التي صار المرء يطلق عليها، بشيء من التبسيط، «الثورة الطلابية». وإذا كانت حركة التمرّد هذه قد أعلنت الثورة في خطاباتها، إلا أنها ارتضت في نهاية المطاف بالإصلاحات، وخلقت الأجواء الضرورية لهذه الإصلاحات من دون قصد منها. فلولا هذه الحركة الطلابية لكنّا نعاني حتى يومنا الراهن من نتن حقبة حكم أدناور، ولولا هذه الحركة الطلابية لما كان بالمستطاع انتهاج السياسة الألمانية الجديدة التي تحققت على يد الحكومة الائتلافية المكونة من الحزبين الاشتراكي والليبرالي، فهذه السياسة هي التي جعلت بالمستطاع السير خطوة فخطوة على درب التقارب بين الدولتين الألمانيتين.

وطفا التحدي الثالث على السطح حين انهار جدار برلين وتلاشى على نحو كبير انقسام أوروبا سياسياً على أدنى تقدير. فعلى مدى أربعين عاماً كانت الدولتان الألمانيتان في حالة عداء وليس في حالة تعايش سلمي. ولأن الطرف الغربي ما كان مهيّأ لمعاملة الطرف الشرقي معاملة الند للند، تحققت الوحدة من خلال وثيقة تم الاتفاق على محتوياتها بعجلة كبيرة ومن غير إدراك للنتائج التي ستتمخض عن هذه العجلة.

ومن ذلك الحين، يتّصف الوضع بالركود في البلد الذي أمسى أكبر مساحة. فلم تفلح، لا حكومة كول ولا حكومة شرودر في

تلافـي الأخطـاء التي ارتُكبـت لأول وهلة. ولاحظنا مـن بعد، وربما بعد فوات الأوان، أن المتطرّفين اليمينيين ليسـوا هم الذين يشـكلون خطـراً علـى الدولة - ناهيك عـن أن يكونوا الخطـر الأول كما يزعم أولئـك الذيـن يريدون إقناعنا بضـرورة إصدار قـرار يحظر على هذه الجماعات ممارسة العمل السياسي -، بل، وفي المقام الأول، العجز الذي انتاب السياسة؛ فالسياسة خلقت لدى المواطنين الشعور بأنهم صـاروا يخضعون - بلا حـامٍ يحميهم - لما يمليـه عليهم الاقتصاد. فالشـركات العملاقـة تبتز العمّال والمسـتخدمين على نحـو متزايد. فليس المجلس البرلماني، بل شـركات العقاقيـر الطبية والاتحادات التابعـة لها، أعني اتحادات الأطباء والصيادلة، هي التي أمسـت تقرّر صفـة الجهات التي ينبغي لإصلاح النظام الصحي أن يدرّ النفع عليها وأن يزيـد من أرباحها. وهكذا، وبدلاً منِ أن تكون المِلكية في خدمة المجتمـع أيضاً، [كما هو مقرر دسـتورياً، المترجم]، اكتسـب تعظيم الربـح الخـاص قيمـة جوهرية فـي حيـاة المجتمع. من هنـا، لا غرو أن يخضـع البرلمانيـون المنتخبـون من الشـعب للضغـوط الداخلية والعالميـة التـي يمارسـها رأس المـال عليهـم. وإذا عجـزت هـذه التطـورات فعلاً عن التسـبّب فـي انهيار الدولة وذلـك لأن هذه تقوم على أسـس متينة، فإنها، أعني هذه التطـوّرات، قادرة بكل تأكيد على تقويض أركان الديمقراطية.

وحيـن استسـلمت الإمبراطورية النازية قبل سـتين عاماً بلا قيد أو شـرط، فإن هذا الاستسـلام كان قد جسّـد في واقع الحال القضاء على نظام استبدادي قام على الإرهاب، نظام وإن كان قد نشر الرعب فـي أوروبا على مدى اثني عشـر عاماً فقط، إلا أنه مـا زال حتى اليوم الحاضر ينشـر ظلاله. واعترفنا، نحـن الألمان، المرة تلو المرة بالعار الـذي لحـق بنا؛ وإذا كنّا قد ترددنا في الاعتـراف بهذه الحقيقة الحين

بعـد الحيـن، فإن الحوداث كانـت تجبرنا على الاعتـراف بما ارتكبنا مـن آثـام. فلعـدة أجيـال ظلـت ماثلة أمامنـا ذكرى مـا اقترفنـاه بحق أنفسـنا وبحـق الآخريـن من مصائـب جسـام وأعمال مروّعـة. وفي كثيـر من الأحيان ما كنـا نعترف بآثامنا طواعية، بـل بحكم الضرورة. وخلافـاً لتلـك الشـعوب التـي اقترفـت آثامـاً لا تقل عن الآثـام التي اقترفناها،انمـا كانـت من طبيعة أخـرى لا غير - أعنـي اليابان وتركيا والبلدان الاستعمارية - لم ننكر، نحن الألمان، ويلات ماضينا. فهذه الويلات، باعتبارها تحدياً مسـتديماً، سـتظل دوماً جزءاً من تاريخنا. هـذا وكلنـا أمـل أن نكـون قادريـن علـى مواجهـة خطـر التوجهات الشمولية الجديدة الناجمة عن الإيديولوجية التي أمست تهيمن على العالم أجمع بصفتها الإيديولوجية الوحيدة التي تبقّت على المسـرح العالمي.

وبصفة كوننا أناسـاً يؤمنـون بالديمقراطية، علينـا أن نقاوم بكل إرادة هيمنـة رأس المـال. فهـذا لا يرى في بني البشـر سـوى عناصر منتجة وأفواه مسـتهلكة. وبهذا المعنى، فـإن مَنْ يرى في الحرية التي أسبغت علينا مجرد حق في التمتع بالأرباح التي تدرّها أسواق المال، لـم يـدرك بعدُ مغزى ما يلقننـا الثامنُ من أيار/ مايـو من عبر ودروس العام تلو العام.

# العُقْدة في ماسورة المسدّس

**لمناسبة إزاحة الستار عن التمثال الذي نحته**
**كارل فريدريك رويترزفيرد**
**آب/أغسطس 2005**

لا تخلو أية حقبة من حقب التاريخ من فنانين رسموا صوراً رمزية تعطي جواباً على الأزمات والأماني السائدة في عصرهم. وتنطبق هذه الحقيقة على ألبرشت دورير[1] (Albrecht Dürrer) وما حفر على النحاس، في عصر النهضة الأوروبية، من رسم أطلق عليه اسم «Melencolia I» (كآبة رقم 1). كما تنطبق هذه الحقيقة على الرسم الذي خلّفه لنا في عصر الأنوار فرانسيسكو دي غويا[2] (Francisco de Goya) تحت عنوان «حلم العقلانية يولد غولاً».

ففي الصورة الصغيرة تجلس العقلانية بهيئة امرأة وضعت

---

(1) ألبرشت دورير (1471-1528): رسام ونحات يعتبر في طليعة أساتذة المدرسة الألمانية. وقد حررها من التقيد بالقرون الوسطى. ولد واشتغل في نورمبرغ. رسم بالزيت والماء وحفر في الخشب والمعدن. جمع بين الواقعية الفلامنية والمثالية الإيطالية. من لوحاته الشهيرة: «الرسل» و«آدم وحواء» وفي الحفر: «آلام المسيح»، المترجم.

(2) فرانسيسكو دي غويا (1746-1828): رسام إسباني. شجب في آثاره الحرب والتعصّب، المترجم.

رأسها على طاولة صغيرة ونامت ملء عينيها. ويحوم من فوق المرأة طائر أسطوري مجسّداً، بهيئة عفريت، حلماً مرعباً غشي المرأة في منامها. وغني عن البيان أن هذا الرسم ينطوي على معاني عديدة ويطرح أسئلة ما زالت إلى يومنا الحاضر مدار نقاش: ففي الأصل، أهي العقلانية التي عششت في رأسها العفاريت؟ أم أن العفاريت هي التي تعرض العقلانية للخطر، وذلك لأن هذه أسلمت نفسها للنوم؟

وكذلك الحال مع التمثال الذي نحته الفنان كارل فريدريك رويترزفيرد (Carl Frederick Reuterswärd)؛ فهذا التمثال يعبّر عن أزماتنا وآمالنا الحاضرة بمعاني كثيرة؛ وتظل هذه الحقيقة قائمة وإن بدا للمرء أن بوسعه أن يحيط علماً بهذه المعاني من النظرة الأولى.

إن «العُقْدة في ماسورة المسدّس» تمثال يبدو لأول وهلة عملاً واضح المعاني فعلاً. فبحركة بسيطة يلوي الساحر المتفنن ماسورة السلاح الذي كان يشكّل خطراً قاتلاً منذ لحظات ويجعل منه آلة مضحكة، منافية للمنطق.

ويا ليت الأمر كان بهذه البساطة. إن هذا هو ما سيقوله المتشائم. فلو كان الأمر على هذا النحو فعلاً لوجدنا العالم في حالة أخرى، وعمّ السلام والوئام المعمورة أجمع. ففي الواقع - يعلّمنا المتشائم قائلاً - ما زالت ماسورة المسدس عظيمة الدقة في التصويب، ما زالت مسدّدة إلى كل واحد لا يملك مسدّساً أو يملك مسدّساً ملوي الماسورة. من هنا، فإن الأعزل من السلاح، أو صاحب الماسورة الملوية، لا خيار له غير أن يقتني من تاجر الأسلحة، بأسرع ما يكون، مسدّساً مستقيم الماسورة، مسدّساً دقيقاً في إصابة الهدف.

وعلى خلفية هذه الأمور، أليس التمثال الذي يُزاح عنه الستار هذا اليوم سوى حلم؟ ليس سوى أمل غامض طواه الفنان بين حنايا

فـؤاده؟ ليـس سـوى أمل أتخـذ هيئـة ملموسـة فغـدا الآن، أعني من هـذا المكان الواقع قبالة مكتب المستشـار الألمانـي، يثير الإعجاب والاستحسـان من ناحيـة، ولكن التصفيق الخبيث مـن ناحية أخرى، التصفيـق الـذي يمنّ بـه عليه، على سـبيل المثـال لا الحصـر، لوبي منتجي السـلاح المتنقلين بين البرلمان ومقر الحكومة بتوءدة معهودة والمرتدين ملابس الرجال المستقيمين؟

وعلينا أن نتوقّع ظهور تفسيرات مغلوطة ونكات صحفية لا تعد ولا تحصى. ومن اليسـير علينا أن نسـتبق التعليقات التي سـتجود بها أقلام سـليطة، أعني التعليْقات التي سـتقولِ على سبيل المثال: تمثال ينم عن طوية سـليمة، ولكن... مسـدّس يصعب على رجال الشـرطة اسـتعماله... سـلاح يناسـب الأناس الخيرين... وما شـابه ذلك من الحماقات.

ونتوقّـع أن تكـون هناك اقتراحات أخرى، اقتـراح من قبيل: في هيئـة مصغّرة يمكن أن يكون هذا المسـدّس الملوي الماسـورة هدية مناسبة للرئيس الأميركي الحالي، فهو، وبصفته راعي بقر (كاو بوي)، شديد الولع بتقمّص دور الرامبو في حربه ضد قوى الشر.

وعلى الرغم من التعليقات المسـتهزئة كافة أود أن أؤكد لكارل فريدريـك رويترزفيرد، الفنان الذي أنتج هذا الرمز المناهض للعنف: أن هذا هو المكان المناسـب للمسـدّس الملوي الماسورة. فهنا، في برليـن وقبالة مكتب المستشـار الألماني، هنا، بالقـرب من المجلس النيابـي، هنـا، حيـث لعبارة نعـم ولا وزن كبيـر، هنا تُتخـذ القرارات الكثيرة ليس بشـأن متطلبات الحياة اليومية فحسب، بل وبنحو مباشر وغير مباشـر بشأن الحرب والسلم أيضاً؛ من هنا فإني لا أعرف مكاناً أفضل من هذا المكان لعرض هذا التمثال.

في المائة عام المنصرمة تسبّبت ألمانيا في اندلاع حربين عالميتين خلّفتا آثاراً ما زالت ملموسة حتى يومنا الحاضر. ولقد أخذ مواطنو بلادي وممثلوهم في البرلمان العبر والدروس من حوادث الماضي. ولهذا السبب أيضاً تصرّفت الحكومة الألمانية الراهنة بمسؤولية كبيرة حين قالت لا للحرب الدائرة الآن على العراق. وعلى الرغم من الضغوط العظيمة ظلت هذه الحكومة تمتنع عن المشاركة في هذه الحرب؛ ظلت تأبى الاشتراك فيها ولم تستجب لمحاولات الحكومة الأمريكية الرامية كسب الحلفاء، كسب أكبر عدد ممكن من الراغبين في المشاركة بهذه الحرب وذلك لإظهار عظمة قوتها العسكرية في هذه الحرب المنافية للقانون الدولي والمُسَوَغة بالأكاذيب والأباطيل المفضوحة.

إن رفض ألمانيا المشاركة في هذه الحرب تأسيساً على ويلات الماضي يتجسّد على نحو رائع من خلال العقدة الموجودة في ماسورة المسدّس. إننا نسمع في كل يوم أخبار النتائج المفزعة التي خلفها القرار السياسي الخائب، نسمع أخبار الإرهاب والإرهاب المضاد في هذه الحرب التي لا نهاية لها. من هنا، لا بدّ من مواصلة الترفع ومن شد العقدة في ماسورة المسدّس على نحو أقوى.

وينبغي لهذا التمثال أن يظل، في المستقبل أيضاً، موعظة عظيمة الدلالات لنا وللحاكمين كافة فليس اليوم الراهنُ فقط، بل المستقبلُ أيضاً ينطوي على تحديات مشابهة. فعدد الأزمات في تزايد مستمر والاستعداد لمعرفة أسباب هذه الأزمات في تلاش متواصل. من ناحية أخرى، فإن القوة العسكرية غير قادرة على حل هذه الأزمات، لا بل هي، أعني القوة العسكرية، تزيد من عدد الأزمات وتدفع إلى تداخل بعضها بالبعض الآخر، كما تشهد على ذلك الدروس التي

أسـبغها علينا التعامل مع الإرهـاب. إننا بأمس الحاجة إلى العقلانية. إن المسدّس ذا الماسورة المعقودة سيكون، بفضل موقعه هذا، شاهداً دائمـاً على أهمية العقلانية وعبرة عظيمـة المغزى لكل من ينظر إليه. فالتمثـال الذي يزاح عنه السـتار في هذا اليوم سـيظل ينشـر ظلاله لا على المستقبل فقط، بل وعلى الماضي أيضاً، سواء كان الجو صحواً أو ممطراً، أشرقت الشمس أو غربت.

إن عـام 2005 عـام تـذكاري. فقبـل ستين عامـاً استسـلمت الإمبراطوريـة النازيـة مخلّفة وراءها دماراً سـاحقاً. ومن ذلك الحين تعيّـن علينا، نحن الألمان، أن نعيش متحمّلين المسـؤولية عن جرائم الحرب والإبادة الجماعية؛ توجّب علينا هذا جيلاً بعد جيل. ولم يكن هيّناً الاعتراف بهذه المسـؤولية، بيد أنه ما كان بالإمكان التملّص من هـذا الأمر، فكل مـرة قلنا فيها دعونا ننس الماضـي وتداعياته، مثلت أمـام ناظرينـا الويلات الجسـام. ولا يفوتنـي أن أقول هنا بـأن ألمانيا واحـدة من البلـدان القليلة التي اعترفت طواعية بتحمّلها المسـؤولية عن مصائب الماضي.

وعلـى مـا يبدو يمكن أن ينطوي الاندحار الشـامل على حسـنة بالنسـبة للمندحـر؛ أعني حيـن يكون لدى هـذا المندحر الاسـتعداد الدائـم لأخـذ العبـر والـدروس مـن التجربـة القاسـية التـي مـرّ بها. ولا ينطبـق هـذا الأمـر دائماً وأبـداً علـى الفائزين بالنصـر التاريخي، فالمنتصـرون يفتقرون في كثير من الأحيان إلـى هذه البصيرة. فأنا لا أفهـم قط أن لا يقـرّ حتى ولا رئيس أميركي واحد بـأن توجيه الضربة النوويـة إلى مدينتين يابانيتين وما رافق ذلك من إزهاق لأرواح مئات الآلاف مـن المدنيين قـد كان جريمة حرب. فهذا الاعتراف أمر لا بد منه لاسـيما إذا أخذنا بالاعتبار أن ذكـرى هذه الجريمة ما زالت ماثلة للعيان.

وعلى خلفية المعنى الذي ينطوي عليه المسدّس الملوي الماسورة يبقى الأمل يراودنا في أن ينهي الرئيس بوش الصمت الدائر منذ ستين عاماً ويعتذر باسم الولايات المتحدة الأميركية من أهالي الضحايا في هيروشيما وناغازاكي.

ففي السادس من آب/ أغسطس وثلاثة أيام من بعد هذا التاريخ، استعادت المدينتان، لا، استعاد العالم أجمع، ذكرى العمل الهمجي، ذكرى الجريمة الفريدة في التاريخ التي اقترفتها الولايات المتحدة الأميركية قبل ستين عاماً. ومنذ ذلك الحين أمسى إناء باندورا (Pandora) بلا غطاء[1]. منذ هذا الحين تتصاعد الآلة الحربية وآثارها المدمرة على نحو لا مثيل له في التاريخ؛ منذ ذلك الحين صارت البشرية قادرة على إبادة نفسها بنفسها، منذ ذلك الحين يتعاظم باستمرار عدد الأسلحة النووية؛ فقبل فترة وجيزة أمرت وزارة الدفاع الأميركية بتطوير قنابل نووية، سمتها خبثاً، «صغيرة».

إني أعلم جيداً أن المسدّس لا خطر منه إذا ما قُورن بما ينشأ عن الانفجار النووي. إلا أن العُقدة في ماسورة المسدّس تسري على الأسلحة كافة، أي كذلك على تلك المنظومة من السلاح التي استهدفت قبل ستين عاماً عن قصد وسبق إصرار قتل مئات الآلاف

---

(1) بحسب ما تقوله الأسطورة اليونانية كان لايبيميثيوس (Epimetheus)، شقيق بروميثيوس وزوج باندورا، إناء كبير الحجم، محكم الغطاء، لا يعلم أحد ما يحتويه. كما أن أحداً لم يقدم يوماً على فتحه إذ كان معلوماً أن فتحه ينذر الكون كله بشر مستطير. لكن الفضول كان أقوى من باندورا، فرفعت الغطاء سراً وإذا بالشرور المحبوسة في داخله تطير وتنتشر على الأرض ولم يتبق في باطنه إلا الأمل، لكن باندورا أعادت الغطاء بغتة قبل أن ينجح الأمل في الخروج. وهكذا نزلت المصائب والأتراح بالبشر وامتلأت الأرض والبحار شروراً، المترجم.

من المدنيين الأبرياء والتي ما زالت تشكل خطراً دائماً يهدد البشرية جمعاء.

لقد آن الأوان لأن يسير حكّام الامبراطورية العظمى، الامبراطورية التي رفعت الغطاء عن إناء باندورا في ماضي الزمن، في ركب السلم العالمي، فالسلام أمل كل شعوب العالم.

إن هذا كله هو ما تريد أن تقوله لنا العقدة الموجودة في ماسورة المسدس. فكما هو الحال في الصورة التي رسمها دورير باسم «كآبة» ولوحة غويا الموسومة «حلم العقلانية يلد غولاً»، فإن هذا التمثال أيضاً رمز ينادي بتدمير ما في العالم من أسلحة وصرخة تشجب الحروب.

# الكتابة في عالم مضطرب

**خطاب لمناسبة افتتاح مؤتمر نادي القلم الدولي في برلين**
**أيار / مايو 2006**

الـذي يكتـب يعلم أن الشـك في ما يعتقـد به يصدّه عـن الركون إلـى أمـل قـد يكـون مصيـره الخسـران. إن شـعار مؤتمر نـادي القلم الدولي المنعقد الآن في برلين، أعني الشـعار القائل: «الكتابة في عالم مضطـرب»، قد يوحي أو قـد يبدو وكأنه يريد القول بأن العالم قد تمتع بالسلام في بعض الأزمنة. هيهات هيهات، إن الحروب كانت موجودة دائماً وأبداً، كانت موجودة إما في محيط دائرتنا واما في العالم القاصي. وكثيـراً ما تقنّعت هذه الحروب بقناع «فرض السـلام» أو بقناع «تطبيع الأوضـاع». إنها كانت تفرز الموت في كل الأحوال. من ناحية أخرى، كانت هنـاك الملاحم المتغنية بالأبطال والروايـات الواقعية المتحدثة عن حروب قبائل الغال أو ما سوى ذلك من حروب. وفي يومنا الراهن، تُسَلّينا شاشاتُ التلفاز وقاعاتُ السينما بأفلام تحتوي على درجة عالية من الخدع والتشـويق وتستقي موضوعاتها من حوادث حربية لا نهاية لها أبداً: تستقي موضوعاتها من أعمال بطولية لا تُعدّ ولا تُحصى.

إن أوروبـا، القـارة التي كانـت القوة المحرّكـة للحروب خلال

قـرون الزمـن الماضيـة، تمتّعـت حقاً بالسـلم والاسـتقرار في بعض الفترات، إلا أنها تمتّعت بهذا الوضع في داخل أراضيها فقط؛ فأوروبا ظلـت، طوال هذه القرون، تشـن الغـزوات والحروب الاسـتعمارية على المسـتوى العالمي لتجرّب قوتهـا أو لتحقق مصالح هذه الدولة أو تلـك مـن دولها التي كان بعضها في صـراع دائم مع البعض الآخر في الحالات العامة. ولن نشطّ إذا قلنا بأن الوضع كان أدهى من هذا: فخـلال حقب السـلام خدمـت الاختراعات بنجاح عظيـم الحروب والحـروب الحديثة في المقـام الأول، وإن فكّـر مخترعوها بأهداف سـلمية بحتة، أهداف سـلمية من قبيل تطويـر التكنولوجيا الضرورية لتحقيـق حلم البشـرية: التحليق فـي الجو. وكما هـو الحال منذ فجر التاريخ، كانت الأولوية للمسائل الحربية في المقام الأول.

لقد سـادت الحرب دائماً. وحتى معاهدات السلام ذاتها كانت تخفي بين سـطورها، بحسن نية أو عن قصد خبيث، النواة التي تتولّد منها حـروب قادمة. ولعل الاتفاقيات المبرمة في مونسـتر وفرسـاي أمثلـة دقيقـة علـى مـا نقـول. أضـف إلـى هـذا كلـه أن التحضيرات الضروريـة لشـن الحـروب لـم تعتمد ومـا زالـت غير معتمـدة على المعـدّات الحربية فقط، فهذه المعدّات سـريعة البلى. فهناك وسـيلة قديمة عظيمة الفاعلية، وسيلة تمثّلت، منذ عصر الإنجيل إلى العولمة السائدة في عصرنا الراهن، في إخضاع الشعوب وجعلها تابعة. وكان فلي براند قد سـمّى هذه الوسـيلة باسـمها في الخطاب الذي ألقاه في الأمم المتحدة. فقد قال قبل ما يزيد على ثلاثة عقود من السـنين، أي في حقبة الحرب الباردة: «الجوع أيضاً حرب». ولكون نسب الوفيات والبيانـات الإحصائية الخاصة بالجوع تدعم وجهة النظر هذه وتؤكد مصداقيتها، فإن الذي يسيطر اليوم على سوق الغذاء ويتحكم بندرة أو

وفرة الغذاء من خلال الأسعار، ليس بحاجة إلى شنّ حرب بالمعنى المتعارف عليه.

ولكن، كيف يمكن التعامل مع الكتابة في عالم مضطرب؟ إن الأدباء، أعني مدبّجي القوافي وصنّاع النثر ومَنْ سواهم من أصحاب الملكات الأدبية، إن كل هؤلاء الرجال والنساء، من طروادة إلى بغداد، كانوا ولا يزالون: يتأوّهون من خلال القوافي، ويروون الوقائع بموضوعية، كانوا ولا يزالون: هنا يطرون السلام، وهناك ينشدون البطولات. إن المقولة البالية: «حينما تكون الكلمة للأسلحة تصمت الفنون» من السهل تكذيبها.

وعلى الصعيد نفسه: إن الألمان، الذين كانوا يفتقرون الى المستعمرات في ما وراء البحار، دخلوا على مدى زمن طويل في أتون حرب دينية اتخذت شكل الحروب الأهلية وحاولوا توريط جيرانهم الأوروبيين في المذابح التي سادت في هذه الحرب. وفي تلك الحقبة من الزمن كان هناك شاعر لم يعره الألمان اهتماما ما، لا سيما أنه كان ما زال في مقتبل العمر ولم يخطُ بعد خطوات كبيرة على درب النبوغ الشعري، أعني أندرياس غريفيوس. وأياً كان الأمر، فقد وصلتنا قصيدة كان غريفيوس قد كتبها عام 1636، أي وهو لم يتجاوز بعد العشرين من العمر، قصيدة قال فيها:

**«دموع الوطن**
**نحن جميعاً/ عمّنا الآن الدمار**
**فجموع الشعوب الهائجة/ والأبواق المتنمّرة**
**والسيوف التي تقطر منها الدماء/ والمدافع المزمجرة**
**التهمت كل ما تحقق بعرق الجبين/ وأتت على كل الرصيد المخزون.**
**وتحوّلت الأبراج إلى نيران متوهّجة/ والكنائس إلى خرائب.**

**ومبنى البلدية تحول إلى أنقاض/ والأقوياء اختفوا من الوجود**
**والعذراء أُهينت/ وحيثما نرن ببصرنا**
**لا نشاهد سوى حمّى وطاعون وموت يقضي على الجسد والفكر.**
**وهنا، في الحصون وفي المدينة تسيل الدماء بلا انقطاع.**
**ثمانية عشر عاماً والدماء تسيل كالتيار الجارف**
**ومن كثرة الجثث صارت المياه لا تتحرك في الأنهار إلا شُحّاً.**
**إلا أني أصمت عن الحديث عمّا هو أفظع من هول الموت.**
**أصمت عن الحديث عمّا هو أفظع من الطاعون والنيران والجوع**
**أصمت عن كنز الروح الذي ضيّعه الكثيرون».**

وكتب مارتين أوبيتس، الشاعر الذي لقّن الشباب فنّ التعامل مع الإيقاع الشعري، قصيدة عصماء قوية المعاني والسبك، أعني قصيدته المسماة «قصيدة عزاء تشجب الحرب» والتي يقول فيها:

**«ودارت الشمس العظيمة بخيولها الجميلة**
**ثلاث مرات حول الأرض**
**ومنذ أن حلّ مارس، إله الحرب، في بلدنا ألمانيا**
**انطلقت هذه الحرب الهوجاء...»**

نعم، وحتى في مدينة كونسبرغ (Königsberg)، حتى في هذه المدينة التي نجت من ويلات الدمار والخراب وذلك لأن الدولتين الجارتين، بولندا وروسيا، قد تركتا الأسلحة تصمت لحين من الزمن، لم ينس سيمون داخ أن يستنكر في إحدى قصائده الدمار الذي حلّ بمدينة ماكدبورغ:

**«أين أتركك يا ألمانيا؟ إنك صرت غنيمة للقتلة**
**الذين يجلدونك منذ ثلاثين عاماً...»**

ألا يرسم سيمون داخ، بأبياته هذه، صورة دقيقة، لما آلت إليه الحال في بلاده في القرن العشرين، في الحربين العالميتين؟

إن شعراء عصر الباروك، هؤلاء الشعراء الذين استشهدت بهم، كانوا إما يريدون البحث «في العالم المضطرب» عن عبارات واستعارات قادرة على التعبير عن الآلام الجسام التي تحملها بنو البشر، والدمار الفادح الذي حل في المدن والقرى والأرواح، وإما أنهم كانوا يتطلّعون إلى استنباط العبر والدروس. فالدنيا لم تكن بالنسبة لهم سوى وادي الأحزان، فما لا تدمّره الحرب، يقضي عليه الطاعون.

وبعد انقضاء الحوادث ومرور زمن عليها، توافرت لدى كاتب آخر، أعني هانس ياكوب غريملسهاوزن، القوة الكافية لأن يسجّل في روايتيه الموسومتين «مغامرات سيمبليسيوس» و«الدجالة كوراش» فظائع ذلك الزمن الغشوم؛ علماً بأن شخوص هاتين الروايتين لا يظهرون شهود عيان، لا بل كجزء من نسيج هذه المجازر المعتادة.

وفي الأزمنة التالية، أي بعد أن نشر السلام ظلاله لفترة قد تطول وقد تقصر، انعكست ويلات الحروب في الإنتاج الروائي أيضاً؛ فمؤلف تولستوي «الحرب والسلام» أو روايات ريمارك «لا جديد في الغرب» ورحلة سيلين «إلى نهاية الليل» أو مؤلف كلوغيه «وصف لمعركة» أو مؤلف كورت فونيغوت «المسلخ رقم 5»، إن هذه المؤلفات ليست سوى عيّنة من المؤلفات التي كتبها أدباء لم ينسوا فظائع الحرب قط، لكنهم انتظروا مرور الزمن الكافي قبل أن يبدأوا تدوين خواطرهم.

وإذا استعنّا بالمصطلحات الدارجة في لغة العسكر، فإنه يمكننا القول بأن الأدباء هم مفرقعات لا تنفجر عن مكنونها في الحال، بل بشيء من التأخير. وحتى إذا اعتبرنا أنفسنا الطليعة الأدبية، فالأمر

البيّن هو أننا لا نساير الحوادث، بل نمشي من ورائها، نمشي من ورائها متعبين، ومن تحصيل الحاصل ان نكون مرهقين، فما حدث ويحدث، ما ينشر الدمار والخراب من ورائه، لا يختفي عن ناظرينا، إنه يظل في بؤرة اهتمامنا. فما يضعه المؤرخون جانباً، يظل حدث الساعة بالنسبة لنا، يظل واقعاً حيّاً في منظارنا.

نحن الأدباء ننبش الجثث، إننا نعيش من الأمور التي يضيّعها أو ينساها الآخرون، نعيش من الحطام الصدئ الذي تخلّفه الحروب. إننا نتجوّل في ميادين القتال وأكوام الحطام التي خلفتها حروب العصور المنفرطة ونعثر فيها على أزرار الملابس العسكرية التي ارتداها ضحايا هذه الحروب والدمى الصغيرة التي كانت تسلي الأطفال الذين قضوا نحبهم في تلك الأيام الدامية. إن هذه المخلّفات تعيد إلى ذاكرتنا قصة الجنود الذين مُزقوا إرباً والأطفال الذين طُمروا تحت الأنقاض.

وحتى وإن أنعمنا النظر في حقب السلام وحاولنا تسلية أنفسنا بالنظر إلى المشاهد الطبيعية الجميلة وبالعودة إلى الطمأنينة الكامنة في أعماقنا، فإن مناظر الحرب، مع هذا، لا تختفي عن مخيّلتنا. وحتى الكتّاب الذين ولدوا بعد جيلي، والذين قيل لهم، في زمن الردع النووي الناشئ عن توازن القوى بين المعسكرين الغربي والشرقي، أن السلام قد صار مضموناً، نعم حتى هؤلاء الكتّاب، يرون، بمجرّد تصفّحهم في ألبوم صور العائلة، أن أحد الأجداد كان قد قضى نحبه في مجزرة فيدروم وأن الآخر قد قُتل في معركة الدبابات بالقرب من مدينة كورسك. وهكذا فإنهم يتذكرون تلك الوقائع، بل ويعيشون حوادثها أيضاً ولو على الورق فقط.

وحتى أولئك الكتّاب، الذين يدفعهم الوجد إلى تدبيج الكلمات،

أولئك الكتّاب الذين تظل عندهم الخيانة الزوجية القديمة قدم الدهر مادة تستحق الرواية - فالغرام والمذلة والمناجاة في الفراش والغيرة على المحبوب، إن هذه كلها تشكل مادة روائية دسمة دائماً وأبداً سواء تسبّبت إلى ارتكاب جريمة قتل أو لم تتسبّب - نعم حتى هؤلاء الكتّاب يرون أنفسهم، حين يبحثون عن الحبيبة الضائعة، يواجهون فجأة العدم الذي خلّفته هذه الحرب أو تلك، ويشعرون بأن لسانهم صار يتلعثم بالكلمات وذلك لأن والد الحبيبة المفقودة لا يكف عن الحديث عن الانتصارات التي صاحبت الحرب التي آلت إلى الاندحار الشامل. وهكذا يغدو الحب أمراً ثانوياً، يغدو أمراً ظريفاً لا غير مقارنة بالخسائر الجسام.

وهل يمكن رواية الوقائع الحربية؟ وحين يزول الخطر، ألا تقف بالمرصاد الأقصوصة الطريفة التي عاشها المرء في الحرب ناشدة من الكاتب أن يرويها؟ وما هي المشاعر التي تفرزها وقائع معركة حربية يروي قصتها كاتب نجا منها وصار مضطراً للحديث باسم الأنا ولبذل قصارى جهده لتذكر تلك الوقائع؟ وهل يمكن للوسائل الأدبية أن تعكس، ولو على نحو تقريبي، الفوضى المنظّمة التي ترافق هذه الحرب أو تلك؟ وهل يستطيع الكاتب المتحدّث عن معايشاته إعطاء الجواب عن الأسئلة التي يخلّفها له المؤرخ المتخصص؟ وماذا وقع في الزمن الذي تخللته المعارك الشهيرة؟ كيف كانت الحياة اليومية خلف خطوط القتال؟ ممن يخاف المرء أكثر: من العدو أو من جنود الوطن؟ ما هي المناحي التي لا تتطرق لها أبداً البيانات الإحصائية؟

حين احتضنت هامبورغ قبل عشرين عاماً المؤتمر التاسع والأربعين لنادي القلم الدولي، كان شعار المؤتمر هو «التاريخ في

مرآة الأدب الدولي». وتشرّفت، في تلك المرة أيضاً، بإلقاء الكلمة الافتتاحية. وكان عنوان كلمتي تلك هو «الكاتب كشاهد على حوادث عصره». وأشرت، خلال كلمتي تلك، إلى الإسهام الأدبي الذي شارك فيه الأدباء الذين عاصروا الحرب الأهلية في إسبانيا. فالتمرّن على سرد وقائع هذه الحرب أدبياً ترك أثره، على نحو متميّز، في المؤلفات الأدبية التي تناولت وقائع الحرب العالمية الثانية، أي وقائع الحرب التي اندلعت عقب الحرب الأهلية في إسبانيا.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أسماء بعض هؤلاء الكتّاب: فنيرودا وهيمنغواي وأرويل ومالرو وبيرنانوس وكوستلر وكيش وريغلير كانوا شهود عيان على حوادث عصرهم. وأود الاستشهاد بمقاطع من رواية غوستاف ريغلير الموسومة «Das Ohr des Malchus» ورواية جورج أورويل «Mein Katalonien». فالكاتبان كانا قد أزاحا في مؤلفاتهما الستار عن الخيانة التي اقترفها الشيوعيون بحق الجمهورية الإسبانية وعن الإرهاب الذي مارسه البوليس السري السوفياتي إبّان حكم ستالين. وسرعان ما صار الكاتبان من المغضوب عليهم في المعسكر الشيوعي، صارا من المغضوب عليهم على مدى عشرات السنين. وحين كانت مؤلفات هذين الكاتبين محور نقاشات مؤتمر نادي القلم الدولي، الذي انعقد في هامبورغ قبل عشرين عاماً، كان جدار برلين ما زال قائماً وأوروبا ما زالت مقسّمة إلى غرب وشرق بتأثير الحرب الباردة ومؤلفات هذين الكاتبين ممنوعة من التداول في المعسكر الشرقي.

ولا غرو في أن النقاش الذي تلا كلمتي تلك كان حاداً جداً. فالشواهد التاريخية التي عاصرت وقائع الحرب الأهلية الإسبانية كانت ما زالت تُحدث حرجاً عظيماً بالنسبة لبعض المنظرين، كانت

تحقق ما كان يريد تحقيقه أورويل وريغلير: إظهار الحقيقة بأي ثمن كان!

ولماذا إذن النظر إلى الوراء؟ الجواب، لأن هناك تقارباً بين شعار مؤتمرنا الراهن وبين شعار ذلك المؤتمر الذي يكاد أن يكون مؤتمراً تاريخياً، أعني المؤتمر الذي عقده نادي القلم الدولي في هامبورغ قبل عشرين عاماً. وفي الوضع المضطرب المخيّم الآن على العالم يواصل جمهور الأدباء المعاصرين الكتابة. وكانت سياسة الهيمنة ومسخرة التسلّط عنوان تلك الحقبة من الزمن، بل ما زالت سياسة الهيمنة ومسخرة التسلّط عنواناً يشهد على طبيعة اليوم الراهن. الفارق الوحيد هو أن الزمن المنفرط كان قد شهد قطبين مدجّجين بسلاح نووي فتّاك يقفان وجهاً لوجه ويديران حروبهما سواء في فيتنام أو في أفغانستان انطلاقاً من سياساتهما الإمبراطورية، أي من غير أن يحكّما ضمائرهم فيما تقترف أياديهم من أعمال وأفعال. أما في اليوم الراهن، فإن العالم صار تحت رحمة قوة عظمى واحدة، تحت رحمة قوة بحثت، بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، عن عدو جديد وعثرت عليه فعلاً في نهاية المطاف. فالإرهاب الذي اسهمت هي نفسها في رعايته - ابن لادن على سبيل المثال - صار الآن العدو الجديد الذي تريد هذه القوة العظمى دحره بقوة السلاح. إلا أن هذه الحرب، التي تطلعت اليها القوة العظمى بكل شغف والتي تتنافى مع قوانين العالم المتحضّر، لن تضع حداً للإرهاب،لا بل ستساعد على انتشاره.

وحين نقول هذا، فإننا لا نقصد الحرب على العراق فقط، هذه الحرب الدائرة منذ ثلاث سنوات. ويُطلق، تارة على نحو متعاقب وتارة في وقت واحد، على الحكّام الديكتاتوريين ألقاب كثيرة من جملتها «الخارجون على القانون». والملاحظ هو أن اعتبار هؤلاء

الدكتاتوريين أفراداً خارجين على القانون يؤدي عادة إلى تثبيت سلطان هؤلاء الدكتاتوريين في بلدانهم المهددة بضربات عسكرية تتبجح القوة العظمى بكفايتها العالية وبقوتها التدميرية العظيمة. وسواء تعلّق الأمر بإيران أو بكوريا الشمالية أو بسوريا، الأمر البيّن هو أن إطلاق عبارة محور الشر على هذه الدول يجسّد غباءً وخطراً سياسيين. لا بل تذهب القوة العظمى إلى ما هو أبعد من هذا، فهي تهدّد هذه الدول باستعدادها لاقتراف ما اقترفت في السابق من جريمة حرب، أعني استعدادها للهجوم على هذه الدول بالأسلحة النووية. ويسمع العالم هذه التهديدات ويصمت حيالها بلا حول ولا قوة. إن الامتناع عن المشاركة في مثل هذه الحروب هو غاية الأمر الذي تبديه الدول في اليوم الراهن. لقد كانت الحكومتان الفرنسية والألمانية قدوة حسنة بكل تأكيد، فهاتان الحكومتان قالتا «لا» قبل ثلاث سنوات؛ وحذت الحكومة الإسبانية من بعد حذوهما وراحت تعلن وقف مشاركتها في التصرفات الإجرامية التي تمارسها القوة العظمى، أعني الولايات المتحدة الأميركية. ومع الأكاذيب التي سوّغ المرء بها هذه الحرب وعمليات التعذيب التي يندى لها الجبين من فرط الشعور بالعار، تتصرف الحكومة البريطانية وكأنها صمّاء وتتظاهر وكأن، إحياء الروح الإمبراطورية البريطانية، إحياء السيطرة الاستعمارية صار ممكناً، لا بل لازماً. والطامة الكبرى هي أن الذي يقوم بهذه الممارسات هو حزب العمال، وليس حزبا آخر.

إن هذه التبعية والخضوع كانا محفزاً للاعتراض وإعلان الامتعاض: ففي كانون الأول/ ديسمبر من العام المنصرم نُشرت في ستوكهولم الكلمة التي ألقاها هارولد بنتر عند استلامه جائزة نوبل للأدب. ففي نصه الخالي من التزويق والتنميق تحدث الكاتب المسرحي بصفة كونه أديباً أولاً وبصفة كونه مواطناً إنجليزياً ثانياً.

وحين صارت كلمته المنطوية على الحزن والتي لم يجامل فيها أحداً في متناول الجميع - فقد كان قد أشار فيها إلى مواطن عجزنا ومحاولاتنا لتجاهل ما يحدث أمام ناظرينا -، فإنها تعرضت في بلادنا وفي الصفحة الأدبية التي تنشرها الصحيفة اليومية Frankfurter Allgemeine Zeitung على وجه التحديد إلى هجوم ظالم لا هوادة فيه ولا موضوعية. فقد حاول ناقد مسرحي اسمه شتادلماير وصم بنتر بأنه يساري يتمسك بأفكار بالية، وأن مسرحياته تتناول موضوعات أكل الدهر عليها وشرب، وراح يستهزئ بها. وهكذا استاء المرء من إزاحة النقاب عن حقائق أرادت طمسها عمليات ذرّ الرماد في العيون والأكاذيب المختلفة. حدث هذا كله، حتى وإن لم يكن الأمر أكثر من أن أديباً، أن واحداً منّا، أراد في عالم مضطرب التمتع بحقه في إبداء الرأي وإدانة ما يراه ظلماً.

واسمحوا لي أن استشهد ببضع فقرات من كلمة هارولد بنتر، فقد ورد فيها:

«عقب الحرب العالمية الثانية دعمت الولايات المتحدة الأميركية كل الدكتاتوريات العسكرية ذات التوجهات اليمينية، لا بل كانت قد قامت بما هو أفظع من هذا، ففي الكثير من الحالات كانت هي نفسها قد خلقت هذه الدكتاتوريات. وأود أن أشير هنا إلى إندونيسيا واليونان وأورغواي والبرازيل وبارجواي وهايتي وتركيا والفلبين وجواتيمالا والسلفادور، وشيلي بتحصيل الحاصل. إن الجرائم التي اقترفتها الولايات المتحدة الأميركية في شيلي عام 1973 لا يمكن نسيانها أو غفرانها أبداً.

ففي هذه البلدان بلغ عدد القتلى مئات الألوف. وربما سأل سائل: حقاً كان هناك كل هذا العدد من القتلى؟ وهل تسبّبت السياسة

الخارجية الأميركية إلى قتلهم فعلاً؟ إن الجواب على هذه الأسئلة لا يمكن أن يكون إلا: نعم، نعم لقد جرت عمليات القتل هذه، نعم لقد تسبّبت السياسة الخارجية الأميركية الى هذه العمليات. وتبقى هذه الحقيقة قائمة وإن رفضت أميركا الاعتراف بها.

بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية لم تحدث عمليات القتل هذه قط. لم تحدث ولو مرة واحدة. وحين كانت هذه العمليات جارية على قدم وساق فمن وجهة نظر الولايات المتحدة الأميركية، لم يحدث شيء منها البتة. إنها، هذه العمليات، لا تلعب أي دور. لا تهم أحداً أصلاً. فمع أن جرائم الولايات المتحدة الأميركية جرائم منظّمة، جرائم متكررة الحدوث، جرائم خبيثة، جرائم لا تعرف الرحمة، إلا أن واقع الحال يشهد على أن هذه الجرائم لم يتحدث عنها سوى عدد محدود من الأفراد. إن على المرء أن يعترف بشطارة الولايات المتحدة الأميركية. فهي قد ضلّلت، بكفاءة عالية، بني البشر على مستوى العالم أجمع وراحت تتظاهر بأنها المناضل العنيد من أجل خير العالم أجمع. لقد خَدَرَت أحاسيس البشر بأسلوب رائع وبطريقة ذكية وبنجاح فائق».

وتساءل هارولد بنتر في سياق كلمته: «وما هو عدد الأفراد الذين على المرء أن يقتلهم لكي يُدان بتهمة الإبادة الجماعية وليصبح مجرم حرب؟» إن هذا السؤال لا يجوز أن يُطرح جانباً بدعوى أنه تعبير بلاغي؛ فهو يدور حول النفاق الذي درج عليه الغرب، حول أسلوبه في حصر عدد الضحايا. فنحن نَجْرُد بدقة كبيرة عدد ضحايا الهجمات الإرهابية ـ هؤلاء الضحايا الذين كان عددهم قد بلغ مقداراً مُرَوِّعاً فعلاً ـ، إلا أنه بالمقابل لا أحد يَجْرُد عدد الجثث التي خلفتها القنابل والصواريخ التي استعملتها الولايات المتحدة الأميركية في

هجماتها المختلفة. وفي ما يتعلّق بحربي الخليج الثانية والثالثة – حرب الخليج الأولى اندلعت لأن صدام حسين كان قد هجم على إيران بمساندة الولايات المتحدة الأميركية – تشير التقديرات إلى أن عدد الضحايا كان قد بلغ مئات الألوف.

وغني عن البيان أننا نحزن على كل واحد من الألفين وأربعمائة جندي أميركي الذين خرّوا صرعى في الحرب الدائرة الآن في العراق. بيد أن هذا العدد المهول من الضحايا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يضفي لاحقاً الشرعية على هذه الحرب غير الشرعية والقذرة. كما لا يجوز لهذا العدد من الضحايا الأميركيين أن يكون مسوّغاً لقتل هذا العدد العظيم من النساء والأطفال وتمزيق جثثهم إرباً، هؤلاء القتلى الذين صار الغرب يطلق عليهم بلا خجل ولا وجل المصطلح الهمجي: «الآثار الجانبية للحرب». ووفق قيم الغرب لا يندرج الأحياء من البشر، فقط، في خانة بشر من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، بل هناك أيضاً أموات من الدرجة الأولى والثانية والدرجة الثالثة وإن كانوا جميعاً ضحايا العمليات الإرهابية المتبادلة.

لقد أشار هارولد بنتر إلى الظلم الواقع. لقد أبان بكفاءة عالية ما تستطيع «الكتابة في الزمن المضطرب» فعله. ونحن الكتّاب مطالبون بإحصاء عدد الموتى لا بأسلوب مختلف فقط، أعني أننا مطالبون لا بجرد عدد الموتى بعيداً عن التحيّز فحسب، بل مطالبون أيضاً – على خلفية مواهبنا المتميزة – بأن ننظر إلى كل واحد من القتلى، سواء كان من قتلى الأصدقاء أو من قتلى الأعداء، سواء كان امرأة أو طفلاً، باعتباره إنساناً له كيانه الخاص به، وليس واحداً من كومة قتلى لا اسم لهم، إننا مطالبون بأن نرى فيه إنساناً صرعته عملية اسمها الحرب، عملية لها أسباب كثيرة.

ومَنْ ذا الذي أراد خوض هذه الحرب؟ وما هي الأكاذيب التي

طمست الهدف منها؟ ومن يحقق الربح منها؟ وما هي الأسهم التي ستؤدي الحرب إلى ارتفاع أسعارها في البورصة؟ ومَنْ ذا الذي زود هذا الطرف أو ذاك بالأسلحة التي أودت بحياة هذا العدد العظيم من بني البشر؟ وبغض النظر عن المسائل القانونية المتعلقة بالجهة التي تتحمل مسؤولية اندلاع هذه الحرب، لا غنى لنا من أن نسأل أنفسنا: أين تبدأ مسؤوليتنا نحن أيضاً؟

هل شاركنا في تحمل هذه المسؤولية حين رفضنا هذه الحرب على نحو متردد لا ينم عن موقف جاد؟ حين استسلمنا للمزاعم القائلة بأن هذه الحرب ليست حربنا؟ حين اعتقدنا أن تحريفنا مضمون الشعار القائل: «حين يتكلم السلاح، تصمت الفنون»، يمنّ علينا بعطف أولئك الذين دأبوا دائماً وأبداً على القول إن على الشاعر أن يبتعد عن الخوض في المسائل المبتذلة السائدة في الحياة اليومية، أي ان عليه أن يبتعد عن الخوض في السياسة القذرة وأن يحافظ على طهارة الفن؟ حين نشدنا السلامة من خلال الصمت؟ إني أقول هذا عن تجربة. فقد أصبحت جندياً وأنا ابن ستة عشر عاماً. وفي السابعة عشر من العمر تعلّمت الخوف. وآمنت بتحقق النصر النهائي حتى بعد أن تحوّل كل شيء إلى أنقاض.

ومنذ ذلك الحين، وبرغم حقب السلام القصيرة، لا تفارق ذهني صور الحرب. إنها وضع لا يقل خطراً عن الهزة الأرضية. إنها الجرب الذي يخيم على البشرية على نحو دوري. إن الجرائم التي ترافقها – سواء عند الهجوم أو عند الانسحاب – لا تسقط بالتقادم. فالنجاة في هذه الحرب تتحقّق بمحض المصادفة. منذ ذلك الحين ودوي الحرب يرن في أذني. كان كل ما كتبته يدور حول الحرب ووقائعها، فإن لم تشكل الحرب ومجرياتها الموضوع الرئيس في ما كتبته، فإنها شكلت بكل تأكيد الموضوع الفرعي. إن الحرب تسخر من

اتفاقيات السلام وتهزأ بها. إن فاعلية الحرب تقارن بفاعلية الكوارث الطبيعية، إنها تتفاخر بالدمار الذي تحققه الأسلحة التي تستعملها، إنها تقدّر خسائرها من القتلى بعدد قتلى العدو. وتبرهن الحرب لنا، نحن الكتّاب، أن كلماتنا لن تحول دون اندلاع الحروب، أنها لن تحول دون اندلاعها حتى وإن كانت صائبة كل الصواب. إن الحرب ترى في نفسها حقاً من حقوق الإنسان. إلى هذه الدرجة من السمو تواصل الحرب وجودها. بيد أن هذا السمو يأخذ بالترنّح لحظة يعرّيه المرء على حقيقته ويستهزئ به. ولهذا اختار غريملسهاوزن، الزميل الأديب الذي ترعرع في ظل حرب دامت ثلاثين عاماً، لرواياته الموسومة «مغامرات سيمبليسيوس» شعاراً مفاده:

**«لقد طاب لي**
**أن أقول الحقيقة ساخراً»**

فدعاة الحروب ومؤيّدوها يثيرون السخرية فعلاً. وتبقى هذه الحقيقة قائمة ولو بدا لنا هؤلاء بمظهر جاد، رزين. وحينما تفقد أكاذيبهم القدرة على التضليل، تراهم يلجؤون إلى الله. ولا يختلف بوش عن بلير، فالاثنان مجبولان على الدجل والنفاق. إنهما أشبه ما يكون بأولئك الأساقفة والمبشرين الذين كانوا، منذ القدم، يباركون السلاح وينشرون الموت في بلدان العالم النائي باسم الإنجيل. لقد صار القوم أضحوكة حقاً وحقيقة من فرط استهزاء المرء بهم. ولذا دعونا نسخر منهم ونضحك. فربما يفلح الاستهزاء المتواصل بهم - الاستهزاء الذي يظهرهم عراة على غرار القيصر الذي جرده هناس كريستيان أندرسن من ثيابه فجعله أضحوكة للآخرين - في فضح هذا البعبع منهم أو ذاك وهروبه محمولاً على أكتاف أعوانه.

ولكن - أسمع البعض يقولون- ما هو النفع من هذا كله.

فسيقوم بعبع آخر حالاً بنشر الأكاذيب المسوّغة لحرب جديدة. إن هذه هي سنّة الحياة.

نعم كان المرء يقسم عقب كل حرب بأغلظ الأيمان: التوبة! لن نخوض حرباً أخرى أبداً. وفي نقش خشبي تفتّق عنه ذهن أستاذي أوتو بانكوك يحطم المسيح البندقية على نحو مثير للانتباه. وكان بعضنا قد عاهد البعض على أن نتعلّم من التاريخ ونأخذ العِبَر والدروس منه. على صعيد آخر، فإن قرارات الأمم المتحدة الرامية إلى نشر السلام ليست سوى قرارات مكتوبة على الورق بالنسبة للقوى الكبرى صاحبة حق الفيتو في مجلس الأمن الدولي. وأيّاً كانت الحال، لقد عرف التاريخ الكثير من النداءات المحذّرة من مغبة الحروب. كما تكوّن وتفكك العديد من حركات السلام. وكان أنصار السلام يلتفّون، تارة، حول هذه الحركات ويتفرقون من حولها تارة أخرى. وكانوا يوصمون بالسذاجة ويُدفعون إلى الاستسلام للمقادير. إن الحرب، وحدها، هي الأمر الذي ما كان يكل أو يمل. وإذا ما صادف وركنت الحرب إلى الهدوء لحين من الدهر، فما ذلك إلا لأنها كانت تريد العثور على أعداء جدد، ولأنها كانت تسعى إلى أسلحة متطوّرة يمكن بيعها في السوق الحرة: أسلحة أبعد مدى وأكثر دقة ومخصّبة باليورانيوم وتغطّي أكبر مساحة ممكنة من أرض العدو وتقتل بلا رحمة أكبر عدد ممكن من أفراده.

هكذا مضى الزمن المضطرب. ونحن، الكتّاب، كنّا حاضرين دائماً وأبداً، كنّا حاضرين إما صامتين وإما محتجّين. كنّا مواظبين على الكتابة: إما مع الحرب أو ضدها. ولما اندلعت الحرب على العراق، هذه الحرب التي ما زالت دائرة حتى يومناهذا ، والتي أرادت الولايات المتحدة الأميركية خوضها عن وعي وإصرار، والتي

أمســت، كما كان متوقعاً لها، قذرة حقاً وحقيقة، نعم لما اندلعت هذه الحــرب أعربت، أنا أيضاً، عن موقفــي حيالها على الملأ. وفي مطلع ونهاية أحد النصوص، استشــهدت بأبيات شــعرية خلّفها لنا الشــاعر الألمانــي ماتيــاس كلاوديوس[1]. فقصيدته تنطــوي على إحباط بيّن، تنطــوي على إحباط لا مفرّ لنا من الاعتراف بأنه يخيّم علينا أيضاً. بيد أنه لا يجوز أن يدفعنا هذا الإحباط إلى الصمت. فماتياس كلاوديوس لم يصمت أيضاً، بل راح يقول في قصيدته المســماة «نشــيد الحرب» والتي ما زال فحواها ساري المفعول:

**«لقــد دُقت طبول الحــرب! لقد دُقت طبول الحــرب! فقاوم يا ملاك الرحمن،**

**وتدخّل وقلْ القول الفصل!**

**وا أسفاه لقد دُقت طبول الحرب – وأنا لا أودّ**

**أن أحمل وزرها!»**

---

(1) ماتياس كلاودوس شاعر شعبي (1740–1815)، المترجم.

# LIST OF SOURCES

## Selected Essays and Speeches by Günter Grass

taken from:
Günter Grass: Essays und Reden I / 1955-1966.
Werkausgabe Band 14.


Der Inhalt als Widerstand (Mai 1957), 16-17

Über das Schreiben von Gedichten (1958), 23-23

Das Gelegenheitsgedicht oder Es ist immer noch, frei nach Picasso, verboten, mit dem Piloten zu sprechen. Vortrag auf der Arbeitstagung »Lyrik heute« in Berlin (November 1960), 26-29

Wer könnte uns das Wasser reichen? Rede auf dem V. Schriftstellerkongreß in Ostberlin (Mai 1961), 33-35

Vor- und Nachgeschichte der Tragödie des Coriolanus von Livius und Plutarch über Shakespeare bis zu Brecht und mir. Rede zum 400. Geburtstag Shakespeares in der Akademie der Künste Berlin (April 1964), 58-84

Der Stil der sechziger Jahre (April 1966), 166-168

Vom mangelnden Selbstvertrauen der schreibenden Hofnarren unter Berücksichtigung nicht vorhandener Höfe. Rede in Princeton (April 1966), 169-175

Auf losem Blatt (September 1966), 176-177

Genau hingucken. Zum Tod des Bildhauers Karl Hartung (August 1967), 291- 293

Geben Sie Gedankenfreiheit! (September 1967), 294- 296

Vietnam geht auch uns an (Januar 1968), 310-312

Eine öffentliche Diskussion. Rede auf einer Veranstaltung der Reihe »Dramatische Werkstatt«

in Berlin (Februar 1968), 313-315

Fünfzig Feuersteine (Juni 1968), 337- 337

Die Wagner-Mentalität. Rede auf einer Germanistentagung in Berlin (Oktober 1968), 361-362

Friedenspolitik in Spannungsfeldern (November 1968), 376-382

Was unterm Strich steht (Dezember 1968), 391-395

Freiheit - ein Wort wie Löffelstiel. Rede zur Woche der Brüderlichkeit in Köln (Februar 1969), 403-415

Päpste und Pröpste, Technokraten und Atheisten - ratlos in der Himmelskuppel. Rede vor der Katholischen Akademie in Bayern, München (März 1969), 416-422

Ideologischer Kreisverkehr (Juni 1969), 460-465

Unser Grundübel ist der Idealismus (August 1969), 481-483

Die Zukunft der Stückeschreiber (September 1969), 536-537

Zu »örtlich betäubt« (September 1969), 538-538

Literatur und Revolution oder des Idyllikers schnaubendes Steckenpferd. Rede auf dem Schriftstellerkongreß in Belgrad (Oktober 1969), 539 - 545

taken from:
Günter Grass: Essays und Reden II / 1970-1979.
Werkausgabe Band 15.


Über das scheintote Theater. Rede darüber, ob Schauspielbühnen eigentlich noch lebendig und Dramaturgen notwendig sind. Rede auf einer Arbeitstagung der Akademie der darstellenden Künste in Frankfurt (Juni 1970), 53-59

Politisches Tagebuch. Was nicht vom Himmel fällt (Januar 1971), 84-86

Politisches Tagebuch. In Kreuzberg fehlt ein Minarett (Januar 1971), 90-92

Vom Stillstand im Fortschritt. Variationen zu Albrecht Dürers Kupferstich »Melencolia I«. Rede zum Dürerjahr in Nürnberg (Mai 1971), 134-155

taken from:
Günter Grass: Essays und Reden III / 1980-1997.
Werkausgabe Band 16.

Mein Traum von Europa. Rede in Sevilla anläßlich der bevorstehenden Weltausstellung (April 1992), 347-358

Erbarmen mit Kuba (April 1993), 388-393

Die Fremde als andauernde Erfahrung. Rede zur Verleihung des Thomas-Mann-Preises der Stadt Lübeck (Mai 1996), 459-468

taken from:

Günter Grass: Essays und Reden IV / 1997-2007.

Werkausgabe Band 20, also published as separate volume under the title »Steine wälzen«.



Laudatio auf Yasar Kemal (Oktober 1987), 11- 22

Der lernende Lehrer. Rede auf einem Gesamtschulkongreß (Mai 1999), 40-58

Literatur und Geschichte. Rede anläßlich der Verleihung des Prinz-von-Asturien-Preises (Oktober 1999), 59-63

Fortsetzung folgt . Rede anlässlich der Verleihung des Nobelpreises (1999)*

Die Wiedervereinigung als andauernde Aufgabe. Rede anläßlich eines Symposiums über die Wiedervereinigung in Seoul (Mai 2002), 151-155

Zwischen den Kriegen (Januar 2003), 169-171

Das Unrecht des Stärkeren. Erklärung zum Irak-Krieg (März 2003), 175-177

Autor und Übersetzer. Laudatio auf László Darvasi und Heinrich Eisterer (Juni 2004), 190-191

Freiheit nach Börsenmaß (Mai 2005), 201-209

Der Knoten im Revolverlauf. Rede anläßlich der Enthüllung der gleichnamigen Plastik von Carl Frederik

Reuterswärd (August 2005), 210-213

Schreiben in friedloser Welt. Rede zur Eröffnung des Kongresses des Internationalen P.E.N. in Berlin (Mai 2006), 227-237

* With friendly permission by the Nobel Prize Committee, Stockholm 1999.



## غونتر غراس

ولد الكاتب العالمي غونتر غراس في ١٩٢٧ في مدينة دانتسيغ. أبدع غراس في الشعر والقصة القصيرة والمسرح وفن المقالة، وإن عرف بأعماله الروائية خاصة «الطبل الصفيح» التي نالت شهرة عالمية كبيرة. هي واحدة من ثلاثيته المعروفة بـ «ثلاثية دانتسيغ» وتضم أيضاً الروايتين «القط والفأر» و«سنوات الكلاب».

حصل غراس في عام ١٩٩٩ على جائزة نوبل للآداب عن دوره في إثراء الأدب العالمي.

### محمد خلوق

مترجم وباحث من المغرب، دكتوراه في علم الاجتماع والفلسفة.

### د. عدنان عباس

مترجم من العراق عمل أستاذاً للاقتصاد ونقل إلى العربية العديد من المؤلفات الألمانية المهمة منها الترجمة الشهيرة لغوته والعالم العربي للمستشرقة «كاتارينا مومزن».

### عماد غانم

مترجم وباحث من العراق يعمل في مجال الصحافة في ألمانيا.

### محمد مسعاد

شاعر، صحفي وكاتب من المغرب مقيم في ألمانيا.

## هذا الكتاب

هو عبارة عن مجموعة من الخطب والمقالات والشهادات كتبها غراس على امتداد فترة زمنية في غاية الأهمية من القرن الماضي، تمتد من أواسط عقد الخمسينيات حتى وقتنا الحاضر.

يتيح الكتاب للقارئ العربي، اكتشاف غراس، مثقفاً وكاتباً متعدد الأوجه، وواحداً من كبار مثقفي ألمانيا الذين تركوا بصماتهم واضحة في الحياة الثقافية لألمانيا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، مثقف جريء، لا يجهر برأيه في قضايا بلده فحسب بل في كل القضايا التي تلامس هموم الإنسان في كل مكان. تراه، تارة، محللاً سياسياً يستكنه مفردات المشهد السياسي وتداعياته على الإنسان الألماني، الذي كان يعيش ممزقاً بين شطرين فرّقت بينهما الإيديولوجيا، وتارة أخرى مناضلاً سياسياً منخرطاً في الفعل السياسي.

والكتاب هو أيضاً مناسبة للقارئ العربي للتعرّف عن قرب على آراء غونتر غراس ليس في شؤون ألمانيا وحدها، ولكن أيضاً في السياسة الدولية، وما نتج عنها، أحياناً كثيرة، من ظلم يسمّيه هو نفسه بـ «ظلم الأقوى».

آداب



ISBN 978-9948-15-207-1
9 789948 152071

EAST WEST PUBLISHING
شرق غرب للنشر